زهر البساتين

من

مواقف العلماء والربانيين

جمع وترتيب

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الجزء الثاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٣ درب الأتراك - الدور الثاني - خلف الجامع الأزهر

ت: ٥١٠٨٢٥٧ / ٠١٠٥٢٤٦٤٢٠

بني سويف: برج الزهي - بجوار مجمع المحاكم

ت: ٠٨٢٢٣١٧٣٤٤ / ٠١٠١٧٥٦٢٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

ربَّانيون
على الطريق
ونبع الهدي ريَّان

ربّانيون على الطريق ونبع الهدى ريّان

*** أهل اليمن أرق الناس أفئدة.. الإيمان يمان والحكمة يمانية:**

❑ لله در اليمن وأهله وقد أثنى عليهم الصادق المصدوق ﷺ.

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية...**»[1].

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوبًا، وأرق أفئدة، الفقه يمان، والحكمة يمانية**»[2].

في أطواء الظلام وأخاديد الصمت بررت جواهر كريمة في الذب عن السنة ومحاربة البدع والتقليد الجامد.

❑ في اليمن كما يقول الصنعاني:

محط رحال آمال الأماني ... ومغناطيس أفئدة الرجال

بها نلت المآرب معْ رفاقٍ ... رقوا في المجد هامات المعالي

❑ وكما يقول القائل منهم عن اتباعهم للسنة والرسول ﷺ:

تلامذة لأحمد لا سواه ... تلي أحفادنا فيه الجدودا

هو القلب الكبير به حيينا ... وأطلقنا الواهب والزنودا

❑ قال الإمام الشوكاني في «البدر الطالع» في ترجمة الإمام الكبير ابن الوزير: «إن في ديار الزيدية ـ يعني اليمن ـ من أئمة الكتاب والسنة عددًا

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

(٢) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي.

يجاوز الوصف يتقيّدون بالعمل بنصوص الأدلة، ويعتمدون على ما صح في الأمهات الحديث وما يلتحق بها من دواوين الإسلام المشتملة على سنة سيد الأنام، ولا يرفعون إلى التقليد رأسًا، لا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب اللَّه وما صحّ من سنة رسول اللَّه مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وصرف وبيان وأصول ولغة وعدم إخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية، ولو لم يكن لهم من المزية إلا التقيد بنصوص الكتاب والسنة وطرح التقليد فإن هذه خصيصة خصّ اللَّه بها أهل هذه الديار في هذه الأزمنة الأخيرة ولا توجد في غيرهم إلا نادرًا»[1] .

*** الإمام المجتهد المطلق محمد بن إبراهيم بن الوزير ودفاعه الفذّ عن السنة وأهل الحديث :**

❑ قال عنه الشوكاني: «تبحّر في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر صيته وبعد ذكره وظار علمه في الأقطار. . . وارتفعت طبقته في العلم، وهكذا ابن حجر فإنه ذكره في «أنبائه» في ترجمة أخيه الهادى لأن صاحب الترجمة إذ ذاك كان صغيرًا، فقال وله أخ يُقال له محمد مقبل على الاشتغال بالحديث شديد الميل إلى السنة بخلاف أهل بيته. انتهى، ولو لقيه الحافظ ابن حجر بعد أن تبحّر في العلوم لأطال عنان قلمه في الثناء عليه فإنه يثني على من هو دونه بمراحل، ولعلها لم تبلغ أخباره إليه، وإلاّ فابن حجر قد عاش بعد صاحب الترجمة زيادة على اثنى عشر سنة. وكذلك السخاوي لو وقف على «العواصم والقواصم» لرأى فيها ما يملأ عينيه وقلبه ولطال عنان قلمه في

(١) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للشوكاني (٢/ ٨٣).

ترجمته، ولكن لعلّه بلغه الاسم دون المسمّى»[1] .

❑ وقال الشوكاني عنه: «وبالجملة فصاحب الترجمة ممن يقصر القلم عن التعريف بحاله، وكيف يمكن شرح حال من يزاحم أئمة المذاهب الأربعة فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم، ويضايق أئمة الأشعرية والمعتزلة في مقالاتهم، ويتكلم في الحديث بكلام أئمته المعتبرين مع إحاطته بحفظ غالب المتون ومعرفة رجال الأسانيد شخصًا وحالاً وزمانًا ومكانًا وتبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية على حد يقصر عنه الوصف. ومن رام أن يعرف حاله ومقدار علمه فعليه بمطالعة مصنفاته فإنها شاهد عدل على علوّ طبقته، فإنه يسرد في المسألة الواحدة من الوجوه ما يبهر لبّ مطالعه ويعرفه بقصر باعه بالنسبة إلى علم هذا الإمام كما يفعله في «العواصم والقواصم»[2] فإنه يورد كلام شيخه السيد العلامة علي بن محمد بن أبي القاسم في رسالته التي اعترض بها عليه ثم ينسفه نسفًا بإيراد ما يزيفه به من الحجج الكثيرة التي لا يجد العالم الكبير في قوته استخراج البعض منها، وهو في أربعة مجلدات يشتمل على فوائد في أنواع من العلوم لا توجد في شيء من الكتب، ولو خرج هذا الكتاب إلى غيرَ الديار اليمنية لكان من مفاخر اليمن وأهله[3] ، ولكن أبى ذلك لهم ما جبلوا من غمط محاسن بعضهم لبعض ودفن مناقب أفاضلهم.

ومن مصنفاته «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» وهو كتاب في غاية الإفادة والإجادة على أسلوب مخترع لا يقدر على مثله إلا مثله.

ومنها كتاب «الروض الباسم» في مجلد اختصره من العواصم، وكتاب

---

(١) «البدر الطالع» (٢/ ٨٣).
(٢) وهو كتاب في الانتصار للسنة والرّد على الزيدية.
(٣) الحمد للّه أنه طُبع في مؤسسة الرسالة بعد ذلك.

«إيثار الحق على الخلق» وهو غريب الأسلوب مفيد في بابه.

وهو إذا تكلم في مسألة لا يحتاج الناظر بعده إلى النظر في غيره من أي علم كانت، وقد وقفت من مسائله التي أفردها بالتصنيف على عدد كثير تكون في مجلد، وما لم أقف عليه أكثر مما وقفت عليه، وكلامه لا يشبه كلام أهل عصره ولا كلام من بعده، بل هو من نمط كلام ابن حزم وابن تيمية، وقد يأتي في كثير من المباحث بفوائد لم يأت بها غيره كائنًا من كان، وديوان شعره مجلد وشعره غالبه في عصره، فإن له معهم قلاقل وزلازل وكانوا يثورون عليه ثورة بعد ثورة، وينظمون في الاعتراض عليه القصائد، وأفضى ذلك إلى أن اعترض عليه شيخه المتقدم ذكره برسالة مستقلة فأجابها بما تقدّم، وكان يجاوبهم ويصاولهم ويجاولهم فيقهرهم بالحجة، ولم يكن في زمنه من يقوم له لكونه في طبقة ليس فيها أحد من شيوخه فضلاً عن معارضيه، والذي يغلب على الظن أن شيوخه لو جُمِعوا جميعًا في ذات واحدة لم يبلغ علمهم إلى مقدار علمه وناهيك بهذا.

ثم بعد هذا المجمع وأقبل على العبادة وتمشيخ وتوحش في الفلوات وانقطع عن الناس ولم يبق له شغلة بغير ذلك وتأسف على ما مضى من عمره في تلك المعارك التي جرت بينه وبين معاصريه مع أنه في جميعها مشغول بالتصنيف والتدريس والذب عن السنة والرفع عن أعراض أكابر العلماء وأفاضل الأمة، والمناضلة لأهل البدع ونشر علم الحديث وسائر العلوم الشرعية في أرض لم يألف أهلها ذلك لا سيما في تلك الأيام فله أجر العلماء العاملين وأجر المجاهدين المجتهدين، ولكنه ذاق حلاوة العبادة وطعم لذة الانقطاع إلى جناب الحق فصغر في عينيه ما سوى ذلك. وقد ترجمه بعض بني الوزير في كراريس واستوفى أحواله، ولو ترجمه في مجلد لم يكن وافيًا بحقه... ومدحه غير واحد من أعيان العلماء، والحاصل أنه رجل

عرفه الأكابر وجهله الأصاغر، وليس ذلك مختصًا بعصره بل هو كائن فيما بعده من العصور إلى عصرنا هذا.

ولو قلت: إن اليمن لم ينجب مثله لم أبعد عن الصواب وفي هذا الوصف ما لا يحتاج معه إلى غيره»(١).

☐ وقال عنه صديق حسن خان: «كان فريد العصر، ونادرة الدهر، خاتمة النقّاد، وحامل لواء الإسناد، وبقية أهل الاجتهاد، بلا خلاف وعناد، رأسًا في المعقول والمنقول، إمامًا في الفروع والأصول»(٢).

☐ يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

العِلم ميراث النبي كذا أَتَى ... في النص والعلماء هم ورّاثُهُ
فإذا أردت حقيقة تدرى لمن ... ورّاثه فكرتَ ما ميراثُهُ
ما ورَّثَ المختارُ غيرَ حديثه ... فينا وذَاكَ متاعُه وأثاثهُ
فلنا الحديثُ وراثةً نبويةً ... ولِكُلٍّ مُحدِث بدعة إِحداثه

☐ ويقول ـ رحمه اللَّه ـ:

كتب إليه العلاّمة المقري الشافعي لما اطّلع عِلى «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم مختصر «العواصم من القواصم»: «لقد وقف المملوك على «الروض الباسم» فما هو إلا الحسام القاصم، لقد وقع من القلوب موقع الماء من الصادي والنَّجح من الغادي، والراحة من المعمور، ولقد نصرتَ الحديث على الكلام، والحلال على الحرام، وأوضحتَ الصراط المستقيم، وأشرتَ إلى النهج السليم، ولم تترك شبهة إلا فضحتها، ولا حجة إلا أوضحتها، ولا زائغًا إلاّ قوّمته، ولا جاهلاً إلا علّمته، ولا ركنا للباطل إلا خفضته، ولا عقدًا لمبتدع إلا نقضته، ولقد صدقتَ اللَّه في النيّة في

(١) «البدر الطالع».. انظر ترجمة ابن الوزير في «البدر الطالع» (٢/ ٨١ ـ ٩٣).
(٢) «أبجد العلوم» لصديق حسن خان (٣/ ١٩٠).

الرغبة إليه، ووهبت نفسك للَّه، وتوكلت عليه، فالحمد للَّه الذي أقرّ عين السنة بمكانه، وأدالها على البدع وأهلها ببرهانه، فلقد أظهر من الحق ما ودّ كثير من الناس أن يكتمه وأيد دين الأمة الأمية بما علّمه اللَّه وألهمه فعض على الجذل، وسيجعل اللَّه لك بعد عسر يسرًا، وإنا لا ندري لعلّ اللَّه يحدث بعد ذلك أمرًا، وإذا أراد اللَّه أمرًا هيأ أسبابه، وفتح لمن أراد له الدخول إلى بابه.

إذا اللَّه سَنَّى حَلَّ عَقْدٍ تيسَّرا.

ومن وقف على ما أفحمت به ذلك المتعدي، من الحق الذي استحلفت فيه بالإعجاز والتحدي، علم أن بينه وبين النفثات النبوية أسبابًا شريفة لا تُحل عقودها، ولا تضاع حقوقها، ورحما بلّها ببلالها، وبادر إلى صلتها ووصالها، لقد أبقى نورًا في وجه الزمان، وسرورًا في قلوب أهل الإيمان، وقلّدت جيد السنّة منّة وأي منّة، أصبح شخصك ملموحًا بأعين البصائر، وحديثك ملتقطًا بأسماع الضمائر.

والمنّة في ذلك المصنّف على عامة أهل الملّة وخاصة أعيان هذه النحلة، فحق على الكل أن يعرفوا حقّه إن كانت لهم أفهام تقدره حق قدره، وأن يستضيئوا بنوره إن كانت لهم أبصار تثبت للنور فجره، وأرى لهم أن يكتبوا أنفاسه إن كانت الأنفاس مما يكتب سمع الدعاء إلى الفلاح فوثب، وقلب اللَّه قلبه إلى الحق فانقلب، من غير ترغيب استفزّه، ولا ترغيب هزّه، ولا محاسدة اعترته، ولا مناظرة غيّرته، بل توفيق من اللَّه إلهي، وإلهام سماوي، سهل عليه مفارقة العادة، وما نشأ عليه بدءًا وإعادة، وإن أمرًا هذا أوله، فعواقبه عن النجاح مسفرة، وقصداً هذا مبتدؤه، فمغارسه مثمرة.

وإني لأرجـــو اللَّه حتى كأنني أرى بجميل الظن ما اللَّه صانع»[١]

(١) مقدمة «العواصم والقواصم في الذبّ عن سنة أبي القاسم» لابن الوزير (١/٥٨ ـ ٥٩) ـ مؤسسة الرسالة.

📖 يقول ـ رحمه اللَّه ـ في مقدمة «الروض الباسم»[١] في التزامه بالسنة أصولاً وفروعًا: «ولم يكن بدعًا أن تنسّمت من أعطارها روائح، وتبصّرت من أنوارها لوائح، أشربت قلبي محبة الحديث النبوي، والعلم المصطفوي، فكنت ممن يرى الحظ الأسنى في خدمة علومه، وتمهيد ما تعفّى من رسومه، ورأيتُ أولى ما اشتغلت به ما تعين فرض كفايته بعد الارتفاع وتضيق وقت القيام به بعد الاتساع من الذبّ عنه، والمحاماة عليه، والحث على اتباعه والدعاء إليه، فإنه علم الصدر الأول، والذي عليه بعد القرآن المعوّل، وهو لعلوم الإسلام أصل وأساس، وهو المفسر للقرآن بشهادة ﴿**لتبين للناس**﴾، وهو الذي قال اللَّه فيه: ﴿**إن هو إلا وحي يوحى**﴾، وهو الذي وصفه الصادق الأمين بمماثلة القرآن المبين؛ حيث قال في التوبيخ لكل مترف إمَّعة: «**إني أوتيت القرآن ومثله معه**». وهو العلم الذي لم يشارك القرآن سواه في الإجماع على كفر جاحد المعلوم من لفظه ومعناه، وهو العلم الذي إذا تجاثت الخصوم للرُّكب، وتفاوتت العلوم في الرتب، أصمت مرنان نوافله كل مناضل، وأصمت برهان معارفه كل فاضل، وهو العلم الذي ورّثه المصطفى المختار والصحابة الأبرار، والتابعون الأخيار، وهو العلم الفائضة بركاته على جميع أقاليم الإسلام، الباقية حسناته في أمة الرسول عليه السلام، وهو العلم الذي صانه اللَّه عن عبارة الفلاسفة، وتقيّدت عن سلوك مناهجه، فهل راسفة في الأغلال آسفة، وهو العلم الفاصل حين تلجلج الألسنة بالخطاب، الشاهد له بالفضل رجوع عمر بن الخطاب.. وهو العلم الذي يميز اللَّه به الخبيث من الطيب، ولا يرغم إلا المبتدع المتريّب، وهو العلم الذي يسلك بصاحبه نهج السلامه، ويوصله إلى دار الكرامة، والسارب في رياض حدائقه، الشارب من حِياض حقائقه»[٢] .

---

(١) «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم» لابن الوزير ص(٥).

(٢) «الروض الباسم» ص(٥، ٦).

□ وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

يا حبذا يومُ القيامة شهرتي ... بين الخلائق في المقام الأحمد
لمحبتي سنن الرسولِ وإنني ... فيها عصيتُ مُعنِّفي ومُفَنِّدي
وتركت فيها جيرتي وعشيرتي ... ومحل أترابي وموضع مَولِدِي[(١)]

□ وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

لو أن العلماء تركوا الذَّبَّ عن الحق؛ خوفًا من كلام الخلق، لكانوا قد أضاعوا كثيرًا، وخافوا حقيرًا.

ومَن قصد وجه اللَّه ـ تعالى ـ في عمل من أعمال البر والتقي؛ لم يحسن منه أن يتركه، لما يجوز عليه في ذلك من الخطا، وأقصى ما يخاف أن يكلّ حُسامُه في معترك المناظرة وينبو، ويعثر جواده في مجال المجادلة ويكبو، فالأمر في ذلك قريب؛ إن أخطأ فمن الذي عُصِم، وإن خُطِّيء فمن الذي ما وُصِم. والقاصد لوجه اللَّه لا يخاف أن يُنقد عليه خلل في كلامه، ولا يهاب أن يُدل على بطلان قوله، بل يحب الحق من حيث أتاه، ويقبل الهُدى ممن أهداه، بل المخاشنة بالحق والنصيحة أحب إليه من المداهنة على الأقوال القبيحة»[(٢)].

□ يقول الصنعاني ـ رحمه اللَّه ـ مثنيًا على كتاب «إيثار الحق على الخلق» لابن الوزير:

انظر إلى الإيثار كيف أصابه ... عين الكمال لنصرة الإيثار
فإذا نظرت إليه فلتك مُنتهٍ ... عن حملك الأسفار في الأسفار[(٣)]

---

(١) «مقدمة العواصم والقواصم» ص(٧٧).
(٢) «العواصم والقواصم» ص(٢٢٤).
(٣) «فتح الخالق في مدائح رب الخلائق» ص(٢٠٢).

*** رحمك اللَّه يا ابن الوزير بما نصحت لأمتك:**

رأى ابن الوزير - رحمه اللَّه - أن في قمة التفكير الذي أدى إلى فرقة الأمة وانقسامها يأتي دور التفكير الفلسفي الذي صاغته أهواء البشر بعيداً عن الاهتداء لفظًا ومعنى بالنور الإلهي الذي لا يضل من اهتدى به ولا يشقى.

ورأى - رحمه اللَّه - في «علم الكلام» الذي نشأ كأثر مباشر وقوي للكفر اليوناني بحوثًا لا طائل تحتها، ولقد كان أحد الأسباب لتمزق الأمة الواحدة وتناحرها، وتيه فلسفي أضاع الأمة، وهو يرسف في الضعف والهوى، والتناقض، ورأى - رحمه اللَّه - أن كتابه «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» هو الصيحة في وجه الأفكار الفلسفية.

وبكتابه «إيثار الحق على الخلق» أراد أن يسلك بالأمة الطريق الواحد.. الذي لا تتعدد عنده السبل: وحدة الأمة على كتاب اللَّه واعتصامها بسنة رسول اللَّه ﷺ.

وقلّل من شأن المعتزلة التي رفعت العقل فوق مرتبته وإقحامه في عالم الغيب.

لقد حورب - رحمه اللَّه - حربًا لا هوادة فيها ممن يخشون الدعوة إلى الكتاب والسنة وكانت صيحته الفذّة.

يا لائمي كفّ عن لومي فمعتقدي	قولُ النبي وهمِّي في تَعرُّفه
فما قفوتُ سوى آيات منهجه	ولا تلوتُ سوى آياتِ مصحفِه[1]

□ ويقول - رحمه اللَّه - في «إيثار الحق» محذرًا من مقاصد المنطقيين والمتكلمين: «وليحذر كل الحذر من زخرفتهم للعبارات في ذلك وترغيبهم بأنواع المرغبات في تلك المسالك، وليعتبر في ذلك بقوله تعالى لرسوله

(١) مقدمة «العواصم والقواصم» ص(١١٨).

المعصوم ﷺ ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥] ويا لها من موعظة موقظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد كما قال سبحانه وتعالى. ولتعرف أهل الزيغ بذلك وأهل الحق بخلافه فإنهم كما وصفهم ربهم عز وجل في قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. ولا ينبغي أن يستوحش الظافر بالحق من كثرة المخالفين له كما لا يستوحش الزاهد من كثرة الراغبين ولا المتقي من كثرة العاصين ولا الذاكر من كثرة الغافلين. بل ينبغي منه أن يستعظم المنة باختصاصه بذلك من كثرة الجاهلين له الغافلين عنه، وليوطن نفسه على ذلك... فنسأل الله أن يرحم غربتنا في الحق ويهدي ضالنا ولا يردنا من أبواب رجائه ودعائه وطلبه محرومين إنه مجيب الداعين وهادي المهتدين وأرحم الراحمين»[1] رحم الله ابن الوزير.

أبا التنقيح والترجيح أبدي ... (عواصمه) و(إيثاراً) فريدا

على بحر المئين السبع شعَّتْ ... فأقمأت المعانــد والحسـودا

* علاّمة اليمن في القرن الحادي عشر الحسن بن أحمد الجلاّل وتصديه للمتوكل إسماعيل لقوله المنحرف عن الأتراك:

وُلد بصعدة سنة ١٠١٣ وتوفي سنة ١٠٨٤، وكان له في العلوم النقلية والعقلية قدم راسخ وكعب عال، ألزم نفسه بالدليل، وتنكّب طرق التبعية الجهلاء والمذهبية العمياء، وكان زهده وتقواه مضرب المثل، ولما ساءه ما لقي

---

(١) «إيثار الحق على الخلق» لابن الوزير ص(٢٦ - ٢٧).

من المتعصبة المبتدعة آثر البقاء بقرية الجراف شمالي صنعاء، وكان مصدر رزقه الوحيد تربية الخيل والإنفاق من أثمانها. صادعًا بالحق مؤثرًا لرضاء الخالق على رضا الخلق، أهم مؤلفاته «ضوء النهار على متن الأزهار» وضعه على الكتاب والسنة غير آبه بالمخالف والمؤالف. وما أكثر ثناء الشوكاني عليه، واعتبره أفضل ما كُتب في بابه ولما أصدر المتوكل إسماعيل صاحب ضوران مرسومه المشهور باعتبار ما كان من البلاد تحت الأتراك خراجية وملاّكها أجراء للمتوكل وأسرته، وأجاز لجنده الأخذ من أموال الرعايا في حملتهم إلى يافع ومشارق اليمن تصبدى له العلاّمة الجلال بوضع رسالة سمّاها «براءة الذمة في النصح للأمة» فنّد فيها آراء المتوكل وكشف عن مجافاتها لنصوص الكتاب والسنة، وألزمه بالتزام الأصلين: كتاب اللَّه وسنة رسوله[1].

❑ قال عبدالرحمن طيب بعكر «لما جاء إسماعيل بن القاسم يعلن تكفير الأتراك وأن الأرض التي كانت تحتهم خراجية، نهض الحسن الجلال في وجهه وتصدى لفتواه ببحثه القيم الذي يؤكد إسلام الأتراك».

❑ قال الحسين الروضي وهو من تلاميذ الصنعاني:

قالوا أما فهم إسماعيل عالمهم	أفتاهم بمقال فيه برهانُ
يقول إن جنود الترك كافرة	دانت لها من جميع القطر بلدان
وبعدهم قد ملكناها بقوتنا	صارت إلينا حلالاً بعد ما بانوا
وكل شخص من الزراع عاملنا	على الذي يبديه أينما كانوا
أصولنا تقتضي هذا فلا حرج	بما أخذنا ولا والقول بهتانُ
إبليس سوّل هذا والنفوس عنت	إلا برغبتها فيها لها شانُ
هذي الخيالات لا تجدي ليوم غد	إذا قضى بين أهل الأرض ديّان[2]

(١) «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني» لعبدالرحمن طيّب بعكر ص(١٥١، ٢٨) مكتبة أسامة باليمن.

(٢) المصدر السابق ص(٢٨).

☐ ولما مرّ الصنعاني بقبر الجلال وقال:

جادت على قبـر الجـلال عيني بدمـع ذي انهمالِ
ووقفت فيــه مـد لّهـا أبكي على فقـد المعالي
جبلٌ من التحقيق غيّبـه الفنــا تحـت الرمــالِ
بحرٌ إذا أخــذ اليـراع تـدفقت منــه اللآلي
فــرد يعــزّ له النظيــر فـــلا يعرف بالمثــال[1]

* * *

*** الشيخ الحسن بن زيد الشامي خيرٌ كله:**

☐ يقول الشوكاني في ترجمته: (أنه كان خيرًا كله) اجتمعت فيه ثلاث خصال تكفي الواحدة منهن جماعة من الناس أولهن حب السنة فهو مبرء من التعصب لمذهب أو طائفة واجتمع له أتباع لا يتقيدون إلا بالدليل. والثانية حب الفقراء. فقد كان يبذل جهده لإقناع المهدي اعباس بتوسيع العطاء للفقراء والبذل عليهم. وتوفي قاضي القضاة السيد أحمد بن عبدالرحمن الشامي. وكان من قرابته وجعل وصيته للإمام فعهل بها الإمام للحسن ابن زيد فـر سرورًا بالغًا؛ لأنه أفلح باقتطاع شطر من الأملاك وجعلها للفقراء وأثبتها بمسودة مقيدة بدواوين الدولة. الثالثة الدعوة الدائمة إلى اللَّه للأغنياء والفقراء والخاصة والدهماء حتى النساء إذا مر به جماعة منهن استوقفهن وشرح لهن أحوال الحيض وأخذ ينصحهن بعدم الغيبة ونشر الدعوة في حافتهن[2].

* * *

(١) المصدر السابق ص(٢١٢).
(٢) المصدر السابق ص(٣٨ ـ ٣٩).

*** الشيخ الصادع بالحق أحمد بن عبدالرحمن الشامي:**

من أعلام القرن الثاني عشر استوعب علوم عصره وطاف على كبار مشائخ صنعاء وأتم اللّه النعمة بأن يسّر له الاجتماع بالعلامة عبدالخالق بن الزين المزجاجي فقرأ عليه في الأمهات الست وتمكن من علم الحديث.

ولقد تولى هذا العَلَم منصب القضاء الأكبر طوال حكم ثلاثة أشهر من القاسم بن الحسين إلى حفيده المهدي بن العباس فكان مثلاً في الصدع بالحق والثبات على اتحاده وآية في العفة وحسن العلم وأهله إلى كياسته وحسن تدبيره وسداد رأيه الذي كان مضرب المثل.

ومن أمثلة حلمه وطهارة خلقه وسلامة صدره أن رجلاً سمه في تمر فظل عامًا كاملاً يعاني أثر ذلك السم وهو كاتم لأمره عارف لخصمه فلما ذهب عنه آثار السم وتماثل للشفاء كان أول عمل يقوم به أن يقضي حاجة خصمه الذي سمَّه. وكان إلي جانب توليه القضاء الأكبر مضطلعًا بمسئوليات تلقي الوافدين إلى صنعاء ورعايتهم والإنفاق عليهم وهو في كل ذلك محمود السيرة والسريرة وكان يقول: أنه لولا خشية أن يلي الأمر من لا يرعى في الأمة تقوى اللّه لما بقي في منصبه يومًا.. وقد أثني عليه كل من ترجم له وفي مقدمتهم شيخ الإسلام الشوكاني. وكلهم يجمع على مجاهرته للمهدي العباس وتحذيره له من سفك الدماء وأموال الوقف. وفي مقدمة خاصته المحبين إليه (ابن الأمير) الذي كان كثيرًا ما يتعاون معه على أمر بمعروف أو نهي عن منكر ـ رحمه اللّه ـ[1].

*** الشيخ أحمد بن يوسف الحديث يرفض الزواج من ابنة الإمام المهدي العباس:**

ومن أعلام القرن الثاني عشر الناصرين للسنة سيد فاضل من آل الإمام

---

(١) المصدر السابق ص(٣٩ ـ ٤٠).

هو أحمد بن يوسف بن الحسين بن الحسن بن القاسم برع في العلوم وتعلق في الحديث حتى عرف به. فكان يُدعى أحمد بن يوسف الحديث. وحسبك أن يشهد له إمام السنة الشوكاني بأنه المحقق البارع في علم الحديث.. وهو الذي تولى تخريج مجموع الإمام زيد بن علي ﷺ فنص على تخريج كل حديث من الأمهات وما لم يجد له تخريجًا سكت عنه. كان ـ رحمه اللَّه ـ يؤثر البعد عن أرباب الدولة وذوي الجاه منقطعًا للعلم وأهله. عرض عليه الإمام المهدي العباس أن يزوجه ابنته فأبى وحرص على الاجتماع به أكثر من مرة وهو يتخلص حتى لا يقع في شباك الدولة ورجالها[1] .

*** السيد إسحاق بن يوسف بن المتوكل ونصره للسُّنَّة:**

ومن آل الإمام المشهورين بنصرة الحق والسنة والتعليق بهما والذب عنهما السيد الكريم إسحاق بن يوسف بن المتوكل. درس على علماء صنعاء وطلب الإجازة من علماء زبيد فأجازه مفتيها الأكبر السيد يحيى بن عمر الأهدل في أمهات الحديث. وكانت له صولات وجولات مع المتمذهبة الذين أفحمهم بأبحاثه وأسئلته التي كان ينشرها فتتلقاها بلدان اليمن ويتسابق علماؤها للإجابة عليها. ومن أسئلته المشهور سؤاله علماء الزيدية عن المذهب فقام له الكثيرون ونالوا منه وأغلظوا له في القول ولكنه لم يلتفت ولم يأبه شيء من ذلك.

ومن مؤلفاته المباركة رسالة أثنى عليها الشوكاني أسماها «بالوجه الحسن المذهب للحزن فيمن تمسك بالسنة ومشى على السنن» طبعت في القاهرة سنة ١٣٤٨هـ وأنشيء عليها علماء الأزهر. وبحث آخر نفيس أسماه «تفريج الكروب وتكفير الذنوب» في مجلدين[2] .

---

(١) المصدر السابق ص(٤٠).

(٢) المصدر السابق ص(٤١).

*** مصلح اليمن ومجتهدها في القرن الثاني عشر الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني:**

عمر مديد قضاة مجتهد اليمن الإمام الصنعاني في نشر ونصر سنة رسوله ﷺ، وكتبه تملأ الخافقين هدى ونوراً وأثراً في الجهاد مشكوراً.

ومدرسة الإمام فقف عليها ... ونادِ أميرها الحبر المفيدا
بتنوير وتوضيح لسبل ... وعدة من شأى الشأو الحميدا
وكان لعدل حكم واجتماع ... ووقْف اللّه مدْرَهه المُجيدا[1]

*** أوّلياته ونجاحه الذي أدركه:**

وأول ما نسجله من رياداته هو إدخاله كتب الحديث إلى جامع صنعاء ونشرها تدريساً ووعظاً للخاصة والعامة. فلقد كان شغفه بالسنة مبكراً.

سلام على أهل الحديث فإنني ... نشأت على حب الأحاديث من مهدي

وقوله: لا للفخر والادعاء ولكن للتنبيه والتوجيه:

كان الحديث بأرضكم ... مستغرباً واللّه جدا
حتى نشرت فنونه ... وجلوت منه ما تصدى

◻ وهو أول مصلح يمني بعد الألف يضع برنامجاً عاماً للإصلاح يجمع بين إقامة الشريعة وتحقيق العدل وإصلاح الأوضاع المالية والاجتماعية والعناية بتنظيم الري وتوفير مصادره ومحو الأمية الدينية، نلمس ذلك واضحاً في النصوص السالفة من مطالبته بانتقاء القضاة وإصلاح السجون والعملة وإزالة المظالم..

---

(١) هذه هي أهم مؤلفاته الإمام الصنعاني وهي: «التنوير شرح الجامع الصغير»، و«التوضيح شرح التنقيح» و«سبل السلام شرح بلوغ المرام» و«العدة حاشية شرح العمدة» لابن دقيق العيد».

□ وهو أول عالم يمني بعد الألف يتجاوز بنصائحه وتوجيهاته ملوك اليمن إلى غيرها من ملوك الجزيرة كما صنع مع الشريف مساعد صاحب مكة.

وهو أول عالم يمني بعد الألف قصده الطلاب لا من جزيرة العرب وحدها، وإنما أيضًا من بلاد الروم والعراقين والهند.

وهو أول من حوّل الشعر من ترفٍ ذهني وتلاعب بديعي إلى نفير للإصلاح ومنبر للتوجيه.

هذا ما حضرني من أولياته التي نسجلها ريادات له سبق بها عصره ومصره..

أما نجاحاته التي يسر اللَّه إدراكها فكثيرة ربما كان أهمها إقناعه الأئمة، وبخاصة المهدي العباس على حبه الجم للمال أن يصرف شيئًا من الزكاة على مستحقيها. وكان يخرج الآلاف على يد عباد صالحين كحسن الحداد وحسن الشامي ومحسن فايع.

□ كما أنه كان سياجًا منيعًا لصون أملاك الوقف من البيع والعبث، وكان تلميذه العراسي صاحب الجهد المشكور في حفظ أملاك الوقف وتدوينها. وهو الذي تنبه إلى خطر الباطنية وصلف اليهود وغواية البانيان فتم له تسفير يوسف العجمي وتأديب اليهود حتى ألزمهم جحورهم وإجلاء البانيان من اليمن وتحطيم أصنامهم التي بلغ مالها المرصود عليها بالمخا خمسين ألفًا[1].

□ كان الصنعاني بدرًا حقيقة لا مجازًا، لم يُدرك ثمَّة محاق ولا سرار، تجاوز إشعاعه الثمانين عامًا التي عاشها إلى القرون التي تلتها.

□ أضاء بخُطَبه وَسَطه ومدينته، وأضاء بكتبه وطنه وجزيرته، بل

(١) «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني» ص(١٥٧).

تجاوزهما إلى سائر بلاد الإسلام، ووضع بمواقفه الجريئة في اللَّه المضيئة بالتقوى منارًا شامخًا للعلماء العاملين وميسمًا خالدًا على أنوف وجباه الظلمة المتسلطين.

يجري عليه رزقه من غير انقطاع بعد موته وله روافده التي يستمر بها عمل الإنسان بعد وفاته:

❑ الصدقة الجارية: وهو إن لم يكن بالثرى الذي يملك أن يقتطع شيئًا من ماله وقفًا للَّه إلا أنه وتلك حقيقة ثابتة لأمراء فيها حمى أصول الوقف في صنعاء وغيرها من أطماع الطامعين وعبث العابثين، فكان ساعيًا في استمرار ذلك الخير العميم.

❑ وهذه كتبه ورسائله تبلغ المائتين كما أحصاها الأستاذ البحاثة عبداللَّه محمد الحبشي تتداولها الأجيال وتهتدي بهداها الأقاليم.

❑ وأولاده الصالحون العلماء الربانيون الذي نشروا السنة في ربوع اليمن.

قضاياه الأساسية[1]

«يمكن لنا أن نقتصر في هذه النقطة على أمهات اهتماماته وكليات نشاطه القولي والفعلي والتأليفي وأولها التوحيد.

(أ) التوحيد

هذه هي نقطة البيكار وأصل الأصول في كل الأديان السماوية التي دعى إليها كل رسول وجاهد من أجلها كل رباني. وفي العصر الذي عاشه الأمير كانت قضية التوحيد محاطة بالكثير من غبار القرون وركام البدع وزيف المنحرفين. فهناك العقائد الفاسدة في القبور والممارسات المنحرفة لجهلة المتصوفين والتكريس الجاهل أو المتعمد من ملوك الضلالة وأمراء الغواية

(١) انظر «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني» ص(١١٤ ـ ١٢٩).

بخليط من الأوهام والبدع والضلالات وأفضل ما وضعه الأمير لمواجهة كل ذلك رسالته الشافية الكافية (تطهير الاعتقاد من درب الإلحاد) التي تناول فيها الموضوع من كل زواياه وجوانبه. وسنقتطف منه نصوصًا معينة توضح أهم مقاصد البحث.

(ب) صور من المعتقدات الفاسدة

◘ يقول: وكل قوم لهم رجل ينادونه. فأهل العراق والهند ينادون عبدالقادر الجيلاني، وأهل التهائم لهم في كل بلد ميت يهتفون باسمه يقولون: يا زيلعي يا ابن العجيل. وأهل مكة وأهل الطائف يا ابن العباس. وأهل مصر يا رفاعي يا بدوي. والسادة البكرية وأهل الجال يا أبا طير وأهل اليمن يا ابن علوان. وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر وهذا هو بعينه فعل المشركين في الأصنام كما قلنا في الأبيات النجدية:

أعادوا بها معنى سواع ومثله ... يغوث وود بئس ذلك من عود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من نحيرة ... أهلت لغير اللَّه جهرًا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبلاً ... ويستلم الأركان منهن باليد

◘ فإن قال: إنما نحرت للَّه وذكرت اسم اللَّه عليه، فقل: إن كان النحر للَّه فلأي شيء قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال: نعم. فقل له: هذا النحر لغير اللَّه بل أشركت مع اللَّه تعالى غيره وإن لم ترد تعظيمه فهل أردت توسيع باب المشهد وتنجيس الداخلين إليه؟ ويقول: «وهذه النذور بالأموال وجعل قسط للقبر كما يجعلون شيئًا من الزرع يسمونه تلمًا في بعض الجهات اليمنية وهذا شيء ما بلغ إليه عباد الأصنام وهو داخل تحت قول اللَّه تعالى في سورة النحل:

﴿ ويجعلون لما يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾ بلا شك ولا ريب».

◻ ويقول: أخبرني من أثق به أنه رأى من يسجد على عتبة باب مشهد الولي الذي يقصده تعظيمًا له وعبادة ويقسمون بأسمائهم بل إذا حلف من عليه حق باسم اللَّه تعالى لم يقبلوا منه فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه وهكذا كان عُبَّاد الأصنام. قال تعالى: ﴿إذا ذكر اللَّه اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾..

وفي الحديث الصحيح: «من كان حالفًا فليحلف باللَّه أو ليصمت».

وسمع رسول اللَّه ﷺ رجلاً يحلف باللات فأمره أن يقول: لا إله إلا اللَّه.

(ج) جناية الملوك وواجب العلماء

◻ يقول: وترى العامة ملوك الأقطار وولاة الأمصار معززين لذلك ويولون العمال لقبض النذور. وقد يتولاها من يحسنون فيه الظن من عالم قاض أو مفتٍ أو شيخ صوفي فيتم التدليس لإبليس وتقر عينه بهذا التلبيس.

◻ ويقول: «اعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها ونسعى في هدم منارها صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد الآباء بلا دليل ومتابعتهم لهم من غير فرق بين دبير وقبيل. ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل قريته وأصحاب بلدته يلقنونه في الطفولة أن يهتف باسم من يعتقدون فيه. ويراهم ينذرون عليه ويعظّمون عليه ويرحلون به إلى محل قبره فينشأ وقد وقر في قلبه عظمة ما يعظمونه. وقد صار أعظم الأشياء عنده من يعتقدونه فنشأ على هذا الصغير وشاخ عليه الكبير. ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير. بل ترى ممن يتسم بالعلم ويدّعي الفضل وينتصب للقضاء أو الفتيا أو التدريس أو ولاية أو المعرفة أو الإمارة والحكومة معظمًا لما يعظمونه مكرمًا لما يكرّمونه

قابضًا للنذور آكلاً ما ينحر على القبور. فيظن العامة أن هذا دين الإسلام وأنه رأس الدين والسنام».

☐ ويقول: «فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه غلابًا ـ بل كل من يعمرها ـ هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة. أما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ أو كبير ويزوره الناس الذي يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتاف باسمه. بل يدعون له ويستغفرون حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم فيأتي مَنْ بعدهم فيجد قبرًا قد شيد عليه البناء وسرجت عليه الشموع وفرش بالفراش الفاخر وأرخيت عليه الستور وألقيت عليه الأوراد والزهور فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر ويأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل وأنزل الضرر بفلان وبفلان النفع حتى يغرسوا في جبلته كل باطل.. ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها.. وأحاديث ذلك واسعة معروفة فإن ذلك في نفسه منهي عنه ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة».

وهو يقر التوسل بصالحي الأحياء أخذًا من قوله ﷺ للفاروق وقد ذهب حاجًا «أدع لنا يا أخي».. ومن توسل الأصحاب بالعباس في عام الرمادة. ولكنه يشنع أن يكون التوسل بمن يهمل الفرائض فضلاً عن السنن ويشدد حملته على مبتدعة المتصوفة وخصوصًا القائلين بالأفكار المنسوبة إلى ابن عربي.

الاجتهاد

وهذا هو الموضوع الثاني الذي وقف حياته عليه وعانى من العنت بسببه طوال ثمانين عامًا.. وما من صفحة من صفحات حياته ولا معركة من

معاركه الطويلة التي خاضها إلا والاجتهاد رائدها وحاديها. وبالجملة فالاجتهاد بالنسبة له عنوان حياة وسجل وجود وشهادة خلود تقرعه بارزًا في حياته العلمية كما تشهده بارزًا في حياته العملية..

وفي سنة (١١٣٤) نظم تلميذه النابه إسحاق بن يوسف سؤاله السائر في المذهب الذي تسابق الفحول في الإجابة عليه حتى تناهى أمره إلى المتوكل القاسم، ولقي الأمير من أجله العتاب والتشهير.

العدل

سنكتفي هنا بإيراد نصوص من رسالته التي بعثها إلى المنصور من شهارة سنة ١١٤٦ بعد أن وقع عليها واستمد تواقيع من كبار علماء عصره وهي تتناول أهم المظالم السائدة في عصره.

*** رسالة الأمير إلى المنصور:**

بعث هذه الرسالة إلى المنصور الحسين بن القاسم وهم مقيم بشهارة بعد أن وقع عليها اسمه فتبعه كبار علماء اليمن في شهارة وحوث وصنعاء وأكثرهم من تلاميذه وتولى تسليمها إلى يد المنصور بصنعاء القاضي الشجاع أحمد بن محسن الرصاص فكفاه اللّٰه شره فلم ينله بسوء.

(الحمد للّٰه الذي لا يعبد بحق سواه ولا يُخاف إلا بطشه بمن تمرد عليه وعصاه. ولا تُرجى الإنابة إلا منه لمن التزم طاعته وتقواه. والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على الدليل عليه والفائض كل خير من الرب تعالى إلى العباد على يديه وعلى آله والذين اهتدوا بهداه وسلكوا نهجه الذي يسلكه من يرجو النجاة. أما بعد..).

ويقدم ابن الأمير التحية للمنصور ولكل من وافق على ما جاء بهذه الرسالة خصوصًا للعلماء والأعيان والسادة والقضاة ثم يقول:

«وهم بحمد اللَّه لا يجهلون هذه الشريعة المحمدية الغراء. ولا ينكرون ما دعتهم من الطرق السوية فسلوكها لكل عاقل أولى وأحرى. فهذه آيات كتاب اللَّه تعالى عليهم تتلى. وهذه سنة رسول اللَّه ﷺ لا تزال عليهم تملى. ولا يقول أحد أن الشريعة ـ وحاشاها ـ قد نُسخت ولا أن عزائمها قد فُسخت ولا أن معالمها قد طُمست ولا أن ربوعها قد درست، حجتها باقية على الدهور والتكليف ثابت إلى يوم النشور. لا تزال بحمد اللَّه رايات حقيقتها قائمة وعيون دلائلها مستيقظة غير نائمة، والأعلام تقررها في التدريس والتدوين. وتحررها جهابذة كل عصر بالإيضاح والتبيين على تغالب الأحكام عامة العوام، وأشرقت أنوار الشريعة رؤوس الأنام. إلا أن ها هنا أمورًا كادت تنادي بلسان الحال أنه لا حرام ولا حلال ولا سنة ولا كتاب ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار ولا دار غير هذه الدار. وهل هناك من فرق بين هذه العهود وعهود الجاهلية فإنها انتهكت المحارم واتسع الخرق في المظالم. فكل ظالم لا يقف على حد في ظلمه ولا يزال باب الزيادة مفتوحًا في حد الظلم ورسمه».

❑ ومنها قوله عن الأوقاف:

«ثم من المنكرات هذه الأوقاف في اليمن جعلت بنظر بعض المترفين قصارى همه سلب غلاتها وإن أسخط رب العالمين لا ينظر رقبة الوقف ولا الموقوف عليه ولا يجعل عليها نائبًا إلا من يركن عليه وما بهذا أمر اللَّه العباد ولا هذا فعل من يخاف المعاد».

المكوس

❑ نقلاً عن ابن الأمير وعصره (ص٢٩٢):

«هذه المكوس قد ملأت الدنيا بمظالمها وأذهبت من الشريعة أبهى معالمها. وهي المسماة بالمجابي في القرى والبوادي. وبالمعشر في البنادر

والسواحل.

وهي ما لا يُعلم على جوازها دليل ولا يدعيه عالم ولا جاهل إلا ما يؤثر عنه ﷺ «**إن اللّه حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم**». فمن الذي أباح مال من خرج من بيت اللّه الحرام غاسلاً ما كان عليه من الآثام.

فإنه لا يخرج إلى هذه السواحل إلا وقبض ما يحرزه حتى ما يأكله من الأكل ثم يقوم عليه بالثمن الوافر. ثم يؤخذ منه ما يختاره من بضاعة الكاتب والناظر فتقوَّم كأنها تركة الأيتام ويؤخذ منه العشر دائمًا وهو أضعاف ذلك في حقيقة الكلام.

وكذلك من يخرج من الهند وغيره من الآفاق جالبًا لبضاعته نافعًا لعباد اللّه بتجارته.

فيا عباد اللّه هل ورد في هذا شريعة من الشرائع فنتبع أم وقع من رسول اللّه ﷺ وخلفائه فنحن لهم تَبَع.

● أم قال رسول اللّه ﷺ: «**لا يحل مال مسلم إلا بطيبة من نفسه**». وثبت عنه ﷺ **أن اللّه لا يقبل توبة ماكس** وهم قابضوا المجابي التي صارت في هذا القطر اليمني في كل بلدة ومكان يأكلها من قُبضت لهم من الحكام وآل الإمام.

فليتق اللّه كل إنسان من هذا الحرام فإنه لا يجهل أحد تحريمه من الأنام فإن الناس بين قابض ومقبض وناظر وآمر. وهو حرام بإجماع أمة الإسلام».

الإقطاع

وليس المقصود به ما هو معروف اليوم عن الإقطاع بمعناه السياسي وإنما المقصود به ما كان سائدًا يومذاك من استيلاء فرد أو أسرة على جهة من البلاد فيأخذون زكاتها لأنفسهم. يقول نص الأمير:

«ثم الطامة العظمى والمصيبة في دين اللّه الكبرى هذه القطع التي هي من أعظم النكرات وأشنع البدع قد عم البلاء بها وطم وفرقت البلاد بيوتًا وقرى بين الأعيان من آل الإمام وغيرهم ممن لا نفع منهم للأنام وغيرهم من القبائل الطغام وإن كانوا في إقطاعاتهم أحسن سيرة من بيت الإمام. وزاد الشر حتى أُقطعت الحريم وكل ذي منصب من خاص وعام. وهذه الأولى صارت من السموم القاتلة لدين الإسلام فإنه إعطاء عين الزكاة لمن تحرم عليه من ثلاث جهات.

من المنصب.. فإنه صح عن الصادق الأمين أنها لا تحل الزكاة لمحمد ولا لآل محمد. وقد ذهب إمام المذهب الهادي أن مضطر الآل يقدم أكل الميتة على الزكاة.

- وثانيتهما أيضًا فإنا لا نعلم صاحب قطعة إلا وهو غني. وقد قال ﷺ «**أنها لا تحل لغنيٍ ولا قوي ولا لذي مرَّة سوي**».

وثالثها: أن يأخذ أضعافًا مضاعفة على النصاب».

*** العمال والقضاة:**

ويتناول في النقطة الثالثة نقد توليته العبيد والأغرار من حملة الشريعة تولي رقاب المسلمين وأخذ زكاتهم. ويلفت نظر الإمام إلى خطورة منصب الحكام وأن المذهب يشترط أن يكون القاضي مجتهداً. فكيف وأكثر القضاة المعينين ظلمة جاهلين.

«ثم من المصائب في دين الإسلام هؤلاء الذين وُلُّوا منصب القضاة والأحكام فإنه في هذه الأزمنة التساهل في تولية القاصرين ولا سيما إذا كان أبوه قاضيًا فإنه يولي ابنه ولو كان من أجهل الجاهلين. والأصح في المذهب أنه لا بد أن يكون من المجتهدين كأنه ميراث فرضه اللّه من فوق سبع سماوات. ثم يفرض لهم من المقررات ما يكفي أمة من ذوي الحاجات من

زكاة وغيرها. ثم يقبضون أجوراً واسعة على طيافة شجار أو رقم علامة أو إحضار. وقد أجمعت الأمة كما نقله جماعة من الأئمة أنه يحرم على الحاكم قبض أجرة من المتخاصمين حيث له جراية من بيت المال. وإنه لا يستحق ذلك إلا مع نفعه لعباد اللَّه تعالى بالأقوال والأفعال».

* الرسامة:

وفي رسالة تسمى (الحراسة عن مخالفة المشروع من السياسة) نقلاً عن زبارة في نشر العرف، (١/ ٨٣): «ليس الذي اتخذه عمر رضي الله عنه مثل هذه السجون التي عورفت بين الناس من التضييق على من فيها ومنعه من الخروج والدخول لأداء الصلوات وقبض المال من المسجون ولو ساعة. ويسمونها (رسامة). وصارت الحبوس الآن مستغلات للعمال يقبلونها من الأشرار بالأموال. وتبعوا الحجاج في اتخاذ القيود والأغلال. فإنه أول من أحدث ذلك في الإسلام. ولا يخفى على متشرع أن الحبس هذا الذي اتخذه الناس عقوبة من أعظم العقوبات فإنه مشتمل على هتك عرض المسجون وعلى قبض مال منه أولاً أجرة لمن يأمره الأمير أن يذهب به إلى الحبس، ثم أجرة السجان، ثم منعه عن التكسب لمعاشه.. وقد ينضاف إلى ذلك تقييده وتحكم السجان فيه ويهدده بإدخاله محلاً مظلمًا يسمونه المطبق حتى يسلم ما لا يدفع به عن إدخاله ذلك المحل. ثم منعه من كل شيء حتى يُمنع من دخول ولده أو والده إليه.. بل قد يُمنع عن رؤية البرق كما قال بعض آل محمد صلى الله عليه وسلم وهو في سجن بني العباس[1]:

وبدا له من بعدما اندمل الهوى ... برق تألق موهنًا لمعانه

يبدو كحاشية الرداء ودونه ... صعب الذرى متمنع أركانه

(١) أورد ابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات» أن الأبيات من شعر محمد بن صالح العلوي وقد سجن مدة بأمر المتوكل.

فدنى لينظر كيف لاح فلم يطق	نظرًا إليه صده سُبحَانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه	والماء ما سُمَّت به أجفانه

ولقد نظرت في قول يوسف الصديق عليه السلام عند لقائه والده وأهله وخروا له سجدًا حيث قال: ﴿**هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ**﴾. فخص إحسان اللَّه بإخراجه من السجن ولم يذكر إحسانه إذ أخرجه من الجب ولا إحسانه إذ برّأه من كيد النسوة ولا إحسانه به إذ ملّكه مصر ولا إحسانه إذ أخرجه من الرق. ما ذاك إلا لعظم بلية السجن وعظم ضرره بالعبد وشدة موقعه في القلب. وإذا كان بهذه المثابة في شدته فلا ينبغي أن يسجن إلا من قد شقّ عصى المسلمين وخرج على خليفة قد استقام به أمر العباد فيخرج الخارج لإثارة الفساد وإيقاظ الفتنة وتفريق كلمة المسلمين وتصيير الناس أحزابًا. وكل طائفة تغضب لواحد وتختلف الأقوال وتُسفك الدماء وتُقطع السبل» اهـ.

*** رائيته التاريخية في أيام الإمام المتوكل:**

وضع هذا الإمام العظيم رائيته التي ضمّنها كل مخازي الوضع ومظالم الحكم، ووُزِّعت على محاريب المساجد فتداولها الناس صباح اليوم التالي في كل صنعاء، إذ أنها جدول حافل بما كانت عليه اليمن قبل ثلاثة قرون وما ظلت تعانيه بعد ذلك على اختلاف الأيام والأعوام نثبتها بنصها على طولها من الديوان:

سماعًا عباد اللَّه أهل البصائر	لقول له ينفي قيام النواظر
فشقوا ثبات الصبر عند سماعه	وصبوا من الأجفان دمع المحاجر
ولا تحسبوا هذا وفاء بحق من	تقضى وأضحى في مضيق المقابر
فقد قام ناعي الدين فيكم مناديًا	بأرفع صوت فوق أعلى المنابر

وأسمع سكان البسيطة كلها ... فما مؤمن للسامعين بعاذر
أوقر على الأسماع أم في أكنة ... قلوب البرايا أم عمى في البصائر
أيدفن فيما بينكم شرع أحمد ... ويُهدم من بنيانه كل عامر
ولم يُرَ مَحزونٌ عليه كأنما ... دفنتم عدوًّا فقده غير ضائر
ثكلتكم أين التناصح للهدى ... وأين التسامي للعلى والمفاخر
أضعتم وصايا المصطفى وهجرتم ... طريقته في نهيه والأوامر
وجئتم بأمر منه يبكي ذوو الهدى ... ويضحك منه كل رجس وخاسر
وتشمت من أفعالكم كل ملة ... ويُصبح مسروراً بها كل كافر
فيا عصبة ضلت عن الحق والهدى ... ومالت إلى أفعال طاغ وفاجر
بأي ملوك الأرض كان اقتداؤكم ... فما لكم في فعلكم من مناظر
أنافستم الحجاج في قبح فعله ... ففعلكم في الجور فعل مفاخر
يفديكم إبليس حين يراكم ... يقول بكم والله قرت نواظري
نبذتم كتاب الله خلف ظهوركم ... ولم تعملوا منه بنصٍّ وظاهر
خراجية صيرتم الأرض كلها ... جَنَّبتِم العمال شر المعاشر
لذاك الرعايا في البلاد تفرقت ... وفارقت الأوطان خوف العساكر
وقد رضيت بالعشر من مالها لها ... وتسعة أعشار تصير لعاشر
فلم تقنعوا حتى أخذتم جميع ما إذا ... حوته وما قد أحرزت من ذخائر
سئلت عن جوركم وفعالكم ... أجابت علينا بالدموع البوادر
فقل لقضاة السوء لا در درهم ... أما لكم في نصحهم سهم قامر
أما أخذ الميثاق ربي عليكم ... بأن تنصحوا بالحق أهل المناكر
قنعتم بأخذ السحت منها وبالرشا ... ودافعتم عنهم بسيف المعاذر

معاذير راحت عند إبليس لا سدى وما هي إلا ضحكة في المسامر
وقلتم لمولى الأمر يأخذ مالهم إذا ما عليم خاف سطوة جائر
وما خاف مولاكم عليهم وإنما غدا منفقًا أموالهم في العمائر
ويأخذ بالمنقول منهم عقارهم ويعرض عما قد تلى في التهاتر
ويكنز ما فيها ليكوى جبينه مع الظهر منه يوم كشف السرائر
ويا عصبة من هاشم قاسمية إلى كم ترون الجور إحدى المفاخر
ومن دون هذا أخرج الترك جدكم ولو عاش أخلاكم بحد البواتر
فأحللتم ما حرم اللّه جهرة وشر ذنوب الخلق ذنب المجاهر
وجوّزتم أخذ المكوس بأرضنا وتوفيرها ظلماً على كل تاجر
وقلتم نرى فيها مصالح للورى وربكم أدرى بكل الضمائر
تساويتم في كل قبح فغلتم أكابركم في فعلهم كالأصاغر
أأحْللتم أخذ الزكاة وأكلها كإحلال أهل السبت صيد الجزائر
وزديتم نص الكتاب بمنعكم فقيراً وإعطاء الغني المكاثر
أتيتم بأصناف الضلالات كلها وجئتم بأنواع الأمور المناكر
وأما الجزاءات التي كل ليلة تسمى سباراً وهي إحدى الفواقر
ففي بردقان أُنفقت وحشيشةٍ وخمر لخمار ولهو لسامر
لقد أثرت هذي القبائح بينكم وقد ظهرت في كل باد وحاضر
لما قد رأينا في الحسين بن طالب وتقطيعه ملقى بجنب المقابر
وبان لكم من غير شك غريمه ولكن طرحتم فوقه ثوب ساتر
وحابيتم الجاني لأجل قرابة وخشية أن يخزيكم في المحاضر
أكابركم قد مُيّزوا لصلاحهم وإغضائهم من موجبات الأوامر

بإقطاعهم ما حرم اللّه أخذه ... فسحقًا بعدَ ذا لعذراً للأكابر
وأشنع خطب ما يقول خطيبكم ... من الكذب المنشور فوق المنابر
منابر كانت للمواعظ والهدى ... فما بالها عادت لسخرة ساخر
ملأتم بلاد اللّه جوراً وجئتم ... بها سُودت منه وجوه الدفاتر
ووليتم أمر العباد شراركم ... وخولتم أعمالكم كل ماكر
وقد كنتم ترمون من كان قبلكم ... بظلم وجور قد جرى في العشائر
وقلتم نرى المهدي قد بان جوره ... لكل سميع في الأنام وناظر
صدقتم لقد كان الظلوم وإنما ... بظلمكم قد صار أعدل جائر
فكل فتى قد كان شكو فعاله ... وسيرته قد صار أحسن شاكر
وما أخذ الأوقاف قط ولا اشتكت ... مساجدنا في عصره كف قادر
ولا أمر الشجني بأخذ مالها ... فيا بئس مأمور ويا خزي آمر
فبالأخذ كم قد أغلقت من مدارس ... وكم من سبيل قد غدا غير عامر
وكم في زبيد أغلقت من مساجد ... وأغلق فيها مسجد للأشاعر
وفي آنس كم قرية قد تعطلت ... مساجدها عن كل تالٍ وذاكر
ولو تشتري تلك المساجد باعها ... ببخس وما بالى بصفقة خاسر
ويا وزراء السوء يا شر فرقة ... وأخبث أعوان لناهٍ وآمر
إلى أي حين في الضلالة أنتم ... جهلتم بأن اللّه أقدر قادر
أما بالحريبي الشقي اعتبرتم ... ففي فعله للحق أعظم زاجر
هو الرأس في كل الضلالات كلها ... وأول من شاد الضلال لآخر
ولكنكم جئتم بأضعاف ظلمه ... وزدتم على ما شاده من مناكر
وقلتم نرى الأجبار أموالهم لهم ... خذوها عليهم يا ولاة البنادر

ولكن دعوا آل الخليفة كلهم ... وأعوانه من حاكم أو مؤازر
ومن خفتم من شره وفساده ... كردمان وابن الحاج أهل العشائر
فما يفعل الدجال مثل صنيعكم ... فلا تشمتوا من بعد هذا بكافر
فأفعالكم لو رمت حصراً لعدها ... لأفنيت في الدنيا مداد المحابر
ويا علماء الدين ما لي أراكم ... تغاضيتم عن منكرات الأوامر
أما الأمر بالمعروف والنهي فرضكم ... فأعرضتم عن ذاك إعراض هاجر
فإن هم عصوكم فاهجروهم وهاجروا ... تنالوا بنصر الدين أجر المهاجر
إذا كان هذا حال قاضٍ وعالم ... وخال وزير أو آمر مظاهر
ولم تنتهوا عن غيكم فترقبوا ... صواعق قهار وسطوة قادر
فما اللَّه عما تعملون بغافل ... ولكنه يملي لطاغ وفاجر
وقد أرسل الآيات منه مخوفاً ... ولكن غفلتم عن سماع الزواجر
رماكم بقحطٍ ما سمعنا بمثله ... وحبس سحاب بالإغاثة ماطر
أجيبوا عباد اللَّه صوت مناصح ... دعاكم بصوت ما له من مناصر
وقوموا سراعًا نحو نصرة دينكم ... إذا رمتم في الحشر غفران غافر
وحسن ختام النظم أزكى صلاتنا ... على المصطفى والآل أهل المفاخر

وقد اهتز القصر لهول المفاجأة التي لم يكن قد تعودها ولم يدر بحسبانه وقع مثلها. فلقد أصبحت صنعاء الهادئة الصامتة تتناول القصيدة الكاشفة لفضائح الوضع ثم تناقلتها الأيدي خارج صنعاء وعلى امتداد أرجاء اليمن وكل قارئ لها يشعر أنها تنطق عن قلبه وتتحدث بلسانه؛ لأنها الصدى المسموع لكل صور المعاناة اليومية والمتاعب الدائمة»[1] .

---

(١) «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل» ص(٧٦ ـ ٧٩).

نصرة السنة ومحاربة البدعة

وهذه هي القضية الأساسية الخامسة التي قطع فيها الأيام والأعوام. وما أعظمها من قضية وما أكرمه من مقام. وقد اخترنا ثلاثة مواضع تمثل بعضًا من نشاطه الجاهد وسعيه الحميد في هذا المجال.

*** الكفاءة بين الزوجين:**

قال في «سبل السلام» ج(٢) ص(١٠٠٧):

«والذي يقوى هو ما ذهب إليه زيد بن علي ومالك، ويروى عن عمر وابن مسعود وابن سيرين وعمر بن عبدالعزيز وهو أحد قولي الناصر أن المعتبر الدين لقوله تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم**﴾ ولحديث: «**الناس كلهم ولد آدم**»، وتمامه «**وآدم من تراب**» أخرجه ابن سعد من حديث أبي هريرة وليس فيه لفظ كلهم «والناس كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»، أخرجه ابن لال بلفظ قريب من لفظ حديث ابن سعد. وأشار البخاري إلى نصرة هذا القول حيث قال: «باب الأكفاء في الدين»، وقوله تعالى: ﴿**هو الذي خلق من الماء بشراً**﴾ الآية. فاستنبط من الآية المساواة بين بني آدم ثم أردفه بإنكاح أبي حذيفة من سالم بابنة أخيه هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة وسالم مولى امرأة من الأنصار، وقد تقدم حديث «**فعليك بذات الدين**» وقد خطب النبي ﷺ يوم فتح مكة فقال: «**الحمد للّه الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها. يا أيها الناس إنما الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على اللّه وفاجر شقي هين على اللّه. ثم قرأ الآية**».

- وقال ﷺ: «**من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق اللّه**».

فجعل ﷺ الالتفات إلى الأنساب عبية الجاهلية وتكبرها. فكيف يعتبرها المؤمن ويبني عليها حكمًا شرعيًا.

● وفي الحديث: «**أربع من أمور الجاهلية لا يتركها الناس**». ثم ذكر الفخر بالأنساب. أخرجه ابن جرير من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.. وفي الأحاديث شيء كثير في ذم الالتفات إلى الترفع بها. وقد أمر ﷺ بني بياضة بإنكاح أبي هند الحجاج وقال: «**إنما هو امرؤ من المسلمين**» فنبه على الوجه المقتضي لمساواتهم وهو الاتفاق في وصف الإسلام. وللناس في هذه المسألة عجائب لا تدور على دليل غير الكبرياء والترفع. ولا إله إلا اللّه كم حرمت المؤمنات النكاح لكبرياء الأولياء. ولقد مُنعت الفاطميات من جهة اليمن ما أحل اللّه لهن من النكاح لقول بعض أهل مذهب الهادوية أنه يحرم نكاح الفاطمية إلا من فاطمي، من غير دليل ذكروه.. وليس مذهب الإمام الهادي عليه السلام بل زوج بناته من الطبريين.. وإنما نشأ هذا القول من بعده في أيام الإمام أحمد بن سليمان وتبعهم بيت رياستها فقالوا بلسان الحال: تحرم شرائفهم على الفاطميين إلا من مثلهم. وكان ذلك من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير بل ثبت خلاف ما قالوه عن سيد البشر كما دل له..

● وعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «**انكحي أسامة**» رواه مسلم. وفاطمة قرشية فهرية أخت الضحاك ابن قيس وهي من المهاجرات الأول. كانت ذات جمال وفضل وكمال. جاءت إلى الرسول ﷺ بعد أن طلقها أبو عمرو ابن حفص بن المغيرة بعد انقضاء عدتها منه فأخبرته أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباها فقال رسول اللّه ﷺ: «**أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وأما معاوية فصعلوك لا مال له. انكحي أسامة بن زيد ـ الحديث**». فأمرها بنكاح أسامة مولاه ابن مولاه وهي قرشية. وقدمه على أكفائها ممن ذكر. ولا أعلم أنه طلب من أحد من أوليائها إسقاط حقه. وكأن المصنف ـ رحمه اللّه ـ أورد هذا الحديث بعد بيان ضعف الحديث الأول للإشارة إلى أنه لا عبرة في الكفاءة بغير الدين كما أورد لذلك قوله.

● وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يا بني بياضة انكحوا أبا هند**». اسمه يسار وهو الذي حجم النبي ﷺ. وكان مولى لبني بياضة «**وانكحوا إليه وكان حجامًا**» رواه أبو داود والحاكم بسند جيد.

فهو من أدلة عدم اعتبار كفاءة الأنساب. وقد صح أن بلالاً نكح هالة ابنت عوف أخت عبدالرحمن بن عوف.

*** ثناؤه ودفاعه عن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب:**

وتواردت إليه أخبار الشيخ المصلح محمد بن عبدالوهاب وما قام به من الجهود في تصحيح الاعتقاد وحمل الناس على التوحيد وطرح المعتقدات الفاسدة مع قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسره ذلك كل السرور وحفزه على وضع قصيدته الدالية المشهورة إلى ابن عبدالوهاب عن طريق مكة:

سلام على نجد ومن حـــل في نجد   وإن كان تسليمي على البعد لايجدي

واشتملت القصيدة على تحبيذه حرق «دلائل الخيرات» والحملة على بدعة المذهبية والمتصوفة من أتباع ابن عربي والثناء على مذهب السلف المتمسكين بأدلة الكتاب والسنة وهي تبلغ في مجموعها أربعة وستين بيتًا وربما عدنا إليها في الباب التالي. كان ذلك في سنة ١١٦٣هـ ومضت سنوات والقصيدة تطير كل مطار متجاوزة الجزيرة إلى غيرها ووصلت إليه ردود التحبيذ والاعتراض من كبار علماء الأقطار إلا أن ابن عبدالوهاب لم يرد على ذلك بشيء لا شعرًا ولا نثرًا.

*** سعيه لتدمير أصنام البانيان:**

وفي سنة ١١٦٣هـ حرر رسالة بتدمير أصنام البانيان بالمخا فأمر المهدي بتدميرها وصودرت أموالها المحبوسة عليها وكانت تبلغ خمسين ألف ريال[1].

(١) المصدر السابق (ص٩٤ ـ ٩٥).

*** نشره للسّنّة خلال سجنه:**

سجن الإمام الصنعاني عام ١١٦٦هـ فلم يُضيّع الأمير فترة الشهرين التي استغرقها حبسه وإنما صرفها في نشر السُّنَّة فللَّه دره وأصبح النقيب الماس الذي حُبِس عنده من تلاميذه اللاصقين.

*** فضحه لليهود وعمله على إخراجهم من شبه جزيرة العرب:**

لاحظ الصنعاني ـ رحمه اللَّه ـ انتفاش اليهود في اليمن وتطاولهم وخاصة في أيام المهدي أحمد بن الحسن ونفوذهم المتزايد داخل الحاشية وسيطرتهم على اقتصاد البلاد واحتكارهم لضرب العملة فجعلوا يتوسعون في عمارة الكنائس زيادة على العدد المسموح به والمتفق عليه وشرعوا ينشرون المباذل في المجتمع مثل بيع الخمر وإفساد الأخلاق وتطاول بهم الأمر إلى حد أنهم كانوا يزاحمون المسلمين في الطرقات ويحملونهم على سلوك يسار الطريق كما ذكر ذلك الأمير في «سبل السلام».

ومن يرجع إلى كتاب «حوليات يمانية» سيجد أخبار زياراتهم الغريبة لصنعاء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وانطلاقًا من اطلاعه الواسع على تاريخهم المقيت ضد الإسلام وفهمه العميق لحكم اللَّه تعالى ووصية رسوله ﷺ بإجلائهم عن الجزيرة كان يبذل وسعه ويحث الإمام على إخراجهم أو على الأقل إلزامهم جحورهم التي أنزلوا فيها.. وذات يوم اعتدى مخمور على مراهق ليفحش به فأنقذه الناس وغضب الإمام وطلب كبير اليهود سالم العراقي منكرًا عليهم بيع الخمر. ولكثرة المندسين في الحاشية من أصدقاء اليهود أوعزوا إلى سالم أن يفتري على الأمير والحسن بن إسحاق أنهما افتيا بذلك وسمع الأمير بالزعم المفترى لتوه إلى المتوكل مطالبًا

(١) المصدر السابق (ص٩٥).

بإحضار سالم والتحقيق فيما افتراه وأحضر سالم فعلاً. وهناك فاجأه الأمير بمناقشته عن الكنائس المستحدثة خلافًا للاتفاق. وبينما سالم مرتبك في الإجابة على ذلك إذا بالأمير يفاجئه مرة أخرى بالسؤال عما زعمه من فتوى الأمير وإسحاق وعندها أقر اليهودي أنه لم يكن قد اتفق بالأمير ولا بابن إسحاق وإنما أخبرهم عالمهم بذلك فاتضح للمتوكل كذبه وأمر بحبسه ولكن الأمير أوضح له أن الحبس غير كاف وإنما المقصود هو إزالة الكنائس المستحدثة؛ لأن في بقائها شرًّا كبيرًا. وحذر المتوكل من أصدقاء اليهود المندسين في حاشيته. وفعلاً ما كاد الأمير يصل منزله حتى هرع أفراد الحاشية يتشفعون لدى المتوكل بإخراج سالم من الحبس ووقف الهدم للكنائس. .

ولنصغ إلى المؤرخ زبارة يحدثنا في «نشر العرف» عن تفاصيل تلك الحادثة وما كان من مناظرة الأمير مع يوسف المتوكل حولها ورسالة ابن الوزير بشأنها قال (ص٥١٤): ثم أن البدر الأمير ناصح المتوكل بأنه يجب عليه إخراج اليهود من جزيرة العرب التي منها اليمن كما أوصى النبي ﷺ فإن لم يتم إخراجهم فلا أقل من التزامهم الصغار وخراب ما زادوه من الكنائس مما لم يؤذن فيه.

فأمر المتوكل عند ذلك بخراب الكنائس. ثم قال له البدر: هذا اليهودي يبذل المال لمعاونيه وسيراجعكم الآن في شأنه كل أحد ثم خرج. فلما كان ببعض الطريق أرسل إليه المتوكل بأول مكتوب وصل إليه وأمر المتوكل بأن لا يُقيد اليهودي.

وكان اليوم يوم الجمعة. فلما كان بعد صلاتها بلغ البدر أن المتوكل قد أمر بكف الخراب للكنائس. وكان قد شرع فيه المأمورون. فدخل على المتوكل فقال له: قد كنا سنرسل إليكم السيد أحمد ابن عبدالرحمن الشامي لأن الولد يوسف بن المتوكل وصل إلي إلى المحراب في الجامع وقال: لا يحل خراب

الكنائس فقد قررهم عليها الأئمة. فقال البدر: اطلبوه إلى مقامكم للمناظرة. ففرح المتوكل بذلك وأرسل إليه فلما دخل عليه قال له: هذا السيد هو المرشد إلى خراب الكنائس. فقال المولى يوسف بن المتوكل مخاطبًا للبدر: كيف يصدر منكم هذا؟ فقال البدر: أما خراب الكنائس فأمرسهل إنما أطلب من الإمام تنفيذ وصية رسول اللَّه ﷺ بإخراج اليهود من جزيرة العرب.

فقال يوسف: وأين هذا الحديث؟ فقال البدر: هو في كتب الحديث وغيرها. منها «شرح الآثار».

فأمر المتوكل السيد أحمد بن عبدالرحمن الشامي أن يحضر «شرح الآثار» فجاء به ففتح البدر على الحديث.

قال المولى يوسف: إن السيد محمد منطيق وأنا على المنطيق لا أطيق.

فقال المتوكل: فلِمَ جئتنا إلى المحراب. وانقضى المجلس ولم يتم المرام ثم ألف السيد العلامة عبداللَّه بن علي الوزير رسالة يرجح فيها تقرير اليهود على البقاء في اليمن فأورد أدلة واهية وأرسل بها إلى القاضي يحيى بن حسن سيلان؛ ليبلغها إلى المتوكل.

فمر بها الرسول على المولى العلاّمة الحسن بن إسحاق فاطلع البدر عليها.

فأمر البدر رجلاً يشبه خطه خط الرسالة أن يكتب ما يمليه عليه في نقضها وكتب الرد في هامشها بعد كل بحث. وكان يصحح في آخر البحث من الرد موهمًا أنه من الأصل ثم أرجعها إلى الرسول واستكتمه. فلما أبلغها القاضي يحيى سيلان إلى المتوكل أمر بقراءتها. ثم قال المتوكل: اقرأ ما في هامشها فإذا هو ناقض للأصل. فقال المتوكل كيف هذا ينقض بعضه بعضًا. فقال: لا أدري[1] اهـ.

(١) المصدر السابق (ص٨١ ـ ٨٣).

□ قال الصنعاني في «سبل السلام» عن وجوب إخراج اليهود والنصارى والمجوس من جزيرة العرب:

والحديث دليل على وجوب إخراج اليهود والنصارى والمجوس من جزيرة العرب لعموم قوله: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**». وهو عام لكل دين.

والمجوس بخصوصهم حكمهم حكم أهل الكتاب كما عرفت. وأما حقيقة جزيرة العرب فقال مجد الدين في القاموس: جزيرة العرب ما أحاط به بحر الهند وبحر الشام، ثم دجلة والفرات. أو ما بين عدن أبين إلى أطراف الشام طولاً ومن جدة إلى أطراف ريف العراق عرضًا. انتهى.

وأُضيفت إلى العرب لأنها كانت أوطانهم قبل الإسلام وأوطان إسلامهم وهي تحت أيديهم. وبما تضمنت الأحاديث من وجوب إخراج من له دين غير الإسلام من جزيرة العرب. قاله مالك والشافعي وغيرهما.

إلا أن الشافعي والهادوية خصّوا ذلك بالحجاز، قال الشافعي: وإن سئل من يعطي الجزية أن يعطيها ويجزي عليه الحكم على أن يسكن الحجاز لم يكن له ذلك.

والمراد بالحجاز مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها كلها.

وفي القاموس: الحجاز مكة والمدينة والطائف ومخاليفها فإنها حجزت بين نجد وتهامة أو بين نجد والسراة أو لأنها انحجزت بالحرار الخمس: حرة بني سليم وراقم وليلى وشوزان والنار.

قال الشافعي: ولا أعلم أحدًا أجلى أحدًا من أهل الذمة وقد كانت بها ذمة. وليس اليمن بحجاز فلا يجليهم أحد من اليمن ولا بأن يصالحهم على مقامهم باليمن (قلت) لا يخفى أن الأحاديث الماضية فيها الأمر بإخراج من ذكر من أهل الأديان غير دين الإسلام من جزيرة العرب.

والحجاز بعض جزيرة العرب. وورد في حديث أبي عبيدة الأمر بإخراجهم من الحجاز وهو بعض من جزيرة العرب. والحكم ـ كما تقرر في الأصول ـ أن الحكم على بعض أفراد العام لا يخصص العام. وهذا نظيره.

وليست جزيرة العرب من ألفاظ العموم كما وهم فيه جماعة من العلماء. وغاية ما أفاده حديث أبي عبيدة زيادة التأكيد في إخراجهم من الحجاز؛ لأنه دخل إخراجهم من الحجاز تحت الأمر بإخراجهم من جزيرة العرب. ثم أفرد بالأمر زيادة تأكيد لا أنه تخصيص أو نسخ. كيف وقد كان آخر كلامه ﷺ: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**». كما قال ابن عباس أوصى عند موته...

وأخرج البيهقي من حديث مالك عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه سمع عمر بن عبدالعزيز يقول: بلغني أنه كان من آخر ما تكلم به رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**قاتل اللَّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لا يبقين دينان بأرض العرب**»..

وأما قول الشافعي: أنه لا يعلم أحدًا أجلاهم من اليمن فليس ترك إجلائهم بدليل فإن أعذار من ترك ذلك كثيرة. وقد ترك أبو بكر رضي الله عنه إجلاء أهل الحجاز مع الاتفاق على وجوب إجلائهم لشغله بجهاد أهل الردة. ولم يكف ذلك دليلاً على أنهم لا يجلون بل أجلاهم عمر رضي الله عنه. وأما القول بأنه ﷺ أقرهم في اليمن بقوله لمعاذ: «**خذ من كل حالم دينارًا أو عدله معافريًا**». فهذا كان قبل أمره ﷺ بإخراجهم فإنه كان عند وفاته كما عرفت. فالحق وجوب إجلائهم من اليمن لوضوح دليله.. وكذا القول بأن تقريرهم في اليمن قد صار إجماعًا سكوتيًا لا ينهض على دفع الأحاديث فإن السكوت من العلماء على أمر وقع من الآحاد أو من خليفة أو غيره من فعل محظور أو ترك واجب لا يدل على جواز ما وقع ولا على جواز ما ترك فإنه إن كان

الواقع فعلاً أو تركًا لمنكر وسكتوا لم يدل سكوتهم على أنه ليس بمنكر لما علم من أن مراتب الإنكار ثلاث باليد واللسان أو القلب وانتفاء الإنكار باليد واللسان لا يدل على انتفائه بالقلب وحينئذ فلا يدل سكوته على تقرير ما وقع حتى يقال: قد أجمع عليه إجماعًا سكوتيًّا. إذ لا يثبت أنه قد أجمع الساكت إذا علم رضاه بالواقع ولا يعلم ذلك إلا علام الغيوب. وبهذا يعرف بطلان القول: بأن الإجماع السكوتي حجة.

ولا أعلم أحدًا قد حرر هذا في الإجماع السكوتي مع وضحه. والحمد للَّه المنعم المفضل فقد أوضحناه في رسالة مستقلة. فالعجب ممن قال ومثله قد يفيد القطع وكذلك قول من قال: أنه يحتمل أن حديث الأمر بالإخراج كان عند سكوتهم بغير جزية باطل لأن الأمر بإخراجهم عند وفاته ﷺ والجزية فرضت في التاسعة من الهجرة عند نزول براءة فكيف يتم هذا؟ ثم أن عمر أجلى أهل نجران وقد كان صالحهم ﷺ على مال واسع كما هو معروف وهو جراية والتكلف لتقويم ما عليه الناس ورد ما ورد من النصوص بمثل هذه التأويلات مما يطيل تعجب الناظر المنصف.

❏ قال النووي: قال العلماء ـ رحمهم اللَّه تعالى ـ: ولا يمنع الكفار من التردد مسافرين إلى الحجاز ولا يمكثون فيه أكثر من ثلاثة أيام.

قال الشافعي ومن وافقه: إلا مكة وحرمها فلا يجوز تمكين كافر من دخولها بحال فإذا دخل في خفية وجب إخراجه فإن مات ودُفن فيه نُبش وأخرج ما لم يتغير. وحجته قوله تعالى: ﴿**إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام**﴾.

✍ **قلت**: ولا يخفى أن البانيان هم المجوس والمجوس حكمهم من حكم أهل الكتاب لحديثه: «**فسنوا بهم سنة أهل الكتاب**».. فيجب إخراجهم من أرض اليمن ومن كل محل من جزيرة العرب.. وعلى فرض أنهم ليسوا

بمجوس فالدليل على إخراجهم دخولهم تحت «**لا يجتمع دينان في أرض العرب**»[(١)] .

□ حرقه لكتابي «الإنسان الكامل» لعبدالكريم الجيلي، ومعه «المضنون به على غير أهله» المنسوب للغزالي.

قال في الديوان: لما تطاول معي عارض الإسهال زيادة على سنة ونصف ولم ينفع فيه دواء وأعيا الأطباء جاءني بعض فقهاء صنعاء بكتاب اسمه «الإنسان الكامل» تأليف الجيلي. ومعه «المضنون به على غير أهله» منسوب إلى تآليف الغزالي ولا أظنه من مؤلفاته، وإنما هو مكذوب عليه إن شاء اللّه.

فطالعت الكتابين وكنت أعرف الأول منهما من أيام ثم رأيت فيهما ما هو واللّه كفر لا يتردد فيه إيمان. فحرقتهما ثم جعلت أوراقهما في التنور وخبز لي على نارهما خبز نضيج وأكلته بنية الشفاء من ذلك الداء فذهب بحمد اللّه ذلك الألم. ونمت الليل أو أكثره وحمدت اللّه تعالى على نصرة دينه وعلى العافية. وقلت أبياتًا، وهي:

ألمّ بجسمي عارض طال مكثه ... وأعيا الأطبا منه طول سقامي

وأشفق أولادي وأهلي وجيرتي ... وظن حميمي أن فيه حمامي

ومما زلت أدعو اللّه في كل ساعة ... وهل غيره يرجى لكل مرام[(٢)]

* دفاعه عن الحجيج وطلب حمايتهم:

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة ١١٨٢هـ توجه ولده إبراهيم قاصداً البيت الحرام وكانت الأخبار الواردة عن الحرمين تنقل إلى المسامع خبر

---

(١) «سبل السلام» (٢/ ٣٦٧).

(٢) «مصلح اليمن» (ص١٢٨ ـ ١٢٩).

اضطراب الأحوال هناك وسطو العبيد على الحجيج فبعثها إلى الملك آنذاك الشريف مساعد يقول فيها:

إلى الأشراف أعيان الأنام وأهل البيت والبلد الحرام
بنو حسن وآل أبي نُمي وابنا أحمد خير الأنام
سلام لا يزال على رباكم من الرب السلام على الدوام
ولا زلتم حماة البيت ممن يحاول فيه أنواع الأثام
أتانا عنكم خبر غريب تواتر من يماني وشامي
بأن عبيدكم أضحوا لصوصاً يخيفون الحجيج بكل عام
إذا ظنوا بمال عند شخص ببطن الجيب أو تحت الحزام
تواثبت الجميع ليأخذوه ولو في الحجر كان أو المقام
ولو بالقتل إن عنهم تأبى بلا خوف هناك ولا احتشام
فقل لمساعد الملك المفدى لماذا لا تذب عن الأنام
وأنت عزيز قومك في أسود من الإشراف ليس له مسامي
أيأمن من يحج بكل فج ويلقى الخوف في البلد الحرام

*** رده على الزنادقة:**

كان الأمير يسمع بالمنكر البعيد عنه فيلزم نفسه بإنكاره ولو باللسان.. بلغه مرة ظهور بعض الفواحش بقطر قصي عنه فوضع قصيدة طويلة ينكر فيها على من سمع.. وكذلك شأنه مع بيت يقوله زنديق أو شبهة يروجها فاسق فلا يلبث أن يضع رده المفحم عليها.. وقف على بيتي الراوندي:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجـاهل جـاهل تلقـاه مرزوقـا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصيـر العـالم النحريـر زنديقـا

وهو الراوندي المرتد الذي هرب من سيوف المسلمين وأوى إلى ابن

لاوي اليهودي ووضع له كتبًا في الرد على الشريعة الإسلامية وصاحبها ﷺ فأجاب الأمير على بيتيه بقوله:

هذا الذي زاد أهل العلم معرفة ... وزادهم بالإله الحق تصديقا
فليس بالجهل صار الرزق مغتبطًا ... وليس بالعقل صار الرزق محوقا
وإنما هي أرزاق مقدَّرة ... بحكمة اللَّه فاسأل منه توفيقا

❑ ووقف الأمير على أبيات المعري:

كم غودرت غـادة كعاب ... وعُمِّـرت أمهـا العجـوز
أحرزهـا الوالـدان خوفًـا ... والقبـر حـرز لها حـريز
يجوز أن تخطئ المنايا ... والخلد في الدهر لا يجوز

❑ فأجاب عليه:

واللَّه مـا أخطت المنايـا ... ولا عليها الخطـا يجـوز
وإنمـا خـالق البرايـا ... الواحـد القـاهر العـزيز
قدر آجالهـم كماشـا ... الطفل والكهـل والعجـوز
فمن تعامى وكان أعمـى ... أنَّى لنيـل الهـدى يحـوز

❑ وأطلع على قول المعري أيضًا:

أخفتم السابح في لجة ... ورعتم في الجو ذات الجنـاح
هذا وأنتم عُـرش للردى ... فكيف لو خُلدتم يا قبـاح

❑ فرد عليه:

يا برهمي الشرع ربي الذي ... لصيد بر ولبحر أبـاح
لو كنت تقرى الذكر والسنة ... الغـراء ما قلت لهم يا قباح
فما على من صاد حوتًا ولا ... ذات جناح ما عليـه جناح

❑ وقال أيضًا في الرد عليه:

حرمت أكل اللحم يا جاهلاً ... ولمت من جهلك أهل الصلاح

وربنـــا مـــنّ علينـــا بمـــا نصيد من حوت وذات الجنــاح

تفضــلاً يا منكــراً فضـــله فمـا علينا في مبـاح جنـاح

قلدت أهـــل الكفـــر لكننـــا نتبـع آيات الكتــاب الصحـاح[1]

□ فرحم اللَّه الإمام الصنعاني وأجزل له المثوبة بدفاعه عن دينه ونشره للسنة وقمعه للبدعة.

* العلاّمة القانت يحيى بن محمد الحوثي ابن عروب تلميذ الصنعاني وإنكاره على إمام اليمن المنصور:

في سنة ١١٤٢هـ كان هجوم الباطنية من يام على بيت الفقيه إحدى مدن تهامة وعلى حفاش وملحان. وارتكبوا فيها العظائم. وبعد أن نهبوا وسلبوا أرسل المنصور جندًا اعترضوهم في أثناء الطريق وانتزعوا منهم شطرًا مما نهبوه. وكانت هذه الحادثة من أبشع ما صنعته الباطنية وبعض الموالين لهم من القبائل فإنهم لم يكتفوا بسلب الأموال وإنما أضافوا إليها سبي النساء والأطفال وبيع الحرائر وبيع الإماء. واعتبر المنصور استيلاء جنده على الشطر المنهُوب نصراً ضربت له الطبول، ووردت به البشائر، وقبلت فيه التهاني. لكن اللَّه سبحانه جعل في كل جيل شهوداً منه ووازعين له. فما أن وردت المراسيم الإمامية ناقلة التهاني مفعمة بالابتهاج حتى بعث العلاّمة القانت يحيى بن محمد الحوثي ابن عروب تلميذ ابن الأمير السالف الذكر برسالة رد إلى الإمام المنصور ينكر عليه سطوته ويوضح له حقيقة ما جرى ويجري وهي وثيقة من وثائق الإجلال لعلماء اليمن الصادعين بالحق.

وإليك فقرة من رسالته إلى المنصور قال: خلا أن كتابكم أعلن بما لا

---

(١) «مصلح اليمن» (ص٢١٣ ـ ٢١٥).

يقتضيه الحال والمقام. وإن لكل مقام مقالاً ولكل مقال حالاً يعرف. ذلك من نظرة في علم البلاغة وإن لم يكن من أهل الكمال دع عنك من صال في ميدان ذلك العلم وجال. والحال يقتضي أن يؤتى بكتاب حادث عظيم وخطب جسيم وكتاب تعزية بما حصل على المسلمين والضعفاء والمساكين وما لاقوه من الظلمة الضالين ثم تأسونا بما أسانا به القرآن وبما وصانا رسول الرحمن ﷺ ما اختلف الملوان وكر الجديدان وبما قاله السلف الصالحون ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾. وكيف لا؟ وهذه مصيبة في الإسلام وحادث جلل على الأنام وقد سُبيت كذا وكذا امرأة وكذا وكذا ولد. وأهلكت النفوس المحترمات وغُصبت الأموال المملوكات واستبيحت الفروج المحرمات. وصار المسلمون خولاً وأموالهم دولاً ونساءهم كالإماء تباع وتشترى. فخليق بالمسلمين أن يبكوا دمًا لا ماء وأن يسكبوا الدموع من العيون وأن يعزي بعضهم بعضًا وأن يظهروا التلهف والجزع والخيب والفزع لا سيما من أخل بالدفع وهو عليه فرض. فهذا المقال هو الذي يقتضيه الحال لا ما استعرتموه من الأبيات المصرعة والفقر المسجعة والألفاظ المصرعة.

فهذه البضاعة لا تنفق إلا عند غير أهل هذه الصناعة من الجهلة الأغمار لا عند الناظرين بعين الاعتبار من ذوي البصائر والأبصار».

❑ ويقول بعد استطراده في تصوير ما حدث بين الباطنية وجند المنصور من التكالب على السلب، ويخلص إلى الرد على ما كان يطلقه المنصور على جنده من نعتهم بالمجاهدين: «وما ذكرتموه من أن المجاهدين الثابتين فعلوا وفعلوا ممن ذكرتهم لا يستحق اسم المجاهد الشهيد. وإنه قد حدّ لنا نبينا ﷺ حين سُئِل ما هو؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا**».

وهؤلاء إنما قتالهم على حطام الدنيا. وكان يجب عليكم الدفع عن رعيتكم من الضعفاء قبل أن تنهشهم الكلاب والذئاب، وقبل أن يصلوا إلى بلاد حفاش وملحان. ولو كسرتم تلك الفئة الباغية قبل أن يصلوا إلى المسلمين لعددنا ذلك نصرًا مبينًا وبشارة عظيمة ولكأنكم فتحتم القسطنطينية وفلسطين، ولو كان جندكم من أهل الحق كما ذكرتم لردوا ما نهبوه إلى أهله ولما بقوا في الحين وحراز محررين أنفسهم من سقوط السماء أو كأنهم حافظون لها وهي لا تقع على الأرض إلا بإذن اللَّه».

□ ثم يسرد بعض الخطوب التي نزلت برعاياه ويحدد أسباب الداء. ولعمري أنه لقول فاصل ما أحوج الناس حتى اليوم إليه.

□ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «نعم قد كتبنا كتبًا من جهة المصالحة لحاشد وبكيل ويافع، وأجبتم بجواب مغالطة تركتم ما ذكرناه لكم من المصالحة لأنكم لو فعلتم ذلك لما نهبت يافع قعطبة... والسبب فيما حصل أنكم خصصتم بوزراء سوء كل واحد منهم عن الدين عاطل، دينهم أكل أموال الناس بالباطل، ولا يصلون إلى ذلك إلا بفتح هذه المهالك، ولم يرقبوا شديد بطش المالك، فبعضهم يقف فوق سجادته بعض يومه وليلته وتلك شبكة لأموال المسلمين، وبعضهم يخبط خبط عشواء كحاطب ليل في ظلماء لا ينظر في الأمر بعين الحقيقة، ويوهم بأنه من أهل الطريقة، وكلهم يتبع كل ما قيل له: هذا كذا قال: بلى هذا يصلح هذا من أحسن ما يكون. فهؤلاء يجب عليكم الدفع عن المسلمين بما أمكن إما بقتال العدو أو المصالحة كما كان عليه من قبلكم، وكذلك النظر في المحبوسين؛ فإن تحميلهم القيود الثقيلة المهلكة أو المثخنة مما لا يجوز وكذلك غيرهم من المستضعفين. ولم يكن لأئمة أهل البيت ذلك، وإنما كانت قيودهم بأقفال تُفتح للصلاة» اهـ[1].

---

(١) «مصلح اليمن» (ص٨٧ ـ ٨٨).

☐ وفضل الحوثي ابن عروب شاهد بفضل الصنعاني فإنه حسنة من حسناته.

* الشوكاني شيخ عصره ـ قذى في عيون المبتدعة والمقلِّدة وشجى في حلوق الرافضة:

واجه الشوكاني أدواء قومه ومفاسدهم الوبيلة، والركام الهائل من الاعتقادات المنحرفة والأهواء الزائفة والنظريات السقيمة التي أصابت الأمة على امتداد القرون وتطاول الأحقاب وابتعادها شيئًا فشيئًا عن صراطها المستقيم وعروتها الوثقى الكتاب والسنة فنتج عن ذلك البعد أخطبوط متعدد الجنبات والاتجاهات:

١ ـ الرافضة بما تعنيه من ثلب الأصحاب وبالتالي منابذة السُّنَّة فالتردي في المهالك التي لا يبقى معها دين.

٢ ـ الباطنية بمنطلقها المجوسي الحاقد على الإسلام وتنظيمها الهادم لأسس العقيدة المفضي إلي نسف كيان الأمة.

٣ ـ التصوف الفلسفي المؤثر للابتداع على الاتباع مما يؤدي إلى الانحراف والخبط في المتاهات.

٤ ـ المذهبية لابتعادها عن المصدر الواحد النقي، والتيه في مختلف الأقوال، والجمود وعدم تمحيص أقوال الرجال على ضوء الأدلة القطعية.

٥ ـ إلى جانب ذلك المظالم المتعددة من الظلم الإداري الناتج عن عبث واختلاس رجال الحكم والظلم المالي المتمثل في المكوس الجائرة المفروضة على المسلمين بغيرسند شرعي، وإنما هي معارضة لما نهى عنه الكتاب والسنة والظلم الاجتماعي المتمثل في ما كان سائدًا ولا يزال في بعض الجهات من التحايل على ميراث المرأة باسم الوصايا والنذور ومنعها من حقها المكفول لها

بالشريعة. وكذلك موضوع الطلاق الذي أصبح مع طول الزمن مخالفًا في أغلب صوره لمقتضى الشريعة المبين بالكتاب والسنة الصحيحة والظلم القبلي الذي كان ولا يزال يحدث من اعتداء قبيلة على أخرى وإهدار الأرواح والديار والأموال.

كل تلك الأمراض والمظالم كانت موضوعة في خارطة الشوكاني الفكرية والعملية وهو يتحسس أوجاع قومه.

*** دعوة الشوكاني إلى عقيدة السلف:**

يرى الإمام الشوكاني: «أن طرق المتكلمين لا توصل إلى يقين ولا يمكن أن تصيب الحق فيما هدفت إليه؛ لأن معظمها قام على أصول ظنية، لا مستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل، والفرية على الفطرة، فكل فريق منهم قد جعل له أصولاً تخالف ما عليه الآخر، وقد أقام هذه الأصول على ما رآه عنده هو صحيحًا من حكم عقله الخاص المبني على نظره القاصر، فبطل عنده ما صح عند غيره، وقاسوا بهذه الأصول المتعارضة كلام اللَّه ورسوله في الإلهيات وما يتصل بها من العقائد، فأصبح كل منهم يعتقد نقيض ما يعتقده الآخر، وكل منهم يزعم أن العقل يقتضي ما يعتقده، وحاشا العقل الصحيح السالم عن تغيرّ ما فطره اللَّه عليه، أن يتعقّل الشيء ونقيضه، فإن اجتماع النقيضين محال عند جميع العقلاء»[1].

والإمام الشوكاني يدافع عن عقيدة السلف ويفرد لها بعض الرسائل مثل رسالة «التحف في مذهب السلف»، و«كشف الشبهات عن المشتبهات»، وهو يقول هذا بعد أن سبر علم الكلام، وأكبّ على مؤلفات طوائفه المختلفة، وشُغِل بها زمنا، فلم يظفر بشيء ولم يستفد غير الحيرة.

---

(١) «كشف الشبهات عن المشتبهات» للشوكاني (ص٢٢، ٢٣).

وغاية ما حصّلته من مباحثي ومن نظري من بعد طول التدبرِ
هو الوقوف ما بين الطريقيْن حيرة فما علم من لم يلق غير التحيّر؟
على أنني قد خضتُ منه غمارة ولم أرتض فيه بدون التبحر[١]

*** دعوته إلى تطهير الاعتقاد:**

رأى الإمام الشوكاني ما أدخله غلاة الشيعة والصوفية على العقيدة الإسلامية من جرّاء رفعهم القبور، وبناء القباب، ودعوة الأموات والعكوف على قبورهم، وطوافهم بها وتعظيمها، والذبح لهم والنذر لهم، وهذاكفر بواح يناقض شهادة «أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه».

وهو يجهر بهذه الدعوة للعوام والخواص، ومما كتبه يشفع فيه على بعض الخواص، ممن نسوا كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، وانساقوا وراء التعصب أو التقليد رسالة بعنوان «شرح الصدور بتحريم رفع القبور»، وهو في هذه الرسالة يرد على الإمام يحيى بن حمزة وهو من كبار أئمة الزيدية في القرن الثامن الهجري في قوله: «لا بأس بالقباب والمشاهد على قبور الفضلاء والملوك لاستعمال المسلمين، ولم ينكر». فيثبت أن هذا أول نداء بهذه البدعة صدر في الديار اليمنية، ثم تتابع المؤلفون في الفقه بهذا التصريح والجواز وراءه، تقليداً له واقتداء به. وهو يبطل هذه الفتوى بإبطال أدلتها التي أسندها بها صاحبها، وهي «استعمال المسلمين ولم ينكر» فإن استعمال المسلمين أو عدم انكارهم، إذا تعارض مع الكتاب أو مع السنة، كان ذلك الاستعمال باطلاً، فإن المرجع في الجواز وعدمه هو كتاب اللَّه وسنة الرسول؛ ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ [النساء: ٥٩]، وقد ظهر في الكتاب

(١) «التحف في مذهب السلف» للشوكاني (ص٥٤)، و«كشف الشبهات» للشوكاني (ص٢٣، ٢٤).

والسنة أن هذه أعمال تتساوى مع الكفر وعبادة الأصنام، وقد قال الرسول ﷺ : «كل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد»، ثم إن علماء المسلمين في كل عصر، ما زالوا يروون أحاديث رسول اللّه ﷺ في لعن من فعل ذلك ويقررون شريعة الإسلام في تحريم ذلك في مدارسهم ومجالس حفّاظهم، يرويها الآخر عن الأول والصغير عن الكبير»[١] .

❑ ويدعو الشوكاني ـ رحمه اللّه ـ إلي إخلاص التوحيد، أو النطق بشهادة «أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه» على وجهها، وأن المجتمع لا يمكن أن يستفيد من إيمانه في حياته الاجتماعية أو الاقتصادية والسياسية، إلا إذا كانت هذه الشهادة خالصة من مظاهر الشرك، فهنا يمكن أن ينتفع الإنسان من هذه الشهادة دينًا ودنيا، وأنه ما أخّر المسلمين، وقعد بهم عن الاستمرار في نهضتهم وعزتهم، إلا تحريف هذه الشهادة، وحيلولة مظاهر الشرك بينها وبين حلولها في القلب، أو حلولها ولكن بزيغ وتشويه، وأن هذه هي علة المسلمين اليوم، والتي وراء كل جمود وتأخر وذلة»[٢] .

«وقد أخذت هذه الدعوة منه حيّزًا كبيرًا بحيث صار فيها في اليمن إمامًا كابن عبدالوهاب في الحجاز من قبل، وابن تيمية في مصر والشام، ولاقى من جرّائها الكثير من المتعصبين ومن المقلدين، ورُمِي بالنصب من أجلها، ومن أجل دعوته إلى الاجتهاد والرجوع بالتشريع إلى طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين»[٣] .

ورد على ادعاؤهم بأنه ناصبي بكتابه «رد السحاب في مناقب القرابة

---

(١) «شرح الصدور بتحريم رفع القبور» للشوكاني (ص٩) وما بعدها.

(٢) رسالة «الدواء العاجل في دفع العدو الصائل» للشوكاني (ص٦٢، ٦٣، ٦٨).

(٣) مقدمة «قطر الولي على حديث الولى» أو «ولاية اللّه والطريق إليها» للشوكاني (ص٣٧ ـ تحقيق الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال ـ دار الكتب الحديث.

والأصحاب في فضائل علي ﷺ، وزوجة فاطمة وأولادها ﷺ».

* **دعوته إلى الاجتهاد، ومحاربته العنيفة للتقليد:**

ورأيه في الاجتهاد والتقليد عنوان لروح مذهبه، وهو عالم أصيل متمكن، متحمس له من باب التدين والمحافظة على الكتاب والسنة، وهو يقول في ذلك: «والذي أدين اللَّه به أنه لا رخصة لمتعلم من لغة العرب ما يفهم به كتاب اللَّه بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف، وشطر من مهمات كليات أصول الفقه في ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز، أو السنة المطهرة، ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأي سواء كان قائله واحدًا، أو جماعة، أو الجمهور»(١).

ولقد ألّف الشوكاني كتابًا للتراجم كدليل عملي وواقعي على أن باب الاجتهاد لم ينسد، وأنه مفتوح إلى يوم الدين، ذلك هو كتابه المشهور «البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع» ذكر فيه أصنافًا من المجتهدين، أو ممن فاقوا رتبة الاجتهاد، كإبطال لفكرة انتهاء الاجتهاد بانتهاء القرن السادس الهجري، وفي ذلك يقول: «فإنه لما شاع على ألسن جماعة من الرعاع اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خلفها، حتى اشتهر عن جماعة من أهل هذه المذاهب الأربعة تعذّر وجود مجتهد بعد المائة السادسة كما نقل عن البعض، أو بعد المائة السابعة كما زعمه آخرون.. حداني ذلك إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغني خبره إلى عصرنا هذا، ليعلم صاحب تلك المقالة، أن اللَّه ـ وله المنة ـ قد تفضّل على الخلف، كما تفضّل على السلف»(٢).

---

(١) «البدر الطالع» (٢/ ٨٤).
(٢) «البدر الطالع» (١/ ٢، ٣).

◻ قال ـ رحمه اللَّه ـ:

يا غارقين بشؤم الجهل في بدع ونافرين عن الهدى القديم، عدوًا
ما باجتهاد فتى في العلم منقصة النقص في الجهل لا حيّاكمُ الصمدُ
لا تنكروا موردًا عذبًا لشاربه إن كان لابد من إنكاره فردوا

◻ تجد هذه الروح القوية في جميع كتبه التي وصلتنا والتي أُلّفت في علوم الكتاب والسنة جميعها، مما يجعل منه مجاهدًا كبيرًا في هذا الميدان لا مجرد صاحب دعوة وكفى، وقد وقف بعض كتبه على بيان وجوب الاجتهاد، وعدم جواز التقليد مثل: كتاب «السيل الجرار»، وكتاب «أدب الطلب، ومنتهى الأرب»، وكتاب «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد»، وكتاب «بغية المستفيد في الرد على من أنكر الإجتهاد من أهل التقليد».

*** كتاب «السيل الجرار» ورده على فقه «الزيدية»:**

وكتاب «السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار» في الفقه، يُعتبر تطبيقًا عمليًّا من الإمام الشوكاني لمبدأ الاجتهاد في مسائل الفقه ومناهضا للفقه الهدوي في الزيدية، إذ أنه يأتي بالمسألة التي تكلم عنها الإمام المهدي أحمد بن يحيي المرتضى في الأزهار، أو علق عليها في شروحه هو أو غيره، فيبسطها، ويبين وجه التقليد فيها للإمام الهادي يحيى بن الحسين، أو الإمام يحيى بن حمزة، أو غيرهما، ويقيم الأدلة من القرآن والسنة على بطلان ذلك وابتداعه.

*** جهاد الشوكاني للمقلدين وذمه لهم:**

◻ يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «ولقد كان لي مع هؤلاء في أيام الاشتغال بالدرس والتدريس وعنفوان الشباب، وحِدّة الحداثة قلاقل وزلازل جمعت فيها رسائل، وقلت فيها قصائد فمن جملة ما خاطبتهم به ما قلته في

قصيدة:

يا ناقداً لمقال ليس يفهمه ... من ليس يفهم قل لي كيف تنتقد؟
يا صاعداً في عور ضاق مسلكها ... أيصعد الوعر من بالسهل يرتغد؟
يا ماشيًا في فلاةٍ لا أنيس بها ... كيف السبيل إذا ما اغتالك الأسدُ؟
يا خائض البحر لا يدري سباحته ... وَيْلي عليك أتنجو إن علا الزبد؟

□ ومما قلته في ذلك:

رأوني لا أدين بدين قوم ... يرون الحق ما قال الجدودُ
ويطّرحون قول الطهر «طه» ... وكلٌّ منهمُ عنه شرودُ
فقالوا قد أتى فينا فلان ... بمعضلة وفاقرة تؤود
يقول الحق قرآن وقول ... لخير الرسل لا قول ولود
فقلت كذا أقول وكل قول ... عدا هذين تطرقه الردود
وهذا مهيع[1] لأعلام قبلي ... وكلهم لمورده ورود

□ ومما قلته:

موتوا إذا شئتم قد طار من كلمي ... في نصرة الحق ما حرّرتُ في الكتب
وأرتجى أن يلبي دعوتي نفرٌ ... يسعوْن للدين لا يسعون للنَّشب
لا يعدلون بقول اللّه قول فتًى ... ولا بسنة خير الرسل رأى عني
أبث ما بينهم من مذهبي دررًا ... حجبتها عن ذوي التقليد والريب
يا فرقة ضيّعتْ أعلامها سفهًا ... وصيّرت رأس أهل العلم كالذَّنَبِ
من قال: قال رسول اللّه بينكمُ ... غدا بذا عندكم من جملة النصَبِ[2]

(١) المهيع: الطريق الواضح.

(٢) «قطر الولي على حديث الولي» للشوكاني (ص٣٤٧ ـ ٣٥١).

☐ ويُرجع تعصب المقلدين إلى الجهل:

أتانا أن سهلاً ذم جهلاً علومًا ليس يعرفهنّ سهلُ
علومًا لو دراها ما قلاها ولكن الرضى بالجهل سهلُ

☐ يقول الشوكاني في واجب العلماء وأولى الأمر نحو المقلّدين:

«وواجب على كل من له ولاية يأمر فيها بمعروف أو ينهى عن منكر أن يجعل نهي المنكر الذي عليه هؤلاء عنوان كل نهي ينهى به عن منكر، فإنهم في الحقيقة إنما يطعنون على علماء الدين من السلف الصالح، ومن مشى على هديهم القويم، ويدفعون بالرأي الذي هو ضد الشريعة، ما شرعه اللَّه لعباده، وهم بهذه المنزلة من الجهل البسيط أو المركب.

فهل سمعت أذناك بمنكر مثل هذا المنكر، وبلية في الدين مثل هذه البلية، ورزية في الملة الإسلامية مثل هذه الرزية؟؟ فإن النيل من عرض فرد من أفراد المسلمين منكر لا يخالف فيه مسلم إذا كان عن طريق الغيبة، أو البهتان، أو على طريق الشتم مواجهة ومكافحة.

فكيف بمن جاء بما هو من أعظم البهتان، وأقبح الشتم للشريعة المحمدية، والدين الإسلامي، ولعلماء المسلمين سابقهم ولاحقهم؟؟ فياللَّه وللمسلمين، ياللَّه وللمسلمين، ياللَّه وللمسلمين!!!

فإن هؤلاء لما رأوا كثيرًا من العلماء يداهنونهم ويدارونهم اتقاء لشرهم ما زادهم ذلك إلا شرًّا، ولا أثر فيهم إلا تجرءًا على ما هم فيه.

ولو تكلم أهل العلم بمايجب عليهم من نصر الشريعة والذب عن أهلها بما يجب عليهم لكانوا أقل شرًّا وأحقر ضرًّا»[1] .

---

(١) المصدر السابق (ص٣٥٧ ـ ٣٥٩).

*** الشوكاني يداوي قومه وأمته:**

ولم يكن دواء الشوكاني منحصرًا في التأليف فقط، وإنما كان موزعًا على ثلاث شعب:

١ ـ **الجانب العلمي:** وتبلغ مؤلفاته وأبحاثه ورسائله المئتين أو تزيد تناول فيها كل ما يهم الإنسان من تبصرة بأمور دينه ودنياه وأهمها في مواجهة الأمراض والمظالم السالفة عشرة كتب هي: «فتح القدير في التفسير» و«نيل الأوطار» و«الفوائد المجموعة في الحديث»، و«السيل الجرار على متن الأزهار» في تحقيق القول في المذهب والنص على صحيحه وسقيمه.. وكان هذا الكتاب الذي أمضى فيه اثني عشر عامًا من أسباب مضاعفة النقمة عليه و«إرشاد الغبي في مذهب أهل البيت في أصحاب النبي»، و«در السحابة في الذب عن الصحابة»، و«القول المفيد بين الاجتهاد والتقليد»، و«الفتح الرباني الجامع لفتاوى الشوكاني».

٢ ـ **الجانب العملي:** وحياته كلها جهاد متواصل لتمكين الشريعة ونشر السنة. ويمكن إجمالها في تدريسه لكتب الحديث وتطهيره لجهاز القضاء من الجهلة والظلمة وحثه للإمام المنصور على أخذ الزكاة عينًا بحسب مقاديرها في الشريعة وإلغاء المكوس ومحو الأمية الدينية بنشر المعلمين في الأرياف والقرى على حساب الدولة. وقد أفلح في كل ذلك ولو إلى حين وتمكن من إنصاف المرأة من حقها في الإرث وتنظيم الطلاق.

٣ ـ **الجانب التوجيهي:** ويعتبر الشوكاني في هذا الجانب مؤسس مدرسة تربوية رائدة وكتبه في هذا المضمار عديدة. منها «أدب الطلب» و«الدواء العاجل» و«البدر الطالع» وديوان شعره.

هذه باختصار بالغ مجمل إنجازات الإمام الشوكاني الذي كان في عصره شيخ شيوخ السنة في عالم الإسلام على الإطلاق.

*** ومِنَ الهند ربَّانيون آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر :**

«تشرّفت الهند بالإسلام في عهد الخلافة الراشدة، وفُتحت بلاد السند في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك سنة ٩٣هـ على يد المجاهد الباسل محمد بن القاسم الثقفي.

وكان أهلها منذ الفتح الإسلامي إلى أواخر القرن الرابع عاملين بالكتاب والسنة على مذهب أهل الحديث، بعيدين عن الجمود الفقهي الذي فرّق جمع الأمة الإسلامية، وشتّت شملها فيما بعد.

وشهد على ذلك أبو القاسم المقدسي الرّحالة المعروف في كتابه «أحسن التقاسيم» حين زار بلاد السند سنة ٣٧٥هـ قائلاً:

«أكثرهم أصحاب الحديث، ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة ـ رحمه اللَّه، وليس به مالكية ولا معتزلة، ولا عمل للحنابلة.

إنهم على طريقة مستقيمة ومذاهب محمودة، وصلاح وعفّة. قد أراحهم اللَّه من الغلوّ والعصبية والفتنة»[1] »[2] .

□ وأرض الهند رويت أرضها وازدهرت بدماء الغزاة والفاتحين المسلمين، وعرق الدعاة والمصلحين، ودموع الأولياء والصالحين، ودعوات الضارعين المبتهلين.

*** ملوك آل تغلق وجهادهم للبدع والمنكرات :**

ورد عديد من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ من الشام ومصر إلى الهند وكان لهم أثر في دعوة الملك محمد تغلق إلى القضاء على

---

(١) «جهود مخلصة في خدمة السنة المطهرة» للفريوائي (ص٦) ـ طبعة السلفية بالهند.

(٢) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ولصلاح الدين مقبول» (ص١٦٣) ـ دار ابن الأثير ـ الكويت.

العادات والتقاليد والبدع والخرافات. وعلى رأس هؤلاء التلامذة:

◻ [«**العلامة عبدالعزيز الأردبيلي**: قد صرّح بوروده إلى الهند وتأثيره في الملك محمد تغلق المذكور عدد من المؤرخين منهم: أكبر شاه النجيب أبادي في «مرآة الحقائق»، والشيخ محمد إكرام في «ماء الكوثر»، والأستاذ محمد إسماعيل الندوي في «تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية».

◻ **والشيخ عليم الدين (حفيد الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني)**: ذكره الشيخ محمد إكرام والنجيب آبادي وصرّح بأنه من «تلامذة ابن تيمية، وكان من أبرز من دعا محمد تغلق إلى إزالة البدع والمنكرات، وشجّعه على استئصال الأوهام والخرافات»[(١)] .

* **والعلاّمة شمس الدين ابن الحريري**:

◻ قال النجيب أبادي: كان حنفي المذهب، وكان قاضيًا في مصر إلاّ أنه قد عُزِل عن القضاء لأجل تأييده الإمام ابن تيمية، وجاء إلى الهند سنة ٧٠٨هـ في عهد السلطان علاء الدين الخلجي، وجاء معه بأربعمائة كتاب في الحديث، ولعلّ هذه الخزانة الحديثية التي وصلت إلى الهند أجدر بالذكر والتنويه من غيرها»[(٢)] .

وكان الشيخ شمس الدين يقول: «إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟ وقال بعض أصحابه: أتحبّ الشيخ تقي الدين؟ قال: نعم! واللَّه لقد أحببت شيئًا مليحًا».

◻ «لقد أشاد هؤلاء المؤرخون وغيرهم من كبار العلماء مع بعض تعصباتهم وتصوفهم أمثال السيد سليمان الندوي، والأستاذ خليق أحمد

---

(١) «مرآة الحقائق» (ص٤٣٣).

(٢) المصدر السابق (ص٤٣٣).

النظامي بجهود تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عصر الملك محمد تغلق وتأثر الملك بهم في حكم العباد وسياسة البلاد»][(١)] .

* **ملك الهند الشجاع محمد تغلق :**

حثه تلامذة ابن تيمية على إحياء ما اندرس من معالم الإسلام، والاهتمام بإقامة الصلوات الخمس، ورغّبوه في اختيار منهج شيخ الإسلام في العقائد والعبادات والآداب والمعاملات وأثمرت دعوتهم ولاقت عنده قبولاً[(٢)] .

«ومما يُحكى في اشتداده في إقامة الشرع ورفع المغارم والمظالم أنه كان شديدًا في إقامة الصلاة آمرًا بملازمتها بالجماعات، يُعاقب على تركها أشد العقاب. ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنيًا، وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الأسواق، فمن وُجد بها عند إقامة الصلاة عُوقب، حتى انتهى إلى عقاب مربّي الخيل إذا ضيّعوا الصلاة، وأمر أن يُطالب الناس بتعليم فرائض الوضوء والصلاة والإسلام، فكانوا يُسألون عن ذلك، فمن لم يُحسنه عوقب، وصار الناس يتدارسون ذلك ويكتبونه .

ومما قيل في ذلك أنه أمر أخاه أن يكون قعوده مع قاضي القضاة في قبّة مرتفعة مفروشة بالبسط، فمن كان له حق مع أحد من كبار الأمراء وامتنع عن أدائه لصاحبه يُحضره رجال أخيه عند القاضي ليُنصفه .

ومما فعل من ذلك أنه أمر برفع المكوس عن بلاده، وأن لا يُؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة. وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم في كل

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ١٤٢)، و«الدرر الكامنة» (٥/ ٣٢٠) .

(٢) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة» (ص٢٤، ٢٥) .

يوم اثنين وخميس. . ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من المثول بين يديه. . وعيّن أربعة من الأمراء الكبار يجلسون على أبواب أربعة لأخذ القصص من المشتكين. . وإن لم يأخذوه مضى إلى قاضي المماليك، فإن أخذ منه وإلاّ شكا إلى السلطان، فإن صحّ عنده أنه مضى إلى أحد منهم فلم يأخذه أدّبه. وكل ما كان يجتمع من القصص في سائر الأيام يطالعه بعد العشاء الآخرة»[1].

□ وقال الشيخ محمد إكرام: «إن المتصوفة الكبار وأصحاب التراجم ألصقوا بالملك محمد تغلق تهمًا كثيرة، وذكروا عنه قصصًا تشكك في عقائده، ولكن الأمر الذي يدعو إلى التفكير فيه هو أن محمد تغلق آذى المتصوفة فقط. وأما العلماء فلم يلاقوا منه إلا احترامًا وتبجيلاً. وكان يُؤكد على إقامة الصلوات الخمس بكل قوة وشدة، وكان يحافظ على الصلوات الخمس بالجماعة.

وكان محمد تغلق ـ رحمه اللَّه ـ حافظًا للقرآن كله، محافظًا على الصلوات الخمس في أوقاتها بكل عناية»[2].

□ قال الأستاذ مسعود الندوي بعد ما ذكر محمد تغلق وماله وما عليه:

«ومهما يكن من حقيقة الأمر فإنه أحب لدينا ممن تقدّمه من ملوك الهند الجبابرة؛ لأنه قام بشيء من واجبه في سبيل إحياء مآثر الإسلام وتجديد ما اندرس من آثاره ومعالمه في هذه البلاد. والناس فيما يعشقون مذاهب»[3].

□ قال مؤرخ الهند الهندوكي الوثني تاراشند: «كان محمد تغلق ملتزمًا التزامًا كاملاً بمقتضيات دينه، وكانت حياته العائلية نزيهة ولم يكن عصبيًّا.

(١) «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» للسيد عبدالحي الحسني (٢/ ١٢٩).
(٢) «ماء الكوثر» (ص١٠٤).
(٣) «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» لمسعود الندوي (٢٤ ـ ٢٥).

وحاول إصلاح حياة الهنادك، والقضاء على تقاليد الديانة الهندوكية في شأن النساء المتوفى عنهن أزواجهن فقد كُنّ يحرقن أنفسهن مع أزواجهن، وكان يسمى هذا العمل «ستى»[1] .

ولم ينصفه ابن بطوطه وادعى عليه ما ليس فيه من أنه تجاسر على إراقة الدماء وردّ عليه الدكتور مهدي حسن في كتابه عن حياة محمد تغلق.

* الملك فيروز شاه تغلق وعطفه على الرعية وإعلاؤه لكلمة اللّه:

تولى فيروز شاه تغلق (٧٥٣ ـ ٧٩٠هـ) الأمر بعد وفاة ابن عمه محمد تغلق فرأت البلاد منه ملكًا صالحًا يعطف على الرعية ويعني بأمور صلاحهم.. لم تظهر منه بادرة تزري بسيرته في رعيته وسياسته في ملكه، وأنه قد أتى في سبيل إعلاء كلمة اللّه ورفع لوائها من الأعمال الجليلة بما لم يأت به، بل وبما يضاهيه أحد ممن تقدّمه من ملوك المسلمين. وذكر بنفسه كل الاصلاحات التي قام بها في تأريخه «فتوحات فيروز شاهي». ولخّصه الأستاذ مسعود الندوي في كتابه «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند»، وفيه كل ما يحتاج إليه العباد والبلاد من الإصلاحات في العقيدة والدين، والمعيشة، والاقتصاد، والسياسة والحكم، اللّهم بعض التصرفات والنقائض وسبحان من تنزّه عنها وله الكمال المطلق»[2] . اهـ.

* الإمام أحمد بن عبدالأحد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني (٩٧١هـ ـ ١٠٣٤هـ):

لن نستطيع أن نعرف قدر هذا الإمام حتى نقف أولاً على زندقة الملك أكبر وما فعله بالإسلام:

---

(١) «مختصر تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» (ص١٧٢ ـ ١٧٣).

(٢) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص٢٤ ـ ٣٠).

الملك أكبر وفتنة القرن العاشر الكبرى «الاعتقاد ببداية نظام جديد للعالم على بداية الألف الثاني من الهجرة»:

نادى الزنديق محمود بسيخواني في أواخر القرن التاسع الهجري إلى الديانة النقطوية[1] وبلغ أتباع هذه الفرقة الضالة الألوف المؤلفة في إيران والهند، ويعتقد هذا الزنديق بقدم العالم، ولا يؤمن ببعث الأجسام، وبالحشر إطلاقًا، ويعتبر الراحة واللذة في الدنيا مكان الجنة والنار، ويقول بنظرية النشوء والارتقاء ويعتقد أن القرآن الحكيم من تأليف محمد بن عبدالله ﷺ، ويستهزء بالصلاة والحج والأضحية، ويسمي شهر رمضان «بشهر الجوع والظمأ» ويسخرون من أحكام الطهارة والغسل، ولا يؤمن بحرمة النساء المحرمات، وقال بأن الدين الإسلامي أصبح منسوخًا، فلا مناص من قبول الدين الجديد الذي جاء به محمود، وأن الإسلام قد استنفد دوره، وقضى عمره، فمست الحاجة إلى دين جديد وأنه مع بداية الألف الثاني الهجري سيظهر الدين الجديد نبوءة محمود أنه سوف يظهر في عام ٩٩٠هـ رجل يمحو الباطل ويقيم الدين الحق، وهو ما يسمى عندها لعقيدة الألفية آلاف أخرى إلا في الشعوب العجمية[2].

وكان شريف الآملي وهو من المقربين إلى الملك أكبر ملك الهند ذا صلة وثيقة بكبار هذه الفرقة، وكان الملك أكبر يعامله معاملة المريد لشيخه، فرغّب أكبر في الدين الجديد وظل يستميله إليه، وأسند إليه الملك أكبر قيادة الجيش المكون من ألف جندي، ونصّبه داعيًا في بنكاله إلى «الدين الإلهي» وكان من

---

(١) سميت بذلك لادعاء ذلك الزنديق أنه يستعين في بيان مفاهيم القرآن بعدد الحروف والنقط.

(٢) انظر «الإمام السرهندي حياته وأعماله» لأبي الحسن الندوي (ص٥٣ ـ ٥٩) ـ دار القلم بالكويت.

أخص أصحاب الملك أكبر وأصدقائه الأربعة وكان ينوب عن الملك في مخاطبة أتباع الدين الإلهي ومريديه، والمعتقدين فيه.

□ وممن دعا الملك أكبر إلى اعتناق هذه الديانة ودعاه إلى التحرر من الشريعة، وانحرف به عن الجادة أبو الفضل بن الشيخ مبارك. ولقد نشر أبو الفضل الناكوري بساط ذلك القانون الخاسر الكاسد في بلاد الهند ولم يجدوا شخصًا أجدر وأحق في الدعوة إلى الدين الجديد من الملك أكبر.

□ دعا أكبر إلى عبادة النار والشمس والكواكب بدل التوحيد، وإلى عقيدة التناسخ مكان البعث والنشور، وأخذ البيعة على هذا الدين الجديد، وكانت الكلمة التي يدخل بها الإنسان في هذا الدين: «لا إله إلا اللَّه، أكبر خليفة اللَّه»، وكان مع هذه الكلمة عهد وميثاق يقول فيه معتنق هذا الدين: «إنني عن رغبة ورضا مني وحب من قلبي، أفارق دين الإسلام المجازي التقليدي الذي سمعت عنه من آبائي، وشهدتهم عليه، وأرفضه، وأدخل في الدين الإلهي الأكبري، وأقبل مراتب الإخلاص الأربعة في الدين، من ترك المال والنفس، وترك العرض والدين».

وكان الربا والقمار، والخمر والخنزير حلالاً طيبًا في هذا الدين، وأُجريت تعديلات في أحكام النكاح، وكان النهي البات عن الحجاب والختان، وقد نظم فيه الزنا تنظيمًا خاصًا، وعُين للمومسات مكان خاص، وأصدر بصدده قانون، فكان بغاءً رسميًّا، وعُدِّلت طريقة الدفن للموتى.

□ ومواقيت العبادة عنده عند الفجر والظهر وعند العشى فقط، ويسجد له الأتباع سجدة التحية والتعظيم، وأحيا أعياد ومهرجانات المجوس، وحبّذ ودعا إلى الشرب من ماء نهر كنكا «الكنج» وهو النهر المقدس عند الهنادك، وأصدر فرمانًا بمنع الزكاة، وأنكر المعجزات، ومنع من الصلاة، فلم يكن يستطيع أي واحد من الناس أن يؤدي الصلاة جهارًا في القصر، وأسقط

الصلاة والصوم والحج، وازدرى الإسلام وأهانه ولقد وصم تراث الملة الإسلامية كله بالحدوث، واعتبره مجموعة من السفاهات، وأن واضعيه ومؤسسيه أعراب فقراء من جزيرة العرب كانوا مفسدين في الأرض، وقطاع طرق، واستدل على ذلك ببيتين من «شاهنامه فردوسي» الذي قالهما على طريق النقل والرواية:

«من شرب ألبان الإبل، وأكل الضباب، بلغ العرب إلى أن بدأوا يحملون ببلاد العجم، سحقًا لدوائر الزمان سحقًا»، وسخر من الإسراء والمعراج وأنكرهما، وأهان مكان النبوة، ونفر من أسماء النبي وكرهها مرضاة لزوجاته الهندوكيات، واستهزأ بأركان الإسلام. يقول السيد سليمان الندوي: «أوقد المجوس النيران في معابدهم، ودقت النصارى نواقيسهم في كنائسهم، وزينت البراهمة أصنامهم، تمالأ التصوف واليوك وألحّا على أن يُشعلا شمعة واحدة في المعبد الهندوكي والكعبة، وإذا أراد إنسان أن يتصور مدى ما تركت هذه الحركة الخماسية من آثار فليراجع «دبستان مذاهب»[1] ليرى كم من أصحاب الزنّار يحرّكون المسابح، وكم من أصحاب السبح يعلقون في أعناقهم «الزنانير» كم من الأمراء يمرغون وجوههم على عتبة السلطان، وكم من أصحاب العمائم يقفون في البلاط، ويُسمع من منابر المساجد نداء «تعالى شأنه ـ اللَّه أكبر» كانوا في كل هذا، وإذا بصوت يعلو من جهة سر هند: «أن خلوّا الطريق، فقد جاء صاحب الطريق، ظهر مجدد فاروقي[2]، في الأبهة الفاروقية، كان ذلك أحمد السرهندي[3] قال عنه شيخه عبدالباقي الدهلوي

---

(١) كتاب في وصف الديانات المختلفة والفرق الإسلامية في الهند، في الفارسية.

(٢) نسبة إلى عمر الفاروق ﵁.

(٣) تقدم كتاب «سيرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد» لأبي الحسن الندوي بقلم السيد سليمان الندوي (ص٣٠، ٣١)، و«الإمام السرهندي» لأبي الحسن الندوي (ص١١١).

«إن أحمد شمس، تأفل في ضوئها آلاف النجوم أمثالي»[١] .

※ العلماء والمشايخ الشجعان الصرحاء في عهد «أكبر» و«جهانكير» :

مخطئ من ظن الصمت لفّ ربوع الهند استكانة لأمر هذا الزنديق «أكبر» بل تشهد كتب التاريخ والتراجم أن رجالاً ربانيين بذلوا جهودهم، وأبدوا استنكارهم لهذه الأوضاع قدر مستطاعهم، وجاهروا بعواطفهم الدينية وحميتهم الإسلامية، نذكر منهم:

الشيخ إبراهيم المحدث الأكبرآبادي:

ذهب الشيخ إبراهيم المحدث الأكبر أبادي (م١٠٠١هـ) ذات مرة إلى معبد الملك «أكبر» بناء على دعوته، فلم يسجد له، ولم يأت بالتحيات التقليدية للملك، التي كانت مخالفة للشريعة، ثم خطب عنده، فرغبه ورهبّه، وذكره باللّه، ولم يتهيب الشوكة والحشمة الملوكية»[٢] .

الشيخ شهباز كنبوه (م١٠٠٨هـ):

كان من كبار الأمراء في بلاط السلطان أكبر، تولى منصب «ميربخشي»[٣] ، وكان ذا جرأة ونجدة لا يُقصر عن قول الحق عند السلطان ولا يخافه، ولا يبالي برضاه أو سخطه في الأمور الشرعية، فلم يقصر اللحية، ولم يشرب الخمر، ولم يرغب في الدين الإلهي المخترع قط.

قال شاه نوازخان في «مآثر الأمراء»: «إن أكبر شاه السلطان كان يتفرّج يومًا بين العصر والمغرب، على بركة ماء بفتحبور، وكان شهبازخان بين يديه، فأخذ بيده والتفت إليه، وكان يمشي ويتكلم معه، والناس كانوا يزعمون أن

---

(١) «الإمام السرهندي» (ص١٣٣).

(٢) «نزهة الخواطر» (ج٥)، و«الإمام السرهندي» (ص٢٦٥ ـ ٢٦٦).

(٣) «الأمير الكبير الذي يرجع إليه أمر العساكر السلطانية المعينة في تلك الولاية»، وهو من أمراء الألوف.

شهباز لا يستطيع أن ينزع يده عن يد السلطان، فتفوته الصلاة، وكان من عادته أن لا يتكلم بعد العصر إلى المغرب، فلما رأى شهباز أن الشمس قد مالت إلى الغروب استأذن السلطان للصلاة، فقال السلطان: تداركها بالقضاء، ولا تتركني خليًا، فنزع شهباز يده، وبسط مئزره على الأرض واشتغل بالصلاة، ثم بالأوراد الراتبة والسلطان واقف على رأسه يشدِّد عليه، وتواجد مير أبو الفتح، والحكيم على الكيلاني أيضًا في تلك الساعة فشعرا بدقة الموقف فتقدما وقالا ـ لصرف نظر السلطان وغضبه عنه ـ نحن نستحق أيضًا أن يلتفت إلينا السلطان، فسكن غضبه، وانصرف عن شهبازخان، والتفت إليهما»[1] .

الشيخ عبدالقادر الأجيّ:

كان الشيخ عبدالقادر الأجيّ من أصحاب النجدة والجراءة، لم يوافق السلطان في مخالفة الشريعة، قدّم إليه أكبر ذات يوم الأفيون، على جري عادته، فامتنع عن بلعه، فأنكر عليه السلطان، فبينما هو قد فرغ من الصلاة المكتوبة يومًا في «عبادات خانه» ـ القصر الذي بناه أكبر للعبادة ـ واشتغل بالنوافل، إذ خرج عليه أكبر، وقال: ينبغي لك أن تتنفّل في بيتك، فقال عبدالقادر: يا مولانا، هذا ليس بملك فيكون تحت سلطانك، فغضب عليه السلطان وقال: إذا لم تكن ترضى عن ملكي، فاخرج عنه، فخرج الشيخ من ساعته، ورحل إلى مدينة «أج»، وعكف على الإفادة والعبادة، وكذلك سميه عبدالقادر اللاهوري (م١٠٢٢هـ) الذي كان السلطان ساخطًا عليه لتصلبه في الدين وشدة تمسكه بالشريعة، فأمره أن يسافر إلى مكة المكرمة.

مرزا عزيز الدين الدهلوي كوكه (م١٠٣٣هـ):

كان تربًا لأكبر وأخاه من الرضاعة، يحبه «أكبر» حبًّا مفرطًا، ويقدمه

---

(١) «نزهة الخواطر» (ج٥)، و«الإمام السرهندي» (ص٢٦٦ ـ ٢٦٧).

في كل باب، وكان عزيز ـ مع ذلك ـ يغلظ القول عليه فيما يأمره وينهاه، لا سيما فيما يخالف الشرع، فعزله عن ولاية كجرات، ثم ولآه على بنكاله وبهار، ولقّبه بالخان الأعظم وكان رغم ذلك، لا يستحسن بعض ما اخترعه من السجدة بحضرته، وحلق اللحية وغيرها.

الشيخ منور بن عبدالحميد اللاهوري (م١٠١٥هـ):

ولآه أكبر الصدارة عام ٩٨٥هـ بأرض مالوه، ولكن لم يدم له هذا الحال، لصلابته في الدين، واستقامته في السلوك، وضُيّق عليه في السجن حتى مات[1].

ميزة الإمام السرهندي من بين هؤلاء:

لكن الفضل الأكبر في مقاومة انحراف الدولة وضلالها، ومعارضتها بقوة وتنظيم الجهود الموفقة الحكيمة في إصلاحها وتقويمها يرجع إلى الإمام السرهندي الذي قيّضه الله ـ عز وجل ـ لصيانة الدين، ونصر الإسلام والمسلمين، وقدّر أن يناط به هذا العمل التجديدي العظيم، الذي واصل ليله بنهاره في إكمال هذه الخطة التجديدية، وإحداث تلك الثورة الصامتة الهادئة التي لم تهرق فيها الدماء وغيّرت مجرى التاريخ، ولا يوجد لها نظير في تاريخ الدول والبلاد الإسلامية الأخرى، وكان نتيجة هذه الجهود أن تولى الدولة ـ بعد وفاة السلطان أكبر ـ من امتاز بحميته للإسلام، وتعظيمه لحرمات الدين، وسلامته من الجراثيم المناوئة للإسلام، والكراهية له، وانتهت هذه السلسلة الذهبية، وبلغت الأوج والكمال على يد السلطان محيي الدين أورنك زيب الذي كان مثله الأعلى حياة الخلفاء الراشدين، وخدمتهم للإسلام والمسلمين.

---

(١) «الإمام السرهندي» (ص٢٦٧ ـ ٢٦٨).

◻ لقد كانت الأيام الأخيرة من حياة السلطان أكبر التي أحدقت فيها الفتن والأخطار بالهند، وهُدِّد الإسلام بالزوال والانقراض - هي الفترة التي بلغ فيها الإمام السرهندي كماله الروحي، ونضجه الفكري[1] .

* السلطان جهانكير واستئناف الإمام السرهندي عمله التجديدي لإصلاح الدولة والسلطان:

بعد موت السلطان أكبر عام ١٠١٤هـ أخذ السلطان جهانكير زمام البلاد بيده، ولئن كان جهانكير لتربيته تحت إشراف والده أكبر لم يكن له نزعة دينية خاصة، وتقيد بالشريعة الإسلامية، والتزام للفرائض والواجبات الدينية، فإنه لم يكن كذلك يحمل في صدره بغضًا للإسلام، أو تأثيرًا بحضارة قومية، أو فلسفة من الفلسفات الدينية، أو الرغبة في إعلان دين جديد، ولم يكن راغبًا في محو آثار الإسلام وطمس معالمه.

* سجن السرهندي في قلعة كواليار، وإسلام الآلاف على يديه، وهداية آلاف آخرين من المسلمين:

طلب جهانكير الإمام السرهندي إلى مقره، وأكدّ على حاكم سرهندي أن يوجهه إليه كيفما استطاع، فتوجه إليه السرهندي، ولما دخل عليه لم يأت من الآداب والتقاليد التي كان يلتزم بها الوافدون على السلطان، فلفت بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف اللَّه، نظر السلطان إلى أن الإمام لم يراع أدب الدخول عليه، ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك[2] ، فسأله السلطان عن

---

(١) كل يؤخذ من قوله ويرد، ويؤخذ على الإمام السرهندي صوفياته، والتلقين النقشبندي، والمكافات. والبيعة والتكميل الباطني النقشبندي، والخلوة وتلقين الذكر القلبي وغيرها من ترهات الصوفية. والخير كل الخير في هدي محمد ﷺ.

(٢) كانت تلك التحية تقليدًا سائدًا في البلاط منذ عهد السلطان أكبر، وكانت على ثلاثة

السبب، فقال: إنني لم أزل متقيّدًا بالآداب والأحكام التي دعا إليها اللّه ورسوله ﷺ، ولا أعرف غير هذه الآداب، فغضب السلطان، وقال: اسجد لي، فقال الإمام: ما سجدت لغير اللّه قط، ولن أسجد لغيره أبدًا، فتغيّظ السلطان وزاد غضبه، وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة كواليار.

وكان شاهجهان بعث قبل هذه الحادثة العلامة أفضل خان، والمفتي خواجة عبدالرحمن بالكتب الفقهية، وبهذه الرسالة إلى الإمام، أن الانحناء للسلاطين مرخص فيه في بعض الكتب الفقهية[١]، فلو فعلت ذلك أضمن لك بأنه لا يصيبك أي ضرر، فقال الإمام: إنه محض رخصة، والعزيمة أن لا ينحني المسلم لغير اللّه، تعظيمًا وتقديسًا.

وقعت هذه الحادثة في شهر ربيع الأول عام ١٠٢٨هـ، وصودرت كتب السرهندي ورسائله، وبستانه، وبئره، ورباطه، وبيته، ونُقل أهله إلى مكان آخر.

ونادى السرهندي وراء جدران السجن بأعلى صوته ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [يوسف: ٣٩]، ذكر بعض المؤرخين أن آلافًا من السجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه، ودخلوا في الإسلام، وأن مئات من السجناء المسلمين تابوا على يديه[٢].

أصناف، أولها الكورنش، وهو أن يضع يمينه على جبينه ويطأطئ رأسه إلى الصدر، وثانيها: التسليم، وهو أن يضع ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس، وثالثها السجدة كما يسجد في الصلاة «الهند في العهد الإسلامي» لعبدالحي الحسني (ص٣٧٢).

(١) عند الإكراه الفعلي خشية القتل والقلب مطمئن بالإيمان.

(٢) «الإمام السرهندي» (ص١٤٥ ـ ١٤٦).

□ يقول الدكتور آرنلند في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»:

«كان في عهد السلطان جهانكير عالم سني يدعي الشيخ أحمد المجدد، اشتهر في عصره بالرد على العقائد الشيعية، وكان الشيعة ذوى نفوذ في البلاط، فاحتالوا عليه حتى سببوا له الاعتقال فبقي في المعتقل عامين، واستمال في هذه المدة مئات من رفقته السجناء من غير المسلمين إلى الإسلام فاعتنقوه»[1].

وجاء في دائرة معارف الأخلاق والديانات:

«يُحكى عن عالم من علماء المسلمين يسمى الشيخ أحمد المجدد ـ كان في القرن السابع عشر الميلادي في الهند، واعتقل ظلمًا ـ أنه أدخل مئات من غير المسلمين السجناء الذين رافقوه في السجن، في دين الإسلام»[2].

وبقي السرهندي في قلعة كواليار عامًا كاملاً، ثم اختار السرهندي مرافقة السلطان فبقي في عسكره ثلاث سنين، وأثرت هذه المرافقة في السلطان وعسكره، ورأى السلطان عن قرب سلوك السرهندي وسيرته، وشاهد إخلاصه وربانيته، وأنه لا يقيم لزينة الدنيا وزهرتها وجاهها وسلطانها أي وزن، فأثر ذلك في السلطان جهانكير بالغ التأثير، فقد كان لمرافقته دخل كبير في نشأة النزعة الدينية الجديدة فيه، وعنايته بتعمير المساجد المنهدمة من جديد، وشغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة، وما ظهر منه عام ١٠٣١هـ بمناسبة فتح قلعة كانكره من عواطف إسلامية، وإظهار شعائر الإسلام فيها يدل على حدوث التحول، والتقدم في التدين الذي يُمكن معه القول بأنه كان غيضًا من فيض مرافقة الإمام السرهندي وصحبته.

لقد اتصل السرهندي بأعضاء الدولة وأمرائها، وأثار فيهم الحمية

---

(١) «الدعوة إلى الإسلام» لآرنلند (ص٤١٢) ـ الطبعة الثالثة.

(٢) «المجلد الثامن» (ص٧٤٨).

الإسلامية، والعواطف الدينية، فيمن عرفهم واتصلوا به من قبل، واعتقد أخلاقهم، وسمو شخصيتهم، وتوجعهم للأوضاع، لينفضوا الرماد عن تلك الجمرات الكامنهم في قلوبهم، ويشعلوها وينفخوا فيها، وحرّضهم على النصيحة للسلطان، وأن يبثوا فيه الحمية للإسلام، وحماية حوزته، وتضميد قلوب المسلمين الجريحة، ودعاهم إلى الزهد والتقشف، وسمو النفس وعلو الهمة.

◻ لقد كانت لهذه السنين التي أقامها السرهندي في عسكر السلطان تأثير عجيب في الحاشية وأعيان الدولة، وتحوّل المعسكر إلى رباط، وكان السرهندي يرى أن الساعة الواحدة في المعسكر أفضل من كثير من الساعات في أماكن أخرى.

◻ وجّه السرهندي خطابه إلى أركان الدولة وكبار الأمراء والوزراء واستأنف المراسلات التي بدأها قبل اعتقاله ونثر قطع قلبه، ومُزع نفسه على صفحات الرسائل التي تمتاز ببلاغتها، ونصاعة أسلوبها، وروعة تأثيرها، وكانت هذه الرسائل رسول السرهندي وسفيره في الدعوة، وترجمانه الصحيح لقلبه المكلوم الجريح، وهي قطرات دموعه، وفلذات أكباده، وقد كانت لها مساهمة أساسية فعّالة في إحداث ذلك الانقلاب العظيم الذي ظهر في الدولة المغولية في القرن العاشر بالهند.

لقد راسل السرهندي عددًا كبيرًا من أمراء الدولة وأركانها وأعيانها، راسل السيد مرتضى المعروف بالشيخ فريد وكان مستشارًا خاصًّا للسلطان، فحرّضه على أداء مسئوليته الدينية، وما يفرض عليه كونه من أهل بيت النبوة من واجب إسلامي في نصح السلطان.

وراسل خان أعظم مرزاكوكه، وخان دهان اللودهي، وصدر جهان البهانوي، وبيك جهانكير.

*** الوعظ بالرسائل، وما صدر من القلب وصل إلى القلب وليست النائحة الثكلى كالمستعارة:**

يقول في رسالة: «وا ويلاه، وا مصيبتاه، واحزناه، وا حسرتاه! أتباع محمد ﷺ ـ الذي هو حبيب رب العالمين ـ أذلة ضعفاء مهانون، والجاحدون بنبوته، أعزة أقوياء مكرمون، كان المسلمون بقلوبهم الجريحة المكلومة، يندبون الإسلام، ويرثونه وينوحون عليه، وكان المكابرون الجاحدون يسخرون، ويستهزؤون وينكئون جروح المسلمين الدامية، غابت شمس الهداية في ظلام الضلال، واختفى نور الحق في حجب الظلام وسحبه الداكنة.

واليوم بعد أن زال ما كان يحول بين الإسلام، وتقدمه وانتصاره، وتشنّفت الآذان، ببشرى تمكن سلطان الإسلام من عرش الحكومة ورأى أهل الإسلام من الواجب عليهم أن يساعدوا السلطان ويناصروه، ويبصّروه بطريق نشر الشريعة الإسلامية، وتأييد الملة الحنيفية، سواء كانت هذه المساعدة والمناصرة باليد أو باللسان».

◘ ويقول بعد بضعة سطور، وقد وضع الأصبع على الداء الذي أصيبت به الدولة في عهد «أكبر» «كل رزيئة رُزئ بها الإسلام في القرن الماضي، كان من شؤم علماء السوء، فهم الذين أضلوا السلطان وأغووه، وعندما تفرقت الملة الإسلامية اثنتين وسبعين فرقة واتخذت طريق الزيغ والضلال كان علماء السوء رؤوس هذه الفتن، وقادة هذا الانحراف، وقليل من ضل من العلماء وانحرف، ولم يؤثر ضلاله على الناس، وأن معظم جهلة هذا العصر، المترعمين للتصوف يمثلون دور علماء السوء، ففسادهم ـ كذلك ـ فساد متعد مُعدٍ، فإذا كان هناك من يستطيع أن يناصر في هذا العمل «نصر الدين الحنيف» ثم يقصر ويتكاسل ولا يؤدي دوره، فإنه مسئول عن الإسلام، يستحق الملام... أرجو منكم ـ لتقرّبكم إلى السلطان وتهيؤ الفرص في

الحديث معه ـ أن تبذلوا جهودكم في تمكن الشريعة المحمدية ونشرها، وتخرجوا المسلمين من غربتهم ومسكنتهم ومهانتهم»[١] .

□ ويقول للسيد فريد ـ وهو من أهل البيت ـ:

«سيدي الشريف! إن الإسلام ـ اليوم ـ مسكين غريب، وإن فلسًا واحدًا يُنفق ـ الآن ـ لتقوية الإسلام وتأييده، يعادل الملايين، فلننظر من يكون ذلك الصقر الجرئ الذي ينعم اللَّه عليه بهذه النعمة الجليلة. إن العمل الذي يقوم الإنسان به لنشر الدين وتأييد الملة ـ في أي عصر من العصور ـ جميل محبوب ولكنه اليوم حيث الإسلام غريب أجمل وأحب».

□ ويكتب إلى مرزا عزيز الدين خان أعظم «أيدكم اللَّه ـ سبحانه ـ ونصركم على أعداء الإسلام في إعلاء الإسلام، قال رسول اللَّه ﷺ : «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**». فقد بلغت غربة الإسلام في هذه الديار أن أطال الكفار ألسنتهم على الإسلام، ويعيبون المسلمين، ولا يستحيون من إظهار أحكام الكفر، ومدحه والثناء عليه في المشاهد والأسواق، والمسلمون إزاءهم لا يقدرون على إظهار أحكام الإسلام، ويُعابون إذا عملوا بها ويُذمون».

□ وقد قال الشاعر ما معناه:

«ما بال الحور العين مصفرّة الوجوه، شاحبة الألوان، والسعالي في الجمال والدلال، يا للحيرة القاتلة، ويا للعجب العجاب».

ثم يقول: «نرى وجودكم الكريم ـ اليوم ـ نعمة سابغة، ولا نرى فارسًا غيركم في الساحة لإدالة الإسلام من منافسيه، وخصومه وإقالة عثاره، أيدك اللَّه ونصرك».

---

(١) «الإمام السرهندي» (٢٧٥ ـ ٢٧٩) باختصار.

ثم قال: «إن هذه الفرصة للجهاد بكلمة الحق، التي أتاحها اللَّه لكم اليوم، هو الجهاد الأكبر، فانتهزوا هذه الفرصة وقولوا: هل من مزيد، واعتبروا هذا الجهاد باللسان ـ في هذا الوقت بالذات ـ أفضل من الجهاد بالسيف والسنان، ونحن الفقراء العجزة، عجزنا عن هذه النعمة العظيمة:

هنيئًا لأرباب النعيم نعيمهم ... وللعاشق المسكين ما يتجرَّعُ

هديناك إلى مكان الكنز الدفين، فإن كنتُ لم أظفر به لعلك أنت تظفر به».

◻ ويكتب إلى الأمير خان جهان:

«لو جمعتم بين ما تتبوأون من منصب كبير وبين العمل على الشريعة لأديتم أمانة الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وأوضحتم الدين المتين وأضأتموه، وعممتموه، ولو جهدنا ـ نحن الفقراء ـ أنفسنا أعوامًا طوالاً، لما حلقنا بغبار أمثالكم من صقور الإسلام.

ألا نفوس أبيّات لها هممٌ ... أما على الخير أنصارٌ وأعوانُ؟»

وكتب إليه «لما كان السلطان العظيم جهانكير يستمع إلى حديثكم بإصغاء واهتمام، ويقدره قدره، فما أجمل هذه الفرصة لتبلغوا إلي السلطان ـ بصريح العبارة أو الإشارة ـ كلمة الحق التي يعتقدها أهل السنة والجماعة، شكر اللَّه سعيهم، وتقدموا إليه بكلام أهل الحق ما اتسع له المقام، واقتضى الحال، بل انظروا والتمسوا دائمًا مناسبة من المناسبات يتطرق فيها الكلام إلى الدين والشريعة الإسلامية، حتى تنتهزوا الفرصة لإظهار أن الإسلام حق والكفر باطل شنيع»[1].

ويقول: «فلو تمكّن الإسلام في بداية هذه الدولة، وارتفعت رؤوس

(١) «الإمام السرهندي» (ص٢٨١ ـ ٢٨٣).

المسلمين ونالوا العزّة والكرامة، فبها ونعمت، وإذا حال توقّف وتردد في هذا الأمر دون ذلك، والعياذ باللَّه، فسوف يزداد حال المسلمين سوءًا وتعقدًا ورزيئة، فالغياث الغياث، ثم الغياث الغياث، فلننظر من المقبل المنصور الذي يشرّفه اللَّه بهذا السعادة، ومن هو الصقر الجسور الذي يظفر بهذه النعمة الجليلة ﴿**ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء واللَّه ذو الفضل العظيم**﴾».

*** العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي:**

تحت هذا العنوان: «ما هو العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي؟

كتب أبو الحسن الندوي: «إنه تجلية الفكر الإسلامي، وإنعاش الروح الدينية، ومقاومة الفتن الخطيرة المحدقة، واستئصالها من جذورها، وكسر طلاسم المحاولات الضالة المؤسسة على الرياضات والمجاهدات، والإشراق وصفاء الباطن، والتجارب الروحية ـ لمعرفة اللَّه تعالى والوصول إليه، التي كانت تعتمد على وسائلها وطرقها الخاصة، وتستنكف عن اقتفاء سيدنا محمد ﷺ واتباع سنته وهديه، ولا ترى لزومًا لذلك، وكشف النقاب عن وجه العقائد والنظريات المتلبسة بالوحدة والاتحاد، وقد بلغا أوج التطرف والمغالاة، وانتشرا في كثير من الأوساط وتلقّاهما كثير من الناس بالقبول، وأحدث رجةً في المعتقدات الدينية، وهزّة في المجتمعات الإسلامية، وفوضى في الخلق والدين، . . . والتشديد في الإنكار على البدع والخرافات ـ التي أصبحت تشريعًا إزاء تشريع ـ وتفنيدها، وعدم الاعتراف بوجود «البدعة الحسنة»، وتثبيت أقدام الإسلام المتزلزلة في الهند، وإزالة آثار الكفر ومعالم الضلال، التي خلّفها عهد أكبر المظلم، والمحاولة الجادة الحكيمة الناجحة لثورة دينية تجديدية، وتغيير جذري عظيم، كان من نتاجهم السلطان محيي الدين أرونك زيب عالمكير سلطان الهند، وصاحب الأمر والنهي فيها، سياسيًّا وإداريًّا،

وحكيم الإسلام الإمام ولي الدهلوي وخلفاؤه وتلامذته الذين هم من حلقات هذه السلسلة الذهبية ـ روحيًّا وفكريًّا، وكان كل ذلك امتداد هذه الدعوة والحركة، وهم الذين بذلوا جهودًا جبارة في نشر تعاليم الكتاب والسنة، والدعوة إليها بعلو همة، وشرحهما وتبيينهما للناس، وكانت جهودهم في الإفادة والتدريس، وإنشاء المدارس الدينية، والتزكية الروحية، والتربية الباطنية، وإصلاح العقائد، والردّ على البدع والتقاليد، ثم جهادهم، واستماتتهم في سبيل اللّه وسعيهم لإعلاء كلمة اللّه، وبفضل هذه الجهود بقيت شجرة الإسلام في الهند، قائمة على ساقها، ناضرة مخضرة، بل حوّلوا الهند مركز الثقل في العالم الإسلامي في العلوم الدينية لا سيما علم الحديث الشريف، والفكر الإسلامي، والدعوة والإرشاد.

هذا كله صحيح ومقرر تاريخيًّا وعلميًّا ولكن ما هي النقطة المركزية والمحور الأساسي الذي تدور حوله هذه الجهود التجديدية، والأعمال الإصلاحية العظيمة؟ وما هي تلك المأثرة التجديدية المهيمنة، التي تحتضن هذه الجوانب كلها، وتغذيها؟

للناس ـ حسب ميولهم وأذواقهم ـ إجابات مختلفة على هذا السؤال الخطير وللناس فيما يعشقون مذاهب.

وتفرّق الناس في الإجابة فرقًا وأحزابًا، نخصّ ثلاث فرق منها بالذكر فيما يلي:

(١) يقول فريق من هذه الفرق: إن الإمام السرهندي يستحق وصفه بمجدد الألف الثاني لأنه استعاد الهند إلى راية الإسلام، وحفظها من الارتماء في حضن البرهمية، وفلسفة «وحدة الأديان»، ووجهها إلى لواء محمد ﷺ وسلّمها لوصاية الإسلام، وحمايته، ودفع عنها في القرن الحادي عشر الهجري ـ القرن السادس عشر الميلادي ـ ذلك المصير الذي صارت إليه في

القرن الثالث عشر هجري ـ القرن التاسع عشر الميلادي ـ بل الواقع أنه حفظ الأمة الإسلامية الهندية من خطر الردة العقائدية والفكرية والحضارية الشاملة، التي ظهرت ـ بذكاء تلك الشخصية القوية صاحبة الكلمة النافذة والإرادة الحديدية كالملك أكبر، ودهاء مستشاريه كمُلاّ مبارك، وفيضي وأبي الفضل ـ واقعًا ملوسًا يحس، وقد كان هذا التحول الروحي والمعنوي والردة الفكرية والحضارية أخطر، وأدق، وأرسخ جذورًا من انقراض الدولة، والانهيار السياسي، الذي وقعت كارثته في أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، بقيام القوى غير الإسلامية الناهضة في الهند، وسيطرة الانكليز وتسلطهم في البلاد.

ولعل الدكتور محمد إقبال أشار إلى هذه الحقيقة، إذ قال في بيت من شعره، يشير إلى الإمام السرهندي: «ذلك الحامي لذمار الأمة الإسلامية في الهند، الذي قيّضه اللّه ـ في الحين المناسب ـ ونصّبه حارسًا للدين القويم».

(٢) ويقول الفريق الثاني: إن عمله التجديدي يتركز في معالجته تفضيل الشريعة على الطريقة، وأن الطريقة تابعة خاضعة للشريعة، في قوة وإيضاح، وثقة وبصيرة، لم يسبق إلى هذا الأسلوب القوي المبين حتى تجلىّ لكل ذي عينين أن الطريقة خادمة للشريعة، وأوقف بذلك تلك الفتنة الخطيرة الناجمة في أواسط «السلوك والطريقة» التي كانت تدعو إلى الاستغناء عن الشريعة ـ أحيانًا ـ والانحراف عنها ـ أحيانًا أخرى، والاعتماد الكامل على الرياضات والمجاهدات، والحواس الباطنة، والتي كانت تستهدف أول ما تستهدف الهند ـ لكونها مركزًا لليوك والتنسك المتطرف والرهبنة ـ ولم يستطع أحد بعده أن يتجرأ على القول بأن الشريعة في واد، والطريقة في واد، وليس من حق الشريعة فرض الرقابة على الطريقة.

(٣) ويرى الفريق الثالث أن مأثرته التجديدية الأساسية، هي ضربته

القاسمة لعقيدة «وحدة الوجود»، وهدم فلسفتها من أساسها فَسَدّ ذلك السيل العارم الذي كان يجرف بالعقائد الصحيحة، وحوّل تياره العنيف الذي اكتسح جميع الأوساط العلمية والروحية في القرون الأخيرة.. وكلام السرهندي في «وحدة الشهود» لا يُقبل ومردود عليها بعد ذلك.

* إعادة الثقة والإيمان بحتمية النبوة المحمدية وخلود الرسالة الأخيرة:

ولكن الواقع أن علمه التجديدي الأساسي الذي تدور حوله سائر أعماله الإصلاحية التجديدية، ومنبعه الأصيل الذي تتفجّر منه ينابيع جميع مآثره الإصلاحية، وتتحول إلى نهر يجري في العالم الإسلامي كله، هو ذلك العمل الإصلاحي، العظيم الذي تجلّى في إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية، بخلود الرسالة المحمدية وحاجة الناس إليها، إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة، ولا أعلم أحدًا من المجددين في التاريخ الإسلامي، قام بهذا العمل على هذا النطاق الواسع، وبهذه القوة والصراحة كما قام به الإمام السرهندي، ولعل السبب في ذلك عدم مسيس الحاجة إليها في عهودهم، وأنه لم تبرز على المسرح في عصورهم فلسفة أو حركة منظمة دقيقة كتلك التي ظهر في عهده»[1] اهـ.

ونختم بما قاله الدكتور محمد إقبال بعد أن أثنى ثناءً كثيرًا على الإمام السرهندي، والإمام ولي اللَّه الدهلوي، والسلطان محيي الدين عالمكير وقال: «إنني أقول دائمًا إنه لولا وجود هؤلاء، وجهودهم الموفقة لذاب الإسلام في الديانة الهندكية وحضارتها»[2] اهـ.

* * *

(١) «السرهندي» (ص١٦٧ ـ ١٦٩).

(٢) المصدر السابق (ص٣٠٥).

الدين النصيحة
الرد السلفي على أبي الحسن الإمام السرهندي بقلم الندوي

كل من خدم الإسلام حبيب إلى النفوس، ولكن الحق أحب إلينا من أي أحد، والحق لا يُعرف بالرجال، بل هم يُعرفون به، وأهل الحديث أهل السنة والجماعة لا ينتصرون لإمام، أو شيخ، أو طائفة انتصارًا مطلقًا، غير رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ـ رضي اللَّه عنهم أجمعين.

❑ نسأل اللَّه العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى اللَّه من الهوى والبدع، ونحب السنة وأهلها، ونحبّ العالم على ما فيه من الاتباع، والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن، و«الشخص الواحد يُحَبُّ ويُوالى لما عنده من الخير والسنن، ويبغض ويكره ويعادى لما عنده من الشر والبدع والفتن ولكن لا يصل حبه إلي ستره، وترك معاداته، والانخداع به، والانحياز إلى بدعه وطاماته»[1].

❑ وللَّه در شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ حين يقول:

«وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا»[2].

❑ لقد كتب الشيخ أبو الحسن الندوي كتابه عن الإمام السرهندي بقلم الصوفي فأثنى على السرهندي الموغل في صوفيّاته.

---

(١) «الماتريديه» للدكتور شمس الدين الأفغاني (١/ ٤٧) مكتبة الصديق.

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٨/ ٢٠٩).

وعين الرضا عن كل عيب كليلــة ولكن عين السخط تبدي المساويا

والشيخ السرهندي فقيه ماتريدي[1] له في بيان العقائد على مذهب «الماتريدية» وكلام في الطريقة الصوفية النقشبندية ولسان أي لسان! فهو فقيه حنفي، ماتريدي، وصوفي نقشبندي هذا ما يؤخذ عليه.

□ وتآليفه تدل على توغله في التصوف، وهذي بعض النماذج من مكتوباته يوجد فيها كل ما يوجد عند الصوفية من الإلغاز، وتعقيد العبارة، والفناء في الشيخ وما إلى ذلك وكلامه عن وحدة الشهود وانتصاره لها:

«قال: . . . والمنع من إظهار حقائق عالم الأمر، إنما هو بسبب دقة تلك المعاني المكنونة. . .

وليس في بثي الأســرار مصلحة وإن ظهرن لنا كالشمس في فلك

. . . وبقية الجواهر العليا التي فوق الصفات الحقيقية داخلة في دائرة حضرة الذات تعالت وتقدست، ولهذا يُقال لتجليات هذه المراتب الثلاث تجليات ذاتية، ولا مصلحة في التكلم وراء ذلك «بلغ اليراع إلى هنا فتكسرا» «المنتخبات من المكتوبات» (ص٧)، وعنها في «الكشف» (ص٦٩)، وقال: «أظن أن القارئ يعرف الآن أن عبارة «بسبب دقة تلك المعاني المكنونة» هي للمغالطة، وأن السبب الحقيقي هو خوف التكفير».

وقال: «. . . وإذا قال هؤلاء الصوفية بنفسهم بأن ذات الحق سبحانه وتعالى لا يحكم عليها بحكم، يكون الحكم عليها بالإحاطة والسريان مخالفًا لهذا القول، والحق أن ذاته تعالى ليس كمثله شيء، ولا سبيل لحكم من الأحكام إليها أصلاً، بل في ذلك الموطن الحيرة الصرفة والجهالة المحضة،

---

(١) يقول السرهندي في مكتوباته «مكتوبات أحمد السرهندي» (٢/ ١١٠) - الدرر المكنونات): «زعم جماعة ممن لا خبر لهم أنه تعالى فوق العرش، وأثبتوا له سبحانه وتعالى جهة الفوق والعرش.

فكيف يتطرق السريان والإحاطة إليها؟ ويمكن الاعتذار من جانب الصوفية القائلين بهذه الأحكام بأن مرادهم بالذات هو التعين الأول، فإنهم لما لم يقولوا بزيادة ذلك التعيين على المتعين، قالوا لذلك التعين عين الذات، وذلك التعين الأول بالمعبر عنه بالواحدية سار في جميع الممكنات...» «المنتخبات من المكتوبات» (ص١٠).

وقال: «... لتسهيل التحليل، يعني بالإحاطة قولهم «اللَّه محيط بكل شيء أو بالممكنات» ويشيرون بها إلى وحدة الوجود، وبالسريان قوله: «اللَّه سار في كل الممكنات، أو الأشياء»، ويعنون بها وحدة الوجود أيضًا. وطبعًا القول بالإحاطة هو حكم، وكذلك القول بالسريان هو حكم أيضًا، لذلك لا يقولون بها؛ لأن ذات الحق لا يحكم عليها بحكم، ويعنون بكلمة «المتعين» الجزء من اللَّه (جل اللَّه وعلا)، الذي تشكل أو تعيّن بالمخلوقات، ويقرّر المجدد أنهم لم يقولوا بزيادة التعين (أي الخلق) على المتعين، فهو هو، والمتعين الأول هو محمد ﷺ وطبعًا، هذا أسلوب جديد يقدمه المجدد لتقرير وحدة الوجود بأسلوب موهم، فيه شيء من التعقيد، أرجو من القارئ أن يحلله بهدوء ليزداد تمرسًا باللغة الصوفية، وليتأكد أن العقيدة عندهم تلاعب بالألفاظ».

□ وقال: «... وهذه المحافظة إنما هي إلى زمان الوصول إلى الشيخ الكامل المكمل، ثم بعد الوصول إليه، ولا شيء عليه سوى تفويض جميع مراداته إليه، وكونه كالميت بين يدي الغسال لديه، والفناء الأول هو الفناء في الشيخ، ويكون هذا الفناء وسيلة الفناء في اللَّه...» «المنتخبات من المكتوبات» (ص٢١)، وعنها في «الكشف» (٣٢٧)».

□ وقال: «... ومن علومهم (أي الفلاسفة) علم الهندسة وهو لا يغني شيئًا!!.. وعلم الطب وعلم النجوم وعلم تهذيب الأخلاق.. وهؤلاء

الأشقياء أخرجوا رقابهم عن برقة التقليد، وصاروا في صدد الاثبات بالدلائل، فضلّوا وأضلّوا. ولما وصلت دعوة عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام إلى أفلاطون، وكان هو أكبر هؤلاء الخذلة، قال: نحن قوم مهذّبون لا حاجة بنا إلى من يهدينا، ما أسفهه وما أشقاه حيث أدرك شخصًا يحيى الأموات ويبرئ الأكمه والأبرص...» «المنتخبات من المكتوبات» (ص٧٤) وعنها في «الكشف» (٤٧٧)، وقال: «اترك التعليق للقارئ، ولكني أنبه إلى أن أفلاطون مات قبل ميلاد عيسى بـ ٣٤٧ سنة، فأين الكشف؟ مع العلم أن السرهندي يعترف أن الكشف قد يخطئ.

❑ وقال: «... فما تكون نسبة الآخرين لهؤلاء الأكابر؟وربما تصدر العبادة عن الآخرين وتكون غير مرضية، وهؤلاء الأكابر يتركون العبادة في بعض الأحيان ويكون ذلك الترك مرضيًا. فكان تركهم أفضل عن الحق جل وعلا من فعل غيرهم. والعوام حاكمون بخلاف ذلك يعتقدون ذلك عابدًا وهذا مكارًا أو معطلاً...» «المنتخبات من المكتوبات» (ص١٥٢)، وعنها في «الكشف» (٥٩٠ ـ ٥٩١)، وقال: «أقول: من مثل هذا تبين لنا دور الكشف في تزوير عقول الأمة؛ لأن هذا القطب المجدد عرف هذا الحكم عن اللَّه الذي هو هو، أثناء إحدى فناءاته، وهو طبعًا، يعتقد أن هذا حق لا ريب فيه».

❑ يذهب الشيخ أحمد السرهندي إلى تعطيل صفه الاستواء عفا اللَّه عنه.

❑ وقال: «وجدت اللَّه عين الأشياء كما قاله أرباب التوحيد الوجودي من متأخري الصوفية، ثم وجدت اللَّه في الأشياء من غير حلول ولا سريان، ثم ترقيت في البقاء وهو ثاني قدم في الولاية فوجدت الأشياء ثانيًا فوجدت اللَّه عينها بل عين نفسي، ثم وجدته تعالى في الأشياء بل في نفسي ثم مع الأشياء، بل مع نفسي...» إلخ... «المواهب السرمدية» (ص١٨٢)،

و«الأنوار القدسية» (ص١٨١)، وعنهما في «المنقشبندية» (ص٥٩).

وقال السرهندي: «كثيرًا ما كان يعرج بي فوق العرش المجيد، ولقد عُرج بي مرة، فلما ارتفعت فوقه بقدر ما بين مركز الأرض وبينه، رأيت مقام الإمام نقشبند رضي اللَّه عنه، ورأيت فوق ذلك قليلاً مقامات بعض المشايخ». . وذكر أسماء عديدة ثم قال: «واعلم أني كلما أريد العروج يتيسر لي» (المواهب: ١٨٤، والأنوار: ١٨٢، وعنهما في النقشبندية: ص٤٨)».

وقال: «أُريت الكعبة المطهرة تطوف بي تشريفًا منه تعالى وتكريمًا لي» (المواهب: ص١٨٥، وعنها في النقشبندية» ص٤٨)»[1] .

❑ ولا يقبل منه مدحه للنقشبندية وشيخها. والشيخ السرهندي هو مؤسس الطريقة النقشبندية المجددية.

❑ ولقد ردّ الدكتور شمس الدين الأفغاني على أبي الحسن الندوي ما كتبه عن السرهندي في سلسلة «رجال والدعوة في الإسلام» قال الدكتور شمس الدين عن السرهندي: «مع أنه من كبار أهل وحدة الشهود التي هي وحدة الوجود المتطورة المهذبة.

راجع على سبيل المثال «الدرر المكنونات ـ ترجمة المكتوبات» (٢/ ٥ ـ ٧)، و«المنتخبات من المكتوبات» (١٠)، وانظر «نزهة الخواطر» (٥/ ٥٣، ٥٤) في ترجمته، وراجع ما في «جهود علماء الحنفية» (ص١٤٩١ ـ ١٤٩٢)، وللعلامة الخجندي المعصومي (١٣٧٩هـ) كلام مهم في «مفتاح الجنة» (٨٠ ـ ٨١) في ذكر بعض خرافاته وشركياته»[2] .

---

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوي الوجه الآخر من كتاباته للعالم السلفي صلاح الدين مقبول أحمد.

(٢) «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» للدكتور شمس الدين الأفغاني (١/ ٧٣) ـ دار الصميعي.

*** كلام طيب للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد في كتابه «الأستاذ أبو الحسن الندوي الوجه الآخر في كتاباته»:**

□ قال الشيخ صلاح الدين مقبول في كتابه: «مركز الإمام السرهندي الاجتهادي والتجديدي في نظر الأستاذ الندوي»:

قال الأستاذ الندوي:

«اختار الإمام السرهندي مذهبًا رابعًا إزاء هذه المذاهب الثلاثة، وهو أن وحدة الوجود مقام يعرض للسالك خلال السلوك، فيشاهد ـ عند ذاك ـ عيانًا وجهاراً ـ إنه لا وجود هناك إلا لواجب الوجود، وكل ما يراه الإنسان من وجود، فهو وجود واحد، وما سواه فليس إلا «تنوعاته وتلويناته» وفي تعبير الشيخ محيي الدين ابن عربي والعارفين المتذوقين لهذا المشرب الوجودي إنما هي «تنزّلاته».

ولكن لو حالف التوفيق الرباني ورافق الهدي النبوي، وكان السالك صاحب طموح وعلو همة، فإنه يفوز بمقام آخر، وهو مقام «وحدة الشهود»[(٢)].

وهكذا يضيف الإمام السرهندي ـ مع نقضه لنظرية وحدةالوجود، الذي كان مذهب غالب المتصوفين والحكماء المدققين، والإشراقيين المتعمّقين، واعترافه بعلو كعب مؤسس هذه النظرية: علميًا: ورائدها الأكبر الشيخ محيي ابن عربي، في كثير من العلوم والتحقيقات ـ إضافة جديدة، ويكتشف عالمًا جديدًا يوافق عقيدة جمهور المسلمين، ويتفق مع الكتاب والسنة والشريعة

---

(١) ونقل الأستاذ الندوي عن الإمام السرهندي أنه قال: «هو مقام العبدية والتوحيد الذي جاء به الأنبياء ـ عليهم السلام ـ المصدر المذكور: (ص٢٥٨)، وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فقال في هذا المقام: «من جعل هذا نهاية السالكين، فقد ضل ضلالاً مبينًا»: «فتاواه» (٣/ ١١٩)، فضلاً عن أن يجعله «مقام العبدية والتوحيد» وعقيدة جمهور المسلمين.

الإسلامية[١] ، في جانب، ويضيف شيئًا ـ بدون أن يرجع بالعلوم القهقري، ويلغي تحقيقات جماعة كبيرة ذات شأن وعلومها ومداركها ـ ينسجم مع التحقيقات والكشوف الأخيرة في الأنفس والآفاق، ويتلاءم مع النصوص الشرعية والأصول القطعية، ويطابق بينهما جميعًا»[٢] .

* نقل الأستاذ الندوي عن الإمام السرهندي انتقاله من مقام إلى مقام حيث قال :

«لقد كان كاتب السطور يعتقد أولاً في التوحيد الوجودي، وكان على علم بهذا التوحيد من صغره، وقد رسخ يقينه في قلبه، إلا أنه لم يكن ـ عند

---

(١) ولا ريب أن الإمام السرهندي قدّم نظرية وحدة الشهود إزاء وحدة الوجود، ولكن يرى «بعض كبار العلماء المحققين» ـ على قول الأستاذ الندوي ـ: «إن هذا النزاع كان نزاعًا لفظيًا صرفًا».

وقال بعضهم: «إن الإمام السرهندي أخطأ التوفيق في هذا المجال، وأنه لم يطلع على جميع مؤلفات الشيخ الأكبر: ابن عربي». ولأجل ذلك ألف الشيخ غلام يحيى البهاري (١١٨٠هـ) كتابًا ردّ فيه على تلك النزعة التطبيقية التي كان بعض أوساط السلسلة المجددية أيضًا يحاول على أساسها التوفيق بين وحدة الوجود، ووحدة الشهود». «الإمام السرهندي» (٢٦٢ ـ ٢٦٣).

هذا، وإن نزعة التوفيق والتطبيق بين النظريتين قائمة، ولم يكن ردّ البهاري على النزعة التطبيقية نهاية هذه المشكلة. إذن، كيف يقال: «إن الإمام السرهندي اكتشف عالمًا جديدًا يوافق عقيدة جمهور المسلمين، ويتفق مع الكتاب والسنة، والشريعة الغراء...»؟!

وكيف تكون وحدة الشهود عقيدة جمهور المسلمين، وهي لم تعرف في جيل الصحابة ـ رضي اللَّه عنهم ـ؟ وبالتالي كيف تتفق هذه انظرية مع الكتاب والسنة، وهذه هي حالها؟!

وعلى هذا، ليست وحدة الشهود إلا محاولة لتطوير وحدة الوجود، فليعلم... إن التصوف المصطلح بعيد من روح الإسلام الخالص، بحيث لم يستطيع أن يتفق مع الكتاب والسنة بعد إصلاحه وترميمه أيضًا.

(٢) «الإمام اسرهندي» (ص٢٥٢).

ذلك - صاحب الحال في هذا المقام، فلما شدا في طريق السلوك، انكشف له طريق توحيد الوجود، فجال في هذا المقام ومراتبه وصال، لمدة طويلة من الزمن، وفاز بعلوم كثيرة خاصة بهذا المقام، وانحلت عقدة تلك الواردات والخواطر المشكلة التي تعرض لسالكي طريق الوحدة، بهذه المكاشفات، والعلوم المفاضة الموهوبة، ثم استولت على هذا الفقير بعد مدة غير قليلة نسبة أخرى، فتردد في طريق توحيد الوجود في حال استيلاء هذه النسبة، ولكن هذا التردد كان يرافقه حسن الظن، لا الإنكار والجحود، وبقي متوقفًا مترددًا مدة طويلة من الزمن، حتى بلغ به الحال إلى الإنكار، وكشف له أن هذه المنزلة أدنى وأحّط، ووصل إلى مقام الظلّية الذي يفوقها ويفضل عليها، وكان هذا الإنكار اضطرارًا وعن اندفاع، فإنه لم يكن يحبّ الخروج من هذا المقام؛ لأن كبار المشايخ والعارفين ألقوا به عصا الترحال، ولكنه لما بلغ مقام الظلّية، ورأى نفسه والعالم كله ظلاً، تمنى أن لا يفارق هذا المقام؛ لأنه كان يعتقد الكمال في وحدة الوجود، ولهذا المقام مناسبة بها بالجملة، ولكن كان من مقادير اللَّه، ولطفه وكمال شفقته عليه، أن رقّاه وصعد به إلى مقام أسمى وأرفع، هو مقام العبدية[1] ، فتجلى له - عند ذاك - كمال هذا المقام وعظمته، وجعل يتوب إلى اللَّه، ويستغفره من المقامات السابقة، فلو لم يكن لطف اللَّه أرشد هذا المسكين إلى هذه الجادة الواضحة، ولم يكشف له تفوق

---

(١) بعد هذا المشوار الطويل في أودية التصرف وصل الإمام السرهندي إلى هذا المقام فرارًا من وحدة الوجود، وقدم نظرية وحدة الشهود إزاءها، ولكن لأجل تعلقه بها من الصغر، كأنه لم يأتي بشيء واضح في هذا الجال عند بعض كبار المحققين في التصوف حيث قالوا: «إن هذا النزاع كان نزاعًا لفظيًا صرفًا» «الإمام السرهندي» (ص٢٦٢).
واعتبر الإمام السرهندي هذا المقام مقام العبدية وغاية السالكين كما هو واضح من تقريره، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية قال في هذا المقام: «من جعله نهاية السالكين فقد ضل ضلالاً مبينًا» «فتاواه» (١١٩/٣).

مقام على مقام، لكان يعتقد انحطاطه وسقوطه في ذلك المقام؛ لأنه كان يرى أن لا مقام أفضل وأعلى من مقام «وحدة الوجود، واللَّه يقول الحق، وهو يهدي السبيل»[١] .

*** رأي السرهندي في ابن عربي :**

ذكر الأستاذ الندوي تحت عنوان «الرأي الوسط العادل عن الشيخ الأكبر»، أن الإمام السرهندي يرى أن الناس سلكوا مسلك الإفراط والتفريط في ابن عربي . . . وأن كلا الفريقين جانبَ الاعتدال، ثمّ نقل عنه قوله في ابن عربي حديث قال:

«ومما يعجب له أن الشيخ ابن عربي يبدو من المقبولين، وتبدو أكثر معارفه وتحقيقاته التي جانبَ فيها أهل الحق خاطئة بعيدة عن الصواب»[٢] .

*** ويذكر - في موضع من رسائله - الفارق الحقيقي بينه وبين عامة المثبتين أو النافين لوحدة الوجود، فيقول :**

«إن اختلاف هذا الفقير مع القائلين بوحدة الوجود، عن طريق الكشف والشهود، والعلماء يستقبحون هذه الأمور (كوحدة الوجود، والنفي المطلق لما سوى واجب الوجود)، أما الفقير فلا يتردّد في الاعتراف بحسن هذه الأقوال والأحوال الصادرة من فكرة وحدة الوجود، إذا أدت بصاحبها إلى العبور، (أي: أن يعبر السالك هذا المقام إلى مقام أرفع)[٣] .

---

(١) «الإمام السرهندي» (٢٥٧ - ٢٥٨).

(٢) «الإمام السرهندي» (ص٢٥٨)، نقلاً عن «الرسالة» رقم (٢٦٦) المجموعة الأولى.

(٣) المصدر المذكور (ص٢٥٨) وقال: «وهو مقام العبودية والتوحيد، الذي جاء به الأنبياء - صلوات اللَّه عليهم وسلامه -، (الرسالة رقم (٤٢) المجموعة الثانية، بعث بها إلى الشيخ جمال الدين حسين).

وسيأتي ما في هذا المقام من الكلام قريبًا إن شاء اللَّه تعالى.

* وحدة الشهود في نظر شيخ الإسلام ابن تيمية:

ذكر الأستاذ الندوي فكرة وحدة الشهود في كتابات شيخ الإسلام فقال: لا نعلم في حدود دراستنا واطلاعنا إلا شخصيتين شهيرتين - نجد عندهما فكرة وحدة الشهود إزاء نظرية وحدة الوجود، وإشارات متفرقة إليها...

(أحدهما): شيخ الإسلام ابن تيمية..

(والآخر): شرف الدين أحمد بن يحيى المنيري..

ويتجلى من كتابه «العبودية» أنه من المطلعين على فكرة وحدة الشهود ويعرف هذه الحقيقة أنها مقام يعترض السالك أثناء تربيته وسلوكه.. ولكنه - لعدم غوصه في هذا المجال - يكتفي بإيماءات وإشارات»[(١)] .

هذه العبارة تحتاج إلى بعض التوضيحات حتى لا تحمل على غير محملها، ومنها:

❑ قد يفهم من قوله في البداية أن شيخ الإسلام قدّم وحدة الشهود إزاء نظرية وحدة الوجود وهذا خلاف الواقع.

❑ ثم تنازل إلى قوله الواضح: «أنه من المطلعين على فكرة وحدة الشهود». ولكن يعلم أن اطلاعه عليها شيء، وتقديمه إياها إزاء نظرية وحدة الوجود شيء آخر، بل قال: «من جعل هذا نهاية السالكين فقد ضل ضلالاً مبينًا»[(٢)] ، فضلاً أن يجعله مقام العبدية والتوحيد.

❑ انبسط الأستاذ الندوي حين ذكر تقي الدين ابن تيمية وشرف الدين المنيري في فكرة وحدة الشهود، وذكر أنهما يشتركان في سلامة الذوق وسلامة الفطرة.

---

(١) «الإمام السرهندي» (٢٤٩ - ٢٥٠).

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣/ ١١٩).

فيلعلم حتى لا يلتبس، أن شرف الدين في وحدة الشهود في واد (هو وادي التصوف)[١]، وتقي الدين في واد آخر (هو وادي السنة).

ذكر الأستاذ الندوي شيخ الإسلام ابن تيمية في نظرية وحدة الشهود، مثله مثل تشبّث الغريق بالحشيش، ولعله أراد بنسبتها إلى شيخ الإسلام - أي نوع من النسبة - تقليل وحشة الناس من وحدة الشهود إزاء وحدة الوجود.

ولا ريب أن شيخ الإسلام ابن تيمية يعتبر موسوعيًّا في كل ما يتناول من المباحث في كتبه ورسائله، وفتاواه، وقد ذكر مسألة «الفناء» أيضًا في فتاواه في عدة أمكنة[٢] وهو لم يكتف بالإشارات والإيماءات[٣] فقط، بل فصّلها حينًا، ولخّصها حينًا آخر، فيفهم تفصيله في ضوء تلخيصه، وتلخيصه في ضوء تفصيله، فقد ذكر في فتاواه خلاصة ما في هذا الموضوع فقال:

«والفناء يراد به ثلاثة أمور:

(**أحدها**): هو الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به الرسل، وأنزلت به الكتب، وهو أن يفنى عما لم يأمر اللّه به بفعل ما أمر اللّه به: فيفنى عن عبادة غيره بعادته، وعن طاعة غيره بطاعته وطاعة رسوله، وعن التوكل على غيره بالتوكل عليه، وعن محبة ما سواه بمحبته ومحبة رسوله، وعن خوف غيره بخوفه، بحيث يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**

(١) قارن قوله في هذه القضية، بما يأتي عن كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/١١٨ - ١١٩)، (١٠/٢١٨ - ٢١٩) العبودية، (١٠/٣٣٧ - ٣٤٣)، و«إبطال وحدة الوجود» (٦٣ - ٦٥).

(٣) قال الأستاذ الندوي: «ولكنه لعدم خوضه في هذا المجال يكتفي بإشارات، وإيماءات» «الإمام السرهندي» (ص٢٢٠).

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] فهذا كله هو مما أمر اللَّه به ورسوله[1].

وأما (الفناء الثاني): وهو الذي يذكره بعض الصوفية، وهو أن يفنى عن شهود ماسوى اللَّه تعالى[2]، فيفنى بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره

(١) قال شيخ الإسلام في «فتاواه» (١٠/ ٣٣٧) أيضًا:
أحدها: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب، والتوكل عليه وعبادته، ما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو في «الحقيقة» عبادة القلب، وتوكله، واستعانته، وتألهه وإنابته، وتوجهه إلى اللَّه وحده لا شريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال، وليس لأحد خروج عن هذا.
وهذا هو «القلب السليم» الذي قال اللَّه فيه: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة وما يتبع ذلك».

(٢) هذا الذي يسمونه بـ «وحدة الشهود».
قال شيخ الإسلام أيضًا في «فتاوه» (٢/ ٣١٤): «ومن الناس من يجعل هذا من السلوك، ومنهم من يجعله غاية السلوك، حتى يجعلوا الغاية هو الفناء في توحيد الربوبية فلا يفرقون بين المأمور والمحظور، والمحبوب والمكروه.
وهذا غلط عظيم... فمن طلب رفع إنيته بهذا الاعتبار لم يكن محمودًا على هذا، ولكن قد يكون معذورًا».
وقال (٢/ ٣٤٤): «... هذا مقام الفناء الذي يعرض لكثير من السالكين لعجزهم عن كمال الشهود المطابق للحقيقة، بخلاف «الفناء الشرعي»، فمضمونه الفناء بعبادته عن عبادة ما سواه...».
وقال (٢/ ٣٦٩): «... لكن إذا كان قد ورد على الإنسان ما يعجز معه شهود هذا وهذا، كان معذورًا للعجز، لا محمودًا على النقص والجهل».
وقال أيضًا في «فتاوه» (١٠/ ٢١٩): «فإذا قوى على صاحب الفناء هذا، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه، ويبقي من لم يزل وهو الرب تعالى. والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أن يشهدها. وإذا قوى هذا ضعف المحب حتى اضطرب في تمييزه فقد ظن أنه هو محبوبه، كما يذكر: أن رجلاً ألقى نفسه في اليم فألقى محبّه نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت فما أوقعك خلفي

وبمعروفه عن معرفته، بحيث قد يغيب عن شهود نفسه لما سوى اللَّه تعالى، فهذا حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين، وليس هو من لوازم طريق اللَّه.

ولهذا لم يعرف مثل هذا للنبي ﷺ وللسابقين الأولين، ومن جعل هذا نهاية السالكين، فهو ضالّ ضلالاً مبينًا، وكذلك من جعله من لوازم طريق اللَّه فهو مخطئ، بل هو من عوارض طريق اللَّه تعالى تعرض لبعض

قال: غبت بك عني، فظننت أنك أني».

وقال في «فتاواه» (١٠/ ٢٢٠) أيضًا: «وأكابر أولياء اللَّه كأبي بكر وعمر، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، لم يقعوا في هذا «الفناء»، فضلاً عمن فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة... فإن الصحابة - رضي اللَّه عنهم - كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم عشى، أو صعق، أو سكر، أو فناء، أو وله، أو جنون. وإنما كان مبادئ هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت: كأبي جهير الضرير، وزرارة بن أوفى قاضي البصرة...».

وفرق شيخ الإسلام بين الفناء الأول، وهذا الثاني فقال في «فتاواه» (١٠/٣٣٨):

«(الأمر الثاني): فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الأرادة، وهذا فناء عن الشهادة. ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء على العلم بالغير والنظر إليه، فهذا الفناء فيه نقص؛ فإن شهود الحقائق على ما هي عليه، وهو شهود الرب مدبراً لعباده، آمرًا بشرائعه، أكمل من شهود وجوده، أو صفة من صفاته، أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك».

وقال في «فتاواه» (١٠/ ٥٩٤) أيضًا: «والذين يسلكون في محبة اللَّه مسلكًا ناقصًا يحصل لأحدهم نوع من ذلك يسمى «الاصطلام» و«الفناء» يغيب بمحبوبه عن محبته، وبمعروفه، وبمذكوره عن ذكره، حتى لا يشعر بشيء من أسماء اللَّه وصفاته وكلامه وأمره ونهيه.

و«منهم» من قد ينتقل من هذا إلى «الاتحاد». فيقول: أنا هو، وهو أنا، وأنا اللَّه، ويظن كثير من السالكين أن هذا هو غاية السالكين، وإن هذا هو «التوحيد» الذي هو نهاية كل سالك. وهم غالطون في هذا؛ بل هذا من جنس قول النصارى، ولكن ضلوا؛ لأنهم لم يسلكوا الطريق الشرعية في الباطن في خبر اللَّه وأمره.

الناس دون بعض، ليس هو من اللوازم التي تحصل لكل سالك.

وأما (الثالث): فهو الفناء عن وجود السوي، بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق، وأن الوجود واحد بالعين، فهو قول أهل الإلحاد والاتحاد، الذين هم من أضلّ العباد»[١].

هذا الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ في مسألة الفناء، في فتاواه ورسائله[٢]، في مواضع عديدة.

وبعد هذا، نتساءل:

ما الذي حمل الأستاذ الندوي أن يذكر شيخ الإسلام في هذا الباب، وهو لم يستفد من كتاباته في «مسألة الفناء»، مع وضوحها وجلائها؟!.

وما رآه الأستاذ الندوي مقام العبدية والتوحيد وغاية السلوك، على

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١١٨ ـ ١١٩).

(٢) وهذا الذي فهمه منه تلميذه الرشيد: الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمهما اللَّه ـ، وذكره في كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين (٤٣٠ ـ ٤٣٢)، ورد على ابن الصائف وشيعته في قولهم: «إن فناء شهود السوى هو عين الكمال» فقال: «فيقال: هذا هو مقام الفناء الذي يشير إليه كثير من المتأخرين، ويجعلونه غاية الغايات ونهاية النهايات، وكل ما دونه فمرقاة إليه، وعيلة عليه... وقد تبين ما في ذلك، وما هو الصواب بحمد اللَّه...» (المصدر المذكور: ٥٣٢ ـ ٥٣٣).

وهذا الذي فهمه العلامة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ـ حفظه اللَّه ـ من المعاصرين، فقال، عند ذكره ثلاثة أقسام للفناء:

«القسم الثاني: صوفي بدعي، وهو الفناء عن شهود السوى... وهو فناء ناقص من وجوه:

(الأول): إنه دليل على ضعف قلب الفاني...

(الثاني): إنه يصل بصاحبه إلى حال تشبه حال المجانين والسكارى...

(الثالث): أن هذا الفناء لم يقع من المخلصين الكمّل من عباده اللَّه...» «فتاوى ابن عثيمين» (٤/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢).

مذهب الإمام السرهندي، وهو الذي قال فيه ابن تيمية «ومن جعله نهاية السالكين، فهو ضال ضلالاً مبينًا»[١] .

* منع كتاب «السرهندي» للندوي بفتوى من الشيخ ابن باز:

لأجل هذه التناقضات والمخالفات خاصة في هذا الباب، والباب الأخير من كتاب «الإمام السرهندي» للأستاذ الندوي، نراه في «قائمة الكتب التي يجب منع دخولها إلى المملكة العربية السعودية، أو طباعته فيها، أو بيعها في المكتبات التجارية نصحًا لله ولعباده وحماية للمسلمين من شر ما فيها وذلك بعد التثبت والتأكد مما فيه من الجهة المختصة...»[٢] .

* * *

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١١٩).

(٢) بتوقيع من «الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: عبدالعزيز ابن عبدالله بن باز ـ حفظه الله ـ. (مجلة البحوث العلمية بالرياض: العدد (١٥) (ص٢٨٦ ـ ٢٨٧) وعنها في «كتب تحت المجهر» (٢/ ٢١ ـ ٢٢) للشيخ عبدالعزيز بن محمد السدحان.

*** السلطان العظيم محيي الدين أورنك زيب عالمكير وحميته الدينية وحمايته للإسلام:**

□ قال عنه الشاعر محمد إقبال:

«ذاك السلطان أورنك زيب ذو المجد السامق الذري الذي تتباهى به الأسرة الكوركانية، وتعتز به، علا به نجم المسلمين، وارتفعت مكانتهم، ونالت به الشريعة عزها وكرامتها، كان السهم الأخير في كنانة الإسلام، للحرب الحامية بين الكفر والإيمان!.، تعرّضت الأمة الإسلامية لمحنة عظيمة، بسبب بذرة الإلحاد والزندقة، التي بذرها «أكبر»، وسقاها ونماها، والتي نشأت ـ مرة ثانية ـ في فطرة داراشكوه(١)، وكانت شموع القلوب في الصدور خامدة مظلمة بسبب الفساد الشامل والظلام الحالك.

هنالك قيض الله ـ سبحانه وتعالى ـ السلطان عالمكير، ذلك الزاهد الغيور الفارس الجسور، الذي اجتباه الله ـ عز وجل ـ لإحياء الدين وتجديد الإيمان واليقين، فحرقت صواعق سيوفه المهندة بيادر الكفر والزندقة، وأضاءت شموع الدين في محافل المسلمين، وتخرّص المتخرصون من قصار النظر، وضعاف النفوس، فحكموا عليه بأحكام قاسية، وقاسوه بمقاييسهم الزائفة، ولم يعرفوا عمق مداركه، وأبعاد تفكيره، لقد كان فراشة متهافتة على شعلة التوحيد، وكان في بلاد الشرك والوثنية كإبراهيم في نار نمرود، نسيج وحده في صف الملوك والسلاطين، ومثالاً فريداً في زمرة الزهاد والناسكين»(٢).

---

(١) داراشكوه بن شاهجهان وكان وليًا للعهد وأخًا لأورنك، ووقف علماء المسلمين إلى صف أورنك حتى تربع على عرش المملكة عام ١٠٦٨هـ وذلك لأنهم لاحظوا أن داراشكوه يميل إلى مذهب جده أكبر وأنه معجب بفلسفة وحدة الأديان والجمع بين الديانة الإسلامية والديانة الهندوكية.

(٢) «رموز بيخودي» الديوان الفارسي (ص٩٨).

تأثر أورنك زيب عالمكير بأبناء الإمام السرهندي وأحفاده، وكان يجلهم ويعظمهم، وينسجم مع دعوتهم، وكان اتصاله بالشيخ محمد معصوم بن السرهندي وابنه سيف الدين اتصال تلميذ بشيخيه، وقد كان الشيخ محمد معصوم من يوم أن كان السلطان وليًّا للعهد يعتني به اعتناءً خاصًّا، ويلقبه بولي العهد الحامي لذمار الإسلام - الذي كان إرهاصًا لمستقبله العظيم، وتفاؤلاً نافعًا.

وتفيد رسائل الشيخ سيف الدين - التي بعث بها إلى السلطان أورنك زيب وطُبعت باسم «المكتوبات السيفية دراسة عميقة» - أن صلة السلطان أورنك زيب بالشيخ سيف الدين - بصفة خاصة - وبأسرة الإمام السرهندي - بصفة عامة - لم تكن صلة حب وإجلال فحسب، كما توجد لدى السلاطين المتدينين مع علماء ومشايخ بلادهم وعهودهم، بل كانت هذه الصلة عملية أكثر منها عاطفية وتربوية إصلاحية أكثر منها حبًّا وإجلالاً محضًا. وكان الشيخ سيف الدين يرافق السلطان من حين لآخر - في غزواته ورحلاته إلي الركن، وإقامته الطويلة فيها، ويشاركه في تفكيره ويدعو له.

وكان الشيخ سيف الدين داعيًا عظيمًا إلى السنة، ونبذ البدع والمنكرات، واصل جهوده مع السلطان في إحياء السنة، وتنفيذ الشريعة الإسلامية، ولم يدخر في ذلك وسعًا، وتوجد في مجموعة رسائله «المكتوبات السيفية» ثماني عشرة رسالة كتبها إلى السلطان، لفت فيها انتباهه إلى إزالة البدع والمنكرات، وإحياء السنة، وإعلاء كلمة اللَّه، وتمكين الدين الإسلامي في هذه البلاد.

وتذكر كتب التاريخ دخول الشيخ سيف الدين في قصر السلطان، وإنكاره على الصور المنحوتة في الجدران، وانقياد السلطان له، وأمره - مباشرة - بإزالة هذه الصور، وكتب الشيخ محمد معصوم إلى السلطان «إنها

لنعمة عظيمة أن يسمع السلطان ـ رغم أبهته وشوكته وحشمته ـ كلمة الحق وينصاع لها، ويؤثر فيه قول مسكين فقير»[١].

◻ وكتب الشيخ محمد معصوم إلى ولده الشيخ سيف الدين «ما ذكرته من أحوال السلطان الحامي لذمار الإسلام... وتقبله الحسن لكلمة الحق، وإزالة بعض المنكرات... فيجب علينا أن نحمد اللَّه عز وجل ـ على ذلك، فإن هذه الصفات شاذة نادرة في طبقة السلاطين»[٢].

لقد كان الشيخ سيف الدين على رتبة عظيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يكن عليها شيخ من المشايخ مثله، حتى كادت البدع ترتفع عن بلاد الهند في زمنه وتستأصل، ولذلك لقّبه والده «بمحتسب الأمة».

◻ ويصعب الحكم على جميع أعمال أي حاكم أو سلطان لدولة ما من الدول وجميع عاداته وأخلاقه، وأحكامه وأقضيته، وإجراءاته بأنها موافقة ـ مائة في المئة ـ للتعاليم الإسلامية، والأحكام الشرعية، ولا يُمكن أن يُقال ذلك إلا في الخلفاء الراشدين، وبعض الولاة الذين كانوا على سيرة عمر بن عبدالعزيز في إقامة الخلافة على منهاج النبوة، إلا أن الوثائق التاريخية الثابتة عن السلطان أورنك تدل بوضوح أنه خطا خطوات جريئة وأحدث تغييرات عميقة بعيدة المدى في نظام الدولة، وفي المجتمع المسلم ـ الخاضع لهذا النظام، ونفّذ ـ لأول مرة ـ بعض الإصلاحات التي كانت تؤثر على اقتصاد الدولة، تطبيقًا لبعض الأحكام الصريحة في الشريعة الإسلامية.

◻ فقد غير أورنك التقويم المجوسي المتبع في الإدارة والولاية منذ عهد أكبر، وأحلّ بدلاً منه التقويم الهلالي الإسلامي، وأمر بتقديم التقويم الهلالي

---

(١) «رسائل الشيخ محمد معصوم» (ج٣)، «الرسالة» رقم (٢٢٧).

(٢) لا يُقبل من السلطان أورنك صوفياته النقشبندية، وقد كان متأثرًا في ذلك بشيوخه من أسرة السرهندي. وخير الهدي هدى محمد ﷺ.

على التقويم الشمسي، وأمر بإلغاء الاحتفال بمهرجان نوروز لتشبهها بطريقة عباد النار المجوس، وقرر بداية الجلوس بغرّة شهر رمضان، وأبدل مهرجان نوروز بمهرجان عيد الفطر.

□ أمر السلطان بإلغاء «راهداري» ـ ضريبة الطريق ـ الذي كان يؤخذ على جميع الحدود والثغور، وتوضع جميع وارداته في خزانة الدولة، كما ألغى السلطان جميع الواردات التي كان دخلها من الحانات والخمارات، والغرامات وما يقدم إلى الموظفين والحكام إظهارًا للشكر وغير ذلك، مما يبلغ الملايين من الروبيات، وكان دخلاً كبيراً للدولة.

□ وذكر مؤلف «نزهة الخواطر» اعتماداً على كتب التاريخ بالفارسية أن عالمكير نسخ عام ١٠٦٩هـ ثمانين نوعًا من الخراج والضرائب، التي كان دخلها السنوي للخزانة السلطانية ثلاث ملايين روبية.

□ «وكانت الحسبة منصبًا خطيراً في الحكومات الشرعية، وشعارًا ظاهرًا من شعائر الخلافة الإسلامية، وكانت الحسبة مهجورة معطلة في الحكومات المسلمة في الهند، وأحيا السلطان هذه السُّنَّة أيضًا».

□ يقول مؤرخ الهند الأستاذ ذكاء اللَّه الدهلوي في كتابه «تاريخ هندوستان»:

«عين السلطان الشيخ عوض وجيه محتسبًا، وأمره أن ينهى الناس عن جميع المحرمات، وخاصة عن شرب الخمور، وتناول الحشيش وجميع المسكرات، وجميع الفواحش، ويمنعهم ـ قدر المستطاع ـ من جميع المسيئات والمنكرات»[1].

□ وأمر السلطان بإلغاء الرقص والغناء، ونهى عن اجتماع الناس تحت

(١) «تاريخ هندوستان» لذكاء اللَّه الدهلوي (٨/ ٩٢).

قصر السلطان لزيارته، ورؤية طلعته من نافذة في أعلى القصر[١] ، وكان هذا تقليدًا من التقاليد السلطانية المخترعة، ويُسمى «جهروكه درشن»، وترك نفسه الجلوس على النافذة، استنكارًا لهذه التقاليد غير الشرعية.

❑ وكان السلاطين المسلمون في الهند ـ حسب معتقدات الهنادك وعادتهم القديمة يثقون كثيرًا بتنجيم المنجمين، ويعينون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يقرر المنجمون في ضوء علم التنجيم، فقضى السلطان عالمكير على هذه العقيدة والعادة المتبعة.

❑ وأهم من ذلك أن الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها، فعيّن السلطان عالمكير قضاة شرعيين وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلّق بالقوانين الشرعية.

❑ وتكفّل السلطان لتنفيذ القوانين الشرعية، وتوفير التسهيلات للقضاة ـ بترتيب المسائل الفقهية وتدوينها من جديد، وكوّن لأجل ذلك لجنة من علماء الأحناف وكانت الثمرة هي «الفتاوى العالمكيرية» أو «الفتاوى الهندية» خدمة للقضاء الشرعي على المذهب الحنفي.

❑ وأذن السلطان لرعاياه أن يرافعوا إلى المحكمة ضد السلطان، ويُطالبوا بالحكم طبق الشريعة الإسلامية، وعين لذلك محامين شرعيين.

❑ يقول مؤرخ الهند ذكاء اللَّه:

«أمر السلطان عام ١٠٨٢هـ، بأن يُنادَى في البلاط والمدن والقرى: من كانت له دعوى شرعية على السلطان، فليحضر وليراجع وكيل السلطان، وليأخذ حقه إذا ثبتت دعواه، وأمر بتعيين المحامين والوكلاء في البلاط، وفي

---

(١) في ديانة أكبر المخترعة قال أكبر «إن ر ؤية وجوه السلاطين هي العبادة، إنهم يُسمّون «ظل اللَّه» ولكن رؤيتهم تذكر في الحقيقة بالخالق» ـ انظر «الإمام السرهندي» (ص١٠٧).

المدن القريبة والبعيدة حتى يرفع من لا يستطيع الوصول إلى البلاط أمره إليهم، ويثبتوا عن طريقهم دعواهم، ويطلبوا حقهم».

◻ يقول: «وصدر الأمر بأن المسلمين عند مقابلة السلطان ينبغي أن يقتصروا على أن يقولوا السلام عليك، ولا يضعوا أيديهم على رؤوسهم مثل الكفار، ويجب على الحكام والأمراء أن يتبعوا ذلك مع الخاصة والعامة».

ولقّبت الأوساط الدينية السلطان أورنك زيب - بناء على هذه الإجراءات «محيي الدين»[1] .

* للّه در أورنك زيب عالمكير :

◻ يقول الأستاذ ذكاء اللّه الدهلوي عن عبادة عالمكير في رمضان:

«كان السلطان يصوم النهار، ويقرأ الأوراد، ويتلو القرآن، ويحفظه غيبًا، ويكتب ويؤلف، ويدير دفّة شئون الدولة، ويقوم بأعمال المحكمة والقضاء والسلطة، وبعد أن يدخل مسجد غسل خانه «مسجد الدّرة» المعروف في داخل القلعة الحمراء فيصلي المكتوبات، والتراويح والنوافل حتى ينتصف الليل، فيتناول قليلاً من الطعام، وقليلاً ما يهجع وينام، ويحيى بقية الليل بالقيام، ويحيى بعض الليالي ذات الخيرات والبركات كلها، وهكذا يقضي شهر رمضان».

◻ يقول المؤرخ واصفًا احتضار السلطان:

«غلبته الحمى العام الواحد والخمسين من جلوسه، الموافق ١١١٨هـ، والتزم الصلاة بالجماعة - رغم شدة المرض - أربعة أيام، لكمال ورعه وتقواه، وكان قد كتب وصية من قبل، أوصى فيها بأن ينفق أربع روبيات ونصف روبية - وهي ما بقي مما اكتسبه بيده بخياطة القلانس - فيشتري بها ما يحتاج

(١) «تاريخ هندوستان» (٨/ ٢١٤).

إليه في التكفين والتدفين، وتوزيع ثمانمائة وخمس روبيات، وهي ما حصلت لي من أجرة كتابة المصاحف، على الفقراء والمساكين، ولما كان يوم الجمعة ٢٨ ذي القعدة عام ٥١ للجلوس، الموافق ١١١٨هـ، صلى السلطان صلاة الفجر، ثم اشتغل بالتهليل، حتى فارق هذه الدنيا الفاتنة بعد أن تعالى النهار، ورحل للأبد إلى دار القرار»[١] .

*** حكيم الهند وربانيه ومجدد القرن الثاني عشر في الهند الإمام الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ) :**

سعة دائرة التجديد الذي قام به الإمام الدهلوي وتنوعه:

«إن الأعمال والمآثر الجليلة التي وفق اللَّه تعالى الإمام الدهلوي ـ في القرن الثاني عشر ـ لتحقيقها وإنجازها من التجديد إصلاح الأمة، وإحياء الفهم الصحيح للدين، ونشر العلوم النبوية وإعادة الحياة والنشاط والحيوية في فكر عهده والأمة الإسلامية وعملها وجهودها تتسع في دائرتها وتتنوع شعبها بحيث لا يوجد له نظير لا في المعاصرين فحسب بل في عامة العلماء والمؤلفين في العهود السابقة أيضًا، ويمكن أن يكون سبب ذلك ـ عدا التوفيق والتقدير الإلهيين ـ يرجع إلى مقتضيات ذلك العهد الذي عاشه، وإلى ذلك الاحتواء والشمول وعلو الهمة، والمنهج الخاص للتعليم والتربية الذي خصه اللَّه وقدره له وقد كان نتيجة كل ذلك أن الإمام الدهلوي قام بمآثره التجديدية والإصلاحية في مجالات متنوعة من العلم والعمل حتى أن المترجم له والكاتب في «تاريخ رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ليواجه الصعوبة في استيعابها ودراستها التحليلية والتفصيلية، والذي يريد استيعاب هذه الجوانب والمجالات كلها فإن لسانه ينشد ويشكو بهذا البيت الفارسي المعروف الذي

---

(١) نفس المصدر (٨/ ٤٦٥).

معناه: «إن ذيل النظر ضيق وورود حسنك كثيرة، وإن مقتطف ربيعك يشكو من ذيله الضيق».

وإذا أردنا أن نفرقها في مواضيع مستقلة، فهي تأتي بهذه العناوين البارزة:

١ ـ إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن.

٢ ـ القيام بنشر الحديث الشريف وترويجه، والجهود الموفقة للتطبيق بين الفقه والحديث والدعوة إليه.

٣ ـ عرض الشريعة الإسلامية في صورة متناسقة مدعمة بالأدلة والبراهين والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحكمها.

٤ ـ بيان مكانة الخلافة ووظيفتها في الإسلام وشرح خصائص الخلافة الراشدة ومميزاتها وإثباتها بالأدلة، والرد على الروافض.

٥ ـ عمله التجديدي القيادي في عهد الاضطراب السياسي، واحتضار الدولة المغولية.

٦ ـ الحسبة على مختلف طبقات الأمة ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير.

٧ ـ القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكفاح وتخريجهم حتى يقوموا ـ بعده ـ بهذا العمل التجديدي من الإصلاح ونشر الدين الصحيح وينقلوه إلى الأجيال القادمة»[1] .

بهذا الشمول العجيب، والتّنوع النادر، والفكر الإسلامي الأصيل، والعلم الديني الراسخ، وفهم روح العصر والتنبه للأخطار والتحديات التي كان يتمخض بها المستقبل، أصبح الدهلوي نموذجًا كاملاً للمصلح الديني والمجدد الإسلامي لاعتماده على الكتاب والسنة.

---

(١) الإمام الدهلوي لأبي الحسن الندوي (ص١٠٥ ـ ١٠٦) ـ دار القلم ـ الكويت.

*** دور الإمام الدهلوي في إصلاح العقائد في الهند على مذهب السلف الصالح أهل السنّة والجماعة:**

يظهر من دراسة حياة الشاة أحمد بن عبدالرحيم المعروف بالشاه الدهلوي أن أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه وأنصاره أثرت في تكوين شخصيته بواسطة مشايخه في الحجاز: الشيخ أبي طاهر محمد بن حسن الكردي وكان سلفي العقيدة، والشيخ محمد حياة السندي، شيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، ورجع الدهلوي إلى الهند بعاطفة الاعتصام بالكتاب والسنة.

❑ وقال في شيخ الإسلام: «والذي أعتقده أنا، وأحب أن يعتقده جميع المسلمين في علماء الإسلام حملة الكتاب والسنة والفقه، والذابين عن عقيدة أهل السنة والحديث أنهم عدول بتعديل النبي ﷺ حيث قال: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله**» ـ وإن كان بعضهم قد تكلم فيهم بما لا يرتضيه هذا المعتقد، إذا كان قولهم ذلك غير مردود عليهم بنص الكتاب والسنة والإجماع، وكان قولهم ذلك محتملاً وكان مجال ومساغ للخوض فيه، سواء كان قولهم ذلك في أصول الدين أو في المباحث الفقهية، أو في الحقائق الوجدانية.

وعلى هذا الأصل اعتقدنا في شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه تعالى ـ فإنا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب اللَّه، ومعانيه اللغوية والشرعية وحافظ بسنة رسول اللَّه ﷺ وآثار السلف، عارف بمعانيه اللغوية والشرعية، أستاذ في النحو واللغة، محرّر لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله، فائق في الذكاء، ذو لسان وبلاغة في الذبّ عن عقيدة أهل السنة، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة، اللَّهم إلا هذه الأمور التي ضيق عليه لأجلها. وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف.

فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العالم، ومن يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره؟ والذين ضيقوا عليه لم يبلغوا معشار ما آتاه اللَّه تعالى وإن كان تضييقه ذلك ناشئًا من الاجتهاد، ومشاجرة العلماء في مثل ذلك ما هي إلا مشاجرة الصحابة ـ رضي اللَّه تعالى عنهم ـ فيما بينهم. والواجب في ذلك كف اللسان إلا بخير»[1].

ثم أجاب عن مسائله التي ضيقوا عليه لأجلها.

□ يقول الشيخ عبدالحميد عبدالجبار الرحماني الرئيس العام لمركز «أبو الكلام آزاد» للتوعية الإسلامية:

تبين مما تقدم أن العهد التغليقي اختص بتنفيذ تعليمات شيخ الإسلام وإصلاحاته علميًا تحت إشراف الملكين (محمد تغلق وفيروز تغلق) وسلطتهما.

وامتاز عصر الشاه ولي اللَّه الدهلوي بتأثير معارف ابن تيمية في تغيير الفكر والمنهج والتمحيص العقلي، اعترف بذلك الدهلوي وتلميذه معين الدين السندي[2].

---

(١) «جلاء العينين» للألوسي (٤٥ ـ ٤٦) نقلاً عن «التفهيمات الإلهية» الدهلوي.

(٢) وأما أخطاء الشاه ولي اللَّه الدهلوي في باب التصوف ووحدة الوجود ووحدة الشهود فهي رواسب بقيت آثارها في «عبقات» و«صراط مستقيم» من كتب الشاه إسماعيل الدهلوي، ولم يتخلص الفكر السلفي منها في الهند إلا بعد جهود السيد صديق بن حسن البوفالي ورفقائه، وجهاد السيد محمد نذير حسين المحدث الدهلوي وتلامذته الذين ملأوا الدنيا بعلوم الكتاب والسنة ومعارف السلف الصالح شرقًا وغربًا.

ونقول في الشاه ولي اللَّه الدهلوي كما نقل الأستاذ مسعود الندوي عن قائل فيه قوله: «نحن نعرف ولي اللَّه المحدث الفقيه صاحب «حجة اللَّه البالغة» و«إزالة الخفاء» ونُجِلّه أما (ولي اللَّه) المتصوف الفلسفي فلا صلة لنا به. انتهى كلام الرحماني في مقدمة كتاب «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية» للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد ص(٣٣ ـ ٣٤).

☐ يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي عن العقائد والتقاليد الشركية التي كانت سائدة:

«كانت العقائد والتقاليد الشركية قد نالت رواجًا بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين والعجم ونفوذ الحكومة الباطنية والإسماعيلية وتأثيرهما وانتشار تعليمات الجهلة والضلال من الصوفية وأعمالهم، فقد وجد عدد وجيه من المسلمين في ذلك الحين يعتقدون في أئمة دينهم ومشائخهم والأولياء والصالحين منهم من الاعتقادات الفاسدة ويحملون من الأفكار المشركة ما كان يعتقده اليهود والنصارى في عزير والمسيح ـ عليهما السلام ـ وأحبارهم ورهبانهم، وكل ما كان يدور حول قبور الأولياء والمشائخ إنما كان تقليدًا ناجحًا للأعمال والتقاليد التي كانت تنجز في معابد غير المسلمين وقبور المقدسين عندهم، فالاستغاثة منهم والاستعانة بهم، ومديد الطلب والضراعة إليهم، كل ذلك كان عامًا شائعًا بينهم كما عمت عادة بناء المساجد الفخمة على قبورهم وجعلها مساجد وعقد المهرجانات عليها عامًا فعامًا، وقطع المسافات الطويلة للوصول إليها، وقد كانت عبادة القبور ـ بجراءة ووقاحة ـ وعدم الخشية من اللَّه تعالى والخوف من أصحاب القبور والخشية منهم والاستهزاء بذات العلي القدير والاستهانة بشعائره، والجراءة وقلة الأدب وتقديس الأولياء إلى حد التأليه، والحج إلى المشاهد والقبور وترجيحه ـ بعض الأحيان ـ على الحج إلى بيت اللَّه العتيق، وخراب المساجد وضياعها، وروعة المشاهد والأماكن الخاصة للزيارة والعناية بها كان كل ذلك من قسمات الحياة الجاهلية وعلائمها البارزة التي لم تكن تحتاج رؤيتها إلى قطع مسافات طويلة ولا إلى تفكير وتأمل كثير»[1] .

لقد كان هذا الوضع في بلاد كمصر والشام والعراق التي فتحها

---

(١) الإمام ابن تيمية لأبي الحسن الندوي ص(١٧١ ـ ١٨٠).

الصحابة ﷺ بأيديهم المباركة، ثم هي أقرب البلاد وأكثرها اتصالاً بمركز الإسلام ومهبط الوحي وموطن الرسول ﷺ وكانت لغتها العربية التي نزل فيها القرآن، ولم تتوقف فيها ـ ليوم واحد ـ سلسلة دروس الكتاب والسنة، وألفت فيها كتب جليلة في علوم الحديث الشريف وشروحها.

ولا يبعد إذن أن نقدر الوضع بإزاء ذلك في الهند (لا سيما هذا القرن الثاني عشر) التي وصل إليها الإسلام بعد أن طاف بتركستان وإيران وأفغانستان وفقد كثيرًا من طاقته وحيويته ونضارته بأيدي أولئك الذين لم يتشرفوا بصحبة النبي ﷺ ولم يتمتعوا بالاستفادة ـ مباشرة ـ من مصدر النبوة الفياض، والذين كان كثير منهم لم يتحرروا ـ كليًا ـ من تأثيرات شعبهم وسلالاتهم، ثم إن الهند كانت تسيطر عليها ـ من آلاف السنين ـ الديانة والفلسفة والحضارة التي عجنت طينتها بالشرك والوثنية وجريا فيها مجرى الدم، والتي كانت أكبر ممثل ـ في هذه القرون الأخيرة ـ للوثنية والمحافظة الأمينة على الجاهلية القديمة، وقد انتقل عدد كبير من سكان هذه البلاد المسلمين من البرهمية والأوساط الشركية الأخرى إلى حظيرة الإسلام، ثم لا يعز بنَّ عن البال أن هذه البلاد لم تكن لها من الصلة المباشرة (عبر المدى الطويل) بالقرآن والسنة، ما كانت ـ لتأثير إيران ـ بالعلوم الحكمية العقلية والفلسفة اليونانية، وإذا كانت لها علاقة علمية ودراسية بالعلوم الدينية، فبالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام، العلوم التي يرجع موضوعها ومجال البحث والتحقيق فيها إلى القضايا والجزئيات الفقهية القانونية، وأصول استنباطها، والبحوث الفلسفية في العقائد، والدعوة الأساسية إلى التوحيد الخالص.

ويمكن أن يقدر ما خلفته ديانات الهند وفلسفاتها وتقاليدها وعاداتها من تأثير في القرن العاشر الهجري نفسه على المجتمع المسلم من إحدى رسائل الإمام السرهندي التي كتبها إلى إحدى الصالحات من مسترشداته، ويقدر منها

ما بلغه المجتمع المسلم من تعظيم شعائر الشرك، والاستعانة بغير اللَّه، وطلب الحاجات من غير اللَّه، وتعظيم أعياد الكفار والمشركين، وتقليد رسومهم وعاداتهم وطقوسهم والنذر والذبح للأولياء والصالحين، والصيام بأسماء المشائخ والصالحات، والخوف من ستيلا (التي كانت تعتبر إلهة الجدري) وإجلالها، وأمثال هذه الأشياء التي تدل على العقلية الهندوسية الوثنية والخضوع للأوهام والخرافات، التي غزت عقر دار المسلمين، ولا يتعسر تقدير ما وقع بعد مضى قرن آخر من الزمان على هذا العهد وفقدان الصلة القوية العامة بالكتاب والسنة من زيغ وانحراف في العقائد وتأثير للعقائد والأعمال غير الإسلامية، بل المعارضة المنافية للإسلام، على كثير من الأسر والبيوتات.

ويمكن أن يقدر أيضًا ما أنتج تأثير غير المسلمين على المجتمع المسلم، والجهل بالكتاب والسنة، والبعد عنهما، والفراغ الطويل في الجهود المؤثرة المركزة (بغضّ النظر عن الدهماء والجماهير سخطوا أم رضوا، وبإغماض العين عن النتائج والأخطار) - في الهند من وضع سيئ، وما قام من نظام للعقائد، إزاء الدين الحنيف (الذي لم يكن فيه أي مجال لظل من ظلال الشرك والوثنية) وما نبتت في ساحة حياة المجتمع المسلم من نباتات الجاهلية وحشائشها الشيطانية، يمكن أن يقدر كل ذلك من بعض كتابات الإمام الدهلوي نفسه، يقول في «التفهيمات الإلهية»:

«قال رسول اللَّه ﷺ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لتّبعتموهم، قلنا يا رسول اللَّه! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»** [أخرجه البخاري ومسلم] صدق رسول اللَّه ﷺ فقد رأينا رجالاً من المسلمين الذين ضعف إيمانهم يتخذون الصلحاء أربابًا من دون اللَّه، ويجعلون قبورهم مساجد، كما كان اليهود والنصارى يفعلون،

ذلك وقد رأينا رجالاً منهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويعتمدون في ترك العمل وإرضاء الشهوات على القول المعزو إلى النبي ﷺ «الصالحون لله، والطالحون لي». كما قال الذين من قبلهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، وإن سألت الحق فقد فشى التحريف في كل طائفة.

فالصوفية أظهرت أقاويل لا يدرى لها توفيق بـ «الكتاب والسنة»، لا سيما في مسألة التوحيد (الوجودي) فظهر من ذلك أنهم لا يحتفلون بالشرع وليست له عندهم قيمة(١).

◻ ويقول في كتابه الشهير «الفوز الكبير»:

«وإذا كنت تتوقف في التسليم بصحة ما يقال عن عقائد المشركين وأعمالهم فانظر إلى المحرفين المنحرفين في هذا العصر لا سيما من يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام، ما هي تصوراتهم عن «الولاية» ورغم أنهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدمين يرون وجود الأولياء في عصرنا من المستحيلات، ويؤمّون القبور والعتبات، وقد ابتلوا بأنواع من الشرك والبعد والخرافات وتمكن منهم التحريف والتشبيه وتغلغل في نفوسهم حتى لم تبق - بحكم ما جاء في الحديث الصحيح: «لتتبعن سنن من كان قبلكم إلخ» - بلية من البلايا، ولا فتنة في الفتن إلاّ وطائفة من طوائف المسلمين - تخوض فيها وتعلق بها، عافانا اللّه سبحانه عن ذلك(٢).

* الطريق المؤثر لعلاج هذه الأدواء وإصلاح الأوضاع نشر القرآن الكريم والدعوة إلى فهمه:

لقد رأى الإمام الدهلوي أن دراسة القرآن الكريم وفهمه وتدبره هو

---

(١) «التفهيمات الإلهية» (ص١٣٤ - ١٣٥).

(٢) «الفوز الكبير» للدهلوي (ص٨ - ٩) - المكتبة المحمدية.

أقوى الطرق وأكثرها تأثيرًا لعلاج هذا الداء، بل الفتنة العمياء، ولم يكن تفطنه لهذه الحقيقة مبنيًا على أساس الذكاء وطول الدراسة والقياس فحسب، بل كانت حقيقة بديهية، يشهد عليها القرآن نفسه، ولا يشهد عليها تاريخ عهد البعثة والنبوة فحسب بل تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام كله شهيد عليه، ولا يتصور لإعلان حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك وسيلة أقوى وأصرح وأوضح وأكثر تأثيرًا في النفوس وجذبًا للقلوب منه، وقد صرح ترجمان القرآن الشيخ عبدالقادر (ابن الإمام الدهلوي) في مقدمة «موضح القرآن» وترجمته للقرآن الكريم وتحشيته عليه (بالأردية) بهذه الحقيقة في أسلوب ساذج نفاذ بما لا مزيد عليه، يقول:

«ليقل القائلون ما شاءوا ولكن ليس أحد يستطيع أن يقول كما قال اللَّه، ولا يوجد في كلام أحد من التأثير والنفوذ ما يوجد في كلام اللَّه».

ولعل شعور الإمام الدهلوي بهذا الوضع الديني في الهند، وبعدها عن تعاليم القرآن الكريم والحكيم وتعاليم الإسلام - بصفة عامة - ومنافاتها لها، قد قوي واشتد أثناء إقامته بالحجاز، وانبعث في قلبه الدافع القوي، في ذلك الجو الروحي النوراني القرآني - الذي علا منه هتاف التوحيد قبل كل مكان - إلى أن يقوم بنشر القرآن الكريم وتعميمه بين الناس في الهند، بوضوح وقوة يمكن أن يعبر عنها بالإلهام والإشارة الغيبية التي ترد - في كل عصر - على النفوس الزكية لتحقيق مهمة دينية ضرورية، ويكاد يستحيل دفعها والتغلب عليها، ولذلك نرى أن الإمام الدهلوي بدأ بعمل ترجمة القرآن الكريم باللغة الفارسية التي تمت وتحققت باسم: «فتح الرحمن» بعد عودته من الحجاز.

وقد كان من «الحقائق» المسلم بها ليس في الهند فحسب بل في جميع البلدان العجمية - تقريبًا - بما فيها تركستان، وإيران، وأفغانستان، والبلدان المجاورة للهند - وكانت ميولها ونزعاتها، وأعمالها وأذواقها وحقائقها المعترف

بها عندها تظلل على الأوساط العلمية والدينية في الهند وتؤثر عليها ـ أن القرآن الكريم إنما هو كتاب خاصة الخاصة ليطالعوه ويدرسوه ويفهموه ويتدبروه، وأن فهمه يتوقف على معرفة أكثر من اثنى عشر علمًا، وأن نشره في العامة، وتوعيتهم ـ مباشرة ـ بمعانيه ومطالبه، والدعوة العامة إلى استهدائه والاستيضاء به والاستفادة منه مباشرة خطر شديد، وضلال كبير، وفتح لباب فتنة مسيطرة، وإنها دعوة إلى الاضطراب الفكري في العامة، والقول بالرأي، والاستغناء عن العلماء، بل فوق ذلك دعوة إلى الخروج عليهم والتمرد والطغيان.

❑ يقول الإمام الدهلوي:

«إن هذا العصر الذي نعيشه، وهذه البلاد التي نسكنها تقتضي فيها مصلحة المسلمين ونصيحتهم أن ينقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السلسة (من دون تنميق وتحبير وتظاهر بالفضل وذكر للقصص المتعلقة ووجوه التأويل) حتى يفهمها العامة والخاصة على قدم سواء، ويدرك الصغار والكبار جميعًا معاني القرآن الكريم ومطالبه، وقد ألقى الدافع إلى هذا العمل في روعي، واضطررت إليه اضطرارًا.

وقد ألقيت نظرة فاحصة على الترجمات السابقة حتى إذا كان بعضها على المستوى اللائق اكتفي بنشرها وترويجها، ولا بد أن تكون هذه الترجمة منسجمة مع ذوق أهل هذا العصر إلى حد المستطاع، ولكن هذه الترجمات إما طويلة مملة أو قصيرة مخلة، وقد تحقق لي أثناء ذلك ترجمة الزهراوين (سورتي البقرة والنساء) ثم صادفني السفر إلى الحرمين الشرفيين، وانقطع ذلك العمل ثم بعد عدة أعوام بدأ بعض الأحبة يقرأ عليَّ ترجمة القرآن، فأصبح هذا الدرس باعثًا على العزيمة الأولى، وتقرر أن تقيد الترجمة قدر الدرس اليومي، فلما تمت ترجمة الثلث من القرآن الكريم وقع لهذا العزيز

سفر وتوقف عمل الترجمة، ثم جاءت مناسبة أخرى بعد مدة من الزمن، وعادت الإرادة القديمة من جديد، وتمت الترجمة إلى الثلثين.

وعهد إلى بعض الأصدقاء بتبييض المسودة، وأن يكتبوا معها متن القرآن الكريم أيضًا حتى تتهيأ نسخة مستقلة (للقرآن الكريم مع الترجمة) فبدأ هذا الصديق السعيد تبييض المسودة من عيد الأضحى عام ١١٥٠هـ، فتحرك العزم وعاد الدافع وكملت الترجمة إلى آخر القرآن الكريم، ووقع الفراغ من التسويد في أوائل شعبان وبيضت المسودة عام ١١٥١هـ، ونشرت عام ١١٥٦هـ بعناية الأخ العزيز الشيخ محمد أمين ـ أكرمه اللَّه تعالى بشهوده ـ وبدئ بتدريسها، وتهيأت لها عدد من النسخ واسترعت انتباه المعاصرين، والحمد للَّه ـ تعالى ـ على أن ذلك النقش الذي نقش في قلبي، قد ظهر ـ أخيرًا ـ من وراء ستار التقدير[1].

وقد كتب الإمام الدهلوي عدا هذه الترجمة والتفسير المسمى بـ «فتح الرحمن» مقدمة في أصول الترجمة كذلك، وهي ـ رغم وجازتها وقصرها ـ مقدمة فاضلة تحتوي على فوائد جمة، يقول في بدايتها:

«يقول الفقير إلى رحمة اللَّه الكريم، ولي اللَّه بن عبدالرحيم، إنها رسالة في قواعد الترجمة وأصولها مسماة بـ «المقدمة في قوانين الترجمة»، وقد جرى بضبطها القلم أثناء كتابة ترجمة القرآن الكريم».

ويخيل إلينا أن الصخرة الصلدة التي كانت تحول في سبيل ترجمة القرآن الكريم ونشره بين الناس أزيحت بهذه الخطوة الجريئة التي قام بها شخصية جليلة كالإمام الدهلوي (التي كانت طبقة أصحاب العلم والفكر الصحيح في عهده مجمعة كلها ـ تقريبًا ـ على تبحره في العلم وجمعه

(١) مقدمة «فتح الرحمن» للدهلوي.

للفضائل والمحاسن، ومنزلته الروحية العالية وإخلاصه وتجرده) وفتح الطريق، ولم يزل يحدث ويتسلسل في التاريخ الإسلامي أن شخصية كبيرة ذات شأن إذا بدأت بعمل كانت تحوم حوله الريب والظنون، تنقشع عنه بسببه سحب الريب والظنون وسوء الفهم وينفتح الطريق العام».

* ترجمة القرآن إلى الأردية بعد الإمام الدهلوي:

وقد أمست الحاجة ـ سريعًا ـ بعد ترجمة الإمام الدهلوي بالفارسية إلى ترجمة القرآن الكريم باللغة الأردية، إذ أنها كانت بدأت في الجزء الأخير من القرن الثاني عشر الهجري نفسه تحل محل اللغة الفارسية، وبدئ فيها بعمل الكتابة والتأليف، وقد شعر بهذه الحاجة الماسة وتغير الوضع أول ما شعر الشيخ عبدالقادر الدهلوي (م١٢٣٠هـ) ابن الإمام الدهلوي نفسه، وقام بترجمة القرآن الكريم عام ٥ ـ ١٢٠٤هـ إلى اللغة الأردية الأدبية التي يمكن أن يقال عنها إنه ليس في علمنا محاولة نقل معاني القرآن الكريم إلى غير العربية بلغت من النجاح والسهولة والجمال وتناولت روح الألفاظ القرآنية إلى الحد الكبير، ما بلغته هذه الترجمة الفوز الكبير:

وقد كان للشيخ الدهلوي مأثرة عظيمة من مآثره وهو كتابه الفذ الفريد العديم النظير «الفوز الكبير في أصول التفسير».. كان مأثرة تجديدية في الدعوة إلى القرآن، وإنشاء ملكة الفهم والتدبر للقرآن الكريم في أوساط الخاصة وأصحاب العلم والمثقفين، وإيقاظ عاطفة الإصلاح للأمة الإسلامية.

ووقف الدهلوي ـ رحمه اللَّه ـ سدًّا منيعًا ضد الشركيات التي كانت تعبث بالمجتمع الهندي.

❑ قال الشيخ أبو الحسن الندوي:

«يقول الإمام الدهلوي في كتابه العديم النظير «الفوز الكبير في أصول التفسير»:

«والشرك هو إثبات الصفات الخاصة باللَّه ـ تعالى ـ لغيره مثل إثبات التصرف المطلق في الكون، بالإرادة المطلقة، التي يعبر عنها بـ «كن فيكون» أو إثبات العلم الذاتي الذي يحصل بالاكتساب عن طريق الحواس والدليل العقلي والمنام والإلهام، وأمثال هذه من الوسائل المادية أو الروحية أو إثبات إيجاد شفاء المريض أو إثبات اللعنة على شخص أو السخط عليه بحيث ينقلب نتيجة هذا اللعن والسخط معدمًا فقيراً، أو مريضًا أو شقيًّا أو الرحمة لشخص والرضا عنه، بحيث ينقلب هو لسبب هذه الرحمة والرضا غنيًّا صحيحًا معافى سعيداً.

وهؤلاء المشركون لا يعرفون مع اللَّه ـ تعالى ـ شريكًا في خلق الجواهر (أي أصول المادة) وتدبير الأمور العظام، ويعترفون بأنه لا قدرة لأحد إذا أبرم اللَّه ـ تعالى ـ شيئًا وقضى، أن يمانعه ويقف دونه، إنما كان إشراكهم في أمور خاصة ببعض العباد، إذ أنهم يظنون أن سلطانًا عظيمًا من السلاطين العظام كما يرسل عبيده وأصحاب الزلفى لديه إلى بعض نواحي مملكته للقيام ببعض الأمور الجزئية وأنه لا يقوم بشئون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه، بل يكل ذلك إلى الولاة والحكام، ويقبل منهم شفاعتهم، وتزكيتهم للموظفين الذين يعملون تحت إشرافهم، والمتصلين بهم والمتزلفين لديهم، كذلك قد خلع ملك الملوك على الإطلاق ـ تعالى شأنه ـ على بعض عباده المقربين، خلعة الألوهية وجعل سخطهم أو رضاهم مؤثرًا في عباده الآخرين.

فكانوا ـ لأجل ذلك ـ يرون من الضرورة التزلف إلى أولئك العباد المقربين حتى يكون هذا وسيلة لصلاحية القبول في حضرة الملك الحقيقي، وتنال شفاعتهم في حقهم ـ عند الجزاء على الأعمال والحساب ـ الحظوة والقبول عند اللَّه ـ سبحانه ـ.

ونظراً لهذه الملاحظة والتصور الذي رسخ في نفوسهم، حدثتهم

أنفسهم بالسجود أمامهم والذبح لهم والحلف بأسمائهم، والاستعانة بقدرتهم المطلقة، ونحت صورهم وتماثيلهم من حجر وصفر ونحاس وغير ذلك، وجعلها قبلة للتوجه إلى أرواحهم، وتدرج الجهلة من هذا الطريق إلى أن بدأوا يعبدون هذه الصور والتماثيل، ويعتقدون أنها آلهة بذاتها، ووقع في المعتقدات خلط والتباس وفساد عظيم»[(١)] .

❑ ويقول أيضًا في «حجة اللَّه البالغة»:

«حقيقة الشرك أن يعتقد إنسان في بعض المعظمين من الناس أن الآثار العجيبة الصادرة منه إنما صدرت لكونه متصفًا بصفة من صفات الكمال. مما لم يعهد في جنس الإنسان بل يختص بالواجب ـ جل مجده ـ ولا يوجد في غيره إلا أن يخلع هو خلعة الألوهية على غيره أو يفنى غيره في ذاته، ويبقى بذاته، أو نحو ذلك ما يظنه هذا المعتقد من أنواع الخرافات كما ورد في الحديث: «إن المشركين كانوا يلبون بهذه الصيغة: لبيك لبيك لا شريك لك إلاّ شريكًا هو لك تملكه وما ملك» فيتذلل عنده أقصى التذلل، ويعامل معه معاملة العباد مع اللَّه ـ تعالى ـ[(٢)] .

❑ ويقول كذلك ـ وهو يبين حقيقة إشراك المشركين، ويصرح بأنه كان هناك أمور مشتركة بين المشركين وبين المسلمين، فقد كان المشركون العرب لا ينكرون وجود اللَّه ـ تعالى ـ ومكانته المتفردة وقدرته المطلقة، وكانوا يرون أن المقربين لديه والمحبوبين عنده يشاركونه في بعض الصفات والحقوق ـ وذلك أيضًا بإذنه ورضاه ـ ولأجل ذلك كانوا يعاملونهم معاملة العبودية والخضوع ـ يقول تحت «باب التوحيد».

«والمشركون وافقوا المسلمين في تدبير الأمور العظام وفيما أبرم وجزم،

---

(١) «الفوز الكبير» (ص٧ ـ ٨).

(٢) «حجة اللَّه البالغة» لولي اللَّه الدهلوي (١/ ٦١).

ولم يترك لغيره خيرة، ولم يوافقوهم في سائر الأمور، ذهبوا إلى أن الصالحين من قبلهم عبدوا اللَّه ـ تعالى ـ وتقربوا إليه، فأعطاهم اللَّه الألوهية فاستحقوا العبادة من سائر خلق اللَّه كما أن ملك الملوك يخدمه عبده فيحسن خدمته فيعطيه خلعة الملك، ويفوض إليه تدبير بلد من بلاده، فيستحق السمع والطاعة من أهل ذلك البلد، وقالوا: لا تقبل عبادة اللَّه ـ تعالى ـ إلا مضمومة بعبادتهم، بل الحق في غاية التعالي، فلا تفيد عبادته تقربًا منه، بل لا بد من عبادة هؤلاء ليقربوا إلى اللَّه زلفى، وقالوا هؤلاء يسمعون ويبصرون ويشفعون لعبادهم، ويدبرون أمورهم وينصرونهم فنحتوا على أسمائهم أحجارًا، وجعلوها قبلة عند توجههم إلى هؤلاء، فخلف من بعدهم خلف، فلم يفطنوا للفرق بين الأصنام وبين من هي على صورته فظنوها معبودات بأعيانها[1].

□ ويقول في موضع آخر:

(لقد كان المشركون يعتقدون) «بأنه لا شريك للَّه ـ تعالى ـ في خلق السموات والأرض، وما فيهما من الجواهر، ولا شريك له في تدبير الأمور العظام وأنه لا رادَّ لحكمه ولا مانع لقضائه، إذا أبرم وجزم، وهو قوله ـ تعالى ـ: **﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن اللَّه﴾**، وقوله تعالى: **﴿بل إياه تدعون﴾**، وقوله ـ تعالى ـ: **﴿ضل من تدعون إلاَّ إياه﴾**، لكن كان من زندقتهم قولهم: «أن هنالك أشخاصًا من الملائكة والأرواح تدبر أهل الأرض فيما دون الأمور العظام من إصلاح حال العابد فيما يرجع إلى خويصة نفسه وأولاده وأمواله، وشبهوهم بحال الملوك بالنسبة إلى ملك الملوك، وبحال الشفعاء الندماء بالنسبة إلى السلطان المتصرف بالجبروت، ومنشأ ذلك ما نطقت به الشرائع من تفويض الأمور إلى الملائكة، واستجابة

(١) «حجة اللَّه البالغة» (١/ ٥٩).

دعاء المقربين من الناس فظنوا ذلك تصرفًا منهم كتصرف الملوك قياسًا للغائب على الشاهد، وهو الفساد[١] .

□ وهكذا توصل الإمام الدهلوي إلى جذور الأعمال والعقائد الشركية التي كان يخوض فيها العامة والخاصة الذين هم أشباه العامة، وكشف عن المغالطة التي جرَّت كثيرًا من الجهلة وأدعياء العلم إلى الوقوع في شراك هذه الأعمال والتقاليد وشعائر الشرك، والنذر والذبح لغير اللَّه، والصيام بأسماء الأولياء والصالحين، ودعائهم والسؤال منهم والالتجاء إليهم، والخوف والرجاء منهم، والاستمداد والاستعانة بهم، وتعظيم قبورهم، وكل ما يمتّ إليهم بصلة كتعظيم بيت اللَّه ـ تعالى ـ والحرم المحرم والالتزام بآدابه واعتقاد تصرفهم ـ ولو جزئيًّا ـ في الكون، وتأثيرهم في شقاء الإنسان وسعادته وصحته ومرضه، وسعته وإقتاره، وكانوا قد حرموا من العمل لقوله ـ تعالى ـ: ﴿**فاعبد اللَّه مخلصاً له الدين**﴾ وكرامة الإنابة والإخبات والتوكل على اللَّه ـ تعالى ـ والانقطاع إليه، وإذا سمع الإنسان بعض أخبارهم وشاهد بعض أعمالهم تذكر الآية الكريمة: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ [يوسف: ١٠٦].

ولو لم تكن للإمام الدهلوي وأخلافه مأثرة غير هذا التجديد لعقيدة التوحيد وتنقيحها وتوضيحها ونشرها وترويجها، وإزالة ما علق بها من سوء فهم وتصورات خاطئة، لكفى ذلك في عده من المجددين في هذه الأمة، ولكن له مع ذلك أعمال ومآثر، سيأتي تفصيلها في الصفحات التالية»[٢] .

(١) «حجة اللَّه البالغة» (١/ ١٢٥).

(٢) «الإمام الدهلوي» (ص١٢٥ ـ ١٢٩).

*** قيام الدهلوي بنشر الحديث والسنة المشرفة، ونصره لمذهب أهل الحديث وتجريد العمل بالكتاب والسنة دون التقيد بمذهب معين:**

لقد قام الإمام الدهلوي في شبه القارة الهندية وفي عهدها الأخير - حقيقة - (الذي يمتد من أواسط القرن الثاني عشر الهجري إلى هذا الحين) بمأثرة عظيمة، وهي القيام بنشر الحديث النبوي الشريف وترويجه وإحياء دروس الحديث والعناية بهذا الفن الجليل، ومؤلفاته في هذا الموضوع تمتاز بالدقة والاجتهاد والتحقيق، وتعتبر فصلاً مضيئًا مهما في صحيفة تجديده وكتاب حياته والتي غلبت على فضائله ومجالاته العلمية وخدماته الدينية الأخرى حتى غدا «المحدث الدهلوي» جزءًا من اسمه، وعنوانًا لتعريفه ووصفه، وجرى على ألسنة الناس وأقلامهم «الإمام ولي اللَّه المحدث الدهلوي» وأصبح ذلك علمه المعرف الكامل.

❑ يقول العلامة السيد رشيد رضا في فضل أهل الهند في نشر الحديث وعلومه:

«ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لقُضِي عليها بالزوال من أمصار الشرف، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة، حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل القرن الرابع عشر[1]».

لقد نذر الإمام الدهلوي حياته وصلاحياته لنشر الحديث والدعوة إليه، يقول في الصفحة الأولى من مقدمته «لحجة اللَّه البالغة»:

«إن عمدة العلوم اليقينية ورأسها، ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث الذي يذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين ﷺ وأصحابه أجمعين، من قول، أو فعل، أو تقرير، فهم مصابيح الدجى ومعالم الهدى،

(١) مقدمة «مفتاح كنوز السنة».

وبمنزلة البدر المنير، من انقاد لها ووعى، فقد رشد واهتدى وأوتي الخير الكثير، ومن أعرض وتولى فقد غوى وهوى، وما زاد نفسه إلاّ التخسير، فإنه ﷺ نهى وأمر وأنذر وبشر وضرب الأمثال وذكر، وإنها لمثل القرآن أو أكثر»[١].

☐ ويقول في موضع من بعض كتاباته:

«إن أول شيء يوجبه العقل على نفسه، هو تتبُّع أحوال النبي ﷺ وأقواله، ماذا قال فيما يتعلق بالأحكام الإلهية وكيف عمل بها، ثم يقتدي بهذه الأقوال والأحوال بالقلب والقالب، فإن حديثنا عن شخص قد سلم بأن اللَّه ـ تعالى ـ قد كلف عباده بأحكامه، وقد عزم هو على أداء مسئوليته الناشئة من هذا التكليف الشرعي»[٢].

* نظرة على حال الهند في القرن العاشر الهجري وما بعده تعرّفك قدر الدهلوي:

☐ قال الشيخ أبو الحسن الندوي في «الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، وهو يتحدث عن كتاب «جواهر خمسة» لأحد المشائخ المعروفين في القرن العاشر الهجري، الشيخ محمد غوث الكواليارى، ما يلي:

«لقد كانت الهند لا تعرف شيئًا عن الصحاح الستة ومؤلفيها، وأئمة هذا الفن، الذين نقدوا علم الحديث ونخلوا وميزوا بين صحيحها وسقيمها وقاوموا البدع والمحدثات وأثبتوا أن حياة المسلمين يجب أن تقوم على أساس السنة المطهرة، وفي ضوء الأحاديث الصحيحة، ونستثنى من ذلك ولاية كجرات التي انتشر فيها علم الحديث لنزول العلماء العرب بها، وكثرة

(١) مقدمة «حجة اللَّه البالغة» (ص٢).

(٢) «كلمات طيبات» للدهلوي (ص١٧٣).

الرحلات فيها إلى الحرمين الشريفين، ونبغ فيها العلامة على المتقى البرهان بوري وتلميذه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتنى (في القرن العاشر الهجري).

ويمكن الاطلاع على هذا التأثير الذي خلفته الفلسفات، والتجارب المحلية في الهند على التصوف من خلال كتاب «جواهر خمسة» للشيخ محمد غوث الكوالياري الذي ذاع صيته في عصره، وحصل له القبول العظيم عند الناس، والكتاب يشتمل على أقوال الصوفية، وتجارب الشيخ الكوالياري الشخصية، ويخيل إلينا أنهم لم يروا حاجة إلى ثبوت هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة، واقتباسها من كتب السيرة النبوية المعتبرة، فتجد في هذا الكتاب المذكور ـ آنفًا ـ «صلاة الأحزاب» و«صلاة العاشقين» و«صلاة تنوير القبر» والصلوات المخصوصة بالأشهر المختلفة والأدعية الخاصة بها التي لا أصل لها في السنة، ولا أثر لها في الحديث[1] .

ولم تكن هذه خصيصة «جواهر خمسة» فحسب، بل تتوفر أمثلة ذلك في مجاميع أقوال أمثال هؤلاء الصوفية غير المعتبرة، فقد كانت سجدة التحية للمشائخ شائعة، واتخذت القبور مساجد علنًا وجهارًا، فكانت توقد عليها السراج، وتفرش عليها الأردية، وتعظم أطرافها وحواليها كتعظيم الحرم، ويحتفل بها باسم «العرس (الاحتفال الديني) وقراءة الفاتحة» وتكثر فيها النساء، وكانت «الصلاة الغوثية» و«الصلاة المعكوسة» والنذر لغير اللَّه ـ تعالى ـ باسم الأولياء الصلحاء والذبح لابتغاء مرضاتهم، والصوم باسم غير اللَّه، وأمثال هذه من البدع الكثيرة (التي كانت تصل حدودها إلى الشرك) كانت شائعة في الناس يقبل عليها الخاصة منهم والعامة، وكانت تعقد احتفالات إحياء أيام الولادة والوفاة للأولياء والصالحين، ويحتفل بمهرجانات وأعياد.

---

(١) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» (٣/ ٢١٨).

ولو لم تكن كتب الحديث في متناول أيدي العلماء المسلمين، ولم تتيسر لهم هذه الوسيلة المعتبرة السهلة للتفريق والتمييز بين البدع والسنن، لما كانت هذه السلسلة من عهد شيخ الإسلام ابن تيمية (م٧٢٨هـ) إلى عهد الإمام الدهلوي (م١١٧٦هـ) للعلماء المصلحين والدعاة إلى الدين الخالص، ولم يظهر المصلحون والمجددون حملة راية التجديد والإصلاح وتصحيح العقائد، وإزالة التقاليد الجاهلية.

* العلامة علي بن سلطان بن محمد الهروي (م١٠١٤هـ) المعروف بمُلاّ علي القاري وردّه على بدع عصره وانصافه لشيخ الإسلام ابن تيمية:

❑ يقول الشيخ الندوي:

«اقرأ تراجم علماء أفغانستان (كابل وهرات وغزنين) في القرنين العاشر والحادي عشر، والق نظرة على كتبهم ومؤلفاتهم، قلما تجد عليها مسحة الدفاع عن السنة والرد على البدعة والتحقيق والتنقيح في المسائل، وإذا بشخصية العلامة علي بن سلطان بن محمد الهروي (م١٠١٤هـ) المعروف بمُلاّ علي القاري، تظهر على الساحة، الذي سافر إلى الحجاز وقرأ على كبار أساتذتها ومحدثيها الأجلة كتب الحديث ونبغ فيها، وتتجلى هذه المسحة الظاهرة في شروحه لكتب الفقه والحديث وترجيحه للمسائل ورده ـ بصراحة ووضوح ـ على بدع عصره ومحدثاته، وقد أدت به دراسته وبحثه وقوله بالحق وإنصافه إلى أنه دافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية وشهد بأنه كان من أكابر أهل السنة والجماعة وأولياء الأمة[١] »[٢].

---

(١) «الدهلوي» (ص١٣٩).

(٢) «المرقاة شرح المشكاة لملاّ علي القاري» (٤/ ٢٧).

* **مأثرة الشيخ عبدالحق الدهلوي:**

«ثم جاء اللّٰه سبحانه وتعالى بالشيخ عبدالحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي المتوفى سنة ١٠٥٢هـ، وهو أول من أفاضه على سكان الهند، وتصدى للدرس والإفادة بدار الملك دهلي، وقصر همته على ذلك وصنفه وخرّج ونشر هذا العلم على ساق الجد، فنفع اللّٰه به وبعلومه كثيراً من عباده المؤمنين، حتى قيل إنه أول من جاء بالحديث بالهند، وذلك غلط كما علمت.

ثم تصدى له ولده الشيخ نور الحق المتوفي سنة ١٠٧٣هـ وكذلك بعض تلامذته وأولاده كشيخ الإسلام شارح البخاري، وولده سلام اللّٰه صاحب «المحلي» و«الكمالين».

❑ وقد أصاب البروفيسور خليق أحمد نظامي في قوله:

«وعلى كل فإن العهد الذي بدأ فيه الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي دروسه في الحديث الشريف، كان قد طُوِيَ ـ إذ ذاك ـ بساط هذا العلم الشريف في شمالي الهند، وأنه قد أشعل في هذا الوسط المظلم الضيق شمعة جذبت إليها الناس من أنحاء نائية بعيدة، فالتفوا حولها وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النور وبدأ نشاط جديد، لدروس الحديث الشريف في شمالي الهند، وانتقل بذلك مركز العلوم الدينية لا سيما الحديث الشريف من كجرات إلى دلهي[١].

وعلى كل فإن الأوساط العلمية والدينية في الهند كانت في حاجة وانتظار لتلك الشخصية التي تكون صلتها بالحديث صلة الحب والغرام، والتي جعلت نشر الحديث الشريف وتعميمه أول أهدافها ومقاصدها في الحياة، لقد وجدت الهند هذه الشخصية في أواسط القرن الثاني عشر الهجري في

---

(١) «حياة الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي» لخليق أحمد نظامي (ص٤٣).

شخص الإمام ولي اللّه الدهلوي الذي طبق بمعنى اللفظ هذا الشعر الفارسي الذي معناه:

«لقد نسينا كل ما قرأنا وتركناه إلاّ حديث الحبيب الذي لا نملُّ من ترداده وتكراره».

لقد كان الدافع الثاني للإمام الدهلوي إلى إحياء الحديث ونشره وترويجه في الهند، هو ذلك الوضع السائد في الهند الذي تقدم الحديث، لقد كان يغشى الأوساط الدينية حينذاك ضباب كثيف من البدع وتقاليد الجاهلية، وطقوس غير المسلمين وتقليدهم فيها والشعائر غير الإسلامية، التي كان من العسير من خلالها رؤية طلعة الإسلام البهية، وكانت تسود في الأوساط العلمية والدراسية تلك العلوم المستوردة من اليونان التي كانوا يسمونها «فنون الحكمة» والعلوم الآلية، وفنون البلاغة وعلم الكلام ولم يكن للعلوم الشرعية لاسيما علم الحديث الشريف نصيب لائق في هذه الأوساط العلمية والدراسية، وإذا صرف شيء من العناية إلى العلوم الشرعية فلم يكن الأمر يتعدى حدود الفقه وأصول الفقه ودقائقها وشق الشعرة فيهما، يقول الإمام الدهلوي ـ وهو يشاهد هذا الوضع ـ في أسف شديد وحزن بالغ:

«وأقول لطلبة العلم: أيها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعاني، وظننتم أن هذا هو العلم، إنما العلم آية محكمة من كتاب اللّه، أن تتعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل معضلها، أو سنة قائمة من رسول اللّه ﷺ أن تحفظوا كيف صلى النبي ﷺ وكيف توضأ، وكيف كان يذهب لحاجته وكيف يصوم، وكيف يحج وكيف يجاهد، وكيف كان كلامه وحفظه للسانه، وكيف كانت أخلاقه، فاتبعوا هديه واعملوا بسننه على أنه هدي وسنة، ولا على أنه فرض ومكتوب عليكم، أو فريضة عادلة، أن تتعلموا ما هي أركان الوضوء وما هي

أركان الصلاة، وما نصاب الزكاة، وما قدر الواجب، وما سهام فرائض الميت، أما السير وما يرغب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضل، وأما ما اشتغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة إنما هي من علوم الدنيا، خضتم كل الخوض في استحسانات الفقهاء من قبلكم وتفريعاتهم، أما تعرفون أن الحكم ما حكمه للّه ورسوله، ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به، ويقول إنما عملي على مذهب فلان لا على الحديث، ثم تخيل بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمل المهرة، وأن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث، فما تركوه إلاّ لوجه ظهر لهم في الدين من نسخ أو مرجوحية.

اعلموا أنه ليس هذا من الدين في شيء إن آمنتم بنبيكم فاتبعوه، خالف مذهبنا أو وافقه، كان مرضى الحق أن تشتغلوا بكتاب اللّه وسنة رسوله ابتداءً، فإن سهل عليكم العمل بهما، فبها ونعمت، وإن قصرت أفهامكم فاستعينوا برأي من مضى من العلماء، ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة، وأن لا تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلة لا بأنها أمور مستقلة، أما أوجب اللّه عليكم أن تشيعوا العلم حتى يظهر شعائر الإسلام في بلاد المسلمين، فلم تظهروا الشعائر وأمرتم الناس أن يشتغلوا بالزوائد، واستكثرتم في أعينهم طلب الحق والدين، أما ترون البلاد العظام تخلو عن العلماء وإن كانوا فهم دون ظهور الشعائر[1].

وإن حال الإمام الدهلوي عند اللهج بذكر الحديث من سرور ولذة غامرة، وحب وإجلال لائمة الحديث، يمكن أن ترى بعض نماذجه في رسالته التي كتبها إلى أحد مسترشديه في مناقب الإمام البخاري ـ رحمه اللّه ـ[2].

---

(١) «التفهيمات الإلهية» للدهلوي (١/ ٢١٤ ـ ٢١٥).

(٢) «كلمات طيبات» للدهلوي (ص١٦٨ ـ ١٧١).

*** نشاط الدهلوي في خدمة الحديث الشريف ونشره:**

لما ذهب الإمام الدهلوي يودّع أستاذه الشيخ أبا طاهر المدني، أنشده شيخه هذا البيت من الشعر:

نسيت كل طريق كنت أعرفه　　　إلاّ طريقًا يؤدّيني لربعكم

☐ فقال الإمام الدهلوي كذلك: «نسيت كل ما قرأت سوى علم الحديث الشريف».

وتشهد حياة الإمام الدهلوي كلها على أنه كان منصرفًا انصرافًا كليًّا إلى خدمة الحديث الشريف، شرحه وتفهيمه، وتدريسه وتعليمه، ونشره وتعميمه، ﴿**رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾.

وقد شمر عن ساق الجد بعد عودته من الحجاز إلى الهند لخدمة الحديث الشريف ونشره، ولم تلبث «مدرسته الرحيمية» أن أصبحت أكبر مؤسسة تعليمية في طول الهند وعرضها وتهافت عليها طلاب علم الحديث من أنحاء الهند وأصقاعها تهافت الفراش على النور، وقد كان في هذه الإصقاع مثل «السند»[1] و«كشمير»[2] من المناطق البعيدة، أما دلهي ونواحيها وشمالي الهند فلا تسأل عنه، وقد كان من المستفيدين من هذه الدروس سوى مسند الهندي الشيخ عبدالعزيز الدهلوي (الذي كان ابنه الأكبر الفاضل والقائم بتكميل

---

(١) لقد ورد الشيخ محمد معين من السند إلى دلهي، ودرس الحديث على الإمام الدهلوي واستفاد منه، وكتابه «دراسات اللبيب في الأسوة الحسنة بالحبيب» معروف، يتجلى فيه ذوق الإمام الدهلوي ومنهج بحثه وتحقيقه، توفى عام ١١٦١هـ (انظر «نزهة الخواطر» (جـ٦).

(٢) كان الشيخ خواجه محمد أمين الكشميري من خواص تلامذة الإمام الدهلوي والحملة الدعاة لمشربه وبحوثه وتحقيقاته، وهو معروف بمحمد أمين الولي اللهي، وقد كان الشيخ عبدالعزيز أحد تلامذته وقد ألف الإمام الدهلوي بعض رسائله، انظر «نزهة الخواطر» (جـ٦).

أعماله وجهوده وتوسيع نطاقها) مفخرة الهند العلامة السيد مرتضى البلكرامي المعروف بالزبيدي (١١٤٥ ـ ١٢٠٥هـ) صاحب «تاج العروس شرح القاموس» و«إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» الذي دوى صيت تبحره في العلم وتحديثه في العالم العربي، وكان مجلسه بالقاهرة يضاهي مجالس الملوك والسلاطين، وكان من خريجي هذه المدرسة بيهقي عصره القاضي الشيخ ثناء اللّه الباني بتي (م١٢٢٥هـ) خليفة الشيخ الجليل ميرزا مظهر جان جانان، ومؤلف «التفسير المظهري» و«ما لابد منه»[١].

وهكذا أصبح علم الحديث في الهند ـ بعد قرون، ولعله لأول مرة ـ قد نفقت سوقه وقامت دولته، وأقبل عليه الناس إقبالاً عظيمًا حتى ظلت الهند تباهي اليمن الميمون، وبدأت نفحاتها الرخية المنعشة تصل إلى أرض الحجاز نفسها[٢].

□ وقد أنشد النواب العلامة السيد صديق حسن خان في ذكر الإمام الدهلوي وخدمته للحديث الشريف، ونشاطاته في القيام بنشره، بيتين من الشعر البليغ يصورانه تصويرًا حقيقيًّا:

من زار بابك لم تبرح جوارحه ... تروي أحاديث ما أوليت من منن

فالعين عن قرة، والكف عن صلة ... والقلب عن جابر والسمع عن حسن

ومن الطريف أن المنن التي ذكرتها هذه الجوارح وأشادت بها، والأسماء التي أشارت إليها في هذا الصدد، كلها أسماء رواة الحديث والشيوخ المحدثين، مثل قرة بن خالد السدوسي، وصلة بن أشيم العدوي، وسيدنا

---

(١) «نزهة الخواطر» (جـ٧).

(٢) وقد أقام الشيخ إسحاق الدهلوي والشيخ عبدلغني المجددي من خريجي هذه المدرسة وتلامذة الإمام الدهلوي حلقات دروس الحديث الشريف في الحرمين الشريفين، وانتفع بهم خلائق من العرب والعجم، انظر للتفصيل «نزهة الخواطر» (جـ٧).

جابر بن عبدالله ﷺ والحسن البصري ـ رحمهم الله جميعًا ـ.

*** ومن مؤلفاته في علوم الحديث:**

المصفى «شرح موطأ الإمام مالك بالفارسية»، و«المسوى» (شرح الموطأ المختصر بالعربية)، و«شرح تراجم الأبواب لصحيح البخاري» و«الإرشاد إلى مهمات الإسناد» و«تراجم البخاري» و«الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين» و«النوادر من حديث سيد الأوائل والأواخر» و«الأربعين» و«المسلسلات».

وله في الاجتهاد والتقليد: «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف» و«عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد».

*** مأثرة من مآثر الإمام الدهلوي:**

لقد قام الإمام الدهلوي بالتوفيق بين الفقه والحديث، ثم محاولة الجمع والتأليف بين المذاهب الأربعة وهذه مأثرة من مآثر الإمام الدهلوي التجديدية وحلقة ذهبية رائعة في سلسلة خدمته للحديث الشريف وانتصاره للسُّنَّة السنية.

لقد كان الفقه والحديث في كثير من الأوساط العلمية والدراسية والتأليفية في العالم الإسلامي يتنقلان منذ عصر طويل في سلسلتين مواجهتين، وكان كل واحد منهما في محله (من حين ظهوره واشتداد ساعده) يقطع طريقه في غنى وانصراف عن الآخر، وكانا بعد هذا الفراق في كثير من الأحيان لا يجتمعان عند أي نقطة من النقاط، ولم يكن يبحث في الحديث في كثير من المذاهب الفقهية إلا إذا كانت مسألة فقهية تحتاج إلى تأييد من حديث، أو كانت لها حاجة إلى دفع اعتراض من اعتراضات علماء المذهب الفقهي الثاني، وتصريحهم بأن هذه المسألة مخالفة للحديث أو إذا

كانت القصد ترجيح مذهب على مذهب، وكانوا في دروس الصحاح الست إما أن يتأولوا تلك الأحاديث التي تخالف مذهبهم، أو يقدموا الأحاديث الأخرى من الكتب الأخرى التي تؤيد مذهبهم، وإذا كان هناك استدلال في واحد من كتب المذاهب الفقهية المعتبرة المهتمة بالأحاديث فإن العلماء الذين قاموا ـ ممن لهم اطلاع واسع على علوم الحديث، ويملكون ذوق المحدثين ـ بمحاولة تخريج هذه الأحاديث والكلام عليها كالمحدثين النقاد[١] ، فهذه المحاولة الطيبة كذلك كانت إحدى الطرق والوسائل لتأييد ذلك المذهب الفقهي والانتصار له، وإثبات أنه موافق للأحاديث، وخدمة علمية وتحقيقية لذلك المذهب، وهي تستحق الشكر والتقدير، ولكنها لم تكن محاولة لإعادة النظر في المسائل نفسها والتوفيق بين الفقه والحديث.

وقد تكونت للمذاهب الفقهية قوالب من حديد، كان من الممكن كسرها[٢] ، ومن المستحيل مدها وبسطها، وكان أتباع كل مذهب قد اعتقدوا في أنفسهم أن صحة مذهبهم مائة في المائة، وهي الحقيقة الأصيلة، وأما إمكان الخطأ البشري فمحتمل وقد عبر بعضهم عن هذه النظرية بهذه الألفاظ البليغة: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب»، وقد كان من نتيجة هذه الوجهة للنظر أن المذاهب الأربعة (الحنفي والمالكي، والشافعي، والحنبلي) التي أجمعت على قبولها الأمة، وسلم ـ

(١) ككتاب العلامة الزيلعي «نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية».

(٢) أي أنه توجد أمثلة الانتقال من مذهب إلى مذهب من الحنفية إلى الشافعية أو العكس، أو اختيار مذهب العمل بالحديث في كل عصر، أما العدول عن بعض المسائل جزئيًّا مع البقاء في نطاق المذهب وحدوده واختيار مسألة أخرى من مذهب آخر، أو العمل بالحديث، فأمثلته قليلة جدًّا، وذلك لأن كثيراً من العلماء يرون «تجزئ التقليد» غير جائز، أي إذا عمل إنسان بمسألة من مذهب فقهي ثم عمل أخرى من مذهب فقهي آخر فإنه يخرج عن تقليد الأول، وذلك عندهم غير صحيح.

أصوليًا - بين أهل الحق وأهل العلم من أول عهودها فيما يتعلق بها بأن الحق دائر فيها وأن أئمتها ومؤسسيها إنما هم أئمة الهدى وقادة الأمة وأن هذه المذاهب حق، يتسع بينها الخليج ويعمق، وينجر الخلاف بين أتباعها إلى التباغض، والبحث والنقاش بعض الأحيان إلى المخاصمة والمقاتلة، وكان أدهى من ذلك وأمر معاملتهم مع أولئك العلماء الذين يبدأون العمل بالحديث - كليًا أو جزئيًا - في العبادات ومن أمثلة هؤلاء أحد علماء القرن الثاني عشر، العالم السلفي المحدث الشيخ محمد فاخر الإله آبادي (١١٢٠ - ١١٦٤هـ) الذي تعرض (حسب رواية بعض المؤلفين) لسخط العامة وغضبهم لسلفيته واتباعه للحديث[١] .

❑ يقول الإمام الدهلوي في دعواته إلى تجريد العمل بالكتاب والسنة دون تقيد بمذهب معين:

«وترى العامة - لا سيما اليوم - في كل قطر يتقيّدون بمذهب من مذاهب المتقدمين، ويرون خروج الإنسان من مذهب من قلدوه - ولو في مسألة - كالخروج من الملة. كأنه نبي بعث إليه، وافترضت طاعته عليه. وكان أوائل الأمة قبل المائة الرابعة غير متقيدين بمذهب واحد»[٢] .

وقال أيضًا:

«بعد دراسة فاحصة لكتب المذاهب الأربعة وكتب أصول الفقه والأحاديث التي يتمسكون بها استقرّ في القلب بتوفيق من اللّه وهدايته طريقة الفقهاء المحدثين»[٣] .

رأى الشاه ولي اللّه الدهلوي أن الحق بين التفقّه والظاهرية فقال:

---

(١) نظر «نزهة الخواطر» ترجمة الشيخ فاخر الإله آبادي (جـ٦).

(٢) «التفهيمات الإلهية» للدهلوي (١/ ٥١) طبعة الهند.

(٣) «جهود مخلصة» (ص٥٢) عن كتابه «الجزء اللطيف» في الفارسية.

«. . . إني أقول لهؤلاء المسمَّين بالفقهاء الجامدين على التقليد: يبلغهم الحديث من أحاديث النبيّ ﷺ بإسناد صحيح، قد ذهب إليه جمع عظيم من الفقهاء المتقدمين، ولا يمنعهم إلا التقليد لمن لم يذهب إليه.

ولهؤلاء الظاهرية المنكرين للفقهاء الذين هم طراز حملة العلم وأئمة أهل الدين أنهم جميعًا على سفاهة وسخافة وإلى ضلالة. وأن الحق أمر بيْن بيْن»[(١)] .

«وهذا هو عين مذاهب أهل الحديث»[(٢)] .

◘ يقول الإمام الدهلوي في ترجيح مسلك المحدثين الفقهاء، واختياره مسلكه وطريقه في الحياة:

«وبعد ما طالعت كتب المذاهب الأربعة وأصولها، ونظرت في الأحاديث التي يتمسكون بها اعتزمت على طريق الفقهاء المحدثين بإشارة نور الغيب وإيحائه»[(٣)] .

◘ يقول الإمام الدهلوي في كتابه «حجة اللّه البالغة»:

«إن التخريج على كلام الفقهاء وتتبع لفظ الحديث لكل منهما أصل أصيل في الدين، ولم يزل المحققون من العلماء في كل عصر يأخذون بهما، فمنهم من يقلّ من ذا ويكثر من ذاك، ومنهم من يكثر من ذا ويقلّ من ذاك، فلا ينبغي أن يهمل أمر واحد منهما بالمرة كما يفعله عامة الفريقين، وإنما الحق البحث أن يطابق أحدهما بالآخر وأن يجبر خلل كل بالآخر، وذلك قول الحسن البصري»[(٤)] .

---

(١) «التفهيمات» (١/ ٢٠٩).

(٢) «حركة الانطلاق الفكري وجهود الشاه ولي اللّه في التجديد لمحمد إسماعيل السلفي (ص٢٧٤).

(٣) «الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف» للدهلوي (ص٤).

(٤) «حجة البالغة» (١/ ١٥٦).

□ ويقول في «وصاياه»:

«ينبغي في المسائل الفرعية اتباع أولئك العلماء المحدثين الذين يجمعون بين الفقه والحديث، ولا بد من عرض المسائل الفقهية على كلام الله ـ تعالى ـ وحديث رسول الله ﷺ».

ويزيد قائلاً: «ولا غنى للأمة في أي عصر من العصور، عن عرض المسائل الاجتهادية على الكتاب والسنة»[1].

* الإمام الدهلوي والتوسط والاعتدال بين التقليد والاجتهاد:

إن من فضائل الإمام الدهلوي الموهوبة ومميزاته التجديدية التي خصه الله ـ تعالى ـ بها، هو ذلك المسلك المتزن المتوسط، وتلك النقطة المتوسطة التي اختارها بين الاجتهاد والتقليد، والتي هي دليل ساطع رائع على طبيعته السليمة المتزنة وذوقه الصحيح وواقعيته، فقد كان هناك فريق يكلف كل مسلم ـ سواء كان عاميًا أو عالمًا ـ بالعمل وفق الكتاب والسنة واستفادة الأحكام والمسائل الشرعية منهما مباشرة، ويحرم التقليد تحريمًا مطلقًا، وهم إن كان كلامهم لا يصرح بهذا الموقف فإن منهجهم في العمل وكتاباتهم تؤدي ـ طبعًا ـ إلى هذه النتيجة، وقد كان في المتقدمين من هذا الفريق والمتحمسين لهذا الموقف العلامة ابن حزم، ولكن هذا الموقف غير عملي وغير واقعي، وإن تكليف كل مسلم بذلك تكليف بما لا يطاق.

وكان ـ في جانب آخر ـ فريق آخر يوجب على جميع المسلمين التقليد ويصف من يخلع ربقته من التقليد بهذه الأحكام الفقهية الشديدة كـ «الفاسق» و«الضال»، كما يصف الفريق الأول بذلك جماعة المقلدين والمتبعين لمذهب فقهي خاص، وكان هذا الفريق يتناسى أن التقليد إنما هو طريقة تنظيمية إدارية

---

(١) «الوصايا» (بالفارسية) (ص٢ ـ ٣).

لصيانة العامة من الناس من اتباع النفس والهوى، والقول بالرأي، وحماية المجتمع المسلم من الفوضى والاضطراب ووسيلة لإيجاد الوحدة والنظام في الحياة الدينية العملية، وتيسير العمل بالأحكام الشرعية، ولكنهم جعلوا هذا العمل التنظيمي في منزلة العمل التشريعي، وألحوا عليه بشدة وتأكيد غليظ، نقله من كونه مذهبًا فقهيًا ومسألة اجتهادية فحسب إلى كونه نصًا ظاهرًا، وعملاً قطعيًا وأمرًا دينيًا مستقلاً.

إن المنهج الذي اختاره الإمام الدهلوي وما عبر به عن ذلك، هو أقرب إلى روح الشريعة، وأكثر انسجامًا مع منهج القرن الأول وأوفق بالفطرة البشرية، وأمسّ بالحياة العملية.

* الدهلوي والحاجة إلى الاجتهاد في كل عصر:

يرى الإمام الدهلوي ـ مع الاعتراف بخصائص المذاهب الأربعة وميزاتها وخدمات الفقهاء المحدثين الجليلة وعلو منزلته والاعتراف بأن هذه الثروة الفقهية والحديثية ثروة عظيمة قيمة، يستفاد منها وينتفع بها، وأن الاستغناء والإعراض عنها من أسباب الخسران والحرمان ـ أن الاجتهاد ـ مع شروطه وتحفظاته الضرورية ـ حاجة كل عصر، ومقتضى طبعي للتطورات الحادثة في الحياة الإنسانية والمجتمع والمدنية وصلاحية النشوء والارتقاء، والحاجات البشرية، وتسلسل الحوادث والوقائع إثبات لسعة الشريعة الإسلامية، وأنها من اللَّه الحكيم، وأنها تملك صلاحية قضاء جميع المتطلبات المشروعة للمجتمع البشري وهداية الناس وإرشادهم الأمر الذي لا بد من إثباته والتظاهر به في كل عصر وهو واجب من واجبات حملة الشريعة الأمناء، يقول الإمام الدهلوي في مقدمة «المصفى»:

«إن الاجتهاد فرض كفاية في كل عصر، وليس المراد بالاجتهاد هنا الاجتهاد المستقل كاجتهاد الإمام الشافعي ـ مثلاً ـ الذي لم يكن في الجرح

والتعديل والعربية وغيرها في حاجة إلى غيره، كما لم يكن تابعًا لأحد في درايته الاجتهادية (بجميع أنواعها وأقسامها) بل المراد الاجتهاد المنتسب، وهو عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها التفصيلية، وتفريع المسائل وترتيبها على طريقة المجتهدين ولو كان ذلك بإرشاد من إمام من الأئمة.

والذي نقوله: أن الاجتهاد في عصرنا هذا واجب (وهي مسألة إجماعية بين العلماء المحققين) فوجهه أن المسائل كثيرة الوقوع ولا يمكن حصرها واستيعابها ولا بد من معرفة حكم اللَّه ـ تعالى ـ فيها، والذي دخل في حيز التحرير والتدوين لا يكفي، والخلافات فيه كثيرة ولا يمكن حلها إلا بالرجوع إلى الدلائل، والروايات المنقولة للمسائل عن الأئمة في أكثرها انقطاع بحيث لا يثق بها القلب بطمأنينة، ولذلك فلا مناص من عرضها على قواعد الاجتهاد وأصوله والبحث فيها»[1] .

* الإمام الدهلوي وعرضه للشريعة الإسلامية عرضًا مبرهنًا متسقًا والكشف عن مقاصد الحديث وأسراره في كتابه القيم:

إن كتاب «حجة اللَّه البالغة» للإمام الدهلوي يعد من جلائل أعماله العظيمة ومآثره العلمية الكبرى، التي عرضت فيها الشريعة الإسلامية والدين الحنيف في صورة جامعة متناسقة مدعمة بالحجج والدلائل الناصعة القوية، وقدمت فيها أبواب الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسة والإحسان بترتيب وترابط ونظام، وفي تناسق واتزان، بحيث يخيل إليك كأنها لآلئ العقد المنظوم أو حلقات سلسلة مترابطة، مع توضيح الفروق بين الأصول والفروع والمقاصد والغايات والوسائل والآلات وبين الحقائق الدائمة المستقلة والأمور العارضة المؤقتة بحيث لا يغيب ذلك ـ لحظة ـ عن

(١) مقدمة «المصفى» بالفارسية (ص١٢) ـ طبع المطبع الفارق ـ بدلهي.

الأنظار، وكثيراً ما يختلط الأمر بينهما في كثير من البحوث والمؤلفات بل هي علة قديمة شائعة في تلك الكتب والمؤلفات ـ بصفة خاصة ـ التي ألفت نتيجة رد فعل لتعسف أو مغالاة أو في فورة عاطفة وحماس، ويرجع السبب في هذا الترابط والتناسق ـ عدا ما وهب الإمام الدهلوي من اتزان وتوسط وسلامة فطرة ـ إلى دراسته العميقة الواسعة لعلم الحديث الشريف، وتلك الطبيعة الخاصة التي تتكون عن طريق الاشتغال والاهتمام بالسيرة النبوية والحديث النبوي أو عن طريق صحبة العلماء الربانيين وتربيتهم الذين تربوا في المدرسة النبوية وقطرت عليها رشحات من السيرة العطرة ـ على صاحبها الصلاة والسلام»[١].

◘ للَّه در تلميذ المدرسة القرآنية، وخريج معهد الحديث والسنة وترجمانهما المبين حين يذكر دوافع تأليف هذا الكتاب:

«إن أدق الفنون الحديثية بأسرها عندي وأعمقها محتداً وأرفعها مناراً وأولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى، وأعلاها منزلة وأعظمها مقداراً، هو علم أسرار الدين الباحث عن حكم الأحكام ولمياتها وأسرار خواص الأعمال ونكاتها. . . إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع»[٢].

◘ لقد عالج الإمام الدهلوي في «حجة اللَّه البالغة» حكم الأحكام الدينية، ويتعرّض لمصالحها وأسبابها وعللها وهو موضوع جد دقيق وخطير، «ولم يكن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الدقيقة الخطيرة إلا من يمسك بيده أصول الدين الحنيف والشريعة الإسلامية، ويكون عالماً بغاية نزول الشرائع الإلهية وبعثة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ وقد تغلغلت في أحشائه روح الإيمان والاحتساب وجرت في عروقه ودمائه، وتكونت عقليته

(١) «الإمام الدهلوي» للندوي (ص١٦٧).
(٢) «حجة اللَّه البالغة» (ص٣).

وتربيته العلمية في بيئة الكتاب والسنة والإيمان والاحتساب وفي ظلالها الفيحاء، ولقد كان الإمام الدهلوي ـ كما علمنا مما مضى في ترجمة حياته ـ أجدر شخصية وأقدرها على الكتابة في هذا الموضوع الدقيق الخطير»[1].

□ لقد كتب علماء قبل الدهلوي في هذا الصدد كالإمام الغزالي والخطابي وشيخ الإسلام عز الدين بن عبدالسلام الذين تحتوي كتاباتهم ومؤلفاتهم في مختلف المواضع على هذه المحتويات والارشارات، ولكن لم يدون قبل «حجة اللّه البالغة» للدهلوي كتاب في هذا الفن الدقيق، وهو بهذا يقدم خدمة جليلة للدين وحاجة ماسة من حاجات العصر.

□ يقول المحقق الفاضل الشيخ عبدالحق الحقاني في مقدمة ترجمته لـ «حجة اللّه البالغة» المسماة بـ «نعمة اللّه السابغة»:

إن الفن الذي ألف فيه هذا الكتاب، لم يؤلف فيه قبله شيء ولم يدون في مكان، فموضوع هذا الفن هو النظام التشريعي المحمدي من حيث المصلحة المفيدة وغايته أن يعلم الإنسان أن أحكام اللّه ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ لا عسر فيها ولا ضيق، ولا تخالف الفطرة السليمة حتى يطمئن بها الإنسان، وينجذب إليها قلبه ثقة منه بأنها أحكام توافق الفطرة وتتبنى عليها، ولا يقع بتشكيك المشككين في الشبهات.

وحَدُّه: أنه العلم الذي تعرف به حكم الأصول الدينية والأحكام الشرعية ومبادئه جميع العلوم (المتعلقة بالحياة البشرية).

* * *

(١) «الإمام الدهلوي» للندوي ص(١٧٠).

*** دفاع الإمام الدهلوي عن الخلافة، وعظيم منة الخلفاء الراشدين على الأمة في كتابه القيم «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» ـ وتميّز الكتاب وتفرّده:**

إن الكتاب الذي يلي كتاب «حجة اللّه البالغة» في القيمة والأهمية، والذي هو مأثرة الإمام الدهلوي الفريدة هو كتاب «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» وإنه لكثير من خصائصه ومزاياه كتاب فريد في موضوعه، ويزخر هذا الكتاب كله بالنكات العلمية المثيرة والإشارات النادرة اللطيفة، وتتوفر فيه نماذج كثيرة تدل على تدبر الإمام الدهلوي الطويل وتفكيره العميق في كتاب اللّه ـ تعالى ـ وتجاوبه الموهوب معه وفهمه الغائص الدقيق، وسرعة البديهة والتفطن لمكنونات الآيات وإشاراتها الدقيقة، وعمق الاستنباط ودقته ووفرة الذكاء وتوقد الذهن بحيث يتوصل به كل منصف سليم الفكر إلى أن هذا العلم ليس كسبيًا وكتابيًّا صرفًا، وأن مؤلف هذا الكتاب ليس صنيع المناهج الدراسية المتداولة، وكتب التفسير وأصول الفقه وعلم الكلام الشائعة في عصره، يقتطف منها، ويجمع فتات فائدتها فحسب، بل إن علمه نابع من الموهبة الربانية والفيوض الإلهية الخاصة.

*** الصلة بين «حجة اللّه البالغة» و«إزالة الخفاء»:**

لقد كانت الحاجة بعد تأليف كتاب «حجة اللّه البالغة» الذي عرض فيه نظام الإسلام الجامع الشامل المتناسق بطريق يثبت علاقته بالحياة والمجتمع والمدنية، ويوضح أنه بدون تنفيذ الأحكام الإسلامية المتعلقة بالعقائد والعبادات والحياة الاجتماعية، لا يبقى أي أمل في قيام مجتمع صالح رشيد ومدنية صالحة وحياة اجتماعية متزنة عادلة، كانت الحاجة لبيان هذه المقاصد والأهداف وتكميلها والقيام بهذه المرحلة بطريقة علمية تحقيقية (تروي غليل الأذهان والطبائع العقلانية لعهد الثورة العقلية التي كان قد أظل زمانها) إلى

الكتابة في خصائص النظام الاجتماعي في الإسلام وطبيعته، وأهدافه وغاياته ونطاق عمله، وعن «الخلافة» (الهيئة الإدارية العالمية الدائمة، الصريحة المنصوصة لهذا النظام) بهذا البسط والتفصيل، والأدلة من العقل والنقل، وشواهد التاريخ، وفوق كل ذلك في ضوء الكتاب المبين والسنة الواضحة، وتفضح الضلالات والظنون الخاطئة التي ظهرت في هذا الصدد منذ زمن قديم، والتي نشأت بناءً عليها فرقة جديدة[١] ، كانت قد أحدثت لسيطرة العناصر الإيرانية في عهد الإمام الدهلوي نفسه ـ بصفة خاصة ـ من الاضطراب الفكري والبلبلة العقلية ما تخطّى حدود المعتقدات والأعمال إلى نظام الحكومة وسلطة المسلمين العليا في الهند، وجعلت مستقبل المسلمين في الهند في خطر تحوم حوله الشكوك والشبهات.

إن شأن هذه الفرقة (في نظر أولئك الذين يعرفون تاريخ مذهبها ومعتقداتها الأساسية وفهمها وتصورها للدين، والذين درسوا كتبها المعتبرة ومصادرها المعتمدة لدى أهلها دراسة مباشرة) ليس شأن خلاف في الاجتهاد والقياس، أو فرقة جانبية لا تخرج عن نطاق الشريعة الإسلامية، بل إنها تحمل إزاء التصور الصحيح للدين الذين ينبني أساسه على الكتاب والسنة وعظمة مكانة النبوة وعقيدة ختم النبوة، تفكيراً مستقلاً وتصوراً دينيًّا مقابلاً، ويمكن أن يقدر ذلك ـ إلى حد ما ـ من عقيدة «الإمامة» لدى الفرقة الأثنى عشرية، التي تعتقد أن الإمامية نظيرة النبوة، بل تفضُلها وتفوقها في جوانب كثيرة[٢] .

---

(١) المراد بها الفرقة الإمامية الإثنا عشرية الشيعية.

(٢) وقع لدينا أخيراً كتاب «الحكومة الإسلامية» لقائد الثورة الإيرانية روح الله الخميني الذي يعرف بآية الله العظمى الإمام الخميني، فقد جاء فيه ي (ص٥٢) بعنوان «الولاية التكوينية» بعد التصريح بأن الأئمة يملكون الخلافة التكوينية، وتخضع لحكمهم وسلطتهم جميع ذرات هذا الكون، ما يلي: =

☐ يقول الإمام الدهلوي وهو يبين الغرض الأساسي من هذا الكتاب وغايته الأولى:

«يقول الفقير ولي اللَّه ـ عفا اللَّه عنه ـ إن بدعة التشيع راجت في هذا العهد وانتشرت، وتأثرت طبائع العامة بشبهاتهم التي أوردوها تأثرًا عميقًا، ونشأت في قلوب معظم أهل هذه المنطقة شكوك وشبهات كثيرة في موضوع ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين»(١).

لم يكن نظر الإمام الدهلوي إلى السطح الظاهر من هذه الفتنة التشكيكية المُدبَّرة، بل كان ينظر ـ ببصيرته الثاقبة ـ إلى أعماق تلك المؤامرة الخطيرة التي كانت ترسب في داخلها والتي كانت لتظهر نتائجها البعيدة الخطيرة (مثل خيبة الإسلام وإخفاقه في عهده الأول الزاهر، وأن صحبة النبي ﷺ لم تثمر ولم تفعل فعلها في تكوين مجتمع صالح فاضل يوثق به، ومن نتائج هذا النوع من التفكير والاعتقاد الطبيعية وجود عدم الثقة بصيانة القرآن الكريم، وبقائه على أصالته وصحته، عن طريق الصحابة الذين شهدوا نزوله وتلقوه عن النبي المعصوم ﷺ مباشرة، وذلك في خير القرون، وكذلك الاضطراب في صحة الأحاديث ونقل السنة النبوية، وجميع الأمور التي اتفق عليها المسلمون) ولذلك يقول الإمام الدهلوي:

«كل من يحاول هدم هذا الأصل (ثبوت الخلافة الراشدة وصحتها) وينكر هذا الأصل الأصيل من الدين إنما يحاول هدم جميع الشعب الدينية»(٢).

= «وأن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يقربه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث، فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارًا، فجعلهم اللَّه بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا اللَّه. («الحكومة الإسلامية» طبع كتبخانه بزرك إسلامي ـ إيران).

(١، ٢) «إزالة الخفاء» (١/١).

ويزيد قائلاً:

«إن الخلفاء الراشدين هم الواسطة بين رسول اللَّه وبين أمته في أخذ القرآن الكريم وتلقيه»[1] .

ثم يدرج الإمام الدهلوي في هذه الدائرة تلك الشعب والعلوم التي حصلت ثروتها للأئمة عن طريق الخلفاء الراشدين، كعلم الحديث وعلم الفقه والإجماع على المسائل المجتهد فيها، والقضاء على اختلاف الأمة وعلم الإحسان (الذي سمى ـ أخيرًا ـ بعلم السلوك) وتوضيح الفرق بين مراتب علوم الحكمة والأخلاق الفاضلة والأخلاق المذمومة، وتدبير المنزل، وسياسة المدينة، كل هذه العلوم والفنون والشعب الدينية انتقلت إلى الأمة عن طريق الخلفاء الراشدين وبتعليمهم ومنهج عملهم، وتدين لهم الأمة كلها في ذلك»[2] .

ولذلك كان من المناسب ـ جدًّا ـ أن يشرح ـ بعد تأليف «حجة اللَّه البالغة» الذي هو تفسير علمي ونظري للإسلام ـ كيف طبقت هذه الأصول والتعاليم الإسلامية بعد عهد النبوة ـ مباشرة ـ في عالم الواقع بنجاح منقطع النظير، وكيف ظهرت في صورة عملية، وطبقت على الحياة بطريقة رائعة، وما هي الآثار التي ترتبت بها على المجتمع البشري، وكيف قضت على مدنيتين عتيقتين جبارتين تملكان أزمة السلطة والسيطرة حتى اقتسمتا العالم المتمدن كله، ويرجع تاريخهما إلى قرون عريقة في القدم وكانتا تزدهران وتتقدمان تحت ظل الحكومات «الساسانية والرومية» وفي قيادتها وتؤثران على الحياة الإنسانية وتطبعانها بطابعهما، كيف انتهى دورهما، وذهبتا أدراج الرياح!؟[3] .

---

(١) «إزالة الخفاء» (٢/ ٤).   (٢) المصدر السابق (٢/ ٦).

(٣) انظر المصدر السابق (٢/ ٥٤)، (٢/ ٥٩ ـ ٦٣).

*** دور الإمام الدهلوي القيادي في عهد احتضار الدولة المغولية:**

في القرن الثاني عشر الهجري بلغت الهند من الانحطاط السياسي والإداري والخلقي وفساد النظام وملوك الطوائف والقلق والاضطراب ما يصح أن يعبر عنه بحالة احتضار للهند ونظامها، لقد أصبحت الدولة المغولية رمز للسلطة الطويلة القوية لأسرة مسلمة حاكمة، ولم تعد وراءها قوة مساندة ولا إدارة حازمة ولا همة عالية.

❑ وكانت هناك ثلاث قوى مقاتلة ناشئة تتحكم لا في مصير الدولة المغولية فحسب، بل في مصير البلاد كلها، وهي المراهتة، السيخ، والجات (الزط).

المراهتة:

وهي جماعة مسلحة نشأت في الجنوب «الدكن» وشنوا حرب عصابات ضد الحكومة الشرعية وعزموا على السيطرة على شمال الهند، ووصلوا إلى البنجاب، ورام كنكا ووصلوا إلى دلهي عاصمة البلاد في ٩ ذي الحجة عام ١١٧٣هـ وقاموا بالسلب والنهب.

وقد تأثر المسلمون والهنادك جميعًا بفوضى المراهتة وغاراتهم، فكانت الغارات الوحشية على القرى، وأعمال النهب والسلب بقسوة وعنف، وقطع أيدي الناس وأرجلهم وأنفوهم أمرًا عاديًّا، وكانت النساء ـ بغض النظر عن دينهن وجنسيتهن ـ تتعرض لوحشيتهم ونزواتهم الشهوانية، وكانوا يتجاوزون في ذلك كل الحدود ويتظاهرون بأعمال وحشية بهيمية، وقد أبدى شاعر بنغال المعروف «كنكا رام» مثل هذه الانطباعات، وهو يعلق على غاراتهم وحملاتهم على بنغال.

وقد أبدى المؤلفون البرتغاليون حيرتهم وعجبهم على أفاعيل المراهتة

التي يتندى لها جبين الحياء، وقد كان لسيطرة المراهتة وسلطتهم آثار اقتصادية سيئة على الناس، وحسب تصريح الشيخ غلام علي آزاد البلكوامي: أنهم ينوون ـ إلى حدود قدرتهم واستطاعتهم ـ أن يسدوا أبواب الرزق على الناس ويحكموا قبضتهم على جميع وسائل المعيشة، وكان المراهتة يجبون من تلك المناطق البعيدة النائية التي كانت تحت حكمهم وسلطاتهم ربع حاصلاتهم وغلاتهم.

ولم تقف غارات المراهتة عند الحدود العسكرية واستغلال الجماهير، بل لقد كانت مؤسسة على إحياء الديانة الهندوكية وإقامة حضارتها من جديد، يقول ماونت رستوارت الفنستن (حاكم ولاية بمباي) في تاريخه للهند عن «شيواجي» القائد الأول لهذه الحركة:

«لقد اختمرت طبيعته وتربت على العصبية الهندوكية... ولأجل هذه الطبيعة المستحكمة فيه كان يكره المسلمين وتقاليدهم وطقوسهم كراهية شديدة، ويحب الهندوس ويرغب في رسومهم وتقاليدهم رغبة شديدة، وكان هذا الموقف منه يزداد ـ كل يوم ـ شدة، وقد وافقت هذه الطبيعة فيه تدبير الشئون الملكية حتى تصور بصورة الرهبان والمشايخ الهنادك، وادعى كرامات الأولياء المؤلهين وألطاف الآلهة المعبودين.

لقد حاول المراهتة قبل المعركة الحاسمة في ساحة «باني بت» واستشعارًا منهم لدقة الأوضاع وخطورتها عن طريق النواب شجاع الدولة (الذي كان يحمل في قلبه شيئًا من التعاطف مع المراهتة من قبل ذلك) أن توقع الهدنة مع الشاه الأبدالي، وما رد به شجاع الدولة ـ بناءً على هذه التجارب المتواصلة والحقائق المرة ـ عليهم يلقى ضوءًا كاشفًا على طبيعة المراهتة القومية وتأثير فتوحهم وانتصاراتهم ونتائجها، لقد كان رد النواب شجاع الدولة أن قال:

«إن براهمة الدكن يسيطرون على الهند منذ مدة طويلة، وقد نزلت

على رءوسهم ـ بسبب شدة حرصهم وطمعهم وغدرهم ونكثهم للعهود ـ هذه البلية من الشاه الدراني، فكيف يصالح من هؤلاء الذين لا يرعون إلاّ ولا ذمّة، ولا يحافظون على عرض ولا عافية، ويرون أن جميع الأشياء ملك لهم ولقومهم، وقد قلق الناس وضجروا على ما لقوا منهم حتى ألحقوا ـ لحفظ أعراضهم ومكانتهم ورفاهية الخلق وأمنهم ـ على الشاه الأبدالي، ودعوه من بلاده، ورأوا حملاته ونكاياته أهون عليهم وأسهل من إيذاءات المراهتة ونكاياتهم»[1].

وأخيراً لقيت المراهتة هزيمة نكراء بتاريخ ١٤ يناير عام ١٧٦١م الموافق ٦جمادى الآخرة ١١٧٤هـ في ساحة باني بت على أيدي القوة الموحدة لجيوش أحمد شاه الأبدالي الأفغانية، وجنود النواب نجيب الدولة الروهيله وجيش النواب شجاع الدولة، وكما يقول أحد المؤرخين: «لقد طارت قوة المراهتة في لمحة البصر كالكافور» وسنذكر عوامل مقدم أحمد شاه الأبدالي التي غيّرت مجرى التاريخ في صدد ذكر مآثر الإمام الدهلوي القيادية.

السيخ:

لقد كانت السيخ فرقة دينية في بنجاب، وضع أساسها في القرن الخامس عشر المسيحي على أيدي «كروبابانانك» (١٤٦٩ ـ ١٥٣٩م)، ودوّن قائدهم كروارجن كتابهم المقدس لديهم المسمى «كرنته»، ثم تحولوا إلى جماعة مسلحة مقاتلة على يد قائدهم «كووندرائي» وبدأ قائدهم العسكري «هركووند» وهو في الأصل من كشمير في عمليات النهب والسلب وقطع الطريق في نطاق واسع، وكانت الدولة المغولية بعد وفاة الملك أورنك زيب تسير ـ بسرعة ـ نحو السقوط والإنهيار، ونشبت حروب متواصلة بين أبنائه وأحفاده على عرش البلاد، أتاحت الفرصة للسيخ أن يضاعفوا قوتهم ـ علنًا

(١) «تاريخ هندوستان» (٩/ ٥٠٣).

ـ فكان «بنده بيراكي» يعمل السيف في الألوف من المسلمين ويقتلهم بقسوة ووحشية ويدخل القرى وينهبها حتى وصل إلى قرب دلهي، وأغار في مايو عام ١٧١٠م على سرهند، وفتح أبوابها للقتل والنهب والسلب، وعامل سكان القرية ـ من دون تمييز بين صغير وكبير وقوي وضعيف ـ بظلم فظيع وقسوة رهيبة، وتوجه بهادر شاه إلى بنجاب، وهزمت الجيوش السلطانية بنده بيراكي، ولكنه لجأ إلى الجبال، ثم قام مستغلا الفوضى السياسية والحروب الأهلية بين الأسرة الملكية بعد جلوس فرخ سير على عرش البلاد بالعنف والإرهاب مرة ثانية، وأخيرًا جيئ به إلى دلهي عام ١٧١٦م وقتل هناك، ولم تكن له شخصية محترمة محببة لدى السيخ أنفسهم، وقد أحدث تغييرات طفيفة في عقائد الديانة السيخية وعباداتها وأصبح السيخ تحت قيادته قوة عسكرية، واستمر الحاكم المغولي معين الملك ببنجاب (الذي يعرف بميرمنو) في عهد الملك فرخ سير، على سياسته التعزيرية، ولكن سقوط الدولة المغولية كان يسير بخطى حثيثة، وكانت قد ضعفت حكومة بنجاب وتضعضعت نتيجة حملات أحمد شاه الأبدالي المتكررة، وسنحت الفرصة مرة ثانية لقيام السيخ ونهوضهم، ولم ينجحوا ـ هذه المرة ـ في إخراج ابن أحمد شاه الأبدالي الأمير تيمور ـ الذي كان والي بنجاب حينئذ ـ والذي هدم «هرمندر» ـ أقدس معابدهم ـ وملأ البركة المقدسة لديهم بالإنقاض والركام ـ فحسب، بل استولوا كذلك ـ مؤقتًا ـ على لاهور، وضربت باسم قائدهم «جسا سنغ كلال» العملة، إلا أنهم اضطروا للخروج من لاهور بمقدم المراهتة إليها عام ١٧٥٨م تحت قيادة «ركهوبا» وتوجه أحمد شاه الأبدالي إلى بنجاب للمرة الخامسة، وبعد حرب «باني بت» التي قصمت ظهر المراهتة فور ما غادر بنجاب إذا بالسيخ عادوا للثورة والخروج، واستعادوا مملكتهم المفقودة، وعاد أحمد شاه وهزم السيخ في «لدهيانه» عام ١٧٦٢م هزيمة نكراء، ولكن السيخ بعد مغادرته عام ١٧٦٣م أغاروا على سرهند، ودمروها وخربوها، واستولوا

على لاهور مرة أخرى وأعلنوا قيام حكومة «خالصة» ثم تفرق السيخ بعد ذلك في مختلف الولايات وانقسموا إلى مختلف الفرق التي كانت تدعى «مسلين» ولم يكن هناك حاكم أعلى يحكمهم، ولم يبق لديهم أمر مشترك إلا دينهم، وبعد ثلاثين عامًا من هذه الأوضاع المضطربة علا في بنجاب نجم رنجيت سنغ الذي نظم هذه الفرق المختلفة في صورة دولة مستقلة ووحَّد صفوفهم.

لقد كان السيخ يكنون البغضاء والكراهية لا للحكومات المسلمة فحسب، بل لعامة المسلمين ووقفتهم موقف الحرب والنضال ضد المسلمين وحولتهم ـ بصفة خاصة ـ في أواسط القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي إلى قوة إرهابية مخيفة مزلزلة لسكان المدن الكبيرة الآمنة، وزيادة خطيرة في القوى الهدامة المثيرة للاضطرابات في الهند، وقد تعرضت المساجد والمقابر في عهد حكوماتهم ـ بصفة عامة ـ وفي عهد مهاراجه رنجيت سنغ ـ بصفة خاصة ـ لانتهاك حرماتها، ودوس كراماتها ووضعت عراقيل في سبيل أداء العبادات، ونشأ ذلك الوضع الحالك الذي عبر عنه الدكتور محمد إقبال في بيت من شعره، يقول فيه:

«لقد ذهبت «خالصة» بالسيف والقرآن، وقضت على المسلمين والإسلام في دولتها وسلطانها».

وقد رفع ضد الوضع المكفهر في منتصف القرن الثالث عشر الهجري ـ تقريبًا ـ وفي الثلث الأول من القرن التاسع عشر المسيحي ـ الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (ش١٢٤٦هـ الموافق ١٨٣٠م) والشيخ إسماعيل الشهيد (ش١٢٤٦هـ ـ ١٨٣٠م) اللذين كانا خرّيجي مدرسة الإمام الدهلوي وتربيًا على أيدي ابنه الأكبر الشيخ عبدالعزيز الدهلوي ـ رفعا لواء الجهاد ضد حكومة رنجيت سنغ العسكرية، وبدا بذلك مخططهما الواسع والعميق

ومهمتهما العظيمة التي قامت لتحرير الهند من السلطة الخارجية المستعمرة وتأسيس الحكومة الشرعية، وإصلاح المجتمع المسلم وإحياء الدين وإظهاره.

الجات (الزط):

لم تكن الجات فرقة منظمة كالمراهتة، ولا فرقة دينية كالسيخ، ولكن ضعف الدولة المغولية أنشأ فيهم تنظيمًا يقوم على العنف والسلب، وأصبحوا قوة هدامة مثيرة للفتن والاضطرابات.

□ يقول البروفيسور خليق أحمد نظامي في كتابه «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي»:

«لقد كان الجات يسكنون المنطقة الجنوبية لجمنا من آكره إلى دلهي، وكانت حدودهم في الشرق إلى جنبل» وقد بلغت ثوراتهم في هذه المنطقة أن ضاقت بهم الحكومة المركزية ذرعًا، وحسب ما يقول «سركار»: لم يكن هناك مجال لقبول هذه الشوكة الشائكة في شوارع دلهي وآكره، وكانت المواصلات بين دلهي وآكره تسير بحيطة بالغة وحذر كبير، وكانت الجيوش التي تقصد دكن عن طريق أجمير، تمر بهذه المنطقة، ونهب الجات دلهي، وخرج سكان دلهي ـ خائفين فزعين ـ من بيوتهم، فكانوا يهيمون على وجوههم ويتيهون في الأزقة والسكك، كسفينة محطمة تكون تحت رحمة الأمواج الطاغية، وكان يُرى كل شخص كالمجنون يعدو فزعًا مضطربًا[1].

□ ويقول الشيخ ذكاء اللّه في ذكر وقائع عام ١٧٦٥م:

«كان الجات متسلطين على قلعة آكره، وكانت للجات جولة وصولة على بعد ١٠٠ ميل من دلهي، وقد طرد راجه سورمل الذي كان ذكيًّا فطنًا بارعًا في المنازلة، ماهرًا في القيادة والحكم ـ قائد المراهتة من آكره، واستولى

---

(١) «الرسائل السياسية» للإمام الدهلوي لخليق أحمد نظامي (ص١٧٧).

على ميوات، وبني أربع قلاع حصينة قوية، وبدأ يطلب من حكومة دلهي تلك الطلبات التي لا تبقى على اسم الدولة إطلاقًا، وقد هزم نجيب الدولة بحسن تدبيره وحيلته وبمساعدة من البلوجيين، الجات، وقتل راجه سورمل في مناضلته لنجيب الدولة، ثم نجمت في ولاية الجات نزاعات وخصومات، وقتل اثنان من أبناء سورج مل، وخلفها الابن الثالث رنجيت سنغ وقد بلغ الجات في عهده أوج التقدم والازدهار، والمنطقة التي كانوا يحكمونها تقع في شمال غربها «ألور» وفي جنوب غربها «أكره»، وكان دخل هذه الدولة عشرين مليون روبية وكان لديهم جيش مكون من ستين ألف جندي[1] .

☐ لقد أصبحت دلهي نتيجة لحملات المراهتة والسيخ والجات اليومية المتتابعة عليها كشجرة مثمرة سائبة تحمل عليها الحشود الوحشية من الطيور الكاسرة وتجردها من الثمار والأوراق، وأمّت الفتنة والقلاقل من كل صوب مدينة دلهي.

* حملة نادر شاه:

عاد الإمام الدهلوي من الحجاز إلى دلهي عام ١١٤٥هـ ولم تمض على ذلك إلا خمس سنوات أن وقعت عام ١١٥١هـ الموافق ١٧٣٨م تلك الحملة النادرية التي ضعضعت ما بقى من كيان الدولة المغولية، وخربت دلهي ومزقتها شر ممزق، وقد أثرت هذه الحملة في عقول الغيارى من سكان دلهي والأسر والبيوتات الكريمة وصدمت قلوبها صدمة عنيفة حتى بغضت إليهم الحياة، وسادهم الخجل والحياء إلى حد أنهم كانوا كأنهم يعدون العدة لقتلهم وانتحارهم، وقد ذكر الشيخ عبدالعزيز الدهلوي أنه بمناسبة هذه المقتلة الرهيبة العامة وضياع الأموال والأعراض كان أشراف دلهي قد قرروا وعزموا على

(١) «تاريخ هندوستان» باختصار (٩/٣١٦ ـ ٣١٨).

تنفيذ تقليد «جوهر»[1] على طريقة الراجبوت القدماء، فذكّرهم الوالد الكريم (الإمام الدهلوي) بحادث كربلاء، ومصائب سيدنا حسين رضي الله عنه ومنعهم من هذا القرار للانتحار، فاختاروا طريق الصبر والرضا بالقضاء رغم هذه المحن والبلايا التي تقشعر منها الجلود وتشيب منها الولدان، ولا يتصور أشد منها وأفتك، وكفوا عن إرادة الانتحار وقتل أنفسهم.

*** الدور القيادي للإمام الدهلوي:**

لم يكن الإمام الدهلوي خلال العجاج المتراكم من هذه الحوادث والأزمات بل في أمطارها الغزيرة الهاطلة جالسًا تحت السماء منصرفًا إلى البحث والتأليف والتدريس والتصنيف بحيث لا تقلب نفحات الرياح العاتية أي ورقة من كتابه ولا تمحو قطرة من قطرات هذه المطر الغزير أي حرف من حروفه، فحسب بل كان يعمل ـ في جد ونشاط وحزم وجهاد ـ لتغيير هذه الأوضاع واستعادة السلطة الإسلامية في هذه البلاد، وإقامة مملكة قوية موطدة الأركان تشعر بمسئوليتها وتعترف بالواقع وتنفذ الأحكام الشرعية، وتحافظ على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم وتقضي على القوى الهدامة التي تعيث في الأرض فسادًا، وتنشر الخير والرخاء، فقد كان يقوم في هذا الصدد بالدور القيادي الذي يمكن أن يقوم به أكبر سياسي بصير لا يمت إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأي صلة.

وكان الدهلوي لحميته وعلو همته وبعد نظره كما قال الدكتور محمد إقبال عنه:

«رغم العواصف الهوجاء يُشعِل ذلك الرجل البطل الذي وهبه اللَّه ـ

---

(١) كان أشراف راجبوت عند ما يحاط بهم من كل جانب، ولا تبقى أي إمكانية لحياة الشرف يقدمون على قتل أهلهم وعيالهم، ثم يقفزون بأنفسهم في النار ويحترقون.

تعالى ـ عزة الملوك وإباء السلاطين، سراجه المنير».

□ لقد بكى قلب الدهلوي الحزين المتقطع المرهف الحس دموعًا من دماء، وقطرت من قلمه السيال هذه القطرات من الدماء على صفحات تلك الرسائل التي كتبها إلى معاصريه من الملوك وأعيان الدولة ووجهائها، وقد جمعت هذه الرسائل باسم «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي».

□ يكتب إلى ملك معاصر يشكو فيها صولة سورج مل وشوكته وغربة الإسلام وبؤسه:

«ومن بعد ذلك ظهرت شوكة سورج مل وقيت، فقد استولى سورج من على مسافة ٦ أميال من دلهي إلى أواخر حدود «آكره» طولاً، ومن حدود ميوات إلى «فيروز آباد» وشكوه آباد عرضًا، فلا يقدر أحد أن يؤذّن هناك ويقيم الصلاة»[1].

□ ويذكر في هذه الرسالة خراب مدينة «بيانه» التي كانت عامرة مخصبة، فيقول:

«لقد أخرج المسلمون ـ كرهًا وقسرًا وبإهانة وإذلال ـ من مدينة «بيانه» التي كانت مدينة إسلامية قديمة، لم يزل يسكنها العلماء والمشايخ من سبعة قرون»[2].

□ ويذكر فقر الموظفين الرسميين وسوء حالهم وقد تجاوز عددهم مائة ألف، فيقول:

«لما انتهت خزانة الملك، توقف النقود أيضًا، حتى تفرق الموظفون شذر مذر، وبدأوا يتكففون ويستجدون، ولم يبق للدولة إلا الاسم»[3].

(١) «الرسائل السياسية» للإمام الدهلوي (ص١٥).
(٢) المصدر السابق (ص٩).
(٣) المصدر السابق (ص١١).

☐ وقد صدرت من قلمه ـ وهو يذكر وضع عامة المسلمين ـ هذه الكلمة المؤثرة المشجية:

«وبالجملة فإن جماعة المسلمين تستحق العطف والرحمة»(١) .

☐ ويقول في رسالة كتبها إلى النواب نجيب الدولة:

«لقد لقى المسلمون ـ سواء كانوا سكان دلهي أو أي مكان آخر ـ صدمات عديدة، ووقعوا ـ مراراً ـ فريسة السلب والنهب، لقد بلغ السكين العظم، إنه لمقام الرحمة والعطف»(٢) .

ويتنبأ الإمام الدهلوي ـ نظرًا إلى الحقائق والوقائع والأسباب القوية المؤثرة ـ بالنتائج الحاسمة ووقائع المستقبل القريب بمالاً دخل فيه للقياس والذكاء بل هو نتيجة الدراسة والواقعية غير المحايدة.

«فلو بقى غلب الكفر وظهوره على هذا الوضع فيخشى على المسلمين أن يتناسوا الإسلام، ولا تمضي إلا أيام وسوى حتى يظل الشعب المسلم شعبًا لا يقدر على التمييز بين الإسلام وغير الإسلام».

☐ كتب الدهلوي إلى أحد ملوك المغول من معاصرية رسالة نصحه فيها بإصلاح الحال، وتقوية الدولة، واسترعاء ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ونصره وتأييده إليه وضمّنها توجيهات ونصائح حكيمة عالية تقوم على أساس الحكمة العالية والبصيرة النافذة في الدين، والدراسة العميقة الواسعة للتاريخ والسياسة ونظم الدولة، لقد قال في بدايتها: «أرجو من فضل اللَّه تعالى ورحمته أنه إذا صح العمل وتحقق بموجب هذه الكلمات فسوف تظهر القوة والحزم في شئون الدولة وبقاء الحكومة وتعلو الكلمة يقول الشاعر ما معناه:

---

(١) الصدر السابق (ص١١).

(٢) «الرسالة السابعة إلى نجيب الدولة» (ص٢٢ ـ ٢٣).

«لقد وضعوني كالببغاء وراء المرآة، فلا أقول إلا مالقنني المعلم الأزلي (الأبدي)»[١] .

وقد أشار في آخر هذه الرسالة ـ التي أرسلها إلى الملك المعاصر وأمرائه ووزرائه ـ بعد تقديم توجيهات ناصحة حكيمة، سياسية وإدارية لا يمكن أن تقوم الدولة بغيرها، ولا تعود الرفاهية إلى الناس وتستحكم الثقة فيما بينهم ـ بأن يولى على الحسبة والقضاء أولئك العلماء الذين لم يتهموا برشوة، ويكونون من أهل السنة والجماعة، وأن تعطى لأئمة المساجد رواتب محترمة، ويؤكد على أداء الصلوات بالجماعة، ويعلن ـ باهتمام بالغ ـ أن لا ينتهك أحد حرمة شهر رمضان، وأخيرًا أن لا ينهمك «ملك الإسلام» و«الأمراء العظام» في العيشة الباذخة المحرمة، ويتوبوا مما سلف منهم من الذنوب توبة نصوحًا، ويتوقوا من الذنوب في الحياة المقبلة، فلو عمل بذلك فإني آمل بقاء الدولة، وتأييد اللَّه تعالى ونصرته، «وما توفيقي إلا باللَّه عليه توكلت وإليه أنيب»[٢] .

وهكذا قام الإمام الدهلوي بأداء واجبه ومسئوليته التي كان يجب على العالم الجليل بالدين وشارح الكتاب والسنة، ومصلح عصره ومجدده أن يقوم بأدائها، وهكذا يفعل من يعرف مسئولياته وواجباته، ويطلع على تلك الأخطار المحدقة التي كانت كالسيف المصلت ليس على رءوس الأسرة الحاكمة فحسب، بل على رءوس جميع سكان البلاد ولم تكن للإمام الدهلوي في اتباعه لسلفه الأكرمين وحسب منهج العلماء الربانيين علاقات وصلات مباشرة بالبلاط والدولة، بل كان متبوأ على حصير الفقر الغني، ولكن قلبه كان مشغولاً ـ كالشيخ نظام الدين البداوني الدهلوي، وخلفه

---

(١) «الرسائل السياسية» للإمام الدهلوي، رسالة رقم (١).
(٢) المصدر السابق (ص٨٠ ـ ٨١).

السيد نصير الدين الدهلوي ـ بالدعاء للحكومة وهدايتها وصلاحها ولم يكن يضن على من يتصل بمركزه العلمي والروحي بالتوجيهات الناصحة مشافهة وكتابة، ويكتب إلى ملك: «تعرض للخليفة مشاكل طريفة غريبة، من قبل أعداء الدين وأتباعه أيضًا فلا علاج لهذه المشاكل إلا العلاج الواحد، وهو أن تجعل مرضاة اللَّه ـ تعالى ـ نصب عينيك، وتستعين به، وتصرف النظر عمّن سواه»[1].

لقد أرسل الدهلوي الأمراء وقادة الجيوش والأبطال الطامحين الذين أحسن في داخلهم بجمرة الحمية الدينية إلا أن اختيار الإمام الدهلوي ـ الذي كان يرافقه الإلهام الرباني والفراسة الإيمانية ـ وقع منهم على شخصيتين عظيمتين في ذلك العهد، كان أحدهما في داخل الهند، والآخر في خارجها، أعني بذلك الأمراء النواب نجيب الدولة وأحمد شاه الأبدالي حاكم أفغانستان إذا ذاك.

*** النواب نجيب الدولة:**

ويقول الشيخ ذكاء اللَّه في «تاريخ الهند»: لقد كان نجيب الدولة عاقلاً ذكيًّا فطنًا حكيمًا، قلَّ من يكون مثله، فقد انتهت إليه في عهده الأمانة والديانة، فكان لا يكف عن طاعة أسياده القدماء النواب دوندي خان روهيله، والنواب شجاع الدولة، وبالجملة فقد كان هذا الرجل الشجاع يداري ـ بطريقة أو أخرى ـ هذه الدولة المحطمة المكسرة»[2].

ويقول الشيخ عبدالعزيز الدهلوي: «كان لدى نجيب الدولة تسعمائة عالم، يتقاضى أدناهم منزلة خمس روبيات وأعلاهم ٥٠٠ روبية شهريًا»[3].

(١) المصدر السابق (ص١٣٦ ـ ١٣٧).

(٢) «تاريخ هندوستان» (٩/ ٣١٥).

(٣) «مجموعات الكلمات» للشيخ عبدالعزيز الدهلوي (ص٨١).

وكان هو ـ حسب تصريح البروفيسور خليق أحمد نظامي ـ أكبر شخصية في دلهي في الفترة ما بين ١٧٦١م ـ ١٧٧٠م، فكان هو القطب الذي تدور حوله رحى السياسة كلها، وكان يتحمل عاتقه أعباء إدارة الحكومة كلها[١] .

لقد اختار الإمام الدهلوي ـ الذي وهبه اللّٰه تعالى ـ ملكة خاصة لمعرفة الرجال والاعتراف بالواقع والتي لا تعطي إلا لأولئك الرجال الذين يقومون في تاريخ الإصلاح والتجديد وصناعة الرجال وتربية الأفراد بأعمال جليلة بارزة، لتحقيق آماله وتكميل مهمته في هذا العهد من أزمة الرجال وندرة الأفراد، النواب نجيب الدولة وقد تفرس بعد نظره ودقته ما أودع اللّٰه تعالى من جوهر صالح وحمية دينية، فبدأ الإمام الدهلوي مراسلته، وحاول إشعال تلك الجمرات الكامنة تحت الرماد، يقول في رسالة إليه: «ندعو اللّٰه تعالى أن يشرف أمير المجاهدين بالنصر الظاهر والتأييد المبين ويبلغ هذا العمل إلى منزلة القبول وينزل عليه بركات ورحمات كبيرة».

ليبلغ من الفقير ولي اللّٰه ـ عفا اللّٰه عنه ـ بعد التسليمات العطرة بالمحبة أننا نشتغل هنا بالدعاء لنصرة المسلمين، وتلوح لنا من الغيب آثار القبول، ونأمل أن اللّٰه تعالى سيحيي على أيديكم الجهد والجهاد الديني ويعطي بركاته وثماره في الدنيا والآخرة، إنه قريب مجيب»[٢] . ويدعوه في رسالة أخرى بـ «أمير الغزاة ورئيس المجاهدين»[٣] ، ويقول في رسالة أخرى: «يخيل إلينا أن عمل تأييد الملة الإسلامية ونصرة الأمة المحرومة في هذا العصر سوف يتحقق على أيديكم الذي هو مصدر هذه الأعمال الخيرة ووسيلتها.

(١) «الرسائل السياسية» (ص٢٣٢).
(٢) المصدر السابق (ص١٩).
(٣) المصدر السابق (ص٢٠).

❏ وكتب إليه ناصحًا:

«عندما تمر الجيوش الملكية بدلهي فليراع بدقة نظام أن لا تداس كرامة هذه المدينة بالظلم والعدوان كما سبق من قبل، لقد شهد أهل دلهي ـ مرارًا ـ حوادث النهب والسلب وانتهاك الحرمات والأعراض، وهذا هو سبب التأجيل في تحقق المقاصد والأهداف؛ فإن أنة المظلوم لا تذهب هكذا سدى، فإذا كنتم تريدون هذه المرة أن يتحقق لكم ما لم يتحقق بعد، فليؤكد تأكيدًا بالغًا وليلتزم التزامًا قويًّا بأن لا يتعرض أي جندي للمسلمين في دلهي وغير المسلمين أيضًا، الذين يدعون أهل الذمة»[1] .

ويلفت الإمام الدهلوي الأنظار ـ مرة بعد مرة ـ في عدد من رسائله إلى حماية البلاد من خطر هذه القوى المقاتلة الهدامة الثلاث ـ التي مضى ذكرها ـ وحفظها من أضرارها وعدوانهم، إذ بدون ذلك لا تقوم للنظام والإدارة في البلاد قائمة، ولا يسود الأمن والسلام ولا تبقى الشعائر الدينية ومساجد المسلمين آمنة مصونة، ولا أمل في عيشة عادية متزنة، فقد أصبحت البلاد كلها بسبب هذه القوى العاثة في الأرض الفساد تعيش حالة حرب دائمة، وفي صورة جبهة عسكرية مستقلة[2] .

وقد اتخذ الإمام الدهلوي النواب نجيب الدولة نفسه واسطة خاصة لدعوة أحمد شاه الأبدالي إلى الهند، وأمره بالكتابة إليه عدا مراسلاته معه مباشرة.

*** أحمد شاه الأبدالي والي قندهار بطل أفغاني (١١٣٦ ـ ١١٨٦هـ):**

لقد كان ـ رحمه الله ـ من أولئك القادة العسكريين الممتازين في القرن

---

(١) «الرسائل السياسية» (ص٢١).

(٢) المصدر السابق (ص٢١ ـ ٢٢).

الثاني عشر الهجري الذين لا يولدون إلا بعد آماد وأحقاب طويلة، ويؤسسون دولاً وحكومات مستقلة أنه جمع شمل الأفغانيين المتفرقين بتوفيق ونجاح، ونفذ القوانين العادلة، وأقام الحسبة، وكان يجمع بين صفات الفروسية والأخلاق الفاضلة وشرف النفس وكرم الأصل، يتذوق العلم والأدب ويعني بهما، وكان مجيبًا أنيسًا في قومه، متدينًا متقيدًا بالفرائض والآداب الدينية، يحب مجالسة العلماء والصالحين ويتأدب مع الأشراف والمشايخ ويكرمهم، ويرغب ـ دائمًا ـ في زيادة معلوماته وتبادل الآراء في الأمور العلمية.

وكان رقيق القلب رحيمًا سخيًّا كريمًا، يتمسك بأصول المساواة والمسامحة الدينية، وقد أحيا بعض السنن التي كان التكلم بها في البيئة الأفغانية ـ إذا ذاك ـ من الصعوبة بمكان، مثل الزواج بالأيامى، وقد كان هو نفسه مثقفًا وكاتبًا قديرًا، وكان يهتم بتقدمه الروحي ويتمنى ذلك، يقول فيرير: «لقد كان أحمد شاه بريئًا من كثير من السيئات ومواضع الضعف الشرقية، فكان يتجنب ـ كليًّا ـ شرب الخمور وتناول الأفيون، نزيهًا ساميًا على أفاعيل النهامة والنفاق، ملتزمًا بالدين أيما التزام، وكانت عاداته وأخلاقه الساذجة ولكن المتزنة الرزينة تحببه إلى كل شخص، كان الوصول إليه سهلاً ميسورًا، فقد كان يراعي العدل والنصفة، ولم يشك أحد قط في حكمه وقضائه.

◘ قال عنه الإمام الدهلوي: «الذي يخيل إليّ هو أن أحمد شاه الدراني سوف يعود إلى هذه البلاد ويقلب هؤلاء الكفار ظهرًا لبطن ويجعل عاليهم سافلهم، وإنه رغم جوره وطغيانه قد ـ حفظه اللّه تعالى ـ لأجل هذه المهمة»[1].

---

(١) المصدر السابق (ص٢٦ ـ ٢٧).

كان الإمام الدهلوي يريد من أحمد شاه الأبدالي أداء دوره في صيانة هذه البلاد من هذه الأوضاع القلقلة والفوضى العامة، وأن يتعهد بالدولة إلى شخص كفء صالح ـ إلى حد ما ـ من أفراد الأسرة الحاكمة، وكان الإمام الدهلوي قد تنبأ قبل مقدمه بأنه لا يلبث هنا بل يولى أمر الدولة لأحد الزفراد من أولاد الملوك[1] .

وأخيرًا طلب الإمام الدهلوي من نجيب الدولة كتابة الرسائل بهذا الصدد إلى أحمد شاه الأبدالي، ثم كتب إليه ـ مباشرة ـ رسالة مؤثرة بليغة تكشف عن بصيرة الإمام الدهلوي السياسية وحميته الدينية وجراءته الخلقية[2] .

❑ وقد ذكر في هذه الرسالة الأوضاع الراهنة في البلاد وأساليب حكمها القديمة وإدارة مختلف الولايات ونظمها المختلفة وعدد الفرق الدينية والسلالية المختلفة في البلاد، ونسبة قواها، وأخطاء الملوك السياسية وقصر نظرهم فيما يتعلق بهم، واستحكامهم وتبوأهم مكانة القوة والسلطة ـ بصفة تدريجية، وذكر المرهنة والجات في هذا الصدد ـ بصفة خاصة ـ وصور غربة الإسلام وبؤس المسلمين بتأثير حملاتهم المتكررة صورة مشجية مذيبة للقلوب، وحرض هذه القائد المسلم ـ الذي كان يملك في ذلك العهد من الهند إلى ايران ـ أكبر قوة عسكرية منظمة على مقاومة هذه الأوضاع وتثبيت دعائم الدولة المغولية وتوطيد أركانها، وتحمل مسئولية البلاد على عاتقها من جديد، وصارحه بقوله: «إنه لا يوجد ـ في هذا العهد ـ ملك يملك من القوة والشوكة ما يستطيع أن يهزم بها جيوش الأعداء، مع بعد النظر والحنكة العسكرية إلا سيادتكم»[3] .

---

(١) «الرسائل السياسية» (ص٣٠).
(٢) «الرسائل السياسية» (ص٦ ـ ١٧).
(٣) المصدر السابق (ص١٢).

□ ويزيد قائلاً: «نسأل باللّه تعالى أن تصرفوا همتكم المباركة العالية إلى هذه الجهة، وتقاوموا الأعداء حتى يكتب لكم عند اللّه تعالى في صحيفتكم ثواب عظيم، ويسجل اسمكم على صفحة المجاهدين في سبيل اللّه، وتنالكم في الدنيا مغانم كثيرة لا تحصى، ويتخلص المسلمون من مخالب الكفار وقبضتهم»[١].

وقد عرض الإمام الدهلوي في هذه الرسالة ـ نفسها ـ ببصيرته السياسية واطلاعه العميق على الظروف والأوضاع، عن هذه القوى الناشئة البارزة التي كانت لها ـ الفقدان أي: قوة منظمة مجابهة ـ هيبتها ورعبها في النفوس، وكان يعتقد أن لا قدرة لأحد على هزيمتها، تقديرًا صحيحًا دقيقًا لا يقدمه إلا قائد محنك أو سياسي بارع، يقول عنه المرهتة: «إن الهزيمة المرهتة هيّنةٌ سهلة، شريطة أن يشمر غزاة الإسلام عن ساق الجد والجهاد، والواقع أن عنصر المرهتة قليل العدد، ولكن جمعًا كبيرًا يساندهم ويحالفهم، فلو فرق صف واحد من صفوفهم لتبددت هذه الجماعة وتفرقت وأصيبت بالهزيمة والضعف والفتور، وبما أن هؤلاء القوم ليسوا أصحاب قوة وشوكة، لذلك فإنه ينحصر كل مهارتهم في جمع العدد الكبير والجيش الكثير الذي يكون أكثر من النمل والجراد، أما البطولة والشجاعة وكثرة وسائل الحرب فليست فيهم»[٢]. إن هذه الرسائل التي كتبها النواب نجيب الدولة ـ بتوجيه من الإمام الدهلوي إلى أحمد شاه الأبدالي، ثم الرسالة المؤثرة البليغة المفصلة التي كتبها الإمام نفسه إليه، وقد تقدمت بعض مقتطفاتها لم تذهب سدى، فقد توجه أحمد شاه الأبدالي عام ١١٧٣هـ ـ الموافق ١٧٥٩م لكسر شوكة المرهتة وتحطيم قوتهم ومساعدة نجيب الدولة وشجاع الدولة ـ الذين كانا قد أثبتا

---

(١) المصدر السابق (ص١٢).

(٢) «الرسائل السياسية» (ص٨٦).

وعيهما السياسي ووحدتهما الإسلامية إلى الهند، ومضى عام كامل في الحروب والاشتباكات الجانبية، وأخيرًا وقعت بين المرهتة وبين الأفغانيين والجبهة الإسلامية الهندية الموحدة عام ١١٧٤هـ الموافق ١٤ يناير عام ١٧٦١م تلك المعركة الحاسمة التي غيرت في الهند مجرى التاريخ، وأخرجت المرهتة من الخريطة السياسية الناشئة في الهند.

ونورد فيما يلي قصة هذه الحرب ونتيجتها بإيجاز حسبما يحكيها الشيخ ذكاء اللَّه في كتابه «تاريخ الهند»[1] ، يقول:

«لقد حمى الوطيس واشتد لظى الحرب إلا أن كفة المرهتة كانت راجحة، فأصدر أحمد شاه أمره للجنود الفارين من الزحف أن يحاصروا ويقتلوا، وأعلن أن من حاول الفرار يقتل فورًا، ثم أمر جيشه بالتقدم وأمر فرقة عسكرية أن تحمل من جهة يساره على العدو، وقد أصاب سهم هذه التدبير نقتله، وقد كان بهاؤ، وبسواس راؤ في قلب الجيش راكبين يحرضان الجنود المرهتة على القتال، وكانت الحرب بالخناجر والرماح، وإذا به وقع ما اللَّه يعلمه فتزلزلت أقدام الجنود المرهتة، وذهبت ريحهم وما أن تزلزلت أقدامهم حتى امتلأت ساحة الحرب بالجثث والأشلاء، فتعقبهم الجيش الإسلامي وتتبعهم ـ بحماس واندفاع ـ في كل جهة وجانب إلى خمسة عشر وعشرين ميلاً، وأثخنهم بالجراح، وأسقطهم أكوامًا من الصرعى والقتلى، ومن بقي من المرهتة من أيدي هؤلاء الأعداء فقد قتلهم البدو الرعاع، وقتل «بسواس راؤ»، و«بهاؤ» وكان قد أخفى بعض الدرّانيين «جي كوجي سنديها» وستر عليه، ولكنه أخذ بعد بحث وتفتيش وقتل، وأسر إبراهيم خان كاردي[2] ولقي حتفه بعد أسبوع، وقتل شمشير بهادر وهو يحاول الفرار،

(١) «تاريخ الهند» للشيخ ذكاء اللَّه (٩/ ٣٠٥ ـ ٣٠٩).

(٢) كان رئيس المدفعية في جيش مرهته وكان رغم إسلامه وخيالهم، بقي بجوارهم إلى آخر لحظة، عليه من اللَّه ما يستحقه.

وفر ملهاراؤ في «مالوه» بنفسه، ووصل أبا جي سندهيا إليه كذلك وهو أعرج، ولم يبق أحد من القادة المعروفين سوى هذين القائدين، ولم تلحق المرهتة مثل هذه الهزيمة الساحقة من قبل، ولا نزلت مثل هذه النازلة قط، وقد أحدثت هذه المصيبة يأسًا في النفوس، فسقطت الهمم وبردت القلوب، ومات بالاجي لهذه الصدمة الشديدة بعد أيام، وكان من يوم أن سمع نبأ الهزيمة اعتكف في أحد المعابد يدرس اللغة السنسكريتية»[١].

وحسب تصريح أحد المؤرخين: «لقد طاردت قوة المرهتة في لمحة البصر كالكافور»، ويوقل سرجاد وناتهسركار: «إنه لم يبق بيت من البيوت في ولاية مهاراشتر لم يعمه المأتم والرثاء، فقد ذهب جيل القادة والرؤساء كله في معركة واحدة»[٢].

وتوجه أحمد الأبدالي ـ حسب تخطيط الإمام الدهلوي ـ بعد تحقيق هذه المهمة الضرورية إلى قندهار، يقول الشيخ ذكاء اللَّه:

«لقد قدم أحمد شاه بعد الفتح والانتصار من باني بت إلى نواحي دلهي، ومكث عدة أيام وعين الأمير عالي كوهراي شاه عالم ملك البلاد، وشفع لدى الملك أن يولى شجاع الدولة الوزارة ونجيب الدولة إمارة الأمراء، ولم يكن شاه عالم إذا ذاك في دلهي، فعين ابنه جوان بخت نائبًا عنه، وفوض إلى نجيب الدولة إدارة دلهي ونظامها، وخلع على شجاع الدولة وولاه ولايات أوده واله آباد، وتوجه هو نفسه إلى قندهار[٣].

◻ يقول البروفيسور خليق أحمد نظامي: «لقد حاول أحمد شاه الأبدالي ـ جهده ـ بعد حرب «باني بت» أن يدعو شاه عالم إلى دلهي،

---

(١) «تاريخ الهند» (٩/ ٣٠٩).

(٢) «الرسائل السياسية» (ص٤٥).

(٣) «تاريخ الهند» (٩/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

وبعث إليه برسول ولما لم يحضر طلب أحمد شاه من والدته النواب زينب محل أن تكتب إليه، وكان أحمد شاه يحاول دعوة شاه عالم «إلى دلهي» حتى يتخلص هو من قبضة الإنكليز، ويقدم إلى دلهي ويضاعف قوته ويحكمها حال وجود أحمد شاه الأبدالي»[١] .

◻ ويقول خليق أحمد أيضًا: «لم يكن عند أحد من المرهتة والسيخ والجات من السعة وشمول التصور والتفكير بحيث يفكر في أساليب المحافظة على وحدة الهند ومركزيتها، وقد كان الإمام الدهلوي ـ حسب مخططه المقترح ـ يريد استعادة السلطة العليا والمركزية والوحدة التي كانت في عهد الملك أكبر ـ وجهانكير ـ وشاه جهان واورنك زيب في البلاد، ولكن عن طريق الحكومة العادلة لا الملوك الجائرين الجبارين»[٢] .

وضيّع شاه عالم ما صنعه الأبدالي بسقوط همته وقصر نظره.

* الإمام الدهلوي ودوره في الإصلاح والتربية للمجتمع:

مع كون الإمام الدهلوي كان من كبار العلماء والمؤلفين إلا أنه كان من كبار الوعاظ ومعلمي الأخلاق وإمامًا في مجال الإصلاح والتربية والتجديد، وهذه المآثرة للدهلوي من أروع المآثر وألمعها في تاريخ الإصلاح والتجديد؛ فإنه قد خاطب السلاطين المسلمين والأمراء وأركان البلاط والجنود العسكريين والصناع والمحترفين، وأولاد المشايخ المنعزلين، كل طبقة من هذه الطبقات على حدة وفي صورة مستقله، وضرب على وترهم الحساس، ودل على مكامن ضعفهم وانحرافهم وأنواع غرورهم وخداعهم، كما خاطب الأمة الإسلامية ـ بصورة عامة ـ خطابًا جامعًا شاملاً، وكشف عن أمراضها

(١) «الرسائل السياسية» (ص٤٥ ـ ٤٦).
(٢) المصدر السابق (ص٤٧).

وأدوائها، ووصف علاجها، وقد بلغ توجعه وحرقة قلبه واندفاعه في الحمية الإسلامية وعاطفة الدعوة الدينية وبلاغة البيان وقوة التعبير في هذه الخطابات الخاصة أوجها وذروتها يصعب أن تجد أمثلتها في كتب المؤلفين السابقين ـ الذين مضى ذكرهم ـ والمصلحين الناقدين، وسوف نورد مقتطفات من كتاب «التفهيمات الإلهية» للإمام الدهلوي الذي خاطب فيه قادة مختلف الطبقات البارزة المؤثرة وسادتها، ويتجلى في هذه الخطابات الخاصة من دقة نظر الإمام الدهلوي وعمق ملاحظته وحكمته في الدعوة، وجزاءته الخلقية واطلاعه الواسع الدقيق ما يحاربه دارس التاريخ الذي اطلع على انحطاط هذا العهد ومجتمعه، ومراعاة العلماء وأصحاب الأقلام لمصالحهم الشخصية، ويأس الدعاة والمصلحين من إصلاح الأوضاع وتغيير الأحوال ويتعجب ويقول: «هل كانت هذه الجمرة يا رب كامنة في الرماد!

وها نحن ننقل هذه الكلمات الموجهة إلى مختلف الطبقات بنصها:

خطابه للسلاطين المسلمين:

أقول للملوك، أيها الملوك! المرضى عند الملأ الأعلى في هذا الزمان أن تسلوا السيوف، ثم لا تغمدوها حتى يجعل اللّه فرقانًا بين المسلمين والمشركين وحتى يلحق مردة الكفار والفساق بضعفائهم لا يستطيعون لأنفسهم شيئًا، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه﴾ فإذا ظهر الفرقان فرضاء الملأ الأعلى أن تنصبوا في كل ناحية وفي كل مسيرة ثلاثة أيام وأربعة أيام أميرًا عادلاً يأخذ للمظلوم حقه من الظالم ويقيم الحدود ويجتهد أن لا يحصل فيهم بغي ولا قتال ولا ارتداد ولا كبيرة، ويفشوا الإسلام ويظهر شعائره، ويأخذ بفرائضه كل أحد ويكون لأمير كل بلد شوكة بيقدر بها على إصلاح بلده ولا يكون له شوكه يتمتع بسببها ويعصي على السلطان، وينصب في كل إقليم كبير أميرًا يقلده القتال فقط يكون جمعه اثنا

عشر ألفا من المجاهدين، لا يخافون في اللَّه لومة لائم يقاتلون كل باغ وعاد، فإذا كان ذلك فرضاء الملأ الأعلى أن يفتش حينئذ من النظامات المنزلية والعقود ونحوهما حتى لا يكون شيء إلا موافق الشرع حتى يأمن الناس من كل وجه(١) .

خطابه للأمراء وأركان الدولة:

وأقول للأمراء: أيها الأمراء! أما تخافون اللَّه اشتغلتم باللذات الفانية الدائرة وتركتم الرعية تأكل بعضها بعضا، أما شربت الخمور جهرة وأنتم لا تنكرون، أما بنيت منازل ودور للزنا وشرب الخمر والقمار وأنتم لا تغيرون، أما هي البلاد الكبيرة لم يضرب فيها حد منذ ستمائة سنة أو أكثر، من وجدتموه ضعيفًا أكلتموه ومن وجدتموه قويًا تركتموه وعُتُّوه، خاضت أفكاركم في لذائذ الطعام ونواعم النساء ومحاسن الثياب والدور، وما رفعتم إلى اللَّه رأسًا وما ذكرتموه إلا بألسنتكم في حكاياتكم كأنكم تريدون باسم اللَّه انقلاب الزمان، تقولون اللَّه قادر على كذا تعنون أن الزمان قد ينقلب كذلك(٢) .

وأقول للعسكرية: أيتها العسكرية! أخرجكم اللَّه للجهاد ولتظهروا كلمة الحق وتكبتوا الشرك وأهله فتركتم ما أخرجكم لأجله، واتخذتم رباط الخيل وحمل السلاح كسبًا تستكثرون به أموالكم من غير نية الجهاد وقصده، شربتم الخمر والبنج وحلقتم اللحى وأعفيتم الشوارب، وظلمتم الناس ولم ينالوا مما تأكلون فواللَّه إلى اللَّه سوف ترجعون فينبئكم بما كنتم تعملون، كان مرضى الحق فيكم أن تتزيوا بزي الصالحين من الغزاة، واعفوا اللحى وقصوا الشوارب وصلوا الصلوات الخمس واتقوا اللَّه في أموال الناس واصبروا في الحرب والبأس، وتعلموا رخص الصلوات كالقصر والجمع، وأنه يجوز ترك

(١) «التفهيمات الإلهية» (١/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

(٢) المصدر السابق (ص٢١٦).

السنن في السفر، وكذلك أحكام التيمم، فتمسكوا بها وعضوا على الفرائض وأصلحوا نياتكم يبارك لكم ربكم في خولكم وينصركم على أعدائكم[1].

وأقول للمحترفه! ضاعت أماناتكم وذهلتم عن عبادة ربكم وأشركتم بربكم، وذبحتم لطواغيتكم وحججتم إلى المدار[2] والسالار[3]، فبئس صنيعكم ذلك ورب إنسان منكم جعل الطيرة ماله وكسبه، فجعل يتكلف في لباسه وزيه ومطعمه مالا يكفي له فيضيع حقوق نسائه ورب إنسان منكم اكتفى بشرب الخمر واستيجار الفروج فيضيع معاشه ومعاده، إن اللَّه هيأ لكم من الكسب ما يكفي لكم ولذوي حقوقكم إن أنتم اقتصدتم واكتفيتم بما يكون بلغة إلى المعاد، وكفرتم بنعمة ربكم، أسأتم التدبير أما تخافون عذاب جهنم وبئس المهاد، واصروفا غداءكم وعشيتكم في ذكر اللَّه، وطول النهار في حرفتكم، والليل في نسائكم واجعلوا الصرف أقل من الدخل فما غبر، فواسوا فيه الغريب والفقير وذروا شيئًا لنوائبكم وحوائجكم؛ فإن خالفتم هذه الأمور فقد أسأتم التدبير[4].

وقد نادى ـ هكذا ـ أولاد المشائخ برسم آبائهم من غير استحقاق: يا أيها الناس! ما لكم تحزبتم أحزابًا، واتبع كل ذي رأي رأيه، وتركتم الطريقة التي أنزلها اللَّه على محمد ﷺ رحمة بالناس ولطفًا بهم، وهدى لهم فانتصب كل واحد منكم إمامًا ودعا الناس إليه وزعم نفسه هاديًا مهديًا، وهو ضال مضل، نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشتروا به ثمنًا قليلاً أو يشوبوا اغراض الدنيا بتعلم علم، إذ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبه بأهل

---

(١) المصدر السابق (ص٢١٦ ـ ٢١٧).
(٢) المراد به الشيخ بديع المكنبوري.
(٣) المراد به السيد سالار سعود الغازي الذي يحتفل آلاف الناس بمولده.
(٤) «التفهيمات الإلهية» (١/ ٢١٧).

الهداية ولا بالذين يدعون إلى أنفسهم ويأمرون بحب أنفسهم، ولا تتبعوا إلا من دعا إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله ولم يدع إلى نفسه ولا ترضى بإشاعة الإشارات الصوفية في المجالس والمحافل، إنما المرضى الإحسان، أما لكم عبرة في قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾[1] .

ثم يخاطب العلماء والطلاب في عصره فيقول:

خطابه للعلماء والطلاب:

وأقول لطلبة العلم: أيها السفهاء المسمون أنفسكم العلماء! اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعني وظننتم أن هذا هو العلم، إنما العلم آية محكمة من كتاب اللَّه أن تتعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل معضلها أو سنة قائمة من رسول اللَّه ﷺ أن تحفظوا كيف صلى النبي ﷺ وكيف توضأ، وكيف كان يذهب لحاجته وكيف يصوم، وكيف يحج وكيف يجاهد، وكيف كان كلامه، وحفظه للسانه وكيف كان أخلاقه، فاتبعوا هديه واعملوا بسنته على أنه هدى وسنة لا على أنه فرض ومكتوب عليكم، أو فريضة عادلة أن تتعلموا ما هي أركان الوضوء وما هي أركان الصلوة، وما نصاب الزكاة، وما قدر الواجب وما سهام فرائض الميت، أما السير وما يرغب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضل، وأما ما اشغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة؛ إنما هي علوم الدنيا[2] .

ثم يقول لهؤلاء الطلاب والعلماء:

وأن لا تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلة لا بأنها أمور مستقلة، أما

(١) (ص٢١٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢١٤).

أوجب اللّه عليكم أن تشيعوا العلم حتى يظهر شعائر الإسلام في بلاد المسلمين، فلم تظهروا الشعائر وأمرتم الناس أن يشتغلوا بالزوائد واستكثرتم في أعينهم طلب الحق والدين أما ترون البلاد العظام تخلوا من العلماء وإن كانوا فهم دون ظهور الشعائر[١] .

ثم خاطب أولئك الناس الذين جعلوا وساوسهم وخطرات قلوبهم دينا، وكل من لم يتفق ومقياسهم المؤسس على هواجس النفس وخطرات القلب، فكأنه خارج عن الدين، وقد كان معظم هذه الطبقة من الناس الذين أصيبوا بهذا الأنحراف من الزهاد المتقشفين والعباد الغالين والوعاظ المتشدقين، ولذلك اختبر لهم هذا العنوان.

مع الوعاظ المعسرين في الدين والزهاد المنزوين المنعزلين:

وأقول للمتقشفين من الوعاظ والعباد والجالسين في الخانقاهات:

يا أيها المتنسكون! ركبتم كل صعب وذلول وأخذتم بكل رطب ويابس، دعوتم الناس إلى الموضوعات والأباطيل وعسرتم على الخلق، وإنما بعثتم ميسرين لا معسرين، وتمسكتم بكلام المغلوبين من العشاق، وكلام العشاق يُطوى ولا يُروى، واستطبتم الوسواس وسميتموه الاحتياط، وكان مرضى الحق فيكم أن تفهموا الإحسان بجزئيه الاعتقادي والعملي، فتحصلوه من غير أن تخلطوا به أحوال المغلوبين وإشارات المكاشفين فادعوا الناس إليه، أما تعلمون أن الرحمة كل الرحمة والهدى ما جاءكم به محمد ﷺ ، أكان يفعل فعلكم هذا أم كان أصحابه يفعلون هذه الأفعال[٢] .

ويخاطب ـ أخيرًا ـ عامة المسلمين، لا يخص فيه طبقة منهم دون طبقة، يقول:

---

(١) «التفهيمات» (١/ ٢١٥).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢١٥).

خطابه الشامل للأمة الإسلامية جمعاء تشخيص الداء ووصف الدواء:

وأقول لجماعات المسلمين عمومًا خطابًا واحدًا:

يا معاشر بني آدم! (فسدت) أخلاقكم وغلب عليكم الشح واستحوذ عليكم الشيطان وزئرت النساء على الرجال، وغمط الرجال على النساء واستطبتم الحرام واستبشعتم الحلال، فواللَّه إن اللَّه ما كلف نفسًا إلا ما تطيق، عالجوا شهوة فروجكم بالنكاح وإن كثرن، ولا تتكلفوا في نفقتكم وزيكم مما لا تطيقون، ولا تزر وازرة وازرة كأنها معلقة، ولا تضيقوا الأمور على أنفسكم فإنكم إن ضيقتم خرجت نفوسكم إلى حد الصفق، وأن اللَّه يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، وعالجوه شهوة بطونكم بالأطعمة واكتسبوا قدر ما يكفيكم ولا تكونوا كلا على الناس تسألونهم فلا يعطونكم ولا تكونوا كلا على الخلفاء والأمراء إنما المرضى لكم الكسب بأيديكم إلا عبد ألهمه اللَّه أن اللَّه يكفيك واللَّه يعصمك من آفات الفقر.

يا معشر بني آدم! من رزقه اللَّه مسكنًا يؤويه ومشربًا يرويه ومطعمًا يشبعه وملبسًا يستره، ومنكحًا يحصن فروج ويعاونه في معيشته، فقد أدى له الدنيا بحذافيرها، فليشكر اللَّه وليتخذ كسبًا يكفيه وليكن من شأنه القناعة والقصد في المعيشة ولينتهز الفرصة لذكر اللَّه وليحافظ على ثلاثة أوقات: الغدوة والعشية والسحر، وليذكر اللَّه بالتهليل والتسبيح وتلاوة القرآن واستمعوا الحديث واحضروا حلق الذكر.

يا معشر بني آدم! اتخذتم رسومًا فاسدة تغير الدين، اجتمعتم يوم عاشوراء في الأباطيل، فقوم اتخذوه مأتم، أما تعلمون أن الأيام أيام اللَّه والحوادث من مشيئة اللَّه، وإن كان حسين رضي الله عنه قتل في هذا اليوم فأي يوم لم يمت فيه محبوب من المحبوبين، وقد اتخذه لعبًا بجرابهم وسلاحهم، وقوم اتخذوه منسكًا، أف لصنيعكم اجتمعتم يوم البراء يلعب قوم، ويزعم قوم أنه

يجب إكثار الأطعمه للموتى، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، ورسومًا تضيق عليكم كالإفراط في لولائم وكالامتناع من الطلاق وكإمساك المرأة بعد زوجها من النكاح، فضيعتم أموالكم وأوقاتكم في الرسوم وتركتم الهدى الصالح، وكان المرضى أن لا تتخذوا هذه الرسوم وأن تتخذوا رسومًا سهلة ليس فيها ضيق، اتخذتم المأتم عيدًا كأن إكثار الطعام واجب عليكم، وضيعتم الصلوات وقوم اشتغلوا بمكاسبهم فلم يقدروا على الصلوات ومنشأ هذا الفساد أنهم ما اخذوا مجالسهم في رحب حول المساجد يسهل عليهم الصلوات، وضيعتم الزكاة، وما من غنى إلا له متعلقون من المحاويج يطعمهم ويواسيهم، ولو أنه نوى الزكاة والعبادة لكفاه، وضيعتم صوم رمضان، فضيع قوم لأنهم صاروا عسكرية لا يقدرون على الصوم مع ما هم عليه من المحنة، اعلموا أنكم أسأتم التدبير وصرتم عيالاً على السلطان ولما لم يجد السلطان ما يعطيكم، ضيق على الرعية، فما اقبح صنيعكم هذا، قوم لا يتسحرون ولا يجتنبون أعمالاً شاقة، وذلك من سوء تدبيرهم وعقلهم.

□ ويقول أخيرًا: «ومقالات الملأ الأعلى في هذا الزمان كثيرة تنبئ عن الخير الكثير والقليل يكون نموذجًا عن الكثير»[1].

إصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع منها:

لم يقتصر الإمام الدهلوي على هذه الخطابات الخاصة لهذه الطبقات الخاصصة من الناس، بل شدد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكية والبدع والشعائر غير الإسلامية التي تسربت إلى المجتمع المسلم وشاعت فيه بسبب الاختلاط الطويل بالهنادك ومواطنتهم لعدة قرون، وعدم الاهتمام

(١) «التفهيمات» (١/ ٢١٧ ـ ٢١٩).

بالسنة المشرفة والحديث الشريف وغفلة العلماء وتقصيرهم، وعدم شعور الحكومة المسلمة بمسئوليتها وفقدان الحسبة الدينية، والتزم بها المسلمون التزامًا شديدًا، وشنع تلك المعتقدات الباطلة، والأوهام والخرافات الجاهلية، وتقليد غير المسلمين وأتباعهم، وعابهم عليه، وقد كان عامة العلماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفنون الحكيمة لا يعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالا ويرونها هيّنة خفيفة، أو يتغاضون عنها فرارًا من الوقوع في المشاكل ومعارضة الجماهير، وقد بدأت هذه المهمة لإصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع المسلم منها ـ بعد الإمام السرهندي الذي شنع في عدد من رسائله على هذه المعتقدات الشركية والتقاليد الجاهلية والطقوس الهندوكية ـ بجهود الإمام الدهلوي، وقد قام بتكميل هذه المهمة وتوسيعها ـ بعده ـ أبناؤه الأعلام ومن تخرج عليهم، ونشأ في أحضانهم من المصلحين المجددين كالإمام أحمد بن عرفان الشهيد (خليفة الشيخ عبدالعزيز الدهلوي ابن الإمام الدهلوي) والشيخ إسماعيل الشهيد حفيد الإمام الدهلوي.

ونورد هنا مقتطفًا من «التفهيمات الإلهية» و«وصايا الإمام الدهلوي» يقول:

«من عادات الهندوس الشنيعة أنه إذا مات زوج المرأة فلا يخلونها تتزوج مرة ثانية، ولم تكن هذه العادة في العرب قط، لا قبل النبي ﷺ ولا بعده، فرحم اللّٰه امرأ يقضي على هذه العادة الشنيعة، وإذا لم يمكن القضاء على رواج هذه العادة في عامة الناس فينبغي ترويج طريقة العرب فيما بين قبيلته، وإن لم يمكن ذلك كذلك فلا بد من استقباح هذه العادة ومخالفتها من أعماق القلب على الأقل، إذ هو آخر درجة من الإنكار على المنكر.

وعادتنا الشنيعة الثانية أننا نغالي في المهور، وقد كان نبينا ﷺ الذي نيط به شرفنا في الدنيا والآخرة ـ حدد لأهله الأقربين ـ وهو ما يبلغ

خمسمائة درهم.

ومن عاداتنا الشنيعة الإسراف، فإننا نبذر الأموال في مناسبات الأفراد وتقاليد العادات، ولم يثبت عن النبي ﷺ إلا الوليمة في الزواج والعقيقة، ولذلك فينبغي الالتزام بهما والاحتراز عن غيرهما، أو عدم الاهتمام الكثير بغيرهما.

ومن عاداتنا السيئة أيضًا الإسراف والتبذير في مناسبات المآتم باسم سيد جهلّم ششماهی، فاتحه، سالانه[1] ، مع أنه لم يكن شيء من هذا في العرب الأولين فمن الخير أن يهتم بتعزية ورثة الميت في مصابهم لثلاثة أيام، وبالطعام ليوم وليلة، ولا يلتزم بتقليد آخر، ولتجتمع نساء القبيلة بعد ثلاثة أيام وليطيبن ثياب النساء ذوات قربى الميت، وإذا كانت زوجة الميت موجودة فليقض على سلسلة المأتم بعد عدتها[2] .

ولقد صدق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي ـ رحمه اللّٰه تعالى ـ إذ صرح في مقاله بعنوان «حقيقة منصب التجديد ومكانه الإمام الدهلوي في تاريخ التجديد» في مجلة «الفرقان» العدد الخاص بالإمام الدهلوي بعد إيراده لمقتطفات من «إزالة الخفاء» و«التفهيمات الإلهية» بما يلي:

«ويقدر من هذه المقتطفات ـ إلى حد ما ـ أنه كيف استعرض الإمام الدهلوي ماضي المسلمين وحاضرهم هذا الاستعراض التفصيلي، وكيف انتقدهم بهذا الشمول والاستيعاب، وأن من نتائج هذا النوع من الانتقاد اللازم أن جميع العناصر الصالحة في المجتمع التي لا تزال في إيمانها وضمائرها بقية من حياة ولا تزال قلوبها تميز الصالح والطالح، والشر والخير ـ يقلقهم الشعور بفداحة الخطب وسوء الأوضاع، ويرهف شعورهم

---

(١) هذه التقاليد خاصة بالأيام المحددة بعد وفاة شخص.

(٢) «التفهيمات الإلهية» (٢/٢٤٦ ـ ٢٤٧).

الإسلامي إلى حد أنه يريبهم كل أثر من آثار الجاهلية في الحياة من حولهم ويحيك في صدورهم، وتقوى قوة التمييز وتزداد فيهم، فيبدأون يحسون بشوائب الجاهلية مع الإسلام في كل ناحية من نواحي الحياة وتستيقظ فيهم القوة الإيمانية إلى أن كل شوكة من أشواك الجاهلية تقض مضجعهم، وتدفعهم إلى الإصلاح، ثم يلزم المجدد ـ بعد ذلك ـ أن يقدم أمامهم مخططًا واضحًا للبناء والجديد، حتى يركزوا أنظارهم على الوضع المنشود الذي يغيّر به الوضع الراهن، ويكرسوا كل جهودهم ومحاولاتهم نحو هذه الجهة المطلوبة، وقد أنجز الإمام الدهلوي هذه المهمة البناءة أيضًا في شمول وإجادة وإتقان، كما شاهدته في مهمته النقدية الماضية[1] .

*** الدين النصيحة:**

✍ كل يُؤخذ منه قوله ويرد، ونحن نحسن الظن بالإمام الدهلوي لرسوخ قدمه في علم الكتاب والسنة، وجلالة شأنه في علوم الشريعة وهذا آخر ما لقي اللَّه به.

وإن سبق للإمام الدهلوي كتابات صوفية فيها مخالفات مثل عقيدة وحدة الوجود، والفناء والبقاء، والتصرف في الكون، والتوجه إلى القبور والعتبات في دفع البلاء وجلب المنفعة، والاستعانة بغير اللَّه، والكشوف والمقامات، لقد ألف الإمام الدهلوي كتبًا عدة في التصوف، فيها الشيء الكثير من الدعاوى والشطحات، بل المخالفات العقدية التي يمكن للمنحرفين من الصوفية أن يجعلوها تكأة يتكئون عليها في تأييد انحرافاتهم وضلالاتهم ومن هذه الكتب:

ـ «ألطاف القدس في لطائف النفس».

---

(١) مجلة الفرقان العدد الخاص بالدهلوي(ص ١٠١ ـ ١٠٢).

ـ «القول الجميل في بيان سواء السبيل» (في سلوك الطرق الثلاثة المشهورة القادرية، والجشتية، والنقشبندية).

ـ و«الخير الكثير» و«أنفاس العارفين» و«الانتباه في سلاسل أولياء اللَّه» وهو كتاب مبسوط في السلاسل المشهورة وغير المشهورة.

ـ «وفيض الحرمين»

في هذه الكتب ـ وخاصة في «القول الجميل» و«الخير الكثير» من القبح والشر ما اللَّه به عليم من عقيدة وحدة الوجود، والاستيناس بأقوال الحلاج وابن عربي، وتلميذه القونوي، وادعاء الأخذ المباشر من الجيلاني، والنقشبندي، والجشتي، بل من النبي ﷺ وكذلك من الملأ الأعلى.

فهو في هذه الكتب وأمثالها، صوفي مثل أي صوفي اخر، متوغل في الشطحات والدعاوى المخالفة للكتاب والسنة مثل الفناء والبقاء ومكاشفة القلوب والقبور.

ومعروف أن الإمام الدهلوي يردد إصطلاحات الصوفية، ويطبقها في كتبه، وأحيانًا يحوم حول شطحاتهم ـ مثل الأخذ من النبي ﷺ حينًا، ومن الملأ الأعلى حينًا آخر، حتى في كتبه التي ألفها بعد اهتدائه إلى تأييد مذهب المحدثين في العقيدة والعمل[١].

لقد بقى الإمام الدهلوي متصوفًا على طول الطريق، ولكنه بعد اهتدائه إلى نصرة مذهب أهل الحديث في العقائد والأحكام، ترك من الآثار ما يدل دلالة واضحة على تخليه عن تلك المخالفات العقدية الصريحة التي سجلت في بعض كتبه.

---

(١) راجع مبحث «المقامات والأحوال» في كتابه الشهير «حجة اللَّه البالغة» وفيه تطبيقات لاصطلاحات الصوفية على أمور النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.

وكتبه في نصرة المنهج السلفي هي الآخرة وترد على كتاباته الصوفية السابقة.

✍ ونحن كأهل حديث لا نعرف إلا الإمام الدهلوي المحدث وأتباعه وأنصاره الذين حثوا على الاعتصام بالكتاب والسنة، ونشروا الحديث شرحًا وتدريسًا ودافعوا عن مسلك المحدثين، وردوا على الكلام المذموم، ورفضوا التقليد الجامد، وعرضوا الفروع الفقهية على النصوص، ودعوا إلى ضرورة الاجتهاد نظرًا إلى ما يستجد من المسائل في كل عصر وزمان.

وأهل الحديث في شبه القارة الهندية يعرفون الدهلوي المحدّث، ولا صلة لهم بالدهلوي الصوفي، وأتباعه وأنصاره الذين عضوا على التقليد والتصوف بالنواجذ.

*** على درب وخطى الدهلوي الأبناء الأعلام والخلفاء العظام:**

إن من مزايا الإمام الدهلوي في سلسلة رجال الفكر والدعوة، ونعم اللَّه - تعالى - الخاصة عليه بين المصلحين والمجددين أن اللَّه عز وجل خصه بأولئك الأبناء والخلفاء الأعلام الكرام الذين كانوا خير خلف لخير سلف، والذين لم يحافظوا على ذلك المشعل الذي أناره الإمام الدهلوي مضيئًا وهاجًا فحسب، بل أشعلوا به مئات من الشموع والمشاعل، ولم تزل هذه المشاعل تمد المشاعل الأخرى وتنقل إليها من نورها وضوئها، واستمرت هذه السلسلة المباركة دون انقطاع في شبه القارة الهندية وخارجها من نشر تعاليم الكتاب والسنة والعقائد الصحيحة، والتوحيد الخالص، والرد على الإشراك والبدعة، وإصلاح التقاليد والعادات، وتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق، والوصول إلى درجة «الإحسان» وإعلاء كلمة اللَّه - تعالى - والجهاد في سبيله والحمية الدينية والغيرة الإسلامية، وإقامة المدارس الدينية، وعرض تعاليم الإسلام الصحيحة والكتابة والتأليف لتبليغ هذه الرسالة والدعوة إليها، وتراجم القرآن الكريم

والعناية بالحديث الشريف، وكتب الفقه، إلى يومنا هذا، فلو درسنا تاريخ هذه الخطوات والجهود المباركة وبحثنا عن مراكز هذه الخيرات والمبرات، ونسب هذه السلاسل والحلقات، لرأينا أن الشموع تضئ الشموع والمشاعل لم تزل تمد المشاعل، وقد أضاءت هذه الشموع والمشاعل كلها بذلك السراج المنير الذي أشعله الإمام الدهلوي في منتصف القرن الثاني عشر وسط العواصف الهوجاء والرياح العاتية الشديدة.

*** ومن هؤلاء العظام:**

سراج الهند... حجة اللّه الإمام عبدالعزيز بن ولي اللّه الدهلوي:

قام الإمام عبدالعزيز بتكميل أعمال والده الإمام الدهلوي، وتوسيع نطاقها فبدأ ـ رحمه اللّه ـ سلسلة مباركة لترجمة القرآن وتفسيره، وتحطّم ذلك الطلسم الذي روّج له علماء الدنيا بأن نشر القرآن الكريم في العامة نذير خطر كبير وتمهيد لضلالة مستطيرة.

فقد كانت دروس الإمام الدهلوي في التفسير وصلت إلى هذه الآية من سورة النساء ﴿**اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ حيث وفاة الأجل المحتوم، فبدأ الشيخ عبدالعزيز سلسلة دروسه منها فبلغ إلى قوله تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم**﴾ من سورة الحجرات، وبدأ بعده ابن بنيّه الشيخ محمد إسحاق ـ الذي كان قد تربّى وتخرّج على يديه وكان خليفته بحق في دروسه في القرآن الكريم.

ثم ألف الشيخ عبدالعزيز تفسيره المسمى «فتح العزيز».

*** تدريس الحديث الشريف ونشره وترويجه بشكل لم يسبق له مثيل:**

إنه يصعب أن يوجد له مثيل في تاريخ الهند العلمي والديني، وتمتد

فترة تدريسه للحديث الشريف إلى أربع وستين سنة، وخرج التلاميذ النجباء، والخريجين الفضلاء الذين أفاضوا علوم الحديث ومعارفه، ليس في الهند فحسب بل في الحجاز كذلك، ويبلغ عدد من تخرّج على يديه من نوابغ تلاميذه إلى أربعين خريجًا.

لقد كان الشيخ عبدالعزيز بن ولي اللَّه الدهلوي مثل أبيه في نصرة العمل بالحديث ضد الجمود الفقهي.

وقد سئل الشاه عبدالعزيز عن مذهب أئمة الحديث فقال:

«إن أئمة الحديث لا يتقيّدون بمذهب من مذاهب المجتهدين، بل إنهم يستفيدون من الفقهاء، ومن المصادر الأخرى على السواء» انتهى من «الفتاوى العزيزية» (٢/ ١١٧).

وأدرك ـ رحمه اللَّه ـ خطورة الأصول والقواعد التي وضعها متأخرة الحنفية للرد على الأحاديث الصحيحة فقال في «الفتاوى العزيزية» (١/ ٦٢):

«ومن اللطائف التي قلمّا ظفر بها جدليّ لحفظ مذهبه ما اخترعه المتأخرون لحفظ مذهب أبي حنيفة، وهي عدة قواعد يردّون بها جميع ما يحتج بها عليهم من الأحاديث الصحيحة».

* دفاع الشيخ عبدالعزيز الدهلوي عن السنة ورده على الشيعة في كتابه القيم «التحفة الاثنا عشرية»:

لقد قاوم الشيخ عبدالعزيز فتنة الرفض والتشيع، وقام كتابه «التحفة الاثنا عشرية» في وجه السيل الجارف من التشيع سدًّا منيعًا، خاصة أن شبه الشيعة وتأثيرهم وصل إلى أسر الأشراف والبيوتات الكريمة، وأصحاب الحكم وبلاطهم.

❑ يقول الشيخ عبدالعزيز: «إن هذه البلاد التي نسكنها، وهذا العهد

الذي نعيشه، قد بلغ فيها المذهب الإثنا عشري من الذيوع والانتشار والقبول والرواج بحيث قلّ بيت من بيوت أهل السنة لا يميل فيه واحد أو اثنان من أفراده إلى هذه العقيدة ويتّبع هذا المذهب، ومعظم هؤلاء ممن لا يعرفون علم التاريخ والأخبار، ويعيشون في غفلة وقلة علم بسير أسلافهم وأصولهم ومنهجهم، وعندما يتناقشون مع أهل السنة والجماعة في مجالسهم ونواديهم، يأخذون طريق الجدال والمراء والمغالطة، وقد جاء تأليف هذه الرسالة حسبة للَّه ـ تعالى ـ لهذا الغرض حتى لا تزلّ أقدام المتبعين لمذهب أهل السنة والجماعة عند المناقشة والمناظرة، ولا ينكروا أصولهم أنفسهم، ولا يدعوا الشكوك والشبهات في تلك الأمور التي تنبني على الحقائق، تجد إليهم سبيلا»[1].

* **معارضة السلطة الإنكليزية والحفاظ على كيان الملّة الإسلامية:**

بعد سقوط الهند في «الشركة الشرقية للهند» البريطانية، واستيلاء بريطانيا على الهند عام ١٢١٤هـ، ولما وقع بصر الجنرال هارس على جثة السلطان تيبو عام ١٧٩٩م الموافق ١٢١٤هـ قال: «الآن أصبحت الهند لنا».

وكان الشيخ الدهلوي أول شخص يتجاسر على إعلان أن الهند أصبحت دار حرب، وسُئل الشيخ عبدالعزيز: دار الإسلام هل يمكن أن تتحول دار حرب أوْ لا؟ قال في «الفتاوى العزيزية» (ج/١): «إن حكم إمام المسلمين في هذه المدينة «دلهي» غير نافذ، وحكم الحكام النصرانيين نافذ مطبق بدون معارضة ونقد، وإن ما يسميه الفقهاء بإجراء أحكام الكفر يُراد به أن يكون الكفار أصحاب حكم وسلطة في شئون إدارة البلاد وتنظيم الرعية وأخذ الجبايات وتعشير أموال التجارة وتعزير السُّرّاق وقطّاع الطريق والفصل في الخصومات والتعزير على عامة الجرائم، وإن كانوا لا يتعرضون لبعض

---

(١) «التحفة الإثنا عشرية» للشيخ عبدالعزيز الدهلوي (ص٢).

الأحكام الإسلامية كإقامة الجمعة والعيدين والأذان وذبح البقر، ولكن الأصل الأصيل أن تكون هذه الشئون المتقدمة الذكر تحت رحمتهم وفي دائرة نفوذهم، إننا نرى بأم أعيننا أنهم يهدمون المساجد علنًا، ولا يسمح لأي مسلم أو ذمي أن يدخل هذه المدينة أو نواحيها إلا بإذنهم، ولا يمنعون الوافدين من الخارج والمسافرين والتجار لمصالحهم الذاتية، ولكن الوجهاء الآخرين كشجاع الملك وولايتي بيكم لا يمكن أن يدخلوا المدينة بغير إذنهم، إن حكم النصارى يسود من مدينة دلهي إلى كلكته، نعم إنهم لم ينفذوا أحكامهم في بعض المناطق - يمينًا وشمالاً - كحيدر آباد ولكنؤو رامفور، إما لأجل مصالحهم الخاصة، أو لأن حكام هذه الولايات خضعوا لسلطانهم وقبلوا طاعتهم»[1] .

لقد تعرّف الشيخ الدهلوي على الخطر الكبير الذي يواجهه المسلمون والهند كلها، ببصيرته الموهوبة وفراسته الإيمانية، وتجلت بصيرته في تربية رجال الجهاد الذين ينتمون إليه فقد كانوا أكفاء ذوي صلاحية فائقة وهمة عالية وعزيمة صارمة، تأثير في النفوس والقلوب الذين أحدثوا ثورة عظيمة في حياة الآلاف المؤلفة من الناس.

لقد كان نهر علم الشيخ الدهلوي وحياته هادئًا ساكنًا، ولكنه كما يقول الدكتور إقبال: «من هذا النهر تتصاعد تلك الأمواج الطاغية المتلاطمة التي تحطم أوكار التماسيح وتجعل عاليها سافلها».

◘ وكان الإمام أحمد بن عرفان الشهيد والشيخ إسماعيل الشهيد أروع مظاهر تربية الشيخ الدهلوي كما تتجلّى مشاهدها الرائعة في حروب الشيخ ولايت على العظيم آبادي، والشيخ يحيى علي الصادق بوري، والشيخ أحمدالله، والشيخ عبدالله ضد الإنكليز على الحدود، وفي تلك التضحيات

(١) «الفتاوى العزيزية» (١/ ١١٤).

الجليلة التي قام بها الصادقون من صادق بور والتي لا يوجد لها نظير إلا بصعوبة[1].

ثم انتقلت هذه العاطفة من هذه الجماعة المناضلة المجاهدة إلى أولئك العلماء والقادة الدينين الذين خاطروا في سبيلها بمهجهم وأرواحهم عام ١٨٥٧م، وقد اشتهر منهم الشيخ أحمداللّه شاه المدراسي، والشيخ لياقات على الإله آبادي، والشيخ إمداد اللّه المهاجر المكي، والحافظ ضامن الشهيد، ثم انتقلت إلى أولئك العلماء الذين ما تركوا هذا المشعل يخبو يومًا ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما هدوا اللّه عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾[2].

*** الشيخ محمد بن إسحاق الدهلوي وأثره في نشر الحديث في الهند:**

انتشر علم الحديث انتشاراً واسعًا كبير على يدي الشيخ محمد إسحاق الدهلوي تلميذ الشيخ عبدالعزيز الدهلوي، وتخرّج عليه علماء كبار، وأساتذة الحديث في الهند، إلى أن هاجر إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨هـ وأسند عنه كبار علماء الحجاز وأساتذة الحديث بها.

*** الإمام الذي لم يوف حقه: السيد أحمد بن عرفان:**

«يؤسس دولة إسلامية في «بيشاور» ويُحيي الجهاد الإسلامي ضد السيخ ويقضي على البدع»:

□ قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه «الإمام الذي لم يوف

(١) انظر للتفصيل كتاب اشيخ الندوي «إذا هبّت ريح الإيمان» (ص١٨١ ـ ٢٠٠) ـ طبع دار القلم ـ الكويت ومؤسسة الرسالة.

(٢) «الإمام الدهلوي» (ص٢٨٧ ـ ٢٩١).

حقه: أحمد بن عرفان»: «قاد السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ـ رحمه اللَّه ـ (١٢٠١ ـ ١٢٤٦هـ) حركة إسلامية كبرى في شبه القارة الهندية، لم يُعرف لها نظير في الشمول وعمق التأثير، ومشابهة الدعوة الإسلامية الأولى، لا في قرنه الثالث عشر الهجري، بل ولا في عدة قرون من تاريخ الإسلام والمسلمين الأخير، وظل يناضل على أوسع جبهة نعرفها من إصلاح المجتمع، وتربية الرجال، والوعظ والإرشاد، والكفاح والجهاد، ولم يكن تأثيره مقصورًا على العهد الذي نشأ فيه والجيل الذي عاصره، والمجال الذي عمل فيه، بل خلّف أثرًا عميقًا واسع المدى على الجيل الذي أعقبه، وعلى دعاة الإصلاح والعاملين في المجال الإسلامي، الذين جاءوا بعده كحركة الإصلاح التي قادها تثار على في بنغال، والدعوة السلفية في الهند، ومركز الدعوة والتربية في «صادق فوربتنه»، وحركة التحرير وإجلاء الإنجليز، التي كانت قيادتها في المرحلة الأولى بيد العلماء والقادة من جماعته، وحركة التأليف والترجمة الواسعة النطاق في مختلف أنحاء الهند، التي ملأت الفجوة الواقعة بين الشعب والثقافة الإسلامية الأصلية، والتعريف بالكتاب والسنة، فكان في كل ذلك أثر ملموس للحركة التي قام بها هؤلاء المجاهدون أو كانت وليدة دعوته التي هزّت المشاعر، وأشعلت المواهب»[1] .

☐ إنه دعا إلى الدين الخالص، وللإطلاع على دعوته السافرة القوية إلى التمسك بعقيدة التوحيد القرآنية النقية ونبذ الشرك والبدع، يرجع إلى كتابه «الصراط المستقيم» بالفارسية وكتاب «تقوية الإيمان» لوزيره الشيخ محمد إسماعيل الشهيد «بالأردية» وترجمتها العربية المسماة «برسالة التوحيد» بقلم أبي الحسن الندوي لقد «أشعل في القلوب شعلة الإيمان والحماسة والإسلامية، والجهاد في سبيل اللَّه ونظمّ جماعة كبيرة، وأحسن تربيتها

---

(١) الإمام الذي لم يوف حقه أحمد بن عرفان لأبي الحسن الندوي (ص١٣ ـ ١٤).

الدينية والحربية، وخرج معها مهاجراً في سبيل اللَّه (في ٧ من جمادي الآخرة سنة ١٢٤١هـ) من طريق بلوجستان وأفغانستان، إلى حدود الهند الشمالية، ليتخذها مركزاً لدعوته، وليتقدم منها إلى الهند لإجلاء الإنجليز، وتأسيس دولة إسلامية على منهاج الكتاب والسنة، وأثار الغيرة الإسلامية في نفوس المسلمين وأولي الأمر، وأنذرهم بالخطر المحدق بالوجود الإسلامي، ونبههم على نوايا «الأخطبوط» الإنجليزي، ومخططاته التوسعية، وراسل أمراء المسلمين في الهند.

❑ كما راسل ملوك البلاد الإسلامية المستقلة ككابل وهرات ونجاري وغيرها، وأرسل إليهم رسله ورسائله الرقيقة المرققة، الدافقة بالقوة والحماسة الإسلامية، وفراسة المؤمن الألمعي، وعلو همة القائد العصامي، والإمام الديني الذي هيأه اللَّه لهذا الأمر العظيم، وسمت همته، وبعد نظره، حتى فاق في ذلك كبار السياسيين في عصره وبعد عصره، وما ذلك إلاّ لإحياء ما مات من السنن، واندرس من معالم الإسلام، ولإدالة الإسلام من الجاهلية، والسنة من البدعة، وإجراء الأحكام الشرعية على من دان بالإسلام ونطق بالشهادتين»[١] .

❑ كتب السيد أحمد بن عرفان إلى الأمير كامران: «إن هذا الفقير سوف ينصرف مع المجاهدين الصادقين بعد الفراغ من هذه المهمة (مهمة بنجاب ومنطقة الثغور الشمالية) إلى الهند بعزيمة القضاء على الكفر والطغيان إذ هو الغرض الحقيقي من ذلك» يقصد جهاد الإنجليز.

ويكتب إلى شاه سليمان وإلى «جترال»: «لقد تدهورت حكومة الهند وسلطته ـ لسوء الحظ ـ منذ أعوام إلى وضع سيئ حتى استولى المسيحيون

(١) «سيرة السيد أحمد الشهيد» (١/ ٣٩٠).

والمشركون على أكثر بقاع الهند، وملأوها بظلمات الظلم والجور والطغيان»[١].

ويكتب إلى هند وراؤ وزير كواليار: «وهؤلاء البياعين التجار قد غدوا يملكون زمام البلاد، وقد أسقطوا حكومات الحكام الكبار وانتهكوا الحرمات والأعراض وأذلوهم وأرغموا أنوفهم»[٢].

ويكتب إلى غلام حيدر ـ الذي كان أحد الضباط العسكريين في كواليار:

«لقد راحت معظم البقاع من هذه البلاد إلى سلطة الأجانب، وقد شمروا عن ساعد الجد في الظلم والعدوان في كل مكان، لقد ضاعت حكومة حكام الهند وخربت».

*** إحياؤه للإمارة والإمامة وتأسيسه لدولة إسلامية:**

بُويع بالإمارة والإمامة في ١٢ من جمادي الآخرة سنة ١٢٤٢هـ، وقرئت باسمه الخطبة ودخل الناس في بيعته أفواجًا، وجاءه أمراء المناطق، ورؤساء القبائل، وكبار العلماء فبايعوه على السمع والطاعة والجهاد في سبيل اللَّه.

لقد أسس السيد أحمد دولة شرعية في الحدود الهندية الشمالية والغربية، تشتمل على «بشاور» وما جاورها من البلدان والقرى، ونفّذ الحدود الشرعية، وطبق النظام الإسلامي المالي والإداري تطبيقًا دقيقًا، وشهد التاريخ نموذجًا للخلافة الإسلامية الراشدة، بعدما توالت قرون طويلة على حكومات المسلمين شبه العلمانية والزمنية فيما يتصل بالأحكام الشرعية والقوانين

(١) المصدر السابق (١/ ٣٨٩).
(٢) المصدر السابق (١/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣٩٠).

الإسلامية وانضم إلى دولته أمراء منقطة «هزارا» ووادي «كشمير».

*** إحياؤه للجهاد وقتاله للسيخ:**

آثره الجليلة أنه أحيا ركن الجهاد في سبيل اللَّه، حسب تعاليم الإسلامي وآدابه، بعد فترة زمنية كاد يندرس فيها هذا الركن، ويُطوى في صحائف السنة المطهرة، والسيرة النبوية وتاريخ المجاهدين الأولين والعزاة المخلصين الذين قاتلوا لتكون كلمة اللَّه هي العليا، ويكون الدين كله للَّه، ولا يبتغون به عرضًا من الحياة، أو تشييد ملك ودولة لأسرتهم وأبنائهم، وقد أهمله ملوك الإسلام أو استغلوه لقضاء مآربهم، أو اشباع شهوة الملك والفتح، وشُغِل عنه - أو عجز - دعاة الإصلاح، والمعلمون والمربون حتى كادت الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها تجهل قيمته وأهميته وفضله، ومكانته في الإسلام، وحتى أصبح أقل أهمية من كثير من أبواب الفقه كما يقول وزير السيد وترجمانه العلامة محمد إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي: «إن الجهاد قد صار الاهتمام به عند العلماء لا يزيد على اهتمامهم بتعليم كتاب الحيض والنفاس وتعلمه».

«وقد كان ضرر هذا الإهمال على العالم الإسلامي كبيرًا وفادحًا، فقد عاث فيه المفسدون، واجترأ عليه السفلة وأراذل الناس، وخضدت شوكة الإسلام والمسلمون، وأصبح المسلمون في بلادهم التي فتحوها بحد السيف، وحكموها قرونًا طويلة، فريسة القتل والتدمير، وعرضة الإهانة والتذليل، تُهدم مساجدهم، وتنتهك أعراضهم، وتهدر كرامتهم وانطبق عليهم قول رسول اللَّه ﷺ: «**إذا تركتم الجهاد في سبيل اللَّه سلّط اللَّه عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»[1]، وقد كان العالم الإسلامي خصوصًا ما بعد منه

---

(١) **صحيح**: رواه

عن مركز الخلافة العثمانية صورة صادقة لهذا الوضع المهين.

❑ يقول السيد أحمد بن عرفان في الفصل القيم في «ضرورة الجهاد» من كتابه القيم «الصراط المستقيم»: «ومن شك في وخامة نتيجة ترك الجهاد، وما عاد به على الهند من شر وضرر، وخيّم به عليه بسببه الذل والهوان فليسرح طرفه في أطرافها[١]، وما آل إليه أمرها، وما ترددت فيه من ضعف واستكانة، وذل ومهانة، وبؤس وشقاء، وكيف نزعت عنها البركة، وفارقها البهاء»[٢].

❑ وقد عاش الجهاد بفضل جهاده في إحياء هذا الركن العظيم، واحتل مكانه في حياة المسلمين وتفكيرهم واهتمامهم، وفي الأدب الإسلامي، والشعر الهندي، حتى زالت هيبة الموت، والجراحة في سبيل اللّه، وحنّت النفوس إلى الشهادة حنين الطائر إلى وكره حتى قدّم أحد الأثرياء والأمراء[٣] ابنه الشاب للجهاد، وقال أريد أن ينال الشهادة من أيدي الكفار فيكون ذبيحًا كإسماعيل، وتنافس الشبان والأثرياء والمتنعمون في الهجرة والجهاد، وألفوا حياة التقشف والخشونة، والايثار والفداء، وكانت الأبيات التي قيلت في الحث عليه، والشوق إلى الشهادة ترنيمة تنوم بها الأمهات أبناءهن، وينشدنها في مناسبات كثيرة.

❑ اجتمع تحت راية أحمد بن عرفان في معركة «شيدو» نحو مائة ألف مقاتل.

❑ ولما احتل السيخ «بنجاب» واستولوا عليها، وكانت لهم سيطرة على

(١) «عند كتابة هذا الكتاب في سنة ١٢٣٣هـ.

(٢) «الصراط المستقيم» لأحمد بن عرفان (ص٩٥ ـ ٩٦).

(٣) هو الأمير فرزند على من سراة مديرية «غازي فور» قدّم ابنه أمجد، اقرأ التفاصيل في «سوانح أحمدي».

حدود الهند الشمالية الغربية والقبائل الأفغانية الحرة، وهددوا سلامة أفغانستان، وزحفوا إليها مرارًا، وتعرّض المسلمون الذين كانوا يشكلون الأكثرية في «بنجاب»، وحكموها منذ القرن الخامس الهجري للإهانة والإبادة، والاضطهاد الديني، فكان لا بد من انتصار لهم ودفاع عنهم ودرء الخطر عن البلاد الإسلامية الصميمة، وكانت لبنجاب أهمية استراتيجية كبيرة.

وبدأت الحرب مع السيخ، كانت الحرب مع «رنجيت سنغ» أكبر قائد من السيخ نبغ في أواخر القرن الثامن عشر المسيحي، وأقوى حاكم عسكري في عصره، وانتصر المجاهدون في أكبر المعارك الحربية، وعلى الجيوش التي كان يسرحها رنجيت سنغ حاكم «بنجاب»، يقود بعضها قائدان إيطاليان محنكان كانا قد قاتلا بجوار نابليون في الحروب التي دارت بينه وبين منافسيه والحكومات الأوربية، وهما الجنرال فينتورا والجنرال ألارد، وظهر من المجاهدين من الشجاعة والحنين إلى الشهادة والطاعة للأمير، والتأدب بآداب الشرع في الحرب والسلم ما جدّد ذكريات القرون الأولى.

ولما تحرك الجيش الإسلامي إلى الهند، صرفوا العنان إلى منطقة «هزارا» ووادي كشمير وفي طريقهم إلى كشمير، وقعت المعركة الحاسمة الأخيرة في وادي «بالاكوت» مع جيش السيخ الذي كان يقوده الأمير شير سنغ بن رنجيت سنغ، وقد دلّه بعض المسلمين المأجورين إلى هذا الوادي الضيق الوعر المسالك، ووقعت المعركة الحامية، واستشهد الإمام السيد أحمد، وصاحبه العلامة محمد إسماعيل بن عبدالغني (ابن شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي) وكبار أصحابها بعد بطولات نادرة، وشجاعة خارقة للعادة، وذلك

(١) استولى الإنجليز على ملك رنجيت سنغ في سنة ١٨٤٩م، يعني بعد شهادة السيد أحمد ابن عرفان بثماني عشرة سنة، وانقرض هذا الملك انقراضًا كليًا.

في ٢٤ من ذي القعدة عام ١٢٦٤هـ (٦ من مايو ١٨٣١م).

واتخذ خلفاء السيد وأصحابه ـ وعلى رأسهم الشيخ ولايت على العظيم آبادي وأخوه وأولاده ـ مركزًا لهم في «ستهانه» المنطقة القبائلية الحرة، وانتقلت المعركة من «السيخ» ـ الذين ضعف شأنهم وفقدوا السلطة[1] ـ إلى الإنجليز الذين استولوا على الهند، وأسسوا فيها حكومة منظمة قوية، وقد كان هذا الانتقال من مقاصده الحقيقية، والغاية القصوى التي كان يرمي إليها.

ولم يزل أتباعه في الهند قائمين على الحق، باذلين في ذلك النفس والنفيس، والإنجليز يطاردونهم ويضطهدونهم، ويصادرون أملاكهم وأموالهم، ويحاكمونهم محاكمات طويلة عريضة، وقد حكم على بعضهم بالشنق، وبالنفي المؤبد، وعلى بعضهم باعتقال طويل مع الأعمال الشاقة، وهم صابرون محتسبون، لا يضطربون ولا يتزعزعون، ولا يلينون ولا يستكينون، حتى كانت ثورة ١٨٥٧م.

* إحياؤه لركن الحج في الهند:

أحيا السيد أحمد بن عرفان ركن الحج في الهند، الذي تعرّض لحملة علمية وفقهية تحاول اسقاط فرضيته عن المسلمين في الهند، لحيلولة البحار وكثرة الأخطار، وتوجه للحج سنة ١٢٣٦هـ بصحبة سبعمائة شخص.

◻ وأحيا السيد أحمد بن عرفان سنة تزويج الأيامى الذي كان المسلمون في الزمن الأخير يتعيرون منه، ويعدونه سبّة وعارًا.

وكذلك تزويج العوانس في القبائل الأفغانية التي تعرضت لتعطيله أو تأخيره تأخيرًا عظيمًا لقبائح عظيمة.

◻ قال المؤلف الكبير السيد صديق حسن خان أمير بهوبال (م١٣٠٧هـ) ذلك الذي شهد بأم عينيه تأثير تعليم السيد وتربيته، وعاشر طائفة من أولئك

الأفراد الذين تربّوا في مدرسته مباشرة، وذلك في كتابه «تقصار جيود الأحرار»: «إنه كان آية من آيات اللَّه في هداية عباده، وإصلاح حالهم، والرجوع بهم إلى اللَّه وعبادته، بلغ خلق كثير، وعالم بأسره إلى درجة الربانية والإحسان بتعليمه وتربيته، وتزكيته القلبية والجسمية، وتطهرت الهند من أدناس الشرك والبدع والخرافات، والأوهام، بفعل مواعظ أصحابه وخلفائه، واهتدت إلى جادة الكتاب والسنة، ولا تزال مواعظه وتعاليمه تفعل فعلها وتؤتي أكلها».

□ ويضيف قائلاً: «وقصارى اقول: أننا لا نعلم رجلاً يدانيه في جلالة شأنه وفضله، في أي جزء من أجزاء العالم المعاصر، وما جناه الخلق من المنافع الإيمانية، والمكاسب الروحية، من هذه الجماعة الحقة، لم ينالوا عشر أعشاره من العلماء والمشايخ المعاصرين الآخرين».

□ ويقول علاّمة عصره، وأستاذ أساتذة عهده، الشيخ حيدر علي الرامبوري الطونكي (م١٢٧٣هـ) أحد تلاميذ الإمام الشيخ عبدالعزيز بن ولي اللَّه الدهلوي في رسالته، «صيانة الناس عن وسوسة الخناس»:

«أشرق نور إصلاحه وتربيته، كأشعة الشمس بكل قوة ودفعة على البلاد، وفي قلوب العباد، وجعل يتقاطر عليه من الناس من كتب لهم اللَّه السعادة في الأزل، ويتوبون من الشرك والبدع، الذين كانوا قد وقعوا فريستها، وعاشوا فيها كعامة الناس فيعصرهم، فتمسكوا بأهداب التوحيد والكتاب والسنة، وقام خلفاؤه وأتباعه المؤمنون بجولات واسعة في البلدان والقرى، وهَدَوْا مئات الألوف من الناس إلى منهج الشريعة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ فمَنْ حالفهم التوفيق الإلهي، وكانوا سعداء أخذوا يسيرون على هذا الدرب القويم، وبث أتباعه في جميع النواحي حتى يواصلوا القيام بالتربية والإرشاد، وتلقين التوبة، والذين كانوا يكرهون الصلاة

والصيام، ويتعاطون الحشيش، وكان الخمر والأشربة المحرمة قوام حياتهم، ويصدعون على رءوس المحافل والمجلس ـ سخرية واستهزاء ـ بأن الصلاة لم تأمر بها الشركة الهندية الشرقية الحاكمة في الهند، وأن الصيام لم يفرضه مجلس حكومي فضلاً عن الزكاة والحج، وكانت الرشوة والزنا، وإيذاء عباد اللَّه، والربا شغلهم الشاغل، وقد عمّ الاختلاط فيما بين الرجل والمرأة دون نكاح شرعي، كالبهائم والأنعام مما كثر به أولاد الزنا، وكانت هناك مئات من الشباب والشيوخ لم يختتنوا كاليهود والنصارى، فتاب هؤلاء وأولئك كلهم بفضل تعليم السيد وتربيته عن ذنوبهم، واستغفروا اللَّه، وتناكحوا واختتنوا، وعادوا إلى حياة الطهر والصفاء، والعفة والحياء، وحسنت توبتهم، وصاروا أتقياء يخافون اللَّه، وكان يبايعه في وقت واحد عشرة آلاف من الناس، وقد اعتنق الإسلام بفضل جهوده الإصلاحية والتربوية كثير من الهنادك، والشيعة، ومن يمارسون «يوك» ـ الرياضات الهندوكية ـ وصدقوا في إسلامهم، وأخلصوا في إيمانهم، حتى حضره سرًا بعض النصارى، وأسلموا على يديه، دون أن يشعروا بذلك قومهم، وأقبل آلاف العلماء ـ بعد ما تخرّجوا عليه في التربية والإحسان على إصلاح الخلق ـ فمنهم من اتخذ الإرشاد والإصلاح والتربية والتزكية، شعاره ودثاره ومنهم من انقطع كليًّا إلى وضع الكتب الدينية، وتفسير الآيات القرآنية، وشرح الأحاديث النبوية، وألفوا وصنفوا، ونشروا كتبًا ورسائل في لغتهم الأم، ترغب الناس في العبادة، وترهبهم من المعاصي، وبذلك جعلوا كثيرًا من الجهلاء ـ الذين كانوا لا يستطيعون أن يتلفظوا بكلمة الإسلام صحيحة ـ علماء يعرفون الدين والإسلام، ومنهم من سلكوا الطريقين معًا[١] »[٢] .

---

(١) يعني عنوا بالتعليم إلى جانب التأليف والتصنيف.

(٢) «صيانة الناس عن وسوسة الخناس» للشيخ حيدر الرامبوري الطنكوي (ص٤ ـ ٦).

◻ ويقول العالم الرباني الشهير، المجاهد في سبيل اللَّه الشيخ ولايت على العظيم آبادي ـ رحمه اللَّه ـ (م١٢٦٩هـ): «ما إن دوّت دعوته في الهند، إلا وجعل الناس يترامون عليه ترامي الفراش على النور، حتى كان يبايعه عشرة آلاف نسمة في يوم واحد، وتكاثرت جماعته مع الأيام وتوسعت، وانسلخ آلاف الناس عن دياناتهم الباطلة، ودخلوا في الإسلام، وبايعه في مدة ستة أعوام فحسب ثلاثة ملايين من المسلمين الهنود، بالإضافة إلى نحو مائة ألف رجل بايعوه خلال رحلته للحج والزيارة، والذين بايعوه كان فيهم الآلاف من العلماء والفقهاء ومئات من حفّاظ القرآن الكريم، ومئات من رجال الإفتاء والقضاء وكثير من أولى التجربة والحنكة الذين ساحوا وطوّفوا وجربوا الحلو والمر، مما يدل دلالة واضحة على مدى ما كان يتمتع به من حسن القبول والتأييد العجيب من اللَّه، فكان تنجذب إليه قلوب الناس انجذاب الحديد إلى المغناطيس، ويبايعونه مندفعين راغبين»[1].

* حقيقة أعجب وأغرب من الخيال والأساطير:

إسلام أكثر من أربعين ألفًا على يد الإمام أحمد بن عرفان:

◻ يقول أحد علماء الهند المطلعين الثقات الشيخ عبدالأحد، وله خبرة واسعة بأحوال الهند وأخبارها، والذي زار عددًا كبيرًا من أفراد هذه الجماعة النيّرة الصادقة، وكان عهده قريبًا من عهد الإمام الشهيد «لقد أسلم على يدي السيد أحمد أكثر من أربعين ألفًا من الهنادك وغيره من الكفار، وبايعة ثلاثة ملايين من المسلمين».

---

(١) «رسالة الدعوة المتضمنة للرسائل التسع» للشيخ ولايت على العظيم آبادي (ص٦٥).

* **الدين النصيحة:**

«لا ريب أن السيد أحمد بن عرفان البريلوي، وأصحابه وعلى رأسهم الشاه إسماعيل الدهلوي - قائد الجناح العسكري - أقاموا دولة إسلامية، ولكن أمراء بعض القبائل، والمغرضين من الشعب تخاذلوا عن تأييدها، لقلة الوازع الديني، وعدم التربية على منهاج النبوة، حتى قُتل السيد أحمد والشاه إسماعيل الدهلوي مع كثير من أصحابهما، على يد السيخ في ساحة «بالاكوت» في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ست وأربعين ومائتين وألف من الهجرة النبوية.

❑ حثوا الناس على الجهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين، وأنشأوا فيهم حب التفاني في سبيل اللّه، كأنهم تأثروا في هذا الجانب بدعوة الإمام محمد ابن عبدالوهاب، إلا أنهم كانوا صوفية في سلوكهم، وحنفية في فروعهم الفقهية، وأشعرية وما تريدية في عقائدهم.

❑ وألفوا كتبًا ورسائل ودونوا إملاءات تدل دلالة صريحة على توغلهم في التصوف الطرقي منها كتاب «الصراط المستقيم» وهو إملاءات السيد أحمد التي دوّنها الشاه إسماعيل والشيخ عبدالحي البدهانوي، ونقله الأخير إلى العربية، وفيها مخالفات عقدية كثيرة»[١].

وهذا القول الصحيح هو عكس ما يقوله الأستاذ أبو الحسن الندوي عن كتاب الصراط المستقيم.

* **الإمام الشاه إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي (- ١٢٤٦هـ):**

جاهر - رحمه اللّه - بالعمل بالحديث تمسكًا بما قرّر جدّه الإمام الدهلوي في كتاباته من تأييد مذهب المحدثين (مع التزامه بمرشده الشيخ

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوي - الوجه الآخر من كتاباته - لصلاح الدين مقبول أحمد.

أحمد بن عرفان في التصوف)[١] ، وقام بالرد على البدع السائدة في البلاد، وألّف كتاب «تقوية الإيمان» الذي هو مثل «كتاب التوحيد» للإمام محمد بن عبدالوهاب، و«ردّ الإشراك» و«تنوير العينين»، وهي مؤلفات العلامة إسماعيل الدهلوي وهي ثمرات ناضجة لمعارف شيخ الإسلام ابن تيمية التي ورثها عن جده. وأثمرت حركته لإحياء السنة، وتحوّلت إلى حركة الجهاد التي أقضّت مضاجع السيخ والإنجليز، حتى استشهد هو ومرشده في ميدان «بالاكوت».

❑ ولقد تأثر علماء «صاد قبور» بالشاه إسماعيل الدهلوي وجمعوا بين العقيدة الصحيحة واتباع السنة، والذكر والتزكية والجهاد في سبيل اللَّه، حتى انتهوا فيما بعد بنبذ التصوف، وصاروا نواه لحركة أهل الحديث، وحماة للدعوة السلفية في شبه القارة الهندية، ورفعوا راية الجهاد ضد الإنجليز، واستعذبوا ألوانًا من المصائب والمشقات على أيديهم، فعُلِّقوا على المشانق ونفوا من البلاد، ودُمرت بيوتهم، ونُبشت قبورهم، وأقيمت مكاتب الدوائر الرسمية على أنقاضها فرحمهم اللَّه رحمة واسعة، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

❑ عودة مرة أخرى إلى الشاه إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي الذي دعا إلى الكتاب والسنة بقلمه ولسانه، نهارًا وجهارًا، وكان كتابه «تقوية الإيمان» دعوة صريحة إلى التمسك بعقيدة السلف نقية وخالية من أكدار الشرك والوثنية، والإلحاد والزندقة، فاهتدى به إلى سبيل الحق والرشاد مئات الألوف من الناس، ولعلّه لم يحظ كتاب من القراءة والمطالعة من قبل الموافقين والمخالفين على السـواء، فكان حجـة أو عليهم ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ

---

(١) «أبجد العلوم» لصديق حسن خان (٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

ويحيىٰ من حيّ عن بيّنة﴾ [الأنفال: ٤٢].

وعلى يد الشاه إسماعيل الدهلوي تميّزت صفوف أهل الحديث في الهند بالاعتصام بالكتاب والسنة، عن غيرهم من طوائف المسلمين، وتقدمت حركة إحياء السنة إلى الإمام مع تمييز الصف، وتوضيح المنهج وتحديد المسار، فالحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

*** قيادة الإمامين: العلاّمة نذير حسين الدهلوي، والشيخ صديق حسن خان:**

بعدما تميّز الصف اهتم العلماء بالتدريس والإفادة، والدعوة والإرشاد، والتصنيف والتأليف. ونشأت اليقظة السلفية في القارة الهندية، بعد الركود الذهني المحزن، والسبات الفكري العميق، والجمود الفقهي الطويل، تحت قيادة الإمامين السيدين:

*** العالم الرباني رائد السلفية في الهند السيد نذير حسين المحدث الدهلوي (ـ ١٣٢٠هـ):**

تلميذ الشيخ محمد إسحاق المهاجر المكي[1] (ـ ١٢٦٢هـ)، بل أبرز تلامذته على الإطلاق وتولي التدريس بعده في مكانه، ودرّس الحديث على طريقة فقهاء المحدثين ما يقارب اثنين وستين سنة وتخرّج على يده أعلام أهل الحديث في الهند وخارجها، ومنهم[2] :

ـ أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي (ـ ١٣٢٩هـ) صاحب «عون

---

(١) انظر إلى أبجد العلوم» (٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٢) هناك مقالات منشورة في «مجلة الجامعة السلفية» في تراجم العظيم آبادي، والمباركفوري، والسهسواني والآروي لكاتب هذه السطور.

المعبود على سنن أبي داود».

- أبو العُلى عبدالرحمن المباركفوري (ـ ١٣٥٣هـ) صاحب «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي».

- محمد بشير الفاروقي السهسواني (ـ ١٣٢٦هـ) صاحب «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان».

- أبو محمد إبراهيم الآروي (ـ ١٣١٩هـ) الذي اهتدى العلامة محمد نصيف وجيه جدة (ـ ١٣٩١هـ) بتوجيهاته إلى السلفية.

- الشيخ سعد بن عتيق ـ الذي انتشر سند شيخه المحدّث نذير حسين بواسطته في بلاد نجد والحجاز.

قال العلامة عبدالحي[1] الحسني في شيخه السيد نذير حسين المحدّث الدهلوي: «... وكان له ذوق سليم في الفقه الحنفي، ثم غلب عليه حبّ القرآن والحديث، فترك اشتغاله بما سواهما إلا الفقه... ونفع اللَّه بعلومه خلقًا كثيرًا من العرب والعجم وانتهت إليه رئاسة الحديث في بلاد الهند.

أما تلامذته فعلى طبقات:

فمنهم العالمون الناقدون المعروفون، فلعلهم يبلغون إلى ألف نسمة.

ومنهم المقاربون للطبقة الأولى في بعض الأوصاف.

ومنهم من يلي الطبقة الثانية ـ وأهل هاتين الطبقتين يبلغون إلى الآلاف»[2].

◘ وقال العلامة حسين بن محسن الأنصاري اليماني[3] (ـ ١٣٢٧هـ):

---

(١) هو والد الشيخ أبي الحسن الندوي.

(٢) «نزهة الخواطر» (٨/ ٥٠٠).

(٣) راجع ترجمته في «أبجد العلوم» (٣/ ٢١١).

«إنه فرد زمانه ومسند وقته وأوانه. ومن أجلّ علماء العصر، بل لا ثاني له في إقليم الهند في علمه وحلمه وتقواه. وإنه لمن الهادين والمرشدين إلى العمل الكتاب والسنّة والمعلّمين لهما. بل أجلّ علماء هذا العصر المحققين في أرض الهند أكثرهم من تلامذته. وعقيدته موافقة لعقيدة السلف الموافقة للكتاب والسنّة»[١] .

ولا ريب أنه ربّي جيلاً كاملاً على إحياء السنّة تدريسًا وتأليفًا، ودعوة وتبليغًا، فجزاه اللَّه عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

*** العالم الرباني صديق حسن خان ملك بوفال:**

هو الأمير السيد صديق حسن الحسيني القنوجي البوفالي (ـ ١٣٠٧هـ) الذي نشر كتب الحديث ودواوين السنّة من جهة، وأثرى المكتبات الإسلامية بمؤلفاته من جهة أخرى.

وكان العلامة صديق حسن خان ممن تأثر بدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام محمد بن عبدالوهاب[٢] . ومؤلفاته تمثّل «مدرسة الأثر» التي تعرض فروع الفقه الإسلامي على الكتاب والسنّة مباشرة[٣] .

◻ قال العلامة محمد عبدالعزيز الخولي:

«ومن حسناته طبع «فتح الباري في شرح البخاري» للحافظ ابن حجر، و«نيل الأوطار» للإمام الشوكاني، و«تفسير الحافظ ابن كثير مع تفسير فتح البيان».

طبعت هذه على نفقته في المطبعة الأميرية بمصر، فكانت من أنجح

---

(١) «نزهة الخواطر» (٩/ ٤٩٩).

(٢) «الشيخ محمد بن عبدالوهاب» لابن حجر آل بوطامي (ص١٣١).

(٣) «دستور الوحدة» (ص٧٧).

رسائل إحياء السنة[١].

☐ يقول الشيخ عبدالحميد عبدالجبار الرحماني:

«كان السيد صديق بن حسن (ـ ١٣٠٧هـ) سلفيًا منذ نعومة أظفاره، وارتضع حب السلفية مع لبان الأم ولما سافر للحج سنة ١٢٧٦هـ اغتنم فرصة وقوف باخرته في اليمن، فأقام هناك أسبوعين عند المحدث اليماني الشيخ حسين بن محسن الحديدي (ـ ١٣٢٧هـ)، واشترى عدة كتب، منها «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وبعدما فرغ من أداء مناسك العمرة أول عمل قام به في مكة المكرمة هو نسخ كتاب «السياسة الشرعية» لابن تيمية بيده.

وكأنه كان يعدّ نفسه لتنفيذ ما في «اقضتاء الصراط المستقيم» في العقيدة والمنهج، وتنفيذ ما في «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» في سياسة البلاد التي حكمها فيما بعد.

ولما تزوج بملكة (بوفال) شاهجهان بيكم (ـ ١٣١٩هـ) وأخذ مقاليد الأمور بيده في سنة ١٢٨٨هـ قام بنشر أفكار شيخ الإسلام ومعارفه بمؤلفاته ومطبوعاته ومدارسه ومساجده في بلاده وخارجها.

وكتب ترجمة شيخ الإسلام في كتبه بالفارسية مثل «إتحاف النبلاء المتقين لإحياء مآثر الفقهاء والمحدثين»، و«تقصار جيود الأحرار من تذكار جنود الأبرار» ـ وفي كتبه بالعربية مثل: «التاج المكلّل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول» و«أبجد العلوم» ولم يكتف بتحرير ترجمته وترجمة بعض تلامذته في هذه الكتب فقط بل كلما وجد مناسبة لذكر شيخ الإسلام ذكره وذكره معارفه ودعوته في مؤلفاته الأخرى التي تبلغ أكثر من مئتين وخمسة

(١) «مفتاح السنة» للخولي (ص١٦٩) ـ دار الكتب العلمية بيروت.

وعشرين كتابًا في اللغات العربية والفارسية والأردية. وحجم بعض هذه الكتب يزيد عن خمسة آلاف صفحة.

ولقد نوّه بشيخ الإسلام وعدّه مجدّد قرنه في عدة كتب له، مثل «حجج الكرامة» (١٣٦ ـ ١٣٧) و«تقصار جيود الأحرار» (ص٧٦) و«هداية السائل إلى أدلة المسائل» (١١٥ ـ ١١٦، ٢٨٢) وغيرها من مولفاته وهي مملوءة بمثل هذه التصريحات.

□ وقد قام العلامة صديق بن حسن البوفالي بجلائل الأعمال في الدفاع عن شيخ الإسلام، وطبع كتابين من أهم الكتب في هذا الموضوع.

أحدهما: «الرد الوافر على من زعم أن من سمّى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر» للعلامة ابن ناصر الدين الدمشقي (٨٤٢هـ).

والثاني: «جلاء العينين في المحاكمة بين الأحمدين» للشيخ خير الدين أبي البركات نعمان بن محمود الآلوسي (ـ ١٣١٧هـ). وفيه مقارنة بين آراء أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، وأحمد بن حجر الهيتمي (ـ ٩٧٤هـ) ودافع فيه عن شيخ الإسلام وبيّن وهاء آراء ابن حجر الهيتمي.

وكذلك نشر مختصرات عدة رسائل لشيخ الإسلام وفتاواه في اللغة الفارسية الرائجة في الهند آنذاك. ووقف مطابعه ومدارسه لنشر معارفه ومعارف الأئمة السلفيين الآخرين.

وأما ما قام به من الأعمال الجليلة لنشر السنّة والدفاع عن السلفية فيتلخص في الأمور التالية:

ـ شكّل مجلسًا علميًّا جمع فيه نخبة من العلماء البارزين الذين ملأوا القارة الهندية نورًا وعلمًا.

ـ وعيَّن علماء سلفيين محققين على نفقته للدفاع عن عقيدة السلف الصالح وعن السنّة الصحيحة، والرد على البدع والمنكرات.

ـ وعيّن مكافآت شهرية وجوائز تشجيعية لمن يحفظ الأحاديث وشجعت هذه الخطة المباركة عدة علماء على حفظ دواوين السنّة.

ـ قام بإحياء علوم الكتاب والسنّة تصنيفًا وتأليفًا ونشرًا وتوزيعًا.

وكان له مندوبون في مصر وتركيا واليمن يبحثون له عن مخطوطات نادرة لينشر تراث السلف الصالح ويكون في متناول أيدي العلماء وطلبة العلم.

وجدير بالذكر هنا أن هؤلاء العلماء الذين نفذوا خططه كانوا كلهم إلا البعض، من تلامذة السيد محمد نذير حسين المحدث الدهلوي (١٢٢٠ ـ ١٣٢٠هـ) رحمه اللَّه تعالى.

فالعلامة السيد نذير حسين المحدث الدهلوي بعلمه الجم وتربيته الفذة، وعمله بالكتاب والسنة على منهج السلف وحبه للسنّة، والسيد صديق بن حسن بماله وجاهه وعلمه بذلا قصاري جهودهما لإحياء منهج السلف الصالح في الهند على غرار دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية، وحركته الإصلاحية السلفية».

وما يرى من ازدهار في حركة العمل بالسنّة في شبه القارة الهندية، يرجع فضله ـ بعد اللَّه تعالى ـ إلى هذين العالمين الجليلين اللذين بارك اللَّه في أعمالهما في نشر السلفية تأليفًا وتدريسًا، ودعوة وتبليغًا.

● وصدق فيهما قول النبيّ ﷺ: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه اللَّه مالاً فسُلِّطَ على هلكته في الحق. ورجل آتاه اللَّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها»**[1].

وقد أوذي هذان الإمامان في سبيل الحق، ونشر الدعوة، والدفاع عن

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٥)، ومسلم (٨١٦) عن عبداللَّه بن مسعود.

منهج السلف في العقيدة والعمل كثيرًا.

وبدأ تيار العمل بالكتاب والسنّة يسري في صفوف العلماء الذين تأثروا بالسيد صديق بن حسن البوفالي والسيد نذير حسين المحدث الدهلوي حتى وصل السهول والجبال في شبه القارة الهندية.

وأخص بالذكر هنا أسرة علمية تتلمذت على السيد نذير حسين الدهلوي وغيّرت مجرى التأريخ فيطها، ألا وهي أسرة غزنوية وعلى رأسها الإمام عبداللَّه بن محمد الغزنوي ـ رحمه اللَّه ـ الذي اعتنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية اعتناء بالغًا.

□ قال ابنه عبدالجبار بن عبداللَّه الغزنوي (١٢٦٨ ـ ١٣٣١هـ):

«كان والدي الإمام عبداللَّه الغزنوي ـ رحمه اللَّه ـ راغبًا جدًّا في مؤلفات المحدثين المحققين، وخاصة في مصنفات شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، ودائمًا كان يبحث في كتبهما... وكان يفضلهما على أكثر الأئمة والعلماء، وكان يصغّر الشاه ولي اللَّه الدهلوي في مقابلهما...»[1].

□ وكان الشيخ عبداللَّه الغزنوي (تلميذ السيد نذير حسين الدهلوي) عاكفًا على العبادة والإفادة وانتهى إليه الورع وحسن السمت والتواضع والاشتغال بخاصة النفس، واتفق الناس على الثناء عليه والمدح بشمائله وصار المشار إليه في هذا الباب»[2].

وكان له ـ رحمه اللَّه ـ اثنا عشر ابنًا كلهم دعاة إلى اللَّه على منهج السلف الصالح. وكان من بينهم العلامة عبدالرحيم الغزنوي والعلامة

---

(١) «سيرة الإمام عبداللَّه الغزنوي» (ص٢٤).

(٢) «نزهة الخواطر» (٦/ ٣١١).

عبدالواحد الغزنوي يشتغلان بالتجارة ليستعينا بها على الطاعة والعبادة والدعوة. وكانا يجوبان الأقطار في هذا الشأن حتى وصلا إلى بعض البلدان العربية، وقدّر اللَّه أن حصل لهما اجتماع أثناء سفرهما إلى الكويت بالأمير عبدالرحمن بن الفيصل آل سعود (١٢٦٨ ـ ١٣٤٦هـ) وابنه المغامر عبدالعزيز ابن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود (١٢٩٧ ـ ١٣٧٣هـ) وتأثر الأميران بهما جداً ودرسًا عليهما بعض العلوم، وقامت بينهم علاقة ودية خالصة على أساس وحدة العقيدة والمنهج.

ولما استولى الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود على «الرياض» عاصمة نجد، وجه إليهما الدعوة للإقامة في الرياض فجاءا وبقيا خمس سنوات في نجد، واستفاد منهما في هذه المدة بعض الأشخاص من آل سعود وغيرهم من أهل نجد.

وهذه الإقامة في نجد فتحت لهما الطريق للحصول على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية التي كانا مجبولين على حبها من عهد والدهما عبداللَّه الغزنوي. ورجع هذان العالمان إلى الهند مع النسخ الخطية لبعض مؤلفات شيخ الإسلام فقاموا بطبعها وتلخيصها ونقلها إلى الأردية وتوزيعها في شبه القارة الهندية.

وبالإضافة إلى ذلك طبعوا عدة مؤلفات للإمام ابن قيم الجوزية، وكتبا في الدفاع عن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ودعوته، ومؤلفات أئمة الدعوة السلفية الآخرين. وبدأت الدعوة السلفية تشق طريقها إلى الأوساط المسلمة في الهند بجهود العلماء الغزنويين وغيرهم من تلامذة السيد نذير حسين الدهلوي ورفقاء السيد صديق حسن خان البوفالي.

* * *

* ابن تيمية الهند... إمام الهند أبو الكلام آزاد:

أما العبقري العظيم الذي ملأ أرض الهند بذكريات شيخ الإسلام ابن تيمية ووضع شخصيته أمام العلماء والمفكرين، والدعاة والمثقفين بأدب رائع رفيع، وأسلوب شائق جذاب، وطريقة معجزة مبتكرة فهو إمام الهند أبو الكلام محيي الدين أحمد الملقب بآزاد (أي الحر) (١٣٠٥ ـ ١٣٧٧هـ). وهو من سلالة علمية من آل البيت وكان أبوه خير الدين من كبار المتصوفة، ولكن اللَّه عزّ وجلّ أراد لابنه خيراً فانقلب على أبيه، ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنّة، ودافع عن عقيدة السلف، وعرف بإماماته في العلوم والمعارف، وذكائه المفرط، وعبقريته الفذة في فهم الدين والواقع، ونظرته الثاقبة في السياسة الحاضرة، وفراسته النافذة في أحداث المستقبل. ولا ريب أنه كان من أذكياء العصر.

❑ قال الأستاذ الأديب المؤرخ أبو سلمان الشاه جهانفوري: «... إذا كان يشبه أبو الكلام آزاد أحدًا في هذه الأمور فهو يشبه جامع المحاسن والفضائل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ.

ولذا قرّر الأديب الصحافي الخطيب شورش الكاشميري أن أبا الكلام آزاد نظير شيخ الإسلام، وهو ابن تيمية الهند»[1].

❑ كان أبو الكلام آزاد مع علمه الجم بالكتاب والسنّة سياسيًّا محنكًا ورائدًا من رواد تحرير الهند من براثن الاستعمار البريطاني. وكان الاستعمار يتوجس من كتاباته الرصينة الهادفة، ومحاضراته البليغة الآخذة خيفة لما كان فيها من الإثارة والتحميس للشعب، والمؤاخذة على حكم الإنجليز وسياسة الاستعمار.

---

(١) «حياة ابن تيمية» لأبي سلمان (ص٦ ـ ٧).

ولأجل هذا وذاك اعتقله الاستعمار الإنجليزي مرات. ولما اعتقله في (٣٠ مارس ١٩١٦م) بمدينة «رانشي» بقي هناك في المعتقل ثلاث سنوات ونصف السنة، واشتغل طوال هذه المدة بالعبادة والذكر، وبترجمة معاني القرآن الكريم وتفسيره، وبتأليف كتابه القيم المعروف بـ «التذكرة»، وذكر فيه تأريخ الأئمة المجددين والمصلحين البارزين، ونوّه فيه بصفة خاصة بسيرة إمام السنّة أحمد بن محمد بن حنبل، وشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية وركّز على سيرة شيخ الإسلام فكتب ما يقارب مائة صفحة كتابة في غاية الروعة، لا يوجد لها نظير ـ في نظري ـ في سيرته في أي لغة حتى في العربية.

وقال الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ غلام رسول مهر ـ رحمه اللَّه ـ: إن جريدة أبي الكلام آزاد المسماة «الهلال» الأسبوعية (الصادرة سنة ١٣٣٠هـ) لم تكن إلا انعكاسًا لمعارف ابن تيمية. ولا ريب أن كتاباته وخطبه وجهوده، وكذلك صحفه ومجلاته (الهلال، والبلاغ، وإقدام، والجامعة، وبيغام (الرسالة) جلها كانت شرحًا وتفصيلاً لمعارف شيخ الإسلام وآرائه، وجاء كتابه «التذكرة» ملخّصًا لكل هذه النفائس والدرر في صفحاته القلائل».

أرى من المناسب تعريب مقتطفات من كتابه «التذكرة» مع أن نقل أسلوبه الرصين، وعباراته البليغة إلى أي لغة أخرى من أصعب الأمور؛ لأنه كان أمير البيان وسلطان القلم، ولا يستطيع أن يوفي بحق تعريب كتاباته إلا رجل عبقري مثله.

وللإفادة إليكم آلآن بعض المقتطفات المعربة عن شيخ الإسلام من «التذكرة»:

ـ قال: «... فإن الفتن التي ظهرت عبر التأريخ الإسلامي في شأن العقيدة الإسلامية متفرقة في عصور مختلفة عادت مجتمعة في هذا العصر.

فنظرًا إلى هذا لا يشفي غليل هذا العصر إلا معارف ابن تيمية إلا أنها

تحتاج إلى شرح زائد، وتفصيل لما أجمله، وتوضيح لما أشار إليه، وضبط وتصنيف لما فرّقة ونشره»[١] .

ـ وقال: «... وحينما ظرت الروح الموافقة للدعوة العامة للأمة ولتجديد الشريعة وإحياء السنّة بعد موتها، وإخماد البدعة بعد شيوعها وارتفاعها، وتجسدت في شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رضي اللَّه عنه ـ الذي هو آية من آيات اللَّه وحجة قائمة من حجج اللَّه، وشيخ المصلحين، وملاذ المجددين، وسند الكاملين، وإمام العارفين، ووارث الأنبياء، وقدوة الأولياء، وسلمت إلى هذا المجدد العظيم رئاسة جميع مسالك الدعوة وسيادتها، والتجديد في العصر الأخير، وصار قطبًا لرحاها، ونقطة مركزية لدائرتها. فهل كان لا يوجد في هذا العصر عالم من علماء الحق سوى شيخ الإسلام؟.

... بل كان من بينهم كبار الحفاظ، وكبار الأئمة والمحققين والباحثين، وعباقرة المجتهدين والمفكرين الذين لن تلد الأمهات بعدهم مثلهم في العالم الإسلامي..

... فماذا تعتقدون في هؤلاء؟ هل يسع لأحد أن ينكر فضل هؤلاء النجباء الكرام وورعهم وتقواهم واتباعهم للحق...

... مع وجود هؤلاء الأئمة الأعلام وعباقرة الفنون في هذا العصر لم يحظ أي واحد منهم بالمكانة التي حظي بها شيخ الإسلام ابن تيمية في القيام بواجبات الدعوة والجهاد بكل شجاعة وعزم وصبر وتحمل للمشاق التي تقشعر الجلود من تصورّها. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قد خص به دون غيره، وهي حقيقة لامعة مثل الشمس، واضحة لكل صاحب عين مبصرة.

---

(١) «التذكرة» (١٧٩ ـ ١٨٠).

ولا شك أن هؤلاء الأعلام قاموا بأعمال جليلة في نواح معينة، ولكن شيخ الإسلام قد أتى بما كانوا يشتغلون به أحسن مما أتوا، وسبقهم فتركهم وراءه على مسافات بعيدة في عزم الدعوة، وتجديد معالم الدين، ورفع أعلام السنّة، وإخماد الشرور والبدع، وإبراز المعاني الخفية من الكتاب والسنّة، وكشف غوامض المعارف وأسرار الحكم النبوية وتفجير ينابيع الحكمة من اللسان والجنان، والجهاد في سبيل اللَّه بالسيف والقلم واللسان، ووقف وحيدًا على قمة العلوم الموهوبة، والأعمال الموفقة حيث تعي وتحسر أفكار أقرانه وأخيلة معاصريه في التفكر فيه، فاعترفوا جميعًا بلفظ واحد:

«ما رأينا مثله وإنه ما رأى مثل نفسه».

❑ وقال الحافظ الذهبي في معجم شيوخه بعد ما أعياه تحرير محاسن نادرة الأرض وأعجوبة الدهر هذا، ولم يصل إلى نهاية مدائحه فأمسك عنها وقال:

«وهو أكبر من أن ينبّه على سيرته مثلي. واللَّه لو حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت بعيني مثله وأنه ما رأى مثل نفسه لما حنثت.

❑ وكفاك بالذهبي شاهدًا:

تقي الدين أضحى بحر علم ... يجيب السائلين بلا قنوط
أحاط بكل علم فيه نفع ... فقل ما شئت في البحر المحيط[1]

ووقف أبو الكلام آزاد مع الدعوة السلفية التي جدد معالمها شيخ الإسلام، وبذل في سبيلها كل غال ونفيس، ودعم هذه الحركة العظيمة بكتبه ومقالاته وصفحه ومجلاته وتلامذته ومسترشديه.

ولما احتل أبو الكلام آزاد منصب نائب رئيس الوزراء في الحكومة

---

(١) من كتاب «التذكرة» لأبي الكلام آزاد ملخصًا.

الهندية، وصار أول وزير للمعارف فيها بعد استقلال الهند من حكم الاستعمار لم يغفل عن إحياء معارف ابن تيمية ونشر علومه وأفكاره.

ومن مآثره في هذه الفترة من الزمن مع زحمة الأشغال الرسمية أنه بذل جهده لطبع كتابين مهمين لشيخ الإسلام.

أحدهما: «الرد على المنطقيين»: قام بنشره الشيخ عبدالصمد شرف الدين في المطبعة القيمة في بمبائي سنة ١٣٦٨هـ بتعاون من أبي الكلام آزاد.

والثاني: «الصارم المسلول على شاتم الرسول». طبعته «دائرة المعارف العثمانية» بحيدر آباد.

ومن الجهود العظيمة التي لا تنسى وقوفه مع أهل الحديثة والسنّة والجماعة: السلفية في أنحاء العالم الإسلامي للدفاع عن الأعمال التي أنحرتها حكومة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود في الحجاز لتطهير مكة المكرمة والمدينة الطيبة، والطائف من آثار الشرك.

وبهذه المناسبة أصدر أبو الكلام آزاد مجلة «الجامعة» بالعربية للدفاع عن الموحدين في هذه القضية. وكتب مقالات علمية مدلّلة بالكتاب والسنّة لتعزيز موقفهم، ودحض آراء مخالفيهم، وأهمها مقالان:

الأول: الأمير ابن سعود والحرمان الشريفان ومسألة هدم القباب (يحتوي على ٢٣ صفحة).

والثاني: حكم المباني على المقابر، والفرق بين اتباع السنّة وعاطفة التشبه بعادات النبيّ ﷺ (يحتوي على ٧٦ صفحة).

وهذان المقالان ردّ مقنع لمن يحترم العلم والبرهان، وردّ مفحم للمكابر الذي ليس لديه حجة إلا التعصب والهوى. وما رأيت في قوة الاستدلال وبراعة الأسلوب نظيراً لهذين المقالين في موضوعهما.

واختار أبو الكلام آزاد موقفًا واضحًا من دعوة شيخ الإسلام تيمية وإحياء علومه ومعارفه. وتأثر بصراحته في هذا الأمر كثيرمن الأدباء والمفكرين والكتاب والمثقفين وعلى رأسهم:

- الكاتب الإسلامي والمؤرخ الكبير غلام رسول مهر - رحمه اللَّه - وقد ألّف رسالته «سيرة ابن تيمية» (طبعت ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م في ٦٦ صفحة) وهي تحتوي على مقدمة وسبعة أبواب مختصرة جامعة.

واعترف المؤلف بأن هذه الرسالة انعكاس لكتابات إمام الهند أبي الكلام أزاد في هذا الباب.

وكذلك كتب المؤلف المذكور مقدمة جامعة على كتاب «الإمام ابن تيمية» للدكتور غلام جيلاني برق الذي أعدّ لنيل شهادة «الدكتوراه» من جامعة «فنجاب». وزادت هذه المقدمة قيمة الكتاب في نظر القراء.

ولما عزم الشيخ محمد عطاء اللَّه حنيف الفوجياني - رحمه اللَّه - على إعداد الطبعة الأردية لكتاب «ابن تيمية: حياته وعصره وآراؤه وفقهه» لأبي زهرة، مع تعليقاته النفيسة وانتقاداته القوية، وقع نظره لتقديم هذه الطبعة الأردية على الأستاذ غلام رسول مهر - رحمه اللَّه - وذلك لكفاءته البالغة في أداء حق المقدمة على كتاب يتعلق بشيخ الإسلام - رحمه اللَّه -.

وقد كان أثار أبو زهرة في كتابه شبهات كثيرة حول دعوة شيخ الإسلام، وحركة الإمام محمد بن عبدالوهاب، وحكومة آل سعود. فأتاها الأستاذ غلام رسول مهر في هذه المقدمة من قواعدها، فدافع عن شيخ الإسلام بالأدلة والبراهين، وأعاد الحق إلى نصابه، وذكر حقائق تاريخية كذبت آراء أبي زهرة في دعوة ابن عبدالوهاب وحكومة آل سعود. وأعطى كلاً من الدولة العثمانية والدولة الشريفية والدولة السعودية حقها من الإنصاف. ولا يتسع المقام لذكر تحليلاته بهذا الشأن، ولي عودة إلى ذلك في

فرصة أخرى إن شاء اللَّه، ولكني أقول: إن الأستاذ غلام رسول مهر ـ رحمه اللَّه ـ كان موفّقًا في هذا البحث الذي لم يسبق إليه.

❑ قال العلاّمة محمد عبدالعزيز الخولي:

«ولا يوجد في الشعوب الإسلامية على كثرتها من وفي الحديث قسطه من العناية في هذا العصر، مثل إخواننا مسلمي الهند، أولئك الذين وجد بينهم حفّاظ للسنّة، ودارسون لها على نحو ما كانت تدرس في القرن الثالث، حرية في الفهم، ونظر في الأسانيد.

كما طبعوا كثيرًا من كتبها النفيسة التي كادت تذهب بها يد الإهمال، وتقضي عليها غير الزمان.

وإن أساس تلك النهضة في البلاد الهندية أفذاذ أجلاء، تمخضت بهم العصور الحديثة، وانتهجوا في تحصيل العلوم نهج السلف، فنبه شأنهم وعلا أمرهم، وذاع صيتُهم. وتكونت جمعيات سلكت سبيلهم، وعملت على نشر مبادئهم فكان لها ذلك الأثر الصالح والسبق الواضح.

ومن أشهر هؤلاء الأعلام: ولي اللَّه الدهلوي صاحب التصانيف في اللغتين: العربية والفارسية، وأشهرها كتاب «حجة اللَّه البالغة». والسيد صديق حسن خان ملك بهوفال صاحب التصانيف الكثيرة أيضًا. . .

وفي الهند الآن طائفة كبيرة تهتدي السنّة في كل أمور الدين، ولا تقلّد أحدًا من الفقهاء ولا المتكلمين وهي طائفة المحدثين»[1] .

ولا ينسى فضل علماء الهند الآخرين كالأستاذ شبل النعماني:

ـ وأثنى العلامة محمد منير الدمشقي على حركة أهل الحديث في الهند فقال:

---

(١) «مفتاح السنة» للخولي.

«وهي نهضة عظيمة أثرت على باقي البلاد الإسلامية، فاقتدى بها غالب البلاد الإسلامية في طبع كتب الحديث والتفسير»[١].

ـ وقد اعترف بفضل حركة أهل الحديث الشيخ مناظر أحسن الكيلاني من تلامذة الشيخ محمد أنور الكشميري الحنفي، فقال:

«يُعْتَرَفُ أن اعتناء أحناف شبه القارة الهندية بالنبعين الأساسيين للدين (الكتاب والسنّة) فيه دخل كبير لحركة أهل الحديث، ورفض التقليد. . . وإن لم يترك عامة الناس التقليد إلا أنه قد تحطّم سحر التقليد الجامد، والاعتماد الأعمى»[٢].

فحركة أهل الحديث في الهند ثمرة لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وامتداد طيب لها ورحم اللَّه ابن تيمية حين يقول: «ومن المعلوم أن أهل الحديث والسنة أخص بالرسول وأتباعه، فلهم من فضل اللَّه وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم، وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم كما قال بعض السلف: «أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل.

□ وقال أيضًا:

«من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلّون به من صفات الكمال ويمتازون عنهم بما ليس عندهم. فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقًا أخرى مثل المعقول، والقياس، والرأي، والكلام، والنظر، والاستدلال، والمحاجة، والمجادلة، والمكاشفة، والمخاطبة، والوجد، والذوق، ونحو ذلك[٣].

---

(١) «نموذج من الأعمال الخيرية» للدمشقي (ص٤٦٨) ـ طبع المطبعة المنيرية.
(٢) «جهود مخلصة» (ص٧٥).
(٣) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٤/ ١٤٠).

وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها: فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياسًا، وأصوبهم رأيًا، وأسدّهم كلامًا، وأصحهم نظرًا، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمّهم فراسة، وأصدقهم إلهامًا، وأحدّهم بصرًا ومكاشفة، وأصوبهم سمعًا ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجدًا وذوقًا.

وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنّة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل».

* الشيخ رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني القرشي الهندي، وجهوده في مقاومة التنصير، وكتابه «إظهار الحق»:

وحين نتكلم عن التنصير في الهند، الذي مهد له الاستعمار الإنجليزي، وتحويل المساجد إلى الكنائس، وبناء ألف مدرسة تبشيرية كنيسية يدرس فيها خمسة وستون ألف طالب، ويتبع للكنائس معاهد متخصصة وكليات في «هوجلي» و«كلكتا» و«لاهور» و«غازي يور» و«كليكرة» تدار بأموال الوقف الإسلامي... نتكلم عن المنصر هنري مارتين، الذي وضع أساسًا قويًا للتنصير بترجمة الإنجيل إلى الفارسية والأردية... نأتي إلى خاتمة المطاف إلى المستشرق الأمريكي الكاثوليكي د. فندر، والذي تحول إلى البروتستانتية وأرسلته كنيسة إنجلترا رئيسًا للمنصرين في الهند.

تزعم فندر الحملة التنصيرية داخل الهند بإلقاء المواعظ والخطب في الاجتماعات العامة والمآتم والأفراح الإسلامية والهندوسية، والتهجم على العقائد غير النصرانية، والطعن في الإسلام، والتشكيك في القرآن الكريم وفي رسول الإسلام ﷺ، وتحدي علماء المسلمين علنًا.

وكان يوجه المنصرين إلى مختلف المديريات الهندية، ويدربهم على

إلقاء الخطب والمحاضرات. وألف عدة كتب للدعوة للنصرانية، أهمها وأخطرها «ميزان الحق»، بل هو أخطر كتب المنصرين على الإطلاق، وتلقى المنصرون والقساوسة هذا الكتاب بالقبول والتقدير، لشموله جميع الشبه والافتراءات، وكل ما يمكن أن يعترض به المنصرون والمستشرقون على دين الإسلام، بالإضافة.. لشموله جميع أوجه الرد والدفاع عن العقائد النصرانية، ونفدت له ثلاث طبعات متتالية في الهند بالإنجليزية والفارسية والأردية، وترجم فيما بعد للتركية والعربية. وهذا الكتاب هو الينبوع الذي منه يستقي المبشرون مطاعنهم في الإسلام، ويعد صاحبه به أخطر منصر دخل القارة الهندية. وقد عد. هوري زعزعة فندر لعقيدة المسلمين في الهند بترجمته كتابه «ميزان الحق» إلى اللغتين الفارسية والأردية، أعظم من عمل القس هنري مارتين بترجمته الإنجيل للفارسية والأردية، كما ورد في كتاب الغارة على العالم الإسلامي (ص٣١ ـ ٣٢)، وقد عد إبراهيم خليل أحمد ـ القسيس المصري الذي أسلم ـ في كتابه الاستشراق والتبشير (ص٦٤، ٦٢) أخطر أربعة كتب للمنصرين، وجعل أولها وأكثرها خطورة كتاب «ميزان الحق».

وكان لهذا الكتاب ردود فعل عنيفة، حصلت عند المسلمين إثر صدور هذا الكتاب؛ لانتشاره السريع، وسكوت كثير من العلماء عن الرد عليه فترةً من الزمن، بحيث خيف على ضعاف النفوس من الردة.

بل إن رام شندر الهندوسي الذي كان صديقًا لفندر وللشيخ رحمت اللَّه، وكان محبًا لفندر وكتبه، تجرأ أن يطلب من الشيخ رحمت اللَّه ـ وهو أستاذ الهند بلا منازع في الرد على النصارى ـ زيارة فندر لعله يهتدي إلى النصرانية!!

□ يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في مجلة البعث الإسلامي عدد ٩

سنة ١٣٩٩هـ (ص٥٥): «وقد استفحل أمر فندر ورأى أن الجو قد خلا له، فازداد جراءةً وتحديًا، ورأى الشيخ رحمت اللَّه أنه لا سبيل إلى الحد من نشط هؤلاء القسوس، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم القس فندر، وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين إلا مناظرة فندر في مجمع حافل، يحضره المسلمون والمواطنون والحكام الأوروبيون والنصارى والمنصرون، وكان فندر كثير الإدلال بكتابه ميزان الحق، فخوراً بتبجحاته، ويرى أنه ليس من السهل معارضته ونقضه من علماء المسلمين.

كل هذه الأسباب مجتمعةً، جعلت الحاجة ماسة للرد على هذا القسيس، مما حفز الشيخ رحمت اللَّه للدعوة إلى مناظرته علنًا حتى يعريه، ويفقده كل هذا الأثر في الأوساط الهندية.

فأرسل الشيخ رحمت اللَّه تسع رسائل إلى الدكتور القسيس فندر لترتيب أمور المناظرة العلنية بينهما، بدأت المراسلات بتاريخ ٢٣ آذار، وانتهت في ٨ نيسان سنة ١٨٥٤، ويظهر منها أن الشيخ رحمت اللَّه قد أشرب قلبه حب المناظرة، وكان يخشى عدم قبول فندر للمناظرة العلنية، فقد كان رسائل فندر إليه تحوي شروطًا صعبة لتثبيط همته، فقبلها، وتم الاتفاق بينهما على أن تكون المناظرة في خمسة موضوعات، هي: النسخ، والتحريف، وأُلوهية المسيح والتثليث، وإعجاز القرآن، ونبوة محمد ﷺ، وأن تكون المناظرة يومي الإثنين والثلاثاء ١١، ١٢ رجب سنة ١٢٧٠هـ و١١ نيسان سنة ١٨٥٤م في موضوعي النسخ، والتحريف، ومكان المناظرة في خان عبدالمسيح الذي كان مدرسة في السابق، وأن يكون القسيس فزنج مساعداً للقسيس فندر، وأن يكون الدكتور محمد وزير خان أبادي مساعداً للشيخ رحمت اللَّه، وكان محمد وزير خان قد درس الطب في لندن وتخرج عام ١٨٣٢م فأتقن اللغتين الإنجليزية واليونانية، واطلع على المسيحية في مصادرها

الأصلية، وعند عودته إلى الهند أحضر معه عددًا من الكتب الأصلية عن النصرانية وأقوال علمائها المحققين.

وتم انعقاد مجلس المناظرة العام في اليوم الأول ١١ رجب في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا، في حي عبدالمسيح ببلدة أكبر أباد، وقد توافد الناس لحضور المناظرة من المسلمين والمسيحيين والوثنيين، وكان على رأس الحضور أُمراء المسلمين والهندوس وحكام الإنجليز وأعيان البلدة والوجهاء وكبار الموظفين المدنيين والعسكريين، كما حضرها القضاة والعلماء المسلمون والقساوسة والمنصرون ومراسلوا الصحف، وقد زاد عدد الحضور في هذا اليوم على خمسمائة نفس، وتناقل الناس خبر المناظرة، فزاد عدد الحضور في اليوم الثاني على ألف نسمة من جميع الأطراف.

وقد أسفرت هذه المناظرة الكبرى عن:

تعرية فندر وكتاباته:

فقد استطاع الشيخ رحمت اللَّه بفضل اللَّه في هذه المناظرة أن يظهر فندر للناس على حقيقته، وتعرية كتاباته التي ملئت تبجحًا وتحدّيًا، فأظهر تناقضه في مواضع عديدة من كتبه، وأنه كان يكتب بغير علم، وقد تراجع فندر عن كتاباتٍ كتبها، ويكفي انتصارًا للشيخ، أنه أظهر للحاضرين ضآلة علم فندر، وتهربه عن الجواب بطرق شتى.

اعتراف القسيس فندر العلني وصاحبه بوقوع النسخ والتحريف في كتب العهدين: بسبعة مواضع أصلية، منها أكبر شاهدٍ لهم التثليث، وهو ما في رسالة يوحنا الأولى ٥/ ٧ ـ ٨، من أن الذين يشهدون في السماء ثلاثة، وهم واحد.

كما اعترفا بوجود أربعين ألفًا موضع سمياها سهو الكاتب أو اختلاف العبارة، مع عدم القدرة على تعيين الصادقة جزمًا، وقدما القول بأن

اختلافات العبارة أربعون ألفًا، على القول القائل بأنها مائة ألف وخمسون ألفًا، وهي ما يطلق المسلمون عليه اسم التحريف النافي لبقاء إلهامية كتب العهدين.

فلما ظهرت الغلبة لرحمت اللّٰه في مسألتي النسخ والتحريف، ورأى ذلك صاحب الميزان «فندر»، وسد باب المناظرة، ووقع في عرض الشيخ ونفسه، ولعل القسيس «فندر» خشي أن يظهر المزيد من مثالب كتاباته، وخاصة مسألتي الألوهية والنبوة، بل لعله خشي أن يهتدي إلى اللّٰه وإلى الدين الحق، بعد أن يثبت له الشيخ بطلان عقيدة ألوهية المسيح وثبوت نبوة محمد ﷺ، على ما كان مشروطًا من دخول المغلوب في دين الغالب منهما.

وبعد هزيمة فندر في المناظرة، وجره العار الكبير والخزي على الكنيسة، لم يستطع البقاء في الهند، وسافر إلى ألمانيا وسويسرا وبريطانيا، ثم اختارته الكنيسة منصرًا في مقر الخلافة الإسلامية في القسطنطينية فسافر إليها سنة ١٨٥٨م.

وقد اتصل فندر بالسلطان عبدالعزيز خان، وزور أخبار المناظرة، وزعم أن الغلبة فيها كانت له، ثم دعا مسلمي تركيا إلى الاقتداء بإخوانهم مسلمي الهند، حيث زعم أنهم تحولوا إلى النصرانية، وأن المساجد أصبحت كنائس، وأخذ يتجول في أرجاء تركيا يشيع أخبار هذه المناظرة بطريقته الخاصة، معتمدًا على الكذب وتزوير الحقائق؛ لرفع مكانته وستر فضائحه.

ولكن السلطان عبدالعزيز خان أُصيب بغمٍّ شديد لسماعه أخبار فندر، وخشي أن تؤثر هذه الإشاعات على أبناء المسلمين، وقد علم من الحجاج الأتراك أن الشيخ رحمته اللّٰه موجود في مكة المكرمة ـ بعد مصادرة الإنجليزية لأمواله، وجعلوا مكافأة ألف روبية لمن يدلهم على الشيخ رحمت اللّٰه،

وحظروا بيع كتبه وطبعها، فاضطر للهجرة متخفيًا حتى وصل إلى مكة سنة ١٨٦٢م - فعجل السلطان عبدالعزيز بالأمر إلى أمير مكة الشريف عبدالله بن عون، بإرسال الشيخ رحمت الله إلى دار الخلافة؛ ليناظر فندر في تركيا.

ولما حل الشيخ ضيفًا رسميًا في قصر الخلافة، وسمع فندر بذلك فر هاربًا من تركيا.

وقد أوعز السلطان العثماني بترحيل المنصرين عن تركيا، وحظر نشاطهم، ومصادرة كتبهم ومنع انتشارها.

ولمَّا سمع السلطان عبدالعزيز العلماء والوزراء وكبار رجال الدولة، طلب من الشيخ أن يقص خبر المناظرة، فلما استبان للسلطان طول باع الشيخ في هذه الموضوعات، وتمكنه منها، طلب منه تأليف كتاب باللغة العربية يضم مسائل المناظرة الخمس، فعقد الشيخ العزم على تأليف كتاب يكون سدًا منيعًا في وجه المنصرين، فألف كتابه «إظهار الحق» ليكون مرجعًا لطلاب العلم والباحثين عن الحق والمتخصِّصين في هذا الفن.

ولو كان فندر يعلم أن مجيئه إلى تركيا وكذبه على السلطان عبدالعزيز خان، وتزويره أخبار المناظرة، سيكون سببًا في تأليف هذا الكتاب، لفضل البقاء في بلاده، أو قطع لسانه، كي لا يخرج هذا السفر الجليل إلى عالم الوجود، فأي دارسٍ لعلم مقارنة الأديان والرد على العقائد الباطلة، وأي طالب للرد على المنصرين والمستشرقين، وأي باحث عن الحق بخصوص كتب أهل الكتاب وعقائدهم، ولا يطلع على «إظهار الحق»، يكون قد فاته من هذا العالم زبدته، ولن ينال مادته في أي كتاب آخر.

فهو كتاب في فنه آية، وليس وراءه لمبتغي الزيادة غاية.

أظهرت أنواره أسراره ... كم جلتْ أقمارُه ليلَ ارتيابْ
نِعْم مبناه رياضٌ أثمرتْ ... دُرُّ معناه لمن يدري الخطابْ
كلّ غاوٍ لو رآه مُنصفًا ... من ظلام الكفر بالإيمان طابْ

وقد طبع الكتاب أكثر من عشر طبعات بالعربية، وأمر السلطان العثماني عبدالحميد خان بترجمته وطباعته وتوزيعه في العالم الإسلامي، وترجم إلى تسع لغاتٍ أجنبية، منها: الألمانية والفرنسية والإنجليزية، وترجم إلى التركية. وغاظ النصارى صدور هذا الكتاب، فأخذوا يشترون الكتاب من الأسواق بجميع ترجماته وطبعاته، ويجمعونها ثم يتلفونها بالحرق، قاصدين إعدام وجوده من الأسواق العالمية، ومنع وصوله إلى أيدي القراء عامة والنصارى خاصة، وقد علقت صحيفة اللندن تايمز على هذه العملية الحاقدة بقولها: «لو دام الناس يقرءون هذا الكتاب لوقف تقدم المسيحية في العالم».

*** مناظر الإسلام ومحامي المسلمين في القارة الهندية وبطل الإسلام العالم الرباني ثناء اللَّه الأمر تسري من أخزى اللَّه على يديه القادياني والقاديانية:**

❑ لما استفحل أمر القاديانية وعمّ دجلهم القارة الهندية على يد زعيمهم القمئ عميل الإنجليز، الكذاب الدجّال غلام أحمد القادياني وادعى أنه ابن اللَّه بل عين اللَّه وأن النبوة لم تختم بمحمد ﷺ بل هو نبي بعده، وادعى أن عقيدة الجهاد عقيدة نجسة، وأهان الأنبياء، وفضل نفسه عليهم فقال: «جاء أنبياء كثيرون؛ ولكن لم يتقدم أحد عليّ في معرفة اللَّه، وكل ما أعطى لجميع الأنبياء أعطيت أنا وحدي بأكمله»[1]. وفضل نفسه على آدم فقال: صار آدم ذليلاً مصغرًا، ثم خلقني اللَّه لكي أهزم الشيطان».

❑ وفضّل نفسه على نبي اللَّه نوح فيقول: «إن اللَّه أنزل لصدق دعواي آيات وبينات بهذه الكثرة، لو أُنزلت على نوح لم يغرق أحد من قومه»[2].

❑ وفضل نفسه على نبي اللَّه يوسف فقال: «إن يوسف هذه الأمة ـ

(١) «در ثمين» للقادياني (ص٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) «ما الفرق في آدم والمسيح الموعود» للقادياني.

يعني أنا العاجز الحقير - أفضل من يوسف بني إسرائيل؛ لأن اللَّه شهد لبراءتي بنفسه، وبآيات كثيرة، حينما احتاج يوسف بن يعقوب لبراءته إلى شهادة الناس»[1] .

▫ وتطاول على نبي اللَّه ورسوله محمد ﷺ فقال: «إن النبي له ثلاثة آلاف معجزة، ولكن معجزاتي زادت على مليون معجزة»[2] .

ويقذف الأنبياء فيقول هذا الفاجر: «أنا أرى بأن المسيح ما كان يتنزه عن شرب الخمر»[3] .

▫ ويقول هذا الكافر للقاضي يار محمد القادياني: «إنه رأى نفسه كأنه امرأة، وإن اللَّه أظهر فيه قوته الرجولية»[4] .

ولقد نازل العلماء غلام أحمد القادياني الدجّال، وأفتوا بالإجماع بكفره ودجله، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ الجليل العلامة ثناء اللَّه الأمر تسري؛ مناظر الإسلام، ومحامي المسلمين في القارة الهندية، فقد جرى بينه وبين الغلام القادياني عدة مناظرات، ومناقشات تحريرة، وتقريرية، ودومًا كان الانتصار حليفًا لرجل إلهي[5] ، وبطل الإسلام، فاستشاط من ذلك المتنبي القادياني غضبًا، وأصدر نشرة سنة ١٩٠٧م، وبتاريخ ١٥ إبريل بالضبط، وكتب فيها ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم، يسئلونك أحق هو قل إي وربي إنه

---

(١) «براهين أحمدية» للقادياني.
(٢) «تذكرة الشهادتين» للغلام (ص٤١).
(٣) «ريويو» (١/ ١٢٣)، ١٩٠٢م.
(٤) «ضحية الإسلام» ليار محمد (ص٣٤).
(٥) «هكذا سماه العلامة الشيخ رشيد رضا في مجلته المنار.

لحق إلى خدمة الأستاذ ثناء اللَّه.

السلام على من اتبع اللَّه، من زمان وأنا أُكذَّب وأُفَسَّق في مجلتكم «أهل حديث»، ودائمًا تسمونني في مجلتكم هذه ملعونًا كذّابًا، ودجّالاً مفسدًا، وتشهرني في العالم بأني مفتري كذاب دجال، وأفترى في دعواي المسيحية، فأنا تأذيت منك كثيرًا وصبرت، ولكني لما رأيت نفسي بأني مأمور لنشر الحق، وأنت تمنع العالم من التوجه إليّ بسبب افتراءاتك عليّ إنْ أنا كذّاب ومفتري؛ كما تذكرني في مجلتك؛ فأهلك في حياتك؛ لأني أعلم أن عمر الكذاب والمفسد لا يكون طويلاً؛ بل هو يموت خائبًا في حياة أشد أعدائه بالذلة والهوان، وتكون في موته منفعة لعباد اللَّه؛ حيث لا يضلهم، فإن لم أكن كذابًا ومفتريًا، بل أكون متشرفًا بمخاطبة اللَّه والمكالمة معه، وأكون مسيحًا موعودًا؛ فأدعو اللَّه أن لا تنجو من عاقبة المكذبين، حسب سنة اللَّه فأُعلن: إن لم تمت أنت في حياتي بعقاب اللَّه، الذي يكون من عند اللَّه محضًا، مثل أن يموت بمرض الطاعون أو الكوليرا، فلن أكون مرسلاً من اللَّه تعالى، وهذا لا أقول بنودة، بل طلبت القضاء من اللَّه تبارك وتعالى، وأدعو اللَّه؛ يا مولاي البصير القدير، العليم الخبير، يا عالم أسرار القلوب؛ إنْ أنا كاذب ومفسد في نظرك، وأفترى عليك ليلاً ونهارًا يا اللَّه، فأهلكني في حياة الأستاذ ثناء اللَّه، وسرّه وجماعته بموتي آمين.

ويا اللَّه أنا صادق، وثناء اللَّه على باطل، وكذّاب في التهم التي يلصقها بي، فأهلكه ـ يا رب العالمين ـ في حياتي بالأمراض المهلكة؛ مثل الطاعون أو الكوليرا أو غيره من الأمراض، آمين. يا رب أنا أوذيت وصبرت، ولكني أرى الآن أنه قد تجاوز الحدّ، وأنه يظنني أفسق من السارقين والغاصبين الذين يضرون العالم، ويحسبني أرذل خلق اللَّه، وقد شهرني في البلاد النائية بأني في الحقيقة مفسد، ونهّاب وطماع، وكذاب ومفتري،

وخبيث، وإن لم يكن لهذه الكلمات صدًى، كنت صبرت عليه؛ ولكني أرى أن ثناء اللَّه يريد بهذه التهم أن يفنى دعوتي، ويهدم عمارتي التي بنيتها أنت يارب، ويا من أرسلتني، ولذا ألتجأ إليك يا أاللَّه، آخذًا بذيل رحمتك وتقدسك، فاقض بيني وبين ثناء اللَّه بالحق، وأهلك الكذاب والمفسد في حياة الصالح أو ابتليه في آفة؛ تكون مثل الموت، فافعل هكذا يا ربي الحبيب، آمين ثم آمين ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾.

وأخيرًا، أرجو من الأستاذ ثناء اللَّه أن ينشر هذه النشرة في مجلته، ثم يعلق عليها ما يشاء، فالقضاء الآن بيد اللَّه.

الراقم عبداللَّه الصمد غلام أحمد المسيح الموعود، عافاه اللَّه وأيده[(١)].

وبعد هذا الإعلان والدعاء بعشرة أيام، نشر الغلام القادياني في جريدة قاديانية: إن كل ما قيل من ثناء اللَّه ليس من عند أنفسنا، بل من قبل اللَّه، كما ألهمت الليلة عن الدعاء الذي دعوته ﴿ **أجيب دعوة الداع** ﴾، ومعنى هذا الإلهام أن دعوتي قد قُبلت»[(٢)].

وفعلاً قُبلت دعوته هذه، وقُضي بينه وبين ثناء اللَّه بالحق؛ فبعد ثلاثة عشر شهرًا وعشرة أيام بالضبط جاءه قضاء اللَّه وقدره، بصورة بشعة؛ كان يتمناها للشيخ الجليل ثناء اللَّه، نعم بنفس الصورة، وبنفس المرض الذي نصّ عليه هو! بالكوليرا.

مات غلام أحمد في العاشرة والنصف صباحًا بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨م، وبقي ثناء اللَّه حيًّا بعد موته قريبًا من أربعين سنة يهدم بنيان القاديانية ويقمع جذورهم»[(٣)].

---

(١) «إعلان الغلام القادياني» المنشور بتاريخ (١٥/ ٤/ ١٩٠٧م، «المندرج في تبليغ رسالت» (١٠/ ١٢٠) مجموعة إعلانات الغلام المرتبة من قاسم القادياني.

(٢) جريدة بدر القاديانية الصادرة في ٢٥/ ٤/ ١٩٠٧م.

(٣) كتاب «القاديانية» لإحسان إلهي ظهير.

*** القاضي الفاضل عبدالرحيم البيْساني يوّجه صلاح الدين ويصرف همّه لفتح بيت المقدس:**

القاضي الفاضل عبدالرحيم البيْساني وزير صلاح الدين وكاتبه وقاضيه.. ومن جعله اللَّه سببًا في أن يصرف صلاح الدين همّه لفتح بيت المقدس وقتال الفرنجة.

مرض صلاح الدين مرضًا شديدًا فوجهه القاضي الفاضل أن ينذر إن شفاه اللَّه تعالى أن يوجه همه كله لفتح بيت المقدس، ووفى صلاح الدين بنذره.

❑ قال عنه صلاح الدين الأيوبي: «واللَّه ما أخذت البلاد بالعساكر، بل برسائل القاضي الفاضل». ذلك هو وسام صلاح الدين يكرِّم به كاتبه، ويُظهر أثر الكلمة الطيبة الهادفة في إصلاح شئون الأمة ونفي الخبث عنها، وتوحيد صفوفها، ورفعها إلى مستوى معركة المصير، التي أحسن صلاح الدين الإعداد لها حتى استرد بيت المقدس»[(١)] .

❑ قال عنه ابن كثير: «لم يكن له في زمانه نظير، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مثيل، ولما استقرّ الملك صلاح الدين بمصر جعله كاتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسه، وكان أعز عليه من أهله وأولاده، وتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلاد، هذا بُحسامه وسِنانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه.

كان يواظب كل يوم وليلة على ختمة كاملة، مع ما يزيد عليها من نافلة، طاهر القلب، وله أوقاف على تخليص الأسارى من أيدي النصارى، وقد اقتنى من الكتب نحوًا من مائة ألف كتاب، وهذا شيء لم يفرح به أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك»[(٢)] .

---

(١) مجلة الأدب الأسلامي العدد الثامن (ص١).

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/ ٢٧ ـ ٢٨).

□ قال عنه العماد الكاتب: «لم يُبقِ في مدة حياته عملاً صالحًا إلا وقدّمه، ولا عهدًا في الجنة إلا أحكمه، ولا عقدًا في البر إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب وأوقافه على سبل الخيرات، متجاوزة عن الحسنات، لا سيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين، إلى يوم الحساب. كان رحمه اللَّه للحقوق ماضيًا، وفي الحقائق ماضيًا، سلطانه مطاع والسلطان له مطيع وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع.

هو واحد الزمان، قد خصه اللَّه بالمكانة والإمكان، والسلطان ـ رحمه اللَّه ـ من مفتتحاته فتوحه، ومختتماتها ومبادئ أمور دولته وغاياتها. ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرابه وآرائه، ومقاليد غناه ونائه... وكانت كتابته كتائب النصر، ويراعته رائعة الدهر، وبلاغته للدولة مجمِّلة، وللملكة مكمِّلة»[1].

*** الشيخ آق شمس الدين الرومي الفاتح المعنوي للقسطنطينية يوجه السلطان محمد الفاتح لفتح القسطنطينية ويحدد له موعد الفتح فيتم في نفس اليوم... ويقول محمد الفاتح: «ليس فرحي لفتح المدينة، إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني»:**

هو الشيخ الرباني محمد بن حمزة الدمشقي ثم الرومي المعروف بابن شمس الدين، ارتحل مع والده إلى الروم، وقرأ على علمائها حتى صار مدرسًا ببعض مدارسها، أصبح علمًا من أعلام الحضارة الإسلامية في عهدها العثماني:

«وهو معلم الفاتح ومربيه يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان مولده في دمشق عام ٧٩٢هـ (١٣٨٩م) حفظ القرآن الكريم وهو

(١) «عيون الروضتين وأخبار الدولتين» لأبي شامة (٢/٢٢٨ ـ ٢٣٠).

في السابعة من عمره، ودرس في أماسيا ثم في حلب، ثم في أنقره وتوفى عام ١٤٥٩م.

درّس الشيخ آق شمس الدين للأمير محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات العربية، والفارسية، والتركية، وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب، وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولّى إمارة مغنيسا ليتدرب على إدارة الولاية وأصول الحكم.

واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي «**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[1] .

وعندما أصبح الأمير محمد سلطانًا على الدولة العثمانية، وكان شابًا صغير السن وجهه شيخه فورًا إلى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي فحاصر العثمانيون القسطنطينية برًا وبحرًا، ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يومًا»[2] .

❑ قال الشوكاني عن الشيخ آق شمس الدين: «اشتهرت بركته وظهر فضله حتى أن السلطان محمد خان سلطان الروم لما أراد فتح القسطنطينية دعاه للجهاد فقال للسلطان سيدخل المسلمون القلعة في يوم كذا، فجاء ذلك الوقت الذي عيّنه لفتح القلعة فحصل مع بعض أصحابه فزع شديد من السلطان على الشيخ إذا لم يصح الخبر، فذهب إليه في تلك الحال فوجده في

---

(١) ضعيف: رواه أحمد في «مسنده»، والحاكم في «المستدرك» عن بشر الغنوي، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٤٦٥٨)، و«الضعيفة» رقم (٨٨٢).

(٢) «فاتح القسطنطينية محمد الفاتح» للدكتور علي محمد الصلابي (ص١٤١ ـ ١٤٢) دار الإيمان.

خيمته ساجدًا على التراب مكشوف الرأس وهو يتضرع ويبكي برفع رأسه وقام على رجليه وكبّر وقال: الحمد للَّه مُنحنا فتح القلعة. قال الراوي: فنظرت إلى القلعة فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففرح السلطان بذلك، وقال: ليس فرحي لفتح القلعة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني»[١].

هذه رواية الشوكاني في «البدر الطالع».. وفصّل غيره فقال:

«حاصر العثمانيون القسطنطينية برًا وبحرًا، ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يومًا. وعندما حقق البيزنطيون انتصارًا مؤقتًا وابتهج الشعب البيزنطي بدخول أربع سفن أرسلها السلطان محمد الفاتح وقالوا له: «إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جريًا وراء كلام أحد المشايخ ـ يقصدون آق شمس الدين ـ فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد، ثم زاد الأمر على هذا بأن عونًا من بلاد الإفرنج للكافرين دخل القلعة، ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح»[٢]، فأرسل السلطان محمد وزيره ولي الدين أحمد باشا إلى الشيخ آق شمس الدين في خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ: «لا بد من أن يمنّ اللَّه بالفتح»[٣]، ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر، فكتب هذه الرسالة إلى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها: «هو المعز الناصر.. إن حادث تلك السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة، وأحدث في الكفار الفرح والشماتة، إن القضية الثابتة هي: إن العبد يدبر واللَّه يقدر والحكم للَّه... ولقد لجأنا إلى اللَّه وتلونا القرآن الكريم وما هي إلا سنة من النوم جاءت بعدها ألطاف اللَّه تعالى فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبل»[٤].

---

(١) «البدر الطالع» (٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

(٢) «البطولة والفداء عند الصوفية» لأسعد الخطيب (ص١٤٦).

(٣) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» للدكتور محمد حرب (ص٣٧٣) ـ دار القلم دمشق.

(٤) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٣).

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة في الأمراء والجنود، وعلى الفور قرّر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينية، ثم توجه السلطان محمد إلى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده، وقال: علمني يا سيدي دعاءً أدعو اللَّه به ليوفقني، فعلمه الشيخ دعاء، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام»[١] .

أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا شيخه ساجدًا للَّه في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله الفتح القريب[٢] .

وعاد السلطان محمد «الفاتح» عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلي الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية[٣] .

وعندما تدفقت الجيوش العثمانية إلى المدينة بقوة وحماس، تقدم الشيخ إلى السلطان الفاتح ليذكره بشريعة اللَّه في الحرب وبحقوق الأمم المفتوحة كما هي في الشريعة الإسلامية[٤] .

---

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٣).

(٢، ٣، ٤) المصدر السابق (ص٣٧٤).

وبعد أن كرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا والعطايا وعمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائد «سيد القوم خادمهم»، ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم، فقال: يا جنود الإسلام، اعلموا واذكروا أن النبي ﷺ قال في شأنكم: «**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**»، ونسأل اللَّه سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا، ألا لا تسرفوا في ما أصابتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا وأنفقوها في البر والخير لأهل المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه، ثم التفت إلى الفاتح، وقال له: يا سلطاني، لقد أصبحت قرةَ عينِ آل عثمان، فكن على الدوام مجاهدًا في سبيل اللَّه، ثم صاح مكبرًا باللَّه في صوت جهوري جليد[1] .

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية إلى قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه بموضع قريب من سورة القسطنطينية»[2] .

ورأى الشيخ آق شمس الدين أبا أيوب الأنصاري منامًا وقال أبو أيوب له: شكر اللَّه سعيكم حيث خلّصتموني من ظلمة الكفر».

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا[3] .

*** الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور:**

كان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حبًا عظيمًا،

(١، ٢) «محمد الفاتح» للدكتور سالم الرشيدي (ص١٤٩) ـ الإرشاد ـ جدة.

(٣) المصدر السابق (ص١٤٩).

وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله ـ بعد الفتح ـ: «إنكم ترونني فرحًا، فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة، إنَّ فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين.

وعبر الفاتح عن تهيبه لشيخه في حديث له مع وزيره محمود باشا، قال السلطان الفاتح: «إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري، إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة[١] .

ذكر صاحب البدر الطالع أن: «... ثم بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة صاحب الترجمة ـ أي آق شمس الدين»، وهو مضطجع فلم يقم له فقبَّل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة، قال: وما هي؟ قال: أدخل الخلوة عندك، فأبي فألح عليه السلطان مرارًا وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال إنه يأتي إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة، وأنا تأبى عليّ، فقال الشيخ؟ إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت اللَّه علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا وكذا، وذكر له الشيخ من النصائح ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل، ولما خرج السلطان محمدخان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لي، فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلاطين العظام فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو...»[٢] .

هكذا كان هذا العالم الجليل الذي حرص على تربية محمد الفاتح على معاني الإيمان والإسلام والإحسان، ولم يكن هذا الشيخ متبحرًا في علوم الدين والتزكية فقط، بل كان عالمًا في النبات والطب والصيدلة، وكان مشهورًا في عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه في علم النبات ومدى مناسبتها

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٤).
(٢) «البدر الطالع» (٢/ ١٦٧).

للعلاج من الأمراض.

وبلغت شهرته في ذلك أن أصبح بين الناس يقول: «إن النبات ليحدث آق شمس الدين»[١].

□ قال الشوكاني عنه: «... وصار مع كونه طبيبًا للقلوب طبيبًا للأبدان فإنه اشتهر أن الشجرة كانت تناديه وتقول: **أنا شفاء من المرض الفلاني...**»[٢].

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية، واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتمامًا خاصًا بالأمراض المعدية، فقد كانت هذه الأمرض في عصره تتسبب في موت الآلاف، وألف في ذلك كتابًا بالتركية بعنوان «مادة الحياة» قال فيه: «من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائيًا، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى، هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رويتها بالعين المجردة؛ لأن هذا يحدث بواسطة بذور حيّة»[٣].

وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي، وهو أول من فعل ذلك، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل إلى نفس النتيجة.

واهتم الشيخ آق شمس الدين أيضًا بالسرطان وكتب عنه وفي الطب ألف الشيخ كتابين هما: «مادة الحياة»، و«كتاب الطب» وهما باللغة التركية والعثمانية، وللشيخ باللغة العربية سبع كتب هي [حل المشكلات، الرسالة

---

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٥).

(٢) «البدر الطالع» (٢/ ١٦٧).

(٣) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٦).

النورية، مقالات الأولياء، رسالة في ذكر اللَّه، تخليص المتائن، دفع المتائن، رسالة في شرح حاجي بايرام ولي][1] .

ومات الشيخ بموطنه كونيوك عام (٨٦٣هـ ـ ١٤٥٩م) ـ رحمه اللَّه ـ وأسكنه فسيح جناته وهذه سنة اللَّه في خلقه، لا يخرج قائد رباني مغوار إلا وحوله علماء ربانيون يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ويشحذون هممه لإعادة مجد الإسلام الغابر. . . تقبل اللَّه أعمالهم وأعلى ذكرهم فقد ملأوا الدنيا طيبًا من عبق طيبهم. . . عبقت منه الأرواح وعبق منه التاريخ.

لآلئ البيان في رجال من دولة آل عثمان

* شيخ الإسلام مصطفى صبري آخر شيوخ دولة الخلافة العثمانية المدافع عن الإسلام والخلافة:

ظهر الشيخ في أواخر عهد الدولة العثمانية، والدولة مقبلة على الانهيار، ودعاة التغريب في أوج قوّتهم. درس في مسقط رأسه (توقاد) الدراسة الابتدائية، ثم أخذ في حفظ القرآن الكريم، ومن ثم رحل إلى بلدة قيصرية، وكانت مركزًا للعلوم الدينية. وتلقّى دراسة العلوم العقلية والنقلية عن مدرِّسه الشيخ خوجة أمين أفندي. بعد ذلك انتقل إلى إستانبول حاضرة الخلافة الإسلامية.

وفي إستانبول شدّ الشيخ مصطفى صبري انتباه مشايخه بحدّة ذكائه وبقوّة حافظته وعمق تحصيله، وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره أصبح مدرسًا بجامع السلطان محمد الفاتح، وهو منصب مرموق يحتاج إلى جدّ واجتهاد وتحصيل طويل.

---

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٦).

ثم أصبح أمينًا لمكتبة السلطان عبدالحميد الثاني، وقد لفت انتباه السلطان عبدالحميد إليه بسعة اطّلاعه وبتميّزه وهو في سنّ شابّة بين رجال العلم الدينيين في إستانبول، عاصمة الخلافة ومقرّها.

* رحلة كفاح:

وفي عام ١٩٠٨م، مثل منطقته توقاد في مجلس المبعوثان العثماني للجهر بآرائه في هذا المجلس النيابي. وكان في هذه الفترة رئيسًا لتحرير مجلة «بيان الحق»، وهي مجلة إسلامية كانت تصدرها «الجمعية العلمية»، ثم أصبح عضوًا في دار الحكمة الإسلامية.

ودار الحكمة الإسلامية مؤسسة علمية إسلامية أُسست عام ١٩١٨م بأمر من السلطان محمد رشاد: بغية إيجاد حلول للمسائل الدينية التي تظهر في الدولة العثمانية أو أيّ مكان في العالم، كما تهدف إلى التّصدي بالإجابة على الهجوم الذي يتعرض له الإسلام، إجابة تنبع من أحكام الإسلام.

ثم عمل الشيخ مصطفى صبري أيضًا بالسياسة، ولم يكن للسياسة عنده إلا معنى واحدًا وهو جعل الشريعة الإسلامية أساسًا لإدارة الدولة.

وعندما أتت حكومة حزب الحريّة والائتلاف إلى الحكم عام ١٩١٩م، وتشكلت الحكومة برياسة الداماد فريد باشا، أصبح الشيخ مصطفى صبري أفندي شيخًا للإسلام (يلاحظ القارئ أن لقب أفندي لدى الأتراك يطلق على العلميين الدينيين).

وعندما سافر رئيس الوزارة إلى مؤتمر باريس، تولّى الشيخ النيابة عنه رئيسًا لمجلس الوزراء العثماني.

وفي العهد الثاني لهذه الوزارة (عام ١٩٢٠م) جاء الشيخ مصطفى صبري شيخًا للإسلام، لكنه اختلف مع الوزراء في الرأي، فترك مشيخة

الإسلام. ثم سعى إلى تأليف حزب جديد هو حزب الحريّة والائتلاف المعتدل.

إن استقالته هذه كانت بدء مرحلة كفاح أوسع من حياته المليئة بالكفاح، فقد كان الشيخ مصطفى صبري كما يقول صادق آل بايراق: «كان ينادي بالشريعة ويريد إحلال كلام اللَّه محل الحكم في المجتمع» وكان يدافع عن هذا طوال حياته في بلاده وفي مهجره. كان يناضل بمفهومه ضد كل مختلف التيارات الفكرية.

*** التحدي والتصدي:**

ولم يكن بجوار الشيخ مصطفى صبري كادر من الإسلاميين كاف؛ ليتحمل الدفاع عن المفهوم الإسلامي في الحكم، وينادي به ويعممه مع الشيخ.

تصدّى الشيخ مصطفى صبري لكل المفكرين والمسئولين الذين أنجبتهم حركة التنظيمات العثمانية، ومن ثم حركة حزب الاتحاد والترقي؛ التي كانت ترى في الإسلام عقبة كئوداً ضد التطور وضدّ حركة التغريب الشاملة للدولة العثمانية. لذلك عاداه أنصار التغريب، وهم كثرة في موقع السلطة. كان السبب في هذا العداء السافر الذي أظهره المتغربون ضد الشيخ، أن الشيخ مصطفى صبري أفندي كان يجاهر بآرائه داعيًا لفكره عمليًّا، ينادي به بكل فرصة وفي كل وقت، أمّا الآخرون من الإسلاميين فلم يكونوا قادرين على التصدّي والجهر بالدعوة ـ بكل هذا الوضوح الذي فعله الشيخ ـ لفكرتهم الإسلامية؛ ولأن الفكر الذي طرحه شيخ الإسلام مصطفى صبري والنضال السياسي الذي قام به، لم يكن قد شوهد بين المسلمين لسنوات طوال سبقته.

تصدّى شيخ الإسلام مصطفى صبري لدعاة الوقيعة بين العرب وبين الأتراك، وتصدّى للدفاع عن مفهوم الإسلام في الحكم، وفي الحياة، كما

وقف وقفة رجل، ووقفه عالم، لمن أرادوا تشويه التاريخ الإسلامي. وتصدّى أيضًا لحملة واسعة شنّها دعاة الفكر الغربي عندما نادوا بخروج المرأة وسفورها. ولم يسلم من حملاته أولئك الذين تسموا باسم «المسلمون الجدد»، وأجاب في كتابه «المجددون الدينيون» على كل آرائهم.

◘ كان يتناول كل حركة (ما لم تمسّ بالإسلام الصحيح)، وكان يتحول إلى مهاجم صعب؛ إذا ما تصرف أحد من معاصريه ضد هذا الذي يؤمن به، يقول الشيخ:

«مع رغبتي المخلصة في أن يصعد المسلمون إلى وجه عالم سعيد، ومع ذلك فإني ألعن الذين يضغطون على ديننا صاعدين إلى عالم عالٍ يمكننا الوصول إليه.

عندما نصعد إلى هذا العالم يجب علينا وفي نفس الوقت أن نمسك الإسلام في أيدينا نلصقه بها ونضعه على رءوسنا».

*** الرحيل والدعوة في اليونان:**

وفي عام ١٩٢٢م أجبر الشيخ مصطفى صبري على مغادرة بلاده، فهاجر إلى اليونان، حيث جمع المسلمين الأتراك في منطقة (تراقيا) الغربية ووحّدهم، وأصدر هناك جريدة تركية بالحروف العربية سمّاها «يارين» أي الغد، تفاؤلاً بغد إسلامي مشرق. وأخذ الشيخ من خلال هذه الجريدة في نقد حركة التغريب في العالم الإسلامي، ونقد المجتمع التركي، ونقد النظام الكمالي في تركيا الذي عُرف باسم الحركة الكمالية، نسبة إلى مصطفى أتاتورك، وأخذ يحلل المصائب التي حلت بالعالم الإسلامي، وعلى رأسه الدولة العثمانية من جراء اتباع حركة التغريب.

إن في جريدة «يارين» مادة خصبة لدراسة وجهة النظر المعارضة

للكمالية من مقالات وتحليلات ودراسات وفكر وأدب.

◘ ثم سافر الشيخ إلى مصر، ثم الحجاز، ثم مصر مرّة أخرى، حيث استقر في القاهرة. وفي العاصمة المصرية أخذ الشيخ ينادي بأفكاره، بالعودة إلى العمل بالشريعة الإسلامية، ويفصل القول في مضار العلمانية. لذلك لم يترك له دعاة الفكر الغربي في مصر وقتًا للراحة. وعندما كان العلمانيون في مصر يصفقون لأتاتورك ولانقلاباته في تركيا قال الشيخ مصطفى صبري:

«إن الفصل بين الحكومة وبين الخلافة، يجرّد الحكومة من كونها حكومة إسلامية. وهذا معناه أيضًا أنّ الحكومة التركية قد خرجت على دينها. إن الاتحاديين ومن أعقبهم قد عملوا كثيرًا على نشر الإلحاد بين الأتراك. وقد كان هذا الطريق، هو أقصر الطرق إلى الوصول إلى غاياتهم».

◘ كان الشيخ مصطفى صبري في نظر الكماليين مجرمًا؛ أوردوه ضمن قائمة الـ ١٥٠ شخصًا غير المرغوب فيهم، لكنه في نظر الإسلاميين الأتراك بطلاً ورغم أن قرارًا بالعفو عن قرار الـ ١٥٠ شخصًا قد صدر من بعد، إلا أن الشيخ لم يُحبب العودة وبقي في مصر إلى أن توفي في القاهرة عام ١٩٥٤. توفى شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي بعد حياة حافلة بالدفاع عن الفكرة الإسلامية في الحكم والحياة، ولم يعرف المؤرخون عنه أنه خشي إنسانًا، وقد قال كل آرائه رغم كل الظروف الصعبة التي مرّ بها هو وأسرته في وطنه أو في مهجره. مات بعد أن قال لا، لكل المسئولين والكتاب والرأي العام الذي كان مخالفًا له وقتها.

*** فكر إيجابي:**

يمكن إيجاز فكر شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في ثلاثة نقاط:

١ ـ استنهاض الأمة الإسلامية لإزالة كل مظاهر العلمانية والتغريب الحضاري والخلقي.

٢ ـ التمسك بطريق أهل السنّة والجماعة.

٣ ـ إعادة الخلافة الإسلامية.

أما أعماله فعشرة مؤلفات باللغتين العربية والتركية، أشهرها: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»، باللغة العربية، وصدر في القاهرة في أربعة أجزاء عام ١٩٥٠، نشرتها دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة. و«المجدّدون في الإسلام»، باللغة التركية. وصدرت منه طبعة بالحروف اللاتينية أخيرًا بعنوان «ديني مجددلر»، عن دار سبيل للنشر، بإستانبول.

*** موقفه من المؤرخ العربي محمد عبدالله عنان في اتهاماته لتاريخ آل عثمان:**

❑ قال شيخ الإسلام مصطفى صبري:

«كان ظني عند مغادرتي تركيا مهاجرًا إلى بلاد العرب؛ التي جاء نور الإسلام إلينا منهم، أنّي أستريح من مجاهدة الملاحدة (يقصد الاتحاديين والكماليين). لكني وجدت الجو الثقافي بمصر أيضًا مسمومًا من تيار الغرب فشقّ هذا على نفسي أكثر مما شقّ عليَّ موقف تركيا الجديدة (يقصد تركيا عقب الانقلاب الكمالي) من ذلك التيار. كما شقّ عليَّ وقوفي على أنّ إخواني العرب يفضّلون تركيا هذه (أي الكمالية) على تركيا القديمة المسلمة (أي الدولة العثمانية)، فرأيتهم (يقصد المصريين المتغربين) توغّلوا في تقليد الغرب، وسابقوا الترك في الامتنان به. والانقلاب الثائر في تركيا (أي انقلاب أتاتورك) حصل عندهم (أي المصريين) في شكل هادئ، وعن طريق التأثير والتجديد في الأزهر... (موقف العقل ـ صدر عام ١٩٥٠م ـ ١/ ٢٣).

□ لم يستطع الشيخ سكوتًا على معارضي فكره الإسلامي، لذلك أخذ يفصح بالكتابة في الصحف والمجلات المصرية، وكذلك في كتبه عن موقفه تجاه المثقفين المصريين والعرب المتشبّعين بروح الغرب وثقافته، وتجاه الإلحاديين من العرب.

شيخ الإسلام مصطفى صبري ورده على محمد عبدالله عنان:

ومن هذه المواقف، موقفه من محمد عبدالله عنان. ومحمد عبدالله عنان من أبرز المؤرخين العرب؛ إن لم يكن أبرزهم وأوسعهم شهرة، وهو عالم عُرف بتخصّصه في التاريخ الأندلسي، لكن موقفه من التاريخ العثماني موقف غريب من مؤرّخ، ولا أقول من مؤرخ شرقي ومسلم. إن موقفه من التاريخ العثماني لا يعتمد على مصادر موثوقة، ونُقُوله فيه تعتمد على مصادر تنقصها الثقة، مثال عن ذلك محاضرته في ندوة ابن إياس. إنه مؤرخ لم يتعمّق تاريخ العثمانيين ولم يتقصّ المصادر الأولى في هذا التاريخ، معلوماته مغلوطة. رد كاتب هذه السطور[1] على معلومات وادعاءات محمد عبدالله عنان عن السلطان سليم الأول وكلها مغلوطة. فكاتب هذه السطور، فضلاً عن أنه متخصص في التاريخ العثماني في البلاد العربية؛ قد درس عهد سليم الأول من مصادره الأولى، ويقول: إنها تناقض محمد عبدالله عنان في هذا الصدد.

وفي مجلة (سدير) التركية (عدد أبريل ١٩٨٠م)، لقاء أجرته المجلة مع كاتب هذه السطور حول مشاكل فهم التاريخ العثماني، نقد كاتب هذه السطور في هذا اللقاء مشاكل فهم عنان لتاريخ العثمانيين. في فهم عنان الخاطئ الذي لا يعتمد على مصادر أولية موثوقة. كتب أيضًا الدكتور

---

(١) هو الدكتور محمد حرب مؤلف كتاب «العثمانيون في التاريخ والحضارة».

مصطفى فايدة؛ الأستاذ بكلية الإلهيات في إستانبـول مقالات علمية في حولية كلية الإلهيات حول ادعاءات محمد عبداللَّه عنان على التاريخ العثماني.

☐ نشر المؤرخ العربي محمد عبداللَّه عنان في مجلة الرسالة عام (١٩٤٠م) مقالة عنوانها: حرب منظمة يشنّها الكماليون على الإسلام، قال فيها: «وإذا كان الإسلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة، فكيف يحاول اليوم أن يعتزّ بهذه البقيّة الضئيلة من تركيا القديمة؟».

آذت هذه الجملة شيخ الإسلام، فقال: «إن عنان ليس مخلصًا في عدائه للكماليين، وإنما الأستاذ عنان ينضم بعدوانه لتركيا القديمة الإسلامية العثمانية، إلى تلك الوسائل المحشودة لخصومة الإسلام ويؤيد جديدها (أي تركيا الكمالية) الذي تظاهر (أي صارح) بمعاداته مع قديمها كما يؤيده الغرب الحاشد، وليس الأستاذ (يقصد بذلك عنانًا) صميميًا في هذه المعاداة، إنما هو جادّ في خصومة تركيا القديمة الإسلامية الشامخة؛ التي لا بدّ أن يكون من خاصمها من خصوم الإسلام». «موقف العقل» (ص٧٢ ـ ٧٣).

لا بدّ هنا من ملاحظة أن محمد عبداللَّه عنان يرى في الخطوات الأولى للثورة الكمالية مثل: إلغاء الخلافة، وحلّ الجماعات الدينية، والطرق الصوفية وفرض الثياب المدنية، وفرض لبس القبّعة، . . ما يثير الأذهان المستنيرة التي كانت تتتبَعُ جهود تركيا الجديدة في سبيل التجديد القومي والاجتماعي بمنتهى الإعجاب والعطف.

فزع شيخ الإسلام عندما وجد عنانًا العربي المسلم يعلي من شأن خطوات الانقلاب الكمالي تجاه الثقافة الإسلامية والدين، فأخذ الشيخ يجهز مقالة في الردّ على عنان، مدافعًا فيه عن الدولة العثمانية، ودور الأتراك في موكب الحضارة الإسلامية وفي مجاهدة أعداء المسلمين، فإذا بمقالة الشيخ

تطول حتى أصبحت كتابًا؛ نصفه الأول دفاع عن الدولة العثمانية، ونصفه الثاني دفاع عن الإسلام نفسه. ثم شغل الشيخ نفسه بالنصف الثاني من الكتاب، فإذا بهذا يكبر حتى صار كتابًا في أربعة أجزاء أسماه: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين».

ولا شك أن هذا الكتاب كسب وإثراء للفكر الإسلامي المعاصر.

☐ ينقل شيخ الإسلام مصطفى صبري أمثلة أُخرى لعداوة محمد عبدالله عنان للأتراك المسلمين: «إن مصر الإسلامية لم تعرف، رغم ما توالى عليها من عصور الاضطراب والفتنة، من الخطوب والمحن نكبة أعظم من الفتح العثماني، ولم تعرف حكمًا أقسى وأمرّ من حكم الدولة العثمانية ـ عنان، «مصر الإسلامية» (ص١٤٩)... ولبث سليم الأول في القاهرة ثمانية أشهر يذيق وجنده المصريين أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة...» «مصر الإسلامية» (ص١٦١).

* يردّ شيخ الإسلام على محمد عبدالله عنان ردودًا مختلفة، منها:

ـ إن محمد عبدالله عنان: «في قلبه مرض عدم التفريق بين المسلمين العرب واليهود، وعلى بصره غشاوة من معاداة آل عثمان... فلم يكن مقصود سليم من الفتح إلا توحيد مصر الإسلامية بتركيا الإسلامية»[1].

☐ إن عبدالرحمن عزام بك، وهو مصري وأمين الجامعة العربية ـ سابقًا ـ، قال عن العثمانيين في مقال بعنوان «آخر الخلفاء»، في الأهرام بتاريخ ٢٢/ ١/ ١٩٤٤م:

«لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكلها سجون أبدية يتوالد فيها

(١) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» للشيخ مصطفى صبري (ص٨٥).

الفلاحون للعبودية، فكسروا (أي العثمانيون) أغلال السجون وأقاموا مكانها صرح الحرية الفردية، فهم (أي العثمانيون) هم الذين قضوا على نظام الإقطاع والأرستقراطية ليحل محلّه نظام المواطن الحر والرغبة المتساوية الحقوق، فوصل في دولتهم الرقّ الشركسي والصقلبي وغيرُه إلى أكبر مقام في الدولة؛ كما وصل النابه من عامّة الناس حتى المجهول الأصل، إلى مقام الصدارة العظمى والقيادة العليا، وتعلّمت أوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القانون على الأحساب والأنساب والطوائف والملل والنحل. فترتب على ذلك تطور هائل في اتجاه الحرية والديمقراطية الغربية الحديثة. وكانت القرون الأولى لسيطرة آل عثمان عصوراً ذهبية شمل فيها الناس، الأمن والرخاء والسلام الروحي. ولم يكن فوز آل عثمان كما يظنّ بعض الناس، مستمداًّ من سيف وشجاعة، بل مما هو أعظم من السيف والشجاعة، احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان القانون والشرع، ولو كان الأمر كما يتصوره الذين ينخدعون بآثار دور الانحطاط من استخدام الطوائف، والغيرة بين العناصر، والبطش لتغطية الضعف، لاستحال أن يدوم ملك آل عثمان ستمائة سنة، منها مائتان لا يسندهم فيها إلا سيف مبتور. لقد رويت لي ـ أي لعبدالرحمن عزام، أمين الجامعة العربية سابقًا ـ في رحلاتي بالبلقان وملدافيا؛ أمثلة باقية في لغة العامة، من عدل آل عثمان بين بيوت الملك الذي طال أمره وتنوّعت رعاياه، وقد ثقلت كفّته بالخير والرحمة والمروءة والشرف».

◻ إن الأمير شكيب أرسلان امتدح العثمانيين في ديوانه، بقوله:

أحبّكم حبّ مَنْ يسعى لطيّته ... في طاعة العقل لا في طاعة الغضب

أحبّكم حبّ من يدري مواقفكم ... في خدمة الدين والإسلام من حقب

ومنذ تقلدتمو أمر الخلافة قد ... آويتمو بينها كل مغترب

❑ إن سليم الأول قد حارب مماليك مصر لأنهم انحازوا إلى إيران الصفوية الشيعية، العدو الأول لسليم الأول، والتي كان هدفها إسقاط حكم آل عثمان وتعميم الفكر الشيعي بالقوّة في الدولة العثمانية. وسليم الأول قد عرف بانحياز مماليك مصر إلى الشاه إسماعيل الصفوي ضده. وإن الباحث يجد في بعض معاهدات الدولة العثمانية مع الإيرانيين نصوصًا تفرض عليهم أن يكفّوا عن شتم سيدنا أبي بكر وعمر وسيدتنا عائشة «موقف العقل» (١/ ٨٥ ـ ٨٦).

❑ إن دجو فارا، وهو وزير روماني خضعت بلاده للسيادة العثمانية ومؤلف كتاب «مائة مشروع لتقسيم تركيا»، وكان ألّفه عقب الحرب العالمية الأولى، يقول:

«إنّ احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة من مزايا العثمانيين يدور عليها التاريخ كله»، و«كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضًا مستندة على شرع سماوي»، و«العداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين في الحرية الدينية التي يتمتع بها المسيحيون في السلطنة العثمانية».

❑ قول ريتشارد لوج، صاحب كتاب تاريخ أوروبا الحديث وتعريب محمد عبداللَّه عنان (١/ ٤٧): «إن سر نجاح الترك يرجع إلى استبسالهم في تضحية نفوسهم، وهي عاطفة الجهاد التي غرسها الإسلام في قلوبهم، وكذا يرجع بالأخص إلى حسن إدارتهم المدنية والحربية» «موقف العقل» (ص٩٠).

❑ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري في حاشية (ص١٠١) من «موقف العقل» ما نصّه: «وإني أقرأ على المسلمين المنهومين في أكل لحوم الدولة العثمانية الزائلة كالأستاذ عبداللَّه عنان وغيره، قول الحطيئة (الذي كان الأستاذ على عبدالرزاق بك باشا قرأه في غير محله على المسلمين الذين لا

يعجبهم أفعال مصطفى كمال في تركيا الجديدة، وذلك في مقالة له منشورة في الزمان الماضي):

أقـــلّوا عليهـــم لا أبــــا لأبيكـم   من اللوم أو سدوا الفراغ الذي سدوا»

☐ يختتم شيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقًا، الشيخ مصطفى صبري، والذي هاجر إلى مصر فصدمه فيها ميل العالم العربي إلى التغريب والبعد عن الأصالة، يختتم موقفه من المؤرخ العربي محمد عبداللَّه عنان، بقوله:

«أنا لا أقول: إن آل عثمان، حتى الأعاظم المشهورين منهم في تاريخ العالم، برآء من كل ما ينتقدونهم به، وإنما أردّ على من أنكر اعتزاز الإسلام بهم» «موقف العقل» (ص٩٠).

☐ بيان موقفه في عدم جواز فصل الدين عن السياسة، ورده على الدكتور محمد حسين هيكل الداعي إلى فصل الدين عن الدولة والمطالب بحذف عبارة أن الإسلام دين الدولة الرسمي من الدستور.

كانت قضية عدم جواز فصل الدين عن السياسة من أهمّ الأسس التي خصص لها مصطفى صبري أفندي، مكانًا كبيرًا في كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»، (طبع الكتاب في القاهرة عام ١٩٥٠م).

بدأ شيخ الإسلام مصطفى صبري في تبيان موقفه من هذه القضية، عندما كتب الدكتور هيكل باشا كتابه «حياة محمد»، وأسقط الدكتور هيكل باشا في مقدمته جميع ما في كتب الحديث فضلاً عن السيرة مثل صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه وموطأ مالك ومسند أحمد وغيرها من أحاديث معجزات نبينا ﷺ، من حيز الاعتداد والاعتماد.

ثم إن الدكتور هيكل باشا قد أتى في مقدمة كتاب «حياة محمد» على المبدأ الغربي المتعلّق بفصل الدين عن الدولة فصلاً واضحًا صريحًا. يقول الشيخ: «والدين في مصر وإن كان مفصولاً عن الدولة والحكومة إلى حدّ ما، لانقسام المحاكم فيها إلى شرعية وغير شرعية، ولعدم دخول شيخ الأزهر في هيئة الوزارة... لكن معاليه (يقصد هيكل باشا) يتمنى فصلاً أوضح وأصرح، بأن يحذف بتاتًا من الدستور كون دين الدولة الرسمي الإسلام، كما وقع في تركيا الحديثة، أو يجرد لفظه من كل معنى حقيقي كما فعلت الدول الأوروبية بدينها المسيحي الذي يبتدئ خطأ الخاطئين من قياس الإسلام عليه... وهذا الفصل الواضح الصريح الذي هو آمال المتعلمين العصريين، وآخر منال لهم من ديننا...» «موقف العقل» (ص١٦٢).

يعقّب شيخ الإسلام بعد ذلك بقوله: «وهنا أقول سلفًا وباختصار أن (هذا) معناه خروج حكومة المسلمين من ربقة الإسلام ورقابته عليها، وخروج الأمة أيضًا من ربقته اختيارها الحكومة الخارجة عن الإسلام حكومة لها، لا سيما الحكومة المستندة إلى البرلمان المستند إلى الأمة، فمثل الفصل في تلك الحكومات كمثل المناداة بالردة حكومة وأمّة».

* شيخ الإسلام والمجدّدون الديمقراطيون:

«وقد يقول المجددون الأكياس (يقصد العصريين): لا حاكم هناك ولا محكوم عليه (أي في الديمقراطية الحديثة) وإنما يرد بالفعل أن يكون الدين والحكومة مستقلين لا يتدخل أي منهما في شأن الآخر. لكني أعرف جيداً ويعرف الإسلام الذي هو أكيس منهم أنّ الجانب الذي يتولى السياسة والسلطة، لا بدّ أن يحكم على الذي تنازل عنهما (أي أن هناك حاكم ومحكوم)». «موقف العقل» (ص١٦٣).

«وبالنظر إلى أنّ بلاد الإسلام تطلق في عرف الشرع على بلاد تحكم

فيها قوانين الإسلام؛ وأن عزل الدين عن التدخل في أمور الدولة يخرج تلك البلاد من عداد بلاد الإسلام».

«وإن كانت المخالفة لمبدأ الفصل والعزل معدودة من الجمود المعيب عند معاليه (يقصد الدكتور هيكل باشا مؤلف كتاب حياة محمد)، فأنا أجمد الجامدين وأحمد الحامدين للَّه تعالى على جمودي هنا». «موقف العقل» (ص١٦٣).

* **مفهوم الخلافة في فكر الشيخ:**

الخلافة، كما يعرفها شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، هي «الخلافة التي هي بمعنى الخلافة عن رسول اللَّه ﷺ؛ عبارة عن التزام أحكام الشرع الإسلامي ممن يتولى الحكم على المسلمين؛ لأنه إنما يكون بهذه الطريق خليفة عن الرسول، وإلغاء الخلافة الذي هو إلغاء هذا الالتزام، لا بدّ وأن يترتب عليه فصل الدين عن الحكومة، وعزله (أي الدين) عن أن يكون ذا سلطة عليها، وقد حصل هذا الحال فعلاً في تركيا بعد إلغاء الخلافة، فخلفها حكومة لا دينية» «موقف العقل» (٤/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣).

* **تعريف الشيخ للجنسية الإسلامية:**

«إن الإسلام جنسية.. إن جنسيته فوق الجنسيات، ذلك أن أفضل الجنسيات ما يكون سببًا لتأسيس الوجدان المشترك بين أفراد الجنس. إذ بهذا الاشتراك فقط يحصل بينهم الاتحاد الحقيقي الذي هو الاتحاد الفكري. ومن هذا لم يفضل عليه الاتحاد القومي، لعدم كفايته في تأسيس الوجدان المشترك ولعدم قابليته للتوسع السريع، فكان الاتحاد في المذهب السياسي أو الاجتماعي أقوى منه؛ ويؤيده أن الرجل تراه ينحاز إلى جانب زملائه في الحزب السياسي والاجتماعي أكثر من انحيازه إلى إخوانه القوميين» «موقف

العقل» (٤/ ٣٣٢).

* **المفهوم الوطني والجنسية الدينية وسنّ القانون:**

☐ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري:

«الجنسية المعتنى بها اليوم من الأمم المتمدنة، هي الجنسية الوطنية المفسّرة بالاجتماع تحت قوانين مشتركة والاستفادة من حقوق متساوية، ولو كان المجتمعون تركبوا من أقوام مختلفة. فلا عبرة بالاختلاف القومي أمام الاشتراك في القانون الذي هو معنى الوطنية. وهذا القانون وإن كان المعتاد بل الملتزم عند الأمم المتمدنة العصرية أن يسنها المواطنون أنفسهم في برلمانهم، لكن الحصول على توحيد القلوب بهذا القانون غير مضمون كالحصول عليه بالقانون المأخوذ من الدين. بل الحصول على العدالة أيضًا غير مضمون بالقوانين الموضوعة عند البشر، وإن كان واضعها نفس الأمة التي تطبق عليها؛ لأن تلك القوانين لا تسنّ مطلقًا بإجماع آراء الأمة وإنما تسنّ بأكثر الآراء النسبية، فيكفيه أن يكون زائدًا على النصف ولو بواحد. وليس بمضمون ولا لازم أن يكون رأي هذا الأكثر حقًّا، بل يفضل خطأ الأكثر على صواب الأقل كما هو المعروف في الأسلوب البرلماني، فتكون العبرة بعدد الآراء لا بقوتها وأصالتها. وليس بمضمون أيضًا أن يكون هذا القدر من الكثرة حقيقيًا فهو صنعي على الأكثر؛ لأن النواب المجتمعين في البرلمان تدخل الشبهة في صحة نيابتهم عن الأمة بدخول أنواع الحيل في انتخاباتهم. وكل شيء في الأساليب المأخوذة من الغرب شكلي واعتباري لا حقيقي. فيقال مثلاً إن في البلاد حرية، لا سيما حرية القول والنقد، وهي محترمة غاية الاحترام، ثم يقال لكنها حريّة مقيّدة بالقانون، والقانون تضعه الحكومة مع الحزب الذي تستند إليه في البرلمان، فتكون حريّة على حساب أهوائهما، وتكون مضايقة للذين تحاولان مضايقتهم» «موقف» (٤/ ٣٣٣).

*** أكفل أشكال الحكم لإرضاء الشعوب والشريعة:**

«... لا تخلو البرلمانات من الميمنة والميسرة، ويكون الحكم لمن غلب... فظهر أن الحكم الجمهوري والديمقراطي الذي يعتبر أكفل أشكال الحكم لإرضاء الشعوب، لا يكفل توحيد أكثر القلوب فضلاً عن جميعها، ولا يخلو من محاباة بعض وضرار بعض. وقد أخذ به الغربيون لعدم وجود القانون الإلهي عندهم، بسبب عدم وجود علم الفقه المستنبط من كتابهم وسنة نبيّهم، ولا أصول فقه لديهم، ولو وجد لأخذوا به وآثروه طبعًا على القوانين البشرية. أو من ذا الذي لا يؤثر القانون الموضوع من قبل اللَّه على ما هو صنع الإنسان الظلوم الجهول؛ إلا أن يكون غير معتقد لدينه ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل اللَّه فأولئك هم الكافرون**﴾، ولم يقل كتاب اللَّه هذا القول لمجرد التشديد فيمن لم يحكم بما أنزل اللَّه، وإنما قاله تبيانًا قد تخفى على بعض الناس» «موقف» (٤/ ٣٣٤).

*** الفرق بين القانون البشري والقانون الإلهي:**

«... والقانون البشري نفسه، فضلاً عن تفسيره، لا يخلو على كل حال من أن يكون خديعة يخدع بها الناس بعضهم بعضًا، ويتخذها أداة العدالة فيما بينهم، عدالة تقسم إلى طبقتين: حاكمة، وواضعة القانون.. فهي عدالة مخلة بالمساواة، أما القانون الإلهي فالحاكم فيه هو اللَّه، والناس حتى السلطان سواء أمامه، غير محسين بثقل الحكم لكونه على السوية ولكونه من اللَّه الذي خلقهم» «موقف» (٤/ ٣٤٥).

*** من الذي يضغط لفصل الدين على الدولة؟**

«... إن الضغط على الدولة الإسلامية لكفها عن العمل بقوانين الشرع الإسلامي؛ كان يأتي في الزمن القديم من الدول الصليبية، وكان

يقتصر على مسألة التسوية بين المسلم والذمي، وكان لهم عذر في ذلك أو على الأقل عذر في الظاهر، والآن ينوب عن الدولة الأجنبية الضاغطة فريق من المسلمين المتعلمين في مدارس تلك الدول، نيابة تعدّت حدود الأصالة، غير معذورين ولا مقتصرين على مسألة دون مسألة، فهؤلاء النواب عن الأعداء (أي المثقفين من المسلمين بثقافة أجنبية خاضعين لها) أشدّ من الأعداء». «موقف العقل» (٤/ ٣٤٦).

*** مدى صحة تخويل حكومات المسلمين حرية وضع القوانين:**

«إن من الناس... (من) يخول حكومات المسلمين حرية تامة في وضع القوانين، ويدّعي أنه لا يوجد قانون يسنونه أو عمل يعملونه إلا ويسعه الإسلام؛ لأنه دين عام خالد، وهو مذهب الأستاذ فريد وجدي بك، الذي لا يرى حتى في أعمال مصطفى كمال (أتاتورك) منافاة لدين الإسلام. وهذا الرأي أسوأ من فصل الدين عن السياسة لكونه فصلاً وإنكارًا للفصل معًا. ففيه فصل ومكر وفيه القضاء على الإسلام باسم الإسلام. وقد قال انكلهارد، من سفراء فرنسا في تركيا، وفي مقدمة كتابه «تركيا والتنظيمات» (نُشر عام ١٨٨٢م): «كان الغرض العام من التَنظيمات «حركة تغريب الدولة العثمانية» هو تقريب الهيئة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية التي عاشت منذ قرون، بعيدة عنها معنى وسياسة. وكان السبب الحقيقي (في هذا البعد عن الهيئة الدولية الأوروبية) في هذا الانفراد هو الدين.

وفي الحقيقة (ما زال الكلام لانكلهارد) إن الإسلام الذي كان مؤسس الحكومة العثمانية، بقي حاكمًا مطلقًا فوق الحكومة.. . ولكون تشكيلات (أي منظمات ومؤسسات) الأمة (العثمانية) اشتبكت بالعقائد الدينية، بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض، كانت تشكيلات الأمة (أي مؤسسات الأمة

العثمانية إداريًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وغير ذلك) لا تقبل التغيير كالعقائد الدينية، فوجب. . . إمّا إزالة الحائل (أي الإسلام) أو تخفيف وطأته. ومعناه إما أن تحول الحكومة من الروحانية (يقصد الدينية التشريعية) إلى الدنيوية (أي العلمانية) بتخليصها من تأثير القوانين الدينية كما وقع في العالم المسيحي، وإما أن تخلص بالتدريج من الحدود والقيود الدينية عن طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيرًا موسعًا.

وللاحتراز (ما زال الكلام لانكلهارد) من الحالات الموجبة لاشمئزاز شعب جاهل متعصب (أي خوفًا من حدوث رد فعل لدى الشعب العثماني المسلم). . . كانت الحكومة العثمانية (عندما سيطر على أمورها دعاة التغريب من الماسون الأتراك. . . ممثلي الثقافة الغربية في البلاد العثمانية) قد اختارت الشقّ الثاني (أي التخلص التدريجي من الأحكام الشرعية الإسلامية). (انتهى كلام انكلهارد).

وهذه الكلمة (الكلام هنا لشيخ الإسلام مصطفى صبري) المنقولة من كتاب انكلهارد. . . تعلن ما كان يضمره المتفرنجون الأتراك أن يفعلوه في الآونة الأخيرة بدين المسلمين، ثم ظهر مع الانقلاب الكمالي اللا ديني. وما يضمره المتفرنجون العرب في مصر وغيرها ولم يظهر تمامه بعد. «موقف العقل» (٤/ ٣٤٨).

* فصل الدين عن السياسة والمثقّف العربي:

◻ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري:

«إن فصل الدين عن السياسة كان أول من أثاره مبدئيًا وجاهد بالدعوة إليه الأستاذ علي عبدالرازق بك (باشا)، حيث ألّف فيه كتابًا سمّاه: «الإسلام وأصول الحكم» ونشره، وكان يومئذٍ قاضي المنصورة الشرعي. فأدّى نشر هذا

الكتاب إلى قطع صلته بالأزهر. وإن كان مبدأ الفصل قد عمل به في مصر وقطع شأواً من العمل؛ مبتدئًا من يوم تجريد الوزارة المصرية من العضو الشرعي المسمّى شيخ الإسلام؛ والذي يكون جميع الحلّ والعقد الصادر عن مجلس الوزراء موقوفًا على موافقته، ويلي كرسيه في المجلس مقعد الرئيس متعينًا للنيابة عنه عند غيابه، ومقامه مرجع المحاكم الشرعية فضلاً عن المفتين، بل محاكم البلاد كلها، غير محكمة الجزاء والتجارة حيث يكون القاضي الشرعي رئيس محكمة الحقوق أيضًا العاملة بقوانين الشريعة الإسلامية. اطّلعت (الكلام لشيخ الإسلام) على كتاب الأستاذ علي عبدالرازق، «الإسلام وأصول الحكم»... على ترجمته إلى التركية من المسرعين الترك إلى استغلاله في أغراضهم اللا دينية قبل مجيئي إلى مصر من تركيا الغربية (في اليونان)، وكنا نصدر فيه مع ولدي إبراهيم صبري، (أستاذ اللغتين التركية والفارسية في جامعة الإسكندرية، شاعر وأديب وعالم جليل، تلقّى كاتب السطور العلم على يديه بكلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة عام ١٩٧٢م، ثم درّس في جامعات ليبيا ولبنان) جريدة باللغة التركية سمّيناها يارين (الغد)، نشرتُ فيها كتابًا عن الإمامة الكبرى مجزءًا على أعداد الجريدة، ضمّنته الرد على كتاب الأستاذ (علي عبدالرازق)... نقدًا (حيث إنّه) أريد بنشره بمصر تبرير ما فعله مصطفى كمال في تركيا من إلغاء الخلافة الإسلامية وإقامة حكومة أنقرة اللا دينية. تبًّا لحكومة مبتدعة لا يكمن الدفاع عنها إلاّ بالطعن في خلافة أبي بكر وإنكار ما في حكومته من الصبغة الدينية كما فعله الأستاذ قاضي المنصورة (علي عبدالرازق) «موقف» (٤/ ٣٧٥).

* فصل الدين عن الدولة والأزهر:

هاجم شيخ الإسلام مصطفى صبري الأزهر بعنف وشدّة، أما السبب

في هذا، فإنه ـ أي الشيخ ـ كان يظن أن الأزهر سيسانده كأحد دعاة الفكرة الإسلامية أمام محاولات الشيخ في شرح علمانية النظام الكمالي، واستنهاض الشيخ لهمم المسلمين بعد إلغاء الخلافة، فإذا بالأزهر يعلن تأييده لانقلابات مصطفى كمال (أتاتورك).

في العدد ٣٩٦ من مجلة الرسالة ظهرت مقالة بعنوان «أسبوع في تاريخ الأزهر»، فيها يقول عن الشيخ الأكبر إمام الأزهر الشيخ المراغي، يقول المقال: «كان من المبادئ الجليلة التي سمعناها من فضيلة الإمام المراغي من أن الدين في كتاب اللَّه غير الفقه. وأن من الإسراف في التعبير أن يقال عن الأحكام التي استنبطها الفقهاء وفرعوا عليها واختلفوا فيها، وتمسكوا بها حينًا ورجعوا عنها حينًا أنها أحكام الدين، فإنما الدين هو الشريعة التي أوصى اللَّه بها الأنبياء جميعًا، أمّا القوانين المنظمة للتعامل والمحققة للعدل والدافعة للحرج فهي آراء الفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية، تختلف باختلاف العصور والاستعدادات، وتبعًا لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها، وتبعًا لاختلاف البيانات والظروف. ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع ما ترى من اختلاف الفقهاء بعضهم مع بعض وتفنيد كلّ آراء مخالفيه وعدّها باطلة، لحقت عليه كلمة اللَّه: ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء**﴾».

◻ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في ردّه على هذا: «لا دين في الأزهر باعتراف فضيلة شيخ الأزهر وإمامه، بمعنى لا علم يدرس فيه وفي كلياته يصح أن يسمّى علم الدين، ولا صحة لما اشتهر عند الناس من كون الأزهر معهدًا دينيًّا ـ بل كونه أكبر معاهد العالم الإسلامي الدينية ـ ولا لما تواطأ عليه المسلمون، من اعتبار ما في كتب الفقه من الأحكام والقوانين أحكام الشريعة الإسلامية وقوانينها؛ فتكون ما يسمونه الشريعة الإسلامية

شريعة عندية لأناس يسمّون الفقهاء... إن ما قاله شيخ الأزهر (الأستاذ الأكبر الإمام المراغي) اعتداء عظيم... على أئمة الإسلام أصحاب المذاهب المشهورة في الفقه مثل الإمام أبي حنيفة ومالك الشافعي وابن حنبل ﷺ... (٤/ ٢٠٩، لا بدّ وأن تكون ٣٠٩) «إن لقول الأستاذ الإمام (المراغي) مغزى لم يبح به قائله، وقد خفي على محبذيه ومنكريه، وسأبديه أنا... يحاول الأستاذ الأكبر المراغي بقوله المنقول من قبل ترويج آخر آمال لهم (دعاة الفكرة الغربية) وتمزيق آخر أوصال للإسلام: وهو فصل الدين عن الحكومة، فقد رام أن يتوصل إليه بفصل الدين عن الفقه وقطع صلته به. فكأنه يقول: إن الفقه ينطوي على قوانين سنّها الأئمة والمجتهدون وهي قوانين زمنية لا دينية. وخلاصة ادعاء فصل الدين عن السياسة قد وقع من زمان قديم في الإسلام؛ منذ اتخاذ الحكومات الإسلامية آراء أئمة الفقه التي لا صلة لها بالدين، قوانين معمول بها في بلاد الإسلام، فلهذا يجوز لنا أن نهملها ونسن بدلاً منها قوانين أخرى أوفق لزماننا وسياستنا، ولا نكون إن فعلنا ذلك بدلنا ديننا إلى دين غير الإسلام، أو فصلنا الدين عن السياسة أوّل مرّة... وكان الأولى بالأستاذ الأكبر أن لا يتوسل إلى ترويج مبدئه بالاعتداء على الفقه، وإخراج أقوال الفقهاء أئمة الإسلام من الدين، بل يبقيهم في مقاماتهم المسلمة دينيًّا؛ ويقول ونحن نجتهد ونضع القوانين الجديدة مستمدين (ذلك) من الأصول الشرعية، فتكون آراؤنا أيضًا فقهًا ودينًا كما كانت آراؤهم. لكنه لم يفعل.

(إن) مقصود الإمام المراغي... هو فصل الدين عن السياسة وتخليص الحكومات في سن القوانين عن التقييد بقيود الشرع الإسلامي «موقف العقل» (٤/ ٢٠٨ ـ ٢١٥).

«... ثم إن هذه الفكرة من الأستاذ الإمام فكرة تنزيل الفقهاء أئمة

الذين الواضعين للقوانين الشرعية، منزلة واضعي القوانين الزمنية غير المتقيدين في وضعها بالقيود الدينية، تشبه ما فعله الكتاب العصريون بمصر من تنزيل الأنبياء إلى منازل العباقرة؛ منكرين لهم النبوة الميتافيزيقية والمعجزات الخارقة لسنن الكون» «موقف العقل» (٤/ ٢١٨، ٣١٨).

*** حكومة الشيخين وعلي عبدالرازق:**

«واليوم أقول (الكلام لشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي) في كتابي هذا: ليس لأحد من عقلاء الشرق والغرب شك في كون حكومة أبي بكر وعمر مثلاً أعلى للحاكم الصالح العادل الذي يراعي حقوق الأمة ويسعى في مصالحها أكمل مراعاة مسعاة... وكنا نحن المسلمين نحمل كمال حكومة الشيخين في الصلاح والفلاح على اهتمامها بأحكام الإسلام، وعلى كمال اقتفائهما بآثار النبي ﷺ، وحتى أن أبا بكر حارب لتنفيذ قانون إسلامي يجعل في مال الغني حقًّا معلومًا للفقير. وبالاختصار كنا نعرف سر أفضلية حكومتي الشيخين من فضل الدين... لكن الأستاذ (علي عبدالرازق مؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم) يحاول في قطع صلة فضائلهما الظاهرة الباهرة بالإسلام؛ أن لا يعترف بفضل الدين الإسلامي في سمو حكم هذين الرجلين العظيمين الذي يشهد العالم بكونهما مقال الحكم السامي الإنساني» «موقف» (٤/ ٣٧٥).

«فالأستاذ (علي عبدالرازق) إذن كاتب دعاية وبطل رواية لا يمثل أمثالها إلا المبشرون أعداء الإسلام وأعداء مفاخره... فالأولى بسعادة الأستاذ (علي عبدالرازق) على كلا المعنيين للسعادة أن يتعجل في التأهب لذلك الموقف (أي عند الاحتكام إلى اللَّه في المحشر) بتوبة علنية يسمعها قراء كتابه الإسلام ونظام الحكم معترفة (أي التوبة) بكونه مخطئًا في تأليفه، وإني (أي شيخ الإسلام مصطفى صبري) مخطئه الصائل عليه وصديقه الحقيقي، يسرني أن

أنفعه بخطيئتي لتعمير آخرته»... «موقف العقل» (٤/ ٣٧٦)»[١].

*** الإمام المجدد سليمان حلمي[٢] وحفاظه على الهوية الإسلامية لتركيا أيام أتاتورك:**

الإمام سليمان حلمي من الشخصيات النادرة في عالمنا الإسلامي، فهو شخص متميز في إسلامه، متميز في إرشاده، متميز في شجاعته، عمل في خدمة الإسلام طوال حياته التي بلغت إحدى وسبعين عامًا. ومن المؤسف أن هذا العالم والمرشد لم يعرفه الناس حق المعرفة وقد اشتهر كثيرون غيره كانوا أقل منه بكثير، سواء من وجهته الإسلامية الصحيحة أو الاشتغال بمنصب الإرشاد، أو من ناحية الأثر الإسلامي الذي تركه في قلوب تلامذته ومحبيه. ولهذا السبب فإنه من الشرف أن أقدم للعالم الإسلامي ما تيسر لي عن التعريف به، ولن يكون حق المعرفة به ولكنه بعض الاجتهاد لفتح المجال بعد ذلك لكتابات أخرى أكثر تعريفًا وأكثر عمقًا لشخصه وحياته وأعماله التي لا تزال تعيش بين أبنائه حتى يومنا هذا.

١ - حياته: (١٨٨٨م - ١٩٥٩م):

الإمام سليمان حلمي من طبقة العلماء الممتازين، جده هو (الحافظ قيماق)، أسرته تنتسب إلى الجد الأكبر (إدريس بك) الذي ينتسب لرسول الله ﷺ وكان السلطان الفاتح في ذلك الوقت يبحث عمن يرجع نسبه إلى رسول الله ﷺ ولا يزال على قيد الحياة، وحينما وجد (إدريس بك) زوجه

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» للدكتور محمد حرب (ص٣١١ - ٣٣٠) - دار القلم دمشق.

(٢) نقلاً عن «العثمانيون في التاريخ والحضارة» للدكتور محمد حرب (ص٣٩٤ - ٤٢٢)، وكتاب «الإسلاميون وتركيا العلمانية» لهدى درويش.

أخته ونصبه خانًا أي أميرًا على منطقة (الطونا) (الدانوب) ولذلك نجد أن لقبه طوناخان، وكلفه بجباية الضرائب. وبقي إدريس بك في منصبه هذا وخلفه من بعده أحفاده حتى جاء (عثمان بك) والد سليمان أفندي، وقد كانوا جميعًا من أهل العلم وأرباب القلب[1] ومن هنا يرجع وجه الشبه الكبير الذي كان بين سليمان حلمي وبين جده السلطان محمد الفاتح.

أبو سليمان أفندي هو عثمان أفندي الذي درس في إستانبول وعين مدرسًا في مدرسة (ساطرلي). رأى عثمان أفندي (والد سليمان حلمي) في منامه وكأن قطعة من جسده تخرج منه وتصعد إلى السماء وتنير ما حولها. وعندما استيقظ عثمان أفندي من نومه سأل عن تفسير هذه الرؤية فقيل له إنها تعبر عن أنه «سيأتي له ولد صالح ينشر الإسلام في العالم».

ثم تزوج عثمان أفندي وأنجب أربعة من الذكور هم: فهمي، وسليمان حلمي، وإبراهيم، وخليل. وأخذ يراقبهم لمعرفة من منهم سوف تتحقق رؤيته عليه.

* المراحل الأولى من حياة سليمان حلمي:

ولد سليمان بقرية (فرحاتلر) التابعة (لسليسترة) عام ١٨٨٨م (في بلغاريا اليوم) دخل سليمان حلمي مدرسة (ساطرلي) بسليسترة مع باقي إخوته، وقد كان والده عثمان أفندي مدرسًا فيها.

لاحظ عثمان أن سليمان ولده يتميز عن باقي إخوته بالذكاء والفهم وقابليته للتعليم والزهد، فتوجه عثمان إليه يخصه بالحب والرعاية والنصح، وكان يعامله باحترام وهو لا يزال صبيًا صغيرًا في سنواته الأولى، وكان يقول له: «تفضل يا بني يا سليمان أفندي» وكان سليمان أفندي يشعر بالخجل

---

(١) «ماذا قالوا عن المجدد الكبير» لمصطفى أريقان ـ جريدة أفق، رقم (٤٧٧).

الشديد بمعاملة والده له بهذا الاحترام حيث كان صبيًا صغيرًا، لكن والده كان يجد فيه النور الذي رآه في المنام».

أتم سليمان حلمي دراسته الابتدائية في مدرسة (ساطرلي)، والإعدادية في مدرسة (سيلسترة) وحتى يتمكن من تحصيل علوم عصره أرسله والده إلى إستانبول مركز العلم والحضارة، وقد زوده والده بثلاث نصائح هي:

١ ـ أن يكون مقتصدًا ولا يبذر ماله.

٢ ـ أن يبذل جهده ليتمكن من علم الأصول.

٣ ـ أن يدرس علم المنطق جيدًا حتى يقوى في علمه.

وعمل سليمان حلمي بنصائح والده فاهتم بدراسة علم الأصول والمنطق وتخصص فيهما. وحينما وصل سليمان إلى إستانبول زار قبر السلطان محمد الفاتح قريبه بالمصاهرة من جهة جده الأكبر إدريس بك. وهناك التحق سليمان حلمي بمدرسة (الفاتح) بإستانبول، وقد ارتضى أن يسكن الدور أسفل الأرض حيث لا ضوء ولا نافذة، وقد رضي بهذا المكان حبًا في الدراسة والعلم، وكان يدرس على يد الشيخ (أحمد أفندي البفراوي) الذي أحبه كثيرًا وقربه إليه. وقد شد سليمان حلمي انتباه الجميع لفرط ذكائه وحبه للدراسة ولشدة إعجاب الإمام بسليمان حلمي أراد أن يزوجه ابنته لكن القدر الإلهي كان غير ذلك حيث إنها توفيت إثر وقوعها في بئر.

تزوج سليمان أفندي في إستانبول من امرأة صالحة تدعى (خديجة) وبعد تخرج سليمان حلمي من مدرسة الفاتح التحق بمدرسة (دار الخلافة العالية) سنة ١٩١٣ وتخرج منها وكان من الأوائل ونجح في امتحان مدرسة القضاء وكان ترتيبه الأول، وعين قاضيًا بقسطموني لكنه لم يطلب تعيينه قاضيًا، وحينما علم والده نبأ تخرجه من الحقوق بالدرجة الأولى أرسل له برقية يقول له فيها: «يا سليمان، اعلم أنني لم أرسلك إلى إستانبول لتكون

في النار» وكان والده هنا يذكره بحديث رسول اللَّه ﷺ «**قاضيان في النار، وقاض في الجنة**»[١] ، فلم يكن يريد لابنه أن يتولى منصب القضاء، وقد كان رد سليمان حلمي في هذا الأمر أنه لم يكن يطلب منصب القضاء بل هدفه هو بلوغ مرحلة الكمال بالعلوم الدينية والدنيوية، ولقد أسعد والده جوابه هذا.

كان سليمان حلمي يبذل جهدًا كبيرًا من أجل تحصيل العلوم والبلوغ لهدفه الذي يتوق إليه، كان يقاوم النوم في عينيه حتى نزفتا، وكان يحتسي المزيد من القهوة ليقرأ المزيد من الكتب ولا يغلب عليه النعاس. وفي ليالي الشتاء الباردة كان يتناول كمية من الثلج ويلقيها بين قميصه وظهره حتى يظل مستيقظًا ولا يضيع لحظة من عمره دون دراسة.

واصل سليمان حلمي دراسته حتي نال مرتبة كبير المدرسين في فروع التفسير والحديث والفقه. ثم تخرج من (مدرسة السليمانية) بإستانبول فرع التفسير والحديث عام ١٩١٩م كما حصل على شهادة (مدرسة القضاة) فأصبح مدرسًا عامًا[٢] ، وكان صاحب اليد الطولى في علم الحقوق لكنه لم يقبل منصب القاضي، درس سليمان أفندي القانون الروماني، والقانون

---

(١) ونص الحديث: عن بريدة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار»، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار» رواه أبو داود والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم «الترغيب والترهيب» (ج٣)، كتاب القضاء، (ص٣١٣). وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٣٢٢)، و«الإرواء» رقم (٢٦٠٣).

(٢) المدرس العام يوازي مرتبة الأستاذ في الجامعة، وكان لها الحق بمنح إجازة علمية (أجازتنامه) لتلامذته بعد اجتيازهم للامتحانات التي يعقدها لهم والتي تعطيهم حقًّا للتدريس بعد الحصول عليها.

البحري والتجاري والقانون الدولي المقارن مع الشريعة الإسلامية في كلية السليمانية. قام بالتدريس عام ١٩٢١م لكن حياته التدريسية لم تستمر طويلاً حيث انتهت بإغلاق المدارس الدينية؛ حسب القانون الذي صدر في عهد أتاتورك عام ١٩٢٤م.

*** صفات الإمام سليمان حلمي: «نخدم الدين والإسلام ونقبل أن نكون مكان الأحذية في سبيله»:**

كان سيدًا بلباسه النظيف البسيط، وقور، ويدعو من يراه لأول مرة أن يحترمه ويعظمه، كان يقابل من يضايقه بابتسامة ومحبة وطيبة قلب، كان يطعم رجال الشرطة الذين كانوا يأتون لتفتيش منزله ويأمر أهل بيته بحسن ضيافتهم. كان يفطر مع رجال الشرطة الذين يأتون للقبض عليه إذا كان يوم صيام فكانوا ينضمون لصفوفه ويصبحون من تلامذته. كان شديد العطف والشفقة خاصة على أبنائه الطلبة حتى أنه إذا مرض أحدهم كان يذهب به إلى الطبيب بنفسه.

كان يواجه الشدائد بوقار وصبر ويقين، لم يعرف اليأس يومًا، لم يهدف يومًا إلى تحقيق غاية أو منصب دنيوي ويقول: «نخدم الدين والإسلام ونقبل أن نكون مكان الأحذية في سبيله»، كان ينفق كل ما يتقاضاه من راتبه على تلامذته. كان عابدًا مؤمنًا، يتهجد الليل، ولا يفوته صلاة الضحى صلاة الأوابين، كان يقرأ قبل وبعد صلاة الفجر أوراده وأذكاره.

كان مرشدً كاملاً، وعالمًا عاملاً، ومجددًا وإمامًا.

كان عذب الحديث لا يتكلم فيما لا حاجة له، يتحاشى الإكثار من تناول الطعام.

□ يقول الكاتب والأديب نجيب فاضل عن سليمان أفندي: «تعرفت على سليمان أفندي عام ١٩٤٦م ومن النظرة الأولى أدركت أنني أمام مثقف

وعالم حقيقي طاف كثيرًا من البلاد ومفكر مسلم».

أما رؤية المراقب السابق لدار إفتاء إستانبول ويدعى (مناسترلي سليمان) فهي أن سليمان أفندي حينما يتناول تفسير مسألة فهو يستند في أحاديثه على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، «دائمًا يقرأ اللغة الغربية كان مدرسًا عثمانيًّا بكل ما تحمله الكلمة من معان».

أما تلميذه «محمد امره» وهو مفتٍ سابق فيحكي عن أستاذه قائلاً: لقد تصدى أستاذي للظلم الذي وقع عليه في حياته بالعلم والحلم، وكان يدعو بالخير والصلاح لمن ظلمه.

*** نشاط سليمان حلمي بعد حياته الدراسية والظروف التي أحاطت به:**

لم يمهل القدر سليمان حلمي أفندي من مواصلة خدماته الدينية بصورة علنية ورسمية عن طريق المدارس. وقد كان يعمل ويخدم في وقت تسود الدولة الفوضى والاضطرابات. وقد وقع الانقلاب العثماني عام ١٩٠٩م وهو ما يزال طالبًا في المدرسة. فكان من معارضي الانقلاب ومن مؤيدي الخلافة وكان يرفض كل ما له علاقة بالتغريب.

ومن الغريب أن في ظرف خمس سنوات من حصول سليمان حلمي على إجازة التدريس، حدثت في حياة تركيا أحداث فيصلية هي: تكوين مجلس الأمة الكبير، وإلغاء السلطنة وانتهاء الدولة العثمانية من الوجود ونفي السلطان محمد وحيد الدين، وإعلان الجمهورية وتنفيذ قانون توحيد التدريس أو توحيد المدارس وجعلها كلها تحت سلطة واحدة.

وحينما قدم واصف بك عضو مجلس الأمة التركي عن (صاروخان) ومجموعة من زملائه قانونًا إلى مجلس الأمة يقضي بإلغاء المدارس الدينية على كل مستوياتها، وكذلك كل مؤسسات التعليم الديني في البلاد وجعل التدريس والمدارس كلها تابعة للدولة ولسياستها (العلمانية) عام ١٩٢٤م،

كانت جمعية المدرسين الدينيين في البلاد تضم ٥٢٠ مدرسًا، وكان يعني هذا القانون فصل كل هؤلاء المدرسين. وأرادت الدولة أن تعينهم في أماكن ووظائف أخرى هم أكبر علميًا من مستواها مثل أئمة في المساجد أو وعاظًا، أرادت إحالة بعضهم إلى التقاعد. واستجاب أعضاء هذه الجمعية إلى الأمر الواقع إلا سليمان حلمي فقد أحس أن هذا معناه أن يفقد الأتراك العلوم الدينية والعلوم القرآنية.

واصل سليمان حلمي خدماته الإسلامية والتعليمية فعمل واعظًا في مساجد السلطان أحمد والسليمانية والجامع الجديد وشهزاده باشى وقاسم باشا وكثير من المساجد الأخرى ولم يخل مسجد في إستانبول من خطب الإمام سليمان حلمي ومواعظه.

☐ في هذه الأثناء حذر سليمان حلمي زملاءه المدرسين من خوفهم من الحكومة واستسلامهم للأمر الواقع فدعاهم وخطب فيهم قائلاً: «إخواني المدرسين.. إنكم هذا اليوم ضمانة الدين في هذا البلد فعددنا خمسمائة تقريبًا. فلو قام كل واحد منا بتعليم أمور الدين لثلاثة أشخاص في البيوت لأمكننا أن نربي ألفًا وخمسمائة شخص تربية دينية إسلامية. فيمد اللَّه بهم من عمر الإسلام خمسين عامًا على الأقل وهو عمل جيل أو جيلين». وكان يحثهم على ألا يخشوا في اللَّه لومة لائم[1].

☐ فاقتنع البعض وبعثوا برقية إلى الحكومة قالوا فيها:

«نعلم أن دولتنا خرجت من الحرب قبل وقت قصير وشعبنا فقير والدولة لا تتحمل المصاريف»، إننا مستعدون لتعليم أبنائنا العلوم الدينية بلا

---

(١) مجلة كينج اقادمي، العدد الخاص عن سليمان حلمي طوناخان، عدد رقم ٢٧، إستانبول، ١٩٩٥م، (ص١٧).

مقابل فأجابتهم حكومة أنقره قائلة: «لقد تم قبول قانون توحيد المدارس وكل عمل يخالف هذا القانون يستوجب العقوبة الشديدة».

فقرر المدرسون عند ذلك أن التدريس غير ممكن في ذلك الوقت. وفي هذه اللحظة قرر سليمان حلمي العمل بمفرده رغم المخاطر والعقبات فأول ما قام به، هو تدريس الطلبة خفية، حيث اعتبر نفسه مسئولاً أمام اللَّه في تعليم دين الإسلام للطالبين له وكان يقول: أنه يخشى يومًا يسأله اللَّه فيه ويقول له: يا سليمان ماذا فعلت بالعلم الذي أعطيتك؟ هل أعطيتك العلم لتدفنه في الأرض؟ فماذا أجيب؟ وكان ينتقد العلماء في عصره ويقول: كيف يدعي هؤلاء بأنهم ورثة الأنبياء وهم عاجزون عن تعليم أولادهم. وكان سليمان حلمي يبحث عن أحد يعلمه فلا يجده؛ لأن الناس كانت تخشى الحكومة فبدأ بتعليم ابنتيه في البيت على أن تقوما بتعليم زوجيهما وأولادهما فتنفعان نفسيهما وأسرتيهما.

□ الوسائل التي لجأ إليها سليمان حلمي لجمع الطلبة:

ولقد واجه الإمام سليمان حلمي صعوبات كبيرة في جمع الطلبة وتعليمهم لكن ما لبثوا أن انجذبوا إليه وارتبطوا به ارتباطًا وثيقًا حيث كان يشعل في قلوبهم حب الدراسة.

كان إذا مرض أحد تلامذته يذهب به إلى الطبيب بنفسه. وكان يدفع الإمام سليمان حلمي أجرًا لطلبته على تعليمهم وذلك من أجل تشجيعهم لخدمة الإسلام. وقد استحدث هذه الطريقة ـ صرف أجر للطالب ـ وظل ملتزمًا بها.

كان حتى مماته يحل مشاكل تلامذته ويعدهم إعدادًا نفسيًّا ومعنويًّا. كان أبًا رحيمًا وأستاذًا مربيًا. وكان يشجع تلامذته على تعلم دين اللَّه ويقول لهم: إن دين اللَّه شرف لا يعلوه شرف في الدنيا والآخرة. وكان الطلبة

يأتون إليه من قرى الأناضول للدراسة وهم في زي الفقراء فيعودون إلى أهليهم وكأنهم من أغنياء إستانبول.

*** الوسائل التي اتخذها سليمان حلمي لتعليم تلاميذه:**

أما الوسائل التي اتخذها الإمام سليمان حلمي لتعليم أبنائه:

❑ تبديل المكان باستمرار:

كان الإمام سليمان حلمي يعطي الدرس لطلبته فكان يدرس يومًا في غرفة المؤذن في جامع شهرزاده باشي ويومًا آخر في بيت أحد أتباعه في أحد أحياء إستانبول. كما كان يجمعهم في أقبية المباني التاريخية القديمة. وقد لجأ الإمام إلى تعليم الطلاب في الأدوار السفلية من المباني ويقول لهم: «المهم أن تنجح دعوتنا ولا نهتم بالمناصب، ونقبل أن يصبح مكاننا مكان الأحذية في المساجد». وكان يدرس لهم كل يوم في مكان مختلف عن سابقه ويقول لهم: «علمتكم ونقلتكم من مكان إلى مكان كالقطة التي تنقل صغارها، ولم يكن الإمام يتقاضى شيئًا نظير عمله وكان يعيش على الكفاف[1].

❑ استئجار المزارع:

كان الإمام سليمان حلمي يستأجر مزرعة (قاباقجا) ويخبئ طلابه في زي العمال يزرعون الأرض في الصباح ويبدءون درسهم في المساء وحينما كانت تكتشف الشرطة مكانهم كانوا يحملون كتبهم ويذهبون إلى مكان آخر.

❑ إرسال طلابه خارج البلاد وإعدادهم للدعوة:

كان ينصح تلامذته بالذهاب خارج البلاد فيفتحون دور القرآن ويعلمون

---

(١) هدى درويش، جريدة الأحرار، «الشيخ سليمان حلمي وإحياء الإسلام في تركيا»، عدد ٢٠٠٣، ١٩٩٧/٧/٢٠م.

أولاد البلد الذي يذهبون إليه وكان يوصيهم بقوله: «اذهبوا إلى مناطقكم وافتحوا دور القرآن والمساكن للطلاب هناك وعلموا أولاد أمة محمد ﷺ كتاب اللّه ودينه. فإذا قمتم بما أقول فأنا داع لكم وإلا: فإني ممسك بخناقكم».

* **موقف الإمام سليمان حلمي تجاه الحكومة:**

شهدت تركيا في العهد الجمهوري عدة إجراءات اتخذها مصطفى كمال أتاتورك لإزالة كل أثر إسلامي أو تراث قديم للدولة العثمانية وتتريك كل ما هو عثماني أو عربي، وذلك لإزالة الصلة التي تربط بين الإسلام والدولة، والوصول إلى الهدف المطلوب ألا وهو فصل الدين عن الدولة.

كان الإمام سليمان حلمي من بين علماء الدولة المسلمين الذين رفضوا إجراءات الحكومة وكل عالم كان له أسلوبه وطريقته، إلا أن الإمام سليمان حلمي اتجه بكليته نحو دراسة القرآن الكريم وتحفيظه واتخذه الوسيلة الوحيدة لإنقاذ المسلمين من ضياع إسلامهم وثقافتهم التي تربوا عليها قبل ذلك. وقد كان الإمام سليمان حلمي أهلاً لتدريس العلوم الدينية، واختار التدريس للطلبة على الرغم من الضغوط التي كانت تمارسها الحكومة آنذاك في وقت كان الناس يخشون نطق كلمة التوحيد، فقد كان الجو الإرهابي سائدًا حتى أن الناس منعت من أداء أركان الإسلام أو ختم القرآن أو الصلاة وكان المسلمون يخفون إسلامهم.

□ وقد تحدث وزير الداخلية التركية في إحدى جلسات مجلس الأمة الكبير قائلاً:

«إن الأديان مؤسسات انتهت مهامها ولم تستطع أن تجد لها عضوية أو حياة».

وقد حدث أن طالب أحد النواب البرلمانيين تطبيق الدروس الدينية

كعمل مضاد لخطر الشيوعية. فما كان من (رجب بكار) رئيس الوزراء في ذلك الوقت إلا أن قال له: «إن هذا الأمر يعني التداوي بسم آخر قاتل مثل سم الشيوعية». وقد اعتبر رئيس الوزراء أن تدريس العلوم الدينية الإسلامية هي سم قاتل.

وفي ٣ مارس ١٩٢٤ صدر قانون يقضي بإحالة كافة المؤسسات التعليمية التابعة للوزارات المختلفة إلى وزارة التعليم القومي وهو قانون توحيد المدارس الذي يهدف إلى تركيز السيطرة العلمية في سلطة واحدة.

وكان الإمام سليمان حلمي ضد إلحاق مدارس الأئمة والخطباء بوزارة التعليم الوطني، وعارض ربطها برئاسة الشئون الدينية.

وقد أغلق مجلس الأمة الكبير عدد ٤٦٥ مدرسة علمية، و٢٩ مدرسة من مدارس الأئمة والخطباء.

وكانت الحكومة تنزل أقصى العقوبة على من يتولى مهمة تدريس الدين بصفة غير رسمية.

وقد أدت هذه الإجراءات إلى بطالة نحو ٥٢٠ مدرسًا أجبروا على التقاعد، وقد استسلم أكثرهم للأمر الواقع على الرغم من تنبيه الإمام سليمان لهم بأن يعلموا أبناء المسلمين، ولو تركوا هذا الأمر فسوف يسألوا أمام اللّه عليه، ولكن للأسف لم يجد صدى فقام بالجهاد في هذا الأمر بمفرده. وكان ذلك العهد هو عهد الحزب الواحد وكان التدريس يقابل بأقصى عقوبة.

وقد أعلن المدرسون وقتذاك، أن التدريس لم يعد وسيلة للكسب قائلين «فلنودع هذه المهنة» إلا أن سليمان حلمي أجابهم غاضبًا: «أن التدريس ليس سلة خبز، فهي تبليغ كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ للناس». وهكذا بدأ كفاح سليمان حلمي في خدمة الدين.

وقد تحدث الإمام سليمان حلمي عن هذه الفترة قائلاً: «لم أجد من

أدرس له. وقد جاء يوم تمنيت أن أدفع للطالب راتب نائب كي أدرس له، لكن لم أجد ذلك الطالب، كانوا يخافون، وصرت أخاف من زوال هذه العلوم من على وجه الأرض. فبدأت بتدريس بناتي على أن يعلمن أحفادي ثم بعد ذلك خلق اللَّه الأسباب، وبدأت أدرس للكهول وبعد ذلك جاء الشباب».

وكانت تعقد الجلسات لتداول المسائل الدينية، وكانت تجمع المحامي والتاجر والشيخ والخياط وتتشكل حلقات الدرس، وكانت الشرطة تتعقبهم فتقوم باعتقالهم واستجوابهم وتعذيبهم واضطهادهم، فكانت كل ما تكتشف الشرطة وجودهم في مكان ينتقلون إلى مكان آخر، وكان الإمام سليمان حلمي يقول: «ليس التعب يضنينا ولا الإزعاج يثنينا، سنسارع إلى نداء التعلم والتعليم والخدمة حتى وإن أدى بنا إلى الموت».

أما بخصوص ثورة الحروف وتغييرها من العربية إلى التركية فلم يؤيدها سليمان أفندي بل انزعج منها كثيراً فقد عبر عنها بقوله:

«إن أضر ما يكون بالإسلام والإيمان والعادات والتراث والصناعة والتجارة والزراعة أن تلغى الحروف الإسلامية على هذا النحو الذي شاهدناه». وتغيير الحروف كان يعني قطع صلة الإنسان بماضيه وثقافته وترك الكتب العلمية والفكرية التي لا تقدر بثمن على الرفوف نهبًا للغبار أو التلف، والأسوأ من هذا هو فقدان الهوية الأصلية».

وفي هذه الفترة قامت أحداث كثيرة أثارت حفيظة المسلمين حيث كانت الشرطة تقوم بتعليق العلماء على أعواد المشانق كما أحرقت المصاحف والكتب الدينية ودفنت بعضها في الأرض. وفي ذكرى تأسيس الجمهورية العاشرة قامت الشرطة بجمع المصاحف والكتب الدينية ووضعتها على الإبل ليشدها رجل يرتدي زي أعرابي يقوم بجرها نحو الجزيرة العربية وقد علقت

على رقاب الجمال لافتة تحمل عبارات تقول: «جاءت من الصحراء ولتعد إلى الصحراء» و«جاءت من العرب فلتذهب إلى العرب» وغيرها من العبارات الاستفزازية. وحولوا الأذان إلى اللغة التركية. ولم يجد الناس من يصلي بهم الجنازة أو صلاة العيدين. فاختبأ عوام المسلمين من الناس خوفًا أو جهلاً.

* موقف الحكومة من الإمام سليمان حلمي والمصاعب التي واجهها في سبيل دعوته:

كان الإمام سليمان حلمي يخاطب رئيس الوزراء عدنان مندريس في مواعظه ويقول له: «يا مندريس افتح آيا صوفيا، وليكن هذا الشرف من نصيبك» لكن مندريس لا يسمع هذا الخطاب أو يسمع فلا يفعل شيئًا. وقد سيق الإمام سليمان حلمي إلى سجن كوتاهية في مؤامرة دبرت له في (بروسة) وكان مضطهداً من قبل الحكومة أيما اضطهاد حتى بعد موته، فعند دفنه قال نامق كديك وزير داخلية حكومة الحزب الديمقراطي التي يرأسها مندريس: «لن نسمح بنقله إلى الجهة المقابلة، سِيدفن في حفرة حفرها رجال الشرطة بمقبرة قراجة أحمد» وكانت الحكومة قد رفضت طلبه بدفنه بجوار جده السلطان محمد الفاتح على الرغم من حصوله على كافة الأذونات لأجل هذا الغرض.

وعلى الرغم من معارضة الإمام سليمان حلمي للحكومة ورئيس وزرائها عدنان مندريس، إلا أنه لم يفكر في تكوين أي تنظيم سياسي، وكان طلابه يصوتون في الانتخابات ومنهم من ترشح للنيابة ورئاسة البلدية، ويعبر عن هذا قول الإمام سليمان: «ظاهرنا مع الخلق، باطننا مع الحق».

لكن في الوقت نفسه كانت له مواقفه تجاه قضايا المسلمين في العالم،

ففي الجزائر كان لسليمان حلمي موقفه الحاسم مع مسلمي الجزائر الذين كانوا يكافحون لنيل استقلالهم من الاحتلال الفرنسي، فقد نادى تركيا بمؤازرة مسلمي الجزائر ضد الفرنسيين، ومن خلال خطبة له في المسجد قال فيها:

«يجب علينا أن ندعو لإخواننا الجزائريين، فنكون بذلك عونًا لهم، إن مسلمي الجزائر ساعدونا في حرب الاستقلال وتبرعت النساء الجزائريات بحليهن وأساورهن وخواتمهن» وقد لقي خطابه هذا صدىً واسعًا لدى مسلمي الجزائر، وبسبب مقولته هذه في حق الجزائريين لنيل استقلالهم فقد تعرض لمساءلة الشرطة والتحقيق معه. وقد جاء في دفاعه عن نفسه في هذا التحقيق ما يلي على حد قول سليمان حلمي: «من خلال تعرضي في الحديث عن حروب الجزائر ذكرت أن إخواننا الجزائريين قدموا لنا مساعدات خلال الأيام العصيبة من حرب الاستقلال التي خضناها في الأناضول، وإننا مدينون لهم بمساعدتهم بالدعاء. لقد رفعت يدي بالضراعة قائلاً: اللَّهم انصر إخواننا في الدين على الفرنسيين الظالمين لكني لم أتطرق إلى موضوع قيام الصحافة بالدعوة إلى تقديم مساعدات سواء مالية أو غيرها، ولم أتحدث إلى الصحفيين في هذا الأمر». وهكذا نرى أن دعاء سليمان حلمي للمسلمين كان يؤدي إلى سلسلة من التحقيقات واستدعاءات الشرطة له.

وقد تعرض الإمام سليمان حلمي للاعتقال أول مرة عام ١٩٣٩م حيث أخذته الشرطة من منزله واعتقلته ثلاثة أيام، تعرض خلالها للتعذيب داخل زنزانته، ثم اقتيد إلى محكمة الجنايات.

ثم أقيل من عمله في الوعظ لأنه تكلم كلامًا يتعارض مع مبادئ العلمانية التي اتخذتها الدولة، وكان ذلك ثم أُعيد إلى عمله مرة أخرى عام ١٩٥٠م وذلك بعد سلسلة من التحقيقات.

وفي عهد (عصمت إينونو) اعتقل مرة أخرى وألقي في زنزانة لمدة

ثمانية أيام تعرض خلالها لأنواع من العذاب، حيث كانت زنزانته تضاء بمصابيح شديدة القوة تمنعه من النوم أو مجرد النظر، وكانت الأرض ترش بصفائح المياه التي لا تعد ولا تحصى؛ وذلك كي يصاب بأمراض الرطوبة وبالفعل فقد أصيب بالروماتيزم. وبعد معاناة حكمت المحكمة ببراءته من التهم الموجهة إليه.

وفي عام ١٩٣٦م علمت الشرطة باستئجاره مزرعة (خالد باشا) ليقوم بالتدريس فيها لطلابه، فاضطر لتغيير المكان حتى إنه أخذ طلابه وصعد بهم إلى قمة جبل يسمى (قوش قايا) بجبال سترانجه، ولكن الشرطة لحقت به مرة أخرى هناك فقبضت عليه واقتادته إلى المركز لاستجوابه. كان الإمام سليمان مراقبًا مراقبة مستمرة من قبل رجال الشرطة، وقد حدث في يوم من أيام رمضان أن أخذ الإمام سليمان الشرطي المكلف بمراقبته إلى منزله وقال له: «يا ولدي إنني أعلم أنك صائم فلنفطر معًا ثم تعود إلى عملك مرة أخرى»، وحينما اعترضت زوجته على ذلك قال لها: «إنه موظف يقوم بما تمليه عليه وظيفته»، وقد أثر هذا الموقف في نفس الشرطي تأثيرًا قويًا حتى أنه التحق بطلاب الإمام وأصبح من أخلص أتباعه.

وفي عهد الحزب الديمقراطي دبرت مؤامرة للنيل من سليمان حلمي، وقد دبرت من قبل (جلال بايار) رئيس الحزب الديمقراطي مع (عصمت إينونو) واشترك في التخطيط لها كل من (نامق كديك) وزير الداخلية (وأحمد إحسان غورصوي) نائب كوتاهية وصهر (جلال بايار)، كما اشترك في تنفيذها عدد من الولاة والبيروقراطيين ورجال الشرطة السرية. وعرفت هذه المؤامرة (بأحداث منمن). وكانت أحداث هذه المؤامرة هي: أنه في يوم الجمعة توجه بعض الرجال إلى المسجد الكبير وأخذ أحدهم السيف من يد الخطيب وصرخ: «أنا المهدي» وصار آخرون يهتفون: «جاء مهدينا» فعمت

الفوضى وأخذ شرطي يطلق النار في الهواء فتفرقت الجموع وانفضت صلاة الجمعة في ذلك الوقت، وصدرت الصحف في اليوم التالي معلنة: «ظهور الرجعية»، وتم القبض على أتباع الإمام سليمان واعتقلوا الإمام سليمان حلمي وزوج ابنته (كمال قاجار) وسيقوا إلى سجن كوتاهية حيث بقي الإمام سليمان هناك مدة تسعة وخمسين يومًا، ثم حكمت المحكمة ببراءته من هذه التهمة. وبعد الحكم قال سليمان حلمي لهيئة المحكمة: «أشكركم لأنكم أنجيتموني من الإعدام التدريجي». وقد أثرت هذه الأحداث على الإمام سليمان تأثيرًا قويًا، حتى أنه عبر عن هذه الفترة التي قضاها في سجن كوتاهية بقوله: «لم أر الشمس في النهار ولا النجوم في الليل طوال فترة شهرين، لكني أحمد اللَّه ولا أشتكي لأن كل هذا في سبيله». وقد طلب منه أبناؤه أن يستريح بعد هذه الفترة التي عانى فيها العذاب خلال شهرين، لكنه رفض طلبهم قائلاً لهم: «يا أبنائي، سنعوض ـ إن شاء اللَّه ـ ما فاتنا خلال هذين الشهرين»، وقد ضحى الإمام سليمان بصحته وحياته من أجل خدمة الإسلام والمسلمين[1].

*** مدارس الإمام سليمان حلمي:**

قامت الحكومة عام ١٩٤٩م بفتح المدارس الدينية وذلك نتيجة لضغط المسلمين، وبعد وصول الحزب الديمقراطي الحكم عام ١٩٥٠م بدأت النشاطات الإسلامية تتطور، وتحقق حلم الإمام سليمان حلمي وصار التعليم يدرس في مدارس رسمية بعد أن كان التعليم يقتصر على غرف المؤذنين، وفي المزارع، وعلى رءوس الجبال، وفي الأدوار السفلية من العمائر. كان يعلم الناس وقت لم يكن هناك إمام المسجد وكان الموتى ينتظرون من يدفنهم،

(١) جريدة مللي غازته، ذكريات مع سليمان افندي، إستانبول، ١٩٩٢م، (ص٣).

وكانت نشاطات سليمان حلمي تحت المراقبة والتفتيش المستمر. ويرجع تاريخ افتتاح أول مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم التابعة لجامعة الإمام سليمان حلمي إلى عام ١٩٥١م. وكان هذا بشكل غير رسمي، أما أول مدرسة لتحفيظ القرآن على منهج الإمام سليمان فقد كان رسميًّا عام ١٩٥٢م. وبافتتاح هذه المدرسة صار يرسل طلابه المتفوقين إلى الأناضول، ويطلب منهم أن يفتحوا مدارس هناك ويقوموا بمهمة التدريس فيها، وكان يتابع نشاط طلابه في فتح المدارس على خريطة تبين له كافة الأماكن التي فتحت فيها هذه المدارس.

وقد وجه تعليمه إلى الناشئين لتدريس القرآن وحفظه، فتتكون النواة وتتوارث الأجيال تعليمه فيضمن استمرار الإسلام ودوامه في القلوب.

وقد كان الإمام سليمان حلمي شديد الحرص على افتتاح مدارس القرآن في الأناضول، وإذا سمع خبر افتتاح مدرسة من المدارس في أي مكان كان يقوم ويسجد شكرًا للَّه. وكانت رئاسة الشئون الدينية تقيم مسابقات للوعظ والإفتاء، كان الإمام سليمان يرسل طلابه للاشتراك في هذه المسابقات، فكان طلابه هم الذين يتفوقون على باقي الشباب على الرغم من صعوبة الأسئلة في الفقه وعلم الكلام والمنطق والتفسير والنحو والصرف والمواريث والحديث. وحينما كانت اللجنة الفاحصة تسأل أحد المتفوقين وتقول له: من الذي علمك؟ فكان الجواب: سليمان أفندي! عندئذ أراد رئيس الشئون الدينية وكبار الرسميين فيها في ذلك الوقت زيارة الإمام سليمان حلمي ورؤية ذلك المعلم الفذ الذي خرَّج على يديه هؤلاء المتفوقين».

وقد تخرج طلاب من أبناء الإمام سليمان شغلوا مناصب هامة في الإفتاء والوعظ لدى رئاسة الشئون الدينية، ومنهم (حسني يلماز) والذي كان مفتيًا لمدينة (باليكسير) وعمره ثمانية عشر عامًا.

وقد جاء في عناوين الصحف خبر يقول: «تعيين أصغر مفتٍ

لباليكسير» وهو أحد أبناء الإمام سليمان حلمي.

□ وجاء وصف هذه المدارس على حد قول الأستاذ نجيب فاضل، الكاتب والشاعر والمفكر الإسلامي الشهير: «عرّفني سليمان أفندي على هؤلاء الطلبة فدهشت لأمرهم كمن يدهش من العثور على كنز في حديقة بيته، كنت أظن أن عمل هذه المدارس هو التكرار والحفظ، لكني رأيت أن هذه المدارس بأيدي مسئولين أطهار، هم مهرة في تعيين هدفهم وتشخيص مشاكل مجتمعهم، ويمكن أن أقول إنه لا توجد في تركيا مؤسسة مثلها في الوحدة والحجم. والرباط الذي يربط هؤلاء الأشخاص هو الشريعة، والمدارس القرآنية هذه تستمد قوتها من هذه الرابطة، وإنني إذ أعتبرها أنقى وأصفى العروق في الجيل الإيماني الجديد فمرجعه هو هذا الرباط».

وكان نجيب فاضل يقول أيضًا: «من المؤسف أن بعض العناصر التابعة لرئاسة الشئون الدينية كانوا يشعرون بالضيق من هؤلاء الشباب، فعملوا على إبعادهم عن المؤسسات التابعة للشئون الدينية فاضطر بعضهم إلى الاستقالة».

وقد عارضهم نجيب فاضل بقوله: «إن الذين يتطاولون على المجموعة المعروفة في مجال التعليم الديني بالسليمانيين ويعرقلون نشاطاتهم، ما هم إلا ردود أفعال ناتجة من البعد عن الحقيقة ومن الحسد وعدم الثقة بالنفس».

كانت هذه المدارس منتشرة في كل مدينة وكل قرية وكل حي، وهي على قدر كبير من النظام والانتظام والرابطة الأخوية بين الطلبة.

ومن الأمور التي أدهشت الجميع في هذه المدارس هي طريقة تعليم العلوم القرآنية في فترة قصيرة وعلى أكمل وجه. وكان منهج الإمام سليمان حلمي في التدريس يختلف عن مناهج المدارس الأخرى، وكانت تتلخص في التطبيق الذي يساعد على تنشيط الطالب تنشيطًا مستمرًا، وكانت طريقة الإمام سليمان في التدريس أن يجعل الطالب يقرأ الدرس بنفسه، وتكون

مهمة المدرس هي إكمال نواقص الطالب، فيكتسب الطالب ثقة بنفسه، وتكون المادة أكثر رسوخًا في الذهن.

كان سليمان أفندي يقوم بالتدريس لطلابه من أمهات الكتب العربية في المدارس العثمانية، وكان يقوم بتعليم الإسلام باللغة العربية التي هي المصدر الأصلي للعلوم الإسلامية، ولم يصرف وقته في تأليف الكتب حتى يتمكن من قضاء كل وقته في تعليم طلابه الإسلام وخدمة الإسلام.

❑ وقد سئل عن الأسباب التي جعلته يتحاشى تأليف الكتب فأجاب:

«نحن نعلم ما نعلمه للأجيال فتقوم هذه الأجيال بتأليف الكتب، نحن نعد الآثار التي تؤلف الكتب، وقد رأيت بعض الكتب التي لا تقدر بثمن دفنت في التراب وتلفت، فخير لنا أن نربي طلابًا يفهمون الكتب العلمية ويفهمونها لغيرهم، فينقلون العلوم من السطور إلى الصدور».

وهناك سبب آخر لعدم تأليفه الكتب هو أنه خشي على طلابه من أن ينصرفوا إلى قراءة كتبه ويفضلونها على قراءة القرآن، فيهجرون القرآن ولهذا صرف النظر عن الكتابة.

أحيا الإمام سليمان حلمي الإيمان والعقيدة والعبادة، وأضاف إلى منهج التدريس كتب المتون.

نجح الإمام سليمان حلمي في تدريس الكتب التي تحتاج إلى خمسة عشر عامًا واختصرها إلى خمس سنوات، وسبب هذا النجاح هو صفاته المعنوية وإخلاصه في خدمة الدين.

وقص أحد محبيه ويدعى «الحاج علي شكر» كيفية تدريس الإمام سليمان حلمي الدروس لطلابه وطريقه شرحه قائلاً:

«ذهبنا في أحد الأيام مع الحاج مصطفى أفندي القونوي إلى مدرسة القرآن في قصيقلي، وأثناء الحديث مع فضيلة الإمام سليمان نادى أحد تلامذته قائلاً له: هيا اقرأ يا ولدي، فبدأ الطالب يقرأ نصًا من الكتاب وصار

يشرح ما يقرأ بقدر فهمه بينما كان الإمام يكمل نقص الطالب، وبعد إجابة الطالب صار الإمام يشرح الدرس بطريقة أسهل وأسرع ثم يشجع الطالب للقراءة مرة أخرى، وبينما الطالب يقرأ يقول له الإمام:

«اقرأ يا بني، انتبه للضمير.. ستقرأ من الباب.. لا تنس نائب الفاعل.. فأعجبنا بطريقة تدريسه حتى وددت أن أقرأ الدروس بين يديه على الرغم من كبر سني».

كان الطالب يشترك في الدرس والأستاذ يكمل النواقص فيتخلص الطالب من الخجل والخوف، كما أن تنبيهات الإمام وتذكيره له ببعض النقاط كان حافزًا له لتثبيت معلوماته.

وكان كتابه المطبوع الوحيد هو «ترتيب جديد وطريقة حديثة في تعليم قراءة حروف وحركات القرآن الكريم» وقد اختصر هذا الكتاب تعليم قراءة القرآن من شهور إلى أيام، فكان يقول: «الآن وقت السرعة وليس وقت إطالة التدريس»، ويستعيض عن الحفظ بفهم خلاصة الدرس، وكان طلابه يقرءون الدرس قبل أن يدرسوه أمام شيخهم.

وكان يعتمد في تدريسه على «الحب» فكان يحب طلابه ويحبونه ويحبون تعليمه ويقبلون عليه بالحب والشوق لأحاديثه، فالحب جعل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٠ ـ ١٢ عامًا يعتلون المنابر والمنصات، وبالحب ضمن استمرارهم رغم الشدائد والعقبات، كان يحرص على ألا يدخل الملل القلوب، فكانت دروسه يتخللها الحديث عن ذكرياته وأحاديثه العذبة، فلا يتعب طلابه ويشعرون بالراحة والاستمتاع بالدرس.

كان يعلم طلابه طريقة الحديث واللباس، فكان مربيًا، يقول في حق طلابه: «إن أبنائي يأتون نحوي وأرجلهم تجر نعالهم، ويعودون وهم أسياد من أسياد إستانبول» كان طلابه يحبونه أكثر مما يحبون آباءهم وأمهاتهم، وقد

سئل يومًا عن سر هذا الحب الذي بينه وبين طلابه فأجاب قائلاً: «الأب والأم هما السبب الظاهري في مجيئهم إلى الدنيا، بينما نحن نجتاز بهم عالم البرزخ والحشر والصراط لنوصلهم إلى الجنة والجمال الإلهي»، وكان هذا جانب من جانبه الروحي مع طلابه، كان طلابه يصعدون منابر المساجد يلقون الخطب ويلقون دروس الوعظ فيشعرون بالثقة في النفس، وكانوا طلابًا ومعلمين في آن واحد، وفي شهر رمضان كان الإمام سليمان يرسلهم إلى مختلف البلاد يقومون بدور الوعظ والإرشاد، وكان يأمرهم بزيارة مفتي كل بلد يذهبون إليها يطلبون منه الإذن بالوعظ، فينشرون العلم الذي تعلموه وينشرون العلوم الإسلامية.

والكتب التي كان يدرسها الإمام سليمان أفندي في مدارسه هي: «الأمثلة، والبناء، والعوامل، والمقصود، والإظهار، والمراح، والكافية» وغيرها من علوم الأدوات بالإضافة إلى مجموعة من المتون: «الأمالي، وعقائد النسفي، والمنار، وإيساغوجي والشمسية، وشرح العقائد، وحاشيته للقسطلي، والسيرة النبوية، وأصول الحديث، وكتب الأحاديث والتفسير والفرائض».

وجميع هذه الكتب كانت تدرس في المدارس الدينية قديمًا، وكان جميع الطلبة ينجحون ويتفوقون، وقد استحدث الإمام سليمان أفندي طريقه إحياء المدارس التي كانت تمثل التعليم الديني العثماني، ولا يزال طلابه يسيرون على مناهجه حتى الآن، ولم تتوقف طريقه تدريسه بوفاته بل بثها في أتباعه، فحافظوا عليها واستمروا فيها متذكرين تعاليمه ووصاياه ويسيرون على طريقه وأسلوبه، حتى إن عدد ما ينسب إليه من مدارس القرآن يزيد الآن عن ثلاثة آلاف مدرسة.

وعندما قرب موعد رحيله وشعر بدنو أجله تحدث في آخر خطبة له

أمام مائتين من طلابه قال فيها: «يا أبنائي، لا يلهكم القلق على معيشتكم فالمعيشة مال الدنيا، والمعيشة مضطرة للحاق بمن ارتبطوا باللَّه، يا أبنائي، إن لنا في هذه الدنيا هدف واحد هو شحن قلوب أبناء الأمة المحمدية بالفيوض المحمدية، هذه هي مهمتكم: التعليم.. التعليم، يا أبنائي إنكم محظوظون لأنكم تتلقون العلم حيًا عن حي، وستستمرون في القيام بهذه المهمات؛ فإذا بقيتم مواظبين عليها فستجدونني من الداعين لكم، فإذا لم تنقلوا العلم الذي تلقيتموه منا لغيركم ولم تشحنوهم به، فاعلموا بأن أصابعي العشرة ستأخذ بخناقكم يوم القيامة، وإذا لم تقوموا بهذه الخدمات فبأي وجه ستقابلون اللَّه وتقابلون رسول اللَّه وتقابلونني.. يا أبنائي إياكم والفرقة والخلاف، أنتم مأمورون بنشر نور اللَّه».

وودعهم وكأنه يراهم للمرة الأخيرة، وقال لهم: «سنكون معًا في عالم البرزخ».

ولا يفوتنا هنا في الحديث عن هذه المدارس أن نذكر تقييم المفكر والكاتب نجيب فاضل لهذه المدارس، وقد جاء على النحو التالي:

- المدارس القرآنية هي الوعاء الذي يصنع بداخله الجيل الإيماني الجديد وهدفها علمي وروحي بحت.

- في هذه المدارس يدرس كتاب اللَّه ويعلم للناس ويشحن الضمير بالحق، وليس في هذه المدارس سياسة بل علم وتشوق.

- في هذه المدارس يتم تعلم أحكام الشريعة مع اليقين بأنها أوامر من اللَّه.

- حرارة الشعور بالوجد تجاه الإسلام وحب اللَّه ورسوله في هذه المدارس مثل حرارة أفران الصهر التي يحرص أصحابها على عدم انطفاء نارها.

ـ المدارس القرآنية باعتبارها مادة أنارتها روح معينة هي مؤسسات أنجزها سليمان أفندي وأتباعه.

ـ إننا نعتبر طلاب مدارس القرآن الذين بلغ عددهم مائة ألف ـ والعدد الآن أكثر من هذا ـ أرض غراس بكر تنتج الجيل المنتظر.

ـ نحن مصممون على أن نحول أمر الذين ينطقون بكلمة سوء واحدة ضد الهوية السامية الواضحة لمدارس القرآن إلى سيفنا الذي يعرف الكفر أوصافه جيدًا.

وهذه المدارس منتشرة الآن في كل مدينة وكل قرية وكل حي، وهي على مستوى عالٍ من النظافة والانتظام والرابطة الأخوية بين الطلبة.

*** ملاحظات على برنامج تلامذة سليمان حلمي أفندي:**

١ ـ يدرس الطالب الحديث والتفسير في كل مرحلة ابتداءً من المرحلة الثالثة ويستمر في الرابعة والتكاملية على حسب مستوى الطلاب.

٢ ـ كل مرحلة عبارة عن عام كامل.

٣ ـ يعقد اختبار في نهاية كل عام لكي ينتقل الطالب من مرحلة إلى مرحلة أو من عام إلى عام آخر؛ فإذا نجح ينتقل إلى المرحلة الأعلى وإذا رسب يعيد الدراسة كاملة.

٤ ـ يستمر التعليم في مدارس الإمام سليمان حلمي طوال العام، بمعنى أن العام الدراسي عندهم أحد عشر شهراً والشهر الباقي هو شهر رمضان حيث تعطل الدراسة فيه.

٥ ـ يقوم الطلبة في شهر رمضان بنوع من الدراسة العملية فيتم توزيعهم على المساجد في القرى والمدن دعاة وأئمة ووعاظًا حتى يتعودوا على مهام

الدعوة الإسلامية بعد تخرجهم.

٦ - يشمل البرنامج بعض المواد الأخرى مثل علم الميراث أي علم الفرائض وبعض الأمور العلمية الأخرى.

٧ - يطبق هذا البرنامج على البنات في مدارس البنات التابعة للإمام سليمان حلمي.

ومن نصائحه العامة لطلابه قوله: «لا يلهكم القلق على معيشتكم، فالمعيشة مال الدنيا، ومال الدنيا مضطر لأن يلحق بالذين ارتبطوا باللَّه».

ومن آخر وصاياه لهم أيضًا: «أنتم مأمورون للَّه، مأمورون لرسوله، مأمورون لدينه، مأمورون لكتابه ومأمورون بنشر نور اللَّه».

وشعر تلامذته أنهم مسئولون أمام اللَّه في تعليم أمور الإسلام، فحتى بعد وفاة الإمام سليمان لم ينفرط عقد هذه الجماعة، بل هم مستمرون في تأدية خدماتهم للدين والإسلام بنفس القوة التي بدءوا بها سواء داخل تركيا أو خارجها.

*** أعمال الإمام سليمان حلمي أفندي:**

لم يهتم الإمام سليمان بتأليف الكتب كما ذكرنا من قبل لأنه كان يهمه تعليم أبنائه، فلا يشغل نفسه بعمل حتى لا يضيع لحظة دون أن يعلم فيها طلابه، فكانت كتبه قليلة المعروف منها:

١ - حروف القرآن وتشكيله: وهو أسلوب جديد وطريقة حديثة لتعلُّم قراءة القراءة الكريم، ويتكون من ست صفحات، وقد سهل هذا على الطلاب عملية تعلم القرآن وحفظه.

٢ - رسالة كبريت أحمر: وهي رسالة تتضمن السلوك الذي يجب اتباعه في سلوك المسلم.

٣ ـ رسالة الرسائل: «بعض المسائل المهمة» وهو كتاب يتحدث عن الصحبة وآدابها.

*** وفاة الإمام سليمان حلمي ١٦ سبتمبر عام ١٩٥٩م «سيخافون من موتنا كما يخافون من حياتنا»:**

لم يقف مرض السكر الذي كان يعاني منه الإمام سليمان حلمي حائلاً دون تأدية خدماته لطلابه، وقد كان يسافر يوميًا متنقلاً عبر أربع وسائل للمواصلات للذهاب لطلابه والتدريس لهم، وظل على هذا الحال مضحيًا بالنفس والصحة والمال في سبيل أولاده والوصول بهم إلى مقصده، وفي ١٦ سبتمبر عام ١٩٥٩م رحل الإمام سليمان حلمي إلى دار البقاء وقت صلاة المغرب.

طلب رئيس مجلس الأمة في ذلك الوقت «إبراهيم كيراز أوغلو» بدفنه قرب ضريح السلطان «محمد الفاتح» جده نسبًا، فوافق رئيس الوزراء بالسماح بدفنه قرب السلطان، وفي اليوم التالي توجهت الجموع من كل مكان لحضور مراسم الجنازة، واجتمعت جموع أخرى في جامع الفاتح انتظارًا لنعشه، وحينما حمل الآلاف من محبيه نعشه للذهاب إلى مسجد جده الفاتح منعت الشرطة السماح بدفنه في هذا المكان وقطع الطريق على الموكب، وتم دفنه في مقبرة حفرها له رجال الشرطة في «قراجا أحمد».

وكان السبب في منع دفنه بجانب قبر الفاتح هو «نامق كديك» وزير الداخلية في ذلك الوقت حيث قال وقتها: لن نسمح بنقله إلى الجهة المقابلة، سيدفن في حفرة حفرها رجال الشرطة بمقبرة «قراجه أحمد»، وقد قال الإمام سليمان يومًا: «سيخافون من موتنا كما يخافون من حياتنا»، وقد رأى أحد أتباعه في منامه الإمام يقول له: «حاولتم كثيرًا أن تدفنوني بجانب الفاتح

ولكن هناك حكم كثيرة لا ندركها بعقلنا».

وظل الآلاف يترددون على قبره بمقبرة «قراجا أحمد» حتى يومنا هذا، ويعتبرونه قدوتهم في الدنيا بروحه بينهم».

تلك هي دعوة الإمام سليمان حلمي طوناخان إلى الأمة الإسلامية من أجل الحفاظ على روح الإسلام في ظل الحفاظ على القرآن الكريم من خلال لغته العربية.

ويقطف المسلمون الآن في تركيا ثمرة جهاده وكفاحه في سبيل إحياء الإسلام وفي سبيل الأمة الإسلامية، بعد انتشار القرآن الكريم في بلاد كان مقدرًا فيها ـ حسب إرادة البشر ـ أن يقضى على كتاب اللَّه وعلى اللغة العربية والعلوم الإسلامية فيها.

هدى درويش

من كتابها «الإسلاميون وتركيا العلمانية»

القاهرة ١٩٩٨م.

* * *

*** الشيخ عاطف الاسكيليبي:**

صفحة مضيئة في تاريخ تركيا، إعدامه بسبب تحريمه لبس القبعة.. ورؤيته لرسول اللَّه ﷺ منامًا قبل الحكم عليه بساعات.

*** حياته وفكره:**

حياته:

اسمه محمد عاطف، ويطلقون عليه عاطف أفندي، أو عاطف خوجه وكلاهما يعني عالم الدين.

ولد الشيخ عاطف الاسكيليبي عام ١٨٧٦ في قرية طوبخانه التابعة لاسكيليب في الأناضول من أسرة عريقة في العلم، عريقة في النسب، كان تحصيله الأولي في قريته، أما في عامي ١٨٩١ ـ ١٨٩٢م فقد تلقى بداية علومه الدينية في اسكيليب نفسها، ومن ثم انتقل إلى إستانبول حيث كان وصوله إليها في إبريل عام ١٨٩٣م، أنهى دراسته الدينية وقد بلغ من العمر ٢٦ عامًا، وفي عام ١٩٠٢م حصل على إجازته العلمية، وفي نفس هذا العام دخل امتحان التقدم لكلية الإلهيات التي كانت تابعة لجامعة إستانبول، فكان ترتيبه الثاني على المتقدمين، وفي عام ١٩٠٥م تخرج في هذه الكلية وعين معلمًا بدرجة (مدرس عام) في جامع الفاتح، وبذلك أُتيح له التصدي لإلقاء الدروس الدينية من فوق كرسي الوعاظ هناك، وبالتالي بدأ الشيخ عاطف أفندي في التدريس.

كما كان يكتب المقالات الدينية والشرعية في مجلتي «بيان الحق» و«صراط مستقيم» أشهر المجلات الإسلامية في الدولة العثمانية.

وعندما أجبرت جمعية الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨م السلطان عبدالحميد الثاني على إعلان المشروطية على أسس النظم الغربية، بدأ عهد الاتحاد والترقي وبدأت معه آلام الشيخ عاطف أفندي، فأبعدته الجمعية عن إستانبول، إلى سينوب، ثم إلى جوروم، ثم إلى بوغازليان وإلى سنقرلو (من بلاد الأناضول) ثم أطلق سراحه بعد نفي أربع سنوات.

وعندما حدثت الانتخابات في عهد الاتحاد والترقي اختاره أهل جوروم نائبًا عنهم، فانتهز الفرصة لينتقد حكم الاتحاد والترقي، وكان أن أصبح مديراً عامًا للمدرسة الابتدائية الداخلية بإستانبول، فلم يسكت وظل مداومًا على نشر المقالات الدينية لتوعية المسلمين بأوضاعهم، فأكثر من الكتابة في مجلة «محفل» وركز على التوعية بأسس الفقه الإسلامي باعتبار أنها روح الشريعة

الإسلامية.

كان الشيخ عاطف أفندي، مقصد المسلمين الذين كانوا يفدون من كل جهات العالم إلى إستانبول، باعتبارها مركز الخلافة الإسلامية، من اليابان، ومن العراق ومن القرم وغيرها، يستفتون الشيخ عاطف أفندي في أمور دينهم، ولم يكن يرد قاصدًا إلا بعد أن يكرمه، فزاد هذا العلم الغزير والكرم، احترام الشيخ في قلوب المسلمين.

وعندما احتل اليونانيون أزمير في الحرب العالمية الثانية، كانت جمعية «تعالي إسلام» (أي: رفعة الإسلام) التي أسسها الشيخ عاطف أفندي، أول من احتج لدفع المعتدي.

قام الشيخ عاطف أفندي بتدريس مادة التفسير في القسم العالي في مدرسة دار الخلافة، ومادة حكمة التشريع في مدرسة القضاة بإستانبول، كما اشترك في دروس مجلس السلطان (حضور درسلري) وهي مناظرات علمية يقوم بها العلماء في حضور السلطان العثماني.

واستمر الشيخ في وظيفته مديرًا للمدرسة الابتدائية ومدرسًا حتى عام ١٩٢٤م، أما بعد هذا التاريخ فقد اقتصرت مهامه على التدريس فقط في جامع الفاتح مدرسًا واعظًا.

كانت الثورة التي قادها مصطفى كمال أتاتورك قد ألغت التعليم الديني في ١٥ فبراير عام ١٩٢٤م، وقد اتخذ كمال هذا القرار في مجلس من قادة الجيش والأركان، ومعه قرارين آخرين، والقرارات الثلاثة كانت كالآتي:

١ ـ إلغاء الخلافة.

٢ ـ إلغاء وزارة الأوقاف والأمور الشرعية.

٣ ـ توحيد التعليم.

وفي ٣ مارس عام ١٩٢٤م تم تنفيذ قرار مجلس الأمة التركي بإلغاء الخلافة وطرد كل أفراد آل عثمان خارج البلاد، ونفّذ هذا القرار في ليلة الموافقة عليه (انظر: مضبطة خمسين عامًا من الجمهورية، إستانبول ١٩٧٣م).

أما في عام ١٩٢٥م فقد صدر قانون الملابس في تركيا، والذي أبدل الطربوش بالقبّعة.

قبل صدور هذا القانون بعام أو أربعة أشهر كان الشيخ عاطف أفندي قد أصدر رسالة في «تقليد الفرنجة والقبّعة».

في اليوم التالي صدرت الصحف التركية بالعنوان التالي: «تنفيذ حكم الإعدام في الشيخ عاطف الاسكيليبي، مؤلف الكتب الرجعية»، ولما أرادت زوجته التأكد من خبر إعدامه، أرسلت برقية إلى مدير سجن أنقرة، فجاءها الجواب كالتالي: «مات الشيخ عاطف أفندي».

يعقب على هذا الرد المقتضب، الكاتب الإسلامي الشاب المؤرخ صادق آل بايراق بقوله: «لم يستطيعوا أن يقولوا قتلناه... ذلك أنهم كانوا يخافون.. كانوا يخافون حتى من جثته بعد موته».

* فكر الشيخ عاطف أفندي:

يمكن استقراء فكر عاطف أفندي من خلال مقالاته ورسالاته، وكتبه وخطبه، ويمكن وضع خطوط فكره العريضة على النحو التالي:

اتباع أهل السنة والجماعة:

□ يقول عاطف أفندي في مرآة الإسلام: «مذهب أهل السنة والجماعة هو الحق، وما عدا هذا باطل، واعتقاد أهل السنة والجماعة هو الطريق الحق المستقيم؛ والذي بيّنه جناب اللَّه في القرآن الكريم، والذي ذكره الرسول

ﷺ بأحاديثه الشريفة، وليس في اعتقاد من اتبع هذا، أيّ اعوجاج..».

*** تعريف الخليفة:**

◻ يقول عاطف أفندي:

«الخليفة، هو خلف لسيدنا الرسول ﷺ، مهمته النظر في أعمال الناس الدينية والدنيوية، وهو الرئيس العام الذي يدير هذه الأعمال، واختيار الخليفة واجب على كل المسلمين، ويشترط أن يتوفر في الخليفة أن يكون مسلمًا حرًا، ذكرًا بالغًا، عاقلاً قادرًا على إدارة أمور الأمة، وعلى الحفاظ على البلاد وعلى تنفيذ أحكام الدين.. ويصبح الشخص الذي تتوفر فيه هذه الشروط خليفة، بقبول علماء الأمة وعقلائها له خليفة للرسول وحاكمًا على الناس. وواجب على عموم المسلمين وغير المسلمين الذين يقبلون التبعية للحكومة الإسلامية إطاعة أوامر الخليفة التي تتفق والشريعة الإسلامية، وأن يكونوا جنودًا وأن يدفعوا الضرائب وأن لا يعصونه ولا يقومون ضده، أما الذين لا يخضعون لأوامره المتفقة والشريعة والذين لا يكونون جنودًا ولا يدفعون الضرائب، يكونون عصاة مذنبين، ولكن تنفيذ أوامره التي تخالف الشريعة فحرام». «طريق الإسلام» (ص٧٧ ـ ٧٩)، عن صادق آل بايراق، معركة الدين في تركيا، إستانبول ١٩٧٥م، (ص٥١٦).

*** واجبات الشعب تجاه الخلافة:**

يذكر عاطف أفندي واجبات الناس تجاه الخلافة في عشر واجبات كالآتي:

١ ـ إطاعة أوامر الخليفة وعمّاله إذا وافقت الشريعة.

٢ ـ دفع الضرائب الواجب دفعها للحكومة شرعًا مثل العشر والخراج،

وزكاة الأموال الظاهرة في حينها.

٣ - أداء الخدمة العسكرية.

٤ - معاونة الحكومة في كل ما هو حق، مالاً وبدنًا وفكرًا ولسانًا وقلمًا.

٥ - بجانب عدم القيام ضد الخليفة، فالواجب صيانة الخليفة وحمايته من أصحاب الفساد ومن فتن أصحاب الفتنة، وكذلك من مؤامرات أعدائه.

٦ - تحويل قلوب عموم التبعية (الشعب) خاصة هؤلاء الذين ينفرون من الخليفة، من العداء له إلى واجبه وطاعته.

٧ - إخبار الخليفة بظلم موظفيه وعامليه وبمعاملاتهم السيئة.

٨ - إيقاظ الخليفة إذا أغفل، ومنعه من الظلم، وإرشاده إلى طريق الحق والعدل بتصحيح خطئه، ومنعه من ارتكاب المعصية.

٩ - إظهار الإحترام اللائق للخليفة والدعاء له بصلاح أمره.

١٠ - تقديم النصح للخليفة سرًا أو علانية.

عاطف أفندي؛ «طريق الإسلام»، إستانبول ١٩٢٢م، عن صادق آل بايراق، «معركة الدين» (ص٢١٦).

*** وجوب البيعة للخليفة:**

◻ يقول عاطف أفندي في ذلك: «إن بيعة المسلمين للخليفة أمر واجب، وهو ثابت بالعقل والشرع، والدليل الشرعي في هذا، هو إجماع الصحابة والتابعين واتفاقهم عليه، ففي يوم وفاة سيدنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه، اجتمع الصحابة - رضوان الله عليهم - قبل دفنه ﷺ في المكان الذي أُطلق عليه سقيفة بني ساعدة، وتشاوروا في أمر بيعة الخليفة

وبايعوا سيدنا الصديق ﷺ، بعد أن اتفقت كل آراء الأمة على أنه أحقّ وأليق الجميع لمقام الخلافة، وقد استمر الوضع على هذه الشاكلة أيضًا في عهد الصحابة وعهد التابعين من بعد. وبناء على ذلك؛ فإن وجوب تعيين الخليفة ثابت بإجماع الأمة بطريق الأدلة الشرعية. «شريعة الحضارة» نقلاً عن صادق آل بايراق، «السائرون والمنفيون في سبيل الشريعة» (ص٣٩)، إستانبول ١٩٧٩م.

* **ضرورة وجود الخلافة القوية:**

في هذا يقول عاطف أفندي: «.. وحيث إن الغاية الأساسية في الخلافة، هي تنفيذ أحكام الشريعة وتنظيم شئون الأمة، ولأن هذا يستلزم الاعتماد على القوة والسلطة؛ فإن الأصل في شروط الخلافة والذي يتقدم على كل الشروط هو: القدرة والقوة» المرجع السابق، (ص٤٠).

* **مسئولية الأمة تجاه الشرع:**

حثّ عاطف أفندي الأمة على التحرّر من أنواع الأسر، بقوله: «أيتها الأمة! إذا كنتم تريدون التخلص من الظلم، إذا كنتم تريدون التحرر كلية من الأسر، فأكسبوا أنفسكم القدرة على الإبقاء بواجباتكم الشرعية، ثوروا ضدّ ظلم الظالم، بأي شكل كان، ثوروا ضد كل عمل مخالف للدين يقوم به فرد أو تقوم به حكومة». نفس المرجع (ص٤١).

* **مسئولية الأمة تجاه العدو الغاصب:**

في مقالة له بعنوان «الجهاد» نشرها في «بيان الحق»، قال عاطف أفندي موجهًا حديثه للأمة المسلمة: «إن الأمة المسلمة سواء كانت في منطقة الروملي (أوربا الشرقية، وكانت تابعة للدولة العثمانية) أو في الولايات الأخرى، أو

حتى في الشرق أو الغرب، إذا أظهرت هذه الأمة التكاسل في الحرب ضد العدو الغاصب، سواء كان هذا التكاسل بدنيًا أو ماليًا، وإذا ما تسببت هذه الأمة (في أي مكان هي فيه) في هزيمة الحكومة الإسلامية أو تسببت في انهيارها كلية؛ فإن أفراد هذه الأمة المسلمة جميعًا آثمون قد ارتكبوا بذلك الذنب الكبير، مثل ذلك: مثل قتل النفس، وأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب الزنا، وتكون الأمة كلها قد عصت شريعة اللَّه». المرجع السابق (ص٣٨).

*** مثل المتبرع بثمن مسمار في مدمرة حرب إسلامية:**

□ يقول الشيخ عاطف أفندي في مقالة له بعنوان «القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة» نشرها في جريدة «صراط مستقيم» في ١٠ سبتمبر عام ١٩١٠م ما نصه: «لو أن شخصًا دفع عشر عملات (بارة) من النقود مساعدة للأسطول؛ ونتج عن هذه المساعدة مسمار في مدمرة اشترتها (الدولة الإسلامية أو صنعتها لحسابها) وتم دفع هذه المدمرة إلى الحرب، وكان المسمار (موضوع الحديث) فيها؛ فإن للشخص المتبرع بالمبلغ المذكور أجره وثوابه دائمًا سواء في حياته أو بعد موته، وكما لو كان اشترك بالفعل في الحرب». عاطف أفندي «القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة»، مجلة «صراط مستقيم» (٥/ ٢٣٧٧) سبتمبر ١٩١٠م، ١٣٢٦هـ نقلاً عن صادق آل بايراق، المرجع السابق (ص٣٦).

*** الحجاب والمرأة المسلمة:**

للشيخ عاطف أفندي رسالة في تستر المرأة المسلمة وحجابها بعنوان «التستر الشرعي» يقول فيها:

١ - المرأة مجبرة على الاشتغال بالأعمال المنزلية وبتربية الأطفال، فهذا

من وظائفها الأساسية.

٢ - ضرورة منع ما يفسد سعادة العائلة من أسباب الكدر والوهم والوقوع في الشبهات، ذلك الذي يحدث عند رؤية رجل عفيف وشريف لعائلته وهي تختلط برجال أجانب عنها، فيأخذ منه الشك مأخذًا، ويتولد من هذا السبب حدوث النفور بين الرجل وأهله.

٣ - ضمان سعادة الأسرة في إطار العفة والشرف بمنع زيادة سوء الخلق ومنع الفواحش وظهورها.

لذلك يجب منع الذين يعملون للإخلال بهذا قولاً وكتابة وفعلاً ومعاقبتهم، كذلك الأمر للذين لا يرعون الحجاب من الناس، إن هذا من الواجبات الدينية للإداريين (المسئولين) الذين تكون مهمتهم حكم الناس.

أما الذين يبدون - من هؤلاء - تسامحًا أو إهمالاً فإنهم يكونون مسئولين أمام اللَّه لأنهم لم يوفوا بواجباتهم الشرعية وهم بذلك يستحقون العذاب الإلهي والجزاء السيئ، وإنه لفرض على كل مسلم، كل حسب قدرته تنفيذ أوامر الدين ونواهيه، بدفاعه وبمواجهة الذين يعملون على إزالة شعار من شعائر الإسلام أو أركانه أو لغوها». محمد عاطف أفندي «تستر شرعي» (ص١ - ١٦) إستانبول ١٩٢٣م نقلاً عن «معركة الدين في تركيا» لصادق آل بايراق إستانبول ١٩٧٥م.

* **أعمال عاطف أفندي:**

يورد نجيب فاضل في كتابه «المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير» إستانبول ١٩٧٧م، أثناء حديثه عن عاطف أفندي، قائمة بأعماله أوردها بالتالي كالآتي: (ملاحظة أن عاطف أفندي لم يكتب إلا بالتركية):

١ - «مرآة الإسلام».

٢ ـ «طريق الإسلام».

٣ ـ «دعوة الإسلام».

٤ ـ «المسكرات في دين الإسلام».

٥ ـ «القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة».

٦ ـ «الحجاب الشرعي».

٧ ـ «حضارة الشريعة».

٨ ـ «تقليد الفرنجة والقبعة» وهو الكتاب الذي شُنق بسببه.

*** معاناته واستشهاده:**

بدأت معاناة عاطف أفندي مع تسلط حزب الاتحاد والترقّي على أمور الحكم في الدولة العثمانية، كان الاتحاد والترقي مقدمة لنتيجة أسفرت عنها عملية تغريب الدولة العثمانية، ففكر الاتحاد والترقي فكر منافٍ للفكر الإسلامي، كان الاتحاد والترقي بحكم سيطرة خلايا الحركة الماسونية عليه، والتدعيم اليهودي العالمي له شيئًا مخالفًا تمامًا له ألفه سير حركة الفكر الإسلامي والجامعة الإسلامية.

في عام ١٩٠٨م فرض الاتحاديون الحكم المشروطي على عبدالحميد، وفي عام ١٩٠٩م خلعوه، ثم أرادت قيادات حزب الاتحاد والترقي تصفية قائد جيش الحركة الذي أتى بالحزب إلى السلطة، وهو محمود شوكت باشا، فدبّرت له وهو قائد من قوادها العسكريين، مؤامرة أودت بحياته.

ولأن الشيخ عاطف أفندي كان من أبرز علماء الدولة العثمانية؛ ولأن القيادة الحزبية للاتحاد والترقي كانت مصابة بداء «حساسية الدين» (وهذا التعبير لنجيب فاضل) فقد تم القبض على عاطف أفندي بحجة الاشتباه

بعلاقته بالمؤامرة.

نفى الاتحاديون عاطف أفندي إلى قلعة سينوب ثم جوروم، ثم بوغازليان ثم سنقورلو، وعند الإفراج عنه عاد إلى إستانبول.

عيّن - كما سبق القول - مديرًا للمدرسة الابتدائية الداخلية، فأخذ اسمه يبرز ويرتفع في وقت قصير، وأصبحت المدرسة بفضل فعالية مديرها نموذجًا يحتذى وطالت شهرة الشيخ عاطف وأخذ اسمًا عالميًا طيبًا كعالم ورع.

* **أخلاق الشيخ:**

وبجانب هذه الشهرة الطائلة، كان خلق الشيخ عاطف أفندي مرآة لإسلامه.. كان دؤوبًا على مداومة تحصيل العلم، وكان متواضعًا، ذات مرة دعاه السلطان وحيد الدين سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين إلى طعام الإفطار في رمضان في قصر الحكم، قَبِلَ الشيخ دعوة أمير المؤمنين، وأُعجب السلطان وحيد الدين بعلم الشيخ عاطف أفندي، مما لاحظه المجتمعون على مائدة الإفطار، وعندما أراد السلطان وحيد الدين أن يظهر تقديره لعاطف أفندي بتقديم هدية راجيًا منه أن يتقبلها، قال الشيخ عاطف بأدب جمّ: «أستسمحكم ألاّ تعوّدوني على تلقّي الإحسان».

وكما كان السلطان يحب عاطف أفندي، فكذلك كان عامة الناس، ذات يوم أراد فراش متقاعد أن يعبّر عن حبّه تجاه عاطف أفندي؛ فقدم له هدية عبارة عن صينية بقلاوة عملها خصيصًا هذا الفراش العجوز المتقاعد، لم يستطع الشيخ قبول هدية الرجل، ولكن كان على الشيخ أن يطيب خاطره، فقال له: سامحني، لأنني لم أستطع قبول هديتك.. سامحني؛ فإن مهنتي والقضية التي أعمل لها حساسة للدرجة التي لا أستطيع معها تحمل مثقال وطأة المنفعة المادية.

* **رسالة «تقليد الفرنجة والقبعة»:**

كتب الشيخ عاطف أفندي رسالته المشهورة «تقليد الفرنجة والقبعة»، أوضح فيها أن على الأمة الإسلامية ألا تقلد الغرب تقليدًا أعمى يأخذ بالسطحيات، وأن على المسلمين الأخذ بما ينفعهم فقط في المدنية الغربية، وأن على المسلمين أن يطوّروا أنفسهم دون التنازل عن أخلاقهم ومقدساتهم، ولا تفريط في الأخلاق الإسلامية، لا تنازُل عن الدين في سبيل التطور المادي، لا تقليد للغرب.

والرسالة تنتقد المسلمين الذين يجارون الغرب على عمى ودون تبصر، وتأخذ عدم لبس القبعة مثالاً لقوله «لا» الاعتراضية على التغريب؛ ولأن الشيخ عاطف أفندي كان معروفًا بعلمه وتقواه، فقد استمع له الناس.

بعد ذلك بعام وأربعة أشهر، وبالضبط في ١٩٢٥/١/٢٥م، وافق مجلس الأمة التركي على قانون ارتداء القبعة تمثُلاً بالغرب.

* **قانون ارتداء القبعة في مصدرين:**

اعتمد هنا في الفقرة على نقلين من مصدريين كماليين:

أولهما: «تاريخ الانقلاب التركي» وهو كتاب مقرر على طلاب المدارس العسكرية بالجيش التركي، وأصدرته مطبعة هيئة أركان حرب الجيش التركي بأنقرة عام ١٩٧٣م.

◻ يقول الكتاب: «.. بتطور الزمن أصبح الطربوش زيًا إسلاميًا، بل صار رمزًا للرابطة العثمانية.. وكان لا بد أن يحصل المجتمع التركي على شكل حضاري.. كان تحول المواطنين الذين يعيشون في دولة علمانية ويرتدون زيًا دينيًا يتضاد مع واقع الحركة الحضارية للمجتمع التركي الحديث.. كان الطربوش رمز الدولة الإسلامية، فكان من الضروري الإطاحة

بالطربوش من على رأس الشعب التركي، وبهذا يتحقق أمران، الأول: علمنة الزي؛ والثاني: ارتداء المواطن التركي زيًا يشبه فيه شعوب العالم المتحضر، كما كان من الضروري على رجال الدين الذين يرتدون زيهم أن يرتدوه في أماكن العبادة فقط. كانت المشكلة تتمثل في أن يخضع الشعب زيّه للحياة العلمانية، وفي إبعاد رموز الحياة الدينية عن الحياة اليومية، وكانت هذه هي فكرة أتاتورك. . .(ص١٦٣).

المصدر الثاني: كتاب «الذئب الأغبر مصطفى كمال» لمؤلفه (هـ.س. أرمسترونج) والمؤلف كان ضابطًا إنجليزيًا عمل ملحقًا حربيًا لبريطانيا في تركيا، وكان على اتصال مباشر بالأتراك عامة وبمصطفى كمال أتاتورك خاصة. القاهرة، دار الهلال ١٩٥٢م.

❑ يقول أرمسترونج: «صار عليه الآن (أي: على مصطفى كمال أتاتورك) أن يغير عقول الشعب بأسره، بأفكارهم القديمة، وعاداتهم وأزيائهم، وأساليب حياتهم، وأدق الدقائق التي تربطهم بنشأتهم الشرقية وماضيهم.. كانت هذه المهمة أصعب بكثير من إعادة بناء الكيان السياسي للدولة، أو على حد تعبيره (أي: تعبير أتاتورك): «لقد قهرت العدو، وقهرت الدولة، فهل أستطيع أن أقهر الشعب؟»».

ورأى (أي: أتاتورك) أن يتخلص من الطربوش، رمز الدولة العثمانية، وكان يعلم أنه سيلقى مقاومة عنيفة من الشعب، الذي سيشعر أنه قد طعن في شعاره القومي، فأثر أن يصل إلى هدفه بالتدريج.. بدأ بأن فرض على حرسه الخاص ارتداء القبعة، فلمّا لم يعترض أحد، عمّم القبعة في الجيش كله، وبث في صفوفه من يشرح للجنود فضليتها على الطربوش في حماية الرأس من الشمس والمطر.. فلمّا لم يحتج الجيش ظهر هو (أي: أتاتورك) مرتديًا قبعة من القش! وبدا يبشر بنظريته قائلاً: «إذا أردنا أن نكون شعبًا

متمدنًا فينبغي أن نرتدي ثياب المتمدنين الدولية، أما الطربوش فهو رمز الجهل! ولكن الجماهير أبت أن تجاريه أو تقلده في «بدعته» وحتى الأفراد القليلين الذين تبعوه، عادوا فنكصوا أمام ازدراء الناس وتهكّمهم! وعندئذ أحسّ الغازي أنه فشل في إقناع الأتراك برأيه، فلم يجد بدًا من أن يفرضه عليهم بالقوة! وهكذا أصدرت «الجمعية الوطنية» (أي: مجلس الأمة التركي) بناء على طلبه (أي: أتاتورك) قانونًا يحرم ارتداء الطربوش ويعاقب من يرتديه، وبعد يومين من إصداره انتشر رجال البوليس في الشوارع الرئيسية في جميع المدن والقرى وأخذوا يصادرون الطرابيش من فوق رؤوس المارة، وكل من قاوم أو اشتكى كان مصيره الحبس!.. وسرَت في البلاد موجة من الغضب والسخط، ورجمت الجماهير في كثير من البلاد ممثلي الحكومة بالأحجار، مدفوعة بتحريض من رجال الدين الموتورين الذين ألقوا في روع الناس أن هذه البدعة مخالفة لتعاليم الإسلام، وأن القرآن والسنة يحرمان ارتداء القبعة!.. وفي الجمعية الوطنية (أي: مجلس الأمة التركي) نفسها وقف الجنرال نور الدين باشا يحتج على هذه البدعة الجديدة..!.

عندئذ انقلب (أتاتورك) إلى مستبد غاشم، لسان حاله «أن الثورات يجب أن تبنى على الدم، وإلا انهارت ولم تدم!» وبدأ فأقصى نور الدين باشا من الجمعية وأرسل «محاكم الاستقلال» إلى الأقاليم لتحكم على مئات من «المتمردين» بالشنق والرمي بالرصاص والسجن!.. ولكي يوطد مصطفى كمال هذا التقليد في أذهان العالم الخارجي أرسل مندوبًا إلى المؤتمر الإسلامي المنعقد في مكة، مرتديًا قبعة! وكان المؤتمر يضم ممثلين لجميع دول العالم الإسلامية. ولم يجد المؤتمرون بدًا من احترام المندوب وقبعته تقديرًا لمصطفى كمال. «الذئب الأغبر» (ص٢١٢ ـ ٢١٤) القاهرة يوليو ١٩٥٢م.

* **المقبوض عليهم في سبيل القبعة:**

تم القبض على كثير من علماء الدين الأتراك منهم: سليمان خوجة العشاقي، وصالح أفندي الغيتاني مدير مدرسة الأئمة والخطباء في عشاق، وأحمد أفندي البوزقيرلي، ودورمش خوجة السلطنيوي، والشيخ المتصوف شرف الدين الداغستاني، وغيرهم، أتى بهم رجال الحكومة من جميع أنحاء تركيا من «ريزه» (اسم مدينة في بلاد اللاز بشمال تركيا) ومن «أرضروم»، و«كيراسون»، و«سيواس» وغيرها من مدن الأناضول إلى أنقرة العاصمة التركية، كما قبضت السلطات على الشيخ عاطف أفندي أيضًا.

وفي ٢٦ يناير ١٩٢٦م، قدم عاطف أفندي لأول مرة أمام «محكمة الاستقلال» فهو الذي كتب ضد القبعة قبل أن يصدر قانون تغيير الأزياء ولبس القبعة بسنة وأربعة أشهر.

* **عاطف أفندي وأحداث القبعة:**

كان لا بد من القول أنه في يوم الخميس ٢١ يناير عام ١٩٢٦م حدثت ثورة في مدينة كيراسون التركية وسميت باسم «ثورة القبعة» لأنها كانت ضد قانون القبعة الذي أصدره مجلس الأمة التركي، والمفهوم أن لكتاب عاطف أفندي عن تقليد الفرنجة والقبعة أثرًا في هذا الحادث.

وفي كيراسون أيضًا وقعت حادثة سميت «حادثة كيراسون» قام فيها شخص غريب مختل العقل، وقف في وسط الشارع وأعلن بصوت عال أنه لن يمتثل لقانون لبس القبعة ولن يلبسها. قبضت الشرطة عليه وسألوه:

ـ لماذا لم تلبس القبعة؟ فأجاب بقوله:

ـ لأني أرسلت إلى عاطف أفندي خطابًا بشأن ارتداء القبعة فأجابني بأن

الشريعة لا تسمح بارتدائها، وأن في ارتدائها الكفر، لذلك قررت أن لا أرتديها.

❑ هنا يقول الكاتب التركي نجيب فاضل في كتابه «المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير» ـ عند تعرضه لهذه الحادثة ـ أن لم يسأل أحد من رجال الشرطة هذا الرجل؛ إذا كان أخذ بكلام عاطف أفندي، فلماذا يصيح بهذا الشكل المفتعل وسط الشارع، ويقول: إنه لن يلبس القبعة؟! لم يسأله أحد هل أحسّ بحاجة إلى هذا الصياح المبالغ فيه؟! وهل قال له الشيخ أن يصيح هكذا؟! ولما سألت الشرطة الرجل عن خطاب عاطف أفندي الخاص بهذا، قال: إنه فقده!

تقوم السلطات بالقبض على عاطف أفندي وترسله إلى محكمة كيراسون أولاً ثم إلى محكمة الاستقلال بأنقرة.

❑ يقول نجيب فاضل في كتابه المذكور عن حادثة كيراسون هذه: «إن هذا الحادث مدبر... أسوأ وأحقر أنواع التدبير».

سألوا عاطف أفندي عن صحة إرساله خطاب إلى هذا الرجل، فأوضح الشيخ إلى محكمة كيراسون أن هذا كذب، فلم يكتب لهذا الرجل شيئًا بل لم يتلق منه أيّ خطاب.

مثل أمام محكمة الاستقلال في مسألة قضية القبعة ـ ضمن الكثير من الماثلين ـ النائب البرلماني السابق لمدينة مرعش ـ واسمه حبيب ـ الذي ذكر للمحكمة؛ أن أهل مرعش متمسكون بدينهم، والقبعة تجرح شعورهم الديني، وأنه نفسه لم يجد وقت صدور قانون القبعة، قبعة في أي مكان في مرعش ليرتديها في فورة مدينة مرعش ضد قانون القبعة، حكمت المحكمة على سبعة أشخاص بالإعدام، وبعديد من الأحكام الأخرى على بعض المواطنين، بلغت ما بين السجن خمسة عشر عامًا إلى ثلاث سنوات سجنًا.

*** الإعدام للشيخ بدلاً من ٣ سنوات سجن:**

في ٢٦ يناير ١٩٢٦م: عاطف أفندي أمام محكمة الاستقلال المدعي العام يطلب للشيخ السجن ثلاث سنوات على الأقل.

القاضي يطلب من الشيخ إعداد دفاعه ليقرأه على المحكمة في الغد. الشيخ يبدأ في كتابة دفاعه، يغفو أثناء الكتابة يستيقظ بعد هذه الإغفاءة، وعلى وجهه حضور، وفي أساريره سكون، يمزق الورقة التي كان يكتب فيها دفاعه ولم يكن أتمه بعد، ويقول للقاضي في اليوم التالي ردًا على سؤال من المحكمة: «لا حاجة لي يا سيدي إلى الدفاع فمن الواضح تمامًا أنني لم أرتكب ذنبًا يوجب الدفاع»، وكان القرار بعد ساعة واحدة، كان القرار: الإعدام.

*** رؤيا صادقة:**

أمّا لماذا مزق الشيخ عاطف أفندي ورقة دفاعه، ولماذا كان موقنًا من أن الحكم عليه سيكون الإعدام، وليس ثلاث سنوات كما كان يطلب المدعي العام، فيقصها نجيب فاضل في كتابه «المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير»:

«حدثني بهذا الشيخ طاهر المولوي بنفسه (الذي كان يحاكم أمام نفس المحكمة التي أصدرت حكم الإعدام على عاطف أفندي، كان ذلك في عام ١٩٣٢م عندما التقيت بطاهر المولوي في مكتبة رائف قرادنيز في سوق الكتب في حي بايزيد بإستانبول).

جلس عاطف أفندي (في السجن) بعد صلاة العشاء وأخذ يكتب دفاعه عن نفسه (والذي طلبه منه القاضي).. أغفى الشيخ عاطف أفندي قليلاً بعد أيام طويلة لم يذق فيها طعم النوم.. أغفى وفي يده ورقة دفاعه الذي لم

يكمله.. نوم عاطف أفندي لم يستمر طويلاً، وفجأة فتح عاطف أفندي عينيه وارتسمت على وجهه ابتسامة عميقة ورقيقة عجيبة.

❑ الشيخ طاهر المولوي يسأل: ماذا حدث يا فضيلة الشيخ؟ لماذا استيقظت سريعًا؟

ـ قال الشيخ: حصل المراد من النوم؟

ـ يعني؟!

ـ يعني رأيت الرؤيا التي كنت أنتظرها.

ـ ماذا رأيت؟

ـ اعتدل الشيخ عاطف أفندي، لاك ورقة دفاعه بيده، وقال:

ـ رأيت في رؤياي، فخر الكائنات (سيدنا محمد ﷺ) يقول لي: يا عاطف أتشغل نفسك بالدفاع عن نفسك ولا تريد الالتحاق بنا؟!

ـ قال طاهر المولوي للشيخ: وماذا تفسر هذا؟

ـ قال عاطف أفندي: سيعدمونني، وسألتحق بحبيب اللّه ﷺ.

ـ طاهر المولوي: لا شك قط في صدق هذه الرؤيا.. إلاّ أن المدعي العمومي لم يطلب لك إلا السجن ثلاث سنوات!

ـ سترى أنهم سيعدمونني، ولا أفهم إلاّ أن الأمر يأتي من أكبر الأبواب.

ـ ليس لدي ما أقوله.

ـ صحيح! ولم يعد للكلام جدوى! وها هي ذي الورقة التي كتبت فيها دفاعي ولم أكملها بعد.. أمزقها!.

وفي اليوم التالي حكمت المحكمة بالإعدام على عاطف أفندي على أن ينفذ هذا الحكم فوراً فنفذ في فجر اليوم التالي.

*** أحمد نعيم بابان زاده داعية الفكرة الإسلامية والمدافع عنها أمام الفكرة القومية، قال عنه شاعر الإسلام محمد عاكف: «إن أحمد نعيم بك هو أكثر الناس الذين أحببتهم بعد الصحابة»:**

منذ عهد التنظيمات العثمانية، أي: في بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصيب العالم الإسلامي بمقدمات غزو الفكرة الأوربية المتمثلة في القومية، تطور هذا الفكر بواسطة منظمات مدسوسة على الدولة العثمانية، وجودها في بلاد المسلمين وجذورها في أوربا، نمت هذه الفكرة وازداد أتباعها وعلى رأسهم هؤلاء الذين تعلموا في الغرب فأخذهم بريقه.

وقد تمثل انتصار الفكرة الغربية في الدولة العثمانية، بقيام الدولة القومية التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك؛ الذي اتخذ مثاله الأعلى في الغرب رافضًا إسلامية البلاد الشرقية.

لا بد من القول هنا أنه قد سبق هذه المرحلة، مرحلة إعلان الأيديولوجية الطورانية، سياسة للدولة العثمانية بعد أن استولت عليها ـ عنوة ـ جمعية الاتحاد والترقي، إلا أن الوعي الإسلامي العام بجانب نفور القوميات الأخرى الموجودة في الدولة العثمانية مثل القوميتين العربية والكردية من مبدأ الاتحاديين، وهو الجامعة الطورانية (وحدة أتراك العالم) بجانب عوامل أخرى أدت إلى فشل الجامعة الطورانية، بل وقد تسببت هذه الفكرة في تدمير الدولة العثمانية.

وفي أثناء اقتحام الغرب الفكري لفكرة المسلمين، ولد أحمد نعيم بابان زاده في بغداد، وأحمد نعيم ينتمي إلى أسرة بابان زاده البغدادية، وأحمد نعيم هذا هو الذي عُرف فيما بعد كواحد من رجال العلم المسلمين النابهين ذوي السمعة الإسلامية الطيبة، عُرف بعمق الفكر وقوة الحجة وسلامة

المنطق، يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية، لكن شهرته طبقت الآفاق عندما دافع عن الفكرة الإسلامية في مواجهة القوميين (الجدد والقدامى) في الدولة العثمانية، ثم في تركيا بعد انهيار الدولة، وهو الذي أخطر القوميين حتى لا يستغلوا الإسلام في الدعاية للقومية وكسب مزيد من الأنصار.

أمضى أحمد نعيم فترة دراسته الابتدائية في بغداد، ثم انتقل إلى مدارس إستانبول حيث استمر في إتمام بقية مراحله الدراسية التي تُوِّجت بأستاذيته في الجامعة.

منذ شبابه كان يجيد اللغة العربية، وكانت معرفة العربية ميزة تفتح أمام المثقفين العثمانيين الطريق إلى الوظائف المحترمة، فقد التحق أحمد نعيم في البدء بوزارة الخارجية العثمانية بوظيفة مترجم، وقد كانت وظيفة مرموقة، ثم عمل أستاذًا للغة العربية في نفس المدرسة التي تخرج فيها وهي غالاطه سراي.

وبين عامي ١٩١١م - ١٩١٣م، عمل أحمد نعيم مديرًا للتدريس العالي في وزارة المعارف، وأثناء تأديته لهذه الوظيفة عمل عضوًا في غرفة التأليف والترجمة التابعة لوزارة المعارف أيضًا.

كما بدأ أحمد نعيم بك في عام ١٩١١م في إلقاء دروسه في كلية الآداب (شعبة الإلهيات) في دار الفنون (الجامعة) بإستانبول، وأخذ يلقي في هذه الكلية دروس الفلسفة والمنطق والأخلاق، واستمر في ذلك حتى عام ١٩٢٣، كان في أثنائها أيضًا مديرًا للجامعة.

وأثناء ذلك كان يكتب في الصحف والمجلات داعيًا إلى الفكرة الإسلامية مدافعًا عنها، وكان هذا أثناء اشتداد المعارك بين أنصار الفكرة الإسلامية وأنصار الفكرة القومية، وكان طبيعيًا أن تنتقل هذه المعارك إلى الجامعة بين الأساتذة الإسلاميين وبين الأساتذة القوميين.

يجدر الملاحظة هنا أن أحمد نعيم بك وجد في العمل السياسي ما يلائم دعوته، فنجده عام ١٩١٩م، وقد أصبح عضواً بمجلس الأعيان واستمر في عضويته هذه لمدة ثلاث سنوات، وعندما انتهى مجلس «المبعوثان العثماني» عاد أحمد نعيم بك عام ١٩٢٢م إلى الجامعة مرة أخرى، واستمر في وظيفة الأستاذية والكتابة أيضًا، إلى أن أطاح به القوميون الخلص بعد أن كسبوا المعركة السياسية وسيطروا على البلاد وأعلنوا مبادئ الأيديولوجية الكمالية، وقد اتخذ الكماليون عدة قرارات منها: عدم السماح للمطالبين بتحكيم الشريعة الإسلامية، بالكتابة ولا بالكلام، وكان فصل أحمد نعيم بك من الجامعة في أول يوليو ١٩٣٢م.

أحمد نعيم بك أجاد اللغة العربية إجادته للغة العثمانية وعرف الفارسية، كما أنه لكي يعرف تطور الفكر الغربي، درس اللغة الفرنسية حتى يجد الفرصة ليدرس الغرب مصدر الفكرة القومية.

لذلك اتسمت كتابات أحمد نعيم بك بالجدية وحازت الاحترام، وقد كان يعقد المقارنة دائمًا في كتاباته بين مفكري الشرق الإسلامي وبين مفكري الغرب مبينًا في دراسات جادة مدى أهمية الفكر الإسلامي في الحفاظ على وحدة المسلمين، وخطورة استمرار الفكر الغربي في الشرق الأوسط في تفتيت وحدة المسلمين، وقد كانت خطورة الفكر الغربي متمثلة في الفكر القومي الذي أسماه المسلمون العثمانيون في ذلك الوقت «داء الفرنجة» أو «علة الغرب».

اشتهر من عائلة بابان زاده في ذلك الوقت اثنان: أحمد نعيم بك، وكان إسلامي النزعة إسلامي الاتجاه، وإسماعيل حقي بابان زاده، وهذا ارتقى إلى درجة وزير للمعارف، وكان فكريًا مضاداً لأخيه أحمد نعيم، فقد كان إسماعيل حقي من دعاة الفكر القومي، كان كرديًا يدعو للفكرة القومية

الكردية، وكان صاحب مكانة كبيرة بين رجال الاتحاد والترقي، أما أحمد نعيم بك، فقد وجد أن من الذل الدعوة إلى القومية، أبي: إلى عصبية قومية في الوقت الذي ننعم فيه بالإسلام.

تخرج على يد أحمد نعيم بك عدة آلاف من الطلاب طوال ثلاثين عامًا، كان قريبًا من تلامذته، لم يكن يبخل عليهم بالوقت ولا بالجهد في سبيل إعدادهم فكريًا وعلميًا.

وعندما ظهرت الحركة الكمالية في تركيا، كان معنى ذلك أن تطورت فكرة الطورانية (فكرة تجمع أتراك العالم في دولة واحدة) إلى فكرة الدولة القومية المحدودة التي أعلن مصطفي كمال أتاتورك حدودها بالدولة التي دافع الأتراك عنها، وحملوا السلاح دفاعًا عن حدودها، وأراقوا دماءهم في سبيلها وهي دولة تركيا الحالية.

هؤلاء الكماليون تمكنوا من الانتصار بفكرتهم القومية العلمانيه، انتصروا وكان لا بد بالضرورة - من وجهة مصالحهم الأيديولوجية - من تصفية المفكرين الداعين للإسلام مفهومًا للدولة، وشملت التصفية فيما شملت الأستاذ أحمد نعيم بك، إذ أنه كان في كل محاضراته وكتاباته يفضل الفكرة الإسلامية، على الفكرة القومية الواردة.

تم إبعاد أحمد نعيم بك عن الجامعة، وعن كل وسائل الاتصال الجماهيري، فأصابه الحزن والكمد، إن ما كان يزعج أحمد نعيم بك هو انحسار القوة عن الفكر الإسلامي الذي وهب نفسه للدفاع عنه، حزّ في نفسه استيلاء المعارضين للفكرة الإسلامية على إدارة البلاد، إذ أن النتيجة كانت تقول: إن الإسلاميين قد خسروا المعركة.

فصلوا أحمد نعيم بك عن الجامعة في منتصف عام ١٩٣٣م، ومات في منتصف عام ١٩٣٤م، كان أحمد نعيم بك يكره حب الظهور، ولم يعط

أحدًا الفرصة لمدحه، فقد كان يكره هذا، قال عنه معاصروه: إنه لم يداخله الغرور ولا الرياء، كما كان سمحًا، قال عنه مدحت جمال إينانج ألب في كتابه المسمي «أحمد نعيم المدرّس» (المدرس في اللغة العثمانية بمعنى أستاذ الجامعة أي: بروفيسور) إنه: «كان لأحمد نعيم بك قلبًا محمديًا».

كان لوفاة أحمد نعيم بك أثر كبير في نفوس الذين تلقوا عنه «الفكرة الإسلامية» وفي نفوس الذين قرأوا له، بل بلغ الأمر في ذلك أنه عندما سمع شاعر الإسلام محمد عاكف بوفاة أحمد نعيم (داعية الفكرة الإسلامية والمدافع عنها أمام فكرة القومية) أن قال: «حسبت ساعتها أن بيتي قد خرب وأنني واقع تحت أنقاضه».

كان شاعر الإسلام محمد عاكف على حق عندما قال: «إن أحمد نعيم بك هو أكثر الناس الذين أحببتهم بعد الصحابة» ذلك لأن أحمد نعيم بك كان من أشد الناس تأثيرًا في المثقفين الذين تكتلوا أمام قوى الفكر القومي المتعصب الذي غرقت فيه البلاد العثمانية في أوائل القرن العشرين، رثاه الشاعر التركي علي رضا قوش آضالي بقوله:

آه لقد رحل عنا أحمد نعيم بك.

وهو منبع العلم والعرفان.

كما رثاه العالم المسلم المشهور محمد حمدي المالي بقوله:

ذهب نعيم إلى ربه؛

عبر السجود.

*** أعماله:**

أولاً: المقالات:

لأحمد نعيم بك مقالات كثيرة نشرها في مجلة «ثروت فنون» وهي مجلة ظهرت في أواخر عهد السلطان عبدالحميد، تهتم بالأدب والأدباء، بها

ترجمات من اللغات الغربية وخاصة الفرنسية، أما أحمد نعيم بك فقد كان له سلسلة مقالات في هذه المجلة تحت عنوان «بدائع العرب» قدم فيها للقارئ العثماني ترجمات مختارة من الأدب العربي إلى اللغة التركية، كما كتب المقالات حول هذه المترجمات والشروح.

كما كتب أحمد نعيم بك المقالات في جريدة طنين وفي مجلة كلية الآداب بجامعة إستانبول.

ثم كتب في مجلة «صراط مستقيم» التي كانت تصدر في إستانبول مجلة «الصراط المستقيم» التي أخذت في الظهور منذ عام ١٩٠٨م، وهي مجلة أقامها المسلمون العثمانيون يردون من خلالها غائلة الفكر القومي الذي كان قد استولى على عقول الشباب العثماني، خاصة صغار ضباط الجيش قبيل انهيار دولة آل عثمان، وكتب في مجلة «سبيل الرشاد» وهي امتداد طبيعي للصراط المستقيم.

وقد عرض أحمد نعيم بك على المجلة رسالة أرسلها لها، عرض أن يكتب فيها، وقال فيما قال: «سلام عليكم، إنني أطالع في أوقات فراغي بحب وشوق ولذّة مجلتكم الغراء..» وبعد أن أبان أحمد نعيم بك في رسالته إلى المجلة أنه يقدر خدمات المجلة في وقت تمر فيه أمة محمد بالظلم والجهل، «وإني أقدر مدى توفيق المجلة في تلقين حقائق الإسلام للأذهان الفاسدة، وتبعث من جديد الأحاسيس الدينية في القلوب الميتة، وأن المجلة لها السبق في نفخ شعور الإحياء الإسلامي من جديد في البلاد».

ثم أفصح أحمد نعيم بك عن تصوره لخدماته في مجال الإحياء الديني عن طريق المجلة، في قوله: «إن رأيي المتواضع أن أهم خطوة يمكن أن تخطوها في هذا المجال هو التفسير والحديث، وإني أعتبر أن على الرغم من خدماتكم الجليلة في المجلة، إلا أننا لم نر فيها شيئًا خاصًا بالحديث

الشريف، فالكتاب والسنة هما أهم منبعين في ديننا، وأنه ينبغي عليكم أن تفتحوا قسمًا لكل منها بين أعمدة الصراط المستقيم، ومن هذا المنطلق أقول لكم إنه برغم عدم حيازتي لقدرة عميقة في مجال التفسير ولا في مجال الحديث النبوي، ومع رغبتي في خدمة المسلمين، فعلى الأقل يمكنني تقديم خدماتي في هذين المجالين عن طريق الترجمة من العربية.

وأني لأثق أنني عندما أجد الفرصة لترجمة الكتاب المبارك المسمى بالتجريد الصريح وهو الذي رتبه الزبيدي عن البخاري باختصار، أثق أنني إذا ترجمت هذا الكتاب المبارك على حلقات وأرسلت ذلك إليكم فلن ترفضوه.

وقد كان هذا العرض من داعية إسلامي عميق الفكر عظيم التواضع، مسارع للخدمة الإسلامية، كسب وأي كسب لمجلة الصراط المستقيم، التي كانت صاحبة نفوذ عظيم في قلوب المسلمين، بدأ أحمد نعيم بك في نشر «التجريد» في الصراط المستقيم، ثم أخذ بعد ذلك في شرح حديث نبوي في كل عدد من أعداد المجلة.

❑ وقالت مجلة الصراط المستقيم في عرفانها بفضل أحمد نعيم بك: «إننا نشكر باسم جميع العالم الإسلامي، الأخ أحمد نعيم بك، فقد أخذ على عاتقه هذه الخدمة السامية المقدسة المفيدة».

ثانيًا: المؤلفات:

١ ـ تمرينات: وهو كتاب مدرسي في صرف اللغة العربية، عبارة عن تطبيقات على رسالة كتبها جميل الناظر بمدرسة غالاطه سراي.

٢ ـ دروس الفلسفة.

٣ ـ علم النفس: وهو ترجمة كتاب بسيكولوجي، لجورج فونس جريف إلى التركية.

٤ ـ ما هو علم الفلسفة؟ وهو ترجمة عن بول جانيت إلى التركية.

٥ ـ ترجمة الأربعين حديثًا من العربية إلى التركية.

٦ ـ قضية القومية: وهو كتاب في دحض الفكرة القومية، حتى أن بعضهم نشره بعد ذلك بالحروف اللاتينية التركية تحت عنوان «الإسلام يمنع العرقية».

٧ ـ أسس الأخلاق الإسلامية.

٨ ـ ترجمة «التجريد الصريح» مختصر البخاري، لم يكمل إذ لم يصدر منه إلا جزءان. الجزء الأول عبارة عن تأليفه، ويختص بدراسة علم الحديث والأصول، وهذا الجزء من الكتاب الوحيد الذي يمكن اعتباره ووصفه بأنه أكثر الكتب المنشورة حتى الآن في علم الحديث تكاملاً وعلمية، كما وصفه ناشر كتاب بعنوان «الإسلام بخطوطه العريضة» لأحمد نعيم بابان زاده، نشر دار جيغيز بإستانبول عام ١٩٧٥م، وقد طبعت إدارة الشئون الدينية بأنقرة هذا الكتاب عام ١٩٢٨م.

*** رأية في الإسلام والعصبية القومية:**

نترجم هنا عن أحمد نعيم بك بعض كتاباته في موضوعين، هما «بعض الأمور التي يسرت انتشار الإسلام»، و«قضية القومية في الإسلام».

*** بعض الأمور التي يسّرت انتشار الإسلام:**

☐ سنتحدث هنا عن بعض الوسائل التي يسّرت انتشار الإسلام، وهي:

١ ـ الاتحاد والإيمان الخالص:

كان العرب ـ وهم أول من دخلوا في دين اللّه أفواجًا ونشروه ـ كانوا يعيشون على هيئة قبائل مختلفة، كانوا يتلاعبون بحياة بعضهم بعضًا وهم تحت تأثير فكرة الثأر وفكرة الحصول على الغنائم، فجمعهم فيض الإسلام

حول كلمة واحدة، كما أن هذا الفيض الإسلامي قد حوّل هذه القبائل المتفرقة إلى قوّة مجتمعة. ثم دفعتهم الغيرة الدينية والقوى المعنوية إلى التضحية والفداء. فلم يعد ينسحب أو يفكر في التقهقر عن مكانه بين المجاهدين أي فرد منهم، حتى في أحرج مواقف القتال وأدقّها. لقد كان يعلم حتى أجهل الجاهلين منهم أن كل ميت في سبيل الدين شهيد، وكل من يحيا فهو غازٍ، وأن أيّ إنسان يلقي بنفسه في المخاطر لن يموت إذا لم يكن ذلك مكتوبًا، وأنّ الأجل إذا حان وقته فلا يمكن أن يوقفه شيء. ولأن هذه الفكرة العلويّة لم يكن لها وجود عند هؤلاء الذين يحاربون المسلمين، فقد كان شرف النصر في كل معركة من نصيب المجاهدين المسلمين.

٢ ـ تحمّل الشدائد، والبساطة:

كان العرب قوم بدو. نشأوا وكانت لهم القدرة على تحمّل الصعاب نتيجة التربية التي تمنحها الصحراء، قليلاً يأكلون وقليلاً يشربون وقليلاً يلبسون، ورغم هذا فقد كانوا يسيرون كثيراً. كانت لهم المقدرة الفائقة على السهر وتحمُّل التعب والمشاقّ، ولهذا السبب كانت جيوشهم بسيطة، فيها خفة الحركة وقلّة الحمل والأثقال، وكانوا يستطيعون بيسر وسهولة تغيير المكان.

٣ ـ العسكرية والفروسية والإقدام:

كان العرب يجيدون ركوب الخيل بمهارة فائقة. كما كانوا يجيدون استخدام السلاح استخدامًا يفضلون فيه العجم والروم. كما أنهم بالفطرة قوم شجعان يفخرون بالشجاعة ويستقبلون الموت ـ إذا لزم الأمر ـ بشجاعة وإقدام، ويعتبرون الفرار من العدو عيبًا، وأيّ عيب.

٤ ـ العبقريات النادرة:

ظهر عباقرة عديدون، خاصة في الفترات الأولى من الإسلام، حيث كان وجودهم مصاحبًا للجيوش الإسلامية، وعن طريقهم أحرز الإسلام

تقدّمه.

ظهر أصحاب العزم والنيّة الصادقة والصلاح والتقوى، مثل سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر ﵄، وظهر أيضًا أرباب الشجاعة والبطولة مثل سيدنا علي، وسيدنا حمزة ﵄، وظهر القادة مثل خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجرّاح، ويزيد بن أبي سفيان ﵃.. وظهر السياسيون أمثال عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه ﵃. أسهم كل هؤلاء من العظماء في إعداد هذه الفترة من فترات التاريخ الإسلامي. وبعدهم ظهرت شخصيات إسلامية تعقّبت خطا هؤلاء وساروا على منوالهم.

٥ ـ السياسة في الفتوح:

دخل المجاهدون المسلمون ـ عندما كانوا يعملون على نشر الإسلام ـ في الأراضي التي يشكّل العرب فيها الأغلبية الكبيرة من شعوبها، مثل مناطق الشام والعراق.

وبعد أن ضمن الفاتحون ولاء هذه الشعوب، استمرّوا في التقدّم واهتموا أيما اهتمام بوجود رابط دائم بينهم وبين مركز الخلافة.

٦ ـ انتشار العدالة:

في الوقت الذي كانت الشعوب الخاضعة لكل من إيران وروما تئن تحت وطأة ظلم وضغط هاتين الحكومتين، كان العرب ينشرون العدل في الأراضي التي دخلوها. كانوا يعطون الرعايا الحرية، وكانوا يساوون في الحقوق بين الأمير وبين البدويّ الفقير. كانوا ينفّذون بدقّة متناهية أوامر سيدنا أبي بكر الصديق التي تحث على عدم الغدر، وعلى البعد عن خداع أهل البلاد المفتوحة، وعلى عدم ربط أذرع الأسير، وعلى عدم تعذيب أحد، وعلى عدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعلى عدم قطع النخيل والأشجار المثمرة،

وعلى عدم ذبح الحيوانات كالأغنام والماشية والجمال عبثًا، وعلى عدم التعرّض للرهبان الزاهدين في الدنيا الذين انسحبوا إلى أديرتهم.

وعندما وجد الإيرانيون والرومان كل هذا، أخذوا يفتحون أبواب مدنهم بلا حرب أحيانًا، وبصدام خفيف أحيانًا أخرى، لمجاهدي الإسلام، وينضمون بذلك إلى موكب العدالة الذين يدخلونه حديثًا بعد أن ذاقوا مساوئ الحكومات السابقة.

بهذا الذي عدّدنا وبغيره، ومن قبل بفضل العون الإلهي الذي غذى هذه الأسباب؛ إذا بنور الإسلام ـ ولمّا لم يمض بعد قرن واحد منذ ظهوره ـ قد امتدّ إلى داخل فرنسا مارًّا بحدود الهند والصين في الشرق والأندلس من الغرب بعد أن أزاغ بصر حكومتي إيران وروما.

أحمد نعيم: «كنل جزكيلر يله إسلام».

* **قضية القومية في الإسلام:**

بدأت قضية القومية، أو بمعنى آخر العصبية القومية والجنسية بين المسلمين أن تكون إحدى المسائل الحيوية في البلاد العثمانية ابتداء من عهد المشروطية.

وهذه القضية بدعة أجنبية مهلكة؛ بالدرجة التي أرى فيها ـ أنا العبد العاجز ـ أنه يمكن أن نطلق عليها اسم: داء السلّ في جسم الأمة الإسلامية، كما أنها بدعة مضرة استعرناها من أوربا بدافع من الجهل، والواقع الفعلي أن القومية تعتبر من أعظم مصائبنا التي تشدّ الانتباه، وأكثر ما يشدّ الانتباه في ذلك أننا لا نأخذ عن أوربا إلا ما عندها، وأننا لا نطبق هنا الأمور الطيبة في أوربا إلا إذا أفسدت.

القضية القومية مذمومة ومرفوضة شرعًا، وهي بالتعبير الشرعي دعوى

الجاهلية، وهي أفظع ضربة لقوام الأمة الإسلامية ولبقائها ولرفاه المسلمين ولسعادتهم.

إن المعنى الذي أخذه هؤلاء الذين يمسكون في أيديهم براية العصبية القومية، معنى منافٍ للوطنية ولحب الوطن، والمصيبة العظمى التي حلت بإخواننا الألبانيين الذين جروا وهرعوا خلف السعادة القومية والسراب المغفل، ليعتبر درس عبرة فظيع علينا استيعابه.

إن نفس الأسباب تولد نفس النتائج، وبناء على هذه القاعدة الطبيعية والمعقولة فإننا إذا داومنا السير في هذا السبيل، فإن هذه المصيبة ستحلّ بنا إن آجلاً أو عاجلاً، وبهذا الاطراد ستصبح هذه الديار، وهي آخر ملجأ للأمة الإسلامية (يقصد المؤلف بذلك: الدولة العثمانية) يمكن أن تنقلب ـ معاذ اللَّه تعالى ـ إلى ديار للكفر مثل ألبانيا.

إننا نرى زعماء الفكرة القومية ينقسمون إلى مجموعتين:

الأولى: القوميين الخلّص.

الثانية: القوميين الإسلاميين.

ونحن نرى (أي: المؤلف أحمد نعيم بك) أن المجموعة الأولى تريد أن تلقح الأذهان وبوضوح، بفكرة الإلحاد، أما الفكرة الثانية (أي: القوميين الإسلاميون) فأصحابها لا يريدون أن يضحّوا أبدًا بأي من الفكرتين: الإسلامية والقومية.

هؤلاء (القوميون الإسلاميون) يتحدثون عن ضعف العنصر التركي وأنه يحتاج إلى العون والمساعدة، لكنهم لا يريدون أن يجرحوا الشعور بالجامعة الإسلامية، إنهم يعتبرون أن هذه الجامعة لازمة لأمرين: أولهما عدم انفصال العناصر الأخرى الإسلامية عن الدولة، وأيضًا يسر تربية وارتقاء الأتراك. لكنهم يخطئون في نقطة، فهم يقولون: «إن الجامعة التركية تقوّي الجامعة

الإسلامية، وإن دعوى العصبية ليست مغايرة للدين الإسلامي، وإن الفكرتين لا تزاحم كلاهما الأخرى بالعكس؛ فإن كلاً منهما تكمل الأخرى وكلاً منهما تسهل حصول الأخرى، وإننا نستطيع عن طريق الحمية الوطنية القومية أن نقرب إلى الإسلام العديد من الشباب المحروم ـ بكل أسف ـ من الإيمان ومن الإسلام». يقول القوميون الإسلاميون هذا ويقيمون بجانب الإيمان الديني «إيمانًا قوميًا».

ولقد التقيت ببعض أشخاص من هذه المجموعة، لا أشك أدنى شك في تمسكهم بالإيمان والإسلام، وهؤلاء يعتقدون جدًا بأن الشعور الإسلامي لا يصاب بأي ضرر كان إذا ما حدث التفاخر بالقومية، بل بالعكس، ـ والقول لهم ـ فإن الإنسان الذي يفعل هذا يصل إلى درجة من الرقيّ عظيمة إذا افتخر بشعور الاعتزاز المصاحب للكيان، حتى ولو كان هذا الشعور قائمًا تجاه الأقوام الأخرى ولو كانت مسلمة.

□ تقول هذه الشخصيات التي أتحدّث عنها: «وما حيلتنا إذا لم نقل بهذا وأبطلنا الحديث عنه؟! فإن العنصر التركي سيتعرّض للزوال. الألبانيون والعرب قاموا بالدعوة إلى هذه المسألة (القومية) قبل أن نفعل (نحن الأتراك) هذا الأمر، إننا الآن في موقف الدفاع عن النفس، فإذا ترتّب على دفاعنا هذا ضرر وقع على المسلمين فإن الذنب في هذه الحالة ليس ذنبنا نحن. إن الذنب إنما يتحمّله أوّل من بدأ هذه المسألة وقال بها. والبادئ أظلم».

وإذا سألنا هؤلاء الذين يدعون إلى القومية العربية: «لماذا تدعون إلى القومية؟ فإنهم يبحثون عن ألف وسيلة ووسيلة ليقولوا إنهم على حق وإنهم في موقف الدفاع ويكررون ـ مثلهم في مثل هذا إخواننا الأتراك ـ القول بأن البادئ أظلم».

□ لسنا هنا في مجال البحث عن: مَنْ ظَلَم مَنْ؟! لأننا نرى في كل من

الطرفين أمرًا منكرًا يخالف الشريعة ولا يتّفق مع روح الإسلام. وبموجب الحديث الشريف: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، فإننا نرى أنفسنا مكلّفين بمساعدة الجميع، بمعنى أننا مكلفون بالدعوة إلى طريق الحق والصواب.

بناء على ذلك، نقول لإخوننا (الأتراك) القوميين الإسلاميين إن التركي يحتاج العون، وهو مفتقر لهمّة إرشاداتكم، وهذا لا ينكره أحد، وليس من الحقّ أن ندع التركي بعد ذلك عرضة لمتاعب تؤدي إلى ضرره، ولا أن ندعه عرضة لحالة لا يستطيع معها التفكير في سعادة دنياه وآخرته. والرقي بأحواله الاجتماعية وتدعيم قوته الاستحصالية، وتقوية معنوياته، وتنمية ملكاته الفاضلة وإزالة ملكاته الرديئة؛ لأمر جدير حقًّا بالتقدير، وهذا أمر مقبول عند اللّٰه وعند الناس.. ولكن عليكم ألا تجتازوا حدّ الجواز في أي وقت من الأوقات وتفاخرون بدعوى الجاهلية وبالأنساب وبالآباء الأقدمين.. وعليكم دائمًا ألا تغفلوا (عندما تخاطبون التركي) عن مخاطبته بكلمة: «يا مسلم!» بدلاً من كلمة: «يا تركي!». حدّثوه دائمًا عن الإسلام ولا تحدّثوه عن القومية التركية. وعندما تريدون أن تضربوا على أوتار همّته الحسّاسة لا تضربوا هذه الأوتار باسم العنصر التركي وإنما باسم الإسلام. لا تفصلوا تاريخ الترك عن تاريخ الإسلام.

راجعوا أنفسكم قليلاً وفكّروا بإنصاف. إنكم تجرون خلف هذه الدعوى القومية وهي دعوى فارغة. احسبوا جيدًا وراجعوا جيدًا الخدمات التي قمتم بها للأتراك. ماذا أضفتم لأدبهم أو لقواعدهم اللسانية أو لقاموسهم أو لعلومهم وفنونهم أو لتجارتهم وزراعتهم؟!!

ماذا أكسبتم الأتراك غير دعوى أنانية جافّة، وغير إفساد علاقتهم بإخوانهم الآخرين من الشعوب الأخرى التي كانت تستظل براية الدولة العثمانية. إن عموم الناس لا يفهمون جيدًا ماذا تريدون قوله. إن عموم

الناس لا يعلمون أيضًا ماذا يفعلون. إنكم قلتم لهم إن أجدادهم، هم قدماء الأتراك، فآمنوا بما قلتم لهم، حتى الذين لم يبقَ منهم أي ارتباط بالعنصر التركي غير اللغة بعد أن اختلطت دماء الأقوام المختلفة على مدى ألف سنة، حتى أن كثيرين منهم يظنون أنفسهم أنهم أولاد وأحفاد هؤلاء المشركين القدماء، ولم يفكّروا لحظة أن القومية التركية للكثير منهم شيء عارض تمامًا، ذلك لأن ارتباطهم بالقومية التركية لم يأتِ إلا نتيجة للغة التركية التي تعلموها فيما بعد. وهؤلاء يقسمون ـ وهذا حدّ الغاية في الجنون ـ بكلٍ من: «أرض جنكيز المقدسة» و«قانون جنكيز المقدّس».

إنه لأمر جدير بالاهتمام حقًّا أن يعرف الكثير من الدعاة للقومية، أي جنس وعصبية ينتمي إليها البطن الثالث لهم، وما إذا كان هذا البطن تركيًّا أم من جنس آخر غير تركي.

إنكم أيها القوميون تعملون لإحياء الأساطير الخرافية التي مرّت عليها آلاف السنين، مع أن مثل هذا العمل سينمّي ـ ولا شك ـ في الإخوة المسلمين الآخرين إحساس الانفصال ويسبب لهم الانزعاج.

أيها الإخوة القوميون الإسلاميون! ها أنتم ترون أنه مهما عملتم بحسن نية فليس من الممكن أن تنالوا مقصودكم بالطرق التي نهى اللّٰه عنها.

إن الهدف ذو الغايتين لن يجدي شيئًا. وأتباعكم، هل سينتمون إلى القومية التركية أكثر من الإسلام؟ أم إلى الإسلام أكثر؟ إذا قلتم فلينتموا إلى الغايتين في درجة واحدة، فلن يكون هذا ممكنًا. لذلك أستحلفكم باللّٰه أن تصرّوا على أن يولي الأتراك وجوههم نحو الكعبة، وإلا يحوّلوها إلى طوران. لا توصوا أحدًا بأن يولي وجهه شطر الاثنتين، ذلك لأن الجهتين تضادّ كل منهما الأخرى ولا يمكن رؤية كلاهما في وقت واحد. فإما أن يتجه الأتراك نحو الكعبة ـ كما هم كذلك منذ ألف عام ـ ويتركون طوران

خلفهم، أو ينظرون إلى طوران فينسون بعد ذلك الكعبة. أما الذين ينظرون تارة إلى هنا وأُخرى إلى هناك فيدخلون في زمرة: ﴿**مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء**﴾ ومعروفةٌ حدود الخير الذي يمكن أن يأتي من المذبذبين في الفكر.

في هذه الحالة دعوكم من هذا الخيال الأجوف الذي يجمع الضدّين.. ذلك لأنه من المحال التواجد تحت لواء الإسلام، وتحت لواء الجاهلية في وقت واحد.

إن معرفة قانون جنكيز والتعرّف على وطن إيلخان، وذكر دولة الجيش الذهبي (من الدول التركية القديمة) لا يهمنا في شيء، فلا فخر بالشرك الذي حدث في الماضي. إن الذي يلزمنا معرفته هو: الشرع المحمدي والوطن الإسلامي ومعرفة المجاهدين المسلمين، شرف العنصر لا قيمة له أمام شرف الإسلام، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

هذه نصيحتنا للقوميين الإسلاميين. وهذا أيضًا عين ما نقوله لإخواننا العرب الذي بهر هوى العصبية أعينهم.

أحمد نعيم: «إسلامده دعواي قوميت»

دار الخلافة، توسيع طباعت مطبعة سي ١٣٣٢هـ»[1].

* شاعر الإسلام محمد عاكف ممثل الأدب الديني التركي في القرن العشرين وعنوان الجامعة الإسلامية وجهاده ورده على شعراء المادية:

ولد محمد عاكف في إستانبول عام ١٨٧٣م من أب أرناؤوطي (ألباني) مهاجر في إستانبول، وأم بخارية مهاجرة ضمن أسرتها إلى تركيا أيضًا. وكان

---

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٤٨ ـ ٣٦٨).

(١) خُدع عاكف في أتاتورك ثم استبان له أمره فيما بعد

والده محمد طاهر أفندي، عالمًا دينيًّا يعمل أستاذًا في مدرسة جامع الفاتح بإستانبول.

درس عاكف دراسة منتظمة في إستانبول: الكتاب والابتدائية والثانوية ثم القسم العالي في المدرسة. وبجانب هذه الدراسة المنتظمة تلقى عاكف في المنزل دراسة خاصة في اللغة العربية التي يجيدها إجادته للتركية، ثم درس اللغتين الفرنسية والفارسية، ولعب والده دورًا كبيرًا في إتقانه اللغة العربية.

*** عاكف يجاهد بالفكرة وبالقلم وبالخطابة:**

عندما سقطت مدينة إزمير التركية في أيدي قوات المهاجمين اليونانيين في ١٥ مايو ١٩١٩م كتب محمد عاكف في سبيل الرشاد (العدد ٤٣٧عام ١٩١٩م)، قائلاً: إن الأتراك المسلمين الذين لم يعرفوا الضيم ولم يفقدوا استقلالهم منذ القرون الطوال لا يستطيع اليونانيون إجبارهم على حياة المذلة.

وفي أواخر مايو من نفس العام، وبينما القوات اليونانية تتجه نحو آيواليق للاستيلاء عليها، فإذا بهذه القوات وقد أخذت تجابه حركة مقاومة شعبية مسلحة نجحت في صدهم. وكان هذا أول مظاهر حرب الاستقلال التركية التي انتهت بطرد قوات الحلفاء من تركيا، هذه الحركة حمست عاكفًا، فاتجه مسرعًا إلى مدينة (باليق أسير)؛ ليحث الشعب على مواصلة النضال، فألقى الخطب في الجوامع، وكتب في سبيل الرشاد، ثم طبع سرًّا ترجمة تركية قام بها صهره عمر رضا طوغرول لكتاب ألّفه العالم الهندي حسين قضواي؛ يهاجم به الإنكليز. وكان الإنكليز وقتها يحتلون إستانبول. وفي عام ١٩٢٠م استقال محمد عاكف من أمانة دار الحكمة الإسلامية لانشغاله بالمعركة. وعندما أعلن الحلفاء في ١٦ مارس ١٩٢٠م احتلالهم رسميًا لإستانبول، ترك عاكف إستانبول واتجه للأناضول ليلتحق بالحركة الشعبية الوطنية المقاومة للاحتلال الأوروبي. وصل عاكف في أنقرة، وفي ٢٣ مايو

من نفس العام ١٩٢ م أصدر أتاتورك قرارًا بإنشاء مجلس الأمة التركي الكبير، فاشترك عاكف في هذا المجال نائبًا عن مدينة بُوردُوز. ولما قام أهل قونية بتمرد ضد حكومة مصطفى كمال، قامت حكومة أنقرة بإرسال شاعر الإسلام محمد عاكف ليهدئ من روعهم ولينصحهم بالعدول عن الثورة[1]، وفي هذا دليل على اعتراف تركيا بأهمية محمد عاكف. ومن قونية اتجه عاكف إلى قَسْطَمُوني حيث أخذ يعظ الشعب ويثير حماسه ونخوته وذلك من جامع نصر اللّه، وكذلك ليصدر مجلة سبيل الرشاد بعد أن نقلها من إستانبول حتى لا تكون تحت تأثير الإنكليز.

وجد محمد عاكف اهتمامًا شعبيًا بالغًا بوعظه وإرشاده وخطبه في مدينة قسطموني، لذلك أخذ في زيارة البلاد الأخرى في الأناضول من صغيرة وكبيرة لبعث روح المقاومة في الشعب. وقد أصدر عاكف في خطبه هذه رسائل أخذ يوزعها في قرى الأناضول ومراكزهم. ثم عاد في يناير ١٩٢١م إلى أنقرة.

* **عاكف: مؤمن لا يهتز:**

ثم جاء عام ١٩٢١م بهزائم كثيرة للحركة الوطنية الاستقلالية، بانتصار الجيوش اليونانية على المواقع التركية، وسقوط مدينة أفيون ثم مدينة كوتاهية في شهر يوليو، ثم مدينة أسكيشهر في أول شهر أغسطس وأخذت جيوش اليونان تتقدم صوب أنقرة العاصمة الشعبية.

في هذا الوقت العصيب أعلن عاكف أنه لن يبرح العاصمة أنقرة، وظلّ حيث هو ينشر البيانات على الناس ليعيد السكينة إلى الشعب وكذلك ليحثّه على العمل والمقاومة..

(١) خُدع عاكف في أتاتورك ثم استبان له أمره فيما بعد

ولّما أعلنت وزارة المعارف التركية عن مسابقة لتأليف نشيد الاستقلال دُعي إليها كل الشعراء الأتراك، واشترك فيها ٧٢٤ شاعرًا لم ينجح منهم أحد. ولم يكن عاكف قد اشترك فيها؛ لأن المسابقة كانت تنص على مكافأة مالية للشاعر الذي ينجح. ولّما قام وزير المعارف وهو حمد اللّه صبحي، بإلغاء بند هذه المكافأة من الإعلان، استطاع الوزير بذلك أن يقنع شاعر الإسلام، بتأليف النشيد، وبالتالي ظهر أقوى نشيد في حياة تركيا وهو نشيد الاستقلال. وكان نشيدًا هامًا، صدّق عليه مجلس الأمّة التركي الكبير في ٢٥ مارس عام ١٩٢١م، بعد أن قرأه وزير المعارف بنفسه وأثار وقتها حماسًا منقطع النظير في مجلس الأمة.

وأقدّم هنا ترجمة لبعض هذا النشيد الهام.

لا تخف!

فلن ينطفئ أوار هذا العلم؛

هذ العلم الأحمر السابح في الشفق؛

حتى يخمد آخر موقد في بلادي.

نجم شعبي: هم هذا العلم.

إنه ملكي أنا. إنه لي ولأمتي.

يا أيها الهلال!

لا تقطب جبينك هكذا،

فأرواحنا.. فداءٌ لك.

دع هذا الوجوم وابتسم!

ابتسم لشعبي البطل؛

حتى تحل لك دماؤنا.

دماؤنا هذي مبذولة في سبيلك.
أمّا الاستقلال: فإنه حق لشعبي
شعبي هذا المؤمن الذي يعبد اللَّه.
عشتُ حرًّا منذ الأزل.. وسأحيا حرًّا إلى الأبد.
أيُّ مجنون هذا الذي يتصور،
إنه يكبلني بالقيود.
فأنا السيل الهادر أحطّم قيودي لأنطلق.

وفي عام ١٩٢٢م، انتخب عاكف عضوًا بهيئة التأليفات الإسلامية التي أنشأتها وزارة الشرعية التركية، وكلفته الحكومة التركية بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة التركية.

وعندما ظهرت نتيجة حرب الاستقلال التركية الباهرة على قوات اليونانيين، ويطرد قوات الحلفاء من البلاد، مما جعل تركيا تصبح محط أنظار المسلمين. أخذ محمد عاكف في الأمل الكبير بأن هذا الانتصار سيعيد وحدة المسلمين مرة أخرى، ويكتب للجامعة الإسلامية التحقق. وكانت فرحة شاعر الإسلام، فرحة كبرى كبر أمله.

*** خيبة أمل عاكف في أتاتورك:**

إلاّ أن أمله ذهب هباء، وصدم شاعر الإسلام. صدم لأنه عمل مع الحركة الوطنية الاستقلالية بكل جهده مؤملاً في أن انتصارها معناه انتصار الإسلام والجامعة الإسلامية. خاصة أن أتاتورك كان أثناء الحرب الوطنية في سبيل الاستقلال يقترب كثيرًا من علماء الدين يزورهم ويستمع إليهم، ويتشاور معهم ويفيد منهم، فإذا ما تم الانتصار لأتاتورك ورفاقه، أخذوا يبتعدون تمامًا عن طريق الجامعة الإسلامية، واتخذوا الغرب مثلاً أعلى لهم،

فأعلنوا رسميًّا: علمانية الدولة، وألغوا السلطنة ثم ألغوا الخلافة، وأبطلوا وزارة الشرعية والأوقاف وأغلقوا المدارس الدينية، وفرضوا لبس القبعة، وغيّروا الحروف العربية إلى حروف لاتينية، وضيقوا على الإسلاميين، وأعلنوا أنّ الإسلام تخلّف وأن الغرب تقدّم(١) .

☐ وبعدما رأى محمد عاكف ما فعله أتاتورك بتركيا كانت الصدمة شديدة عليه، فلم ير في وجوده في بلاده فائدة فهاجر إلى مصر في شتاء ١٩٢٥م.

وفي مصر أقام عامين ضيفًا على الأمير عباس حليم باشا في حلوان بالقرب من القاهرة، وهي الآن ضمن حدود القاهرة الكبرى. بعد ذلك أرسل عاكف في طلب أسرته من تركيا، ولما جاءت سكن في منزل مستقل، وأخذ في تدريس اللغتين الفارسية والتركية في الجامعة المصرية ـ جامعة القاهرة الآن ـ واستمر في وظيفته هذه إلى أن أدركه الموت عام ١٩٣٦م.

لما أحسّ بدنو أجله طلب الرجوع إلى إستانبول فرجع. وفي ٢٧ ديسمبر ١٩٣٦م توفي شاعر الإسلام الذائع الصيت في تركيا محمد عاكف، ودفن في مقبرة باب أدرنه بجوار زميل جهاده أحمد نعيم بابان زاده.

ونظرًا لأن عاكف كان أدار ظهره للحكم الكمالي، ولم يرضَ بإجراءاته

---

(١) لسوف يذكر التاريخ ما فعله هذا القزم المارق بالإسلام والمسلمين وهدمه لثوابت هذا الدين وخيانته للإسلام ويكفي قراءة «صحوة الرجل المريض» أو «الرجل الصنم» ليعرف الناس من هو أتاتورك.. وفرح الغرب الشديد به ففي ٣٠ نوفمبر ١٩٧٩ كان المقال الرئيسي في جريدة مليت التركية «البابا يصرح في أنقرة بقوله: «إنني أول بابا في التاريخ ينحني بإجلال واحترام أمام قبر أتاتورك»!!! وذلك في أثناء زيارة البابا جون بول الثاني بابا روما لتركيا ووصوله إلى أنقرة في ٢٨ نوفمبر ١٩٧٩.. ويترك البابا مستقبليه أمام الطائرة ليسجد ويقبل الأرض. كانت هذه هي أول مرة تطأ فيها قدم البابا أرضًا مسلمة.

المضادة للإسلام والجامعة الإسلامية. فلم تهتم الدوائر الرسمية ولا أجهزة الإعلام التركية بوفاته، ولم تشيع جنازته بالمكانة اللائقة به.

إلا أن الشباب المسلم في تركيا تبنى ما دعا إليه عاكف، ومن ثم أصبح اسم محمد عاكف شاعر الإسلام رمز الحركة الإسلامية في تركيا، وعنوانًا من عناوين فكرة الجامعة الإسلامية. ومحمد عاكف كما تقول الأستاذة نجلاء بك أوجاي، أستاذة الأدب الإسلامي: «لا شك أن عاكف هو ممثل الأدب الديني في القرن العشرين، وأنهُ يعد شخصية قائمة بذاتها في داخل نطاق هذا الأدب الإسلامي، فعاكف يأخذ من القرآن الكريم ليتجه إلى مجتمعه داعيًا ومصلحًا.

❏ ولقد قام محمد عاكف بترجمة معاني القرآن الكريم إلى التركية أودعها عند صديقه الشيخ محمد إحسان عبدالعزيز، إلاّ أن الأستاذ إبراهيم صبري ابن شيخ الإسلام مصطفى صبري قام بإعدامها خوفًا من أن يفتتن المسلمون في تركيا بأسلوبها فيتخذونها بديلاً عن قراءة القرآن الكريم ذاته!![1].

*** ديوان «الصفحات» لمحمد عاكف:**

جمع عاكف أشعاره كلها في ديوان واحد يضم سبعة أجزاء، الديوان عنوانه الصفحات. أما الأجزاء فهي كالتالي:

الأول: الصفحات. صدر عام ١٩١١م وقصائده عبارة عن قصص شعرية اجتماعية وقصص تاريخية شعرية، مثل قصة سيدنا عمر والعجوز ـ قصّة ديرواس ـ ويضمّ هذا الجزء أيضًا قصصًا شعرية من حياة عاكف نفسها

---

(١) انظر «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٢٩٧ ـ ٢٩٨).

مثل قصة سيفي بابا.

الثاني: من كرسي الوعظ بالسليمانية: وهذا الجزء عبارة عن منظومة طويلة بطلها عبدالرشيد إبراهيم، وهو رحالة مسلم من أتراك الشرق صدر عام ١٩١٢م.

الثالث: أصوات الحق: وهو شروح بالشعر لثماني آيات قرآنية، وشرح شعري لحديث شريف. وصدر عام ١٩١٣م.

الرابع: من كرسي الوعظ في جامع الفاتح: وصدر عام ١٩١٤م. عبارة عن قصيدة واحدة طويلة وعظية. تناول فيها عاكف موضوعات شتى تشغل بال العالم الإسلامي.

الخامس: خواطر: صدر عام ١٩١٧م. وهي خواطر عاكف عن رحلاته في مصر والحجاز ونجد وبرلين. مع بعض قصائد هي شروح شعرية لبعض آيات من القرآن الكريم.

السادس: عاصم: وصدر عام ١٩٢٤م. وهو قصة منظومة واحدة على شكل محاورة. وأراد عاكف فيها الإشارة إلى الجيل الجديد من المسلمين الذي يأمل الشاعر الداعية فيه، ورمز إليه بشخصية عاصم.

السابع: الظلال: وصدر عام ١٩٣٣م من مصر. ويضم أشعارًا دينية. وهو مترجم إلى اللغة العربية، وصدر في مصر أيضًا، ومترجمه الأستاذ إبراهيم صبري.

* فكر شاعر الإسلام محمد عاكف:

❑ ويمكن تقديم صورة فكر شاعر الإسلام محمد عاكف في الإطار التالي:

١ ـ وجوب اتخاذ القرآن الكريم مصدرًا أصليًّا للحركة، وبالتالي ترك

الخرافات والبدع، وتقويم الإسلام على أنه نظام حياتي ينظم حياة المجتمع، وأنّ القرآن:

«لم ينزل ليقرأ على القبور
ولا ليستخرج منه الفال».

أما عن مهمتنا تجاه القرآن الكريم فيقول عاكف:

«يجب أن نستلهم القرآن مباشرة
يجب أن نجعل إدراك العصر يقول بالإسلام».

٢ ـ وجوب أخذ المسلمين بالتكنولوچيا الغربية.. وفي هذا يقول:

«خذوا علوم الغرب، خذوا فنونه
وأعطوا مساعيكم أقصى سرعتها
انتبهوا لعلوم الغرب
لأنّ الحياة بدونها مستحيل
ولأنّ ليس للفنون ولا للعلوم جنسية».

٣ ـ وجوب معاداة الفكرة القومية:

وقد كانت موجة القومية تهب على الدولة العثمانية في محاولة لتفتيت عناصرها، وقد انتهت هذه المحاولة فيما بعد بالفعل إلى نفس النتيجة التي هبت عليها هذه الموجة.

يقول عاكف في نثره:

«إنّ قضية العرقية قضية فاسدة لا يؤخذ بها، وهي بالتعبير الديني جاهلية».

كما يوجّه عاكف أشعاره إلى بني جلدته من الألبانيين عندما طالبوا بالانفصال عن الدولة العثمانية؛ بحجّة أنهم قومية مختلفة غير الترك، وغير

العرب، وغير القوميات الأخرى التي تحيا في إطار الدولة العثمانية.

□ يقول عاكف:

«أين ما كنتم عليه من مليّة الإسلام؟!

وما هي هذه القومية؟!

وماذا لو اعتصمتم بإسلامكم؟!

وما هي هذه «القومية الألبانية»؟!

ألها مكان في شريعتنا الإسلامية؟!

أن تقدّم قومك: كفرٌ، وليس له معنى آخر.

أهناك (في الإسلام) تفضيلٌ لعربي على تركي؟!

أو للازي على شركسي أو كردي.

أو إيراني على صينيّ؟!

هل في الإسلام عناصر أو قوميات؟! ما هذا الهراء!

إن الرسول يلعن فكر «القومية».

والتفرقة بين المسلمين، لأكبر عدوّ لروح نبيّنا».

٤ ـ التحذير من الغرب والدعوة لمعاداته:

□ يقول شاعر الإسلام محمد عاكف:

«تسلط كابوس الغرب الدامي وغشّى البصر

وعطّل فكر الإسلام، وعطّل ساعده منذ قرون».

□ وعن الصليبيين الغربيين واتخاذهم المدنية ستاراً لقهر الشرق الإسلامي يقول عاكف:

«ابصقوا على وجه هؤلاء الصليبيين عديمي الحياء

ابصقوا على كلماتهم الخائنة

ابصقوا على الكائن المهرّج الذين يسمّونه بالمدنية
ابصقوا على ضمير العصر المقنع! ابصقوا».

٥ ـ الأخذ بالعلم التطبيقي وترك الجهل:

❑ يقول شاعر الإسلام محمد عاكف في تركيا:

«وا أسفاه على علم يضيع مخنوقًا في النظريات.
قيمة العلم: قيمة عملية تطبيقية».

❑ وعن الفرق الذي بين «الذي يعلم» و«الذي لا يعلم»، وهل يتساويان؟! يقول عاكف:

«لا يمكن، فبالطبع: واحد منهما إنسان والآخر حيوان، ولا بدّ أن تعزم الأمة على التخلص من السبّة المسماة بالجهل».

٦ ـ الأخذ بالحذر دائمًا من روسيا ومعاداة الروس:

فروسيا كانت تحرّض الشعوب غير المسلمة في الدولة العثمانية على الاستقلال عن الدولة، وذلك عن طريق إثارة هذه الشعوب وتحريضها على القيام بثورات مستمرة ترهق بها الدولة، ثم تقوم روسيا بعد ذلك بالضغط على الدولة العثمانية بالحروب، لكي تعطي الدولة لهذه الشعوب الصغيرة استقلالها، فإذا استقلّت هذه الشعوب ابتلعتها روسيا. مثال ذلك: شعب بلغاريا الذي ثار كثيراً ضد الدولة العثمانية، فلما استقلّ هذا الشعب قامت روسيا بتعيين أمير روسي حاكمًا عليه، وأخذ جنرالات روسيا يديرون شأن بلغاريا عقب استقلالها عن العثمانيين.

❑ ومن جهة أخرى كانت روسيا تضطهد المسلمين الواقعين تحت حكمها يقول عاكف:

«ضغوط روسيا شديدة

أهناك من طريق آخر لتجنّب الظلم؟».

❑ ويعيب على أوروبا المتحضّرة سكوتها على اضطهاد روسيا للمسلمين فيها، فيقول:

«لماذا لا تعي أوروبا المتحضّرة

أنّ كل عقل يحاول التفكير (في روسيا) مصيره: السَّحق».

٧ ـ احتقار أصحاب القلم الذين لا يلتزمون بالإسلام:

❑ يقول عاكف في نثره:

«يجب على الأدباء أن يكونوا على أدب. ولا أدب إلا في التأدّب بأدب الإسلام».

٨ ـ بث الأمل في عودة نهضة الأمة الإسلامية من جديد في نفوس المسلمين، فيقول:

«لمَ يلقونَ الأمل، وإلا، فإنّ هذا الدين

قد نشر على الكائنات ظلاله الخضراء.

وصوت الحق قد خنق صوت الضلال.».

❑ كما يقول:

«ما دام وعد اللّه لنا هو الحق

فإنّ فجر الشرق الأزلي، سيشرق».

❑ ويقول:

«المؤمن لا يقع في اليأس، ولو قيد ذرّة».

«اليأس مستنقع قذر

ولو وقعتَ فيه لاختنقت،

فاعتصم بالأمل».

٩ ـ التأكيد على ضرورة يقظة المسلمين ووعيهم، وضرورة تحرّكهم.

يقول عاكف:

«كفى يا معشر المسلمين
باللَّه ألا صحوتم من نومكم
يا معشر المسلمين هبّوا من نومكم
فسوف تغرب هذه الشمس
استيقظوا فإني أخاف أن يحلّ ليل الندم
بعد ذلك، من سيوقظكم؟!
أصور إسرافيل؟!!

١٠ ـ الدعوة إلى العودة إلى بساطة الإسلام الأولى: يقول عاكف:

«فلنتناول فترة قريبة من نشأة الإسلام
يا له من تقدّم مدهش، يا لها من سرعة خارقة
أأبدت الإنسانية يومًا معجزة كهذه المعجزة!
الذين عاشوا على الفطرة
الذين غرقوا عندما استقرّت الوحشية والغلظة
في قلوبهم وأعماقهم،
والذين كانوا يئدون بناتهم
أحياءً في رمال الصحراء.».

... ...

«انظروا! كيف صاروا في ثلاثين عامًا!!
ملكوا الأرض بتقدم ثلاثين ألف عام.».

... ...

«فليرجع المسلمون لصدر الإسلام».

١١ ـ المناداة بضرورة وحدة عناصر المسلمين. يقول شاعر الجامعة الإسلامية عاكف:

«لن يحيا التركي، بدون العربي
وكل من يقول بعكس هذا، فهو أبله.
فالتركي بالنسبة للعربي
عينه اليمنى وساعده الأيمن.».

. . . . . .

«لندفن الفُرقة في قبر النسيان».

١٣ ـ المناداة بفهم الإسلام على حقيقته. يقول شاعرنا المفكّر محمد عاكف:

«يعني: أن لم يبق للإسلام في المسلمين إلاّ الاسم،
يعني: أن هذا هو السبب في الخسران بين المسلمين اليوم.».

*** أقوال عن عاكف:**

يصفه المفكر الإسلامي سزائي قراقوج بقوله: «نقطة انطلاق عاكف كانت الإسلام، وفي ضوء من الإسلام بذل عاكف جهده، وفي ضوء من الإسلام، أبان عاكف على الملأ الظروف الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية التي كبّلت المجتمع الإسلامي؛ في عهد انهيار الدولة العثمانية الإسلامية التي ظلّت قائمة ستمائة عام. وعندما أبان عاكف جراح الأمة الإسلامية أبان في نفس الوقت أيضًا الدواء. والدواء الذي شخصه عاكف لأمته هو: الإسلام وإحياء مبادئه بروح شابة سواء في داخلنا أم في خارجنا، ثم التزيّن بقوى العصر التكتيكية والمادية».

يواصل سزائي قراقوج قوله ففي وصف عاكف: «أخذ عاكف يشرح

الحقائق للمثقفين العثمانيين في أوائل هذا القرن العشرين، عن طريق أشعاره التي بلغت صيتًا بعيدًا في طول البلاد وعرضها، وعن طريق مقالاته المؤثرة، وأيضًا عن طريق الوعظ بالدروس الدينية التي كان يلقيها في الجوامع، وكذلك عن طريق ترجمة أعمال المفكّرين الإسلاميين إلى اللغة التركية».

«كان عاكف يبرز المصائب التي كان يمكن أن تحدث في المجتمع الإسلامي إذا أدار هذا العالم ظهره للإسلام وللجامعة الإسلامية. ورسم عاكف اللوحة المادية والمعنوية لفقرنا، منتقدًا الفكر الغربي الذي كان يهاجمنا».

«قال عاكف هذا، قبل أن تصبح هذه الأفكار وقائع تأخذ شكلها الرسمي وتفرض نفسها على البلاد فرضًا».

❑ وعنه تقول الكاتبة شكوفه نهال:

بعد أن فجع عاكف في تركيا الكمالية وخاب ظنه فيها، ظلّ إنسانًا، فلم يتراجع عن التزامه، لم يُغره المال، ولم يَسْتَمِلْهُ المنصب. لم يخن عاكف ضميره، ولم يخدش كبرياءه، ظل إنسانًا كما هو إنسان، واقتفى أثر الطريق الذي اعتقد فيه الحق».

أما حسن علي يوجل فيوجز فكر عاكف في العبارة الآتية: «يرى محمد عاكف أن تخلص الأمة من المصائب المختلفة، ووصولها إلى السعادة إنما يكمن في العودة إلى ماضي الأمة الأصيل، إلى عصر النبي ﷺ، هذا العصر الذي ينادي محمد عاكف دائمًا باتخاذه المنوال والمثل».

❑ يقول الأستاذ الدكتور نور الدين طوبجي: «حاول الشيوعيون والقوميون والماسونيون خنق صوت عاكف حتى بعد موته، إلا أنّ شباب هذه الأمة تبنّى فكر عاكف وأعماله وفرضها على وجه تركيا رغم التعتيم الرسمي عليه».

*** محمد عاكف يرد على الماديين وعلى رأسهم توفيق فكرت:**

كان الأدب هو شغل عاكف الشاغل وأهله اطلاعه الواسع على الأدب أن يعمل أستاذًا له في جامعتي إستانبول والقاهرة.

رأس عاكف تحرير مجلة إسلامية أدبية وفكرية هامة، هي مجلة الصراط المستقيم، وقد تغير اسمها في أواخر أيامها إلى «سبيل الرشاد». وكتب فيها عاكف كثيرًا. وكانت هي اللسان المعبر عن آراء الإسلاميين في الفكر وفي الأدب وفي الدفاع عن الإسلام وفي مهاجمة الماديين.

*** التغريبيون والإسلاميون:**

سيذكر التاريخ بالخزي والعار التغريبون الأتراك: أمر اللَّه أفندي وساطع الحصري والأمير صباح الدين بك عضو جمعية الاتحاد والترقي، وأحمد رضا بك الذي ينكر الغيب وكان رئيسًا للاتحاد والتقري في باريس، وعبداللَّه جودت، وجلال نوري، ورضا توفيق وهؤلاء رأوا ضرورة استبعاد الحروف العربية واتخاذ الحروف اللاتينية للكتابة، وجعل العلمانية أساس فكر المجتمع، وتحديث الأسرة، وضرورة هدم نظام التعليم الديني السائد في الدولة. وأتى من بعدهم الماركسي ناظم حكمت.

وقاوم الإسلاميون هذا التيار التغريبي وكان على رأس الإسلاميين سعيد حليم باشا (١٨٦٣ ـ ١٩٢١)، وأحمد نعيم بابان، وحمدي يازير (١٨٧٧ ـ ١٩٤٢)، وشيخ الإسلام موسى كاظم (١٨٥٨ ـ ١٩٢٠)، وشيخ الإسلام مصطفى صبري (١٨٦٩ ـ ١٩٥٤)، وإسماعيل حقي (١٨٦٨ ـ ١٩٤٦) ومحمد علي عيني (١٨٦٩ ـ ١٩٤٥)، وأحمد حلمي شهبندر زاده (١٨٦٥ ـ ١٩١٣)، وإسماعيل فني (١٨٥٥ ـ ١٩٤٦). ومحمد عاكف الذي طالما صدح بشعره «فليرجع المسلمون إلى صدر الإسلام» و«الذين غرقوا في

الضلالة عندما استقرت الغلظة والوحشية في قلوبهم وأعماقهم، والذين كانوا يئدون بناتهم أحياءً في رمال الصحراء. إذا بهم في ثلاثين عامًا من الإسلام قد ملكوا الأرض بتقدم ثلاثين ألف سنة».

❑ وفي تضامن العالم الإسلامي يقول محمد عاكف: «لن يحيا التركي بدون العربي، ومن ينكر قولي هذا فهو أبله. فالتركي للعربي عينه اليمنى وساعده الأيمن»، و«فلندفن الفُرقةَ في قبر النسيان».

وكانت هناك معارك فكرية بين الجانبين، منها ما كان بين أحمد حلمي شهبندر زاده الذي ردّ في كتابه «مسلك الماديين» على جلال نوري (١٨٧٧ ـ ١٩٣٩) الذي كان من المفكرين المقربين لأتاتورك.

إلا أن أشهر هذه المعارك كانت معركة عاكف ـ فكرت.

❑ أما توفيق فكرت (١٨٦٧ ـ ١٩١٥م) فهو شاعر مادي وتمثّل أدبه في أمرين:

أ ـ الإلحاد.

ب ـ مهاجمة نظام السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية.

❑ وفي الإلحاد، يقول:

أنا لا أعرف المعبود ولا أعرف العابد.
أنا أعرف نفسي بأني أعبد الطبيعة؛
وأرى في السموات آلاف المساجد؛
وأرى ضميري ساجدًا فيها. وفي هذا طاعتي.
أما كتابي إن كان لا بد من كتاب فهو مسرح الطبيعة.
وأما الدين إن كان لا بد من دين فهو الحياة.

❑ وفي مهاجمة الدولة العثمانية، وفي التمرد على قيم الإيمان يقول:

لا محارب، لا حرب، لا استيلاء.

لا تسلط، لا سلطنة، لا شقاء.

لا شكوى، لا ظلم، لا استبداد.

أنا أنا، وأنت أنت، لا رب ولا عباد.

❑ يقول شاعر الإسلام محمد عاكف عليه رحمة اللَّه، عن توفيق فكرت، عبارة مؤداها أنه لا يمكن السكوت على فكرت بأي شكل من الأشكال وينبري محمد عاكف ليهاجم فكرت ويهاجم الأدباء المعتقدين بالمادية، فيقول:

أدباء المادية: مخلوقات قبيحة.

أيُترك هؤلاء لتوجيه الناس؟!!

بعض أدباء المادية سماسرة

لترويج الفواحش.

* * *

ما شعر شعراء المادية إلا

حديث عن الخمر والبغايا والساقطات.

شعراء المادية ضائعون.

ليس لأحد منهم مبدأ

«فكرت» يسب الآن، خالقه.

ويغدقون عليه المال

فيعمل ـ بلا حياء ـ شماسًا،

في كنيسة البروتستانت.

* * *

شعراء المادية الملحدون.. سفلة

باعوا أعراضهم للسماسرة[1] .

يعني كان توفيق فكرت ينادي بفكر مادي وثقافة متحللة. أمّا عاكف فينادي بالعلم وبسمو الأخلاق أي الأخذ بعلوم العصر والأخذ في نفس الوقت بأخلاق الإسلام.

تمسك توفيق فكرت وثقافته في حياته فترك ابنه متحللاً حتى أصبح ابنه واسمه «خلوق» قسيسًا ترك بلاده ليستقر في الغرب، وتمسك محمد عاكف بالعلم العصري والأخلاق الإسلامية فترك خلفه جيلاً مسلمًا واعيًا يترحم عليه.

* المفكر الإسلامي نجيب فاضل (١٩٠٥ ـ ١٩٨٣) مؤلف كتاب «نسيج الفكرة»:

نجيب فاضل قلد وسام أشعر شعراء اللغة التركية في مايو ١٩٨٠ وتولى عمادة الأدب التركي بجدارة، وامتاز ـ رحمه اللَّه ـ بوضوح الرؤية الإسلامية بكل أبعادها وإلى الإسلام الشامل وكان ـ رحمه اللَّه ـ هو واجهة الفكرة الإسلامية في مواجهة المادية.

ويعتبر عام ١٩٣٤م أهم عام في حياة نجيب فاضل وفكره، وهو العام الذي التقى فيه بالشيخ عبدالحكيم الأروسي، وفيه بدأ نجيب عهدًا جديدًا من الوعي والاعتراف بدور القيم في الحياة، وأخذ نجيب عن طريق هذا الفكر الطارئ على حياته، دورًا إيجابيًا في حياة تركيا الفكرية والسياسية، وبذلك أيضًا أخذ دور الرائد ليذكر الأتراك ومن في تركيا بأن لبلادهم قيمًا أصلية

---

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٤٣٤ ـ ٤٣٧).

وتاريخًا عريضًا، وأن الطريق أمامهم للنهوض من التخلف والانحطاط إنما يكمن في مراعاة القيم وعدم الجري وراء التقليد بلا ضرورة وبالتالي وجد نجيب فاضل نفسه في صف، ووجد الإداريين ـ وقتها ـ وزملاء القلم من الماديين في صف آخر. ذلك لأن تركيا كانت قد اتخذت الخط الأوربي مسارًا رسميًا لحياتها، ووقف نجيب عملاقًا حينما أدلى برأية في بعض قضايا التاريخ، وأعاد الاعتبار إلى شخصيات تاريخية شُوهت نتيجة لدعايات بعض الأحزاب مثل شخصية السلطان عبدالحميد الثاني، والسلطان محمد وحيد الدين.

أدان نجيب فاضل فترة التنظيمات التي نسى الناس فيها من عثمانيين ـ أي من أتراك ـ وعرب وغيرهم؛ أصولهم وأصالتهم وأصبحوا تابعين للغرب. ونذكر هنا أن لنجيب فاضل كتاب «نسيج الفكرة» أهم وأخطر أعمال نجيب على الإطلاق يحمل فكرته في نهضة شعوب الشرق، يضارع إن لم يتفوق على كل ما كتب في اللغات الشرقية في موضوعه. توفي نجيب فاضل عام ١٩٨٣م.

❑ وله قصيدتان مشهورتان «الشرق العظيم»[1] و«البشرى» في الأولى يقول نجيب فاضل:

أشرِقْ أيّها الشرق العظيم
أشرِقْ من هنا. من عنْدي أنا؟
فمرآة آفاقي علم من نار؛
ورماد أبي هو أنتِ:
أيتها الأرض السوداء

(١) يعني بذلك بلاد الإسلام.

◘ وفي الثانية يقول نجيب فاضل:

سيدخل الفرسان من ثغرات الأسوار؟

إلى مدينة الأصنام.

الإنسان في مدينة الأصنام.

جثة عفنة تقف على الأقدام.

ستنشق السموات

لتعلن البشرى.

لتعلن أنَّه:

بشرى لكم؟

ها هي ذي الشمس التي لا تعرف المغيب:

قد أشرقت. اهـ.

نعم أشرقت شمس الإسلام التي لا تعرف المغيب..

* الأمير سعيد حليم باشا من أعظم المدافعين عن الإسلام:

◘ قال محمد إقبال عن سعيد حليم باشا وعن جمال الدين الأفغاني في كتابه «جاويد نامة» (ص٦٠) «لم ينجب الشرق (في القرن التاسع عشر) أفضل من هذين الرجلين»[1] .

ولد سعيد حليم باشا في القاهرة عام ١٨٦٣م وهو حفيد محمد علي باشا والي مصر. درس سعيد حليم باشا اللغات العربية والفارسية والفرنسية والإنجليزية. ثم سافر إلى سويسرا ودرس هناك خمس سنين. ولما أتم دراسته عاد إلى إستانبول، وأصبح من دعاة وحدة العالم الإسلامي حول الخلافة والسلطنة العثمانية. وعمل وزيراً للخارجية العثمانية، وعين في ١٣ يونيو عام

(١) الأفغاني وضحنا صورته من قبل، ولا يُقبل كلام إقبال فيه.

١٩١٣م صدرًا أعظم أي في عهد الاتحاد والترقي.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م دخل الاتحاديون بالدولة إلى جانب ألمانيا في هذه الحرب. وكان سعيد حليم باشا يبذل جهدًا كبيرًا لكي تبقى البلاد على الحياد. ولما لم يقنع أحدًا بذلك استقال، لكن الدولة تمسكت به حتى عاد إلى مباشرة عمله. وفي عام ١٩١٧ استقال وحل محله طلعت باشا. وعندما احتل الإنجليز إستانبول نفي سعيد حليم باشا إلى مالطة وقضى فيها سنتين واغتاله أحد الأرمن في روما يوم ٦ ديسمبر ١٩٢١م.

❑ وكان سعيد حليم باشا يتقن الفرنسية ويكتب بها، ولسعيد حليم باشا عدة مؤلفات عبارة عن رسائل منها:

المشروطية (الحكم الدستوري) - مشكلاتنا الاجتماعية - مشكلاتنا الفكرية - التعصب - تجربة قلمية حول انحطاط العالم الإسلام - النظم الإسلامية في الإسلام.

ويختلف الأمير سعيد حليم باشا عن جده محمد علي باشا أن الأخير كان متحمسًا للغرب، إلا أن الأمير كان رجلاً ذا تجربة عملية في سياسته الدولية في أوقات عصيبة، وذا اطلاع واسع في سياسته الأوربية الحديثة، وكان مصلحًا، وأجبرته الظروف المحيطة في كل حياته، أن يفكر طويلاً في المشاكل المتعلقة بمستقبل الإسلام والمسلمين، كان رجلاً له اطلاع واسع في أفكار إنجلترا وفرنسا وألمانيا، كاطلاعه في القرآن الكريم وتفسيره والأحاديث النبوية وشروحها، فكان لذلك جديرًا بأن ينصح للعالم الإسلامي فيما يختص بسياساته المستقبلة، ولم يكن نصحه أوربيًا، بل إسلاميًّا[1].

فمثلاً يقول الأمير: «نجح الإسلام في وضع القاعدة القائلة: إن الإنسان ليس ملزمًا بأي شكل بأن يخضع لقوانين مجاوريه، حتى ولو كانت تلك

(١) مريم جميلة، «الإسلام في النظرية والتطبيق»، ترجمة س. حَمَــد (ص١٢٩) الكويت=

القوانين معبرة عن إرادة الغالبية العظمى. ذلك إن أمثل هذه القوانين تستوجب أن تكون اختيارية لحد ما، فهو يخضع لإرادة خالقه».

«وهكذا، فقد أبطل الإسلام المذهب التجريبي والعقلي على أساس أن الأول والثاني ما هما إلا مجموعة من الأخطاء والاغترارات.. وجاء الإسلام بالقواعد التي أعطت للناس حق تحرير أنفسهم من تلك السيادات الخيالية التي نصبوها لأنفسهم».

«ومن وجهة النظر السياسية، إن الإسلام ـ بلا منازع ـ أوجد أصح مفهوم للسلطة، وأعطاها أهميتها الحقيقية»[1] .

وبالرغم من تفوق المبادئ الإسلامية الواضح في تنظيم المجتمع، فإن العقلية المسلمة قد ضُلِّلَت في أيامنا هذه، حتى أنها لتفضل قاعدة «إرادة الأمة كسلطة غير محدودة، ولا تناقش على قاعدة سيادة الشريعة. ولقد انبهرت فئة متزايدة من المفكرين المسلمين بالنجاح المادي والقوة المادية للمجتمع الغربي وهم يصرّون باعتبار هذا الرقي الغربي ـ وهو موضوع تعجبهم المفرط ـ نتيجة مدهشة لقاعدة سيادة الأمة، هؤلاء الناس يريدون أن تنتهي الشريعة عن أن يكون المصدر والميزان للدولة الإسلامية. وذلك الاعتقاد بالسيادة القوية للأمة، هو اعتقاد باطل كغيره من اعتقادات السيادة التي ظهرت على الغرب، فهو يرتكز على اعتقاد باطل كغيرة من اعتقادات السيادة التي ظهرت في الغرب»[2] .

رحمك اللَّه أيها الأمير العظيم هذه صفحة عن عظماء المسلمين في تركيا نرد لهم بها دينًا عظيمًا في رقابنا.

أولئـك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنـا يا جرير المجـامعُ

= ١٩٧٨م.

(١) مريم جميلة، المرجع السابق (ص١٣١).

(٢) مريم جميلة، المرجع السابق (ص١٣٣)، و«العثمانيون» (ص٤٢٩ ـ ٤٣١).

*** الشيخ عثمان دان فوديو يقيم سلطنة «سوكوتو» على التوحيد النقي الصافي لله دره:**

«في السودان الغربي: كان الداعية الشيخ عثمان دان فوديو أحد أبناء قبيلة الفولاني في السودان الغربي من أتباع الشيخ ابن عبدالوهاب، فأخذ يحارب البدع الشائعة في عشيرته، ويعمل على تقويض بقايا الوثنية، وعبادة الأموات التي كانت عند بعض السودانيين، ثم أخذ ينشر تعليم الإسلام الصحيحة، واستطاع أن يجمع حوله قبيلته في وحدة متماسكة مرتبطة برباط الدين.

ثم بدأ الشيخ عثمان بعد ذلك سلسلة من المعارك، كان أولها سنة ١٨٠٢م ضد قبائل الحوصة الوثنية، ولم تأت سنة ١٨٠٤م حتى أقام سلطنة «سوكوتو» في السودان، على أنقاض مملكة جبيرثين ـ النجير الأدنى، ونهر الينوي.

وقد قامت هذه الدولة على أساس الدعوة الوهابية، وامتدت حدودها إلى جميع الأقطار الراقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد، على مساحة أربعمائة ألف كليو متر مربع، كان يسكنها نحو عشرة ملايين من الناس، وقد ظلت هذه الدولة مستقلة نحو قرن من الزمان، حتى احتلها الاستعمار الأوربي وانفصلت عنها فيما بعد ممالك بورنو، والأداموا، وغاندوا، ونوبو، ولكنها ما تزال جميعها محتفظة بالإسلام عقيدة وخلقًا وسلوكًا»[1].

* * *

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٦).

عَودٌ على بدء

مواقِفهم مؤمنات العَبير

عَوْدٌ على بدء مواقِفُهم مؤمناتُ العَبير

* ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ :

❑ للَّه در أبي حنيفة حين يقول:

«الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إليّ من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم»[١] .

وما أجمل قول الجنيد وهو الذي يغوص على الدرر: «الحكايات جند من جنود اللَّه»[٢] ، وقول مالك بن دينار: «الحكايات من تحف الجنة».

❑ قال بشر بن الحارث الحافي: «بحسبك أن قومًا موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن قومًا أحياء تموت القلوب برؤيتهم».

❑ وقال سفيان بن عيينة: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»[٣] .

والحكايات عن الصالحين خير مهماز لرفع الهمم، وشدّ العزائم، وسموّ المقاصد، وإنارة القلوب، واحتلال ذرى المجد الرفيع، تعالج الفتور في الهمم، والقناعة بالدُّون، والخمود في الطبائع، والاشتغال بسفاسف الأمور.

هذا القصص الحق الذي نقصه «لا يبلغ الخيال ـ عند بعض الناس ـ إلى ما بلغه حقيقة، من احتلال ذروة الفضل والمجد وارتقاء سنام العلم والمكانة الرفيعة، وحيازة الذكر العطر الدائم، والأجر الباقي المستمر، وغير ذلك من الفضائل والمآثر»[٤] .

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر (١/ ١١٧).

(٢) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (١/ ٥٢).

(٣) المصدر السابق (١/ ٥٢).

(٤) «صفحات مضيئة من حياة السابقين» لإبراهيم العلي (١/ ٢٠) ـ دار القلم.

ومن علامة كمال الإنسان علو الهمة، والراضي بالدون دنيء! قال الشاعر:

إذا ما علا المرء رام العُلا ... ويقنع بالدون مَنْ كان دونا!

وهذه الصفحات التي نسطرها في هذا الفصل.. إنما هي تربية بالقدوة، فإن الحي لا تُؤمن عليه الفتنة، وإنما العيش مع أهل العلم السابقين من سلف الأمة الذين بلغو أقصى كمال يرتقيه البشر في كل مجال..

بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا ... شوقًا إليكم ولا جفّت مآقينا

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسي لولا تأسينا

ليُسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

❑ أزاهيرهم مؤمنات العبير وأطيارهم قانتات الزجل..

مواقف العلماء والربانيين أزاهير فاح أريجها فعبقت به الأرواح وأحيا اللَّه بها الفئام من الناس عبر تاريخ الأمة - فعودٌ على بدء مع هذه الصفحات، وهي أزاهير متفرقات من بساتين الربانيين، أهل اللَّه وعلماء الآخرة وملوك الدنيا، والجامع لهذه الأزاهير المتفرقات إعراض أهل العلم عن القضاء والولايات، فإن تولوا كرها تنظر إلى قيامهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كأفضل ما يفعل الربانيين السادات، وإعراضهم عن الدنيا، وعدم قبولهم الأعطيات، وثباتهم على الحق والطاعات وإن خالفوا الناس والعادات:

*** الآن عزّ الإسلام:**

جاء في كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» لشهاب الدين الأبشيهي (٢/ ٣٤) و«حاشية ابن عابدين» (٤/ ٢١٣) ما نصه:

«أن غلمانًا من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالجة وأسقف البحرين قاعد، فوقعت الكرة على صدره فأخذها.

فجعلوا يطلبونها منه، فأبى، فقال غلامهم: سألتك بحق محمد ﷺ

إلا رددتها علينا.

فأبى لعنه اللَّه وسب الرسول ﷺ فأقبلوا عليه بصواليجهم، فما زالوا يخبطونه حتى مات لعنه اللَّه.

فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فواللَّه ما فرح بفتح ولا غنيمة، كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف.

وقال: الآن عزَّ الإسلام، إن أطفالاً صغارًا شُتم نبيهم، فغضبوا له وانتصروا، فأهدر دم الأسقف، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم».

*** ما قصَّر صاحب السفينة أرسى بي على باب الجنة:**

جاء في كتاب «ثمرات الأوراق» لابن حجة الحموي (١/ ٢٢) ما نصه:

«أن الحاكم الفاطمي لما بنى المسجد الجامع بالقاهرة المعزية المجاور لباب الفتوح، قيل أنه فسد حاله في آخر أمره، وادعى الألوهية، وكتب بسم الحاكم الرحمن الرحيم، وجمع الناس إلى الإيمان به، وبذل لهم النفائس، وكان ذلك في فصل الصيف، والذباب يتراكم على الحاكم، والخدام يدفعه ولا يندفع.

❑ فقرأ في ذلك الوقت بعض القراء، وكان حسن الصوت:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣ - ٧٤].

فاضطربت الأمة لعظم وقوع هذه الآية الشريفة في حكاية الحال، حتى كأن اللَّه أنزلها تكذيبًا للحاكم فيما ادعاه.

وسقط الحاكم من فوق سريره خوفًا من أن يقتل، وولى هاربًا، وأخذ

في استجلاب ذلك الرجل، إلى أن اطمأن إليه، فجهزه رسولاً إلى بعض الجزائر، وأمر بإغراقه.

ورؤي بعد ذلك في المنام، فقيل له: ما وجدت فقال: ما قصر معي صاحب السفينة أرسى بي على باب الجنة».

*** الآن عرفتني حق المعرفة:**

«عن الأصمعي عن أبيه قال:

«مرّ المهلب ـ يعني ابن أبي صفرة ـ على مالك بن دينار متبختراً.

فقال: أما علمت أنها مشية يكرهها اللَّه إلا بين الصفين؟

فقال المهلب: أما تعرفني؟

قال: بلى، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة.

فانكسر وقال: الآن عرفتني حق المعرفة»[1].

*** للَّه درّ طاووس من إمام:**

عن سفيان بن عيينة قال: جاء ابن لسليمان بن عبدالملك، فجلس إلى جنب طاووس، فلم يلتفت إليه، فقيل له: جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه؟!

فقال: أردت أن يعلم أن للَّه عباداً يزهدون فيما فيه يديه[2].

*** عزُّ العلماء: عطاء بن أبي رباح القائل: «ما لي إلى مخلوق حاجة»:**

◘ قال الأصمعي: «دخل عطاء بن أبي رباح على عبدالملك بن مروان،

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٢).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٢).

وهو جالس على السرير، وحوله الأشراف، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به عبدالملك، قام إليه فسلّم عليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين! اتق اللّٰه في حرم اللّٰه، وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة.

واتق اللّٰه في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس.

واتق اللّٰه في أهل الثغور، فإنهم حصن الإسلام، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم.

واتق اللّٰه فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك.

فقال له: أفعل.

ثم نهض فقام.

فقبض عليه عبدالملك وقال: يا أبا محمد! إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟

قال: ما لي إلى مخلوق حاجة.

ثم خرج، فقال عبدالملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤود»[1].

*** صفوان بن سليم القائل: «لستُ الذي أُرسلتَ إليه»:**

«عن كثير بن يحيى، عن أبيه قال:

قدم سليمان بن عبدالملك المدينة، وعمر بن عبدالعزيز عامل عليها، قال: فصلى بالناس الظهر، ثم فتح باب المقصورة واستند إلى المحراب، واستقبل الناس بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سليم، فقال لعمر: من هذا؟ ما رأيت أحسن سمتًا منه.

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٨٤ ـ ٨٥).

قال: صفوان.

قال: يا غلام كيس فيه خمس مائة دينار فأتاه به.

فقال لخادمه: اذهب إلى ذلك القائم.

فأتى حتى جلس إلى صفوان وهو يصلي، ثم سلم، فأقبل عليه، فقال: ما حاجتك؟

قال: يقول أمير المؤمنين: استعن بهذه على زمانك وعيالك.

فقال صفوان: لستُ الذي أُرسلتَ إليه.

قال: ألست صفوان بن سليم؟ قال: بلى.

قال: فإليك أُرسلتُ، قال: اذهب فاستثبت، فولى الغلام، وأخذ صفوان نعليه وخرج، فلم يُرَ بها حتى خرج سليمان من المدينة»[١].

* «لأنْ يخنقني الشيطان أحبٌّ إليّ من أليَ القضاء»:

وهذا رجل من رجال الآخرة المغيرة بن عبدالرحمن المخزومي صاحب مالك بن أنس:

«قال الزبير - يعني ابن بكار -: وعرض عليه أمير المؤمنين الرشيد قضاء المدينة وجائزة أربعة آلاف دينار فامتنع، فأبى إلاَّ أن يلزمه ذلك.

فقال: والله يا أمير المؤمنين لأن يخنقني الشيطان أحبُّ إليَّ من أَليَ القضاء.

فقال الرشيد: ما بعد هذا شيء، وأعفاه، وأجازه بألفي دينار»[٢].

* أما والله ما مجالستهم مجالسة الأبرار:

«عن فضيل بن جعفر قال:

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٨).

(٢) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (١/ ٢٨٣).

خرج الحسن من عند ابن هبيرة، فإذا هو بالقراء على الباب.

فقال: ما يجلسكم ها هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء، أما والله ما مجالستهم مجالسة الأبرار، تفرقوا فرق الله بين أرواحهم وأجسادكم، قد فرطحتم نعالكم، وشمرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم، فضحتم القراء فضحكم الله، والله لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيكم، أبعد الله من أبعد»[1] .

* **أبو الحسن علي بن زياد التونسي العبسي ووالي إفريقية:**

«ذكر ابن اللَّباد عن سحنون قال: مات بعض قضاة إفريقية، فقدم رسول الخليفة إلى إفريقية لجمع العلماء واستشارتهم في قاض يوليه إفريقية.

فتوجه إلى تونس وبعث إلى واليها في علي بن زياد فتثاقل، فأخبر بذلك الوالي رسول الخليفة.

فقال له الرسول: أمير بلد ورسول الخليفة يوجه إلى رجل من الرعية فيتثاقل عن المجيء.

فمضى إليه الوالي معه، فلما دخلا عليه وجداه قد حوَّل وجهه إلى الحائط، فقال له الوالي: يا أبا الحسن، هذا رسول الخليفة يستشيرك في قاض يلي إفريقية.

فحوَّل علي وجهه إلى القبلة وقال: ورب هذه القبلة ما أعرف بها أحدًا يستوجب القضاء قوموا عني»[2] .

* **الزاهد بهلول بن راشد القيرواني وهرثمة بن أعين أمير إفريقية:**

«قال أبو زرجونه: أقبل هرثمة بن أعين أمير إفريقية في موكبه، حتى

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨٦).

(٢) «ترتيب المدارك» (١/ ٣٢٨).

انتهى إلى مسجد البهلول بن راشد، وبهلول مسند ظهره إلى عمود بإزاء باب المسجد، فانحنى هرثمة في السرج، وقال لبعض من معه: ادفع إليه هذا المزود بالدراهم وقل له: قال لك الأمير فرقها.

فجاء إليه الرسول فقال له البهلول: الأمير أقوى على تفريقها»[1].

قال أبو عثمان بن الحداد: بلغني أن بهلولاً كان ذات يوم جالسًا وعنده صاحبه رباح بن يزيد الزاهد، إذ أقبل أخ للبهلول في البادية يلهج بخبر المطر والزرع، والبهلول يتقلى ويتلون اغتمامًا لرباح، لعلمه بكراهيته ذكر الدنيا وأسبابها.

فلما أكثر أخوه من هذا نهض وجعل يقول لبهلول: سقطت من عيني، تُذكر الدنيا في مجلسك ولا تغير.

فقال له البهلول: إذا لم أسقط من عين اللَّه فلا أبالي من عين من سقطت.

فخرَّ رباح على رأسه يقبله»[2]: نعم يا حبيبي يا بهلول لا تبالي من عين من سقطت، إذا المرء سقط من عين اللَّه».

* صاحب مالك بن أنس زياد بن عبدالرحمن اللَّخمي:

«قال يحيى: كان زياد واحد زمانه، زاهدًا ورعًا، أتاه هشام ليلاً في خاصته فقرع عليه الباب فخرج فعرف به، ففتح له وسلم عليه، وسأله عن سبب مجيئه.

فقال: طلب التفرد بك، وهذا مال طيب ـ وأشار إلى مال يحمله الفتى ـ أردت التزلف به فأتيتك به لتضعه حيث تراه.

---

(١) «ترتيب المدارك» (١/ ٣٣٥).

(٢) «ترتيب المدارك» (١/ ٣٣٣).

فقال له زياد: تجد من هو أقوَم لك بذلك، وأعرَف بأهله.

وسمى له قومًا من صلحاء الناس، فأبى هشام إلا إياه، فلم يقدر عليه إلى أن حلف له أن لا يفعل.

فاستحياه هشام وخرج بماله وهو يقول: اللَّهم أعني على طاعتك بمثل هذا»[1].

* زين القرّاء محمد بن واسع يمتنع عن تولّي القضاء:

«عن أحمد بن محمد الدورقي، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا مخلد ابن الحسين، عن هشام، قال:

دعا مالك بن المنذر الوالي محمد بن واسع فقال: اجلس على القضاء، فأبى، فعاوده وقال لتجلسنَّ، أو لأجلدنك ثلاث مئة.

قال: إن تفعل، فإنك مسلط، وإن ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة»[2].

* الإمام المبارك: عبدالله بن المبارك القائل: «يأبى هذا الرجل إلاّ أن نقشر له العصا»:

عن حماد بن سلمة وحماد بن زيد: أن عبدالله بن المبارك كان يتّجر في البز. وكان يقول: لولا خمسة ما اتجرت، فقيل له: يا أبا محمد من الخمسة؟ فقال: سفيان الثوري، وسفيان بن عُيينة، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السماك، وابن علية.

وكان يخرج فيتجر إلى خراسان، فكلما ربح من شيء أخذ القوت للعيال، ونفقة الحج، والباقي يصل به إخوانه الخمسة.

---

(١) «ترتيب المدارك» (١/ ٣٥٢).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٢٢).

قالا: فقدم سنة فقيل له: قد ولي ابن علية القضاء، فلم يأته ولم يصله بالصرة التي كان يصله بها في كل سنة، فبلغ ابن علية أن ابن المبارك قد قدم، فركب إليه فتنكس على رأسه، فلم يرفع به عبدالله رأسًا، ولم يكلمه فانصرف. .

فلما كان من الغد كتب إليه رقعة: «بسم الله الرحمن الرحيم. أسعدك الله بطاعته، وتولاك بحفظه، وحاكك بحياكتك، قد كنت منتظرًا لبرك وصلتك أتبرك بها، وجئتك أمس فلم تكلمني، ورأيتك واجدًا عليَّ. فأي شيء رأيت مني حتى أعتذر إليك منه؟».

فلما وردت الرقعة على عبدالله بن المبارك دعا بالدواة والقرطاس وقال: يأبى هذا الرجل إلا أن نقشر له العصا»، ثم كتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم

يا جاعل الدين له بازيًا ... يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلةٍ تذهب بالدين
فصرت مجنونًا بها بعدما ... كنت دواءً للمجانين
أين رواياتك في سردها ... عن ابن عون وابن سيرين؟
أين رواياتك في سردها ... لترك أبواب السلاطين
إن قلت أكرهت فذا باطل ... زلَّ حمار العلم في الطين

فلما وقف ابن علية على هذه الأبيات قام من مجلس القضاء، فوطئ بساط هارون وقال: يا أمير المؤمنين! الله الله ارحم شيبتي فإني لا أصبر للخطأ ـ أو على القضاء ـ.

فقال له هارون: لعل هذا المجنون أغوى بقلبك.

فقال: الله الله، أنقذني أنقذك الله.

فأعفاه من القضاء، فلما وصل عبدالله بن المبارك ذلك، وجه إليه

بالصرة»[1] .

*** يا حسن الوجه، حساب الخلق كلهم عليك:**

جاء في «سير أعلام النبلاء» في ترجمة الفضيل بن عياض ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«قال عباس الدوري: حدثنا محمد بن عبداللَّه الأنباري قال:

سمعت فضيلاً يقول: لما قدم هارون الرشيد إلى مكة قعد في الحِجر هو وولده، وقومٌ من الهاشميين، وأحضروا المشايخ، فبعثوا إلي فأردت أن لا أذهب، فاستشرت جاري، فقال: اذهب لعله يريد أن تعظه، فدخلت المسجد، فلما صرت إلى الحجر، قلت لأدناهم: أيكم أمير المؤمنين؟ فأشار إليه.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللَّه وبركاته، فردَّ علي، وقال: اقعد، ثم قال: إنما دعوناك لتحدثنا بشيء. وتعظنا.

فأقبلت عليه وقلت: يا حسن الوجه، حساب الخلق كلهم عليك.

فجعل يبكي ويشهق، فرددت عليه، وهو يبكي، حتى جاء الخدم فحملوني وأخرجوني، وقال: اذهب بسلام».

*** الإمام القدوة الحافظ عيسى بن يونس بن أبي إسحاق أبو عمرو الهمذاني السبيعي وجعفر البرمكي: ـ (لا يتحدث أهل السنَّة أني أكلت للسنَّة ثمنًا»:**

«عن أبي بلال الأشعري، عن جعفر البرمكي قال:

ما رأينا في القراء مثل عيسى بن يونس، أرسلنا إليه، فأتانا بالرقة، فاعتل قبل أن يرجع.

---

(١) «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٣٥)، و«المنهج الأحمد» (١/ ٥٥).

فقلت له: يا أبا عمرو، قد أمرنا لك بعشرة آلاف.

فقال: هيه. قلت: خمسون ألفًا.

قال: لا حاجة لي فيها.

فقلت: ولم؟ واللَّه، لأهنِّيَنَّكها، وهي واللَّه مئة ألف.

قال: لا واللَّه، لا يتحدث أهل العلم أني أكلت للسنَّة ثمنًا، ألا كان هذا قبل أن ترسلوا إليَّ، فأما على الحديث فلا، ولا شربة ماء، ولا إهليلجة[1]»[2].

*** شيخ الإسلام محمد بن أسلم الطوسي والأمير عبداللَّه بن طاهر: «النظر في وجوهكم معصية»:**

◻ جاء في «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٢٠٢) في ترجمة الإمام الحافظ الرباني، شيخ الإسلام، أبو الحسن محمد بن أسلم بن سالم الكندي مولاهم الخراساني الطوسي ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«عن أحمد بن سلمة، حدثنا محمد بن أسلم، قال: لما أُدخلت على عبداللَّه بن طاهر، ولم أسلم عليه بالإمرة، غضب وقال:

عمدتم إلى رجل من أهل القبلة فكفرتموه، فقيل: قد كان ما أُنهي إلى الأمير.

فقال ابن طاهر: شراك نَعلي عمر بن الخطاب خير منك، وكان يرفع رأسه إلى السماء، وقد بلغني أنك لا ترفع رأسك إلى السماء.

فقلت برأسي هكذا إلى السماء ساعة، ثم قلت: ولم لا أرفع رأسي إلى السماء؟ وهل أرجو الخير إلا ممن في السماء؟! ولكني سمعت مؤمل بن

---

(١) الإهليلج: شجر ينبت في الهند والصين وأفغانستان، ثمرة على هيئة حب الصنوبر الكبار.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٩٣).

إسماعيل يقول: سمعت سفيان يقول: النظر في وجوهكم معصية.

فقال: بيده هكذا، أي: يُحبس».

*** إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ودرة من درره: «قلوبنا لازمة للحق»:**

قيل لأحمد بن حنبل أيام المحنة ـ أي: أيام ظهور المعتزلة على أهل السنة ودعوتهم الناس بسلطان الدولة إلى القول بخلق القرآن ـ: يا أبا عبدالله ألا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟!

فقال: كلا! إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة! وقلوبنا بعدُ لازمةٌ للحق[1] .

*** الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك:**

□ قال عمرو بن ميمون الأودي: صحبت معاذًا باليمن، فما فارقته حتى واريته التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس: عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، فسمعته يقول: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة».

ثم سمعته يومًا من الأيام وهو يقول: «سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها، فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة».

قال: قلت: يا أصحاب محمد، ما أدري ما تحدثون؟

قال: وما ذاك؟

قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها، ثم تقول: صل الصلاة وحدك، وهي الفريضة، وصل مع الجماعة وهي نافلة.

قال: يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية،

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص(٣١١).

تدري ما الجماعة؟

قلت: لا. قال: الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك.

وفي لفظ آخر: «فضرب على فخذي، وقال: ويحك! إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة اللَّه عز وجل»[١].

*** مزاحم مولى عمر بن عبدالعزيز وعمر بن عبدالعزيز:**

«إني أحذرك ليلة تمخض القيامة في صبيحتها تقوم الساعة»:

عن نوفل بن عمارة، قال عمر بن عبدالعزيز: إن أول من أيقظني في هذا الشأن مزاحم، حبست رجلاً فجاوزت في حبسه القدر الذي يجب عليه، فكلمني في إطلاقه.

فقلت: ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما هو عليه.

فقال مزاحم: يا عمر بن عبدالعزيز! إني أحذرك ليلة تمخض القيامة، في صبيحتها تقوم الساعة. يا عمر! ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع، قال الأمير، وقال الأمير: فواللَّه ما هو إلا أن قال ذلك فكأنما كشف عن وجهي غطاء! فذكروا أنفسكم ـ رحمكم اللَّه ـ فإن الذكرى تنفع المؤمنين[٢].

*** شيخا المسلمين الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة:**

«عن محمد بن حسان السمتي قال:

شهدت الفضيل بن عياض وجلس إليه سفيان بن عيينة، فتكلم الفضيل فقال: كنتم معشر العلماء سرج البلاء يستضاء بكم، فصرتم ظلمة، وكنتم نجومًا يهتدى بكم، فصرتم حيرة لا يستحي أحد منكم أن يأخذ مال هؤلاء

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» لابن القيم (١/ ٦٩).

(٢) «مناقب عمر بن عبدالعزيز» لابن الجوزي ص(١٤٠).

الظلمة، ثم يسند ظهره ويقول: حدثنا فلان عن فلان.

فقال سفيان: لئن كنا لسنا بصالحين فإنا نحبهم»[١]

*** فقه سيد التابعين سعيد بن المسيب: «واللَّه لا يسلمني اللَّه ما أخذتُ بحقوقه»:**

عن المطلب بن السائب قال: كنت جالسًا مع سعيد بن المسيب فمر بريد لبني مروان، فقال له سعيد: من رسل بني مروان أنت؟

قال: نعم.

قال: كيف تركت بني مروان؟ قال: بخير.

قال: تركتهم يجيعون الناس، ويشبعون الكلاب؟

فاشرأب الرسول، فقمت إليه، فلم أزل أجزيه حتى انطلق.

فقلت لسعيد: يغفر اللَّه لك تشيط بدمك؟

فقال: اسكت يا أحمق، فواللَّه لا يسلمني اللَّه ما أخذت بحقوقه[٢].

*** الإمام الكبير ابن جرير الطبري وعفَّة نفسه:**

جاء في «معجم الأدباء» (١٨/ ٨٧ ـ ٨٨) في ترجمة الإمام عالم العصر شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«أهدى أبو علي محمد بن عبيداللَّه الوزير إلى أبي جعفر برمان فقبله، وفرقه في جيرانه، فلما كان بعد أيام وجه إليه بوعاء فيه بدرة فيها عشرة آلاف درهم، وكتب معها رقعة وسأله أن يقبلها، وقال الوزير لمن حملها:

إن قبلها وإلا فاسأله أن يفرقها في أصحابه ممن يستحق، فلما دخل

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٢٤١)، وكتاب «القصاص والمنكرين» لابن الجوزي ص(٢٣٢).

(٢) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ٥٥).

عليه وأوصل الرسالة، قال:

يغفر اللَّه لنا وله، أقرء عليه السلام، وقل له: أرددنا إلى الرمان وامتنع من قبول الدراهم، فقال له الرسول: «**فرقها في أصحابك على من يحتاج إليها ولا تردها**».

فقال: هو أعرف الناس إذا أراد ذلك. وأجاب عن الرسالة، وبعد مدة جاءه مال ضيعته فجعله بضاعة وأرسله إلى الوزير، وفيها ما قيمته أربعون دينارًا».

* القاضي محمد بن أبي المنظور الأنصاري قاضي القيروان وصاحب المغرب المنصور العُبيدي:

«ما أخذ منا صلة، ولا نقدر على عزله»:

جاء في معالم الإيمان (٣/ ٥٦ ـ ٥٧) و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ١٥٧ ـ ١٥٨) في ترجمة المنصور أبو الطاهر إسماعيل بن القائم بن المهدي العبيدي الباطني، صاحب المغرب ما نصه:

«ومن محاسنه أنه ولَّى محمد بن أبي المنظور الأنصاري قضاء القيروان، وكان من كبار أصحاب الحديث، قد لقي إسماعيل القاضي، والحارث بن أبي أسامة، فقال: بشرط أن لا آخذ رزقًا ولا أركب دابة ـ ولا يقبل شهادة من طاف بهم أو قاربهم، ولا يركب إليهم مهنيًا ولا معزيًا[1] ـ فولاه ليتألف الرعية.

فأحضر إليه يهودي قد سب ـ يعني النبي ﷺ ـ فبطحه وضربه إلى أن مات تحت الضرب. وأتى يومًا إلى بيته فوجد سُلاف داية السلطان، تشفع في امرأة نائحة فاسقة ليطلقها من حبسه، فقال: مالك؟

(١) الزيادة من «معالم الإيمان» (٣/ ٥٥).

قالت: قضيب ـ محبوبة المنصور تطلب منك أن تطلقها.

فقال: يا منتنة، لولا شيء لضربتك، لعنك اللَّه ولعن من أرسلك. فولولت، وشقت ثيابها ثم ذكرت أمرها للمنصور.

فقال: ما أصنع به؟ ما أخذ منا صلة، ولا نقدر على عزله نحن نحب إصلاح البلد».

*** إبراهيم بن أدهم يستقتل:**

عن شعيب بن حرب: دخل إبراهيم بن أدهم على بعض هؤلاء الولاة، فقال له: من أين معيشتك؟

◻ قال إبراهيم:

نُرَقِّعُ دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا دِينُنا يبقى ولا ما نرقع

◻ قال: فقال الوالي: «أخرجوه فقد استقتل!»[1].

*** محدث مصر بقية بن الوليد وهارون الرشيد:**

«اسكت، فما كنت عنده هامان حتى أكون عنده فرعون»:

جاء في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٥٣١ ـ ٥٣٢) في ترجمة أحد مشاهير الأعلام الحافظ العالم محدث مصر، بقية بن الوليد بن صائد أبو يحمد الحميري الكلاعي ثم الميتمي الحمصي المتوفي سنة ١٩٧هـ ـ رحمه اللَّه ـ:

عن عطية بن بقية قال: قال أبي: «دخلت على هارون الرشيد، فقال لي: يا بقية إني أحبك، فقلت: ولأهل بلدي يا أمير المؤمنين؟

قال: إنهم جند سوء لهم كذا وكذا غدرة. ثم قال: حدثني.

فقلت: حدثنا محمد بن زياد، عن أبي أمامة قال: قال رسول اللَّه

---

(١) «تهذيب الكمال» (٢/ ٣٦).

ﷺ: «**أنا سابق العرب**» وذكر الحديث.

فقال: زدني، فقلت: حدثني محمد بن زياد، عن أبي أمامة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا مع كل ألف سبعين ألفًا، وثلاث حثيات من حثيات ربي**».

قال: فامتلأ من ذلك فرحًا، وقال: يا غلام الدواة. وكان القيم بأمره الفضل بن الربيع، ومرتبته بعيدة فناداني: يا بقية ناول أمير المؤمنين الدواة بجنبك.

قلت: ناوله أنت يا هامان.

فقال: أسمعت ما قال يا أمير المؤمنين؟

قال: أسكت فما كنت عنده هامان حتى أكون أنا عنده فرعون.

«ليس عندي ما أخافك عليه»:

جاء في «تاريخ بغداد» (٦/ ١١٢) و«تهذيب الكمال» (٢/ ١٥٠) في ترجمة إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي مولاهم أبو شيبة الكوفي قاضي واسط المتوفي سنة ١٦٩هـ ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«عن العتبي عن أبيه، قال:

قال موسى بن عيسى ـ وهو يومئذ أمير الكوفة ـ لأبي شيبة: مالك لا تأتيني؟

قال: أصلحك اللَّه إن أتيتك فقربتني فتنتني، وإن باعدتني أحزنتني، وليس عندي ما أخافك عليه، ولا عندك ما أرجو.

فما رد عليه شيئًا».

«واللَّه ما أخذت، ولا لبست لهم ثوبًا»:

جاء في ترتيب «المدارك» (٢/ ٥٩١) و«الديباج المذهب» (٢/ ٣٨) في

ترجمة الإمام العلامة، فقيه المغرب أبو سعيد عبدالسلام بن حبيب التنوخي الحمصي الأصل المغربي القيرواني المالكي، قاضي القيروانة وصاحب «المدونة» والملقب بسُحنون ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«عن سحنون قال: أكْلٌ بالمسكنة، ولا أكْلٌ بالعلم محب الدنيا أعمى، لم ينوره العلم، ما أقبح بالعالم أن يأتي الأمراء، واللَّه ما دخلت على السلطان إلا وإذا خرجت حاسبت نفسي، فوجدت عليها الدرك، وأنتم ترون مخالفتي لهواه، وما ألقاه من الغلظة، واللَّه ما أخذت ولا لبست لهم ثوبًا».

*** شيخ الإسلام إبراهيم الحربي يرد أعطيات الخليفة وهو في أمسّ الحاجة إليها: «إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك»:**

جاء في المنهج الأحمد (١/١٩٨) في ترجمة الشيخ الإمام الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق البغدادي الحربي صاحب التصانيف ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«قال أبو عثمان الرازي: جاء رجل من أصحاب المعتضد إلى إبراهيم الحربي بعشرة آلاف من عند المعتضد يسأله عن أمير المؤمنين تفرقه ذلك، فرده، فانصرف الرسول ثم عاد فقال: إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقة في جيرانك، فقال: عافاك اللَّه هذا مالٌ لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته. قل لأمير المؤمنين: إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك».

للَّه دره ـ يفعل هذا مع شدة فقره وحاجته:

❑ قال إبراهيم الحربي: أفنيت من عمري ثلاثين سنة برغيفين، إن جاءتني بهما أمي أو أختي، وإلا بقيت جائعًا إلى الليلة الثانية، وأفنيت ثلاثين سنة برغيف في اليوم والليلة، إن جاءتني امرأتي أو بناتي به، وإلا بقيت جائعًا عطشانًا، والآن آكل نصف رغيف وأربع عشرة تمرة إن كان بُرْنيًا، أو نيفا وعشرين إن كان دَقلاً».

☐ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «ما كنا نعرف من هذه الأطبخة شيئًا، كنت أجيء من عشيٍّ إلى عشيٍّ، وقد هيّأت لي أمي باذنجانة مشوية أو لعقة بِنٍّ أو باقة فجل».

☐ وقال أبو علي الخيّاط المعروف بالميِّت: «كنت يومًا جالسًا مع إبراهيم الحربي على باب داره، فلما أن أصبحنا؛ قال لي: يا أبا علي، قم إلى شغلك؛ فإن عنـدي فجلة قد أكلت البارحـة خضـرها، أقوم أتغدّى بجزرتها»(١).

*** الحافظ الإمام علي بن الجعد الجوهري والمأمون: «لا يُشترى إلاّ من هذا»:**

جاء في «تاريخ بغداد» علي بن الجعد أبو الحسن البغدادي الجوهري ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«عن سليمان بن علي بن الجعد قال:

أحضر المأمون أصحاب الجوهر، فناظرهم على متاع كان معهم، ثم نهض لبعض حاجته، ثم خرج، فقام له كل من في المجلس إلا علي بن الجعد، فنظر إليه كالمغضب ثم استخلاه، فقال: يا شيخ، ما منعك أن تقوم؟

قال: أجللتُ أمير المؤمنين للحديث الذي نأثره عن النبي ﷺ، قال: وما هو؟ قال: سمعت مبارك بن فضالة، سمعت الحسن يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا، فليتبوأ مقعدة من النار**». فأطرق المأمون، ثم رفع رأسه فقال: «لا يشترى إلا من هذا. فاشتروا منه يومئذٍ بثلاثين ألف دينار».

---

(١) «تاريخ بغداد» (٦/ ٣١)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٨٦ ـ ٨٨)، و«إنباه الرواة» للقفطي (١/ ١٩٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٦٧).

والبِنٌّ بكسر الباء: الطبقة من الشحم، وبضم الباء: إدام يُصنَع من تمكّر المُرِّي: أي: من ردئ الإدام وأسونه، يتأدم به الغرباء لفقرهم. والباقة، أي: الحزمة.

* **شيخ الشام، الحافظ القدوة آدم بن أبي إياس أبو الحسن الخراساني العسقلاني ـ رحمه الله ـ حيًّا وميتاً:**

«قال أبو بكر الأعين: أتيت آدم العسقلاني، فقلت له: عبداللَّه بن صالح كاتب الليث يقرئك السلام، فقال: لا تقرئه السلام، قلت: ولم؟

قال: لأنه قال: القرآن مخلوق.

فأخبره بعذره، وأنه أظهر الندامة وأخبر الناس بالرجوع.

قال: فأقرئه السلام، وإذا أتيت أحمد بن حنبل، فأقرئه السلام وقل له:

«يا هذا اتق اللَّه، وتقرب إلى اللَّه تعالى بما أنت فيه، ولا يستفزنك أحد؛ فإنك ـ إن شاء اللَّه ـ مشرف على الجنة، وقل له: أخبرنا الليث عن ابن عجلان، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من أرادكم على معصية اللَّه فلا تطيعوه»**.

□ قال: فأبلغت ذلك أبا عبداللَّه، فقال: رحمه اللَّه حيًّا وميتًا، فلقد أحسن النصيحة»[1].

* **الإمام الواعظ الكبير ابن سمعون البغدادي وعضد الدولة: «الحمد للَّه الذي سلمه منا، وسلمنا منه»:**

جاء في «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٥٠٩ ـ ٥١٠) في ترجمة الإمام، الواعظ الكبير المحدث، أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عَنْبَس البغدادي، شيخ زمانه ببغداد المعروف بابن سمعون ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«عن أبي الثناء شكر العضدي قال: لما دخل عضد الدولة بغداد وقد هلك أهلها قتلاً وخوفًا وجوعًا للفتن التي اتصلت بين السنة والشيعة فقال: آفة هؤلاء القصاص، فمنعهم، وقال: من خالف أباح دمه، فعرف ابن سمعون،

(١) «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٧ ـ ٢٨).

فجلس على كرسيه، فأمرني مولاي، فأحضرته. فدخل رجل عليه نور.

قال شكر: فجلس إلى جنبي غير مكترث فقلتُ: إن هذا الملك جبارٌ عظيم، ما أوثر لك مخافته، وإني موصلك إليه، فقبل الأرض وتلطف له واستعن بالله عليه، فقال: الخلق والأمر لله.

فمضيتُ به إلى حجرة قد جلس فيها الملك وحده، فأوقفته ثم دخلت أستأذن، فإذا هو إلى جانبي، وحول وجهه إلى دار عز الدولة ثم تلا: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ثم حول وجهه وقرأ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، ثم أخذ في وعظه، فأتى بالعجب، فدمعت عين الملك، وما رأيته ذلك منه قط، وشرك كمه على وجهه، فلمّا خرج أبو الحسين ـ رحمه الله، قال الملك: اذهب إليه بثلاثة آلاف درهم وعشرة أثواب من الخزانة فإن امتنع فقل له: فرِّقها في أصحابك، وإن قَبِلَها فجئني برأسه، ففعلت.

فقال: إن ثيابي هذه قد فُصِّلت من نحو أربعين سنة ألبسها يومَ خروجي وأطويها عند رجوعي، وفيها متعةٌ وبقيةٌ، ونفقتي من أجرة دارٍ خلفها أبي، فما أصنع بهذا؟

قلت: فرِّقها على أصحابك. قال: ما في أصحابي فقير، فعدتُ فأخبرته، فقال: الحمدُ الله الذي سلَّمه منَّا وسلمنا منه».

* الإمام الفقيه عيسى بن مسكين الإفريقي والأمير إبراهيم بن الأغلب: «هذا رجل يحاربنا بالله، لا حاجة لنا بهم»:

جاء في «ترتيب المدارك» (٣/ ٢١٨) في ترجمة الإمام الفقيه عيسى بن مسكين بن منصور الإفريقي ـ رحمه الله ـ أحد أصحاب سحنون ما نصه:

«بينما عيسى يومًا بجامع رقادة، إذ سمع صياح قوم بالله ثم به.

فقال لمن حوله: انظروا من هؤلاء؟

قالوا: نهب تونس، فأمر بإمساكهم، فشكاه الذي نهبهم إلى الأمير، إبراهيم ـ يعني ابن الأغلب ـ فأرسل إليه في إطلاقهم.

فقال لكاتبه: اكتب إليه: ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾ إلى قوله: ﴿بصير بالعباد﴾.

فلما قرأها، قال: هذا رجل يحاربنا بالله، لا حاجة لنا بهم، اتركوهم».

*** إبراهيم بن أسلم والحكم المستنصر بالله: «أمنت بفضلِ اللّهِ من نُوبِ الدهر»:**

جاء في تاريخ قضاة الأندلس (١٦٤ ـ ١٦٥) في ترجمة القاضي أبي البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن خَلَف السُّلميُّ ـ رحمه اللّه تعالى ـ ما نصه:

«ومن كلامه ـ رحمه اللّه ـ:

من اقتصر على التعيش من مرافق الملوك، ضاع هو ومن له، وشمله القلُّ، وخامره الذلُّ، اللّهم! إلاَّ من القوة باللّه قد بلغ من الزهد إلى الحدِّ الذي يكسبه الراحة بالخروج عن متاعها، وترك شِهوتها، قليلها وكثيرها، مالِها وجاهِها، بأمرٍ آخر! ومن لنا بالعون على تحصيل هذا المقام، ولا سيما في هذا الزمان، ولم نسمع ممن قاربه من الولاة المتقدمين بالأندلس إلا ما حُكيَ عن إبراهيم بن أسلم، وقد أراد الحكم المستنصر باللّه رياضته، فقطع عنه جرايته؛ فكتب إليه عند ذلك:

تَزيدُ على الإِقلالِ نفسي نَزَاهةً ... وتأنَسُ بالبَلْوى وتَقوى مع الفَقْرِ
فَمَنْ كانَ يخشى صَرفَ دَهرٍ فإنني ... أَمِنتُ بِفَضلِ اللّهِ مِنْ نُوبِ الدَّهرِ

فلما قرأ الحكم بيتيه، أمر بردِّ الجراية، وحملها إليه، فأعرض عنها، وتمنَّع من قبولها، وقال:

«إني، والحمد للّه! تحت جراية من إذا أعصيته، لم يقطع عني جرايته!

فليفعل الأمير ما أحبَّ!».

فكان الحكم بعد ذلك يقول: «لقد أكسبنا ابن أسلم بمقالته مخزاةً عظم منّا موقعها، ولم تسهل علينا المقارضة بها!».

*** الإمام الزاهد عسكر بن الحصين أبو تراب النخشبي وأمير بلده: «إن المُزَيِن ما أخذها فخذها أنت»:**

«عن أبي علي الحسين بن خيران الفقيه قال: مر أبو تراب النخشبي بمُزَين، فقال له: تحلق رأسي للَّه عز وجل.

فقال له: اجلس، فجلس فبينا هو يحلق رأسه، مر به أمير من أهل بلده، فسأل حاشيته فقال لهم: أليس هذا أبا تراب؟ فقالوا: نعم.

فقال: إيش معكم من الدنانير؟

فقال له رجل من خاصته: معي خريطة فيها ألف دينار.

فقال: إذا قام فأعطه إياها، واعتذر إليه وقل له: لم يكن معنا غير هذه. فجاء الغلام إليه وقال له: إن الأمير يقرأ عليك السلام، وقال لك: ما حضر معنا غير هذه.

قال له: ادفعها إلى المزين.

فقال المزين: إيش أعمل بها؟

فقال: خذها، فقال: واللَّه لو أنها ألفا دينار ما أخذتها.

فقال له أبو تراب: سر إليه فقل له:

إن المزين ما أخذها، فخذها أنت فاصرفها في مهماتك»[1].

*** «لا آتيه ألبتة»:**

جاء في «سير أعلام النبلاء» (١٧/٢٤٨ ـ ٢٤٩) في ترجمة الإمام

(١) «طبقات الشافعية» للسبكي (٢/٥٦).

الحافظ المحدث، شيخ خراسان محمد بن الحسين الأزدي السلمي، أبو عبدالرحمن النيسابوري الصوفي، صاحب التصانيف ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

قال السلمي: ورأينا في طريق همذان أميرًا، فاجتمعتُ به، فقال: لا بدَّ من كتابة «حقائق التفسير» فنسخ له في يوم، فُرِّقَ على خمسةٍ وثمانين ناسخًا، ففرغوه إلى العصر، وأمر لي بفرس جواد ومئة دينار وثياب كثيرة.

فقلت: قد نغَّصتَ عليَّ وأفزعتني وأفزعتَ الحاجَّ، وقد نهى النبي ﷺ عن ترويع المسلم، فإن أردتَ أن يبارك اللَّه لك في الكتاب، فاقض لي حاجتي.

قال: وما هي؟ قلت: أن تعفيني من هذه الصلة، فإني لا أقبل ذلك.

فَفَرَّقها في نُقَباء الرفقة، وبعث من خفَّرنا، وكان الأمير نصر بن سُبُكْتِكِين صاحب الجيش عالمًا، فلما رأى ذلك التفسير، أعجبه، وأمر بنسخه في عشر مجلدات، وكِتْبَةِ الآيات بماء الذهب، ثم قالوا: تأتي حتى يسمع الأمير الكتاب.

فقلت: لا آتيه البتة، ثم جاؤوا خلفي إلى الخانقاه، فاختفيت، ثم بعث بالمجلد الأول، وكتبت له بالإجازة».

*** الحافظ القدوة محمد بن رافع النيسابوري والأمير طاهر بن عبداللَّه: «خذ خذ، لا أحتاج إليه»:**

«قال زكريا بن دلُّوية: بعث الأمير طاهر بن عبداللَّه الخزاعي إلى محمد ابن رافع بخمسة آلاف درهم على يد رسولٍ له، فدخل عليه بعد صلاة العصر، وهو يأكل الخبز مع الفِجل! فوضع الكيس بين يديه، وقال: بعثَ الأمير طاهر بهذا المال لتنفقه على أهلك.

فقال له محمد بن رافع: خُذْ خُذْ، لا أحتاج إليه، فإن الشمس قد بلغت رأس الحيطان، إنما تغرب بعد ساعة، قد جاوزت الثمانين، إلى متى أعيش؟

فرد المال ولم يقبله، فأخذ الرسول المالَ وذهب، فدخل على محمد بن رافع ابنهُ فقال له:

يا أبه ليس لنا خبزٌ الليلة! وكان محمد بن رافع يخرجُ إلينا في الشتاء الشاتي، وقد لبس لحافه الذي يلبسه بالليل!»[١].

* **الإمام العابد الواعظ أبو عبدالله محمد بن يحيى بن علي الزبيدي والوزير الزينبي:**

«قال ابن الجوزي: كان يقول الحق وإن كان مرًّا، لا تأخذه في الله لومة لائم.

قيل: دخل على الوزير الزَّينبي وعليه خِلعةُ الوزارة، وهم يهنئونه، فقال: هو ذا يوم عزاء لا يوم هناء.

فقيل: ولم؟ قال: أهنيءُ على لبس الحرير؟!»[٢].

* **الإمام العابد محرز بن خلف بن أبي رزين أبو محمد التونسي والصقلي: «الصراط أحدٌ من السيف ومن السلطان وأمره»:**

«كان بتونس صقلّي أمر الناس ألاّ يكبروا على الميت، إلاّ خمس تكبيرات. فقال له المشارقة: أبو كسية يكبر أربعًا، ولا يؤذن حَيَّ على خير العمل، ولا يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة، ولا يسلم تسليمتين، ولا يؤذن الصلاة خير من النوم.

فأرسل وراءه، فدخل عليه محرز، وحول الصقلي المشارقة، فلم يسلّم.

فقال له الصقلي: السلطان يأمر بكذا، وأنت لا تفعل أمر السلطان، احذر من السيف.

---

(١) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٥١٠)، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني (٩/ ١٦١).

(٢) «المنتظم» لابن الجوزي (١٠/ ١٥٨).

فقال له: الصراط أحد من السيف، ومن السلطان وأمره!

ثم انصرف، فبُهت الصقلي ولم يتكلم بكلمة وغشي عليه، فلما أفاق من غشيته، قال: تقولون أبو كسية؟ لما أشار إليَّ حسبت كأن من ضربني برمح في القلب، فغشي عليَّ»[1].

*** الإمام الفقيه جبلة بن حمود الصدفي صاحب سحنون وعبيدالله الشيعي: «قطعوها قطعهم اللَّه»:**

جاء في «ترتيب المدارك» (٣/ ٢٥٢) في ترجمة الإمام الفقيه جبلة بن حمود بن عبدالرحمن بن جبلة أبو يوسف الصدفي أحد أصحاب سحنون ـ رحمه اللَّه ـ: «قال الفقيه ابن سعدون القروي: لما دخل عبيداللَّه الشيعي، القيروان، وخطب أول جمعة، وجبلة حاضر، فلما سمع كفرهم قام قائمًا وكشف عن رأسه حتى رآه الناس وخرج يمشي إلى آخر الجامع، ويقول:

قطعوها قطعهم اللَّه.

فما حضرها أحد من أهل العلم بعد هذا».

*** ما أصنع بابن ملك الجبل:**

جاء في «الأنساب» للسمعاني (٧٧/ ٢٨٩) في ترجمة الرجل الصالح المحدّث ابن عامر قبيصة بن عقبة السوائي الكوفي شيخ الإمام أحمد والبخاري المتوفي سنة ٢١٥ هـ ـ رحمه اللَّه ـ ما يلي:

«حُكي أن دلف بن أبي دلف العجلي ـ وهو ابن ملك سيأتي في هذا الخبر ـ جاء إلى باب قبيصة بن عقبة، ومعه الخدم والغلمان لكتابة الحديث.

فدُقَّ عليه الباب، فأبطأ قبيصة بالخروج، فعاوده الخدم ـ بالدق ـ وقيل له: إن ابن ملك الجبل على الباب وأنت لا تخرج إليه. فخرج وفي طرف

(١) «ترتيب المدارك» (٤/ ٧١٣).

إزاره كسر من الخبز، فقال لهم: رجل قد رضي من الدنيا بهذا ما يصنع بابن ملك الجبل! والله لا أحدثه».

*** صيروا أمر الله عز وجل فضولاً:**

جاء في كتاب الآداب الشرعية (١/ ٢١٧) ما نصه:

«عن عمر بن صالح: قال لي أبو عبدالله ـ أحمد بن حنبل ـ:

يا أبا حفص يأتي على الناس زمان المؤمن بينهم مثل الجيفة، ويكون المنافق يشار إليه بالأصابع.

فقلت: وكيف يشار إلى المنافق بالأصابع؟

قال: **صيروا الله عز وجل فضولاً.**

قال: المؤمن إذا رأى أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر لم يصبر حتى يأمر وينهى، يعني قالوا هذا فضول.

قال: والمنافق كل شيء يره قال بيده على أنفه، فيقال: نعم الرجل ليس بينه وبين الفضول عمل».

*** كيف منزلتك من قومك؟:**

جاء في كتاب «تنبيه الغافلين» للنحّاس (ص٩٦) ما نصه:

«سأل كعب الأحبار أبا مسلم الخولاني فقال له: كيف منزلتك في قومك؟ قال: حسنة. قال كعب: إن التوراة لتقول غير ذلك. قال: وما تقول؟ قال: تقول: إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه. فقال: صدقت التوراة وكذب أبو مسلم».

*** شيخ الإسلام عبدالله بن المبارك ووالي مرو عبدالله بن أبي العباس الطرسوسي: «أذل بدني ولا أذل حديث رسول الله ﷺ»:**

«عن أحمد بن أبي الحواري قال: حدثني بعض أصحابنا قال: جاء

عبدالله بن أبي العباس الطرسوسي ـ وكان واليًا بمرو ـ إلى منزل عبدالله بن المبارك بالليل ومعه كتابه والدواة والقرطاس، فسأله عن حديث فأبى أن يحدثه.

ثم سأله عن حديث فأبى أن يحدثه ـ ثلاث مرات ـ فقال لكتابه: اطو قرطاسك ما أرى أبا عبدالرحمن يرانا أهلاً أن يحدثنا.

فلما قام يركب مشى معه ابن المبارك إلى باب الدار، فقال له: يا أبا عبدالرحمن، لِمَ لَمْ ترنا أهلاً أن تحدثنا وتمشي معنا؟

فقال: إني أحببت أن أذل لك بدني، ولا أذل لك حديث رسول الله ﷺ»[1].

*** شيخ الإسلام ابن تيمية وقطلوبك الكبير:**

شكا لابن تيمية إنسان من قطلوبك الكبير، وكان المذكور فيه جبروت وأخذ أموال الناس واغتصابها، وحكاياته في ذلك مشهورة.

فلما دخل إليه الشيخ وتكلم معه في ذلك، قال: أنا الذي كنت أريد أجيء إليك لأنك رجل عالم زاهد ـ يعني يستهزئ به.

فقال له: لا تعمل عليّ دركوان[2]، موسى كان خيرًا مني وفرعون كان شرًّا منك، وكان موسى كل يوم يجيء إلى باب فرعون مرات، ويعرض عليه الإيمان»[3].

*** الفقيه داود بن علي الأصبهاني الظاهري وأبو عبدالله المحاملي القاضي: «أنا بأمانة العلم أدخلتك إليّ»:**

«قال أبو عبدالله المحاملي: صليتُ صلاة عيد القطر في جامع المدينة،

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ١٦٩)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٥٥).

(٢) لا تعمل عليّ دركوان: أي لا تتهزئ بي.

(٣) «فوات الوفيات» لمحمد بن شاكر الكتبي (١/ ٧٥).

وقلتُ: أدخل على داود بن علي فأُهنئه، فجئته وإذا بين يديه طبقٌ فيه أوراق هندباء، وعُصارة فيها نُخالة وهو يأكل. فهنأته وعجبتُ من حاله! ورأيت أن جميع ما في الدنيا ليس بشيء.

فخرجت من عنده ودخلت على رجل من محبي الصنيعة ـ أي فعل الخير والكرم ـ يقال له: الجرجاني، فخرج إليَّ حاسر الرأس حافي القدمين، وقال لي: ما عنَّي القاضي؟!

قلت: مُهِمٌّ! قال: ما هو؟

قلتُ: في جوارك داود بن علي ومكانه من العلم تعلمُهُ، وأنت كثيرُ الصلة والرغبة في الخير تغفُلُ عنه؟! وحدثته بما رأيت.

◻ فقال الجرجاني: داودُ شرسُ الخُلق! وجهتُ إليه البارحة بألف درهم ليستعين بها فردها عليَّ، وقال للغلام: قُلْ له: بأيِّ عينٍ رأيتني؟ وما الذي بلغك من حاجتي، وخَلَّتي حتى بعثت لي بهذا؟!

◻ قال المحاملي: فعجبتُ وقلت للجرجاني: هات الدراهم، فإني أحملها إليه فدفعها إليَّ، وقال للغلام: ائتني بكيس آخر، فوزن ألفًا أخرى وقال: تلك لنا وهذه لعناية القاضي.

فأخذت له الألفين وجئت إليه، فقرعتُ الباب ودخلتُ وجلستُ ساعة، ثم أخرجت الدراهم وجعلتها بين يديه.

فقال: هذا جزاء من ائتمنك على سره؟ أنا بأمانة العلم أدخلتك إليَّ، ارجع فلا حاجة لي فيما معك.

◻ قال المحاملي: فرجعتُ وقد صغُرت الدنيا في عيني، وأخبرت الجرجاني فقال: «إني أخرجت هذه الدراهم للَّه تعالى، فلا ترجعُ في مالي،

فليتولّ القاضي إخراجها في أهل البر والعفاف»[١] .

*** للّه در الإمام النووي:**

جاء في ترجمة الإمام النووي للحافظ السخاوي ص(٨٠) ما نصه:

«لما خرج الظاهر (ببيبرس) إلى قتال التتار بالشام أخذ فتاوى العلماء بجواز أخذ مال من الرعية يستنصر به على قتالهم.

فكتب له فقهاء الشام بذلك فأجازوه، فقال: هل بقي من أحد؟ فقيل له: نعم، بقي الشيخ محيي الدين النووي.

فطلبه فحضر فقال له: اكتب خطك مع الفقهاء. فامتنع، فقال: ما سبب امتناعك؟

فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير (بندقدار) وليس لك مال ثم منَّ اللّه عليك وجعلك ملكًا، وسمعت عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من ذهب، وعندك مئتا جارية لكل جارية حق من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليكك بالبنود والصرف بدلاً من الخوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، أفتيتك بأخذ المال من الرعية.

فغضب (الظاهر) من كلامه وقال: اخرج من بلدي ـ يعني دمشق.

فقال: السمع والطاعة.

وخرج إلى (نوى) فقال الفقهاء: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده إلى دمشق.

فأمر برجوعه، فامتنع الشيخ وقال:

لا أدخلها والظاهر فيها، فمات بعد شهر»[٢] .

---

(١) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

(٢) «ترجمة الإمام النووي» للحافظ السخاوي ص(٨٠).

* «أردت نفسي على الموت فأبت فلما أجابتني ظهرت»:

جاء في تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٥٦) في ترجمة الإمام العلم الزاهد الرباني العابد المجاهد عبداللَّه بن المبارك ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

«لما قدم الرشيد عين زربة» طلب ابن المبارك.

◻ قال أبو سليمان: فذكرت وقلت: إن ابن المبارك رجل خراساني لا آمن أن يجيب أمير المؤمنين بما يكره فيقتله، فأكون قد أهلكت أمير المؤمنين، وأهلكت ابن المبارك، وأهلكت نفسي.

فأمسك الرشيد عن السؤال عنه ثم عاود، فقلت: يا أمير المؤمنين ابن المبارك جلف غليظ الطباع.

فأمسك الرشيد، ثم ظهر ابن المبارك بعد ثلاث فقيل له: تجنبت ثم ظهرت؟

قال: أردت نفسي على الموت فأبت، فلما أجابتني ظهرت».

* قل له يموت بدَيْنه ولا يعمل معهم:

جاء في كتاب «المنهج الأحمد» في ترجمة علي بن الحسن بن زياد ما نصه: «قال: كان أبي صديقًا لأحمد بن حنبل، فركبه الدَّيْن، فوجّه بي إلى أحمد بن حنبل، فقال له: يا أبا عبداللَّه قد ركبني الدَّيْن، فترى لي أن أعمل مع هؤلاء بقدر ما أقضي دَيْني؟

فقال لي: قل له يموت بدَيْنِه ولا يعمل معهم.

قل له: يلقى اللَّه بدينه ولا يعمل معهم»[1].

* * *

(١) «المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد» (١/ ٣١٣).

مالاً، وقد بلغني أن غرماءَهُ أثبتوا عندك، وقد قسَّطتَ لهم في ماله، فاجعلنا كأحدهم.

فقال له أبو حازم: قل له: أمير المؤمنين - أطال اللَّه بقاءه - ذاكر لما قال لي وقت ما قلَّدني، أنه قد أخرج الأمر من عُنقه، وجعله في عُنقي، ولا يجوز لي أن أحكم في مال رجل لـمُدَّعٍ إلاَّ ببيِّنة.

فرجع إليه طريف، فأخبره.

فقال: قل له فلان وفلان يشهدان، يعني رجلين جليلين كانا في ذلك.

فقال: يشهدان عندي، وأسأل عنهما، فإن زُكِّيا قبلتُ شهادتهما، وإلاَّ أمضيتُ ما ثبتَ عندي.

فامتنع أولئكَ من الشهادة فزعًا، ولم يدفع إلى المعتضد شيئًا».

* «هذا النصف درهم أحبُّ إليَّ منها»:

«قال ابن وهب: سمعت مالكًا يُحدِّث: أن عاملاً من العمّال بعث إلى سعيد بن المسيب بخمسة آلاف درهم، فقال له الرسول: بعث بهذا إليك - أصلحك اللَّه - لتنفقها وتجعلها في حاجتك.

قال: وسعيد جاد مجد يُحاسب غلامه في نصف درهم يدّعيه قِبَله.

والغلام يقول: ليس لك عندي شيء.

قال سعيد للرسول: اذهب إلى عملك.

ثم عرضها عليه الرسول أيضًا، فقال: اغرب عني، وأبى أن يأخذها منه.

وكلّمه إنسان في تركه أن يأخذها.

فقال له ابن المسيب: هذا النصف درهم أحبُّ إليَّ منها»[1].

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣٦١).

* وصية سفيان الثوري إلى عبَّاد بن عبَّاد:

«عن حفص بن عمرو ابن أخي سفيان الثوري قال:

كتب سفيان إلى عبَّاد بن عبَّاد:

أما بعد، فإنك في زمان كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يتعوّذون أن يُدركوه، ولهم من العلم ما ليس لنا، ولهم من القدم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركناه على قلّة علم وقلّة صبر، وقلّة أعوان على الخير، وفساد من الناس، وكدر من الدنيا. فعليك بالأمر الأول والتمسك به، وعليك بالخمول، فإن هذا زمن خمول، وعليك بالعزلة وقلّة مخالطة الناس، فقد كان الناس إذا التقوا ينتفع بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذاك، والنجاة في تركهم فيما نرى.

وإياك والأمراء أن تدنو منهم وتخالطهم في شيء من الأشياء، وإيّاك أن تُخدع فيُقال لك: تشفع وتدرأ عن مظلوم، أو تردّ مظلمة، فإن ذلك خديعة إبليس، وإنما اتخذها فُجّار القرّاء سُلَّمًا، وكان يُقال: اتقوا العابد الجاهل، والعالم الفاجر، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.

وما لقيت من المسألة والفتيا فاغتنم ذلك، ولا تُنافسهم فيه، وإيّاك أن تكون كمن يحب أن يُعمل بقوله، أو يُنشَر قوله، أو يُسمَع من قوله، فإذا ترك ذلك منه عرف فيه.

وإياك وحب الرياسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يُبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقّد نفسك، واعمل بنيّة، واعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت، والسلام»[1].

---

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٧٦ - ٣٧٧).

*** الإمام القاضي عيسى بن مسكين بن منصور الإفريقي لا يرغب في لقاء رجال السلطان:**

«قال أبو بكر بن اللباد: شاهدتُ ابن مسكين في جنازة بعض نساء الأمير إبراهيم، جالسًا في المقبرة، إذ جاءه الأمير أبو العباس، فقام إليه الناس، وسلَّموا عليه، وعيسى جالس ما حلّ حبوته، فلمّا نظر إليه قال:

يا قاضي، السلام عليك ورحمة اللَّه.

فقال له: وعليك السلام ورحمة اللَّه وبركاته.

ثم سار إذ جاءه أبوه إبراهيم، فوقف إليه الناس، وعيسى على حاله ما حلَّ حبوته، فلمّا رآه الأمير مال إليه، فلمّا حاذاه، قال:

السلام عليك يا قاضي، فردَّ عليه.

ثم نزل فقدَّم عيسى للصلاة عليها، وبعث الأمير به إلى تونس، فرغب بعض أهلها في نزوله عنده، فأنزله في دار حسنة، فقصد إلى بيت مسودٍّ من الدخان، بابه تحت درج، فنزل فيه، فسئل عن ذلك، فقال:

يأتيني رجال السلطان فيُطيلون الجلوس إذا أصابوا مكانًا حسنًا، وها هنا من أتى منهم، سلَّم وانصرف، وعوفيتُ منهم»[1].

*** «أي رجل كان لو لم يُفسدوه؟»:**

جاء في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦) في ترجمة الإمام الفقيه القاضي شريك بن عبداللَّه النخعي أبو عبداللَّه الكوفي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

«قال يحيى بن اليمان: لمّا ولي شريك القضاء أُكره على ذلك وأُقعد معه جماعة من الشرطة يحفظونه، ثم طاب للشيخ فقعد من نفسه، فبلغ

(١) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

سفيان الثوري أنَّه قعد من نفسه فجاء فتراءى له، فلمّا رأى الثوري قام إليه فعظَّمه وأكرمَه، ثم قال: يا أبا عبداللَّه، هل من حاجة؟

قال: نعم، مسألة، قال: أو ليس عندك من العلم ما يجزئك؟

قال: أحببتُ أُذكِّركَ بها. قال: قل.

قال: ما تقول في امرأة جاءت فجلست على باب رجل فاحتملها ففجر بها، لمن تحدٌّ منهما؟ فقال: الرجل دونها لأنها مغصوبة.

قال: فإنه لمّا كان من الغد جاءت فتزيَّنت، وتبخَّرت وجلست على ذلك الباب، ففتح الرجل فرآها، فاحتملها ففجر بها، وقد علمت الخبر بالأمس.

قال: أنت كان عذرك حين كان الشرط يحفظونك، اليوم أيُّ عذر لك؟

قال: يا أبا عبداللَّه، أُكلِّمك.

قال: ما كان اللَّه ليراني أُكلمك أو تتوب؟ قال: ووثب فلم يُكلِّمه حتى مات.

وكان إذا ذكره قال: أيُّ رجلٍ كان لو لم يُفسدوه؟».

* **«إن قُرْبهم مفسدةٌ للقلب»:**

جاء في كتاب «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم الرازي ـ رحمهما اللَّه تعالى ـ (١/ ٨١) ما نصه:

«قال يوسف بن أسباط: كان سفيان الثوري إذا كتب إلى رجل، كتب:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم:

من سفيان بن سعيد إلى فلان بن فلان، سلام عليك فإنِّي أحمدُ إليكَ اللَّه الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهلٌ تبارك وتعالى، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، أما بعد:

فإنِّي أوصيكَ ونفسي بتقوى اللَّه العظيم، فإنَّه من يتَّقِ اللَّه يجعل له مخرجًا، ويرزقْه من حيث لا يحتسب، جعلنا اللَّه وإيَّاك من المُتَّقين، وإن دعاكَ هؤلاء الملوك لتقرأ عليهم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١] فلا تُجبهم، فإن قُربَهم مفسدةٌ للقلب».

*** أبو حسان الزيادي القاضي يقول لزنديق: «قتلك الحق»:**

«عن أبي الحسين عمر بن الحسن، قال: حدَّثنا ابن أبي الدنيا قال: كنتُ في الجسر واقفًا، وقد حضر أبو حسان الزيادي القاضي، وقد وجَّه إليه المتوكِّلُ من سرّ من رأى، بسياط جدد في منديل دبيقي، مختومة وأمره أن يضرب عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم ـ وقيل: أحمد بن محمد بن عاصم ـ صاحب خان عاصم، ألف سوط؛ لأنه شهد عليه الثقات، وأهل الستر، أنه شتم أبا بكر وعمر، وقذف عائشة، فلم يُنكر ذلك، ولم يَتبْ منه، وكانت السياط بثمارها.

فجعل يُضرب بحضرة القاضي، وأصحاب الشرطة قيام.

فقال: أيها القاضي قتلتني.

فقال له أبو حسان: قتلكَ الحقُّ، لقذفكَ زوجة الرسول، ولشتمكَ الخلفاء الراشدين المهديين.

قال طلحة: وقيل: لمّا ضُربَ تُركَ في الشمس حتى مات، ثم رُمي به في دجلة»[1].

*** «حتى أفرغ من أمر الخصوم»:**

«عن أبي هشام الرفاعي: أن حفص بن غياث كان جالسًا في الشرقيَّة

---

(١) «مختصر نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» للقاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي (١/١٤١).

للقضاء، فأرسل إليه الخليفة يدعوه.

فقال له: حتى أفرغَ من أمر الخصوم، إذ كنت أجيرًا لهم، وأصير إلى أمير المؤمنين.

ولم يقم حتى تفرَّق الخصوم»[١] .

* «ما أصنعُ بدنانيرك؟»:

«قال محمد بن عبدالوهاب الفرّاء، قال: سمعتُ الحسين بن منصور يقول:

بعث معن بن زائدة إلى سفيان ـ الثوري ـ بثلاثمائة دينار.

قال: فقال للرسول: ثم إلى ذلك الطاق، انظر عليه.

قال: فوجد أربعة دوانيق، قال: هذه عندي منذ ثلاثة أشهر لا أدري ما أصنع بها، فما أصنع بدنانيرك؟»[٢] .

* «دعني أعيش باقيه حرًا سليمًا من الذُّلِّ»:

جاء في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان ـ رحمه اللّه تعالى ـ (٤/ ١٤٢ ـ ١٤٣) في ترجمة الإمام أبي السعادات المبارك بن أبي الحرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، الملقَّب مجد الدين ـ رحمه اللّه تعالى، ما نصه:

«حكى أخوه عز الدين أبو الحسن علي أنه لما أُقعِدَ جاءهم رجل مغربيٌّ، والتزمَ أن يُداويه ويُبرئه ممّا هو فيه، وأنه لا يأخذ أجرًا إلاَّ بعد بُرئه، فملنا إلى قوله، وأخذ في معالجته بدُهن صنعه، فظهرت ثمرة صنعته ولانت رجلاه، وصار يتمكَّن من مدِّهما، وأشرف على كمال البرئ فقال لي:

(١) «تاريخ بغداد» (٨/ ١٩٠).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ٣٦٢).

أعطِ هذا المغربيَّ شيئًا يُرضيه واصرفه.

فقلت له: لماذا وقد ظهر نجح معاناته؟

فقال: الأمر كما تقول، ولكنّي في راحة ممّا كنتُ فيه من صحبة هؤلاء القوم والالتزام بأخطارهم، وقد سكنت روحي إلى الانقطاع والدِّعة وقد كنتُ بالأمس وأنا معافى أذلُّ نفسي بالسَّعي إليهم، وها أنا اليوم قاعد في منزلي، فإذا طرأت لهم أمور ضرورية جاءوني بأنفسهم لأخذ رأيي، وبين هذا وذاك كثير، ولم يكن سبب هذا إلا هذا المرض، فما أرى زواله ولا معالجته، ولم يبق من العمر إلاَّ القليل، فدعني أعيش باقيه حُرًّا سليمًا من الذُّلِّ، وقد أخذتُ منه بأوفر حظٍّ.

قال عز الدين: فقبلتُ قوله، وصرفتُ الرجل بإحسان».

* **«أنت بدأت بالمسألة، ولو سكتَّ لسكتُّ»:**

جاء في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٧/ ٢٥١) ما نصه:

«قيل إن موسى بن عبدالرحمن بن القاسم الزاهد اختصَّ به القاضي بكّار، وكان يتبرَّك به لزهده.

فقال له يومًا: يا أبا هارون، من أين المعيشة؟

قال: من وقف وقفه أبي.

فقال له بكّار: أيكفيك؟ قال: قد تكفَّيتُ به، وقد سألني القاضي فأريد أن أسأله، قال: سل.

قال: هل ركب القاضي دينٌ بالبصرة حتى تولَّى بسببه القضاء؟

قال: لا.

قال: فهل رُوقَ مولودًا أحوجه إلى ذلك؟

قال: لا، ما نكحتُ قطُّ.

قال: فهل لك عيالٌ كثيرة؟

قال: لا.

قال: فهل أجبركَ السلطان وعرض عليك العذاب وخوَّفكَ؟

قال: لا.

قال: فضربتَ آباطَ الإبل من البصرة إلى مصر لغير حاجة ولا ضرورة، للَّه عليَّ لا دخلتُ عليك أبدًا.

فقال: يا أبا هارون أقلني.

قال: أنت بدأت بالمسألة، ولو سكتَّ لسكتُّ.

ثم انصرف عنه ولم يعد إليه بعدها».

* «السعي للعفو عمَّن سيق للقتل»:

«عن عمر بن حبيب العدوي القاضي، قال:

وفدتُ مع وفد من أهل البصرة، حتى دخلنا على أمير المؤمنين المأمون فجلسنا، وكنتُ أصغرهم سنًّا.

فطلب قاضيًا يولي علينا بالبصرة، فبينا نحن كذلك، إذ جيء برجل مقيَّد بالحديد، مغلولة يده إلى عنقه، فحُلَّت يدُه عن عُنقه، ثم جيء بنطع[1] فوُضِع في وسطه، ومُدَّت عُنُقُه، وقام السيَّافُ شاهر السيف، واستأذن أمير المؤمنين في ضرب عُنقه، فأذنَ له، فرأيتُ أمرًا فظيعًا.

فقلت في نفسي: واللَّه لأتكلَّمنَّ، فلعلَّه ينجو.

فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مقالتي.

فقال لي: قل.

(١) النطع: بساط يُفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس.

فقلت: إن أباكَ حدَّثني عن جدِّكَ عن ابن عباس عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال:

«إذا كان يوم القيامة، يُنادي منادٍ من بُطنان[1] العرش: ليقم من عظَّم اللَّه أجره، فلا يقومُ إلاَّ من عفا عن ذنب أخيه، فاعفُ عنه يا أمير المؤمنين، عفا اللَّه عنك».

فقال لي: آللَّه، إن أبي حدَّثكَ عن جدِّي عن ابن عباس عن رسول اللَّه ﷺ؟

فقلت: آللَّه، إن أباكَ حدَّثني عن جدِّكَ، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ.

فقال: صدقت، إن أبي حدَّثني عن جدِّي، عن ابن عباس، عن رسول اللَّه ﷺ بهذا، يا غلام، أطلق سبيله.

فأطلق سبيله، وأمر أن أولَّى القضاء»[2].

* «ما أسعد من لا يرانا ولا نراه»:

جاء في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٥/ ٢٠١) في ترجمة غياث الدين السلجوقي ـ رحمه اللَّه تعالى، ما نصه:

«أن أتابك زنكي صاحب الموصل أرسل إليه القاضي كمال الدين محمد ابن عبداللَّه بن القاسم الشهرذوري في رسالة، فوصل إليه وأقام معه في العسكر، فوقف يومًا على خيمة الوزير حتى قارب أذان المغرب، فعاد إلى خيمته وأذَّن المغرب وهو في الطريق، فرأى إنسانًا فقيهًا في خيمة، فنزل إليه فصلَّى معه.

فسأله كمال الدين: من أين هو؟ فقال: أنا قاضي مدينة كذا.

---

(١) بطنان: جوف كل شيء.

(٢) «تاريخ بغداد» (١١/ ١٩٨).

فقال له كمال الدين: القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وهو أنا وأنت، وقاضٍ في الجنة وهو من لا يعرفُ أبواب هؤلاء الظَّلَمة ولا يراهم.

فلمّا كان من الغد أرسل السلطان وأحضر كمال الدين، فلمّا دخل عليه ورآه يضحك قال:

القضاة ثلاثة، فقال كمال الدين: نعم يا مولانا.

فقال: واللَّه صدقت، ما أسعد من لا يرانا ولا نراه.

ثم أمر به فقُضيت حاجتُه، وأعادَه من يومه».

*** الإمام الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التجيبي: «لن يزال البلد بخير ما كان فيه مثل هذا الشيخ»:**

جاء في كتاب «ترتيب المدارك» للقاضي عياض - رحمه اللَّه تعالى - (٤/ ٤٢٥ - ٤٢٦) في ترجمة الإمام الفقيه إسحاق بن إبراهيم بن مسرة أبو إبراهيم التجيبي - رحمه اللَّه تعالى، ما نصه:

«لمّا أُخذت الشَّهادات على أبي الخير المسمى بأبي الشرِّ الزنديق، أفتى أبو بكر بن السليم والحجازي في جماعة، بالأعذار له فيمن شهد عليه، وأفتى أبو إبراهيم وابن المشاط والقاضي منذر بطرح الأعذار في جماعة. وكان أشدُّهم في ذلك إسحاق بن السليم، والد أبي بكر، وخالف ابنه في ذلك، فأمر الحكم بالأخذ برأي أبي إبراهيم وأصحابه، وأمر بقتله دون أعذار.

فكتبَ إليه أبو إبراهيم كتابًا يشكره فيه على حياطة الدين، ويعتذرُ عن تخلُّفه عنه لبرد اليوم، وتوالي المطر.

فأجابه الحكم بجواب منه:

وجزاك اللَّه عن الدين والحياطة للإسلام خيرًا، فلقد وقع رأيكَ مني أفضل موقع، وقد أحسنت في توقُّفكَ والأخذ بالقدر، الذي عاقك بما أحبَّ، إلى ما أحاطكَ اللَّه به، وأصلح من حالك، ولقد قلت لمن حضر في

يوم السبت إثر خروجك:

لن يزال هذا البلد بخير ما كان فيه مثل هذا الشيخ، أكثر اللَّه فيه مثله، اعترافًا للَّه بالنعمة فيك، وهذه بصيرتي فيك، فاعلمه».

*** عبداللَّه بن محيريز القرشي الجمحي:**

«قال رجاء بن أبي سلمة عن خالد بن دُريك:

كانت من ابن محيريز خصلتان ما كانتا في أحدٍ مِمَّن أدركتُ من هذه الأُمَّة: كان في أبعد الناس أن يسكتَ عن حقٍّ بعد أن يتبيَّن له، يتكلَّمُ فيه، غَضِبَ في اللَّه مَنْ غَضِب، ورَضِيَ فيه مَنْ رَضِي.

وكان من أحرصِ الناس أن يكتمَ من نفسه، أحسنَ ما عنده»[1].

*** القاضي عبيداللَّه بن الحسن العنبري والمهدي: «اذهب الآن فقد طوَّقْتُكَ طوقًا لا يفكُّه عنكَ خمسونَ قينًا»:**

جاء في كتاب «الثقات» للعجلي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (الورقة ٣٥) في ترجمة القاضي الإمام المُحدِّث الفقيه عبيداللَّه بن الحسن العنبري البصري ـ رحمه اللَّه تعالى، ما نصه:

«قال عبداللَّه بن صالح العجلي: كتبَ المهديُّ إلى عبيداللَّه بن الحسن قاضي البصرة يأمرُهُ أن انظر إلى الأرض التي يخاصمُ فيها فلان التاجر فلانًا القائد فاقض بها للقائد.

قال: اجمع لي شهوداً، فجمع جماعةً فكتبَ عليه حُكمًا للتاجر، ثم قال:

اذهب الآن، فقد طوَّقْتُكَ طَوقًا لا يفكُّه عنكَ خمسون قينًا.

قال: فعزله المهدي».

(١) «تهذيب الكمال» (١٦/١٠٩ ـ ١١٠).

◘ ولله در القائل:

حدِّث عن القوم فالألفاظ ساجدة عند الحكايـات والأوزان تبتهـلُ

وعلى درب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سار خلف الأمة

*** سليمان الحلبي البطل الشاب قاتل كليبر الفرنسي الذي أرهق المصريين عسفًا وجورًا:**

البطل سليمان بن أمين ونّس الشهير بالحلبي قاتل الطاغية كليبر.. الضابط الفرنسي الذي كان برفقة نابليون حين احتل مصر عام ١٧٩٩م، ولما غادر نابليون مصر عيّنه حاكمًا عليها، فأرهق أهلها عسفًا وجورًا، وفعل الفرنسيون الأفاعيل بالمصريين فكانوا كما قال الجبرتي «فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف والجور ويؤجلونهم بالساعات؛ فإن مضت ولم يوفوهم المطلوب حلّ بهم ما حلّ من الحرق والنهب والسلب والسبي، وخصوصًا إذا فرّ مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم، وإلا قبضوا عليهم وضربوهم بالمقارع والكسارات على مفاصلهم وركُبهم، وسحبوهم معهم في الحبال، وأذاقوهم أنواع النكال».

«ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول وتفرّقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوا من المتاع، والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا[1] الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وتغوّطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه عرّوه ومن

(١) بعثروا.

ثيابه أخرجوه»[١] .

ولم يغمض لسليمان الحلبي جفن وهو الذي تلقى علومه بالأزهر، فكيف يعبث الفرنسيون فيه فسادًا، ويدوسون المصاحف بنعالهم ويعرّون الشيوخ من ثيابهم.

إذا أَلَمَّتْ بوادي النيل نازلةٌ   باتت لها راسيات الشام تضطرِبُ

وصمم الحلبي على قتل كليبر وسافر من حلب إلى القاهرة فدخلها في مساء اليوم الرابع عشر من مايو سنة ١٨٠٠، وولى وجهه ناحية منزل أستاذه «مصطفى أفندي» فقضى ليلته عنده، ثم فارقه إلى الأزهر للإقامة في رواق الشام، وهناك قضى ثلاثين يومًا منزويًا لا يخرج منه إلا للبحث والتقصي ومعاينة الطرق التي يسلكها لقضاء مأربه.

وفي مساء ١٣ من يونيه أسرّ سليمان لأربعة من زملائه في العلم بما انتواه[٢] ، فحاولوا تخويفه ولكن سليمان كان من هؤلاء الذين لا يخافون ولا ينكصون؛ فإذا هو يغادر جمعهم، ويعبر النيل على هيئة سائل ويتجه إلى الروضة حيث كان كليبر يستعرض كتيبة الأروام التي انخرطت في سلك الجيش الفرنسي بقيادة نيقولا بابا زوغلو فسأل سليمان النوتية عن تحركات كليبر، فعلم منهم أنه يقضي بعض الوقت في مساء كل يوم بحديقة القيادة ترويحًا عن نفسه، فعزم سليمان على الدخول إلى الحديقة والتربص به، ولما أراد أن يدخل الحديقة اكتشف الحراس أمره فادّعى لهم أنه يريد تقديم عريضة إلى الجنرال، فأخذوه إلى بيروس سكرتير كليبر فرفض أن يقدمه إليه.

وبات تلك الليلة في المسجد، وفي الصباح اتّجه إلى الأزبكية، وتتبع خطوات غريمه، وسار خلفه إلى الروضة، ثم عاد وراءه واتجه إلى الحديقة،

(١) تاريخ الجبرتي، أحداث ١٢١٣هـ.

(٢) هم محمد الغزي، وأحمد والي، وعبدالله الغزي، وعبدالقادر الغزي.

واندس بين الخدم، ورآه الضابط ديفوج ـ ياور كليبر ـ فاعتقد أنه من العمال الذين يقومون بأعمال الترميم في مبنى القيادة، فلم يَرْتب في أمره، ولما رآه يتعقَّب كليبر، وهو داخل منزل الجنرال داماس، شك في أمره، وأمر الخدم بطرده، ولكن سليمان استطاع أن يغافل الحرس ويدخل الحديقة.

وهناك انزوى خلف الساقية، وقبيل العصر دخل كليبر الحديقة بصحبة المهندس بروتان، وفي أثناء عبور كليبر ممر الحديقة من تحت تكعيبة العنب فوجئ بالفتى الحلبي يخرج من مكمنه، ويتقدم إليه كمن يريد أن يستجديه، وما كاد يلتفت إليه حتى رفع سليمان خنجره وهوى به على صدره، ثم تبع سليمان طعنته بثلاث أخريات أسلم بعدها كليبر الروح، واتجه سليمان إلى بروتان، الذي حاول القبض عليه، فأصابه بست طعنات كانت أخف وطأة من طعنات كليبر، فرقد بجواره يئن من الجراح[1].

*** محاكمة سليمان الحلبي وإعدامه:**

وعُثر على سليمان بعد مضي ساعة وراء جدار مهدوم بالحديقة، وحاول أن يتخلّص من مطارديه، ولكنه لم يفلح، وقادوه إلى حيث ضباط القيادة يحرقون الأرم غيظًا، فمثل أمامهم، وسأله الجنرال مينو وواجه بالجنرال بروتان فتعرّف عليه، وشهد الشهود من رجال البحر بأن سليمان كان يتتبع خطوات كليبر في الروضة ويسأل عنه، وفي صباح ١٥ من يونيه مثل سليمان أمام محكمة عسكرية مؤلفة من تسعة أعضاء برئاسة الجنرال رينيه، وبعد استجواب عنيف، وتعذيب قاسٍ على يد «برتلمي الرومي» ـ أحد أذناب الفرنسيين ـ اعترف سليمان.

أورد الجبرتي نقلاً عن ملفات المحكمة الفرنسية من أقوال الشيخ محمد الغزي:

---

(١) من كتاب «الشهيد محمد كريم» للأستاذ عبدالعزيز حافظ دنيا.

«سُئِل هل سليمان أخبره على ضميره في قتل ساري عسكر؟

فجاوب: إن سليمان كان قد قال له: إنه قد حضر من غزة لأجل أن يغازي في سبيل اللَّه لقتل الفرنساوية..».

وها هو المقرر «سارلتون» الذي أشرف على تعذيبه يقول عنه: «وهو بالذات مقرٌّ بذنبه بلسانه، ومسمّي شركاه، وهو مادح نفسه للقتل الكريه صنيع يديه، وهو مستريح بجواباته، وينظر محاضر سياسات عذابه بعين رفيعة، والرفعة هي الثمر المحصول من العصمة والنقاوة، فكيف تطهر بوجوه الآثمين»[1] .

وحُكم على سليمان بحرق يده اليمنى، وإعدامه على الخازوق، وترك جثته تأكلها الطير، كما حُكم على من أسرَّ إليهم بنيّته بقطع الرقاب وإحراق جثثهم.

وعقب تشييع جنازة الجنرال كليبر في يوم ١٧ من يونية، ودفن جثته في قبر أعدوه له مؤقتًا في حديقة العيني، قادوا المحكوم عليهم إلى «تل العقارب» بحي السيدة زينب، وهناك نُفّذ الحكم في سليمان وإخوانه، وصعدت أرواحهم إلى بارئها.

ومما يجدر ذكره أن دائرة المعارف الماسونية أبدت أسفها العميق لمقتل كليبر الذي أنشأ الماسونية في مصر، ورأس أول محفل فيها دعاه محفل «إزيس» لكن الأجل لم يمهله ليكمل رسالة الماسونية[2] ، وإن شئت قل إن سليمان الحلبي لم يمهله لتكمل رسالة الماسونية»[3] .

لقد كان للدولة العثمانية يد بيضاء في مساعدة الحلبي وتوجيهه لقتل

---

(١) تاريخ الجبرتي.. هكذا يقولون عن المجاهدين أنهم آثمون.

(٢) «الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام» لعبدالله التل.

(٣) سليمان الحلبي الشهيد البطل تأليف خالد الجر ص(١٥) - دار القلم، دمشق.

كليبر، وهذا لا ينقص قدر الحلبي البطل الذي لقي ربه وهو ابن أربع وعشرين عامًا. والحق أن سليمان الحلبي هذا جاهد خير جهاد في سبيل اللَّه، وبذل روحه في سبيل الإسلام، فنال الشهادة، وذهب له بعيدُ صيت في الآفاق»[١] .

واحتفظ الفرنسيس بالهيكل العظمي من جسم سليمان، فوضعوه في متحف حديقة الحيوانات والنباتات في باريس، كما حفظوا جمجمته في غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس، ومازال الخنجر الذي طُعن به كليبر محفوظًا في مدينة كاركاسون بفرنسا[٢] .

هذه صفحات نهديها لمن زوروا التاريخ واحتفلوا بذكرى الحملة الفرنسية، وأعجب لهذا، ومن أراد المزيد فلينظر إلى كتاب «الحملة الفرنسية تزوير أم تنوير» للدكتورة ليلى عنان... ومنه تعرف قدر الجرم الذي يرتكبه الذين تنكّروا لإسلامهم ولدولتهم قبل أن يتنكروا للعرب، وكانوا خدمًا للغرب الصليبي الذي يتربص بالأمة الإسلامية الدوائر.

* * *

(١) «ضيانامة» للمؤرخ العثماني عزت أفندي الدارندلي ص(٣٠٦)، ترجمه جمال سعيد عبدالغني ـ نشر الهيئة العامة للكتاب بمصر عام ١٩٩٩م.
(٢) «الأعلام» للزركلي (٣/ ١٣٣).

* **كان الحق آثر عندي من غيره:**

جاء في «ترتيب المدارك» (٢/ ٥٧٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٥٦ ـ ٥٧) في ترجمة الإمام الفقيه أبو عمرو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف المالكي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

«قال الكندي: كان كلما حضر قال له المأمون: يا ساعي، يرددها عليه.

فقال له: لست بساعي، وإن أذن أمير المؤمنين في الكلام تكلمت.

قال: تكلم.

قال: واللَّه يا أمير المؤمنين ما أنا بساعي، ولكني أحضرت، فسمعت وأطعت حين دعيت، ثم سئلت عن أمر فاستعفيت، فلم أعف ثلاثًا، فلما رأيت أنه لا بد لي من الكلام، كان الحق آثر عندي من غيره.

قال المأمون: هذا رجل أراد أن يرفع له علم في بلده، خذه إليك.

ثم حمله إلى العراق، وخرجت إليه امرأته، وحمل ابنه إبراهيم إلى الثغور».

* **الإمام الرباني طاووس بن كيْسان لا يقبل من أُعطيات الأمراء شيئًا، للَّه درُّه:**

«عن النعمان بن الزبير الصنعاني قال: أن محمد بن يوسف أبو أيوب ابن يحيى، بعث إلى طاوس بسبع مئة دينار، أو خمس مئة، وقيل للرسول: إن أخذها منك، فإن الأمير سيكسوك، ويُحسن إليك.

قال: فخرج بها حتى قدم على طاووس الجَنَد، فقال: يا أبا عبدالرحمن، نفقة بعث بها الأمير إليك.

قال: ما لي بها حاجة، فأراده على أخذها فأبى، فغفل طاووس فرمى بها في كُوة البيت، ثم ذهب.

فقال لهم: قد أخذها، فلبثوا حينًا، ثم بلغهم عن طاووس شيء يكرهونه.

فقال: ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا.

فجاءه الرسول فقال: المال الذي بعث به إليك الأمير.

قال: ما قبضت منه شيئًا.

فرجع الرسول، فأخبرهم، فعرفوا أنه صادق.

فقيل: انظروا الذي ذهب بها، فابعثوا إليه.

فقال: المال الذي جئتك به يا أبا عبدالرحمن.

قال: هل قبضت منك شيئًا؟

قال: لا.

قال: فقيل له: هل تدري أين وضعته؟

قال: نعم في تلك الكوة.

قال: فانظر حيث وضعته.

قال: فمد يده، فإذا هو بالصُّرة قد بَنَت عليها العنكبوت.

قال: فأخذها فذهب بها إليهم»[1].

* **انظر أين منصرفك إلى الجنة أم إلى النار؟:**

جاء في «المصباح المضيء» (٢/ ١٧٣) ما نصه:

وعظ ابن السماك أمير المؤمنين هارون الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إن لك بين يدي اللَّه مقامًا، وإن لك من مقامك منصرفًا، فانظر إلى أين منصرفك إلى الجنة أم إلى النار؟

---

(١) «تهذيب الكمال» للمزي (١٣/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

فبكى هارون حتى كاد أن يموت».

*** لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود:**

جاء في «مفتاح السعادة» لابن القيم (١/ ١٦٥) ما نصه:

«قال إبراهيم الحربي: كان عطاء بن أبي رباح عبدًا أسود لامرأة من مكة، قال: وجاء سليمان بن عبدالملك ـ أمير المؤمنين ـ إلى عطاء هو وابناه، فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حول قفاه إليهم! ثم قال سليمان لابنيه: قوما، فقاما.

فقال: يا بني، لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود».

*** أتدري ما الذي يجرؤك علينا، ويجنبنا عنك؟:**

جاء في كتاب «تنبيه الغافلين» للنحاس ص(٤٩) ما نصه:

«دخل مالك بن دينار ـ رحمه اللَّه ـ على أمير البصرة فقال له:

قرأت في بعض الكتب: من أحمق من السلطان، ومن أجهل ممن عصاني، ومن أعز ممن اعتز بي.

أيها الراعي السوء، دفعت إليك غنمًا صحاحًا، فأكلت اللحم ولبست الصوف، وتركتها عظامًا تقعقع.

□ فقال الأمير: أتدري ما الذي يجرؤك علينا ويجنبنا عنك؟

قال: لا.

قال: قلة الطمع إلينا، وترك الإمساك عما في أيدينا».

*** من وثق بثواب اللَّه لم يضره مس الأذى:**

جاء في «مجمع الزوائد» و«منبع الفوائد» للحافظ نور الدين الهيثمي (٧/ ٢٦٦) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات ما نصه:

«عن أبي جعفر الخطمي أن جده عمير بن حبيب بن حماشة ـ وكان قد أدرك النبي ﷺ عند احتلامه ـ أوصى ولده فقال:

يا بني! إياك ومجالسة السفهاء، فإن مجالستهم داء، ومن يحلم عن السفيه يُسر، ومن يحبه يندم، ومن لا يرضى بالقليل مما يأتي به السفيه، يرضى بالكثير، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى، ويثق بالثواب من اللَّه تعالى، فإنه من وثق بالثواب من اللَّه عز وجل لم يضره مس الأذى».

*** إن قبلها فأنتما حُرَّان:**

جاء في «تاريخ بغداد» (٣٤٩/٨)، و«تهذيب الكمال» (٤٥٨/٨ ـ ٤٥٩) في ترجمة الإمام الرباني القدوة، داود بن نُصَير الطائي، أبو سُليمان الكوفي الفقيه الزاهد ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

«حدثنا محمد بن حَسَّان، قال:

قال لي عمي: قدم محمد بن قحطبة الكوفة، فقال: أحتاج إلى مُؤدب يؤدِّب أولادي، حافظ لكتاب اللَّه، عالم بسنة رسول اللَّه ﷺ والأثر وبالفقه والنحو والشعر وأيام الناس.

فقيل: ما يجمع هذه الأشياء إلا داود الطائي، وكان محمد بن قحطبة ابن عم داود، فأرسل إليه يعرض ذلك عليه ويُسني له الأرزاق والفائدة، فأبى داود ذلك، فأرسل إليه بَدْرَةً: عشرة آلاف درهم.

وقال: استعن بها على دهرك، فردها، فوجه إليه بَدْرَتَيْنِ مع غلامين له مملوكين، وقال لهما:

إن قبل البَدْرَتين فأنتما حُرَّان.

فمضيا بهما إليه فأبى أن يقبلهما، فقالا له:

إن في قبولهما عتق رقابنا.

فقال لهما: إني أخاف أن يكون في قبولهما وَهَق[1] رقبتي في النار، رداها إليه، وقولا له أن يردهما على من أخذهما منه أولى من أن يعطيني أنا».

*** الإمام الفقيه أبو وهب عبدالأعلى بن وهب القرطبي وهاشم بن عبدالعزيز الوزير: «إن كنت تطلب العلم للَّه فأعزه يعزك اللَّه»:**

جاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ـ رحمه اللَّه ـ (٣/ ١٤٠) في ترجمة الإمام الفقيه أبو وهب عبدالأعلى بن وهب القرطبي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

«قال ابن لبابة: كنت يومًا عند ابن وهب، في جنته بقرب مقبرة قريش، وكان يعتمرها بيده في نفر من الطلبة يسمع عليه، إذ أُحضر غداؤه، فقدمه إلينا فأكلنا معه.

إذ استأذن عليهم هاشم بن عبدالعزيز الوزير، فأذن له على تكره، ودخل، ونحن نأكل خبزًا أدمه من بقل الجنة. فجلس، وجعل يداعب الشيخ لظرفه، والشيخ لا ينبسط. ويقول: أبا وهب أما تدعونا لطعامك؟ تخاف أن نلتهمه؟

فقال له: ليس من الأطعمة التي توافقك.

قال: وإن لم تكن، فأنا أتبرك به.

ومد هاشم يده إلى لقمة من الخبز، فغمسها في البقل، وجعل يلوكها ولا يسيغها، فلمَّا فرغنا، سأل الشيخ عن مسألة فقه فأجابه الشيخ.

وقام هاشم لينصرف، فتحركت لأقوم معه، فضرب الشيخ على يدي، وأجلسني حتى خرج. ثم قال لي: ما أردت؟

(١) وهق: الحبل يُرمى في أنشوطة، فتؤخذ به الدابة والإنسان.

قلت: إكرامه، في مجلسك.

□ فقال: بئس ما صنعت، إن كنت تطلب العلم للَّه، فأعزه يعزك اللَّه، وإن كنت تطلبه للدنيا، فكن خادمًا من خدمة هؤلاء، فتصرف بين أيديهم، فهو أبقى لك عندهم، وأكسد لك عند ربك. فحافظت بعد ذلك على وصيته».

*** الخليل بن أحمد الفراهيدي: «مادُمتُ أجد الخبز فلا حاجة لي في سليمان»:**

«كان من الزهاد في الدنيا، والمنقطعين إلى العلم، ويُروَى عنه أنه قال: إن لم تكن هذه الطائفة ـ يعني أهل العلم ـ أولياء اللَّه فليس للَّه وليٌّ.

وقد كان وجه إليه سُلَيمان بن عَليّ من الأهواز، وكان واليها، يلتمس منه الشخوص إليه وتأديب أولاده ويرغّبه ـ ويقول: إن الذي وجه إليه سليمان بن حبيب بن المهلب من أرض السِّند، يستدعيه إليه ـ وكان الخليل بالبصرة فأخرَجَ الخليلُ إلى رسول سُليمان خبزًا يابسًا، وقال: ما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي في سليمان، فقال الرسول: فما أبلغه عنك؟

□ فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أني عنه في سَعة ... وفي غِنى غيرَ أني لستُ ذا مالِ
شُحًا بنفسي أني لا أرى أحداً ... يموت هُزْلاً ولا يبقى على حال
الرزق عن قدرٍ لا الضعف ينقصُهُ ... ولا يزيدكَ فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ... ومثل ذاك الغني في النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل:

إن الذي شَقَّ فمي ضامنٌ ... للرزق حتى يتوفاني
حرمتني خيراً قليلاً فما ... زادك في مالك حرماني

فبلغت سليمان فأقامه وأقعدته، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه، وأضعف راتبه، فقال الخليل:

وزلةٍ يُكثر الشيطانُ إن ذُكرت ... منها التعجُّب جاءت من سليمانا
لا تعجبنَّ لخير زلَّ عن يده ... فالكوكب النحس يسقي الأرض أحيانًا[1]

* بايعت رسول الله ﷺ على النُّصح لكل مسلم:

«عن إبراهيم بن جرير البجلي عن أبيه قال:

غدا أبو عبدالله ـ أي جرير ـ إلى الكناسة ليبتاع منها دابة، وغدا مولى له فوقف في ناحية السوق، فجعلت الدواب تمر عليه فمر به فرس فأعجبه، فقال لمولاه:

انطلق فاشتر ذلك الفرس، فانطلق مولاه، فأعطى صاحبه به ثلاثمائة درهم، فأبى صاحبه أن يبيعه، فماتخه، فأبى صاحبه أن يبيعه، فقال:

هل لك أن تنطلق إلى صاحب لنا ناحية السوق؟

قال: لا أبالي، فانطلقا إليه، فقال له مولاه: إني أعطيت هذا بفرسه ثلاثمائة درهم، فأبى، وذكر أنه خير من ذلك، قال صاحب الفرس: صدق، أصلحك الله، فترى ذلك ثمنًا.

قال: لا، فرسك خير من ذلك تبيعه بخمسمائة، حتى بلغ سبعمائة درهم أو ثمانمائة.

فلما ذهب الرجل أقبل على مولاه، فقال له:

ويحك انطلقت لتبتاع لي دابة، فأعجبتني دابة رجل، فأرسلتك تشتريها، فجئت برجل من المسلمين تقوده، وهو يقول ما ترى ما ترى؟

(١) «أخبار النحويين» ص(٣٨ ـ ٣٩)، و«تهذيب الكمال» (٨/ ٣٣٠)، و«وفيات الأعيان» (٢/٢٤٦).

وقد بايعت رسول اللَّه ﷺ على النصح لكل مسلم»(١).

*** للَّه درُّ صلة بن أشيم العدوي ورفقه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «هذا كان أمثل مما أردتم»:**

«مر فتى يجر ثوبه أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذًا شديدًا.

فقال صلة: دعوني أكفكم أمره.

ثم قال: يا ابن أخي، إن لي إليك حاجة.

قال: ما هي؟

قال: أحب أن ترفع إزارك.

قال: نعم وقرة عين، فرفع إزاره.

فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم»(٢).

*** الشيخ أحمد بن المعدل وأمير المومنين المتوكل: «نزّهتك من عذاب اللَّه»:**

«عن أحمد بن علي البصري قال: وجه المتوكل إلى أحمد بن المعدل وغيره من العلماء، فجمعهم في داره، ثم خرج عليهم، فقام الناس كلهم له غير أحمد بن المعدل، فقال المتوكل لعبيداللَّه: إن هذا لا يرى بيعتنا.

فقال له: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن في بصره سوءًا.

فقال أحمد بن المعدل: يا أمير المؤمنين ما في بصري سوء، ولكن نزهتك من عذاب اللَّه، قال النبي ﷺ: **«من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا**

---

(١) سنده صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٢٣٩٥)، و«المحلى» لابن حزم (٨/ ٤٤٠ ـ ٤٤١).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة المقدسي ص(١٢٨).

قرة عين: أقر عينك بطاعتك.

فليتبوأ مقعده من النار».

فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه»[١] .

*** التابعي الجليل الإمام عبدالرحمن بن أبي نعم البجلي الكوفي والحجاج: «سرْ حيث شئت»:**

«كان من عُبَّادِ أهل الكوفة، ممن يصبرُ على الجوع الدائم، ودَخَل على الحجَّاج أيام الجماجم فوعظه، فأخذه الحجَّاج ليقتله، وأدخله بيتًا مظلمًا، وسدَّ الباب عليه خمسة عشر يومًا! ثم أمر بالباب ففُتح ليخرج فيُدفن، فدخلوا عليه، فإذا هو قائمٌ يُصلِّي! فقال له الحجَّاج: سِر حيث شئت»[٢] .

*** سوار بن عبدالله وأبو جعفر المنصور: «خوفتك دعوة اليتيم والأرملة ومن لا حيلة له»:**

جاء في كتاب «أخبار القضاة» ص(٥٨)، ما نصه:

«همَّ أبو جعفر المنصور أن يسكِّر نهر ابن عمر في البصرة، فوفد إليه وفد من أهل البصرة فيه سوار بن عبدالله، وداود بن أبي هند، وسعيد بن أبي عمرويه فكلموه.

فقال سوار: يا أمير المؤمنين، إن أردت أن تقتل مائة ألف من الناس عطشًا فسكِّره، يا أمير المؤمنين! إني أحذرك أهل البصرة.

فقال أبو جعفر: أتخوفني بأهل البصرة؟ لهممت أن أوجه إليهم بقائد يجثم على أكبادهم حتى يأتي على آخرهم.

قال: يا أمير المؤمنين! لم أذهب حيث ذهبت، ولكن خوفتك دعوة اليتيم والأرملة ومن لا حيلة له.

فرجع أبو جعفر وأضربَ عما كان عزم عليه».

---

(١) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص(٣٥٢).

(٢) «تهذيب التهذيب» (٦/ ٨٦).

* **القاضي شريك وبعض ولد المهدي: «هكذا يُطلب العلم»:**

«عن حمدان بن الأصبهاني قال: كنت عند شَريك، فأتاه بعضُ ولَدِ المهدي، فاستند إلى الحائط، وسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، فأعادَ عليه، فلم يلتفت إليه.

فقال: كأنَّكَ تستخفُّ بأولاد الخلافة؟ قال: لا، ولكنَّ العِلْمَ أزينُ عند أهله من أن يضيِّعوه.

قال: فجثا على ركبتيه ثم سأله.

فقال شريك: هكذا يُطلبُ العِلمُ»[1] .

* **«قد حَسُنَ عندنا ظاهركَ، فحسَّن اللَّهُ باطنك»:**

جاء في كتاب «تاريخ قضاة الأندلس» لأبي الحسن بن عبداللَّه المالقي ص(٤٢) في ترجمة القاضي عنترة بن فلاح، ما نصه:

«استسقى القاضي عنترة بن فلاح في قرطبة يومًا، فأحسن في قيامه في الخطبة، وخشع الناس بوعظه وتذكيره، وحرَّكهم بدعائه وابتهاله، فلما فرغ قام إليه رجل من عامة الناس فقال له: أيها القاضي الواعظ، قد حَسُنَ عندنا ظاهركَ، فحسَّن اللَّهُ باطنك.

فقال القاضي: اللَّهم آمين ولنا أجمعين، أضمرت يا ابن أخي شيئًا؟

فقال الرجل: نعم يا قاضي، بتفريغ أهرائك يتم فضل استسقائك.

فقال: لعمري لقد نصحتني، وإني أُشهد اللَّه أن جميع ما حواه ملكي من الطعام صدقة لوجه اللَّه الكريم.

ثم أقسم ألا يترك مقامه حتى يرسل إلى داره فيفرق جميع ما ادَّخره.

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (١/١٩٨).

قال: فغيث الناس من يومهم غيثًا عامًّا».

* «إياكم وأبوابنا هذه الخبيثة أن تطيفوا بها»:

«عن المفضل بن فضالة، عن أبيه قال:

استأذن قوم على عبدالملك بن مروان أمير المؤمنين، وهو شديد المرض فدخلوا عليه فقال:

إنكم دخلتم عليَّ في حين إقبال آخرتي، وإدبار دُنياي، وإني تذكرت أرجى عمل لي فوجدته غزوة غزوتها في سبيل اللَّه، وأنا خلو من هذه الأشياء، فإياكم وأبوابنا هذه الخبيثة أن تطيفوا بها»[1].

* «متى يُفلحُ من كان يسرُّه ما يضرُّه؟»:

جاء في «سير أعلام النبلاء» للذهبي ـ رحمه اللَّه ـ (١١/ ٥٠٠) في تعليقة رائعة للإمام الذهبي على حديث «الدين النصيحة» ما نصه:

وقال: فتأمل هذه الكلمة الجامعة، وهي قوله: «الدِّينُ النصيحةُ»، فمن لم ينصح للَّه وللأئمة والعامَّة، كان ناقصَ الدين، وأنت لو دُعيتَ: يا ناقص الدين، لغضبت! فقل لي: متى نصحت لهؤلاء؟ كلا واللَّه، بل ليتك تسكت، ولا تنطِق، أو لا تُحسِّن لإمامك الباطل، وتجرئه على الظلم وتغشه، فمن أجل ذلك سقطت من عينه، ومن أعين المؤمنين، فباللَّه قل لي:

متى يُفلحُ مَن كان يسرُّه ما يضرُّه؟ ومتى يُفلح من لم يراقب مولاه؟ ومتى يُفلح من دنا رحيله، وانقرض جيلُه، وساء فعله وقيله، فما شاء اللَّه كان، وما نرجو صلاح أهل الزمان، ولكن لا ندع الدعاء، لعل اللَّه أن يلطف، وأن يصلحنا، آمين».

---

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٤/ ٥٢٠)، و«مشارق الأشواق» لابن النحاس (١/ ١٤٤).

* «إن الأطباء هم العلماء وهم مرضى»:

جاء في كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي ـ رحمه اللَّه ـ (٣/ ٦٣) عبارات رائعة أورد نصها:

«إن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء اللَّه، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، فإن دواءه مخالفة الشهوات، وهو نزع الروح، فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه، لم يجد طبيبًا حاذقًا يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، والمرض مزمنًا، واندرس هذا العلم، وأُنكر طب القلوب، وأُنكر مرضها...».

* «ولو أن أهل العلم صانوه صانهم»:

جاء في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير ـ رحمه اللَّه ـ (١١/ ٣٥٤) في ترجمة القاضي الفقيه الشاعر علي بن عبدالعزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢هـ أبياتٌ شعرية رائعة للقاضي الجرجاني ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

يقولون لي فيكَ انقباضٌ وإنَّما ... رأوا رجلاً عن موقفِ الذُّلِّ أحجما
أرى الناسَ مَنْ داناهُم هانَ عندهم ... ومن أكرمتهُ عزة النفس أُكرما
ولم أقض حقَّ العلم إن كان كلما ... بدا طمعٌ صيرتهُ لي سلمًا
إذا قيل هذا مطمعٌ قُلتُ قد أرى ... ولكنَّ نفسَ الحُرِّ تحتملُ الظَّما
ولم أبتذلْ في خدمةِ العلم مهجتي ... لأخدمَ من لاقيتُ لكن لأُخدَما
أأشقى به غرسًا وأجنيه ذِلَّةً ... إذًا فاتِّباعُ الجهل قد كان أحزما
ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوه صانهم ... ولو عظَّموهُ في النفوسِ لعُظِّما
ولكن أهانوهُ، فهان، ودَنَّسوا ... مُحيَّاهُ بالأطماعِ حتى تجهَّما

* **الأعمش والعباس بن موسى أمير الكوفة: «أبلغك أنَّا نبيع العلم؟»:**

«عن حفص بن غياث قال: بعث العباس بن موسى أمير الكوفة إلى الأعمش بألف درهم وصحيفة، فقال:

اكتب لي فيها من حديثك.

فأخذ الألف درهم، وكتب له فاتحة الكتاب، فبعث بها إليه.

فبعث إليه: أبلغك أنَّا لا نُحسِنُ القرآن؟!

فبعث إليه: أبلغكَ أنَّا نبيعُ العلم؟!»[1].

* **«غضب الأمير أهون من غضب اللَّه»:**

«دخل جامع المحاربي على الحجاج ـ وكان جامع شيخًا صالحًا خطيبًا لبيبًا جريئًا، وهو الذي قال للحجاج إذ بني مدينة واسط: بنيتها في غير بلدك، وتورثها غير ولدك ـ فجعل الحجاج يشكو له سوء طاعة أهل العراق وقبح مذهبهم، فقال جامع:

أما إنهم لو أحبُّوك لأطاعوك، على أنهم ما شنؤوك لنسبك ولا لبلدك، ولا لذات نفسك، فدع عنك ما يبعدهم منك إلى ما يقربهم إليك، والتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك.

فقال الحجاج: ما أرى أن أردَّ بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف.

قال جامع: إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار.

قال الحجاج: الخيار يومئذٍ للَّه.

قال جامع: أجل، ولكنك لا تدري لمن يجعله اللَّه.

قال الحجاج: إنك من محارب يا هناه.

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (١/ ٣٥٦).

قال جامع:

وللحرب سُـمينا وكنا محاربـًا إذا ما القنا أمسى من الطعم أحمرا

قال الحجاج: واللَّه لقد هممت أن أخلع لسانك فأضرب به وجهك.

قال جامع: إن صدقناك أغضبناك، وإن غششناك أغضبنا اللَّه، وغضب الأمير أهون علينا من غضب اللَّه.

قال الحجاج: أجل، وسكت»[1].

* «نصحتُك إذ غشُّوك»:

«قدم عقيبة الأسدي على معاوية، ورفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات:

معاويّ إننا بشر فاسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد

أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد؟

أتطمع بالخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود؟

فهبنا أُمة هلكت ضياعًا يزيـد أميرها وأبو يزيـد

فدعا به معاوية فقال: ما جرَّأكَ عليَّ؟

قال: نصحتك إذ غشوك، وصدقتك إذ كذبوك.

فقال: ما أظنك إلا صادقًا، وقضى حوائجه»[2].

* «إنه أعيانا فرارًا»:

جاء في كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٣/ ١٦٥) ما نصه:

«لقي أبو جعفر سفيان الثوري في الطواف، وسفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه وقال: أتعرفني؟

---

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٤/ ٢٥).

(٢) «خزانة الأدب» (٢/ ٢٢٦).

قال: لا، ولكنك قبضت عليَّ قبضة جبار.

قال: عظني أبا عبدالله.

قال: وما عملت فيما علمت فأعظكَ فيما جهلت.

قال: فما يمنعك أن تأتينا؟

❑ قال: إن الله نهى عنكم، قال تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

ثم التفت إلى أصحابه فقال: ألقينا الحبَّ إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فرارًا».

*** «إني أحذرك يوم ينادي المنادي»:**

جاء في «البداية والنهاية» لابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ (٩/ ٦٦) في ترجمة الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان ـ رحمه الله تعالى ـ ما نصه:

«ذات يوم أذن عبدالملك للناس في الدخول عليه إذنًا خاصًا ـ يعني لا يدخل إلاَّ خاصة الناس ـ فدخل مع الناس شيخ رث الهيئة، لم يأبه له الحرس، فألقى أمام عبدالملك صحيفة، وخرج، فلم يدر أحد أين ذهب.

وأخذ عبدالملك الصحيفة، فإذا فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم:

يا أيها الإنسان، إن الله قد جعلك بينه وبين عباده، فاحكم بينهم ﴿بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

﴿أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦].

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤].

إن اليوم الذي أنت فيه لو بقي لغيرك ما وصل إليك ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

وإني أحذرك يوم ينادي المنادي ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

فلما قرأه عبدالملك تغير وجهه، فدخل دار حرمته، ولم تزل الكآبة في وجهه بعد ذلك أيامًا».

* «إنْ تحكم فيَّ يحكم فيك ملك قادر يفرِّق بين الحق والباطل»:

«قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدي وقد أُتي بسفيان الثوري، فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ولم يُسلم بالخلافة، والربيع قائم على رأسه متكئًا على سيفه يرقب أمره، فأقبل عليه المهدي بوجه طَلْقٍ، وقال له:

يا سفيان، تفر منا ها هنا وها هنا، وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟

□ قال سفيان: إن تحكم فيَّ يحكم فيك ملكٌ قادر يفرِّق بين الحق والباطل.

فقال له الربيع: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ إئذن لي أن أضرب عنقه.

فقال له المهدي: اسكت ويلك، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم! اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم.

فكتب عهده ودفع إليه، فأخذه وخرج فرمى به في دجلة وهرب،

فطُلب في كل بلد فلم يوجد، ولما امتنع من قضاء الكوفة وتولاه شريك بن عبدالله النخعي قال الشاعر:

تحــرَّزَ سُــفيان وفَــرَّ بدينـــه وأمسى شُريكٌ مرصداً للدَّراهم[1]

*** «الفقيه الزاهد نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي وتاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان»:**

زار تاجَ الدولة تُتش بن ألب أرسلان الفقيه نصرُ بنُ إبراهيم يومًا، فلم يقم له، فسأله عن أحَلِّ الأموال التي يتصرف فيها السلطان، فقال الفقيه نصر: أحلُّها أموال الجزية.

فخرج من عنده، وأرسل إليه بمبلغ من المال، فقال:

هذا من مال الجزية، تفرقه على الأصحاب.

فلم يقبله، وقال: لا حاجة بنا إليه.

فلما ذهب الرسول، لامه الفقيه أبو الفتح نصر الله بن محمد، وقال له:

قد علمت حاجتنا إليه، فلو كنت قبلته وفرَّقته فينا.

فقال: لا تجزع من فَوته، فسوف يأتيك من الدنيا ما يكفيك فيما بعد.

فكان كما تفرس فيه»[2] .

*** «لو احتجتُ إلى مالكَ ما وعظتُكَ»:**

جاء في كتاب «تاريخ الخلفاء» للإمام جلال الدين السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ ص(٢٦٥) في ترجمة الخليفة العباسي المنصور أبي جعفر عبدالله ابن محمد بن علي العباسي الهاشمي ـ رحمه الله ـ ما نصه:

«عن محمد بن منصور البغدادي قال: قام بعض الزُّهَّاد بين يدي

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٩٠).

(٢) «طبقات الشافعية» للسبكي (٤/ ٢٨).

المنصور فقال: إن اللَّه أعطاكَ الدُّنيا بأسرها، فاشترِ نفسكَ ببعضها، واذكر ليلة تبيتُ في القبرِ لم تبت قبلها ليلة، واذكر ليلة تخض عن يوم لا ليلة بعده.

◘ فأفحم المنصور، وأمر له بمال، فقال: لو احتجتُ إلى مالكَ ما وعظتُكَ».

*** «لا أزعمُ أنَّه ابتلاني، وقد عافاني»:**

جاء في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٢/ ٤٠) في ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي، ما نصه:

«خطب الحجاج بن يوسف في يومِ جمعةٍ فأطالَ الخُطْبَة، فقام إليه رجل، فقال: إن الوقت لا ينتظركَ، والرَّبُّ لا يعذركَ.

فأمر به إلى الحبس، فأتاه آل الرجل، فقالوا: إنَّه مجنون.

فقال: إن أقرَّ على نفسه بما ذكرتُم، خَلَّيتُ سبيله.

◘ فقال الرجل: لا واللَّه، لا أزعمُ أنَّه ابتلاني، وقد عافاني».

*** «يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب؟»:**

جاء في كتاب «البداية والنهاية» للإمام ابن كثير ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٩/ ١٤٢) ما نصه:

«قال ميمون بن مهران: بعث الحجاج إلى الحسن البصري وقد همَّ به، فلمَّا قامَ بين يديه.

قال: يا حجاج، كم بينك وبين آدم من أب؟

قال: كثير.

قال: فأين هم؟

قال: ماتوا.

فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن».

* «لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت»:

جاء في كتاب «جذوة المقتبس» للحميدي ـ رحمه اللَّه ـ ص(١٧٢) و«نفح الطيب» للمقري التلمساني ـ رحمه اللَّه ـ (٣/ ١٧٢ ـ ١٩٠) في ترجمة أبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني ـ رحمه اللَّه، ما نصه:

«قال ابن حزم ـ رحمه اللَّه ـ: ومن أعظم ما يُحكى من المكارم التي لم نسمع لها أختًا:

أن أبا الوليد عبداللَّه بن محمد بن عبداللَّه المعروف بابن الفرضي حدثني: أن أبا الجيش مجاهدًا ـ يعني العامري ـ صاحب الجزائر ودانيه، وجه إلى أبي غالب أيام غلبته على مُرسيه، وأبو غالب ساكن بها ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور ـ يعني تلقيح العين ـ مما ألَّفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد، فردَّ الدنانير وأبى من ذلك، ولم يفتح في هذا بابًا البتة، وقال:

واللَّه لو بذلَ لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب، لأني لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب.

فأُعجب لهمة هذا الرئيس وعلوِّها، وأُعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها».

* القاضي عبدالملك بن محمد الحزمي وداود بن يزيد بن حاتم والي مصر: «لن تصل رحمي بمثل إعفائي»:

«عن يزيد بن عمر: أن الطائي صاحب البريد شفعَ إلى الحَزْمي في خَصْمٍ فكتب إليه الحزمي: ما أنت والقضاء، عليك تدبُر دوابِّكَ وبراذعها، وكنس زبولها.

فكتب إليه هارون يبغيه ويقول: إن الناس قد شكوه.

وأتى كتاب هارون إلى داود بن يزيد بن حاتم، وكان واليًا على مصر يأمره أن يوقِّفَ الحزمي للناس.

فأقامه داؤد فأثنى الناس عليه خيرًا، وركب الليث بن سعد، وعاصم ابن العلاء القاص، وعبداللَّه بن لهيعة، إلى الأمير فأثنوا عليه.

فقال الحزمي لداؤد: قد جاءتني فُرجة، فيها لباس العافية مما أنا فيه، ولست تصل رحمي بمثل إعفائي، وقد رضيتُ لك المفضل بن فضالة.

فلم يزل به حتى أعفاه»[١].

*** العلاء بن كثير الاسكندراني والليث بن سعد:**

«قال سليمان بن داود المهري، عن علي بن مُطلب وغيره:

كان العلاء بن كثير لا يتلقى أحدًا إذا قدم الإسكندرية غير الليث بن سعد، ولا يُشيِّع أحدًا غيره إذا خرج.

قال: فبلغ العلاء أنه ولي.

قال سليمان: وإنما ولي مصلحة المسلمين، فقدم الليث، فقال العلاء لأصحابه: لا أعلمن أحدًا منكم خرج إليه ولا يلقاه.

قال: فقدم فدخل المسجد، فلم يقم إليه أحد.

قال: فجاء الليث فجلس إلى العلاء، فقال: يا ليث وليت؟

فقال الليث: خفتُ على دمي.

فقال له العلاء: لسحرةُ فرعون كانوا أقرب عهدًا بالكفر منك ولهم كانوا أعلم باللَّه منك حين قالوا: اقض ما أنت قاض.

قال: فقال: فإني أتوب إلى اللَّه.

---

(١) «أخبار قضاة مصر» لمحمد بن يوسف الكندي ص(٣٨٤).

قال: فقال العلاء لإخوانه: خذوا بيد أخيكم»[١] .

* «لا يا رب ولو قرضت بالمقاريض»:

«عن أبي يحيى الوقار قال: لما طُلبَ ابنُ وهَب للقضاء تغيَّب فسُمع وهو يقول:

□ يا ربِ يقدم عليك إخواني غدًا عُلماءَ حُكماءَ فُقهاء، وأقدمُ عليكَ قاضيًا، لا يا ربِّ ولو قُرضتُ بالمقاريض»[٢] .

* الإمام يحيى بن يعمر والحجاج: «لم تدع خشية اللَّه مكانًا لخشية سواه»:

«قال الحجاج ليحيى بن يعمر: ما تقول في مدينة واسط؟

فقال له: ما أقول فيها وقد بنيتها من غير مالك، وسيسكنها غير أهلك.

فقال الحجاج: ما حملكَ على ما قلت؟

قال: ما أخذ اللَّه تعالى على العلماء من العهد ألاَّ يكتموا الناس حديثًا.

فقال له: ألم تخشى سيف الحجاج؟

□ فقال: لقد ملأتني خشية اللَّه جلَّ وعَلا، فلم تدع مكانًا لخشية سواه. فسكت الحجاج ولم يُجب»[٣] .

* العز بن عبدالسلام والملك الأشرف الأيوبي:
«هذه اجتماعة للَّه لا أُكدِّرها بشيء من الدنيا»:

«كان الملك الأشرف الأيوبي يلي دمشق، وأخوه الملك الكامل يلي مصر، وقامت فتنة بدمشق على مسائل كلامية انتصر فيها العز بن عبدالسلام للشريعة الغراء نصراً أغضب الملك الأشرف، إذا كان ميله للطرف الآخر،

---

(١) «تهذيب الكمال» للمزي (٢٢/ ٥٣٣).

(٢) «أخبار قضاة مصر» للكندي ص(٤١٨).

(٣) «عيون الأخبار» للدينوري (١/ ٢٣٠).

فلما مرض الأشرف أرسل للشيخ يتحلل منه ويعتذر إليه، ويسأله أن يعوده ويوصيه بما ينفعه، فقبل الشيخ واتجه لزيارته، وكانت قد وقعت بين الأشرف وأخيه الكامل وحشة فأمر وهو في مرضه أن ينصب دهليزه صوب مصر، فلما رأى الشيخ الدهليز على هذه الحال، قال للملك الأشرف:

إن الملك الكامل أخوكَ الكبير، ورحمك، وأنت مشهور بالفتوحات، والتتار قد خاضوا بلاد المسلمين، أفتركُ ضرب دهليزك إلى أعداء اللّه وأعداء الإسلام، وتضربه صوب أخيك؟ غيِّر الحال ولا تقطع رحمك، وانوِ مع اللّه نصر دينه وإعزاز كلمته، فإن منَّ اللّه بالعافية عليك رجونا منه تعالى إدالتك على الكفار، وكانت هذه الحسنة العظيمة في ميزانك، وإن قضى اللّه بانتقالك إليه كان السلطان في خفارة نيتك.

فقال الأشرف: جزاك اللّه خيراً عن إرشادك ونصيحتك، وأمر والشيخ حاضر بنقل دهليزه صوب التتار.

ثم قال للشيخ: زدني من نصيحتك ووصاياك.

فزاده الشيخ حتى أمر بإبطال المكس والإقلاع عن المحرَّمات والمظالم، وأطلق له ألف دينار مصرية فردَّها عليه وقال:

هذه اجتماعة للّه لا أُكدِّرها بشيء من الدنيا»[1] .

* القاضي سوار بن عبداللّه قاضي البصرة وعقبة بن مسلم الهنائي: «لأقتُلنَّكَ قتلةً يتحدَّثُ الناس بها»:

جاء في كتاب «أخبار القضاة» ص(٥٩ ـ ٦٠) ما نصه:

«عن الأصمعي عن أبيه: أن عقبة بن مسلم الهنائي عامل أبي جعفر على معونة البصرة بلغ من عُتوِّه واجترائه على اللّه، وإقدامه على دماء

---

(١) «العز بن عبدالسلام» للأستاذ رضوان الندوي «الموقف: ٣٢».

المسلمين وأموالهم أمرًا منكرًا.

أخذ مرة رجلاً قدم بجوهرة، فاعتدى عليه وأخذ منه الجوهرة، وحبسه في السجن.

فجاءت زوجة الرجل إلى سوار بن عبدالله وهو قاضي أهل البصرة فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي، إن الأمير عقبة بن مسلم أخذ زوجي، قدم بجوهرة فاغتصبه إياها، وحبسه في السجن.

فبعث إليه سوار يخبره بما رفعت المرأة عليه عنده ويقول له: فإن كان حقًا فأطلق الرجل ورُدَّ جوهرته.

فلما أخبر الرسول عقبة برسالة سوار زجره، وشتمه، وشتم سواراً، فجاء الرسول إلى سوار فأخبره بذلك، فوجَّه إليه سوار بأمنائه ليسمعوا منه قوله، وما يردُّ به من جوابٍ، فأتوه فردَّ عليهم بشتم قبيح فعادوا إلى سوار فأخبروه.

فأرسل إليه سوار: والله لئن لم تطلق الرجل وتردَّ عليه جوهرته، لآتينَّكَ في ثياب بيض ماشيًا، ولأدمِّرنَّ عليك بغير سلاح، ولأقتُلنّكَ قتلةً يتحدَّث الناس بها.

فلمَّا سمعَ مَنْ بحضرته رسالة سوار قالوا: أيُّها الأمير إنَّه يفعل بكَ ما أرسل إليك، وهو سوار قاضي أمير المؤمنين، فافعل ما أمركَ به، فوجَّه إليه بالرَّجل وبالجوهرة، ووجَّه إليه رجالاً يشهدون عليه بقبض الرجل والجوهرة، فصاح بهم سوار: تشهدون على ماذا؟ يُطلق الرجل وتُردُّ عليه جوهرته، ففعلوا».

* «للَّه درك يا سوار»:

«كان محمد بن سليمان أميراً للمهدي على البصرة، وكان حماد بن موسى الغالبُ عليه لموضعه منه، فحبس سوار القاضي رجلاً من أتباع حمَّاد

في قضيته فأخرج حمَّاد الرجل من الحبس.

فركب سوار حتى دخل على الأمير محمد بن سليمان، وهو قاعد للناس والناس على مراتبهم فجلس حيث يراه محمد، ثم دعا بقائد من قواد الأمير وقال له: أسامع أنت مطيع؟ قال: نعم. قال: اجلس ها هنا وأقعده عن يمينه، ثم دعا آخر وفعل ذلك بجماعة من القواد، ثم قال: انطلقوا إلى حمَّاد بن موسى فضعوه في الحبس، فنظروا إلى محمد فأشار إليهم أن افعلوا ما يأمركم، فانطلقوا فوضعوا حماد بن موسى في الحبس فانصرف سوار.

فلما كان العشيُّ قال له الأمير: يا أبا عبداللَّه قد بلغني ما صنع هذا الجاهل وأُحبُّ أن تهب لي ذنبه.

قال: قد فعلتُ إن ردَّ الرجل إلى الحبس، قال: يردُّه بالصاد والقماء، ووجَّه إلى الرجل فحبسه، وأخرج حمادًا وكتب بذلك إلى المهدي.

فكتب المهدي إلى سوار يحمده على ما صنع، وكتب إلى محمد بن سليمان بكلام غليظ يقول فيه:

واللَّه لولا أن الوعيد أمام العقوبة، ما أدَّبته إلاَّ بالسيف ليكون عظةً لغيره ونكالاً، يفتات على قاضي المسلمين في رأيه، ويركب هواه لموضعه منك! ويعرض بالأحكام استهانة بأمر اللَّه وإقدامًا على أمير المؤمنين، وباللَّه لئن عاد إلى مثلها ليجدني أغضب لدين اللَّه، وأنتقم لأولياء اللَّه من أعدائه والسلام»[1].

*** قاضي البصرة الحسن بن عبداللَّه العنبري والمعتصم وأحمد بن أبي دؤاد: «وددتُ أن مكان كل شعرة فيه قاض على بلد من البلدان»:**

«لـمَّا أصبح الحسن بن عبيداللَّه العنبري قاضيًا على البصرة أراد أحمد

(١) «أخبار القضاة» ص(٦٩).

ابن أبي دؤاد ـ قاضي القضاة ـ أن يختبره، فكتب إليه:

إن عندك صكوكًا في ديوانكَ هي لقوم من أهل بغداد، فاحملها مع نفر من قبلكَ لتُسلِّمها إلى قاضي بغداد ليكون أهون على أهلها في التثبُّت.

فكتب الحسن العنبري له: إنَّ هذه الصُّكوك لقوم ادَّعوها قبلي، وقد شرعوا فيها، وأقاموا البيِّنة عندي، ولم أكن لأُخرجها عن يدي فيبطلَ حقٌّ من حقوقهم، فإن شئت أن تبعثَ أنتَ إلى الديوان فتأخذها كان ذلك إليك أمّا أنا فلن أتقلَّد ذاك أبدًا.

دخل ابن أبي دؤاد على المعتصم، وأخذ منه كتابًا حازمًا يأمرُ الحسن بحملِ الصُّكوك إلى قاضي بغداد، فجمع الحسن فقهاء البصرة وفيهم هلال الرأي فشاورهم فقال له هلال: كأنَّهم عزلوكَ عن هذه الصُّكوك نفسها، فوجِّها إليهم.

قال محمد بن عمر: فلمّا خرج الفقهاء قال لي: ما تقول؟ فقلتُ: عوَّذكَ اللَّه وأهلكَ من ردِّ كتب الخلفاء بما لا يستقيم خيرًا.

قال: فنادى غُلامه، وقال له: اكتب يا غلام، وردَ عليَّ كتاب أمير المؤمنين حزمًا، ولم يكن القضاة يُكتبُ إليهم حزمًا، وهذه الكتب كنت أوطن أمير المؤمنين فيها العثرة، وهي لقوم قبلي، ولم أكن لأتقلَّد إثم إبطال حقوقهم، والديوان ديوان أمير المؤمنين، فإن أحبَّ أن يُرسل فيأخذها فذلك إليه.

فلمّا وردَ الكتابُ على أحمد بن أبي دؤاد قال للمعتصم:

كيف رأيت فراستي فيه؟

واللَّه لوددتُ أن مكان كل شعرة فيه قاض على بلد من البلدان»[1].

---

(١) «أخبار القضاة» ص(١٧٤).

*** القاضي إياس ووكيع بن أبي سود صاحب خراسان: «خدعك إنه لا يقبل شهادتك»:**

«احتال قوم على وكيع بن أبي سود صاحب خراسان ليشهد لهم، وهو رجل أحمق شرير، وكان إياس لا يقبل شهادته.

فلما أقبلَ وكيع على إياس احتفى به، وقال له: مرحبًا وأهلاً بأبي مطرف، وأجلسه معه، ثم قال له:

ما جاءَ بك؟ قال: لأشهد لفلان.

فقال له إياس: ما لك وللشهادة، إنَّما يشهدُ الموالي والتجّار والسوقة.

قال: صدقت، وانصرف من عنده، فقيل له: خدعكَ إنَّه لا يقبل شهادتك.

قال: لو علمتُ ذلك لصلوته بالقضيب»[1].

*** عبدالله بن أيوب المخرمي لا يخرج لأصحاب الخليفة ويرفض القضاء:**

«عن محمد بن محمد بن سليمان الباغندي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ قال:

كنتُ بسرّ من رأى، وكان عبداللَّه بن أيوب المخرمي يقرب إليَّ، فخرج توقيع الخليفة بتقليده القضاء، فانحدرتُ في الحال من سرَّ من رأى إلى بغداد، حتى دققتُ على عبداللَّه بن أيوب بابه، فخرج إليَّ.

فقلت: لك البُشرى.

فقال: بشَّرَكَ اللَّه بخير، ما هي؟

قال: قلت: خرج توقيع السلطان بتقليدك القضاء لأحد البلدين، إمّا سرَّ من رأى، أو بغداد.

قال: فأطبقَ الباب، وقال: بشَّركَ اللَّه بالنار.

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي (١/ ٩٠) ـ طبع لجنة التأليف.

وجاء أصحاب السلطان إليه، فلم يظهر لهم، فانصرفوا»[1] .

*** الإمام ربيعة الرأي والخليفة الوليد بن يزيد: «عزَّة العلماء... ما أُحدِّثُ شيئًا»:**

«عن عبداللَّه بن كامل، عن مالك أو غيره قال:

لَمَّا دخل ربيعة على الوليد بن يزيد ـ وهو خليفة ـ قال: يا ربيعة، حدِّثنا.

قال: ما أحدث شيئًا.

قال: فلما خرج من عنده قال: ألا تعجبون من هذا الذي يقترح عليّ كما يقترح على المُغنية: حدثنا يا ربيعة»[2] .

*** صلاح النفس أولاً ثم دعوة الناس وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر:**

قال أبو حامد الغزالي ـ رحمه اللَّه ـ: «كن أحد رجلين:

إمّا مشغولاً بنفسك، وإمّا مُتفرِّغًا لغيرك بعد الفراغ لنفسك.

وإيَّاكَ أن تشتغلَ بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك.

فإن كنت المشغول بنفسكَ فلا تشتغل إلاَّ بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك.

ولا تشتغل بفروض الكفاية، لا سيَّما وفي زمرة الخلق من قد قام بها، فإن مُهلك نفسه ـ فيما به صلاح غيره ـ سفيه، فما أشدَّ حماقة من دخلت الأفاعي تحت ثيابه، وهمَّت بقتله، وهو يطلبُ مذبَّةً يدفعُ بها الذباب عن غيره.

وإن تفرَّغت من نفسك وتطهيرها، فاشتغل بفروض الكفايات، وراع التدريج فيها»[3] .

---

(١) «تاريخ بغداد» (١٠/ ٨١)، و«المنتظم» (٥/ ٥٣).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي» للخطيب (١/ ٣٣٦).

(٣) «إحياء علوم الدين» (١/ ٣٩).

وقال: «فحقٌّ على كلِّ مسلم أن يبدأ بنفسه فيُصلحها، بالمواظبة على الفرائض وترك المحرَّمات، ثم يعلِّم ذلك أهل بيته، ثم يتعدَّى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلَّته، ثم إلى أهل بلده... وهكذا إلى أقصى العالم.

فإن قام به الأدنى، سقط عن الأبعد، وإلاَّ حرج به على كلِّ قادر عليه، قريبًا كان أو بعيدًا، ولا يسقطُ الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه، وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلِّمه فرضه.

وهذا شغل شاغل، لمن يهمه أمر دينه، ويشغله عن تجزئة الأوقات في التفريعات النادرة، والتعمُّق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات، ولا يتقدَّم على هذا ـ أي أمر الدعوة ـ إلاَّ فرض عين، أو فرض كفاية هو أهم منه»[1].

* «لا نستضيء بنارهم»:

«قال أبو شهاب: كنت ليلة مع سفيان فرأى ناراً من بعيد.

فقال: ما هذا؟ فقلت: نار صاحب الشرطة.

فقال: اذهب بنا في طريق آخر، لا نستضيء بنارهم، أو قال: بنورهم»[2].

* «لا أُحدِّث قومًا أنت فيهم»:

جاء في كتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ (١/ ٣٣٧) برقم: (٧٦٤) ما نصه:

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٤٢).
(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٤٠).

«... نا شريك قال: كان أبو جعفر المنصور قد استخفى عند رجل فأكرمه، فلمَّا أفضت الخلافة إليه، قدم عليه ذلك الرجل يُهنِّئه، فأكرمه وقال له: سل حاجتكَ، فقال له: أنت تعلم أنِّي من اللَّه في نعمة، ما لي حاجة، إلاَّ أنِّي أشتهي أن يُحدِّثني الأعمش، فاكتب إليه كتابًا ليُحدِّثني.

فكتب له أبو جعفر كتابًا بخطِّه إلى الأعمش يُعرِّفه فيه وجوب حقِّه عليه، ويأمره بأن يُحدِّثه.

فلمّا مضى الرجل بالكتاب وافى باب الأعمش، فدقَّه، وكان الأعمش يكره أن يُدَقَّ عليه بابُهُ، فقال: من ذا؟ ادخل.

فدخل ـ والأعمش يلخف كسبًا[1] للشاة ـ فقال له: ما لَكَ؟

فقال: هذا كتاب أمير المؤمنين إليك.

فقال: هاته، فأخذه، ثم قال: يا بُسْرَةَ ـ يعني أن اسم الشاة بُسْرَة ـ فرفعت رأسها، فجعل يُضَفِّرها الكتاب حتى أكلته.

ثم قال: إيش فيه؟ قال: فيه أن تُحدِّثني.

فقال: ما أُحدِّثُكَ بحرف.

فقال: سبحان اللَّه يا أبا محمد! يكتبُ إليك أمير المؤمنين في شيءٍ فلا تفعله؟

فقال: واللَّه ما أُحدِّثُكَ، ولا أُحدِّثُ قومًا أنت فيهم».

* أعرابي يشكو عاملاً لهشام بن عبدالملك:

«دخل أعرابيٌّ على هشام بن عبدالملك يشكو عاملاً لهم، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه واللَّه ما أدركنا أحدًا قعَدَ مَقْعَدَكَ أعدلَ منكَ، وإنَّ أهل الشكر لعدلك، هم عُيونُكَ على مكارمكَ، يجب عليهم أن يرفعوا إليك كلَّ مكرمةٍ

(١) يلخف كسبا: أي يعجنه، ويضرب بعضه ببعض ليتماسك، ثم يطعمه للشاة.

غِبتَ عنها، حفظًا لغيبك، وتأديةً لحقِّك وحقٍّ إمامتك، وفلان بن فلان رفعتَ خسيستَهُ، وأثبتَّ رُكنَهُ، وأعليتَ ذكرَهُ، وأمرتَهُ بنشر محاسنكَ فطواها، وإظهار مكارمكَ فأخفاها، وقد أخربَ البلادَ، وأظهرَ الفسادَ، وأجاعَ الأكبادَ، وأخرج الناس من سَعَةِ العدلِ إلى ضيقِ الجورِ، حتى باعوا الطارِفَ والتالِدَ.

قال: يا أعرابي، إن كان ما تقول حقًّا عزلناه وجعلناه نكالاً لمن سار بسَيْرِه»[١].

* «أكره أن أُذَلَّ»:

«عن سفيان بن عيينة أن محمد بن إبراهيم الهاشمي، وكان واليًا على مكة، بعث إلى سفيان الثوري بمائتي دينار، فأبى أن يقبلها.

قلت: يا أبا عبدالله، كأنكَ لا تراها حلالاً؟

قال: بلى، ولكن أكره أن أذلَّ»[٢].

* العَالِمُ يؤتى: «لا تعودنَّ لشيء من هذا»:

جاء في كتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ (١/ ٣٧٠) برقم: (٨٥٠) ما نصه:

«. . . سمعتُ مُسَدَّدًا ـ يعني ابن قَطَن ـ يقول: سمعتُ أبي يقول:

كنتُ عند سليمان بن حرب إذ أقبل طاهر بن عبدالله بن طاهر ـ والمطرقة بين يديه ـ فلمَّا جلس أقبل عليه سليمان فقبض على لحيته، فقال:

سبحان الله يُسْتَخَفُّ بشيخٍ مثلي؟!

قال: ما ذاك يا أبا أيوب؟

---

(١) «اللباب الآداب» للأمير أسامة بن منقذ (ص٢٣٧).

(٢) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم الرازي (١/ ١٤٤).

قال: بعثتَ إليَّ أن تعال فحدِّثني، العالم يأتي، أو يؤتى؟

قال: لا أعود يا أبا أيوب. قال: لا تعودنَّ لشيء من هذا، إن أردتَ الحديث فهذا مجلسي».

*** الشيخ أحمد بن بديل الكوفي قاضي الريِّ وموسى بن بغا: «إنه اللَّه تبارك وتعالى»:**

«عن أبي القاسم عبيداللَّه بن سليمان قال: كنتُ أكتُ لموسى بن بغا، وكنّا بالرَّي، وكان قاضيها إذْ ذاكَ أحمد بن بديل الكوفي، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعة كانت هناك، كانت له فيها سهام، وأن يعمِّرها، وكان فيهم سهم ليتيم.

فصرت إلى أحمد بن بديل، أو قال: استحضرت أحمد بن بديل، وخاطبته في أن يبيع علينا حصة اليتيم، ويأخذ الثمن.

فامتنع وقال: ما باليتيم حاجة للبيع، ولا آمن أن أبيع ماله وهو مستغن عنه، فيحدث على المال حادثة، فأكون قد ضيَّعته عليه.

فقلت: أنا أُعطيك في ثمن حصته ضعف قيمتها.

فقال: ما هذا لي بعذر في البيع، والصورة في المال إذا كثر، مثلها إذا قلَّ.

فأردتُه بكلِّ لون وهو يمتنع، فأضجرني، فقلت له:

أيها القاضي، إلاَّ تفعل، فإنه موسى بن بغا.

فقال لي: أعزَّك اللَّه، إنه اللَّه تبارك وتعالى.

قال: فاستحييتُ من اللَّه أن أعاوده بعد ذلك، وفارقته.

ودخلت على موسى، فقال: ما عملت في أمر الضيعة؟

فقصصتُ عليه الحديث، فلمَّا سمع «إنه اللَّه» بكى، وما زال يكرِّرها.

ثم قال: لا تعرض لهذه الضيعة، وانظر في أمر هذا الشيخ الصالح، فإن كانت له حاجة فاقضها.

قال: فأحضرته، وقلت له: إن الأمير قد أعفاك من أمر الضيعة، وذلك أنِّي شرحتُ له ما جرى بيننا، وهو يعرض عليك قضاء حوائجك.

قال: فدعا له، وقال: هذا الفعل أحفظ لنعمته، وما لي حاجة إلا إدرار رزقي، فقد تأخَّر منذ شهور، وقد أضرَّ بي.

فأطلقت له جاريه»[1].

* **اللَّه بيني وبينك:**

«عن إبراهيم الفرَّاء، قال: كتب سفيان إلى المهدي مع عصام جبر:

طرَدْتَني، وشرَّدْتَني، وخَوَّفْتَني، واللَّهُ بيني وبينكَ، وأرجو أن يخير اللَّه لي قبل مرجوع الكتاب. فرجعَ الكتابُ وقد مات»[2].

* **قاضي لا يدفع إلى المعتضد شيئًا: «لم يدفع إلى المعتضد شيئًا»:**

جاء في كتاب «المنتظم» للإمام ابن الجوزي - رحمه اللَّه تعالى - (٦/ ٥٣) ما نصه:

«عن أبي الحسين عبدالواحد بن محمد الخصيبي، قال: قال لي ابن حبيب الذرَّاع: كنَّا ونحن أحداث مع أبي حازم، وكنَّا نقعده قاضيًا، ونتقدَّم إليه في الخصومات.

قال: فما مضت الأيام والليالي، حتى صار قاضيًا.

قال أبو الحسين: وبلغ من شدَّته في الحكم، أن المعتضد وجَّه إليه بطريف المخلدي، فقال له: إنَّ لي على الضبعي - بيع كان للمعتضد ولغيره -

(١) «المنتظم» لابن الجوزي (٥/ ٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦٤).

النبـأ الزهـر
من
شـيوخ ورجـال العصـر

النَّبأ الزَّهْر من شيوخ ورجال العصر

مضى ركب الإسلام، على ظهر مركب الأيام، حتى رَسَتْ به على شاطئ القرن. الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) وقد تبدّلت الشرائع، وتغيّرت السنن، وعمّ الجهل وطمّ، فالإسلام لا يحكم، وأهله عنه غافلون، قد لعبت بهم الأهواء، وسار بهم الشيطان في كل واد، وتداعت علينا الأمم وتكالبت، وأخذتنا من كل حدب وصوب، وأصبحنا لقمة سائغة لشذاذ الآفاق وحثالة اليهود.

وفُرضت على المسلمين الانتدابات والاستعمارات، وعلماء الدين بين مغلوب على أمره لا ينادي بشيء، وبين منقاد علت الغشاوة عينيه، ولكن الأمر لم يخل من مصابيح تبين الهدى من الضلال، والحق من الباطل، والنور من الظلام فقاموا للّه عز وجل وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، كان دينهم عندهم محفوظًا في شغاف قلوبهم، أغلى عندهم من كل طريف وتالد، فدعوا الناس للرجوع إلى أصل الدين، ونقاوة هذه العقيدة لتكون بيضاء نقيّة، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

واستيقظ القوم على أصوات تنادي بالإصلاح والصفاء، تهيب بالمسلمين بالرجوع إلى ماضيهم المشرق، واستعادة مجدهم التليد، كانت هذه الأصوات عنادل وسط غربان التغريب، ويوم ما يسمّونه بالتنوير تصوّت بالأمة لتدلها على الطريق المستقيم الفوّاح الذي يعبق بالزنابق، ويثري قنوات الروح والفكر خصبًا ونماء.

هؤلاء الأفذاذ يبقى دور غيرهم قاصرًا أمام وقفاتهم الواهبة لأمتهم إرثًا عريضًا لا يكفي وقوفنا أمامه مبهورين، بل نقتفي آثارهم عسى أن نكون

فخورين بمآثرهم ورفدهم، عاملين على منوالهم.

الدين النصيحة

كل إنسان يؤخذ منه ويردّ إلا رسول اللَّه ﷺ.

◻ للَّه در ابن تيمية الرباني حين يقول:

«إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا»[1].

◻ فنسأل اللَّه العفو والمغفرة لأهل التوحيد ونبرأ إلى اللَّه من الهوى والبدع، ونحبُّ السنة وأهلها، ونحبّ العالم على ما فيه من الاتباع، والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن».

ونحن نقبل الحق من علماء المسلمين، ونبرأ إلى اللَّه تعالى من زلاتهم وأخطائهم ـ خاصة في الأمور العقدية؛ لأن الحق لا يُعرف بالرجال، بل هم يُعرفون به، ونحن لا ننتصر لإمام، أو شيخ، أو طائفة انتصاراً مطلقًا، غير رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ﷺ.

ومع هذا ننصف الأكابر ونعترف بفضلهم ـ وننبه على خطئهم نصيحة، لا تتبعًا للزلات فالدين النصيحة.

◻ وللَّه در ابن القيم حين يقول: والبصير الصادق يضرب مع كل قوم بسهم ويعاشر الناس على أحسن ما عندهم.

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٨/٢٠٩).

□ يقول الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ:

«لا ريب أنه يجب على المسلمين توحيد صفوفهم وجمع كلمتهم على الحق وتعاونهم على البر والتقوى ضد أعداء الإسلام كما أمرهم اللَّه سبحانه بذلك بقوله عز وجل ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ [آل عمران: ١٠٣] وحذرهم من التفرق بقوله سبحانه: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ [آل عمران: ١٠٥] ولكن لا يلزم من وجوب اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم على الحق واعتصامهم بحبل اللَّه ألا ينكروا المنكر على من فعله أو اعتقده من الصوفية أو غيرهم، بل مقتضى الأمر بالاعتصام بحبل اللَّه أن يأتمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ويبيّنوا الحق لمن ضلّ عنه أو ظن ضده صوابًا بالأدلة الشرعية حتى يجتمعوا على الحق وينبذوا مخالفه، وهذا هو مقتضى قوله سبحانه: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢]، وقوله سبحانه: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ومتى سكت أهل الحق عن بيان أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين لم يحصل منهم ما أمرهم اللَّه به من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعلوم ما يترتب على ذلك من إثم الساكت عن إنكار المنكر وبقاء الغالط على غلطه، والمخالف للحق على خطئه، وذلك على خلاف ما شرعه اللَّه سبحانه من النصيحة والتعاون على الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واللَّه ولي التوفيق»[(١)] .

---

(١) انظر «تنبيهات في الرد على الصابوني» للشيخ ابن باز (ص٣١، ٣٢) ـ نشر دار الإفتاء.

☐ ويقول الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ:

«نعم يجب علينا أن نتعاون فيما اتفقنا عليه من نصر الحق والدعوة إليه والتحذير مما نهى اللَّه عنه ورسوله ﷺ. أما عذر بعضنا لبعض فيما اختلفنا فيه فليس على إطلاقه بل هو محل تفصيل، فما كان من مسائل الاجتهاد التي يخفى دليلها فالواجب عدم الانكار فيها من بعضنا على بعض، أما ما خالف النص من الكتاب والسنة فالواجب الإنكار على من خالف النص بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن عملاً بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]»[1].

*** وقفة قبل ذكر الأعلام والرموز الإسلامية:**

حين نسطر لرجال من رجالات الإسلام كانت لهم مواقف عظيمة في خدمة الإسلام والدفاع عنه، والذود عن حياضه، وربما شاب منهج بعضهم شائبة أو أكثر من البعد عن منهج السلف في نقطة أو نقطتين.. وعزّ وجود مثال يمثل المنهج السلفي بكل شموله كشيخ الإسلام ابن تيمية. وأصدق مثال لذلك السيد محمد رشيد رضا.. الذي كان يُطلق عليه أبو السلفية، ولكن غابت عنه أشياء أو خالف منهج السلف في أشياء مثل إنكاره للمهدي والمسيح الدجال ونزول المسيح رغم علمه وتبحره في فنون العلم، فكيف بمن غلبت عليه الدعوة إلى اللَّه وهمومها وكثرة السفر والترحال، فحال ذلك دون التمحيص والعلم.. والنصح للَّه ورسوله وأئمة المسلمين ودعاتهم يوجب علينا التجرد للَّه، وإنصاف الدعاة إلى اللَّه، مع بيان خطئهم.. فقد تجد

(١) المصدر السابق (ص١٤، ١٥).

الرجل سدًّا منيعًا وحصنًا حصينًا للإسلام في جانب، ويُرد عليه في جانب آخر لا نوافقه عليه مطلقًا.

□ والنصح للَّه، والنقد النزيه أو الرد البناء فهو في طليعة العوامل التي صانت الأمة الإسلامية عن الانحراف عن الجادة.

«والذين يحاولون أن يخدموا الدين بكل جدّ وإخلاص، ولا يريدون إلا إعلاء كلمة اللَّه ورفع شأن الإسلام، وينشدون الحق والصواب، ويحرصون على تصحيح «الفهم الديني» وتصعيده وإكماله، والحق هو القياس الوحيد لديهم ـ أولاً وأخيرًا ـ لا جماعة من الجماعات ـ مهما كان وثيق الصلة بها، ولا فرد من الأفراد ـ مهما كان عظيمًا عنده ـ فإنهم دائمًا يتلقون النقد الإيجابي البنَّاء، والآراء والتوجيهات المخلصة مهما خالفت آراءهم، بصدر رحب، وقلب منشرح.

وكانت هذه الحسبة العلمية المخلصة النزيهة، في طليعة العوامل التي صانت الأمة المسلمة عن الانحراف عن الجادة، والتحريف للدين والشذوذ الجماعي، والعثرة المردية، في تأريخها الطويـل، ورحلتـها الشـاقة الشاسعة في ميادين الاجتهاد، والتجربة، والاستنباط والاستنتاج، وإجهاد الفكر والرأي.

وقد فقدت هذه الحسبة العلمية الدينية أو ضعفت ضعفًا كبيرًا في ديانات أخرى.. ولذلك شدّدت الشريعة الغراء على وجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بهما في كل زمان ومكان، وحذّرت من التواني فيهما والمحاباة لأهل الوجاهة والسلطان، وجعلت «كلمة حق عند سلطان جائر» أفضل الجهاد، وقام به المسلمون، وخصوصًا علماؤهم بهذه الفريضة في كل زمن فاسد وحكم جائر، وسمح له أمير المؤمنين عمر لكل ضعيف ومغمور ورحّب به، فقال: «لا خير فيهم إذا لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إذ

لم نقبل»(١).

◻ وقال مرّة: «امرأة أصابت ورجل أخطأ»(٢).

ولا يمنع من هذا التنبيه على خطأ أوزلة، والإرشاد إلى الأنفع الأصلح، أو الأقوم الأسلم، تبوأ من تعرّض لهذا الخطأ الاجتهادي أو السهو والنسيان اللذين هما من خصائص الإنسان مكان قيادة، أو اشتغاله بمصلحة اجتماعية للأمة، أو سلامة نية، أو غناؤه في كفاح أو نضال، فإن كان الصحابة ﷺ ينبّهون أفضل الرسل وخير البشر ﷺ على السهو، وقد قال ذو اليدين لرسول اللَّه ﷺ وقد صلَّى الرباعية اثنتين: أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول اللَّه(٣).

◻ وعزل أمير المؤمنين عمر ـ وهو أعرف بمصالح الإسلام والمسلمين ـ سيدنا خالدًا في معركة اليرموك، وهي المعركة الحاسمة المصيرية في تاريخ الإسلام، ونصب أبا عبيدة مكانه، ولو أخذ المسلمون في ماضيهم عدم إحداث التشويش في صفوف المسلمين بعين الاعتبار، وكفوا عن التنبيه على الزلل والخطأ، لانقطع هذا التيار الحيوي المبارك من حركة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحسبة في الدين، والشهادة بالحق، عن جهاز الأمة الاجتماعي والخلقي، ووقف القلب عن توزيع الدم الصحيح إلى الشرائين والعروق، وكان ما يعقب ذلك من التباس الأمور على أهل العلم والرأي، وانجراف العامة للتيارات، واختفاء كثير من حقائق الدين، أعظم وأجلّ من اعتراف هذا القائد أو الإمام أو العبقري بخطئه في التعبير، أو تقصيره في الفهم أو التفهيم، فإن العصمة للَّه وحده، وكلٌ يؤخذ من قوله ويُردّ إلا

(١) «كتاب الخراج» للإمام أبي يوسف (ص٧).
(٢) «نيل الأوطار» (٦/ ١٧٠).
(٣) متفق عليه.

رسول اللَّه ﷺ»[1] .

«معلوم أن التحذير من كتاب، أو الردَّ على فكر، لا يعني القدح في صاحبه اللَّهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بعقائد الإسلام، وقواعده، أو كان النقد موجهًا إلى أفضل الناس بعد الأنبياء والرسل، وهم أصحاب النبي ﷺ؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى اختارهم لصحبة نبيه ﷺ، وقال فيهم بعد ما علم ما لهم وما عليهم: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وكذلك هناك فرق بين «خلاف شخصي حاقد» و«اختلاف مبدئي هادف» فالأول مذموم، والآخر ممدوح.

«فردّ القالات الضعيفة وتبيين الحق في خلافها بالأدلة الشرعية ليس هو مما يكرهه أولئك العلماء، بل مما يحبّونه ويمدحون فاعله ويثنون عليه، فلا يكون داخلاً في باب الغيبة بالكلية.

فلو فرض أن أحدًا يكره إظهار خطئه المخالف للحق، فلا عبرة بكراهته لذلك، فإن كراهة إظهار الحق ـ إذا كان مخالفًا لقول الرجل ـ ليس من الخصال المحمودة، بل الواجب على المسلم أن يحبَّ ظهور الحق ومعرفة المسلمين له، سواء كان ذلك في موافقته أو مخالفته.

▣ وهذا من النصيحة للَّه ولكتابه ورسوله ودينه وأئمة المسلمين وعامتهم، وذلك هو الدين، كما أخبر به النبي ﷺ[2] .

وأما بيان خطأ من أخطأ من العلماء قبله إذا تأدَّب في الخطاب، وأحسن في الردّ والجواب، فلا حرج عليه ولا لوم يتوجه إليه.. سواء كان الذي بيَّن الخطأ صغيرًا أو كبيرًا..»[3] .

---

(١) «التفسير السياسي للإسلام» لأبي الحسن الندوي (٢٣ ـ ٢٦).

(٢) عن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» (مسلم رقم ٥٥، والبخاري تعليقًا في كتاب الإيمان).

(٣) «الفرق بين النصيحة والتعيير» لابن رجب (٣٢ ـ ٣٣) باختصار.

ليس كتابنا هذا، إلا حسبة دينَّة، ومحاولة علمية مخلصة إن شاء اللَّه ـ وإن كانت من صغير لكبير ـ تحثّ على مراجعة ما سلف، وتدارك ما فات، وتبحث عن الأصلح الأقوم، والأنفع الأسلم لهذه الأمة، وتحتاج إلى النوعية الواعية من العلماء والدعاة الذين ينتبهون للأخطار والأفكار التي تهدد كيانها من الخارج والداخل على السواء. ولا ريب أن الأستاذ الندوي له في القلب منزلة بل منازل، وهو عزيز، ومثله لا يفرَّط فيه، ولكن الحق أعزّ وأولى من الرجال.

فإن كان له رأي، فليتفضَّل ـ بصدر رحب وقلب منشرح ـ بالنظر في رأي آخر، يمكن أن يكون فيه ما ينير معالم الطريق، ويزيل السحاب السوداء عن شمس الحقيقة.

فلنتق[1] اللَّه عز وجل ـ جميعًا، في عقيدتنا وديننا، ومنهجنا وسلوكنا، ونراجع جميع أمورنا قبل فوات الأوان، والاختبار على مستوى المسئولية[2].

□ وأختم هذا التمهيد بما ختم به الأستاذ الندوي كتابه «التفسير السياسي للإسلام»، فإنه قال: «إن الإخلاص الصادق، وعاطفة نشدان الحق، وحبّ صيانة الدين عن كل شائبة من التحريف، وإعلاء كلمة اللَّه في الأرض، والإيمان بأن كلاً يؤخذ من قوله ويردُّ إلا النبي المعصوم ﷺ، وكل ذلك سيجعل الإنسان لا يتضايق بهذه الملاحظات والتنقيحات، بل سيتقبّلها بصدر رحب وقلب منشرح، لما يراها تُعينه على فهم الإسلام، وتفهيمه وصيانته، مما سيدلُّ على أن الغرض هو اتباع الحق ورضا اللَّه لا تضخيم الشخصية، أو تنمية الكلام، أو تحبير الحديث».

* ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

---

(١) اللَّهم لا تجعل أحدًا منَّا إذا قيل له: «اتق اللَّه أخذته العزة بالإثم».

(٢) قال رسول اللَّه ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» (صحيح ـ رواه الترمذي في كتاب الزهد من جامعه، والبخاري تعليقًا في كتاب المرضى عن سعد بن أبي وقاص).

أُنيبُ﴾ [هود: ٨٨][1] .

وللَّه در ابن عثيمين حين يقول:

«وأما الخطأ في العقيدة؛ فإن كان خطأً مخالفًا لطريق السلف فهو ضلال بلا شك، ولكن لا يُحكم على صاحبه بالضلال حتى تقوم عليه الحجة، فإذا قامت عليه الحجة؛ وأصرّ على خطئه وضلاله كان مبتدعًا، كان مبتدعًا فيما خالف فيه الحق، وإن كان سلفيًّا فيما سواه، فلا يُوصف بأنه مبتدع على وجه الإطلاق، ولا بأنه سلفي على وجه الإطلاق، بل يُوصف بأنه سلفي فيما وافق السلف، مبتدع فيما خالفهم، كما قال أهل السنة في الفاسق أنه مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من العصيان، فلا يُعطى الوصف المطلق، ولا يُنفَى عنه مطلق الوصف، وهذا هو العدل الذي أمر اللَّه به، إلاَّ أن يصل المبتدع إلى حد يخرجه من الملة فإنه لا كرامة له في هذه الحال»[2] .

* حكيم الإسلام.. صاحب المنار.. السيد محمد رشيد رضا.. رائد الإصلاح:

كان من الأعلام المبرّزين والأئمة المشهورين حمل على عاتقه أمر الإصلاح، فصنف وكتب، وألّف وألهب، أنشأ المنار فكانت منارة للعلم والأدب، مدحها المخلصون، وعاداها المبغضون وقد شهد للشيخ رشيد ثلة من العلماء والفقهاء قال شيخه محمدعبده:

فيا رب إن قدّرت رُجعى قريبة ... إلى عالم الأرواح وانفضّ خاتمُ
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا ... (رشيداً) يضئ النهج والليل قاتمُ

وصف العلامة محمد تقي الدين الهلالي الشيخ رشيد رضا بأنه (إمام

---

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوي ـ الوجه الآخر من كتاباته للأستاذ صلاح الدين مقبول أحمد (ص١٥ ـ ١٧).

(٢) «كتاب العلم» لابن عثيمين ص(١٩٩ ـ ٢٠٠) طبع دار الثريا.

هذا العصر وحكيمه الأكبر)[1] .

□ وأثنى عليه شيخ الإسلام مصطفى صبري - بالرغم من أنه هاجم بعض آراء السيد محمد رشيد في كتابه «موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين - وقال عن كتاب رشيد «الخلافة أو الإمامة العظمى»:

«وأمّا كتاب «صاحب المنار»، ففي غاية الإفادة والإجادة، كما يتوقع من مؤلفه الذي هو فارس خطير في أمثال هذا الميدان، وقد وجّه إلى الحكومة التركية الحاضرة انتقادات ووصايا ودعاهم إلى الصلاح والإصلاح، وقدمهم في الاستعانة والاستخدام لرقيّ الإسلام، فللّه دره في تحقيق المقام واجتهاده في إحياء منصب الخلافة الصحيحة»[2] .

□ وذكر الشيخ حسن البنا - رحمه اللَّه - في مذكرات الدعوة والداعية تصديرًا لمجلة المنار كتبه الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر جاء فيه: « . . . وكان محبًّا لكتاب اللَّه، وسنة رسوله وآثار السلف الصالح، وقف حياته لخدمة دينه، والأمم الإسلامية، وكان شجاعًا في الحق لا يهاب أحدًا ولا يجامل ولا يُحابي، ونشأ على هذا واستمرّ فيه إلى أن لقى ربه»[3].

□ وقال الشيخ حسن البنا عن مجلة المنار أنها «من أعظم المؤثرات في خدمة الإسلام المعاصر في مصر وغيرها من البلاد»[4] ، وحتى بعد أن انهارت المنار رغم جهود الجمعية لانقاذها اعتبر البنا مجلته الخاصة «الشهاب»

---

(١) «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» لخالد بن فوزي آل حمزة (ص٤٧) - مؤسسة قرطبة.

(٢) كتاب «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة» للشيخ مصطفى صبري (ص١١٣) - تقدم الدكتور مصطفى حلمي.

(٣) «مذكرات الدعوة والداعية» للشيخ البنا.

(٤) «الإخوان المسلمون» لريتشارد ميتشل (ص٤٩٤) - ترجمة د. محمود أبو السعود، وتعليق الأستاذ صالح أبو رقيق.

امتدادًا لها.

◻ وكتب الشيخ محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية الذي كان يصف نفسه بأنه «تلميذ حكيم الإسلام السيد رشيد رضا» خاتمة لكتاب السنة والشيعة قال فيها:

«رحم اللَّه أستاذنا حكيم الإسلام السيد رشيد، وأسكنه فسيح جنّاته، فلقد بذل كل عناصر حياته في البحث والمعرفة، وقضى عمره في الصدع بما عرف من الحق، والحرب العنيفة لكل ما عرف من الباطل، ولو أنه وقف على ما وقفنا عليه، وعرف عن الشيعة من كتبهم ما عرفناه[1] لقال أكثر مما نقول، وأعلن بأشد مما نعلن من التحذير من القرب منهم، ومن تقريبهم، لكنه رحمه اللَّه عرّفنا الطريق، وأناره لنا، ودفعنا إليه بكلتا يديه فسرنا على هذا في البحث والتمحيص، ونطقنا بلسانه في الحق نمحصه، ونجلوه من جميع جوانبه ونؤمن به، وندعوا إليه في صراحة وقوة».

◻ وقد ترجم الشيخ محمد بهجة البيطار علاّمة الشام لكتاب «الوحي المحمدي» للشيخ رشيد وأشاد بالكتاب ومؤلفه، وكان يصفه بالسيد الإمام.

◻ يقول الشيخ المراغي في مدح رشيد: «كان شديد الإحاطة بما في العصر الذي يعيش فيه، خبيرًا بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية، ملما بما في العالم من أصول جديدة، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان، فهو ممن أوتي الحكمة ورُزِق الخير الكثير»[2].

◻ وقال عنه الشيخ أحمد محمد شاكر: «أستاذنا السيد رشيد رضا ـ رحمه اللَّه ـ».

---

(١) كان الشيخ رشيد يعلم الكثير والكثير عن الشيعة.

(٢) «رشيد رضا» للدكتور أحمد الشرباصي (ص١٨٤) ـ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر.

☐ وقال الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة: «أنا تلميذ السيد رشيد رضا واستفدت منه ما أشكر اللَّه عليه وأشكر أستاذي على ذلك وأترحّم عليه لأجله»(١) .

☐ ويقول عنه محمد فؤاد عبدالباقي: «إنه مرشدي وأستاذي»(٢) .

☐ ويقول عنه محدث ديار الشام وحامل راية السلفية الشيخ الألباني ـ رحمه اللَّه ـ: «السيد محمد رشيد رضا ـ رحمه اللَّه ـ له فضل كبير على العالم الإسلامي، بصورة عامة، وعلى السلفيين منهم بصورة خاصة، ويعود ذلك إلى كونه من الدعاة النادرين الذين نشروا المنهج السلفي في سائر أنحاء العالم بواسطة مجلته (المنار) وقد جاهد في سبيل ذلك جهاداً يُشكر عليه، ويرجى أن يكون أجره مدخراً عند ربه، وبالإضافة إلى كونه داعية إلى اتباع منهج السلف الصالح فيما كانوا عليه من عقيدة وفكر وسلوك، فقد كانت له عناية تشكر بالأحاديث الصحيحة والضعيفة، هذه الأحاديث التي لا يخفى على أي مسلم عنده شيء من الثقافة الإسلامية إنها هي السبيل الوحيد لفهم كتاب اللَّه تعالى فهما صحيحًا، حيث إن كثيراً من الآيات لا يمكن أن يُتوصل إلى فهمها إلا بطريق بيان السنة النبوية وقد نص اللَّه عز وجل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

فهذا وغيره من النصوص تؤكد للمسلم أنه لا سبيل إلى فهم القرآن إلا بطريق سنة الرسول ﷺ.

وقد كان للسيد محمد رشيد عناية بالغة بعلم الحديث بحدود مساعدة وضعه العلمي والاجتماعي والسياسي فكثيراً ما نبّه إلى ضعيف بعض الأحاديث من حيث إسنادها، عبر مجلته (المنار) التي أصبحت نواة

(١) «من ظلمات أبي رية» (ص٢٣٧) عن الاحتجاج بالأثر (ص٢٨٨).
(٢) «رشيد رضا» للشرباصي (ص٢٠٣).

طيبة، لفتت أنظار المسلمين للعناية بأحاديث الرسول ﷺ . . . فإذا كان من الحق أن يعترف أهل الفضل بالفضل لذوي الفضل، فأجد نفسي بهذه المناسبة الطيبة مسجلاً هذه الكلمة ليطّلع عليها مَن بلغته، فإنني بفضل اللَّه عز وجل بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولاً، وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة والصحيحة ثانيًا يعود الفضل الأول في ذلك إلى السيد رضا ـ رحمه اللَّه ـ عن طريق أعداد مجلته المنار التي وقفت عليها أول اشتغالي بطلب العلم»[1].

(١) «حياة الألباني» لمحمد إبراهيم الشيباني (١/ ٤٦):
ولقد سرد الشيخ الألباني بعض ما انتقد به السيد رشيد رضا فذكر منها قضية الإيمان بالغيب، وأن الشيخ محمد عبده رغم تحرره وجهوده في تطوير الأزهر لم يكن كالسيد رشيد رضا من حيث الحرص على نهج السلف الصالح من عقيدة ومنهاج، وعلى الرغم من ذلك تأثر به رشيد رضا في مجال الإيمان بالغيب وضرب مثلاً على ذلك بالجن فقال:
«ولعل من الأمثلة المشهورة في أنه كان ينقل عن محمد عبده تفسيره للجن المذكور في الكتاب والسنة بما يقرب الجن إلى العقل المادي المثقف ثقافة مادية، فادّعى أن الجن هي الميكروبات الخفية التي تؤثر في صحة الناس ونحو ذلك، ولا أذكر بأن أحدًا ردّ عليه مبيّنًا خطأه بأن هذا التأويل يشبه طريقة الباطنية والمعتزلة وغيرهم ممن انحرفوا عن الكتاب والسنة بسبب التأويل». ثم تابع الشيخ الألباني انتقاده للسيد رشيد في إنكار الأخير أحاديث خروج المهدي ونزول عيسى واعتذر له بأنه أراد أن يرد انحرافات وتأويلات القاديانية في ادعائهم مهدية ميرزا غلام أحمد القادياني وذلك بإنكار أو تشكيك في بعض الأحاديث التي يتعلّق بها فلا يبقى لهم حجة يدعى بها مدّعٍ أنه عيسى أو مثيله أو المهدي.
ثم قال الألباني ـ حفظه اللَّه ـ:
«لقد أصيب السيد رشيد رضا ـ رحمه اللَّه ـ بشيء من الاستعجال بإنكار أحاديث = صحيحة معروفة عند عامة المحدثين قديمًا وحديثًا وسلفًا وخلفًا وإن كان الباعث له باعثًا حسنًا، ولكن من المسلم به لدينا نحن معشر المسلمين أن الغاية لا تبرّر الوسيلة» ا.هـ.
* قال الشيخ خالد بن فوزي آل حمزة في كتابه «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» ص(٣٦٨): «وقد قال لي الشيخ محمد الصالح العثيمين علاّمة القصيم عن السيد

▫ وقال عنه الشيخ محمد رشاد غانم ـ وهو من الرواد الأول لجماعة أنصار السنة في الإسكندرية وقرين للشيخ العلامة عبدالرزاق عفيفي: أنه (أبو السلفية في مصر)[١].

▫ وقال عبداللَّه الصديق الغماري: المحدث الحقيقي هو رشيد رضا[٢].

* مجلة المنار دعوة إلى الإصلاح:

▫ قال الشيخ رشيد رضا في مقدمة «التفسير» مبينًا سبب انشائه للمنار: «وأنشأت المنار دعوة إلى الإصلاح»[٣]، وفعلاً أعلنت المنار أهدافها في

= رشيد رضا أنه كان سلفيًّا، وأنه لا يعرف أنه خرج عن مذهب السلف في المسائل التي كتب فيها»، والقول هذا محمول على الجملة، ولكنه على أي حال ـ شهادة من رجل مدقق كالشيخ ابن عثيمين، وأيّد هذا الشيخ الألباني محدث الشام إلا أنه خصّ سلفيته في العقيدة، وذكر لي أنه ربما انحرف في الحديث عن السلفية، ومثل لذلك بإنكار رشيد رضا بعض أحاديث الصحيحين.

(١) «الجماعات الإسلامية» في فكر رشيد رضا لخالد بن فوزي آل حمزة (ص٤٥) ـ مؤسسة قرطبة.

قال الشيخ خالد بن فوزي: «وقد عرضت هذا القول على شيخنا وشيخ مشائخنا العلامة عبدالرزاق عفيفي فأجابني بأنه «ليس على كل حال» وأنه في الجملة سلفي إلا أنه له شطحات، وأحالني على قصة آدم في تفسير المنار في سورة البقرة، وقرأتها عليه، وفيها ملحظ ومأخذ وإن كان السيد رشيد نقلها عن محمد عبده، وأشار إلى اختياره المخالف له في نهايتها، وانظر المنار «التفسير» (ص٢٨٠) وما بعدها الجزء الأول كما أكّد ذلك في مجلة المنار والأزهر وأن ما ورد فيها كان على طريقة أهل التأويل وأنه منها بريئ (ص٥٤، ٥٥).

(٢) المصدر السابق (ص٤٦).

(٣) «تفسير المنار» للسيد رشيد رضا (١/ ١٢) ـ وقال ـ رحمه اللَّه ـ على حديث: «إن للإسلام صوى ومناراً ـ» أي علامات وشرائع، وذكر أن ذلك دفعه لتسمية المجلة بالمنار، حيث قال: هذا وإننا قد اقتبسنا اسم المنار من الحديث الشريف تفاؤلاً بأن يكون مبينًا لصوى الإسلام، وناصبا لأعلامه، وموضعًا لنور الحقيقة التي نحتاج إليها في حياتنا العملية والاجتماعية ا.هـ. انظر «فتاوى الإمام رشيد رضا» (٢/ ٦٣٢).

العدد الأول وهي: نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية، وإقامة الحجة على أن الإسلام دين شامل، وكانت المنار كاسمها منارًا للعلم والإصلاح، وارتفع بها صوت الإصلاح في زمن طويل يمتد إلى وفاة الشيخ رشيد. وأقدم كثير من العلماء والأفراد والجمعيات على مراسلة المنار مشيدين بها.

وانطلق صوت الحق من المنار، فجاء منه التحذير من البدع والخرافات السائدة في المجتمع، وبيّن السيد رشيد أن الإسلام بريء منها، وحمّل العلماء مسئولية انتشارها ووجوب قلعها من جذورها، وبيّن أن العلماء والحكام بمنزلة العقل المدبّر والروح المفكر من الإنسان، وأن صلاح حالهما يصلح حال الأمة، وأن العلماء هم القائمون على الطب الروحاني الذي هو تهذيب الأخلاق، وتقويم العادات، وبيّن لهم الطريق إلى ذلك بأنها طريقة الوعظ والتعليم والخطابة على المنابر، وفي أماكن البدع نفسها، وتحمل المشاق المترتبة على ذلك مع تحلّي الدعاة بالأخلاق الفاضلة، والآداب الإسلامية السامية(١).

* الإصلاح في ميدان الفكر والتعليم:

أ ـ المدارس:

نادى السيد رشيد بالإصلاح في مجال التربية والتعليم، فحذّر الراغبين في إصلاحه من تقليد المدارس الحكومية السائدة التي تهدف من تلك المدارس إلى إعداد تلاميذها للوظائف، و«من يرمي بتعليمه إلى هذا الغرض فهو خاسر. . . وأجدر بتعليمٍ هذا شأنه أن يُسعى في إزالته»(٢).

وبيّن رشيد الفنون التي يجب إدخالها لمسايرة ركب العلم والعرفان،

(١) «المدرسة العقلية الحديثة وموقفها من التفسير» لفهد الرومي (١/ ١٧٨) ـ طبع الرياض.
(٢) «رشيد رضا» لإبراهيم العدوي (ص١٧٧ ـ ١٧٨).

وأصبح المرجع في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة.

والعلوم التي أوصى بها هي: علم أصول الدين، وتهذيب الأخلاق، وفقه الحلال والحرام، وتقويم البلدان والتاريخ، والاقتصاد، وتدبير المنزل، والحساب، والصحة، وعلم لغة البلاد.

ب ـ إصلاح الأزهر:

نادى السيد رشيد بالتحرر من ربقة التقليد، ونصح الأزهر أن يأخذ طريقه في الإصلاح، ولا يكون عقبة في مساره.

ومما نادى به لإصلاح الأزهر، بل لإصلاح أحوال العالم الإسلامي كله، هي محاولة تغيير طريقة تدريس الفقه واستمداده، وتحديث مصادر جديدة تصفي القديم مما علق به قال ـ رحمه اللَّه ـ:

«وإنما غرضنا أن نبين أن يُسر الشريعة، وحكمة التشريع، وكون الاجتهاد رحمة للأمة إنما يُعرف من مجموع كلام المجتهدين، ويفوت من قصر نظره على مذهب واحد من مذاهبهم، وأن طلاب الإصلاح للأمة الإسلامية ما زالوا يقترحون تأليف جمعية من علماء المذاهب المتبعة كلها، تضع للأمة كتبًا في العبادات والمعاملات، تُؤخذ من نصوص الكتاب والسنة، ومن اجتهاد جميع المجتهدين، يُراعَى فيها اليسر ورفع الحرج، ودرء المفاسد، ومراعاة المصالح، ومراعاة العرف، وغير ذلك من القواعد العامة. وهذا الكتاب ـ يعني «المغني مع الشرح الكبير» من أعظم الوسائل لذلك،... ونسأله تعالى أن يعيد لهذه الأمة وحدتها وهدايتها، ولن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها»[1] اهـ.

---

(١) «اختلاف الأمة» لرشيد رضا ـ طبع المنار.

* الخصومة بينه وبين أعداء الوهّابية والخرافيين:

نشط الشيخ رشيد في نشر عقائد السلف، وتبيين حقيقة الدين ولا سيما في توحيد العبادة، وكان الشرك قد غلب في عصره على كثير من الناس في مصر وغيرها، وصار التمسح بالقبور مع طلب الحاجات من المقبورين هو الدين، وما خالفه هو الشرك، وصار المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، فثار السيد رشيد على هذه الأوضاع المتردية، وجرّد قلمه ولسانه ضد المبتدعة من الصوفية، ولم يقنع لأجل وحدة الكلمة بالسكوت؛ لأن الأساس «كلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة».

ولما كانت هذه المظاهر الوثنية يستفيد منها شيوخ، وكان لكلام السيد رشيد وأمثاله أثر شديد في سحب البساط من تحتهم، كان لابد لهؤلاء أن يثوروا في وجه الشيخ رشيد معلنين الحرب عليه، وحمل لواء هذه الحرب الشيخ يوسف الدجوي شيخ الأزهر وكانت سلسلة مقالات للشيخ رشيد جمعها فيما بعد في كتاب أسماه «المنار والأزهر»، وأبانت هذه المقالات عن صلابة الشيخ رشيد في الحق، وقوة حجته وسعة علمه.

❑ قال الشيخ رشيد في كتابه «المنار والأزهر»:

«مقدمة تاريخية للرد على مجلة مشيخة الأزهر في تصدي «المنار» للإصلاح ومقاومة الشيوخ له...

إن هذا الكتاب والتخاصم بين مجلة المنار ومجلة مشيخة الأزهر هو تنازع في مسائل من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، وطريق فهمها، ودفع ما يرد عليهما من الشبهات العصرية، وما عارضهما من شوائب البدع، فمن حق الأمة أن تعرفه وأن يكون لها حق الحكم فيه»[1].

(١) «المنار والأزهر» لرشيد رضا (ص٤٢).

وهذه المقالات هامة جداً.

وإن من أوضح الدلائل على صلابة الشيخ في مواجهة أهل البدع أنه كان لا يملّ من نقد المتصوفة وأهل البدع نقداً علميًّا منصفًا، ويدلل على ما يقوله بأدلة واضحة من الكتاب والسنة وكان ـ رحمه اللَّه ـ خصمًا شديداً للمتصوفة الذين أفسدوا الدنيا والدين.

وتكلم عن بدعهم ومعاصيهم ولا سيما في «الموالد» التي يكثر بها الخنا والفسوق[1]، وفي موضع آخر[2] يذكر غلوّ الصوفية في كرامات أوليائهم الدجالية، ويعقد فصلاً طيبًا عن أولياء الخيال وأولياء الطاغوت والشيطان، وينقل من طبقات الشعراني حال الأقطاب الأربعة وأنه باستثناء الجيلاني لم يكن أحد منهم ينفع الناس بعلوم الشرع، وأن الدسوقي كان يكتب بألفاظ غير مفهومة... وكذلك كرامات ولي شيطاني يقرر ألوهية إبليس وذلك في الخطب لما قال في خطبته «وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام!!!» وأن «الشيخ علي وحيش كان قوّاداً للعاهرات بضمانه المغفرة لمن يفجر بهن بشفاعته ويأتي الحمير في الشارع».

وأن الشيخ شعبان المجذوب يقرأ قرآنًا غير القرآن، وهو دائمًا عريان ثم قال: «وأقول إذا كان الشعراني من أكبر علماء الأزهر ومؤلفيه يعدّ هذا المجنون من أولياء اللَّه ويترضّى عنه كلما ذكره وإن تكرّر ذكره في سطر واحد، وكان شيخه علي الخواص يتلقى عنه حل مشكلات المعارف الإلهية ويعتمد على كشفه فهل نكون مخطئين إذا قلنا: أن جميع من شهد لهم بالولاية والكرامة كانوا خرافيين مجانين مثله»، ثم قال: «كان من فساد هذا التصوف الذي بثه الشعراني وأمثاله في المسلمين أن وُجِد في المغرب الأقصى

---

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٧٢ ـ ٧٦).

(٢) «تفسير المنار» (١١/ ٤١٥).

في القرن الثالث عشر للهجرة شيخ اسمه الشيخ أبو العباس أحمد التيجاني صار له طريقة من أشهر الطرق... ثم تكلم وأفاض في فضح ضلالاته ومنكراته وأوراده المبتدعة، ثم تكلّم عن تقليد الباب والبهاء لغلاة الصوفية في دعوى الوحي والنبوة والألوهية، وختم القول بنقول من كتاب الفرقان لابن تيمية.

وما وجد الشيخ رشيد بابًا للرد على هؤلاء المبتدعة إلا فتحه ولا يقتصر الأمر عنده على ما كان خطيرًا بل يمتد إلى أن يشمل إنكاره حتى ألفاظهم مثل الذكر بالإسم المفرد الذي يفعله الصوفية المرتاضون ومقلدتهم المرتزقون.

وقد بحث السيد رشيد في تفسير قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...**﴾ [التوبة: ٣١] مشابهة الصوفية للنصارى في غلوّهم بشيوخهم ومتبوعيهم(١).

واشتد نكيره على أساطينهم كابن عربي وغيره من أصحاب الوحدة والاتحاد، وذكر أن شيخ الإسلام قد أجاد في الرد عليهم.

ويظهر من فتاوى الشيخ رشيد حرصه الشديد على جمع شمل الأمة ولكن لم يمنعه ذلك من بيان الحق في الأمور التي استُفتي فيها، وهذا المنهج هو الصحيح بخلاف من يرى عدم التعرض لمثل هذه المسائل ابتداءً لأنها تثير الفتنة كما زعموا، ولعمر اللَّه كم هدم ادعاؤهم هذا صرحًا للحق، وكم غيّر وأضل قومًا بعد هدى كانوا عليه. وكلامه في ذلك سديد ظاهر الحق أبلجه.

❑ فـ «لا يمكن أن نقف صفًّا واحدًا في وجه أعداء الإسلام إلا إذا صلحت العقيدة من الشركيات والبدع والخرافات والإلحاد في أسماء اللَّه وصفاته.

---

(١) انظر «تفسير المنار» (١٠/ ٤٢٥ ـ ٤٤٥).

(٢) انظر «تفسير المنار» (١٠/ ٢٨٧).

* قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والاعتصام بحبل اللَّه يعني الرجوع إلى الحق وترك الباطل، وإذا كانت المعاصي تخل بصف المسلمين أمام أعدائهم[١] . فكيف بالمعاصي الاعتقادية؟ إنه لا يبقى في وجه الأعداء إلا أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان كما قال النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم على ذلك**»[٢] .

□ وإذا أردت أن تعرف قدر الشيخ رشيد فانظر إلى كلامه عن البدع اللغوية والشرعية[٣] وجاء في كلامه: «فما ذُكِر في السؤال عن الزرقاني من أمثلة البدعة اللغوية صحيح، إلا جعله السلام خلف الأذان، والقرآن خلف الجنازة من المباحات نقلاً عن ابن عبدالسلام، فالأذان عبادة من شرائع الإسلام، ورد بألفاظ معدودة جرى عليها العمل في عصر النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، فلو جاز أن يزاد فيه سلام لجاز أن يزاد في غيره من الأذكار كسبحان اللَّه والحمد للَّه وبعض آيات القرآن، ومقتضى هذه أنه يجوز لكل أحد أن يُغيِّر شعائر الإسلام بما استحسن من زيادة أو نقصان، ولم يقل بجواز هذا أحد من أئمة المسلمين المجتهدين، ولو جرى المسلمون على هذه البدعة فعلاً لما بقي شيء من شعائر الإسلام على ما جاءنا به الرسول ﷺ عن اللَّه تعالى، ولصرنا في أديان جديدة كل طائفة أو جماعة أو فرد فيها

---

(١) ومن ذلك ما عاتب اللَّه سبحانه بعضهم بقوله: ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ قال الشيخ سفر: وجود شرك الإرادة عند البعض مانع من الانتصار على الأعداء، فما ظننا بما هو أعظم من ذلك وهو الشرك الأكبر.

(٢) «تنبيهات في الرد على الصابوني» للشيخ صالح الفوزان (ص٨٩ ـ ٩٠) طبع دار الإفتاء بالرياض.

(٣) «فتاوى الإمام محمد رشيد رضا» (٥/ ١٨٨٣ ـ ١٨٨٦).

يُخالف فيها سائر المسلمين. ولو جاز أن يُزاد في عبادة الأذان لجاز أن يُزاد في غيرها، كجعل الصلاة الثلاثية رباعية، والرباعية خماسية، وجعل الركوع في ركعة مرتين أو أكثر، والسجود ثلاثًا أو أكثر، وهلم جرا.

وهل يُوجد أحد شم رائحة العلم الديني والعقل يُجيز هذه الفوضى في دين اللَّه؟!!».

* كلامه على بدعة المولد:

وهذه البدعة شغل العبيديون الفاطميون والقرامطة والصوفية الناس بها زمنًا طويلاً وظنوها من القرب المعظمة، فتكلم فيها الشيخ رضا كلامًا هو اللؤلؤ المنظوم[1] إلى أن قال: «وإنما يصح قول الحافظ ابن حجر في كون حفلة المولد بدعة حسنة بشرط خلوّها من المساوئ والمعاصي المعتادة فيها إذا كان القائمون بها لا يعدونها من القرب الثابتة في الشرع، بحيث يكفر تاركها أو يأثم أو يعدّ مرتكبًا للكراهة الشرعية، فإن البدعة التي تعتريها الأحكام الخمسة ويُقال أن منها حسنة وسيئة هي البدع في العادات، وأما البدع في الدين فلا تكون إلا سيئة كما صرّح به المحققون وذكر ذلك الفقيه ابن حجر الهيثمي المكي في موضعين من الفتاوى الحديثية».

❑ وتكلم عن حديث شد الرحال ومخالفة المسلمين له[2].

* التوسل بالأنبياء والصالحين:

وللشيخ رشيد كلام رصين في هذا الباب، قال ـ رحمه اللَّه ـ: «وجملة القول أن التوسل هو التقرب، وإنما يُتقرب إلى اللَّه تعالى بما شرعه على ألسنة رسله لا بأشخاصهم واتباع الصالحين في ذلك لا بذواتهم، وأن ذلك غير

---

(١) «فتاوى الإمام محمد رشيد رضا» (٥/ ٢١١١ ـ ٢١١٥).

(٢) «فتاوى الإمام محمد رشيد رضا» (٥/ ٢٠٥١ ـ ٢٠٥٢).

مشروع، ومنه ما هو شرك باللَّه، كدعاء غيره بما لا يدعى به غيره. . . ومنه ما هو ذريعة إلى الشرك، ومنه ما هو معصية. . .»[١].

* رده على التقليد الأعمى وقوله في المذهبية:

□ ما أجمل قول القائل:

ولكنــه دين أردت صلاحــــه ... أحاذر أن تقضى عليه العمائم

هاجم بعض الشيوخ السيد رشيد رضا في تحرره من ربقة التقليد، واعترض عليه الكثيرون، ولما كان الحق الذي لا مرية فيه أنه لا يحق لأحد أن يقدم قولاً لأحد علماء الأمة أو غيرهم على قول اللَّه سبحانه وقول النبي ﷺ، لذا نجد الشيخ رشيد ينبري للرد على المقولة الساقطة بوجوب التقليد لكل أحد[٢]، وهذا صحيح في حق من ليس أهلاً لمعرفة الدليل وهو من العوام الذي لا يعرفون الأدلة ولا يميزيون بينها.

□ يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

«وأما سؤال المعترض هل نطلق الحرية للآراء والأفكار في الأخذ من الكتاب والسنة أم نعملهم على رأى واحد، وإيراد على كل واحد من طرفي الترديد ما أورده، فإننا نجيب عنه بما ليس في حسبانه فنقول: لا شك أن الكلام في المسائل الخلافية، وقد كان السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين يطلقون الحرية في المسائل الاجتهادية لكل أحد في المسائل العلمية المتعلقة بالشخص لا بالحكومة وكانوا لا يرون ذلك موجبًا للخلاف والتفريق

---

(١) انظر «الفتوى في فتاوى الإمام رشيد رضا» (٥/ ١٨٦١ ـ ١٨٦٣)، وانظر «تفسير المنار» (٦/ ٣٧١) عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

(٢) انظر الفتوى في «فتاوى الإمام رشيد رضا» (١/ ٣٧٨).

ولا للتنازع والتقاطع كما حدث بعد التزام المذاهب والتعصب لها بل كان كل يعذر الآخر فيما خالفه فيه...» إلى أن قال: «وأما قوله: أنه يعلم قطعًا أن اتباع الأئمة الأربعة كانوا كذا وكذا فنقول فيه: «أن المنقول عن الأئمة وأصحابهم تحريم التقليد ومنعه ووجوب الأخذ بالكتاب والسنة وستجد طائفة من هذه النقول عنهم في كتاب محاورات المصلح والمقلد، ولكن لم يتبعهم في هذا كل من انتمى إليهم لا سيما في هذه الأزمنة المتأخرة، فإن كلام الأئمة الأولين صار مجهولاً حتى للمنقطعين إلى العلم، والأستاذ الإمام يسعى في إحياء كتبهم وهو رئيس جمعية أُلفت لهذا الغرض. وأما العوام فأكثرهم لا يعرف الآن من الدين إلا بعض مسائل الخلاف بين المذهب الذي يدعيه والمذهب المنشر في بلده كانتشار مذهب المدّعى. ثم إن أكثرهم لا يعلمون إلا القليل مما يعلمون من مسائل الخلاف والوفاق. والمعترض وأمثاله لا يخافون من هذا الضياع للدين ولكنهم يخافون من الدعوة إلى الكتاب والسنة، والاهتداء بها بحجة الخوف على المذاهب التي لم يبق منها إلا الجدل فيما بقي من دروس المقلدين...» ا.هـ.

*** مع الشيعة:**

حاول الشيخ رشيد أن يأخذ بيد مريضهم وينتشله من أحوال التشيع إلى نور السنة، وظهرت أباطيل الشيعة مانعًا دون هذه الغاية بعد أن دعاهم إلى التجرد للحق ولم يسكت على أباطيلهم بحجة تجميع الكلمة بل صدع بالحق في وجوه هؤلاء.

يقول: «فهل يريد المستنكر من إخواننا أن نسكت لهؤلاء على هذا الطعن، فيكون سكوتنا حجة على أهل السنة كافة، ومعصية يأثمون بها كلهم، ولا يزيد الشيعة إلا يقينًا بضلالهم وبعدًا عن الاتفاق معهم؟!»[1].

(١) «السنة والشيعة» للشيخ محمد رشيد رضا (٢/ ١١٦).

لم يسكت الشيخ رشيد على منكر عند الشيعة أو شرك يراه، وما كان ينتهي من رد إلا رأى مقالات وكتبًا أخرى تحتاج إلى رد وإبطال، فلربما نشر رده عليهم وحده، وربما جمع إلى ذلك ما ألفه غيره، كما نشر رسالة الألوسي في الرد على العاملي كاملة، قال بعد تكالب أهل الضلال والزيغ من الشيعة عليه «وإنا قبل أن نتم الرد على ذلك الكتاب اطلعنا على كتاب آخر لأحد كبرائهم العاملين (هو الشيخ الكبير السيد عبدالحسين الشهيد).

جعله الكلمة الأولى، من ثلاث كلمات رافضية شعوبية، هي كما يظهر من أولها ـ أضرّ على دين الإسلام والأمة العربية من دعاة الثالوث الهندوسي وثالوث النصرانية. وأما المؤلف فإنه لم يراع قاعدة مذهبهم في التقية، أو في مراعاة، بل صرّح فيها بتضليل أصحاب رسول اللَّه ﷺ من المهاجرين والأنصار، والطعن في دينهم وطاعتهم للَّه ورسوله ﷺ وجهادهم في سبيله، وبالطعن في حفّاظ السنة ومدونيها، وفي الأمة العربية برمتها من صدر الإسلام إلى اليوم أقبح الطعن وأكذبه وأصرحه؛ لأن عصبيته الرافضية سوّلت له أن الغلو الممقوت في علي ﷺ وكرّم وجهه، لايتم إلا بذلك، فهو قد كشف قناع الرفض، بل ألقى رداء الحياء وإزاره، لا قناعه فحسب، حتى ظهر عريانًا بادي السوأتين، وأعمى العينين، ليس دونه شيء من ستار لقب الوهابية ولا من شفوف التقية»[1].

□ فمناقشة أصول الشيعة ونقدها نقدًا علميًّا هو الكفيل بتصحيح الأوهام وتقويم الانحرافات ورد الصف إلى الالتئام والاجتماع على كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ الصحيحة، لا وحدة زائفة تخفي وراءها ضغينة وعداوة وتحريفًا للكلم عن مواضعه، وإحداثًا في شريعة اللَّه لم يأذن به اللَّه، وتظاهرًا بما لا ينطوي عليه القلوب.

---

(١) «السنة والشيعة» (٢/ ٥).

* خصومته مع المستشرقين:

اطلع الشيخ رشيد على السموم التي نشرها المستشرقون تارة بأسمائهم، وتارة بأبواقهم ممن استغفلوهم من أبناء المسلمين، وأصدر كتابه «الوحي المحمدي» ينافح بالحجة والمحجة ويرد على كثير مما أثاروه، وراسلهم، وكان حريصًا على أن يُبلّغ هؤلاء دعوة صحيحة عن الإسلام رجاء أن يدخلوا في دين اللَّه.

□ يقول ـ رحمه اللَّه ـ تحت عنوان «بلوغ الدعوة لأحرار الإفرنج والمستشرقين منهم»:

«لن يكون بلوغ الدعوة صحيحًا موجزًا إلا بوصولها إلى الأحرار مستقلي الفكر من هذه الشعوب بلغاتهم، وأكثر أفراد المستشرقين الذين تعلموا العربية ليسوا من هؤلاء الأحرار المستقلين المنصفين، فإنهم ما درسوا العربية ولا مارسوا كتب الإسلام ليعرفوا حقيقته، ويعرّفوا غيرهم بها، بل ليبحثوا عن عورات يتلمسونها فيها، لينفروا أقوامهم عنه بتصويرها لهم بالصور المشوهة التي ينكرونها، كما نرى فيما اطلعنا عليه من كتبهم، وفي معجمهم العلمي، الذي سمّوه بـ «دائرة المعارف الإسلامية»... وأما المستقلون منهم وهم الأقلون، فقد غلبتهم الأفكار المادية على عقولهم، فقضاياها عندهم مُسَلّمات، كأنها لا مجال للبحث فيها، وقد قرّبنا مسافة الخلاف بيننا وبينهم بما أقمناه في هذا الكتاب من البينات العلمية القطعية على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من كلام محمد ﷺ ..» إلى أن قال: «ولعل كتاب «الوحي المحمدي» قد وصل إلى جميع هؤلاء المستشرقين الذين يعرفون العربية، فإنني أهديته إلى من عرفت عناوينهم، وأرسله غيري إلى أناس منهم...»[1].

(١) مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب «الوحي المحمدي» للشيخ رشيد رضا.

* الخصومة مع النصارى:

رغم أن الشيخ رشيد كان لين الجانب مع النصارى، إلاَّ أن هذا اللين كان في المعاملة، أما إذا اقترب الأمر من الدين والعقيدة، فهو لا يبالي أكان كلامه مقبولاً عندهم أوْ لا، وقد وضع كتابه «شبهات النصارى وحجج الإسلام» ويتضمّن ست عشرة مقالة نشرت في المجلدين الرابع والخامس من المنار وفيها المقابلة بين الإسلام والنصرانية، وتحقيق كون النصرانية من الوثنية، . . .

◻ وألّف أيضًا كتاب «المسلمون والقبط» فيه كما يقول الشرباصي: «فيض من الشواهد على غيرته الدينية وعدم التساهل مع غير المسلمين فيما هو من حقوق الإسلام»[1].

فهو يقول فيه مثلاً: «فكل ما ناله القبط من الوظائف الكثيرة فهي فضل وإحسان من أمير مصر المتساهل»[2].

وقد ذهب الشيخ رشيد إلى النصارى وناقشهم بالحجة واللسان كما ذكر ذلك في «تفسير المنار» (٦/ ٢٥).

◻ وقد أصدر السيد رشيد رضا إنجيل برنابا وطبعه، وهذا الإنجيل كان النصارى قد أخفوه وحرّموا مطالعته، ففوجئوا بالسيد رشيد يطبعه في المنار معلقًا عليه، وذلك لأن هذا الإنجيل فيه توحيد الرب وبشرية عيسى، ولا يوجد فيه ما يوجد في أناجيلهم الأربعة الأخرى.

* خصومته مع الماسونية وتحريمه الدخول فيها:

◻ مع علم الشيخ رشيد رضا أن الأفغاني ومحمد عبده دخلا في

(١) «رشيد رضا» للشرباصي (ص١٨٧).
(٢) «المسلمون والقبط» لرشيد رضا (ص٣٧).

الماسونية إلا أنه خالفهما في ذلك أشد المخالفة يقول ـ رحمه اللَّه ـ عن الماسونية: «لم يكن لها ثمرة إلا إعداد النفوس لفصل السياسة والحكومة عن الدين، والاستغناء عن الشرع بالقوانين، والمؤاخاة بين المسلمين وغيرهم وموالاتهم لهم»[١] .

❑ كان الشيخ رشيد يرى أن الماسونية جميعة سياسية لإزالة استبداد الملوك وسلطة البابوات، وأن الواضع لأساسها الأول هم اليهود وغرضهم إعادة ملك سليمان، ويرى أن الماسون هم السبب في هدم الحكومة التركية الإسلامية.

ولذا منع من الدخول فيها؛ وذلك لأنه بعد ذكره لحقيقتها وغرضها قال لسائليه: «إذا قد عرفتم حقيقتها وغرضها فقد عرفتم حكم الدخول فيها»[٢] .

*** محاربته للفساد السياسي عند بعض الولاة العثمانيين:**

الثابت أن الشيخ محمد رشيد رضا كان يهاجم أمورًا من الفساد والانحطاط في سياسة بعض الولاة العثمانيين... وهذا لا يعني مطلقًا أنه كان يسعى لاسقاط الخلافة العثمانية.

كيف يُقال هذا عنه وهو يقول عن المستعمرين: «إنهم يبثون في البلاد العربية فكره الاستقلال العربي مخادعة للعرب، ليساعدوهم على الانفصال من جسم الدولة العلية، وماذا تريد أوربا بعد ذلك؟، تريد أن تضع البلاد العربية تحت حمايتها، أو تضمها إلى معسكراتها، وتقطع عليها طريق الاستقلال باسم الاستقلال»[٣] .

---

(١) «فتاوى السيد رشيد رضا» (٣/ ١١٢٢).

(٢) «فتاوى السيد رشيد رضا» (ص٩٧٧، ص١١٢١، ص٢٠٦٢).

(٣) «رشيد رضا» للشرباصي (ص٣١).

* تحذيره من التدخل الأجنبي في بلاد المسلمين، ووقوفه ضد المستعمرين:

والثابت أيضًا أن الشيخ رشيد كان يقاوم التدخل الأجنبي في البلاد الإسلامية بكل قواه، ويحذر منه.

فحينما احتلت إيطاليا طرابلس الغرب، كتب عشر مقالات بعنوان «المسألة الشرقية» حذّر فيها من الخطر الذي يُحدق بالعالمين الإسلامي والعربي حتى اضطر وكلاء الدولة الأوربية في مصر إلى الالتجاء إلى المعتمد البريطاني في مصر ليوقف هذه المقالات ويحول دون انتشارها بين الأمة العربية[١].

◻ أما الاستعمار الفرنسي فحاربه السيد رشيد وهاجم سياسته الرامية إلى تنصير المسلمين ونقد الأزهر في عدم إصداره احتجاجًا على فرنسا بهذا المعنى[٢].

◻ وأما موقفه من بريطانيا والإنجليز فأشهر من أن يُوضّح ويحقق، فإن كتبه ومقالاته طافحة بذكر عيوبهم والتحذير من تدخلهم في شئون المسلمين، ولما نشبت الحرب العالمية حاول الإنجليز استمالته إليهم، ولمّا لم يروا منه ذلك صار تحت مراقبتهم[٣].

◻ وقد هاجم الإنجليز في معرض هجومه الشديد على سياسة الأمراء حسين وفيصل وعبدالله، وانتقاده لسياستهم في الحجاز قبل استيلاء الملك عبدالعزيز عليه، فمن ذلك قوله متهكمًا: «يظهر أن مدير التيمس، ومراسل التيمس بمصر، وأمثالهما لا يزالون يظنون كما يظن رجال وزارة الخارجية البريطانية، أن المسلمين لا يزالون يصدقون كل ما يقول الإنجليز، بدليل أن بعض أهل فلسطين وسورية والعراق لا يزالون يعظمون حسينًا وفيصلاً

---

(١) «رشيد رضا» للدكتور أحمد العدوي (ص٢٣٦).

(٢) «المنار والأزهر» لرشيد رضا (ص١٤).

(٣) «رشيد رضا» للعدوي (ص٢٤٣).

وعبدالله مع ظهور خيانتهم للأمة العربية، وخيانتهم للدين الإسلامي»[١] .

☐ وندّد بالكتاب الذين يخدمون السياسة الإنكليزية[٢] .

☐ وكثير ما حذّر المسلمين من مخططات الإنكليز وفضح أساليبهم، ووصفهم بأنهم أعداء الخلافة الإسلامية والعرب معًا، وأنهم الذين يحاربون دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ويساعدون خصومهم بالمال والعتاد، ويذكر موانع انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بأنها الدولة العثمانية، ومحمد علي باشا، ودولة الدسائس الشيطانية ويقصد بها بريطانيا[٣] .

☐ وكانت له ـ رحمه اللّه ـ مشاركة حميدة في محاربة الصهيونية، والحيلولة دونهم للاستيلاء على فلسطين، وكتب سلسلة من المقالات عن ثورة فلسطين أسبابها ونتائجها، وحقائق في بيان حال اليهود والإنجليز والعرب.

☐ ولقد رحل إلى الأستانة عام ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ) لإزاله سوء التفاهم بين العرب والأتراك.

* خصومته مع جمعية الاتحاد والترقي:

☐ ثار الشيخ رشيد على جمعية الاتحاد والترقي التي خلعت السلطان عبدالحميد، ووصفها بأنها جمعية الأحمرين الدم والذهب. وقد ذكر شكيب أرسلان أن السيد رشيد لما انضم لأعداء الدولة العثمانية قبل الحرب الكبرى كان غرضه إسقاط جمعية الاتحاد والترقي، ولم يكن يريد زوال الدولة العثمانية. انظر (ص١٩٧) من ترجمة الأمير شكيب أرسلان للسيد رشيد.

☐ ووصف الشيخ رشيد مصطفى كمال أتاتورك بالإلحاد والمروق، بل

---

(١) «الوهابيون والحجاز» لرشيد رضا (ص٢٠).

(٢) المصدر السابق (ص٤٩).

(٣) مجلة المنار (٢٦/ ٢٠٥).

قد وصف جميع أعضاء وزعماء حزب الاتحاد والترقي بذلك، وصفهم بأنهم «أوباش من الملاحدة المارقين قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بكيد يهود سلانيك. . .»اهـ. وكان هذا في خطبته السياسية في منى لما حج «المنار» (١٦/ ١٥٩).

☐ وتأسف الشيخ رشيد على الخلافة، وأخذ يدعو بشدة إلى إعادة الخلافة الإسلامية، وألف في ذلك كتابة «الخلافة» أو «الإمامة العظمى»، ودعا إلى عقد مؤتمر للخلافة في مصر سنة ١٣٤٣هـ وتم انعقاده بلا نتيجة مشجعة.

*** الخصومة بينه وبين أتباع المدرسة العقلية الحديثة:**

☐ جاء السيد محمد رشيد رضا إلى مصر عام ١٣١٥هـ ـ وعمره ٣٢ سنة ـ وبدأ محمد عبده دروسه في التفسير عام ١٣١٧هـ ـ وعمر رشيد آنذاك ٣٤ سنة ـ، وتُوفي محمد عبده عام ١٣٢٣هـ ـ وعمر رشيد ٤٠ سنة ـ توفى الشيخ رشيد وله من العمر ٧٢ سنة عام ١٣٥٤هـ.

ولقد كتب الشيخ رشيد «المنار والأزهر» وله من العمر ٧٠ سنة أي بعد موت محمد عبده بـ ٢٨ سنة.

فالشيخ رشيد صحب محمد عبده وهو في سن ٣٢ سنة، وافترقا بموت محمد عبده ورشيد في الأربعين. . . معنى هذا أن الشيخ رشيد صاحب محمد عبده ثمان سنوات فقط منها ستة سنوات سمع منه فيها للتفسير.

☐ ومن جهة أخرى عاش السيد رشيد بعد موت الشيخ محمد عبده ثلاثين سنة، وهذه المدة كفيلة أن تُغيّر فكر الشخص وتحوله.

---

(١) «مجموع فتاوى رشيد رضا» (ص٨٧ ـ ٨٨).

(٢) «تفسير المنار» (١/ ١٦).

☐ ولقد صرّح الشيخ رشيد رضا بأنه قام بالدعوة الإصلاحية مستقلاً برأيه في كل شيء دون التلقين من محمد عبده، فيقول في ترجمة حياته:

«فإن بعض الناس كانوا يظنون أنني قد قمت بهذه الدعوة الإصلاحية في الإسلام بالتلقين من الشيخ محمد عبده، وأنني لم أكن ذا رأي مستقل فيها ولا عاملاً بوازع من نفسي، ويظن آخرون أني أنشأت المنار لأجل كسب الرزق، ولكن قرّاء المنار ولا سيما الأولين منهم كانوا يعلمون أن الأمر بخلاف ذلك من كل وجه، وأنني كنت مستقلاً برأيي في كل شيء»[1] .

☐ واختلف منهجه كثيرًا بعد موت الشيخ محمد عبده وصرّح هو بذلك فيقول: «هذا وإني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه ـ رحمه اللّه ـ بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواءً كان تفسيرًا لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها»[2] .

وخالف أستاذه وسجل هذا في كتابه «المنار والأزهر» وكان يقول: «هذا قول محمدعبده وأنا أخالفه».

☐ ولقد تحول منهج السيد رشيد كلما امتد به العمر عن منهج محمد عبده والأفغاني وازداد سلفية، وترك كثيرًا مما كان عليه يوم جاء إلى مصر في أول عهده في الطلب والإصلاح، وقد أدرك أتباع المدرسة العقلية من تلاميذ الشيخ محمد عبده تحوّله عن منهج شيخه، وجرت بينه وبينهم مناقشات حادة في الصحف، وكثيرًا ما هاجموه وهاجموا آراءه الجديدة، ومن هؤلاء الأستاذ محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة المصرية، فقد فتح مجلته للهجوم على السيد رشيد، ويذكر الشيخ رشيد أن السبب في ذلك هو وقوفه ضد علي عبدالرازق وكتابه «الإسلام وأصول الحكم».

وهكذا وقف الشيخ رشيد طودًا شامخًا، وسدًّا منيعًا أمام أي انحراف عن النبع الصافي.

ولقد فنّد ونقد فيما نقد كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين.

*** من تأثر برشيد رضا:**

لقد أثر الشيخ رشيد رضا في أكثر من جاء بعده من الأفراد والجماعات، كلها قد جعلت رشيد رضا إمامًا واستمدت منه الطريق، واستوحت من كتاباته ومقالاته هداها، وكان نبراسًا وشعلة هدى، ولقد صدع صاحب المنار ومناره بالحق على أكثر من ثلاثين سنة ينشر الفكر السلفي المتحرر من ربقة الجهل والضلال، وجاء صوته ومعوله يدق صروح التخلف مذعنًا ببدء دعوة جديدة مع داعية ومصلح عظيم.

تأثرت به جمعية أنصار السنة ومؤسسها الشيخ حامد الفقي أكبر الأثر، وأثر في كبار علمائها: أحمد شاكر، وعبدالرزاق حمزة، وتأثر به الشيخ الألباني ومدرسة السلفية أكبر الأثر، والشيخ تقي الدين الهلالي الداعية السلفي الكبير.

واعتبر الأستاذ البنا (الإخوان المسلمون) امتدادًا لدعوة رشيد رضا، ولم يتحرج مؤرخو الإخوان أن يسطروا ذلك في تاريخ الحركة بوضوح وصراحة، ولقد كان الأستاذ البنا على صلة وثيقة بالشيخ منذ كان طالبًا بدار العلوم، وكانت مجلة المنار ملتقاه بأكثر من التقى بهم من رجالات الحركة الإسلامية في ذلك العهد، واتخذت أكثر القرارات في مواجهة المؤامرات ضد الإسلام في هذه الدار، وقد ظل الأستاذ على اتصال بالشيخ بعد قيام دعوة الإخوان، وكان يستشيره في كثير من الأمور»[1].

(١) «الإخوان المسلمون» رؤية من الداخل للأستاذ محمود عبدالحليم (٢٤٦/١) طبع دار الدعوة بالإسكندرية، وكتاب «الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية=

فرحم اللَّه الشيخ الإمام رشيد رضا وأجزل له المثوبة جزاء ما قدّم لدينه وأمته.

الدين النصيحة وكلٌ يُؤخذ من قوله ويرد

❐ للَّه در إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وما أطيب كلمته الكافية الشافية: «كل يُؤخذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر» ـ يعني رسول اللَّه ﷺ ـ وقد وقع السيد رشيد رضا في أخطاء وشطحات نسأل اللَّه أن يغفرها لها بفضله ثم ببحر خير الرجل ولحجم علمه وجهاده منها:

❐ مدحه لكتابيْ قاسم أمين «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، ومنها لين جانب للنصارى في الأمور الاجتماعية، وصلته الوثيقة ببعضهم.

❐ ومنها قوله: بعدم وجود نص قطعي في أفضل الناس بعد النبي ﷺ.

❐ ومنها إنكاره للمهدي، وإنكاره لنزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان.

❐ ومنها إنكاره لانشقاق القمر، ومنها قوله في المعجزات: أنها تأتي تأييدًا لا حجة، وقوله في الربا، ومنها إباحته سماع الملاهي وزعمه بعدم ورود نص صريح في تحريمها ـ غفر اللَّه له.

* شيخ الإسلام عبدالرحمن المعلمي اليماني وأنواره الكاشفة لزلل عدو السنّة أبي ريّة، وتنكيله للكوثري القبوري شيخ الأباطيل:

❐ للَّه در شيخ الإسلام العلاّمة المحدث الفقية عبدالرحمن بن يحيى بن علي المعلمي العتمي اليماني (١٣١٣هـ ـ ١٣٨٦هـ) ولد ونشأ في بلاد عتمة،

= المصرية» (١٩٢٨ ـ ١٩٤٨) للدكتور زكريا سليمان بيومي.

وتعلّم فيها، وبعدد من بلاد اليمن، ثم أقام في عسير، وتولى رئاسة القضاء، ولُقِّب لورعه ودينه وعلمه بشيخ الإسلام، ثم سافر إلى الهند، وأشرف على دائرة المعارف العثمانية، وأشرف على ما نشرت من الكتب العلمية. ثم أقام في مكة من سنة ١٣٧١هـ، وعيِّن أمينًا لمكتبة الحرم المكي، وقد خدم المكتبة خدمة جلي، وكان على صلة طيبة برجال الإصلاح في العالم الإسلامي، ومات بعد صلاة الفجر بمكة المكرمة عام ١٣٨٦هـ ودفن بمكة ـ رحمه اللَّه ـ.

◻ ولله در القائل: «من لم يقر بأن أهل الحديث هم أنصار الدين فإنه يُعدّ في ضعفاء المساكين».

◻ وما أحلى قول من قال: «لولا أصحاب المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر».

لما سوّد عدو السنة الصفحات في كتابه «أضواء على السنة» وسار على خطأ المستشرقين وطعن في السادة علماء الإسلام انبرى للرد عليه فضيلة الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة مدير دار الحديث بمكة المكرمة في كتابه القيم «ظلمات أبي رية»، ثم أتى العالم الفذ الشيخ المعلمي اليماني بكتابه الفذّ «الأنوار الكاشفة لما في كتاب «أضواء على السنة» من الزلل والتضليل والمجازفة فقبرترهات عدو السنة أبي رية وألقمه حجراً بل جبلاً، وكشف دجله، وكيف أن علماء الأمة عنده هم النظام وثمامة ورؤوس البدعة وتطاوله على شيوخ الحديث وأئمة أهل السنة الذين نعتهم بأنهم «صدور الحشوية وشيوخ الجهل من زوامل الأسفار الذين يخشون على علمهم المزور من سطوة الحق ويخافون على كساد بضاعتهم العفنة التي يستأكلون بها أموال الناس بالباطل... وليس لمثل هؤلاء خطر عندنا ولا وزن في حسابنا»[1].

(١) «أضواء على السنة» لأبي رية (ص١٤)، و«الأنوار الكاشفة» لما في كتاب «أضواء على السنة» من الزلل والتضليل والمجازفة» للشيخ عبدالرحمن المعلمي (ص١٢) ـ المكتب الإسلامي.

✍ فرد اللَّه كيده في نحره على يد ليث السنة المعلمي.

◻ قال المعلمي ـ رحمه اللَّه ـ: «فإن أضرّ الناس على الإسلام والمسلمين هم المحامون الاستسلاميون، يطعن الأعداء في عقدة من عقائد الإسلام أو حكم من أحكامه ونحو ذلك، فلا يكون عند أولئك المحامين من الإيمان واليقين والعلم الراسخ بالدين والاستحقاق لعون اللَّه وتأييده ما يثبتهم على الحق، ويهديهم إلى دفع الشبهة، فيلجأون إلى الاستسلام بنظام، ونظام المتقدمين التحريف، ونظام المتوسطين زعم أن النصوص النقلية لا تفيد اليقين والمطلوب في أصول الدين اليقين، فعزلوا كتاب اللَّه وسنة رسوله عن أصول الدين. ونظام بعض العصريين التشذيب، وأبو رية يحاول استعمال الأنظمة الثلاثة ويوغل في الثالث. على أن أولئك الذين سميتهم محامين كثيراً ما يكونون هم الخصوم، والباطل جشع، وقد قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]»[١].

◻ ولقد ردّ المعلمي على عدو السنة في تطاوله على الصحابة ﷺ ورميهم باعتقاد ما يخبر به أهل الكتاب صحيحًا لا ريب فيه، وفندّ ذلك ـ رحمه اللَّه. ثم رد على مكيدة مهوله يكاد بها الإسلام والسنة اخترعها بعض المستشرقين وتبناها أبو رية وارتكب لترويجها ما ارتكب واتهامه لعمر ﷺ بأسفل درجات الغفلة بأنه كان يستمع لكعب الأحبار، وأن كعبًا توسّع في الروايات الكاذبة، وأن الصحابة قبلوا من كعب ما يخبرهم به عن النبي ﷺ مما يُفسد دينهم!!! فحط على الفاروق والصحابة الذين فتحوا العالم ودبروا الدنيا.. حط عليهم بالباطل والزور والخيانة.

◻ ثم ردّ عليه في تكذيبه لحديث المعراج واستهزائه به وعدّه من

---

(١) «الأنوار الكاشفة» (ص٢٥).

الإسرائيليات ثم تكلم عن افترائه على الصحابة بنسبة الكذب إليهم فلعنة اللَّه عن من كذّبهم، ثم رد المعلمي على عدو السنة في رده لحديث شق الصدر واستهزاء أبي رية به، ثم تكذيبه لأبي هريرة وشسع نعل أبي هريرة أفضل منه ومن أمثاله، واحتجاج أبي رية بجلد سيهر.

◻ ثم رد على انتقاد أبي رية في ترجمة أبي هريرة نيفًا وثلاثين حديثًا ـ رد المعلمي ردًّا شافيًا أثلج صدور المؤمنين، وبين رد عدو السنة لأحاديث صحيحة ثابتة كحديث موسى وملك الموت، والأحاديث في شأن الدّجال، وحديث الحوض وحديث كشف الساق، وكلامه عن «صحيح البخاري».

◻ ثم رد عليه بذاءته على علماء الدين واطراءه للمستشرقين ويحشر المرء مع من أحب.

*** تنكيله بالكوثري وأباطيله:**

◻ يقول محدث ديار الشام الشيخ الألباني ـ رحمه اللَّه ـ في تقديمه لكتاب «التنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل»: «أما بعد، فإني أقدم اليوم إلى القرّاء الكرام كتاب «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» تأليف العلامة المحقق الشيخ عبدالرحمن بن يحيى بن علي اليماني ـ رحمه اللَّه، بيّن فيه بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة تجني الأستاذ الكوثري على أئمة الحديث ورواته، ورميه إياهم بالتجسيم والتشبيه، وطعنه عليهم بالهوى والعصبية المذهبية، حتى لقد تجاوز طعنه إلى بعض الصحابة، مصرّحًا بأن أبا حنيفة رغب عن أحاديثهم! وأن قياسه مقدم عليها! فضلاً عن غمزه بفضل الأئمة وعلمهم، فمالك مثلاً عنده ليس عربي النسب بل مولى! والشافعي كذلك، بل هو عنده غير فصيح في لغته، ولا متين في فقهه، والإمام أحمد غير فقيه عنده! وابنه عبداللَّه مجسم، ومثله الأئمة ابن خزيمة وعثمان بن سعيد الدارمي وابن أبي حاتم وغيرهم، والإمام الدارقطني عنده

أعمى ضال في المعتقد، متبع للهوى، والحاكم شيعي مختلط اختلاطًا فاحشًا!!! وهكذا لم يسلم من طعنه حتى مثل الحميدي، وصالح بن محمد الحافظ، وأبي زرعة .

ثم هو إلى طعنه هذا يضعف الثقات من الحفاظ والرواة، وينصب العداوة بينهم وبين أبي حنيفة لمجرد روايتهم عنه بعض الكلمات التي لا تروق لعصبية الكوثري وجموده المذهبي، وهو في سبيل ذلك لا يتورع أن يعتمد على مثل ابن النديم الوراق وغيره ممن لا يعتقد بعلمه في هذا الشأن.

وهو على النقيض من ذلك يوثق الضعفاء والكذابين إذا رووا ما يوافق هواه!

ومنه يتبيّن للناس ما كان خافيًا عليهم من حقيقة الكوثري، وأنه كان يجمع في نفسه بين صفتين متناقضتين: فهو في الفقهيات وعلم الكلام مقلد جامد، وفي التجريح والتعديل، والتوثيق والتضعيف، وتصحيح الحديث وتوهينه، ينحو منحى المجتهد المطلق، غير أنه لا يلتزم في ذلك قواعد أصولية، ولا منهجًا علميًّا! فهو مطلق عن كل قيد وشرط لذلك فهو يوثق من شاء من الرواة ولو أجمع أئمة الحديث على تكذيبه، ويضعف من شاء ممن أجمعوا على توثيقه، ويصرح بأنه لا يثق بالخطيب وأبي الشيخ ابن حبان ونحوهما، ويضعف من الحديث ما اتفقوا على تصحيحه، ولو كان مما خرجه الشيخان في «صحيحهما» ولا علة قادحة فيه. ويصحح ما يعلم كل عارف بهذا العلم أنه ضعيف بل موضوع مثل حديث «أبو حنيفة سراج أمتي»! إلى غير ذلك من الأمور التي ستتجلى للقارئ الكريم، مبرهنًا عليها من كلام الكوثري نفسه في هذا الكتاب العظيم بأسلوب علمي متين، لا وهن فيه، ولا خروج عن أدب المناظرة، وطريق المجادلة بالتي هي أحسن، بروح علمية عالية، وصبر على البحث والتحقيق كاد أن يبلغ الغاية، وإن لم أقل بلغها.

كل ذلك انتصارًا للحق، وقمعًا للباطل، لا تعصبًا للمشايخ والمذهب، فرحم اللَّه المؤلف وجزاه عن المسلمين خيرًا»[١] .

□ يقول الشيخ عبدالرحمن المعلمي ـ رحمه اللَّه ـ: «فإني وقفت على كتاب «تأنيب الخطيب» للأستاذ العلامة محمد زاهد الكوثري، الذي تعقب ما ذكره الحافظ المحدث الخطيب البغدادي في ترجمة الإمام أبي حنيفة من «تاريخ بغداد» من الروايات عن الماضين في الغض من أبي حنيفة، فرأيت الأستاذ تعدّى ما يوافقه عليه أهل العلم من توقير أبي حنيفة وحسن الذب عنه ـ إلى ما لا يرضاه عالم متثبت من المغالطات المضادة للأمانة العلمية، ومن التخليط في القواعد، والطعن في أئمة السنة ونقلتها، حتى تناول بعض أفاضل الصحابة والتابعين والأئمة الثلاثة مالكًا والشافعي وأحمد وأضرابهم وكبار أئمة الحديث وثقات نقلته والرد لأحاديث صحيحة ثابتة، والعيب للعقيدة السلفية، فأساء في ذلك جدًّا حتى إلى الإمام أبي حنيفة نفسه، فإن من يزعم أنه لا يتأتى الدفاع عن أبي حنيفة إلا بمثل ذلك الصنيع فساء ما يثني عليه[١] ، فدعاني ذلك إلى تعقيب الأستاذ فيما تعدى فيه، فجمعت في ذلك كتابًا أسميته «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل»، ورتبته على أربعة أقسام:

القسم الأول: في تحرير القواعد التي خلط فيها.

الثاني: في تراجم الأئمة والرواة الذين طعن فيهم وهم نحو ثلثمائة فيهم أنس بن مالك ﷺ، وهشام بن عروة بن الزبير بن العوام، والأئمة الثلاثة، وفيهم الخطيب، وأدرجت في ذلك تراجم أفراد مطعون فيهم حاول توثيقهم. .

---

(١) في الطبعة الأولى «بمثل الطعن في هؤلاء الأكابر فقط فضح وأساء إلى من يريد الذب عنه بسوء صنيعه.

الثالث: في الفقهيات، وهي مسائل انتقدت على أبي حنيفة وأصحابه، حاول الأستاذ الانتصار لمذهبه.

الرابع: في الاعتقاديات ذكرت فيه الحجة الواضحة لصحة عقيدة أئمة الحديث إجمالاً. وعدة مسائل تعرض لها الأستاذ، ولم أقتصر على مقصود التعقب، بل حرصت على أن يكون الكتاب جامعًا لفوائد عزيزة في علوم السنة مما يعين على التبحر والتحقيق فيها.

وحرصت على توخي الحق والعدل، واجتناب ما كرهته للأستاذ، خلا أن إفراطه في إساءة القول في الأئمة جرّأني على أن أصرّح ببعض ما يقتضيه صنيعه»[١].

❏ وقال ـ رحمه اللّه ـ في «القائد إلى تصحيح العقائد» وهو القسم الرابع من كتابه «التنكيل»:

«فإن صاحب كتاب «تأنيب الخطيب» تعرّض كتابه للطعن في عقيدة أهل الحديث ونبرهم بالمجسمة، والمشبهة، والحشوية، ورماهم بالجهل والبدعة، والزيغ والضلالة، وخاض في بعض المسائل الاعتقادية، كمسألة الكلام والإرجاء، فتجشّمت أن أتعقبه في هذا كما تعقّبته في غيره، راجيًا من اللّه تبارك وتعالى أن يثبت قلبي على دينه، ويهديني لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، ويتغمدني بعفوه ورحمته، إنه لا حول ولا قوة إلا باللّه»[٢].

❏ وقال ـ رحمه اللّه ـ:

«هذه أمور ينبغي للإنسان أن يقدم التفكر فيها ويجعلها نصب عينيه:

١ ـ يفكر في شرف الحق وضعة الباطل، وذلك بأن يفكر في

(١) «التنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل» للشيخ عبدالرحمن المعلمي اليماني (ص١١ ـ ١٢) ـ دار الكتب السلفية.

(٢) «التنكيل» (ص١٨٨).

عظمة اللَّه عز وجل وأنه رب العالمين وأنه سبحانه يحب الحق ويكره الباطل، وأن من اتبع الحق استحق رضوان رب العالمين، فكان سبحانه وليه في الدنيا والآخرة، بأن يختار له كل ما يعلمه خيرًا له وأفضل وأنفع وأكمل وأشرف وأرفع حتى يتوفاه راضيًا مرضيًّا، فيرفعه إليه، ويقربه لديه، ويحله في جواره مكرمًا منعمًا في النعيم المقيم والشرف الخالد، الذي لا تبلغ الأوهام عظمته، وأن من أخلد إلى الباطل استحق سخط رب العالمين وغضبه وعقابه، فإن آتاه شيئًا من نعيم الدنيا فإنما ذلك لهوانه عليه ليزيده بعدًا عنه، وليضاعف له عذاب الآخرة الأليم الخالد الذي لا تبلغ الأوهام شدته»[1] .

❑ ثم قال: «يسعى في التمييز بين معدن الحق ومعدن الشبهات، فإنه إذا تم له ذلك هان عليه الخطب؛ فإنه لا يأتيه من معدن الحق إلا الحق فلا يحتاج إن كان راغبًا في الحق قانعًا به إلى الإعراض عن شيء جاء من معدن الحق، ولا إلى أن يتعرض لشيء جاء من معدن الشبهات، لكن أهل الأهواء قد حاولوا التشبيه والتمويه، فالواجب على الراغب في الحق أن لا ينظر إلى ما يجيئه من معدن الحق من وراء زجاجاتهم الملونة، بل ينظر إليه كما كان ينظر إليه أهل الحق. واللَّه الموفق»[2] انتهى من «القائد إلى تصحيح العقائد» الذي قال فيه الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة أنه: «كتاب من أجود ما كُتب في بابه». . قرأت الكتاب فأُعجبت به أيّما إعجاب لصبر العلاّمة على معاناة مطالعة نظريات المتكلمين خصوصًا من جاء منهم بعد من ناقشهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم كالعضد والسعد، ثم رده عليهم بالأسلوب الفطري والنقول الشرعية التي يؤمن بها كل من لم تفسد عقليته بخيالات الفلاسفة المتكلمين، فسدّ بذلك فراغًا كان على كل سُني سلفي سدّه

---

(١) المصدر السابق (ص٢٠٥).

(٢) المصدر السابق (ص٢١٧).

بعد شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم ـ رحمهما اللَّه تعالى، وأدّى عنا دينًا كنا مطالبين بقضائه، فجزاه اللَّه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وحشرنا وإياه في زمرة الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا»[١] .

* الكوثري لا يرقب في علماء السلف إلاً ولا ذمة، ويقع في ابن تيمية وتلاميذه بما هو وصمة عار في جبينه:

❑ للَّه در القائل:

ما ضرّ شمس الضحى والشمس طالعة   أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

❑ محمد زاهد الكوثري الحنفي الجركسي ألدّ أعداء السنة الذي يتأجج حقداً وغيظًا وحنقًا على السلفيين وشيخهم ابن تيمية وتلاميذه، هو حامل لواء التجهم في العصر الحديث:

«ذكر الدكتور بكر بن عبداللَّه أبو زيد أن الكوثري نبز ابن القيم الجوزية بلقب «ابن زفيل» كذبًا ووضعًا فقال:

«وهو أمر غير بعيد على مخلوق يتأجج غيظًا وحنقًا على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذ مدرسته السلفيين كابن قيم الجوزية، فإنه نسب نفسه، وكدّ قلمه وفكره في محاربة هذين الإمامين، وإثارة الشغب عليهما، ورميهما بالزندقة والكفر، والنفاق والضلال[٢] وإذا سكن جأشه توسع في السباب واللعن وكيل القذائف مما لا يتصور خروجه إلي من رجل مقضيّ عليه في

---

(١) المصدر السابق (ص٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) قال العلامة بدر الدين العيني الحنفي ـ الذي يفضّله الكوثري على ابن حجر ـ: «فمن قال هو كافر فهو كافر حقيق، ومن نسبه إلى الزندقة فهو زنديق» «الرد الوافر» (ص٢٤٤).

دينه وعقله. وكتبه ورسائله شاهدة بذلك...»[١].

قال الكوثري في كتابه «الإشفاق في مسألة الطلاق» (ص٨٩):

«إن كان ابن تيمية لا يزال يعدّ شيخ الإسلام فعلى الإسلام السلام»[٢].

وقال أيضًا:

«والأغرب من هذا وذاك أن يرفع دعاة الإصلاح العصري عقيرتهم بالدعوة إلى تقلّد مذهب من يكون بهذه السخافة في بداهة العقول، والإعلان عنه وعن شيخه... أنهما أكبر مصلح تتطلبه حاجة العصر. فإن كان هذا هو الإصلاح فعلى الإسلام السلام»[٣].

هكذا سلّم الكوثري على إسلامه مرارًا، في مواضع أخرى من كتاباته، في عداوة شيخ الإسلام وتلميذه ابن قيم الجوزية ـ رحمهما اللَّه تعالى.

وقال أيضًا في «الإشفاق» (ص٨٦):

«ولو قلنا: لم يبل الإسلام في الأدوار الأخيرة بمن هو أضرّ من ابن تيمية في تفريق كلمة المسلمين لما كنا مبالغين في ذلك، وهو سهل متسامح مع اليهود والنصارى»[٤].

وقال العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني ـ حفظه اللَّه تعالى ـ:

«... المدعو زاهد الكوثري، الذي كان ـ والحق يقال ـ على حظّ وافر من العلم بالحديث ورجاله، ولكنه ـ مع الأسف ـ كان علمه حجة عليه

---

(١) «ابن قيم الجوزية» (ص١٨).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٨ ـ مقدمة الألباني) المكتب الإسلامي ط. رابعة ١٣٩١هـ بيروت.

(٣) «تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» لابن عساكر (ص٣٩٣ ـ تعليقًا) دار الكتاب العربي بيروت.

(٤) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٩ ـ مقدمة الألباني).

ووبالاً؛ لأنه لم يزدد به هدى ونوراً، لا في الفروع ولا في الأصول، فهو جهميّ معطّل، حنفيّ هالك في التعصب، شديد الطعن والتحامل على أهل الحديث قاطبة، المتقدّمين منهم والمتأخرين.

فهو في العقيدة يتّهمهُم بالتشبيه والتجسيم، ويلقّبهم... بالحشوية السخفاء. ويقول في كتاب «التوحيد» للإمام ابن خزيمة: «إنه كتاب الشرك» ويرمي نفس الإمام بأنه مجسّم جاهل بأصول الدين!

وفي الفقه يرميهم بالجمود، وقلة الفهم، وأنهم حملة أسفار!

وفي الحديث طعن في نحو ثلاثمائة من الرواة أكثرهم ثقات. وفيهم نحو تسعين حافظًا وجماعة من الأئمة الفقهاء، كمالك والشافعي وأحمد...

وهو إلى ذلك يضعّف من الحديث ما اتفقوا على تصحيحه... وعلى العكس من ذلك فهو يصحّح انتصاراً لعصبيته المذهبية ما يشهد كل عارف بهذا العلم أنه ضعيف بل موضوع، مثل حديث: «أبو حنيفة سراج أمتي»! إلى غير ذلك من الأمور التي لا مجال لسردها، وبسط القول فيها الآن.

وقد ردّ عليه وفصّل القول فيها بطريقة علمية سامية، وبحث منطقي نزيه العلامة عبدالرحمن المعلمي اليماني في كتابه «طليعة التنكيل» ثم في كتابه الفذّ العظيم «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل». فليراجعهما من شاء الوقوف على حقيقة ما ذكرنا، فإنه سيجد الأمر فوق ما وصفنا، والله المستعان»[1] .

* عدوان الكوثري على الأئمة الأعلام:

إن الكلام في جانب الصحابة ﵃ يدلّ على خذلان فاعله. وهذا

---

(١) المصدر المذكور (٤٥ ـ ٤٦).

المتجرئ رمى أنس بن مالك ﵁ خادم النبيِّ ﷺ بالخرف والوهم؛ لأن روايته خالفت هواه. فنعوذ باللَّه من الخذلان.

وأما كلامه في الأئمة الأعلام، والنيل من كرامتهم لأجل الدفاع عن الحنفية فحدّث عنه ولا حرج»[١] .

«فليس للشافعي عنده ميزة... سوى قرشية فيها خلاف، وليس لمالك مزيّة سوى سكنى المدينة في وقت لا فضل في سكناها، وليس لأحمد بن حنبل فضل سوى كثرة الحديث من غير تمحيص ولا غوص فهي قليلة الجدوى»[٢] .

«وهو لا يرى شيئًا غير أبي حنيفة، ولذلك لقّبه أحمد الغماري بقوله: «مجنون أبي حنيفة»[٣] .

وتجنّى على أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري ـ رحمه اللَّه ـ فقال:

«ومن الغريب أن بعض من يعدّونه من أمراء المؤمنين في الحديث يتبجّح قائلاً: إني لم أخرج في كتابي عمن لا يرى أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، مع أنه أخرج عن غلاة الخوارج ونحوهم في كتابه، وهو يدري أن الحديث القائل بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص غير ثابت عند النقّاد. ولا التفات إلى المتساهلين، ممن لا يفرّقون بين الشمال واليمين»[٤] .

---

(١) راجع كشف مخاريه في العلماء الأعلام في «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» للعلامة عبدالرحمن يحيى المعلمي اليماني ـ رحمه اللَّه تعالى ـ.

(٢) «المقابلة بين الهدى والضلال» للشيخ عبدالرزاق حمزة (ص٦٩).

(٣) ابن قيم الجوزية» للدكتور أبو زيد (ص٢١) نقلاً عن «بدع التفاسير» للغماري (ص١٨٠).

(٤) «تأنيب الخطيب» (ص٤٤ ـ ٤٥).

ووافق تلميذه الوفيّ عبدالفتاح أبو غدّة على هذا التجنّي أيضًا، مع موافقته على إجائه فقال:

«وبعد هذا البيان الشافي الذي أفاده شيخنا الكوثري ـ رحمه اللَّه تعالى ـ يتجلّى لك حسن ما قاله الإمام الأعظم أبو حنيفة ﷺ . . .»[1].

* موافقة الشيخ عبدالفتاح أبي غدّة لشيخه الكوثري على عدوانه وردّ الشيخ بكر أبي زيد عليه:

◻ قال الدكتور بكر بن عبداللَّه أبو زيد بعد ما نقل عدوانه على أئمة الحديث:

«وهكذا يتعالج بقرض الأعراض، والتمضض بالاعتراض، وسحب أذيال البغض على كل من ليس «حنفيًّا، أشعريًّا، صوفيًّا، قبوريًّا» مع مهارة بالغة في التقول، وتحريف النقول، والتصرف في نصوص المؤلفين، كما فعل في «الانتقاء» لابن عبدالبر، وتداركه القدسي إلى آخر ما هنالك من الصيال والتصاول، وأسباب الخذلان والتخاذل. ولم نره في شيء مما تقدم ندم على ما قدّم.

وفي كتابي «التنكيل» و«طليعته» للعلاّمة المعلمي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ من الردود الموثقة الأمينة من غير سرف ولا مخيلة، ما يكشف مخازي هذا المبتلي، وأنها ـ كما قال المعلمي في موضع من كتابه ـ أصبحت: «كضراطة عير في الفلا».

ومع هذا:

فهذا التلميذ الوفي لتلكم المشارب الكدرة، يزنه بميزان علماء السلف،

---

(١) «قواعد في علوم الحديث» للتهانوي (ص٢٣٨ ـ تعليق عبدالفتاح أبي غدّة).

مع ما رأته عينك الباصرة في هذه النماذج من فحش القول وقبحه، والتبرقع بالصفاقة والحماقة، وبثّ الريب، وتنزيل السباب والشتائم.

وهذا التلميذ لم نعلمه يتعقبه فيما كتب ولو مرة واحدة في دفع هذه الخبائث من صريح كذبه، أو عدوانه؟

وهذا التلميذ أثقل رسائله وتعليقاته بالنقل عنه بما يزيد عن مائة وعشرين مرة ـ بما يمثل مجموعة مجلدة مستقلة مستغفلاً لعباد اللَّه، كأنه يصيح بها في واد لا ينبت إلا أغفالاً شربوا من تلك الأرض، من عمل جِلّق[1].

كل هذا يسوقه بقلم الحفاوة والرضا. أليس هذا هو عين المساوقة في الاعتقاد والرضا؟

وهذا التلميذ صار من أجله «سَمَرِيًا» يجمع ما يحسبه ناهضًا لمشاربه الكدرة، وجلّ الاستدلالات منها كأحاديث السُّمَّار، لا يهم السامر صدقًا كانت أم كذبًا، وعند التحقيق فالذي يسوقه: نصف ليس له، ونصف عليه. فبماذا يتسلى المفلسون؟.

والمسكين بقدر ما احترق في «الكوثري» تهالك في مشاربه.

لكن الشيخ ينشرها عن طريق الفظاظة والمجاهرة والسرف والمناكدة، لأنه في إقليم يسمح له بذلك. والتلميذ تحت وطأة الإقليم والعيش الرغيد ينشرها بكلمات يلفّ حبلها على غاربها عن طريق النقل المجرّد، وترك النص بلا تعليق ومسلك التشذيب لمدرسة أهل الحديث، بالشدّ على مسلك مدرسة الرأي في القديم والحديث.

---

(١) جِلّق: بكسرتين وتشديد اللام ـ اسم لكورة الغوطة كلها. وقيل: قرية من قراها، وقيل: دمشق نفسها. «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لصفي الدين البغدادي (١/ ٣٤٢) دار المعرفة. بيروت.

فهو في المحاماة عن شيخه وكيل جَلْد.

إنه بهذا الرضا الفضفاض، وهذه الحفاوة البالغة، وحال الرجل كما أشرت، وفوق ما وصفت في اتجاهاته العقدية والمذهبية، والتلميذ مثقّل بهذا العناء وحمله ونشره.

فإن حواشيه: «زاملة هذه المشارب» تحمل مخاطر عظيمة ـ على أصول الحديث ومصطلحه، مكدّرة صفوفها مائلة بها إلى مسار مدرسة معينة؟.

وهذا إخسار في الميزان، واللَّه تعالى يقول: ﴿**وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾ [الرحمن: ٩]، ولن يبلغ السارون في العصبية مأربهم، وإن أكل البغض قلوبهم. واللَّه من ورائهم محيط».

ثم حذّر الدكتور بكر بن عبداللَّه أبو زيد من العزو إلى كتابات هؤلاء، وقال:

«وبعد: فكيف يسوغ لعبد يتّبع الدليل، ويرفض التعطيل والتشبيه والتأويل وينابذ الإشراك والبدع في الدين أن يتكفكف في مهيع هذا: القذّيف، الشغّاب السبّاب الطعّان، والشتّام ضاربًا في مجاهل شبهاته ومشتبهاته، يحرث كتبه حرثًا، ويحييها قراءة وبحثًا، وينشر عصارتها في صفوف القراء والدارسين، رافعًا لها على كاهل الرضا والقبول، ناصبًا نفسه له ظهيرًا، ولها نصيرًا.

◻ وهي محل التزوّد والإمداد بأصول النقض لمدرسة السلف في نواقض أربعة:

١ ـ انتصابه للتقليد الأصم في عصبية سادرة.

٢ ـ وثبتُه إلى التمشعر غاليًا جافيًا.

٣ ـ انفلات وكاء عقيدته، في عجم دلائل توحيد اللَّه في عبادته إلى قبورية زائفة.

٤ ـ ثمّ انساب قلمه في التكفير والقذف للأبرياء، والتنقّص للأوفياء، لكل ناج من تلك المشارب الثلاثة.

◘ وهذه الأربع جرّت التلميذ إلى أربع:

١ ـ تنكر لعلماء السلف.

٢ ـ غلائل التقديس المصبغة.

٣ ـ احتضان المبتدعة.

٤ ـ الدنيّة بالدين.

فانظر كيف التقت حلقة البطان، إذ هما يرميان، عن قوس واحدة لغاية واحدة، فيقبل الأستاذ بأربع، ويدبر متابعه بثمان، منثورة في صدور الطلاّب، وأفئدتهم وأفكارهم. والقلوب ضعيفة، والشبه خطّافة، وليس في «الرّبع» حراك.

◘ قال أبو تمام:

مساوٍ لو قُسِمْنَ على الغواني ... لما أُمْهِرْنَ إلا بالطَّلاقِ[1]

*** يكفي لإدانة التلميذ:**

لا يستغرب صدور هذه الكلمات الإجرامية، وظهور هذه الضغائن المتأصلة ضد علماء الأمة الثقات من الكوثري لأنه كما قال الشاعر:

من يَهُنْ يسهل الهوانُ عليه ... ما لجرح بميّتٍ إيلام

ولكن الغريب انسياق «التلميذ» وراء مخازيه، واستدلاله بها على مراميه، وشحنه تعليقاته بغمزاته ولمزاته، ونسجه هالة من التبجيل حوله تمهيداً للإضلال بتقوّلاته، حتى يلقّبه بـ:

---

(١) «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة» (٣٠ ـ ٣٥).

«أستاذ المحققين الحجة المحدث الفقيه الأصولي المتكلم النظّار المؤرخ النقّادة الإمام محمد زاهد الكوثري...»[1].

مجرد هذا التبجيل لهذا الحقود على الأئمة الأعلام يكفي لإدانة التلميذ فضلاً عن مخالفاته الأخرى في تعليقاته التي يمجّد فيها كل من يناوئ منهج أهل الحديث قديمًا وحديثًا. وهذا لا ينكره إلا مكابر.

وما الغي إلا أن تصاحب غاويًا وما الرشد إلا أن تصاحب من رشد
ولن يصحب الإنسان إلا نظيره وإن لم يكونا من قبيل ولا بلد

*** غضبة للحق:**

يعرف علامة الجزيرة الإمام الشيخ عبدالعزيز بن عبداللَّه بن باز (المفتي العام للملكة العربية السعودية، والرئيس العام لإدارات البحوث الإسلامية والإفتاء والدعوة والإرشاد) بالورع البالغ، واللسان العفيف والقول النزيه، لا تكاد تسمع منه كلمة مشوبة بالشدة. وهو عالم متّبع هيّن لين سهل قريب. ولا أزكي على اللَّه أحدًا.

إن هذا العالم الجليل ـ حفظه اللَّه وتولاّه ـ لما اطلع على كتاب «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة» للعلامة الدكتور بكر بن عبداللَّه أبوزيد ـ حفظه اللَّه ـ الذي يكشف عن بعض مخازي الكوثري وتلميذه ـ غضب غضبة للحق، ووجه رسالة إلى صاحب الكتاب تأييدًا له، وأداءً لأمانة الكلمة. فكتب ما نصه:

«من عبدالعزيز بن عبداللَّه بن باز

إلى حضرة الأخ المكرَّم صاحب الفضيلة العلاّمة الدكتور بكر بن عبداللَّه أبو زيد، وكيل وزارة العدل ـ لا زال مسدّدًا في أقواله وأعماله، نائلاً

(١) كلمة الإهداء في «الأجوبة الفاضلة» للكنوي.

من ربّه جزيل نواله، آمين.

سلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

أما بعد:

فقط اطلعت على الرسالة التي كتبتم بعنوان «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة»، وفضحتم فيها المجرم الآثم محمد زاهد الكوثري بنقل ما كتبه من السبّ والشتم والقذف لأهل العلم والإيمان، واستطالته في أعراضهم، وانتقاده لكتبهم إلى آخر ما فاه به ذلك الأفّاك الأثيم ـ عليه من اللّه ما يستحق ـ.

كما أوضحتم ـ أثابكم اللّه ـ تعلّق تلميذه الشيخ عبدالفتاح أبو غدّة به، وولاءه له، وتبجّحه باستطالة شيخه المذكور في أعراض أهل العلم والتقى، ومشاركته له في الهمز واللمز.

وقد سبق أن نصحناه بالتبرؤ منه، وإعلان عدم موافقته له على ما صدر منه، وألححنا عليه في ذلك، ولكنه أصرّ على موالاته له، هداه اللّه للرجوع إلى الحق، وكفى المسلمين شرّه وأمثاله.

وإنا لنشكركم على ما كتبتم في هذا الموضوع أن يجزيكم عن ذلك خير الجزاء، وأفضل المثوبة، لتنبيه إخوانكم إلى المواضع التي زلّت فيها قدم هذا المفتون ـ أعني محمد زاهد الكوثري ـ كما نسأله سبحانه أن يجعلنا وإياكم دعاة الهوى، وأنصار الحق، إنه خير مسئول، وأكرم مجيب.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

الرئيس العام

لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الختم[1]

---

(١) مطبوع مع «براءة أهل السنة» (٣ ـ ٤) ط. ثانية في الرياض ١٤٠٨ ـ ١٩٨٧م.

*** امتيازات الكوثري:**

تقدّم أن الكوثري سلّم على إسلامه عدة مرات في عداوة شيخ الإسلام الذي يعتبر نصيرًا لمذهب السلف. ومن ذهب في الحنق على أئمة الأمة وعلمائها هذا المذهب الردي، وتعصّب «الكل من يحسب أنه يتصل بدم جركسي[١، ٢]».

يمتاز الكوثري على غيره، في عداوة مذهب السلف الصالح، بأمور عديدة. ومن أهمها:

*** الافتراء والكذب:**

كان الكوثري «يرتجل الكذب ويغالط»، ونسب إلى بعض العلماء والرواة ما لا يوجد في الكتب، للتشكيك في رواياتهم، تحقيقًا لهدفه، وشفاءً لغيظه منهم. وإليكم بعض الأمثلة:

١ ـ افترى على الحفاظ «أبي محمد العسّال» أنه ضعّف «أبا الشيخ الأصبهاني»، بدون أن يذكر مصدرًا لهذا الكلام. فلما راجعه فضيلة الشيخ سليمان الصنيع (عضو مجلس الشورى، ومدير مكتبة الحرم المكي سابقًا) في داره بمصر، وسأله عن ذلك، فلم يحصل على نتيجة منه. فقال الشيخ الصنيع:

«ولو كان صادقًا فيما نسبه إلى «أبي أحمد العسّال» لأوضحه لي حين سؤالي له، والذي يظهر لي أن الرجل يرتجل الكذب ويغالط...»[٣].

---

(١) «الانتقاء» لابن عبدالبر (ص٣ ـ كلمة الناشر القدسي).

(٢) انظر إلى مقالة العلامة محب الدين الخطيب في مقاله «عدوان على علماء الإسلام يجب أن يكون له حد يقف عنده» المطبوع في مجلة الزهراء (٦/ ٤٣٣).

(٣) «طليعة التنكيل» للمعلمي (١/ ٣٤).

٢ ـ من كذبه وافترائه أنه نبز الإمام ابن قيم الجوزية بلقب «ابن زفيل» زاعمًا أن «زفيلاً» اسمًا لجدّه من قبل أمه. وأراد بنبزه هذا تحقيره على عادة العرب. كما قال المشركون في حق النبيّ ﷺ: «أمر أمر ابن أبي كبشة»، وهو جدّ النبيّ ﷺ من قبل أمه.

ولما سأله الشيخ أبو الفيض أحمد الغماري: «أين وجدت أن ذلك اسم لجدّ ابن القيم لأمّه فلم يجب بإيجاب»[١].

٣ ـ من افترائه واجترائه على الكذب أنه ذكر في «ذيول تذكرة الحفاظ» (ص١٨٥ ـ بتحقيقه) في ترجمة الشيخ المفيد شمس الدين محمد بن خليل المنصفي الحنبلي الحريري (ـ ٨٠٣هـ) بعض مخازيه ثم قال:

«وهذا الشيخ الحرّاني ـ يعني ابن تيمية ـ مع كونه ألّف في إبطال الحيل تراه، وأتباعه من أكبر المجترئين على تحليل المحرّم، وأنهم كانوا يتقاضون ممن وقع في مأزق من أمر النكاح والطلاق نحو خمسة دراهم، فيفتون له»[٢].

* الخيانـــة:

اشتهر الكوثري بالخيانة في النقل عند أهل العلم الفضلاء. وهذا أمر مفروغ منه لا يحتاج إلى مراجعة.

◘ قال العلامة المعلمي:

ومن فواقره: تقطيع نصوص أئمة الجرح والتعديل، يختزل منها القطعة التي توافق غرضه، وقد يكون فيما يَدَعُه من النص ما يبيّن أن معنى ما

---

(١) «ابن قيم الجوزية» للدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد (١٨ ـ ١٩) سمّى الكوثري ردّ السبكي على ابن القيم «السيف الصقيل في الردّ على ابن زفيل» ونبزه بهذا اللقب سلامة العزامي الحلولي تبعًا للكوثري في كتاب «فرقان القرآن» (١٣٥، ١٣٧).

(٢) راجع «الرد الوافر» (ص٨٤ ـ تعليق زهير الشاويش).

يقتطعه غير المتبادرمنه عند انفراده. . . »[1] .

☐ وقال الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد:

«وقد فضح في هذا من أهل العلم، بل من أصدقائه وخاصته، منهم حسام الدين القدسي في مقدمة (الانتفاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء). ومنهم أحمد وعبدالله ابنا الصديق الغماري. وهو لا يرى شيئًا غير أبي حنيفة. ولذلك لقّبه أحمد الغماري في كتاب «بدع التفاسير» (ص١٨٠) بقوله: «مجنون أبي حنيفة»[2] .

* **الغدر والخداع:**

من بلغ به الجنون إلى هذا المستوى المتدني كيف ينجو من الغدر والخداع؟!.

وقد غدر الكوثري، صاحب الفضل الكبير عليه حينما خالف بعض تعصباته الباردة ألا وهو «شيخ الإسلام مصطفى صبري» (آخر مشايخ الإسلام في الدولة العثمانية). فكيف بمن غيره[3] .

أما خداعه السيد حسام الدين القدسي (ناشر كتبه وتعليقاته وحواشيه)، فأشهر من أن يذكر. ولمّا اطلع على «دخلة في علمه وعمله» أعلن براءته من تعليقاته الحاقدة على أئمة الإسلام قائلاً:

«خيفةً أن أشاركه في الإثم، إذ أنا سكتُّ عن جهله بعد علمه، سقتُ هذه الكلمة الموجزة معلنًا براءتي مما كان من هذا القبيل»[4] .

---

(١) راجع الأمثلة على ذلك في «طليعة التنكيل» (ص٥١).

(٢) راجع «ابن قيم الجوزية» (٢٠ ـ ٢١) مفصّلاً.

(٣) «المقابلة بين الهدى والضلال» (ص٨٦ ـ تعليقًا).

(٤) «الانتقاء» (ص٣ ـ مقدمة القدسي).

فحذارِ حذارِ من تعليقات الكوثري على الكتب، التي تغيّر التاريخ، وتشوّه الحقائق بكل خسّة ودسيسة.

*** الفجـور:**

فجور الكوثري مع خصومه، ووقوعه فيهم فحدّث عنه ولا حرج. وما تقدّم من مخازيه في هذا الأمر يكفي لمن يتعظ ويعتبر[1].

📖 قال الدكتور بكر بن عبداللّٰه أبو زيد:

«فالكوثري خصم ملدّ ليس لابن القيم فحسب، بل لكل من ليس حنفيًّا. ومن أراد كشف ذلك فلينظر كتاب «التنكيل» للمعلمي، وغيره من كتب العلماء، التي أبانت عن تحامله وطيشه وتجاسره على علماء السلف من الصحابة ﷺ فمن بعدهم...»[2].

*** التمادي في الباطل:**

ما تقدّم من الشائنات كفى لمعرفة هذا الرجل، ومن حذا حذوه في عداوة علماء السلف عامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية خاصة. فكيف بالزوائد[3] التي هي أشدّ خطرًا على دين الإنسان وعلمه»[4] اهـ.

* * *

---

(١) ومن يريد الزيادة فليراجع «براءة أهل السنّة» للدكتور بكر بن عبداللّٰه، يجد هنالك الخطوط العريضة لعواهنه وعواقبره ومخزيه.

(٢) «ابن قيم الجوزية» (ص٢٠).

(٣) مثل البدعة، واتباع الهوى، والحقد، والحسد، وغيرها من العظائم.

(٤) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية» لصلاح الدين مقبول (٢/ ٥٢١ ـ ٥٣٥).

* **الشيخ طاهر الجزائري رائد الإصلاح التعليمي في بلاد الشام في العصر الحديث (١٢٦٨هـ-١٣٣٨هـ)-(١٨٥٢-١٩٢٠م):**

☐ قال عنه صاحبه الشيخ جمال الدين القاسمي: «هو الشيخ المفيد، والمرقي الوحيد»[١].

☐ وقال الشيخ رشيد رضا «العلاّمتان الجزائري والقاسمي كانا سيّين في سعة الاطلاع وحسن الاختيار، إلاّ أن الجزائري أكثر اطلاعًا على الكتب، وولوعًا بالاستقصاء والبحث، والقاسمي أشد تحريًا للإصلاح وعناية بما ينفع الناس»[٢].

☐ وقال الشيخ القاسمي: «الشيخ طاهر أعجوبة في عصره في الذكاء، وفي التنقيب على الآثار العلمية، فهو شيخها في عصره بلا ريب، بل وفيما قبل عصره»[٣].

☐ وقال ظافر القاسمي عنه وعن والده جمال الدين القاسمي: «من آيات اللَّه على خلقه، وعاملاً كبيرًا في اليقظة الفكرية والإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي».

☐ قال عنه تلميذه محب الدين الخطيب وفي عنايته به بعد وفاة والده وهو صغير «ثم قيّض اللَّه لهذا اليتيم الضعيف أستاذًا في أسمى مراتب الإنسانية، فأخذ بيده، وأحسن توجيهه في الطريق الذي هداه اللَّه إليه في الحياة: الشيخ طاهر، فهو الإنسان الكامل، هو علامة الشرق والإمام الحكيم.. فهو أبوه الروحي بعد والده الراحل»[٤].

---

(١) «جمال الدين القاسمي وعصره» لظافر جمال الدين القاسمي (ص٤٢٧).

(٢) المصدر السابق (ص٤٤١). (٣) المصدر السابق (ص٤٣٢).

(٤) «مذكرات محب الدين الخطيب» لمحب الدين الخطيب (ص٦ ـ ٧) ط١، (ص٩١) ط٢.

◻ وقال تلميذه الأستاذ محمد كرد علي أول رئيس لمجمع اللغة العربية في دمشق: «كان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، والإقدام على التأليف والنشر، وإشرابي محبة الأجداد، والتناغي بآثارهم، والحرص على تراث حضارتهم، أستاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري، فما زلت ألزمه منذ اتصلت به إلى أن ذهب إلى ربه»[1].

◻ وقال عنه تلميذه الشيخ محمد سعيد الباني: «وصفوة القول؛ إنه كان من أعظم أركان النهضة العلمية والحركة الفكرية في البلاد السورية خصوصًا دمشق»[2].

◻ وكانت الصلة بينه وبين مجدد السلفية بالشام الشيخ عبدالرزاق البيطار أقوى الصلات. وكانت أقوى صلاته بصاحبه جمال الدين القاسمي، لما كانا يشتركان به من حس إصلاحي متوقد، ودفعا عربة التجديد الديني والفكري. واستفادا من مجلس الشيخ عبدالرزاق البيطار مجدد مذهب السلف في الشام، استفادا من علمه وعقيدته الأثرية، وهديه وأخلاقه المرضية.

◻ ولقد تربى الشيخ طاهر وتأثر بشيخه عبدالغني الغنيمي الميداني الذي كان «على جانب عظيم من التقوى والورع، يمثل صورة من السلف الصالح، فطبع الشيخ طاهرًا بطابعه، وأنشأه على أصح الأصول العلمية الدينية، وكانت دروسه صافية المشارب، يرمي فيها إلى الرجوع بالشريعة إلى أصولها، والأخذ من آدابها بلبابها، ومحاربة الخرافات التي استمرأتها طبقات المتأخرين، وإنقاذ الدين من المبتدعين والوضّاعين»[3].

---

(١) «محاضرات عن محمد كرد علي» لشفيق جبري (ص٣٢، ٣٣) ـ مؤسسة الرسالة.
(٢) «تنوير البصائر في سيرة الشيخ طاهر» لمحمد سعيد الباني (ص٧٠) ـ الطبعة الأولى.
(٣) «كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي (ص٩) ـ دار الفكر ـ دمشق.

□ قال الشيخ محمد كرد علي عن أستاذه طاهر الجزائري: «سعى الشيخ حياته لنشل المسلمين من سقطتهم، ونشر العلوم القديمة والحديثة بين أبنائهم، ولولا ما قام به من التذرع بجميع ذرائع الإصلاح لتأخرت نهضة المسلمين في الشام أكثر من نصف قرن»[١] .

□ وقال الأستاذ علي الطنطاوي: «كان من المؤلفين المكثرين، إنْ عُدَّ المؤلفون المكثرون، وكان من أئمة المربين، إنْ ذُكِر المربّون، وكان من رؤوس المصلحين، ومن العلماء العاملين، وكان من الأركان الكبار في هذه النهضة التي نأوي اليوم إليها، ونتفيأ ظلالها، وننعم بخيراتها»[٢] .

□ وقال الدكتور عدنان الخطيب: «إن تاريخ النهضة الحديثة في مصر والشام مرتبط أشد الارتباط بحياة ثلاثة من عظماء الرجال، تدين البلاد العربية لهم، كما تدين البلاد الإسلامية بإيقاد أول شعلة أيقظت العرب والمسلمين من سباتهم... هؤلاء الثلاثة هم: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وطاهر الجزائري»[٣] .

□ وقال الدكتور مازن المبارك: «لقد كان الشيخ طاهر شعلة نشاط عربي وإسلامي، ثقافي وفكري وإصلاحي، وكان واحداً من أكبر رواد النهضة أثراً في بلاد الشام»[٤] .

□ وقال الأستاذ سامي الكيالي:

«استطاع هذا المصلح أن يخلق مدرسة في دمشق تقول برأيه، وتسير

---

(١) «المذكرات» لمحمد كرد علي (٣/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤) ـ مطبعة الترقي بدمشق.

(٢) «رجال من التاريخ» لعلي الطنطاوي (ص٣٨٠).

(٣) «الشيخ طاهر الجزائري» لعدنان الخطيب (ص١١٩). لم يكن الشيخ طاهر الجزائري وهو السلفي المنهج على منهج الأفغاني أو محمد عبده وسيأتي الحديث عنهما فيما بعد.

(٤) «الشيخ طاهر الجزائري» مقال لمازن المبارك.

وفق منهجه، وهي مدرسة ضمّت الكثير من الأعلام، والتي مهّدت لنهضة دمشق الفكرية والعلمية، وتلك النهضة التي تمتع بثمراتها أبناء هذا الجيل[1] .

◻ وقال الأستاذ نجاة قصاب حسن:

«والأهم في حياته أنه دائرة معارف كاملة تجمّعت في عقل إنسان واحد، فكان مطلعًا على سياسة، ومصلحًا حكيمًا، لم يدخر وسعًا في بث العلوم والمعارف، ومجتهداً في الدين بما يوافق روح العصر.. ولا أرى أن معرفة أي من مثقفينا بتاريخ الثقافة في هذا القطر (السوري) تكتمل إن لم تبدأ من طاهر الجزائري وأمثاله من العلماء المصلحين»[2] .

◻ وإذا كان العالم لا يمتاز عن غيره من العلماء إلا إذا تسلّح برؤية ومشروع، واستهدف في حياته أهدافًا لا يرى لحياته وأعماله قيمة إذا لم تخدمها وتسعى به إلى الوصول إليها، فإن الشيخ طاهر الجزائري ـ رحمه اللَّه ـ كان يهدف من وراء كل جهده وأعماله ومؤلفاته إلى إنهاض الأمة الإسلامية من كبوتها الحضارية، وتسليحها بكل ما يلزمها، كي تستأنف دورها في رعاية أبنائها، وتوفير أسباب الترقي والتقدم لهم في جميع مجالات الحياة، ومن ثمّ القيام بدورها في قيادة العالم.

◻ كان للشيخ طاهر أثره العظيم في دفع الحركة الثقافية بدمشق، إذ أنه تولى أول أمره التعليم وشارك في تأسيس جمعية علمية اجتماعية مع بعض العلماء والوجهاء سُميت «الجمعية الخيرية» ثم التقى بالوالي مدحت باشا وأقنعه بضرورة إنشاء مدارس حكومية حديثة، واقترح عليه أن تتولى الجمعية المذكورة تنفيذ الخطة المرسومة، وعلى ذلك استطاع بمعونة بعض الشباب

(١) «الأدب العربي المعاصر في سورية» لسامي الكيالي (ص١٠٢) ـ طبع دار المعارف.

(٢) «طاهر الجزائري لنجاة قصاب حسن ـ جريدة الثورة السورية عدد ٨١٥٩ (١٨/١/١٩٩٠م).

تأسيس تسع مدارس اثنتان منها للإناث. ولما عيِّن مفتشًا عامًّا لمعارف سورية بدأ جهودًا إضافية جبارة لإصلاح أساليب التعليم والدعوة لطلب العلم.

□ وعمل إلى جانب ذلك على تأسيس دور عامة للكتب منها المكتبة الظاهرية بدمشق، وبذلك عرفت دمشق أول مكتبة عامة في تاريخها الحديث. وجمع لها الشيخ طاهر بتفويض من الحكومة ما تبقّى من المخطوطات الموقوفة في الجوامع والمدارس بعد أن كان قد سُرِق كثير منها أو تلف، ولقي في سبيل ذلك عنتا ومشقة حتى إنه هُدِّد بالقتل، ولم يقتصر دوره على تأسيس المكتبات العامة في دمشق وحدها، بل تعدّاها إلى غيرها من المدن مثل حماة، وحمص، وطرابلس وعهدت الحكومة العثمانية إليه وظيفة التفتيش على خزائن الكتب في ولاية سورية ومتصرفية القدس. وفي هذه الفترة ساعد الشيخ طاهر الشيخ راغب الخالدي في إنشاء المكتبة الخالدية في القدس، وأعدّ لهذه المكتبة فهرسًا خاصًّا.

واستطاع إقناع الوالي مدحت باشا بضرورة تأسيس مدارس حكومية تدرس فيها العلوم بالعربية، وتعنى بتدريس آداب هذه اللغة.

□ تحدّى الشيخ طاهر بمشاريعه هذه «النشاط التعليمي للإرساليات التبشيرية الأجنبية التي بدأت تتوالى على دمشق بدءاً من «إرسالية الآباء العازاريين» إلى دمشق سنة ١٧٥٥م والتي أسست مدرسة لها بعد عشرين سنة من وصولها»[(١)] .

وأقنع ـ رحمه اللَّه ـ رجال الحكومة العثمانية بأن مدارس الإرساليات الأجنبية كلها تدرس العربية وآدابها خلافًا لمدارس الحكومة العثمانية، فإذا طالت هذه الحال نشأ في المدارس الأجنبية جيل له تفكير خاص ومذاهب

(١) «الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث» لحازم زكريا محيي الدين (ص٣٤) ـ دار القلم بدمشق.

سياسية خاصة، فيجب مقاومة هذه النزعات بالطريقة التي يتبعها الأجانب.

❑ وجاب الشيخ طاهر القرى والمدن في سورية ولبنان، وفلسطين، ومصر، والحجاز، وتركية وفرنسا، مفتشا عن الكتب والمخطوطات، داعيًا إلى ما يؤمن به من قيم وأفكار تجديدية، محرّضًا الناس في كل مكان على افتتاح المدارس وتأسيس المكتبات العامة.

ولما التقى بوالي مصر عباس حلمي الثاني في ٧ صفر ١٣٢٨هـ أشار على الوالي، بتأسيس مدرسة للغة العربية تُقصد من كل جهة، كما أشار عليه بتأسيس دار للترجمة، وعمل مطبعة لطبع ما يُترجم، وجعل مصححين للترجمة.

* **حلقة الشيخ طاهر الفكرية:**

كان محور وهدف هذه الحلقة هو تعلم العلوم الحديثة، وتدارس التاريخ والتراث الإسلامي، واللغة العربية وآدابها، والدعوة إلى التمسك بمحاسن الأخلاق والقيم الإسلامية، والانفتاح على الغرب من خلال الأخذ بالصالح من مدنيته الحديثة، ونبذ كل ما لا ينسجم مع الشريعة والعقيدة الإسلامية، وكانت تدور في هذه الحلقة أحاديث ومحاورات عن الوسائل التي يجب الأخذ بها لرفع مستوى التعليم والتفكير عند المسلمين في الدولة العثمانية.

وكان من أهم روّاد هذه الحلقة التي ترأسها الشيخ طاهر الجزائري علماء مصلحون، وكتاب معروفون كالشيخ عبدالرزاق البيطار مجدد السلفية بالشام، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ سليم البخاري والشباب من أمثال: محمد كرد علي، ومحمد سعيد الباني، ومحب الدين الخطيب، والشيخ محمد علي مسلم، ورفيق العظم، وعبدالحميد الزهراوي، وسليم الجزائري.

كان ـ رحمه اللَّه ـ يقول: «إن العلم أنشودة المتعلم أينما وجده تعلمه،

كما أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها»[1] .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول: «تعلموا كل ما يتيسر لكم تعلمه، ولو لغة مالطة، فقد يجئ زمان تحتاجون إليها، وإياكم أن تقولوا: إنها لا تدخل في اختصاصنا، فالعلم كله نافع، والمرء يتعلم ما حسنت به الحياة»[2] .

◻ وكان للشيخ رأى طيب في طريقة إصلاح الأمة والنهوض بها وذلك عن طريق التربية والتعليم بالتدرج فيقول:

«إن الإصلاح على اختلاف أنواعه لا بد أن يكون على سبيل التدرج، وفقًا لمقتضى السنن الطبيعية؛ لأن ما يأتي على جناح السرعة لا يثبت أن يرجع من حيث أتى»[3] .

قال: «إن أفضل الطرق في إنهاض شعب تثقيفه بثقافة العصر، وثقافة الدين، وهذه طريق طويلة، ولكنها أمينة الغائلة، لا تخرج عن طريقة النشوء الطبيعي»[4] .

◻ وقال محمد كرد علي ملخصًا منهج شيخه الجزائري: «وخطته الإخلاص والعمل على النهوض بالأمة من طريق العلم، وبث الملكات الصحيحة في أهل الإسلام، وثورته ثورة فكرية لا مادية، ويقول: إن هذه الطريق يطول أمرها، ولكن يؤمن فيها العثار، والسلامة محققة ثابتة»[5] .

* دعوته إلى الاجتهاد:

ولقد دعا الجزائري إلى الاجتهاد، ونبذ روح التعصب المذهبي.

---

(١) «تنوير البصائر» للباني (ص٧٨) ط١.

(٢) «المذكرات لمحمد كرد علي» (٣/ ٧١٩).

(٣) «تنوير البصائر» للباني (ص٧٩).

(٤) «المذكرات» لمحمد كرد علي (٣/ ٧١٩).

(٥) «كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي (ص١٤).

□ قال الأستاذ محمد كرد علي: «هذا وليس الشيخ في مذهبه على الحقيقة حنبليًّا ولا مالكيًّا ولا حنفيًّا، بل مسلمًا يأخذ من أصل الشريعة باجتهاده الخاص، ويُحسن ظنه بأئمة المذاهب المعروفة، ويتجهّم لمن يتجرأ على النيل من أحد العلماء عامة، ويعمل بما صحّ له من الدليل في الكتاب والسنة»[١].

* دعوته إلى اقتباس النافع من علوم الغرب ومدنيته مع نقده للمدينة المادية:

كتب في رسالة له:

«إن الاقتباس من الأمم المترقية، دليل على النباهة، لا كما يظن البله من أن في الاقتباس غضاضة، ونريد بالاقتباس ما يشعر به هذا اللفظ من تلقي الأمور النافعة، لا كما يظنه المتكايسون من أن الأمم الراقية ينبغي أن يؤخذ منها كل شيء حتى أدّاهم الأمر أن يقلدوهم في الأمور التي يودون هم أن يخلصوا منها»[٢].

□ وقال الشيخ الجزائري ناقدًا المدنية المادية:

«وأرجو أن يكون ما حصل لكم من المروّعات، زائدًا في نشاطكم في إفادة الأمة، فإنها في احتياج شديد إلى من ينير لها الطريق الأقوم، من أرباب الوقوف والإخلاص، وأعظم ما تحتاج إليه هو أمر الأخلاق وما يتعلّق بها، ومعرفة الأمور العمرانية على وجه لا يكون فيه إخلال بمعالي الأمور، وتنبيههم على عدم التعويل على المدنية، التي كان الغربيون قديمًا يفتخرون

---

(١) المصدر السابق (ص١٣).
(٢) المصدر السابق (ص٣٤).

بها، ويزدرون بمن لا يتابعهم عليها، مما هو مبني على مجرد مراعاة الأمور المادية دون غيرها، وهي التي جلبت هذه المصائب الحاضرة، . . . ومما ينبغي أن تحثوا عليه تعلّم صنعة ما، أي صنعة كانت، ولا يكون أحد خاليًا عنها، وتجعل هذا مبدأ جديدًا لهذا العصر والتعويل على الرياضة الجسمانية»[1] .

◻ ومن آراء الشيخ التربوية:

«١ ـ إدخال مبادئ الصنائع في المدارس الابتدائية.

٢ ـ إدخال التربية العملية فيها، وذلك بتعويد التلاميذ على الصدق.

٣ ـ السعي في مدرسة القراءات السبع، مثل ما كان من قبل، ولا ينبغي أن توضع هذه الأشياء في المذاكرة، أو يخطب فيها، فإن مثل ذلك ينبغي أن يخطب فيها بعد أن تصير»[2] .

* دفاع الشيخ طاهر عن التاريخ الهجري واللغة العربية:

◻ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «عجبت لمن يسعون في أن نهجر التاريخ الهجري، ويفاتحوننا في ذلك، كأنهم لا يعلمون أنّا نعلم ما يرمون إليه عن بُعد، لكل أمة شعار، إذا تركته طُمع فيها، واستضعف جانبها، وربما صارت بعدُ مدمجة في غيرها. وقد سعى أناس منذ عهد بعيد، في أن يصفوا ما يقوي أمر الإسلام عمومًا، والعربي خصوصًا، فنجحوا بعض النجاح، فطمعوا في أن يقضوا عليه، فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من إضعاف أمر اللغة العربية، والسعي في تبديل خطها، والتزهيد في الكتب التي كتبت بها، فجعلوا ذلك دأبهم وديدنهم، حتى أثّروا في كثير من أبناء جلدتنا، الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء، والوقوف على أسرار الأمم، فكان ما كان

---

(١) «كنوز الأجداد» (ص٣٦).

(٢) المصدر السابق (ص٣٧).

مما هو معروف، ثم زاد الأمر، فطمعوا في تبديل التاريخ الهجري، وساعدهم في ذلك (جبت) مصر، ففرحوا فرحًا لا مزيد عليه. وقال بعضهم: الآن شفينا الغليل من هذه الأمة، غير أنّ كثيرًا ممن انتبه لهذا الأمر سعى في إعادته على قدر الإمكان، فامتعض أولئك القوم، وصاروا يلمزون كل من يسعى في ذلك».

وهذه المسألة نظرًا لتعلقها بتاريخ تأثر الشرق، لا يتيسر أن يكتب فيها أقل من نحو ثلاثين صفحة في نحو ثلاثين يومًا. وليت شعري كيف يُلام المسلم على أن يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجري، فهل انقرض التاريخ الهجري؟ وهل يريدون أن ينقرض وأصحابه أحياء؟

فإن قالوا: إن المقصود توحيد التاريخ في الأمم، وأوربة هي القوية الآن.

قيل: إن أوروبا لها تاريخان: أحدهما شرقي والأخر غربي، وكل يؤرخ به قوم منهم، فهل أوقف ذلك التجارة أو أثّر في المدنية شيئًا؟ ولِمَ لا يكلفون تغيير مكاييلهم وموازينهم وأذرعهم، لتتحد المقاييس في الأمم، وتغيير ذلك ليس فيه غضاضة بخلاف التاريخ. وقد رأيتهم يتعذرون عنه، ويعدّون ذلك متانة في الأخلاق، فانظر ما وصلنا إليه»[1].

* جمال الدين القاسمي المصلح الكبير ووقوفه ضد المقلدة والقصّاص والمخرّفين:

❑ كتب إليه مجدد السلفية بالشام الشيخ عبدالرزاق البيطار:

يا مقيما مدى الزمان بقلبي	وبعيدًا بشخصِه عن عياني
أنت روحي إن كنت لست تراها	فهي أدنى إليّ من كل داني

(١) «كنوز الأجداد» (ص٤٠ ـ ٤١).

□ وقال هو عن نفسه: «ليفعل أعدائي بي ما يريدون، فأنا أعتبر حبسي خلوة ونفي سياحة، وقتلي شهادة» «لقد رتبت خطة أسير عليها لخدمة العلم وإرجاع مجد الإسلام والقيام بالرسالة التي ينبغي أن يقوم بها كل مصلح، وأهم أهدافها: بيان عظمة الإسلام، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وتنبيه الناس إلى ما دخل عليه من بدع وخرافات هي غريبة عنه»(١).

كان النهج الغالب على أهل العلم في دمشق قبل القاسمي الأخذ بأحد المذاهب الأربعة المعروفة التي استقرّ عليها الفقه، لا يخرج أحد من العلماء أو طلاّب العلم عنها ظهر القاسمي في الشام يوم كان فيها أفراد ورثوا عن آبائهم وأجدادهم عمائم العلماء وألقابهم والرواتب التي كانوا يأخذونها من أوقاف المسلمين، ولم يرثوا عنهم من العلم بتلك الكتب شيئًا، فاتُّهِمَ العلم. ولم يفتهم صرف الأوقات كلها في استنباط الحيل للتمتع بجاهه ومجده تبعًا للتمتع بألقابه وأزيائه ونقده؛ فكان من أكبر الخطوب عليهم أن يروا في الشام عالمًا يتصدى للتدريس والتصنيف ويبين حاجة البلاد إلى الإصلاح والتجديد(٢).

كما كان عصره عصراً كثرت فيه الطرق الصوفية وقامت بجانبها الخرافات والضلالات والانحرافات. . . وجمد الناس على حالة من التأخر لا يريدون الخروج عنها مع هبوب رياح التغيير من الغرب، ومع الاضطرابات في جميع جوانب الحياة العامة.

ولم يكن قبل القاسمي في دمشق كذلك أثر للدعوة السلفية التي انقطعت بعد ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، فجاء الشيخ جمال الدين والشيخ عبدالرازق البيطار مجدد السلفية في بلاد الشام بدعوة جديدة على المدينة تقريبًا، بل على بلاد الشام دهش لها الأهالي فضلاً على الحكومة التي

---

(١) «جمال الدين القاسمي» للدكتور نزار أباظة (ص٧) ـ دار القلم بدمشق.
(٢) مجلة المنار (٧/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠).

أخذت تتعقبها ولا تغفل عنهما ألبتة، وخشيت أن يستقطبا الناس بدعوتهما كما صنع محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية، وأدركت الحكومة أن قدرات الشيخين تسير بهما نحو دعوة منظمة كدعوات المصلحين ممن سبقوا فكانت حادثة المجتهدين عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) ووجهت التهمة إلى القاسمي وعبدالرزاق البيطار وجمع من أصحابهما بأنهم يردوا على الأئمة المجتهدين، واحتجز القاسمي من دون زملائه كلهم في السجن، ولم يخرج إلا بشفاعة القاضي ووساطته، وادعى الناس ومعهم المفتي أن القاسمي يدعو إلى مذهب يسمى المذهب الجمالي. وكان لهذه الحادثة أكبر الأثر في توجيه تفكيره، وفي طريقة التأليف ومواعظه ودروسه العامة. قال الشيخ القاسمي:

زعـــم النـــاس بأنـــي ... مذهبي يُدعى الجمالي
وإليـــه حينمـــا أفـ ... ـتى الورى أعز ومقالي
لا وعمـــر الحـــق إنـي ... ســـلفي الانـتـحـــال
مذهبي مـا في كتـــاب ... الله ربـــي المتـعـــالي
ثم ما صـح من الأخـ ... ـبــار لا قيـــل وقـالِ
أقتفـــي الحـــق ولا أر ... ضـى بـــآراء الرجـــال
وأرى التقليـد جهـــلاً ... وعمًـــى في كـل حـــالِ

▫ وقال في هذا المعنى:

أقـــول كمـــا قال الأئمة قبلنا ... صحيح حديث المصطفى هو مذهبي
أألبس ثـــوب القيـــل والقـــال باليًا ... ولا أتحـــلّى بـــالـــرداء المذهـــبِ[1]

▫ وقال:

زعموا بأن من اقتفى الآثارا ... أولى الذين تقدّمـــوا الإنـــكارا

(١) «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» لعبدالرزاق البيطار (١/ ٤٣٧)، ومجلة المنار (٨/ ٦٣٣).

كلا فأجر الاجتهاد لهم سوى متعصب يتأوّل الأخبـــارا[١]

☐ وفي عام ١٣٢٤هـ أقام متعصبو المذاهب عليه وعلى الشيخ البيطار تهمة جديدة فاتهموهما بالوهابية، وكانت تهمة غير هينه، ونجى اللَّه منها القاسمي بسفره حينئذ إلى بعلبك وبيروت وصيدا.

☐ وفي عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) زار دمشق السيد رشيد رضا، فاستقبله القاسمي والبيطار وثلة من العلماء وصحبوه إلى المسجد الأموي غداة يوم وصوله، فقرأ فيه درسًا، ووعد بقراءة درس آخر في اليوم التالي، لكن فتنة هوجاء ثارت عند ذلك، وجُوبة الضيف بالأسئلة الغريبة، فكثرت الضوضاء، وأحاط به خصومه ومعهم جماعة من العامة، فقذفوه بما يغيظ من الكلام، وهاجوا به.. ثم نادى أعداؤه بعد صلاة التراويح في ذلك اليوم بذهاب الدين وضيعته، وصاروا يندبون ويبكون ويصرخون، وحرّضوا العامة على التجمّع أمام دار الحكومة ففعلوا، وتبعهم خلائق لا يحصون في ذلك اليوم المزدحم، وجعلوا يصرخون ويشتمون السيد رشيد الذي اضطر لتهدئه الفتنة إلى مغادرة البلد، ولم يكن مضى على وصوله إليها سوى يومين، وعندئذ تفرّد مثيروا القلاقل بالقاسمي، وأشاعوا في البلدة أنه هو الذي دعا السيد إلى الزيارة، وأشعلوا عليه حربًا اضطرته إلى لزوم بيته ثلاثة أشهر، فلم يغادره إلا لصلاة جمعة في مسجد صغير قرب داره، وعانى في أثناء ذلك ضيقًا شديدًا، ولعله كان يحاذر على نفسه الشر والأذى، وبقيت أسرته «تكابد الأكدار والأحزان ولا أحزان المآتم»[٢] .

☐ وفيها قال الأمير عادل أرسلان:

حزب التقهقر ما لعينك دامية تبكي أسى وعن الهدى متعامية

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (٥٩٤ ـ ٥٩٥).

حزب التقهقر ما لقلبك خافقا　　　تسقي الثرى بمدامع لك هامية
يا أهل ذاك الحزب حزتم عندنا　　　شرف التقهقر رتبة متسامية

* * *

ما دخل وهّابيّتي في أمركم　　　ماذا اخترمت لتُنكروا إسلاميه
سبحان من سمك السماك ومن برى　　　هذي الخلائق لا أطيل كلاميه[1]

□ وفي رمضان من عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) يُدعى القاسمي وصديقه البيطار لسؤالهما عن الوهابية، وعدد الوهّابيين في الشام. وقد فُتشت كتبه أكثر من مرة، وأُخذ منها ثلاثة أكياس، ومُنِع من طباعة بعض مؤلفاته.

*** جهر الشيخ القاسمي بالأخذ بالاجتهاد:**

أول ما جهر به جمال الدين القاسمي من أفكاره في الشام هو الأخذ بالاجتهاد، حاول فتح الباب الذي أُغلق منذ زمان طويل، ووضعت عليه الأقفال الثقال... فروّع بذلك أصحاب المذاهب، وقامت بينه وبينهم حرب باردة أو ساخنة منذ ذلك الحين، وسمّوه بما سمّوه.. وسماهم هو الحشوية الجامدين. وقال فيهم: إنهم يجمدون على العبارات في كتب الفقه «يذيبون فيها أدمغتهم ليفهموها ويستنبطوا منها منطوقًا ومفهومًا، ويضيعوا أوقاتهم بما لا يفيد الأمة شيئًا مذكورًا. ولو صرفوا أوقاتهم لفهم القرآن والسنة لأتوا منهما بالعجب العجاب، ونشلوا الأمة من تأخرها وجمودها»[2].

وكان يقيم الحجة على الفقهاء من أصحاب المذاهب الذين لا يخرجون عن أقوال الأئمة قيد أُنملة، مع «أن مذهب أبي حنيفة الآن هو مذهب تلميذيه

(١) «جمال الدين القاسمي» للدكتور نزار أباظة (ص١٤٣ ـ ١٤٤).
(٢) «شيخ الشام جمال الدين القاسمي» لمحمود مهدي الاستانبولي (ص٥٨، ٨٤) ـ المكتب الإسلامي.

أو أحدهما على الغالب، وقد خالفا إمامهما في كثير من أقواله... وكان في حياته يُسَرّ بهما. وهذه هي طريقة الأئمة الأربعة»[١] . ولذا فيرى أن تقبل آراء كل فقيه قديم، ولكن على بصيرة وحجة، هي حجة إقامة الدليل والنقاش الصحيح[٢] .

وكان من حججه على الفقهاء أن الأئمة الأربعة أنفسهم كانوا يرفضون التقليد؛ لأنهم أمروا تلامذتهم بالاجتهاد ضمن مذاهبهم، لا أن يجعلوا كلامهم في ذاته حجة؛ واستشهد على هذا بكلام المزني في مختصره لكتاب «الأم» للشافعي الذي قال: «اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي - رحمه اللَّه - ومن معنى قوله لأقربه على من أراده، مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه»[٣] . وكان يقول: «ألم يقل الشافعي إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث، واضربوا بكلامي عرض الحائط! ألم يقل أبو حنيفة: لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يأخذ بكلامي!».

من أجل ذلك ارتضى القاسمي كتب المذاهب كلها وأخذ منها ما يحتاج إليه مع أخذه بالدليل، هذا حين كان يستحيل على فقيه أن يرضى برأي في غير مذهبه»[٤] .

□ وصرّح القاسمي لطلابه وقال: «إن مذهبي ألاّ أتقيّد بمذهب من المذاهب، بل آخذ من كل مذهب بماكان أقوى دليلاً»[٥] .

---

(١) المصدر السابق (ص٤٥).
(٢) المصدر السابق (ص٢٧).
(٣) المصدر السابق (ص٤٤)، وانظر «مختصر المزني» «المقدمة».
(٤) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (ص٦٠٦).
(٥) «شيخ الشام جمال الدين القاسمي» للاستانبولي (ص٨١).

ولشدة اهتمامه بالاجتهاد ومحاربة التقليد الأعمى اهتم بعلم الأصول اهتمامًا خاصًّا، فطبع كتبه وحثّ على التأليف فيه.

وكان يحمل على التعصب المذهبي الذي أدى لتأخر المسلمين وفساد أنظمتهم وضياع حقوقهم وهددهم بالهلاك؛ لأن الأمة تخضع لمذهب حاكمها؛ فأيام الأتراك حكمت المحاكم على مذهب الحنفية، وقبلها كان الحكم على غيره.. وقد توسع الأمر فقامت أربع محاكم على أربعة مذاهب، مما أدى للفوضى ونفور الناس وترك الشريعة، وهذا ما حصل حينما طلبت الحكومة العثمانية من فقهاء المذهب الحنفي أن يعدلوا من مجلة الأحكام الشرعية ما يتعذر تطبيقه لتغير الزمن فيأخذوا من المذاهب الأخرى، فأبوا تعصبًا، مدعين أن ذلك يعدّ تلفيقًا، مما دفع المسئولين دفعًا إلى الأخذ بالقوانين الأوروبية[١] .

كان تعدد المذاهب مع جمودها إذن يؤرقه.. وكان يريد أن يأخذ بالحسن الموافق من كل مذهب، ولقد تأثر في هذا بالشيخ محمد عبده الذي يسمعه يقول: «نحن في حاجة إلى مذهب ينتخب من المذاهب الأربعة» وعقب القاسمي على ذلك بالقول: «وهذا الكلام كان يدور معناه في خلدي من أزمان، إذ أنّ جعل الأمة أو بلد من البلاد أو قوم من الناس على مذهب واحد فيه من الحرج والعنت ما فيه، ودين اللَّه يسر.. وفي مجموع فروع الأئمة ما يعود على الأمة باليسر والتيسير، مع المحافظة على أصول الدين.. ولي نية بجمع كتاب في الفروع في ذلك»[٢] .

ويرى جمال الدين القاسمي أنه لا يجوز خلو الزمان عن مجتهد، وقد عرف لكل زمان مجتهدوه الذين ترجمت لهم كتب الرجال[٣] . ولا قيمة

---

(١) المصدر السابق (ص٨٤).

(٢) المصدر السابق (ص٧٠).

(٣) «كالضوء اللامع» للسخاوي، وحسن المحاضرة للسيوطي.

لإنكار بعض المتفقهة لوجودهم معتقدين أن الأئمة الأربعة في منزلة التشريع، لا في منزلة الضبط والتحرير[١] .

ولقد بسط الشيخ رأيه بالاجتهاد والتقليد في كتابه الفضل المبين[٢] فذكر أن «دعوى بعض المحققين خلو الوقت عن المجتهد المطلق لا دليل عليها، فهل عرف القائل بذلك جميع المسلمين وهم يعدون بمئات الملايين، وتحقق أن كل واحد منهم مقلد؟»[٣] ، «والله تعالى يوجب العمل بالأقوال مع الحجة التي تلزم المؤمن مستشهداً بالآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥]. ذلك لأن التقليد لا يرضاه إلا عامي أعمى أو عالم لم يصل إلى مرتبة كبار الفضلاء من عقلاء المتقدمين والمتأخرين»[٤] .

ويناقش مسألة شروط الاجتهاد التي وضعها بعض العلماء، قائلاً: «إذا لم يشترط الله تعالى هذه الشروط في كتابه، ولا رسوله في سنته، فمن أين تكون حجة يلقم بها كل من يدعي الاجتهاد؟ وأيضًا فهذه الشروط، إما أن يشترطها مجتهد، فليس قوله حجة على مجتهد غيره، أو مقلد، فأحرى ألا يكون كلامه حجة ولا مقنعًا»[٥] .

ومع أنه يقبل كثيرًا من هذه الشروط، لكنه يراها غير مستحيلة ما دامت مادة اللغة جُمعت ودُوِّنت، وجُمعت الأحاديث الشريفة، وانتشرت كتب الرجال والخلاف والفروع، «فهل يعسر بعد هذا كله أن يتوقف الذكي النبيه

(١) «الفضل المبين» للقاسمي (ص٨٠ ـ ٨٩).
(٢) «الفضل المبين» (ص٨٠ ـ ٨٩).
(٣) المرجع السابق (ص٨١).
(٤) المرجع السابق (ص٨٣).
(٥) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (ص١٠٣).

عن الحكم أو يشكل عليه الأمر . . وباب الاجتهاد أوسع مما يُضيِّقون»[(١)].

ثم يقول: «على أن من نظر إلى هديه ﷺ في تفقيه أصحابه وتعليمه إياهم قواعد الدين وكلياته في أيام يسيرة لكثير ممن يفد مؤمنًا من قبيلته، ويمكث أيامًا في حضرته ﷺ، ثم يرسله ﷺ داعيًا وهاديًا ومرشدًا»[(٢)] .

وهذا النص الأخير من كلام القاسمي مقبول على وجه الإجمال.

وأعجب القاسمي بابن تيمية وآرائه ومواقفه وصبره، ولكنه لم يقلده في كل شيء قال به ولما سأله بعض طلابه عن موقفه هذا قال: «ومن قال لك إنني مقلد لابن تيمية؟ إنما أدافع عنه وأنشر كتبه؛ لأنه مجتهد غير مقلد، وأقواله أقرب إلى الصواب من غيره؛ لأنه جاء متأخرًا عن الأئمة، وزاد اطلاعه على اطلاعهم، وناقشهم جميعًا»[(٣)] .

* هجوم القاسمي على صوفية زمانه[(٤)] :

وكان القاسمي بالمقابل حربًا على صوفية زمانه لا يزال يهاجمهم ويذكر خرافاتهم دون أن يذكر أسماءهم على عادته، إلا أنه يشير إليها في رسائله ومذكراته التي لا ينشرها. ولقد كان يسوءه منهم اثنان، يوسف النبهاني وأسعد الصاحب، وله فيما يبدو ردود عليهم ومواقف ولئن كان الصاحب يجهر بمهاجمة القاسمي في المجالس، وينال منه أمام الوالي والوجهاء، فقد كان النبهاني يهاجم السلفية وأصحابها؛ كتب جمال الدين في إحدى رسائله لمحمد نصيف بلهجة لم تعهد عنه لكنه يعلل سبب هجومه فيقول: «وأما

---

(١) المصدر السابق (ص٣٠٢).

(٢) المصدر السابق (ص٣٠١).

(٣) «شيخ الشام جمال الدين القاسمي» لاستانبولي (ص٤٩ ـ ٥٠).

(٤) لكن يؤخذ عليه التنويه بفضل ابن عربي في كتابه «الفضل المبين» (٣٤٨ ـ ٣٥٤)، وثناؤه على النضير الطوسي ـ اقرأ لظافر القاسمي (ص٢٧٤).

النبهاني فدعوه يمت بغيظه قاتله اللّٰه من رجل خرافي أضر بتآليفه كثيراً من البسطاء.. على أن مظهر هذا العصر هو نبذ تآليفه العارية من العلم والأدب، فلا تحرصوا إلا على محاربته بنشر آثار شيخ الإسلام وأمثالها، لا بالمقالات في الجرائد فإن الجهاد معه هو في بث أثر السلف ومشربهم.. عامله اللّٰه بما يستحق»[(١)] .

وكان من أسباب هذا الهجوم أيضًا هو أن النبهاني حمل على ابن تيمية وابن القيم حملات شعواء، وإذن فالقاسمي يؤاخذ أصحاب البدع والفتن والضلالات الصوفية مما كان يراه منهم في زمانه، وكان يقول عن مشايخ الطرق: «هم كالعمود الكهربائي، يبث الجنون في رؤوس الناس، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر مرض الصرع العام والذهول العقلي»[(٢)] أي في حالات الذكر الخاصة بهم. وكان ينهى عن الاختلاط بهم ولو من أجل الاطلاع على أحوالهم؛ فقد زجر تلميذاً له مرة حينما أحب الذهاب لمشاهدة حلقاتهم والسماع لأناشيدهم وموسيقاهم، وقال له: «لا تكثر سواد المبتدعة، ولا تكن قدوة سيئة لغيرك»[(٣)] .

ولقد آلمه كثيراً تصرفات مشايخ الطرق في دمشق وأعمالهم وادعاءاتهم وكثرة بدعهم، فهاجمهم، وبيّن ضلال كثير منهم. وقد وصف ما يفعلون من منكرات تضر بالدين، ننقل منها حديثه عن مواكبهم التي كانت تخرج في الربيع، فيقول[(٤)] :

لا تزال هذه الطوائف تبتدع أموراً تُضحك السفهاء وتُبكي العقلاء وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة وسلط عليها الأجنبي يهزأ

(١) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (ص٥٩١).
(٢) المصدر السابق (ص٣٥٣).
(٣) «شيخ الشام» للاستانبولي (ص٩١).
(٤) «إصلاح المساجد من البدع والعوائد» للقاسمي (٢٤٨ ـ ٢٥٠).

بديننا ويقبح أعمالنا ظنًّا منه أن ما يجريه هؤلاء الجهلة من الدين. فهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم، والتزموا طرق أشياخهم الذين يدّعون أنهم على آثارهم وما هم إلا في أيدي الشياطين يلعبون بهم كيف يشاؤون. أين تصفية الباطن التي هي مدار الطريق، وأين الخمول مع هذا الظهور، وأين التواضع مع ركوب الخيل والبغال يقدمها الطبل والمزمار، وأين البعد عن الناس مع هذه المزاحمة الدنيوية، وأين البعد عن الرياء مع الوقوف بين مئات الألوف يتمايل ويتلوى، وأين الإرشاد مع هذه البدع وأين الأشياخ إذا أردنا السلوك. فلعمري لا نرى إلا رجالاً اتخذوا الطريق وسيلة معاشية. أما آن لهذه البدع أن تموت ولهؤلاء الجهلة أن يتنبهوا ويعلموا أنهم بين أمم ينظرون أعمالهم وينتقدون أحوالهم ويكتبون عنهم ما يكتب عن الهمج وسكان البوادي.

إنّ الطريق المسلوك للقوم مبني على الإخلاص في العمل وحب الخلوة والبعد عن الناس والصمت عن اللغو وملازمة الذكر ومداومة السهر فيه وفي التهجد والزهد فيما في أيدي الناس والتمسك بالسنة والإرشاد إلى الطريق المستقيم، وأين هذه الأصول الشريفة مما نراه الآن من الخروج عن الحدود واستبدال السنة بالبدعة وترك الشرع بهوى النفس. والطامة الكبرى دعوة بعض الأشياخ وانتحاله ما يضر بالعقيدة وإضلاله العامة بما ينقله إليهم عن الإنسان الكامل ونحوه من كتب الصوفية مدعيًا فهمه لإشاراته من طريق الفتح أو الإلهام، فقد كثرت النحل والبدع، وسمعنا من أقوالهم ما ليس من ديننا ولا يقول به أهل دين آخر. وقد اتفق أن أحد مُعْتَبِرِي الأجانب دخل أحد الأماكن وقد اجتمع فيه جماعة من أهل الأهواء، فرآهم يرقصون ويصيحون صياح جنون فقال لترجمانه: ما هذه الغوغاء ونحن نعلم أن صلاة المسلمين في غاية الخشوع والآداب وهذه الأمور ليست إلا هذيانًا. فقال له ترجمانه: «إن هذه أكبر صلاة عندهم» يريد تنفيره من الدين الإسلامي ولا حول ولا قوة إلا باللَّه. فالدين بريء من نسبة هذه البدع إليه؛ فإن سيرة

النبي ﷺ معلومة محفوظة، إذ لم يترك الحفاظ وكتاب السير شيئًا من أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته إلا دونوه، وجاء الخلفاء الراشدون ومن عاصرهم على أثره ﷺ وكذلك جاء الصوفية المتقدمون على هذا الأثر. فلما تشيخ الجهلاء في الطريق التزموا البدع وجاء من لهم إلمام بكتب القوم فانتحلوا أقوالاً لا يعرفون معناها، وعلّموها لجهلة لا يفقهون، فضلُّوا وأضلوا، إنا للَّه وإنا إليه راجعون. ومن المصائب الفظيعة تركهم الذكر الشرعي وقولهم: «اللام إلا اللَّه» «لوالوها إلا اللَّه» و«ال» بلام مغلظة و«اه» و«هه»، ثم الرقص وأكل النار وضرب الدف أو الناي والنقارات والنقرزان ووضع الدبوس في الذراع والسيخ الحديد في الحنك والشيش وغيرها من المفتريات القبيحة. فحق شيخ المشايخ منع هؤلاء الجهلاء من إعطاء العهود، حتى يعرفوا العقيدة والآداب الشرعية والفروع الفقهية، ففي ذلك خدمة الأمة والدين، وتأييد لكلمة الحق المتين».

* إنكاره للبدع:

أنكر القاسمي بدعة وجود إمامين يتعاقبان في مسجد واحد ورأى أنها مخالفة للإسلام. ولما كان في مسجده إمام آخر يصلي بعده فقد قال: «لو كانت العادة أن يصلي الإمام الشافعي بعد الحنفي لاستقلت من هذه الوظيفة، كيلا أقع في هذا المحذور»[1].

وهو إذ يؤاخذ أصحاب البدع ـ وخاصة من الذين يلجؤون إلى الاستعانة بغير اللَّه ـ فإنه يبين أنّ عملهم هذا أفظع من شرك المشركين؛ لأنَّ أولئك كانوا إذا نزلت بهم شدة دعوا اللَّه وحده، بخلاف هؤلاء الذين ينسون ربهم في المصائب ويدعون غيره، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

(١) «شيخ الشام» (ص٨٥).

الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥][١] .

ولقد فصّل القاسمي الحديث في البدع وبحث بها وبيّن أمرها في مقدمة كتابه «إصلاح المساجد من البدع والعوائد»، فتحدث عن معناها اللغوي والاصطلاحي ورهّب منها ونفّر من المبتدعين، وذكر غالب أنواع البدع التي شاعت في عهده، وحث على الأخذ بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإزالة البدع والصبر في سبيل اللَّه. حتى لم يترك في ذلك زيادة لمستزيد[٢] . وفي مقابل هذه البدع دعا من أجل محاربتها إلى الأخذ بالأصول وعلى رأسها الكتاب والسنّة، واهتم كثيراً بهذين الأصلين، حتى قال: «إنني أحترم كل من يكتب في التفسير والحديث في المسائل المهمة ولو كراسًا، فهو أفضل من كثير ممن يعمل الشروح في القضايا والمسائل غير المهمة»[٣] ، ومن هنا فقد رجع القاسمي إلي كثير من كتب التفاسير، وانتقى منها الآراء التي كان يقتنع بصحتها، حتى جمع كتابه الواسع «محاسن التأويل» وهو من أعظم مؤلفاته بل أعظمها على الإطلاق.

أما في الحديث الشريف فإنه كان ينهى عن الأخذ بالأحاديث الضعيفة، ولا يتسامح بالاعتماد عليها ولو في مقام الترغيب بفضائل الأعمال[٤] . وقال: وعلى هذا فلا يجوز الاستشهاد بها، ومن فعل ذلك فعليه أن يشير إلى ضعفها. وكأن من يلجأ إلى الأحاديث الضعيفة يظن الشريعة قاصرة، مع أنّ في الأحاديث الصحيحة ما يغني وكذلك في القرآن الكريم[٥] .

---

(١) المصدر السابق (ص٨٥).
(٢) انظر مقدمة «إصلاح المساجد».
(٣) «شيخ الشام» (ص٨٠).
(٤) انظر «قواعد التحديث» للقاسمي (ص١٢١ ـ ١٢٤).
(٥) «شيخ الشام» (ص٨١).

◻ ويعجبه في هذا الصدد قول الإمام مسلم في مقدمة صحيحه:

«كل من يروي الأحاديث الضعيفة وهو عارف بها فهو آثم غاش للمسلمين»[(١)] وفي رأيه أن خير طريقة لنشر الدين الصحيح بين الناس الانكباب مع الخصم على دراسة كتب السنة الصحيحة والحث على قراءتها، وقراءة سيرة النبي ﷺ[(٢)] .

ولما كان الحديث الشريف لا يعرف إلا بعلم الجرح والتعديل فقد عده القاسمي من أهم العلوم، قال: «إنه باب من أبواب الدين، ولولاه ما أُثبتت صحة هذا الدين العظيم»[(٣)] .

*** تصديه للدهريين:**

◻ ومثلما تصدى جمال الدين للمنحرفين من الصوفية وأصحاب البدع والأهواء هاجم كذلك الدهريين الذين «كثروا في مصر والهند وأطراف سورية، وأضحوا يبثون شبههم بواسطة كثير من المؤلفات الأجنبية والمجلات النصرانية». فَحَجَّهُم في كتابه «دلائل التوحيد»، ونقض كلامهم بكلام الفلاسفة الذي يعولون عليه.

◻ للَّه در القاسمي: كان القاسمي دؤوبًا في دعوته لا يثنيه عن بيان مذهبه وفكره شيء، ولا يرده عما يعزم ويشرع من الإصلاح أمر. وقد جاهد من أجل نصرة دينه وتطهيره من الأوهام والبدع ورواسب عهود الانحطاط دون أن يعرف للراحة طعمًا ولا للهدوء معنى وبالطريقة اللطيفة التي ذكرناها، ولقي في سبيل ذلك إعراضًا وعنتًا من الناس وازدراءً من خصومه

(١) المصدر السابق. وانظر مقدمة «صحيح مسلم بشرح النووي» (ص١٢٣).
(٢) «شيخ الشام» (ص٢٨، ٨٣).
(٣) «شيخ الشام» (ص٨٣).

الذين أخذوا يشيعون عنه الأقاويل ويفتئتون عليه ويتهمونه بالإحداث في الدين، وقد صور حاله معهم وما يجده منهم بقوله: «إن العالم لما أخذ اللَّه عليه الصدع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن لا يخاف في اللَّه لومة لائم كان معرّضًا من أعداء أنفسهم وعبيد أهوائهم للشنآن والنبز بالألقاب، فتراهم إن وجدوه يميل للنظر في الأدلة على الأحكام والوقوف على مآخذ المذاهب والأقوال وتحري الأقوم والأصلح دون تعصب لإمام ولا تحزب لآخر نبزوه بالاجتهاد وسموه مجتهدًا تهكمًا، مع أنه بذلك لم يقم إلا بواجبه. وإن أبصروا ميله لعلوم الحكمة والرياضيات وتشويقه لاقتطاف ثمارها سموه طبيعيًا. وإن رأوا حثه على البذل والإنفاق في سبيل اللَّه ودعواه الموسرين للعطف على البؤساء لقبوه اشتراكيًّا..»[1]، وليس غريبًا بعد هذا أن يقول عن جماعة آذوه وعادوه لاختلافهم معه في الرأي: «كثير من الناس بصورة البشر، ولكنهم في الحقيقة أفاع وحشرات سامة»[2].

◻ ومع هذا فكان كلما ناله أذى من أعداء الإصلاح زاد قوة ونشاطًا ودعاية وكتابة، جاعلاً همه الأعظم أن يجمع بين الدين والعلم الصحيح، ويبث بين الناس فكرة تآخيهما[3]. وكان مع صبره على الخصوم يجابههم طالبًا للحق ودفعًا للباطل قائلاً: «ينبغي الرد على الخصم مهما كانت دعواه سخيفة، ومصداق هذا من القرآن الكريم الذي ينقل قول اليهود: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ فردّ اللَّه عليهم بقوله: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ [المائدة: ٦٤][4].

---

(١) «الفتوى في الإسلام» (ص٦٦).
(٢) «شيخ الشام» (ص٨٢).
(٣) المصدر السابق (ص١٧).
(٤) المصدر السابق (ص٨٢).

☐ وكان من أسلوب دعوته كذلك التنبيه على فساد المضلين والإشارة إليهم بأعيانهم ليعرف الناس الحق من الباطل، فنراه يقول في هذا: «كثير من الناس يلومون المصلحين إذا تحدثوا عن بعض الشخصيات المبتدعة حية كانت أم ميتة، ظانين أن هذا الصنيع مغيبة منهي عنها.. وهذا من الخطأ الواضح، فإنه لا بد من ذكر المسيء لدينه إذا وجدت المصلحة. وقد ذم القرآن الكريم كثيراً من المضللين والمفسدين بذكر أسمائهم وأوصافهم، كما ذم الموالين لهم»(١) .

☐ لقدكان خصوم القاسمي من أصحاب الخرافات ومن الجامدين من المقلدين الذين لا يُعملون عقولهم فالعقل السليم لا يعارض النقل الصحيح، وكان يرى تصرفات هؤلاء فظيعة «لأنهم يلغون عقولهم، ويحيلون كثيراً من الأمور في مؤلفاتهم القليلة التي يتطفلون على جمعها إلى أرباب الكشف والفتح.. أو يقولون عن أمر أعجزهم: إن ذلك تعبدي محض لا يعقل له معنى، ولا يمكن أن يكشفه أحد.. إلى غير ذلك من الإحالات على المجهولات، والإياس من النظر وإعمال الفكر، والاقتناع بما كُتب فيه أو حُقِّق». وقد مر معنا أنه بلغ من تمام عنايته بالعقل تشجيعه طلابه على الاستماع للعلماء والاتصال بهم والأخذ عنهم والاستفادة منهم وخاصة أصحاب الاستنباط والاجتهاد على شرط أن يلقوا وراء ظهورهم ما لا يصح من الأفكار بعد مناقشتها(٢) .

☐ يقول: «إنّ غل الفكر عن النظر والتأمل هو أعظم هادم لصرح التحقيق، فإن الحقيقة بنت البحث، وإن الحق ليس منحصراً في قول ولا مذهب، وقد أنعم اللّه على الأمة بكثرة مجتهديها وليس الغرض من

---

(١) المصدر السابق (ص٨٣).

(٢) المصدر السابق (ص٨٤).

الإصلاح العلمي بالاجتهاد القيام بمذهب خاص والدعوة له على انفراده، وإنما المراد إنهاض همم رواد العلم لتعرض المسائل بأدلتها، وإننا في الرأي مستقلون ولسنا بمقلدين ولا متحزبين»[١] .

◘ ورأى القاسمي بثاقب فكره أن دعوة التجديد ينصرها الشباب وهم أحوج الناس إليها فاهتم بهم وبتربيتهم على الاعتماد على الكتاب والسنة فجزاه اللَّه خير الجزاء من مصلح نصح أمته.

◘ ونختم بما قال الشيخ رشيد رضا عن القاسمي: «إن الرجل كان من خيار مصلحي المسلمين في هذا العصر»[٢] .

ويقول: «إنه كان يتحرى مذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته، وما مذهب السلف إلا العمل بالكتاب والسنة بلا زيادة ولا نقصان على الوجه الذي كانوا يفهمونه في الصدر الأول»[٣] .

*** القاسمي الناصح لأمته:**

◘ انظر - رحمك اللَّه - إلى نصح القاسمي لأمته حين يقول في «محاسن التأويل» عند قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]:

«دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية اتقاء بأس العدو وهجومه، ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية أيام حضارة الإسلام كان الإسلام عزيزًا عظيمًا أبيّ الضيم، قويّ القنا، جليل الجاه، وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار،

---

(١) «الاستئناس» للقاسمي (ص٤٤)، و«الجرح والتعديل» للقاسمي (ص١٤).

(٢) «المنار» المجلد ١٧، (٨/ ٦٣١).

(٣) «المنار» المجلد ١٧، (٨/ ٦٣٣).

وإن كان عليه مآخذ في رسالته «تاريخ الجهمية والمعتزلة».

وخضّد شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقابًا متتالية، وهم سادة الأمم وقادة الشعوب، وزمام الحول والطول، وقطب رحى العز والمجد، لا يستكينون لقوة، ولا يرهبون لسطوه.

«وأما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف، فأهملوا فرضًا من فروض الكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض، ولذا تعاني اليوم من غصّته ما تعاني. وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية، ولا ترى فيها معامل للأسلحة وذخائر للحرب، بل كلها مما يُشترى من بلاد العدو؟ أما آن لها أن تنتبه من غفلتها، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درسًا يجب أن تتدبره وتتلافى ما فرطت به قبل أن يداهم ما بقي منها بخيله ورجله، فيقضي والعياذ باللَّه على الإسلام وممالك المسلمين، لاستعمار الأمصار واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار»[1] ا.هـ.

لقد أسمعت لو ناديت حيّا ... ولكن لا حيــاة لمن تنــادي

*** الشيخ محب الدين الخطيب ونشره للتراث السلفي المتميز في صحيفة الفتح والمطبعة السلفية:**

الشيخ محب الدين الخطيب هو «أبو الجمعيات الإسلامية في مصر» وهو «منشئ جمعية الشباب المسلمين» وهو رائد كبير من الرعيل السلفي أخذ على عاتقه بعد الشيخ رشيد نشر التراث السلفي، وكان لمطبعته السلفية بالمنيل قصب السبق في تعريف أهل مصر بالكتاب السلفي، ككتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن عبدالوهاب والدهلوي وهذه الكتب نشرت السلفية

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٨/ ٣٠٢٥).

في ربوع القطر المصري.

◻ وتولى أيضًا إصدار الكتب المدافعة عن عقيدة السلف وأئمة السلف ككتاب «ظلمات أبي رية» للشيخ محمد عبدالرزاق حمزة وكتب ذهبي العصر عبدالرحمن المعلمي اليماني «التنكيل» و«الأنوار الكاشفة». كما نشر وقام على ترجمة مقالات المستشرقين وشياطين التبشير في صحيفة الفتح ١٣٤٩ - ١٣٥٠هـ، ثم في كتاب مستقل، ولو لم يكن للشيخ محب الدين الخطيب تلميذ الشيخ طاهر الجزائري إلا نشره لمقالات «الغارة على العالم الإسلامي» لكفاه فخرًا.

◻ قال الشيخ محب الدين الخطيب: «في يوم من أيام سنة ١٣٣٠هـ، وكنت أشتغل في تحرير المؤيد، أقبل عليّ زميلي السيد مساعد اليافي، وقال: «شيء جديد لم أكن أتوقعه. قلت: وما هو؟ قال: إن مجلة «العالم الإسلامي» التي كانت إلى الآن مجلة اجتماعية أدبية، تحوّلت في هذا الشهر إلى مجلة تبشيرية، انظر، إنها أصدرت عددًا ضخمًا ليس فيه غير بحث واحد وهو بحث تبشيري يدور حول ما تقوم به إرساليات التبشير البروتستانية في العالم الإسلامي، وما قيل في المؤتمرات التي عقدتها تلك الإرساليات في أوقات مختلفة.

وقد جعلت المجلة عنوان هذا البحث (الغارة على العالم الإسلامي) أو (فتح العالم الإسلامي).

قلت له: إن المجلة الفرنسية بنشرها هذا العدد الخاص بأعمال المبشرين البروتستانت تقول للمبشرين الكاثوليك: انظروا كيف سبقكم الآخرون إلى الغارة والفتح، فيجب أن تضاعفوا جهودكم وتنظروا في أساليبهم فتستفيدوا منها، ونحن أيها الأخ - بصفتنا مسلمين - يجب علينا أن نعلم ما يكيده لنا هؤلاء وأولئك، وأن نجعل أمتنا على علم بما يُنصب لها من شراك وما يُبيّت

لها من شرٍ. فأقترح عليك أن تترجم فصول هذا البحث فصلاً بعد فصل وتنشره في المؤيد تباعًا فيقف المسلمون على ما يُكاد لهم به من هذه الناحية. فقال لي صديقي السيد مساعد: ولكن البحث طويل. والوقت الذي نعمل فيه هنا مشغول بالواجبات الأخرى.

◻ قلت: نتعاون أنا وأنت على هذا الخير، ولا نعدّ هذا من واجباتنا في قلم التحرير، بل من واجباتنا نحو الإسلام والشرق، وأرى أننا عندما نفرغ كل يوم من عملنا اليومي تُملي عليّ ترجمة فصل من الفصول بأي الألفاظ شئت وأنا أصوغ ما تمليه على بعبارة عربية فنتمكن من أداء هذا العمل بنصف الوقت اللازم له. قال: حسن!

وما كادت هذه المقالات المتسلسلة تنتشر في مصر والعالم الإسلامي حتى كان لها وقع عظيم جدًّا، وبعثت اليقظة في كثير من الناس، ونقلتها عن المؤيد مجلات وصحف متعددة ـ منها مجلة المنار في القاهرة، وجريدة الإخاء العثماني في بيروت ـ وضاق صدر كتّاب مجلة العالم الإسلامي نفسها وأمثالهم من أنصار التبشير والاستعمار من ذيوع هذه الفصول بين المسلمين؛ لأنهم يودون أن يقوم بأعماله والمسلمون نيام، فدارت مناقشة بينهم وبين «المؤيد حول هذا الموضوع تولى كاتب هذه السطور الإجابة عليها»(١) .

ثم نشرها الشيخ محب الدين الخطيب ـ بعد نشرها في «المؤيد» ـ في الفتح، ثم طبعها في كتاب مستقل.

◻ لما صدرت هذه المقالات كتب شكيب أرسلان(٢) الأديب الكبير:

«إنني أقترح طبع هذه المقالات المترجمة في «الفتح» عن أعمال المبشرين

(١) مقدمة كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» لشاتيليه (ص٣، ٤).

(٢) زعيم الدروز وقيل إنه عاد في أخريات حياته إلى مذهب أهل السنة.

كتابًا على حدة يطبع منه ألوف من النسخ وعشرات ألوف ويوزع على جميع العالم الإسلامي بدون استثناء ويقتنيه كل مسلم ذي حميّة ويقرأ منه الخطباء والمدرسون في الجوامع، ولا يبرح بين أيدي المسلمين حتى يستظهروه غيبًا لعلهم ينهضون أخيرًا لمقابلة الشيء بمثله ويؤلفون الجمعيات ويتبرعون لها بالأموال ولو بعشر معشار ما يتبرع به الإفرنج لجمعياتهم التبشيرية التي لا نحتاج إلى ذكر مآربها الخبيثة بما شرحته لنا تقاريرها، وما فضحته من أسرار أعمالها، وما أوضحته من الطرق التي هي سائرة عليها لهدم الإسلام من كل أقطار الأرض. ويجب أن يترجم هذا الكتاب إلى التركي والفارسي ولسان الأرد ولسان الملايو وجميع ألسنة الشعوب الإسلامية.

◘ وإننا لنشكر زويمر وأقرانه وجميع هؤلاء المبشرين على هذه التقارير التي لم تُبق عند أحد شبهة في حقيقة مقاصد هذه الجمعيات وهذه البعثات التبشيرية على اختلاف نحلها، كما أنها لم تُبق عند أحد شبهة في عضد الحكومات الأوربية لهذه الجمعيات التبشيرية وهذه البعثات التي تبثها في العالم الإسلامي تارة خفية وتارة علنًا، فإنه ما من سبيل للدفاع عن النفس أحسن من معرفة العدو ما يكيد له عدوه[1].

◘ وعن دوره في مقاومة «التغريب» ودوره في حركة اليقظة الإسلامية يقول الشيخ محب الدين الخطيب:

«لما خرج الناس من الحرب العالمية الأولى أخذ المؤمنون بثقافة الغرب من رجالنا وشبابنا يعدّون العدة للاستيلاء على الرأي العام، وتحويل وجهه عن «المكتين»[2]، وما أنزل اللّه فيهما، إلي المعاهد القائمة على ضفاف (التايمز) و(السين) وما يصدر عنهما، وواتاهم الحظ بما أحدثته

(١) خاتمة كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» (ص١١٩) ـ المطبعة السلفية.

(٢) مكة المكرمة والمدينة المنور.

أنقرة[١] من أحداث وما جنحت إليه من هوى، فتذرعوا بالثناء على جهادها الوطني للدعوة إلى مثل نتائجه في الدين والدولة، وتعميم تلك النتائج في المشرقين والمغربين، ولم يكن للإسلام في مصر صحف غير مجلة (المنار)، ولا جمعيات غير جمعية «مكارم الأخلاق» ومجلتها، أما النزعات الأخرى العاملة على تعميم الدعوة الأنقروية وتقليدها، فكان في أيدي رجالها أكثر الصحف، وكانوا مشرفين على معظم المرافق والجمعيات، وكان أنصارهم منبثين في وزارة المعارف ومعاهدها، ونظام الاحتلال يؤيدهم في إبعاد الشباب عن الإسلام وحيويته جهد الطاقة.

❑ وكان أحمد تيمور باشا هو الوجيه المصري الأول الذي شعر بالخطر الأعظم عى مصر والوطن العربي والعالم الإسلامي، وأشفق من أن يتم فيه ـ ولو بالتدريج ـ ما تمّ في تركية، وكان ـ رحمه اللَّه ـ لا ينقطع عن زيارة دار المطبعة السلفية من سنة ١٣٤٢ إلى سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤م ـ ١٩٢٥م) في شارع «خيرت» فانعقدت فيها اجتماعات حضرها: أحمد تيمور باشا، وأبوبكر يحيى باشا، وعبدالرحمن قراعة، والسيد محمد الخضر حسين، وعلي جلال الحسيني، ونحو عشرة آخرين مَن هذه الطبقة، وتذاكروا موجة الإلحاد القوية التي طغت على العالم الإسلامي، وهو على غير استعداد لدفعها لأن أمره ليس في يده، والذين أمره في يدهم من المسلمين فهموا من الإسلام ألفاظ أوراده وحركات مسابحه، وغفلوا عن أهداف جهاده وحركات حيويته!!

وانتهت تلك الاجتماعات بتقرير تأليف جمعية لمقاومة الإلحاد، والتعاون على ذلك مع كل من يؤلمه أمره في الوطن الإسلامي أكبر، واختير لسكرتارية الجمعية أحد أصحاب الفضيلة المدرسين بالأزهر، وبذل نشاطًا مذكورًا للاتصال بجميع أصحاب الغيْرة الإسلامية من العلماء والوجهاء في

---

(١) أي: إلغاء الخلافة الإسلامية.

جميع أنحاء العالم الإسلامي.

☐ وبعد أشهر من هذه المحاولة تبيّن لنا أن الخطر أسرع من أن يعالج بمثل هذه الجمعية، وأنه لا بد من الاتصال بالرأي العام والشباب المثقف على الخصوص، وأن الصحافة هي الوسيلة الأولى لذلك، وكنت أصدر في ذلك الحين مجلة (الزهراء) غير أنها شهرية وأدبية لا تصلح مطية لهذه المعركة؛ فضلاً عن أنه مشروط في امتيازها ألا تتعرّض للسياسة أو الدين، وكان الحصول يومئذ على امتياز بصحيفة إسلامية للغرض الذي نريده أشبه بالمستحيل.

☐ غير أن أحمد تيمور باشا ـ رحمه اللَّه ـ التمس لذلك الأسباب التي لا يقدر عليها غيره، وتمكنا من الحصول على امتياز بإصدار (الفتح) عام (١٣٤٤هـ) (١٩٢٦م). ومرّ على هذه التجربة عام تبيّن لنا فيه أن الخطر أفدح وأقوى من أن يعالج بهذه الأداة الضعيفة، والأمة أعظم وأكرم على نفسها من أن تصغى إلى هذا الصوت الخافت، وحينئذ فكرنا في تأسيس جمعية (الشبان المسلمين) وكان تأسيسها في غرفة متواضعة من دار المطبعة السلفية ومكتبتها بشارع الاستئناف، وقد استعنا على النجاح في تأسيسها باثنى عشر شابًا منهم الأساتذة: محمد شاكر، عبدالمنعم خلاف، عبدالسلام هارون، محمد الخضيري، كمال اللبان، عبدالفتاح كرشاه، فانتشروا في الكليات والمدارس والوزارات والأندية، وفي كل مكان، وبعد أن صار للجمعية ثلاثمئة عضو يليقون بها وتليق بهم، أخبرنا الدكتور عبدالحميد سعيد والشيخ عبدالعزيز جاويش وأمثالهما ودعوناهم للانضمام للجمعية، وبعد ذلك أعلن عن تأسيس الجمعية في غرة جمادى الآخرة ١٣٤٥هـ (نوفمبر ١٩٢٧)[1].

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي (٣٣٦ ـ ٣٣٨) ـ دار القلم ـ دمشق.

*** الداعية الإمام الشيخ حسن البنا . . العبقري المصلح الفذّ :**

أشهر في الدنيا من الدنيا. . . مصلح استطاع أن يوقظ جذوة الفكرة الإسلامية في صدور الآلاف من الشباب، ويرد غربة الإسلام بين الجاهلين به إلى معرفة وأنس، وعرّف الناس في زمن الغربة بشمولية الإسلام وصلاحيه للدنيا والآخرة فالإسلام مصحف وسيف، وبذل في سبيل ذلك من علمه وجهاده ووقته ونفسه وأعطابه وراحته ما لا يستطيعه إلا العصبة المجتمعة من أقوياء الرجال.

❑ قال عنه الشيخ محب الدين الخطيب: «يحمل قلبًا ولا كالقلوب، إن الأستاذ حسن البنا أمة وحده، وقوة كنت أنشدها في نفس مؤمن فلم أجدها إلا يوم عرفته في تلك الغرفة المتواضعة من دار المطبعة السلفية عام ١٣٤٦هـ، وكنت (ابن صنعة) يوم اكتشفتُ بيني وبين نفسي حاجة الإسلام إلى هذا الداعية القوي، الصابر والمثابر، الذي يعطي الدعوة من ذات نفسه ما هي في حاجة إليه من قوة ومرونة ولين وجلد وصبر وثبات إلى النهاية»(١) .

❑ ثم يقول الشيخ محب الدين:

«كانت هذه النواة (الإخوان المسلمين) تبشر بأنها هي الأمل الذي كان يرجوه شيوخ الملة: أحمد تيمور، وأبو بكر يحيى، وعبدالرحمن قراعة وأضرابهم؛ يوم اجتمعوا في دار المطبعة السلفية بشارع (خيرت) يقلّبون وجوه الرأي في السلاح الذي يقاتلون به موجة الإلحاد، والتي تحولت بأحداث أنقرة من موجة ماء يهدد بالغرق إلى موجة بترول وبنزين تهدد بالنار تلتهم الأخضر واليابس.

وأذكر أننا كنا نعجب كيف يكون للمعاني التافهة في السياسة المحلية أحزاب يهبُّ لها الشباب قلوبهم وحماستهم في ذلك الحين، ولا يكون

(١) المصدر السابق (٣٣٨ ـ ٣٣٩).

للإسلام ـ وهو المعنى الأشمل لكل سياسة سامية ـ حزب يواليه ويؤيده ويغضب له ويرضى لأجله. وكثيرًا ما أفكر في هذا الجيش اللجب من الإخوان المسلمين وما لهم من مئات الشُّعب، وكيف استطاع رجل واحد أن يحقق ذلك بعد أن كان أملاً بعيدًا لكل غيور على الإسلام، فأعود وأقول: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤][1].

ذلك انطباع محب الدين عن البنا وقد لقيه في أول الطريق، يضع البنا حيث مكانه الحق من حركة اليقظة في العقد الثاني من القرن العشرين.. فكيف لو امتدت به السنون؟

* **صدع الأستاذ البنا بالحق والجهر بكلمته عند كل سلطان جائر:**

من يُطالع آثار الأستاذ حسن البنا وكتاباته يجده قائمًا بالحق، لا يتوقف عن أن يقول كلمته لكل حاكم، وأن يرد غيبة الإسلام في كل موقف.

❑ يقول ـ رحمه الله ـ للحكّام:

«أيها الجالسون على كراسي الحكم: أما آن لكم أن تفقهوا بعدُ أن من استعز بغير اللَّه ذل، وأنَّ الناس من خوف الذل في الذل، ومن خوف الفقر في الفقر، وأنَّ من حرص على الموت وهب اللَّه له الحياة. فإذا أردتم القوّة الصحيحة فالتمسوها في طاعة اللَّه وأداء فرائضه ومناصرة أحكامه، وتأييد المجاهدين في سبيل حماية أرض الإسلام ومقدسات الإسلام، ولا تتخذوا من دون اللَّه ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة. اصدقوا اللَّه ساعة من نهار، وجربوا هذا الطريق، وثقوا أنكم الرابحون ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]»[2].

---

(١) «المصدر السابق (٣٣٩ ـ ٣٤٠).

(٢) «حسن البنا» (ص٤٠٢).

*** رده على مصطفى النحّاس زعيم الوفد في إعجابه بمصطفى كمال أتاتورك:**

أرسل الأستاذ حسن البنا ـ رحمه اللّٰه ـ إلى مصطفى النحاس زعيم الوفد، أكبر حزب في مصر يناقشه فيما جاء في تصريح له حين قال: أنا معجب بلا تحفظ بكمال أتاتورك، ليس فقط بناحيته العسكرية، ولكن بعبقريته الخالصة وفهمه لمعنى الدولة الحديثة.

□ يقول: هذا التصريح ليس تصريحًا أجوف، وليس تصريحًا يصدر هكذا عن مجاملة أو غير روية سابقة، وفكرة مستقرة تريد أن تبرز إلى الوجود في الوقت المناسب حين تتهيأ لها الظروف؛ وإن سبق اللسان فأظهر مكنون الضمير.

فأنتم تسجلون في هذا التصريح أن هناك شيئًا اسمه الدولة الحديثة، وهي التي فهمها كمال أتاتورك، وشكل علي غرارها تركية، وتصرحون في كلامكم كذلك أن هذه الدولة هي التي تستطيع وحدها في الأحوال العالمية أن تعيش وتنمو.

ومعلوم أن أتاتورك في دولته الحديثة قد تجرد من كل المظاهر الإسلامية، فكأنكم في هذا تعلنون في صراحة أن مصر لا تستطيع أن تعيش وأن تنموا في الأحوال العالمية الحاضرة إلا إذا تجردت هي الأخرى من كل مظاهر الإسلام كما فعلت تركية.

وكأن هذا هو عنوان منهاجكم ومحور الإصلاح الذي تريدونه لهذا الوطن بعد الانتهاء من قضاياه الخارجية، ولست رجلاً من آحاد الناس، بل أنتم زعيم يؤول إليه الحكم، وتلقى إليه مقاليد الأمة، واسمح لي أن أنبه إلى نقطة قد تكون خافية؛ وهي أن كمال أتاتورك جاهد بالسيف في تحرير بلاده، وطرد منها الأجانب، وبث فيها روح العزة والكرامة، ووفر بها بعض الراحة في الاقتصاد والماديات، وهذا جميل لا غبار عليه، وقد وصل إليه أتاتورك

وهو مسلم يحمل السبحة ويتلو القرآن في المصحف، ويسجد للَّه على رمال الصحراء بين أعراب الأناضول ومسلميه، حتى إذا مكن اللَّه في الأرض نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وقد كان يتيسر له كل ما أراد من إصلاح بل وأضعافه لو ظلَّ متمسكًا بدينه وإسلامه، فلم يكن الإسلام حائلاً يومًا ما عن الوصول إلى المجد، والإلحاد والرقص والقبعة، وغير ذلك من المظاهر الفارغة الخادعة التي لا تقدم ولا تؤخر.

هذا التصريح دليل مادي بين يدي الذين يرون أن (الوفد) يعمل على سياسة إن لم تكن تناوئ الإسلام فهي على الأقل لا تستمد منه ولا تعني بشأنه، ويسرها أن تتخلص من تباعته»[1] .

□ وانظر إلى جرأة الأستاذ البنا وأدبه في الكشف عن زيف الاتجاه السياسي الذي كانت تعيش عليه الحزبية السياسية في البلاد العربية.

* مواجهة البنا للحكّام في شأن الشريعة الإسلامية:

رحم اللَّه البنا فقد أوقف عمره كله على خدمة قضايا الإسلام والدفاع عن الشريعة الإسلامية.. انظر إليه وهو يقول للحكام:

«يا زعماء مصر وقادتها وأولي الرأي فيها! ما أعظم تبعتكم بين يدي اللَّه وبين يدي الأجيال القادمة؛ إن ظلت الحالة على ما هي عليه الآن، إنكم ضيعتم بتفرقكم واشتغالكم بخصوماتكم هذه الفرص المواتية لهذا الشعب الذي ائتمنكم على مقدراته، فلم تحفظوا فيه حق أمانته.

طهروا أنفسكم من هذه الأدران، واطرحوا هذا الكبرياء الكاذب الذي يزينه لكم شيطان النفوس الجامحة، وفكروا في مصر، واعملوا لمصر، فإن فعلتم ذلك فهو حظكم في الدنيا ونجاتكم في الآخرة، وإن لم تفعلوا ـ ولا

---

(١) «حسن البنا» (ص٤٠٢ ـ ٤٠٣).

أقول الثانية ـ فسيحيق بكم سوء تفريطكم، وسنحاسبكم أشد الحساب على أعمالكم، وسيدمغ تاريخكم بأبشع تهمة لوث بها تاريخ إنسان، وسنسير في طريقنا، وسنحاول أن نعمل لهذا الشعب، ونسلك به مسالك الجهاد الصحيح في سبيل استكمال حريته واستعادة مجده؛ رضيتم بذلك أو وقفتم في سبيله، ولن يدفع أمر اللَّه دافع، ولكنا نريد أن تكونوا معنا، فنختصر الطريق فهل أنتم فاعلون؟

◻ ويواجه المسئولين في صراحة فيقول:

إن الذين وضعوا الدستور المصري قالوا في المادة التاسعة والأربعين بعد المئة منه: «إن دين الدولة الرسمي هو الإسلام».

فالأمر لا يعدو أحد اثنين: إما أن يكونوا جادِّين في هذا الذي سجلوه على أنفسهم وعلى الدستور المصري، فيجب أن يكون محل احترام منهم، وأن يعملوا جاهدين حتى تحل النظم الإسلامية محل كلِّ نظام غير إسلامي في كل شيء: في الحكم، والقانون، والعادات، والمعاملات، كل مظاهر الحياة، وحينئذ يكون بحق دين الدولة الرسمي هو الإسلام، ويكون الدستور المصري محترمًا مصونًا، قد احترمه واضعوه، ونزلوا على حكمه.

وإما أن يكونوا لا يقصدون ما يقولون، ولا يؤمنون بما يكتبون، وهم بذلك يعبثون ويلهون، ويغشون الشعب ويخدعونه بمثل هذا النص الذي لا تحقق له في الخارج، وحينئذ يجب علينا معشر الدعاة أن نقوم إليهم وإلي هذا الشعب المخدوع بالنصيحة، فإن فعلوها فبها ونعمت، وإلا فنحن دائبون في جهادنا، عاملون على تحقيق هذه الغاية مهما كلفتنا، جادون في إيقاظ الفكرة الإسلامية القائمة في نفس المسلم الطيب القلب، حتى يعرف حقه، ويحرص على دينه ويملي إرادته على حكامه، فينزلون عليها، ولا يجدون مناصًا من تحقيقها، فيكون الدين الرسمي بذلك للدولة هو الإسلام.

فأي الموقفين يريد حماة الدستور واضعوه أن يضعوا أنفسهم أمام الأمة؟

ذلك موقفنا من القرآن والدستور، وسيظل دائمًا في المستقبل حتى تتحق الغاية؛ فتتفق تعاليم الدستور مع تعاليم القرآن، وتكون تعاليم القرآن هي لب الدستور ومحوره، والحكم بيننا وبين الفقهاء، ليستمدوا الدستور من كتاب اللَّه على أوسع حدوده ومدلولاته، وإنا لندعوهم إلى خطة سواء فهل يقبلون؟!»[1].

*** تمنيّه للموتة الطاهرة.. الشهادة في سبيل اللَّه وكلامه على «صناعة الموت» ودور أبنائه في الجهاد في سبيل اللَّه:**

◻ كان ـ رحمه اللَّه ـ يقول دائمًا: «أرجو أن يتمّ اللَّه عليّ نعمته، فألقى اللَّه وأنا على هذه الطهارة، وأن يرزقني اللَّه أيضًا الموتة الطاهرة.. وهذه الموتة الطاهرة هي الشهادة».

ولقد سجل هذا المعنى في مقال ذائع له تحت عنوان: (صناعة الموت):

«الموت صناعة من الصناعات؛ من الناس من يحسنها فيعرف كيف يموت الموتة الكريمة، وكيف يختار لموتته الميدان الشريف والموقف المناسب، فيبيع القطرة من دمه بأغلى أثمانها، ويربح بها ربحًا أعظم من كل ما يتصور الناس، فيربح سعادة الحياة وثواب الآخرة، ولم ينقص من عمره ذرة، ولم يفقد من حياته يومًا واحدًا، ولم يستعجل بذلك أجلاً قد حدده اللَّه.

انجلى الصدأ عن المعدن النفيس، وبرزت النفس في ثوبها الحقيقي اللامع المجاهد، وتكشف الصدف عن لؤلؤه، وتمحص الذهب الخالص تحت نار الضغط الأليم، وذهب فريق من أبطال المسلمين يحسنون من جديد صناعة الموت، ويطلبون عن طريقها حقهم في الحياة، وسرى هذا التيار في

---

(١) «حسن البنا» (ص٤٠٤ ـ ٤٠٥).

نفس الفئة المجاهدة القليلة في جوار الحرم المقدس إلى كثيرٍ من شباب الإسلام.

إن فلسطين هي خط الدفاع الأول، والضربة الأولى نصف المعركة فالمجاهدون إنما يدافعون عن مستقبل بلادكم وأنفسكم وذراريكم؛ كما يدافعون عن أنفسهم وبلادهم وذراريهم، وليست قضية فلسطين قضية قطر شرقي ولا قضية الأمة العربية وحدها، ولكنها قضية الإسلام وأهل الإسلام جميعًا، ولا محل للتدليل على حقوق العرب فيها».

وقد صدق حسن البنا ربه، فكانت فلسطين هي المسرح الأول لجهاده، ومنها تجلت الصورة الباهرة التي كشفت عن نجاح تجربته، فقد قدم أبناؤه ورجاله أرواحهم خالصة طاهرة؛ على نحو أذهل القوى الغربية الاستعمارية التي أحست بمدى الخطر الذي سيحدث لو نجح هذا الإتجاه وهذا التيار، ومن ثمَّ قدم حسن البنا حياته وروحه مؤمنًا بصناعة الموت وعلى النحو الذي رسمه وفهمه، فمات هذه الموتة الكريمة، بعد أن كشف للدنيا كلها أن كلمة الجهاد لم تمت في المسلمين، وإنما هي قادرة على الحياة والعمل، وأنها حين استجاشت بها النفس المؤمنة عادت من جديد لتثبت أن الإسلام قادر على بناء الأمم من جديد.

*** دفاعه عن الإسلام والكشف عن باطل وزيف أتباع الغرب وتقديمهم للناس في صورتهم الصحيحة دون خداع أو إيهام: «البنا وطه حسين»:**

ومن ذلك موقفه من الدكتور طه حسين حين أعلن في حفل أقامه له أتباعه من طلاب كلية الآداب بأنه نصير الإسلام، وقال: إنني أتمنى أن يقيض اللَّه للإسلام من يدافع عنه كما أدافع عنه، وأن ينشره ويحببه للناس كما أنشره أنا وكما أحبب مبادئه للناس. فكتب له الأستاذ البنَّا قائلاً:

«إذا صح ذلك يا دكتور فقد اتفقنا كل الاتفاق، واعتبرنا أيها الداعية

المسلم من جندك منذ الساعة، فإنا للإسلام نعيش، وله نحيا، وفي سبيل الدعوة إليه نموت شهداء.

صدقني يا دكتور طه من غير أن أقسم لك، وإن شئت فأنا أقسم على هذا؛ إنني لأتمنى من كل قلبي مخلصًا أن أرى ذلك اليوم الذي تدعو فيه أنت للإسلام وتنشره بين الناس وتحبب تعاليمه إليهم.

فإنك رجل جريء لك قلم ولك لسان ولك تلامذة معجبون وأصدقاء مخلصون، وفيك دأب ونشاط وإنتاج خصيب، وما نحسدك على هذا ولكنا نتمنى أن يكون ذلك في ميزان الإسلام لا عليه وفي كفة الخصومة له وتوهين أمره بطريق غير مباشر، فهل يجيء حقًّا ذلك اليوم؟! أسألك يا دكتور مخلصًا لأطمئن، لا متحديًا لأتعنت.

إنَّ لك تلامذة قد اختصصت بهم واختصوا بك، فأيهم ظهر أثر دعوتك فيه؛ فكان لسانًا إسلاميًّا، أو قلمًا إسلاميًا، أو صفحة من صفحات الفكرة الإسلامية، أو مظهراً من مظاهر التمسك بالإسلام؟!

وإنك قد ساهمت في خدمة كثير من القضايا الاجتماعية، وحضرت كثيرًا من الأحفال والمؤتمرات في داخل القطر وخارجه؛ ففي أيٍّ من هذه جميعًا نطقت باسم الإسلام أو دعوت إلى تعاليمه؟!

وأنت يا دكتور أستاذ في الجامعة المصرية منذ أنشئت، فأنشدك الحق: هل تذكر أنك عرضت في دروسك ومحاضراتك لطلبتك بما يلفت أنظارهم إلى جلال هذا الدين وروعته ومتانة تشريعه؛ هذا والمادة التي اختصصت بتدريسها ألصق مواد الدراسة بالإسلام وكتاب الإسلام؟!

ولا أحرجك فأقول ـ وأنشدك الحق يا دكتور ـ: أفتحيا أنت في حياتك اليومية نمط إسلامي، وتطبع أسرتك كرب بيت بهذا الطابع، ودع البيت وما فيه، أفتقوم أنت في حياتك الشخصية بواجبات الرجل المسلم؛ فضلاً عن

الداعية الذي يتمنى أن يقيض اللَّه للإسلام من يدافع عنه مثله؟!

ولا أحرجك بهذا السؤال الأخير ولا أطالبك بجوابه؛ فأنتم معشر الدعاة العصريين تفرقون بين الحياة الشخصية والحياة العامة، كأن واجبات الفضيلة وتعاليم الإسلام لا تتناولهما جميعًا، وكأن الحياة العامة للفرد ليست مرتبطة بحياته الخاصة كل الارتباط؟!

وبعد يا دكتور طه: فهل من الدعوة للإسلام أن تعرض للنظر في القرآن بالأسلوب الذي اخترته لنفسك من قبل ـ ولعلك عَدَلت عنه من بعد، وهو ما أسرُّ له ـ حتى مع تسليم الدعوى بأن البحث علمي بحت!!

وهل من الدعوة للإسلام أن تقف وقفتك المعروفة في شأن الكتابين الإنكليزيين، وما كان عليك ولا على الجامعة ولا من حرية الفكر من بأس أن تستجيب لأبناء مؤمنين من تلاميذك رأوا في هذا الكلام طعنًا في مقدساتهم، فلجئوا إليك بالطريق القانوني في هدوء وأدب؛ أوَمَا كان أولى بالداعية إلى الإسلام أن يشجع هذه الغيرة ويسرَّ لها ويعطف كل العطف على القائمين بها؟!

وهل من الدعوة إلى الإسلام أن تنادي في صراحة لا تعدلها صراحة: أنه لا سبيل لنا إلى الرقي إلا إذا قلّدنا أوروبة، وسلكنا مسلك الأوروبيين، لنكون لهم شركاء في حضارتهم خيرها وشرها، حلوها ومرها، نافعها وضارها، ما يحب منها وما يكره، وما يمدحه منها وما يعاب، ومن زعم لك ذلك فهو خادع أو مخدوع!!.

ولعلك تقول كما قلت: إنما أريد الدعوة إلى العلم وإلى القوة وإلى الخلق وإلى النظام، وهذا حسن جميل، ولكن أفترى أن الإسلام لم يسلك بالمسلمين السبيل إليه قبل أن تخرج أوروبة من ظلمات جهلها بمئات السنين؟ فلم تدعونا إلى العلم والقوة والخلق والنظام باسم أوروبة الناشئة المتخبطة،

ولا تدعونا إلى ذلك باسم الإسلام الثابت الدعائم الراسخ الأركان؟!.

وهل من الدعوة إلى الإسلام أن تخلط يا دكتور بين الفتيان والفتيات هذا الخلط في كلية الآداب، فتحذو حذوها غيرُها من الكليات، وتبوء أنت بإثم ذلك كله؟!.

وتزين للفتيات في صراحة هذا الاختلاط، وتحثهن عليه، وتدعوهن إليه! ولا تقل إن هذا من عمل غيرك، فيداك أوكتا وفوك نفخ، وما تحمس لهذا ودعا إليه وحمل لواءه واستخدم نفوذه في تحقيقه أحد كما فعلت ذلك أنت!!.

ولعلك تعتبر هذا من مآثرك ومفاخرك، ولكني أخالفك يا دكتور، وأصارحك بأن هذا الاختلاط ليس من الإسلام، وقد رأينا وسنرى ما سيكون له من آثار!!.

هذه صحيفتك يا دكتور طه في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه، فهل لا تزال بعد هذا الحساب اليسير غير العسير الذي لا مناقشة فيه ولا قسوة ولا عدوان، مصرًّا على أن يقيِّض اللَّه للإسلام من يدافع عنه كما تدافع عنه، ومن ينشره ويحبب تعاليمه إلى الناس كما تفعل؟!.

على أننا على استعداد لأن ننسى الماضي جميعه، ونأخذ في جديد مثمر منتج على الأساس الذي وضعته أنت وارتضيناه نحن: أن تثبِّت في نفوسنا ونفسك مكانة الإسلام، وأن تدافع عنه، وأن تنشر تعاليمه، وأن تحببه للناس. وعلى أن يكون هذا الإسلام هو كتاب اللَّه كما تفسره اللغة العربية الواضحة، وسنة رسول اللَّه ﷺ الثابتة الصحيحة كما فهمها السلف الصالحون ـ رضوان اللَّه عليهم.

فهل يضع الدكتور طه يده في يدنا على هذا الأساس، ثم نعاهد اللَّه جميعًا على أن نكون أمناء له مخلصين له مجاهدين في سبيله؟!.

وكلمة أخيرة يا دكتور: لقد قلت ـ وهو قول الحق ـ: إن حياتنا موقوتة، وكل ما فيها موقوت، وإن اللَّه سبحانه وتعالى قادر على أن يسترد المنحة التي منحها لنا، وهي الحياة في أي لحظة، وهو قادر على أن يسترد ما يمنحنا أثناء الحياة.

ما أجمل هذا الإيمان!! أذكرك بهذه الكلمات، وأذكرك أنك الآن رجل قد جاوزت سن الآمال الخلّب، وصرت إلى الآخرة أقرب، وأسأل اللَّه أن يطيل حياتك خادمًا مخلصًا للإسلام، وإن هذا الشعب شعب كريم طيب القلب سرعان ما تنسيه الحسنة الواحدة كثيرًا من السيئات.

وإن اللَّه تبارك وتعالى واسع المغفرة عظيم الفضل عفو كريم؛ فلا عليك يا دكتور أن تختم المطاف بتوبة صادقة نصوح، وتتجرد للإسلام ولخدمة الإسلام ولنشر الإسلام ولتحبيب تعاليمه بحق إلى الناس، فتفوز بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

ذلك ما نرجوه منك ولك، وقلوب الناس بيد اللَّه، يصرفها كيف يشاء، فمن يرد اللَّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام. والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

ذلك هو موقف حسن البنا في مواجهة أهل الفكر: حكمة عالية، وسماحة خلق، مع بيان كل شيء حتى لا ينخدع الناس بكلام مزيف براق»[1] .

*** موقف الشيخ حسن البنا من كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين:**

كان للأستاذ حسن البنا موقف من طه حسين أساسًا، وموقف منه بعد

---

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي (ص٣٩٧ ـ ٤٠١).

صدور كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» وقد أحدث هذا الكتاب دويًا شديدًا[1]، وناقش مجلس النواب استجوابًا خاصًا بهذا الكتاب، وكان أخطر ما دعا إليه طه حسين قوله: «أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادًا».

وقوله: «إن السياسة شيء والدين شيء آخر»، وقوله: «إن العقل الشرقي يوناني الأصل، وأن الإسلام لم يغيّر في العرب شيئًا»، وعقدت محاضرة في جمعية الشبان المسلمين تكلم فيه البنا وبين زيف مقالات طه حسين، وكشف زيفها، وخاصة عبارته الخاصة: «إن علينا أن نقبل الحضارة الغربية: حلوها ومرّها، وما يُحمد منها وما يُعاب»، وقال البنا بعد أن حضر جلسة البرلمان:

«تردد في القاعة ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة تصريحًا أو تلميحًا من أنَّ الدين شيء والسياسة شيء آخر.

ومن أنَّ الدين شيء والقومية شيء غيره.

ومن أن الدين شيء والعلم شيءٌ سواه.

وأنَّ وحدة الدين واللغة لا تصلحان أساسًا لتكوين الدول.

وإن هذا التفريق بين الدين وبين السياسة والقومية والعلم أصلٌ من أصول الحياة الحديثة التي نقلناها عن أوروبة.

فأما أنَّ هذا التفريق والفصل أصل من أصول الحياة الحديثة في أوروبة فأمرٌ لا نخالف الدكتور طه ولا غير الدكتور طه فيه.

ولا ندّعي غيره؛ بل نستطيع أن نقول إنَّ أوروبة استفادت من هذا التفريق والفصل أجزل الفوائد، ولعلها ما كانت تستطيع النهوض بغير هذا.

---

(١) وجاء اليوم من يبعث هذا الكتاب من جديد، ويقدّم له الدكتور محمد فتحي سرور!!.

وأما أننا نقلنا بعض هذه الأفكار من أوروبة، وتأثَّرنا بها إلى حدٍّ كبير أو صغير، وجرت عليها سياستنا العملية في كثير من مظاهر حياتنا؛ فأمرٌ لا نخالف فيه كذلك، وسببه واضحٌ بيِّن: هو أننا أسلمنا قيادَنا أو أسلمتنا الحوادث بعبارةٍ أدقّ إلى ساسةٍ أوروبيين ومعلمين أوروبيين ومشرّعين أوروبيين، فصاغونا كما يريدون وكما يعلمون، واصطبغت سياستنا العملية في معظم شئوننا بهذه الصبغة الأوروبية.

فنحن لا نخالف الدكتور طه ولا غيره في أن حياتنا العملية في كثيرٍ من مظاهرها العامة والخاصة قد انحرفت إلى معنًى أوروبيٍّ بفعل الحوادث المتعاقبة طوال هذه السنين الطويلة.

وهذا الانحراف نفسُه الذي يتخذه الدكتور ومن نحا نحوَه حجةً على وجوب رضانا بأوروبة والاندفاع في تقليدها فيما بقي لنا من مظاهر الحياة، هو نفسه الذي يدفعنا نحن إلى تحذير الأمة من التقليد، وإلى وجوب رجوعها إلى تعاليم الإسلام، وعرض هذه الحضارة الأوروبية عليها؛ فما وافقها قبلناه وما خالفها رفضناه، ونحن لم نجنِ بعدُ من هذا التقليد الخاطئ إلا المصائب والعقم واضطراب الحياة في كل ناحيةٍ من نواحيها.

ولكن الذي نخالف فيه الدكتور طه وغيره ممن يؤمن بفكرته هذه؛ ادّعاءُ أن هذا التفريق بين العلم والسياسة، وبين الدين والقومية[1]، وبين الدين والعلم نافعٌ لنا، متفقٌ مع تعاليم ديننا.

هذه دعوى ينقضها الدليل النظري والدليل التاريخي، وتتنافى تمامًا مع مصلحتنا ومع مقوِّمات نهضتنا.

والذي يريد أن يجرِّد الإسلام عن معناه السياسي وعن معناه القومي وعن معناه الثقافي يريد بمعنى آخر ألاَّ يكون هناك شيءٌ اسمه (الإسلام)

(١) هذا المصطلح أتى به الاستعمار إلى بلادنا الإسلامية ليفرق بين المسلمين.

تؤمن به هذه الأمة، وهو عند نفسه وعند الناس يخدع هذه الأمة ويخاتلها، ويعدل بها عن الإسلام الحق إلى إسلامٍ من عند نفسه، لا يتّصل إلى الإسلام الصحيح بسبب، وإنما هو في الحقيقة مسيحيةٌ سمَّاها هو الإسلام.

إنَّ أوروبة حينما فصلت بين الدين والسياسة وبين الدين والقومية وبين الدين والعلم؛ كانت مدفوعةً إلى ذلك بعوامل قهرية ضرورية.

فالدين الذي كان يسودها وتؤمن به شعوبها خالٍ تمامًا من التشريعات العملية والمعاني السياسية، وهو وصايا روحية محدودة في الكتب المقدسة، وطقوس كهنوتية بين جدران الهياكل والمعابد. والرجال الذين كانوا يمثّلون هذا الدين كانوا شجًا في حلق الدولة والعلماء بما لهم من سلطانٍ مطلق أكسبتهم إياه هذه التعاليم.

وتاريخ أوروبة القديم والوسيط سلسة نزاع بين الأمراء والباباوات من جهة وبين العلماء والكنيسة من جهةٍ أخرى، بل تعدَّى الأمرُ في هذا النضال إلى الشعوب نفسها، فكان النضال كثيرًا ما يكون بين الشعب بأسره وبين الكنيسة.

هذه الأمور الثلاثة: طبيعة الدين الأوروبي، وهيمنة رجاله على الدولة والعلم، والنضال الطويل بين نواحي الجهات الأوروبية المختلفة؛ كلُّ ذلك دعا أوروبة إلى أن تفصل بين الدين والسياسة، وبين الدين والقومية، وبين الدين والعلم. فهل هذه المعاني تنطبق على الإسلام؟

أحبُّ أن يفكر السادة الباحثون في الجواب على السؤال بإنصاف، وهم سيقولون بعد ذلك بملء الفم: لا ثم لا.

إنَّ طبيعة الإسلام ليست طبيعةً روحية بحتة، فهو دينٌ روحي وعملي معًا، وهو لم يحصر نفسه في حدود المساجد والمعابد، ولم يحفل بالطقوس والمظاهر، وإنَّ الدين الذي يقول لبنيه: (ابنوا مساجدَكم جمًا) أي غير مزيّنة

ولا مزخرفة ولا مبالَغ في بنائها ورفعها (وابنوا مدائنكم مشرفة) أي محصّنة مسوّرة، مجهّزة بأدوات الدفاع وما إليها، إن الدين الذي يجعل هذا من شعاره لعظيمُ العناية بشئون الدنيا ومصالح الناس، كما يعنى تمامًا بصلاح الروح والآخرة.

* وشعار الإسلام: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

الدولة والعلم من أعظم أركان الإسلام وأثبت قواعده وشعائره؛ فأين هذا من بُعد الدين الأوروبي عن مظاهر الحياة العامة، وإن رجال الإسلام في كل عصرٍ من عصوره إلى الآن لم يدّعوا لأنفسهم سلطةً أكبر مما يؤهّلهم لها علمهم بهذا الدين وصلتهم به، ولم ينازعوا الأمر أهله بعضًا من الأيام، ولم يُعرَف عنهم إلا إنكار المنكر حين يشيع وتشجيع المعروف حين يظهر والوقوف عند حدود اللّه.

* وإذا كان شعار الرسول الأعظم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢]، فأين هذا من سلطان الإكليروس في أوروبة وما ادّعوه لأنفسهم من سلطانٍ على قلوب الناس وإيمان الناس وحياة الناس الدنيوية والأخروية!!

وتبعًا لهذا كان تاريخ الإسلام مع الدولة ومع العلم صفحاتٍ مجيدة من التعاون والتآزر والسلام؛ فكيف يقال بعد ذلك إن هذا الأصل الذي سارت عليه أوروبة في فصل سياستها وعلومها وقومياتها عن الدين يجب أن

يطبَّق عندنا، ويجب أن نتلقّاه على أنه أصلٌ صالح لنا؟!

نريد أن نتفق على أصلٍ صالح للنهوض، ونريد أن نحدد الهدف معًا، حتى لا نختلف ولا نضلّ، ونريد أن نتبع الهدى الواضح والنور اللائح حتى لا نفشل ونقاسي من الآلام، ولا ينفعنا في ذلك إلا العودة إلى هدي الإسلام.

إن كنتم آمنتم بهذه الأصول في حياة أوروبة على أنَّها حقائق لا تقبل النقض، فاعلموا أنها لا تتفق مع الإسلام، وأنكم بذلك تصطدمون بإسلامكم، فكونوا شجعانًا وكونوا صرحاء في إعلان الخروج على الإسلام حتى لا تخدعوا أنفسكم وتخدعوا الناس، وإن كنتم آمنتم بالإسلام على أنه حقٌّ ثابت فنحن نرضى أن نتحاكم جميعًا إليه، وحينئذٍ سنلتقي ونتفق وستعلمون أنَّ الدولة وأنَّ العلم من أركان الإسلام»[1] .

*** الأستاذ البنا يزأر بالحق في عرينه «النذير» ويكتب «متى يستقيم الظل والعودُ أعوجُ؟ على رئيس الوزراء والوزراء أن يقيموا الصلاة الجامعة أولاً»:**

مضى البنا وصحيفته «النذير» في مواجهة أخطاء المجتمع والسياسة بقوة (متى يستقيم الظلّ والعود أعوج، على رئيس الوزراء والوزراء أن يقيموا الصلاة الجامعة أولا).

«أيُّ دين يبيح لكم هذا: في حفل وزير الخارجية الرسمي رقصٌ وشراب واختلاط!! اللَّهم إنَّ الإسلام لا يبيح هذا ولا يرضاه».

وندَّدت «النذير» بما نشرته الصحف عن سباق الخيل باعتباره بابًا لزيادة إيرادات الدولة.

وقالت: «هل ضاقت بوزير المالية مصادر الزيادة في الإيرادات فلم يجد

(١) «حسن البناء» (ص١١٦ ـ ١٢٠، ٥٣١، ٥٣٢).

أمامه إلا باب الميسر والمال الحرام»!!

ولما قصد وزير المالية والنائب العام إلى ميدان السباق قالت: «إنَّ هذا فرعٌ من الميسر لا شك فيه قد نهانا عنه الشرع وحرّمه الدين.

لئن ربح النائب العام جنيهات معدودة لقد خسر رضاء اللّه وثقة المسلمين».

وهاجمت «النذير» حديثًا للشيخ مصطفى عبدالرازق حين قال: «أنا لا أقرّ فضيلة الشيخ أبي العيون على مقترحاته بخصوص الآداب على الشواطيء ولا أذهب مذهبه».

وقالت: «لقد عرف الجميع عصريَّته التي قد تخالف الحياة الإسلامية الصحيحة، ولكن ما كان أحدٌ يتصوّر أن يذهب إلى مثل هذا الجواب الملتوي، كنا نتصور أنَّه موافقٌ مثلاً على اختلاط الجنسين في الجامعة، ولكن ما كنا نتصور أنه لا يقرّ مقترحات الشيخ أبي العيون التي يرمي بها إلى القضاء على الفساد الذي يُرتكب في الشواطيء أمام بصر الحكومة وسمعها.

وما كنا نظن أنَّ الشيخ مصطفى عبدالرازق - خريج الأزهر الأغر - يسكت عن إبداء رأيه في مقترحات الشيخ أبي العيون بما يُفهم منه عدم رضاه عنها».

وعارض الأستاذ البنَّا شيخَ الأزهر حين أعلم موافقَته على أن يلبس رجال الجيش القبَّعة شبيهًا بالجنود الأجانب.

وقال: «إنَّ لبس القبعة أمرٌ يحرِّمه الدين أشدَّ التحريم، لما يستتبعه من مفاسد وأضرار، فقد حرَّم الإسلام كلَّ لباسٍ يُضعِف في نفس المسلم معنى الفكرة الإسلامية بأن يجعله شبيهًا بالكفار في الهيئة وإن لم يكن هذا اللباس خاصًّا برجال دينهم، وقد وضع الإسلام في ذلك وغيره قاعدته المعروفة:

«من تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[(١)] .

◻ وكتب يقول: «أجل لا بد من جديد في هذه الأمة؛ ولكن أتدرون ما هو الجديد الذي لا بد منه، ولا إصلاح بدونه؟ إنه تغيير القلوب، وتبديل النفوس، وتطهير الأرواح، وتزكية السرائر والضمائر، والعودة إلى اللَّه من جديد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

الجديد هو تغيير هذه النظم المرقعة المهلهلة التي لم تجنِ منها الأمة إلا الشقاق والفرقة، هذه الأوضاع البالية الفاسدة التي نُقلت إلينا من أرضٍ غير أرضنا وبلدٍ غير بلدنا، ولم تُصلح أهلها فضلاً عن إصلاحنا.

الجديد هو العودة إلي كتاب اللَّه ونظم الإسلام في الحكم والقانون والسياسة.

أيها الزعماء: ما دمتم ضعاف العزائم والإرادات فلن تصلح على أيديكم مصر وما دمتم تحبون أنفسكم أكثر من هذا الوطن وتعملون لمصالحكم الشخصية أكثر مما تعملون لهذه الأمة؛ ستظل هذه الأمة كحمار الرحى يدور والمكان الذي بدأ منه هو الذي ينتهي إليه، وستُحَلُّ وزارة بعد وزارة.

وأنت أيها الشعب، إنَّ القومَ يغررون بك ويخدعونك عن دينك. ضعوا عن أبصاركم هذه المناظير الملونة التي قدمتها لكم أوروبة وروّجها عليكم ساسة العصر، وانظروا إلى الإسلام بنور اللَّه الذي هداكم به».

◻ ولما ذهب الشيخ مصطفى عبدالرازق - وهو وزير - إلى إحدى الحفلات الراقصة بعمامته، كتبت صحيفته تقول: إلى اللَّه نبرأ من هذه العمامة.

ولما وقف مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد ليعترض على الشريعة

---

(١) المصدر السابق (ص١٢٠ - ١٢١).

الإسلامية ويسخر بها؛ تعرّض له في حزمٍ وأدبٍ إسلامي جمّ وبراعة فائقة:

«لقد تصوّر (رفعة الباشا) هذه الحركة بأنها وليدة مؤامرة يُراد بها تعويق سير مؤتمر إلغاء الامتيازات، ويعترف بأن الحدود مقررة في شريعتنا، ولكنها لا ترضي الأجانب، ثم ذكر أنَّ القائمين بهذه الحركة لا قيمة لهم ولا وزن، ثم بيّن أنه ليس المراد بهذه الحركة وجه اللَّه ولا إعلاء كلمة اللَّه، فإن الإسلام بحمد اللَّه عالي الجنبات.

هذا كلامٌ يجب أن لا يمرّ على الأمة دون أن نبين ما فيه:

إن المطالبة بالشريعة الإسلامية وإحلالها محل التشريع ليست مؤامرةً ولكنها شعورٌ قويّ فيَّاض يجيش به قلب كل مسلم، وأمنية عزيزة كريمة يراها المصريون جميعًا أسمى أمانيهم، وواجبٌ حتم مروض، إن لم يقم به أناس فقد أثموا إثمًا عظيمًا، وعرَّضوا أنفسهم في الدنيا لعذاب الجريمة واضطراب الأمن وفساد الخُلق، ولعذاب اللَّه في الآخرة: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وسيظل الإخوان يطالبون بإعادة التشريع الإسلامي كركنٍ من أركان حياة مصر الإسلامية حتى يحقق اللَّه غايتهم أو يموتوا دونها.

أما أنَّ الأجانب لا يرضيهم هذا فنحن نعيش في بلادنا لأنفسنا لا للأجانب، وإن قهرتنا الظروف في بعض الأحيان على المجاملة واللين فلن ينسينا ذلك أن لنا حقًّا مهضومًا لا بد أن نناله، ولا ينسينا ذلك أن ننتهز الفرص لنتحرر من هذا الرقّ والتحكم في شئون حياتنا المصرية ممن لا يمتّون إلينا بصلة، وكان على الزعماء أن يصارحوا الأمة بأننا غير أحرار في تشريعنا وغير أحرار في أموالنا، ويهيبوا بنا أن نعمل جاهدين لنستكمل الاستقلال

الحقيقي في الإدارة والحكم والشريعة والاقتصاد، ولكن الزعماء - عفا اللَّه عنهم - قنعوا من الاستقلال بوثيقةٍ لا قيمة لها وتركوا الشعب مكبّلاً في كل ناحية من نواحي حياته.

أما المطالبون بالتشريع فليسوا قلةً بحيث لا يقام لهم وزنٌ ولا يُرهَب جانبُهم، بل هم المسلمون جميعًا والمنصفون من غير المسلمين كذلك، إنهم الشعب المصري. وسيعلم الزعماء - إن لم يكونوا يعلمون - أنَّ هذه الغاية ليست غايةَ فردٍ ولا جماعة، ولكنها غايةُ كل مصري يعيش في هذا البلد، ولئن ضبطت الأمة شعورها وآثرت الحكمة في السير، فليس معنى هذا أنها نسيت أو تغافلت، وستأتي الساعة التي يدوّي فيها هذا الصوت رائعًا قويًّا رهيبًا يصمّ الآذان ويخلع قلوب المترددين المتحللين؛ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]!!.

بقي أن الإسلام عالي الجنبات رفيع الذرى، وإنه لكذلك، وإن اللَّه له لحافظ، وإن أرواح المسلمين له فداء، ولكن الزعماء - هداهم اللَّه - في ناحيةٍ وهذا الإسلام العالي الجنبات في ناحية أخرى.

أنت معنا بنصّ هذا الخطاب في أنَّ قطعَ يد السارق، ورجم المحصن، ومنع التعامل بالفائدة من القواعد المقررة في شريعتنا السمحة، وطبعًا إنَّ محاكمنا وقوانيننا تتعامل بغيرها، فنحن إذن على اتفاق في أننا نتحاكم إلى غير كتاب اللَّه ونظام الإسلام ونحن مع هذا مسلمون!!

فهل أنتم راضون عن هذا أو ساخطون عليه؟

إن كانت الأولى فقد حاربتم الإسلام ورضيتم بضياع أحكامه؛ وإن كانت الثانية فهلاً فكرتم في أن نتعاون جميعًا على إزالة هذا المنكر، والمطالبة معًا بتشريع الإسلام وتذليل العقبات في هذا السبيل، ومصارحة الأمة بأنه لا

يصلحها إلا هذا، وتقويتها تقويةً تامة للوصول إلى هذه الأهداف، وحينئذٍ تتخلَّصون من التبعة بين يدي اللَّه وتنصحون الأمة».

*** وعن معركة فلسطين قال:**

«إن أشدَّ ما يمكِّن لأعدائكم في دياركم قعودكم عن نصرة إخوانكم، فقد كانت الأندلس تُغتصَب في الوقت الذي فيه مصر القومية تصادق فرنسا المغتصِبة».

*** كلامه عن المحاكم الأهلية:**

وعندما جاء العيد الخمسون للمحاكم الأهلية واحتفلت به دوائر الصحافة والحكومة أعلن صيحةً مدوّية:

إنَّ المحاكم الأهلية بنظامها الحالي وتشريعها الحالي تصطدم بتعاليم الإسلام في عدة نواحي:

أولاً: في الحدود التي ذكرها القرآن وأثبتتها السنة الصحيحة للسارق والزاني والشارب ونحوهم من قطع اليد والجلد والرجم.

ثانيًا: في إعفاء الزانيين من العقوبة إذا رضيا عن هذا الزنى في سنٍّ محدودة.

ثالثًا: في إباحة الفائدة في الربا.

إن التشريع الحالي في المحاكم يصطدم بتعاليم الإسلام وأحكامه في هذه النقاط وفي غيرها، ومعلوم أن الأمة التي تحتكم إلى هذه المحاكم وتطبق عليها هذا التشريع أمةٌ إسلامية تدين بالإسلام، وتنزل على حكمه، وتعتزٌّ به وبتعاليمه؛ فلا بدَّ من تعديل التشريع الحالي بما يتناسب مع الدستور ومع القوم الذين يطبَّق عليهم التشريع لرفع هذا التناقض القائم بين القانون الكلي للدولة وهو الدستور وبين القانون الجزئي وهو تشريع المحاكم الأهلية.

* رده على «سامي الكيالي»:

وهو لا يتوقف عن مواجهة كل كاتب وباحث إذا ما خالف الطريق.

ومن ذلك ما وجَّهَه إلى صاحب مجلة الحديث (سامي الكيالي):

«يا أستاذ سامي: إنك مسلمٌ عربي، الإسلامُ فخارُك ولا مجد لك إلا به، والعربيةُ قوميتُك فلا عزة لك بدونها، وإن تشدَّق التركي بطورانيته والمصري بمصريته فلن تجد لك إلا العرب والإسلام، فأنت من بيتٍ كان أولى الناس بالدفاع عنهما والانتصار لهما؛ فلتنفض يدك من هذه الشيعة الشعوبية المفارقة، ولتطهِّر (الحديث) من مغامزهم.

ولا يهولنك قطع الصلة بهؤلاء؛ فلأن تصل الحقَّ أولى وأجلّ، وليبدلنَّك اللَّه منهم أرضًا بأرض وإخوانًا بإخوان.

لقد حشوتَ مجلتك بتعسُّفات الدكتور طه في العلم والدين والأدب، وتبجُّحات سلامة موسى وإسماعيل مظهر والشاعر الزهاوي، وبالغتَ في صوغ عبارات المدح والثناء لهم؛ وهم الذين هاجموا الإسلام في أرسخ قواعده، وكادوا للقومية العربية في أظهر مزاياها.

ورأيناك تقرظ كتاب (حرية الفكر) وفيه من المغامز ما لا يتسع المقال لنقله، وتشيد بذكر كتابَي (الشعر الجاهلي) و(الأدب الجاهلي) وتنتصر فيهما لأستاذك؛ ولقد أجمع العقلاء على ردِّهما، وتنشر القصيدة التائية للزهاوي وكلُّها إنكارٌ للبعث والروح، وتنشر لكاتبٍ ألمانيٍّ مقالاً بعنوان (خديجة) أساء بها إلى مقام الرسول الأعظم ﷺ وأم المؤمنين ﵅، إلى ما فيه من خلطٍ شطط؛ ولم تعلِّق عليه بكلمة غير أن نقلتَ حديث الإفك من البخاري.

شيءٌ آخر، ذلك هو أنَّ الناس جميعًا يعلمون أنَّ هذا الانقلاب التركي وما كان ينويه (أمان اللَّه) في الأفغان هو عداءٌ كامن للعربية ومحاربة صريحة للإسلام وانسلاخٌ عن شريعته، ومع هذا فأنتم تحبِّذونه، وتنشرون فيه كلمات

التشجيع والإغراء.

* **لله در البنا:**

لقد عمل البنا على تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح، يعمل على صبغ الأمة الإسلامة بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** ﴾.

لقد حمل البنا حملة قوية على المناوئين والمنحرفين عن الجادة، وتكلم بلسان المصلح عن أسباب التخلف وردّها إلى الانفصال عن أحكام اللَّه ونظامه وقرآنه فقال رحمه اللَّه:

أيها الناس: إن اللَّه بعث لكم إمامًا ووضع لكم نظامًا، وفصَّل أحكامًا وأنزل كتابًا، وأحلَّ حلالاً وحرَّم حرامًا؛ فهل اتبعتم إمامه واحترمتم نظامه، وأنفذتم أحكامه وأحللتم حلاله وحرَّمتم حرامه؟

كونوا صرحاء في الجواب، وسترَون الحقيقة، واضحةً أمامكم: إن كل النظم التي تسيرون عليها في شئون الحياة نظمٌ تقليدية بحتة لا تتصل بالإسلام ولا تستمد منه ولا تعتمد عليه!!

نظام الحكم الداخلي، نظام العلاقات الدولية، نظام القضاء، نظام الدفاع والجندية، نظام المال والاقتصاد للدولة والأفراد، نظام الثقافة والتعليم، نظام الأسرة والبيت، نظام الفرد في سلوكه الخاص.

إنَّ الروح العام الذي يهيمن على الحاكمين والمحكومين ويشكِّل مظاهر الحياة على اختلافها كلٌّ ذلك بعيدٌ عن الإسلام وتعاليم الإسلام.

من الحق أن نعترف بأنَّ موجةً جارفة وتيارًا شديدًا دفاقًا قد طغى على العقول والأفكار في غفلةٍ من الزمن وفي غرور من الشعوب المسلمة وانغماسٍ منهم في الترف والنعيم، وعزت الأمةَ الإسلامية في عقر دارها، وأحاطت بالمسلمين في كل مكان، ودخلت بيوتَهم ومخادعهم؛ بل احتلَّت قلوبَهم

وعقولهم ومشاعرهم!!.

ونشأ في كل الشعوب الإسلامية جيلٌ مخضرم، إلى غير الإسلام أقرب، تصدَّر في تصريف أمورها واحتلّ مكان الزعامة الفكرية والروحية والسياسية والتنفيذية منها، فدفع بالشعوب الغافلة إلى ما يريد، إننا بعُدْنا عن هدي الإسلام وأصوله وقواعده!!

حقًّا لقد تقدَّم العلم والطب والفن والفكر، وتزايد المال، وأخذت الأرض زينتها وازَّينت، وأُترف الناس ونُعِّموا، ولكن هل جلب هذا لهم شيئًا من السعادة، وهل أمَّن لهم شيئًا من الحياة الكريمة؟!

هل حُوربت الجريمة واستراح المجتمع من شرور المجرمين؟!

هل استغنى الفقراء وأشبعَتْ الملايين التي تفوق الحصر من بطون الجائعين؟!

هل ساقت هذه الملاهي والمفاتن التي ملأت الفضاء وسرتْ مسرى الهواء العزاءَ إلى المحزونين؟!

هل تذوَّقتْ الشعوب طعمَ الراحة والهدوء، وأمِنتْ عدوان المعتدين وظلم الظالمين؟

لا شيء من هذا!!

أيها الناس فما فضل هذه الحضارة إذن على غيرها من الحضارات؟!

ألسنا نرى هذه النظم والتعاليم والفلسفات حتى في العلوم وفي الأرقام يحطِّم بعضُها بعضًا، ويقضي بعضها على بعض؟!

*** ما مهمتنا إذن؟**

أما إجمالاً: فهي أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة، وحضارة المتع والشهوات، التي جرفت الشعوب الإسلامية فأبعدَتها عن زعامة

النبي ﷺ وهداية القرآن، وحرمتْ العالم من أنوار هديهما، وأخَّرتْ تقدُّمَه مئات السنين، حتى تنحسر عن أرضنا، ويبرأ من بلائها قومنا.

ولسنا واقفين عند هذا الحدّ، بل سنلاحقها في أرضها وسنغزوها في عقر دارها حتى يهتف العالم كلُّه باسم النبي ﷺ، وتوقن الدنيا بتعاليم القرآن وينتشر ظلّ الإسلام الوارف على الأرض.

وحينئذٍ يتحقق للمسلم ما ينشده، فلا تكون فتنةٌ، ويكون الدين كله للَّه ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

أما في التفاصيل: فهي أن يكون في مصر أولاً ـ بحكم أنَّها في المقدمة من دول الإسلام وشعوبه ثم في غيرها كذلك:

* نظامٌ داخلي للحكم يحقق قول اللَّه تبارك وتعالى:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

* ونظام للعلاقات الدولية يتحقق به قول القرآن الكريم:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

* ونظام عملي للقضاء يستمَدّ من الآية الكريمة:

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

* ونظام للدفاع والجندية يحقق مرمى النفير العام:

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ٤١].

* ونظام اقتصادي استغلالي للثروة والمال، للدولة والأفراد، أساسُه قول

اللَّه تعالى: ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء: ٥].

* ونظام للثقافة والتعليم يقضي على الجهالة، ويطابق جلال الوحي في أول آية نزلت من كتاب اللَّه: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١].

* ونظام للأسرة والبيت ينشيء الفتى المسلم، والفتاة المسلمة، والرجل المسلم، ويحقق قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

* ونظام للفرد في سلوكه الخاص يحقق الفلاح المقصود بقوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

* وروحٌ عام يهيمن على كلِّ عامل في الأمة من حاكم ومحكوم قوامُه قوله تعالى:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾ [القصص: ٧٧].

❑ نحن نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والدولة التي تقود الشعوب الإسلامية وتضم شتات المسلمين وتستعيد مجدَهم وتردّ عليهم أرضهم المفقودة وأوطانهم المسلوبة وبلادهم المغصوبة، ثم تحمل بعد ذلك علم الجهاد ولواء الدعوة إلى اللَّه حتى نُسعد العالم بتعاليم الإسلام.

سيقول الذين يسمعون هذا : إنه الخيال بعينه، وإنه الوهم، وإنه الغرور، وأنَّى لهؤلاء الذين لا يملكون إلا الإيمان والجهاد أن يقاوموا هذه القوى المتألِّبة المجتمعة والأسلحة المتنوعة المختلفة، وأن يصلوا إلى حقِّهم وهو بين

ذراعَي وجبهة الأسد.

سيقول كثيرون هذا، ولعل لهم بعض العذر؛ فهم قد يئسوا من أنفسهم، ويئسوا من صلتهم بالقوي القادر، أما نحن فنقول: إنها الحقيقة التي نؤمن بها ونعمل لها، ونحن نقرأ قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾ [النساء: ١٠٤].

وإنَّ الذين فتحوا أقطار الدنيا ومكّن اللَّه لهم في الأرض من أسلافنا؛ لم يكونوا أكثر عددًا ولا أعظم عدة، ولكنهم كانوا مؤمنين مجاهدين وكفى»[1].

*** كلمته إلى الوزراء وأولياء الأمور:**

في يونيو ١٩٤٣م توجَّه مجموعة من الوزراء لزيارة البنا: فؤاد سراج الدين، وعبدالحميد عبدالحق، ومحمود سليمان غنام، وأحمد حمزة، ودكتور محمد صلاح الدين، وكان مما قاله البنا:

«كلمةٌ خاصة أوجهها إلى أصحاب المعالي الوزراء خاصةً، وإلى أولياء الأمور عامةً، بعاطفة الوطني لا بلسان السياسي، وهي النصيحة الواجبة لا معدى عنها ولا مناص، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**الدين النصيحة. قلنا:** لمن يا رسول اللَّه، قال: **للَّه، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامَّتهم**».

إنكم أولياء الأمر ورعاة الشعب، وأنتم المسئولون بين يدي اللَّه عما استرعاكم، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيَّته**»، وفي أيديكم سلطاتٌ واسعة لا يحجزكم شيءٌ عن استخدامها والانتفاع في خير هذا الشعب بها، وقد قال الخليفة الثالث رضي الله عنه: «إن اللَّه

---

(١) «حسن البنا» (ص١٠٦ ـ ١١٠).

ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، فاقدروا هذه التبعة وإنها لعظيمة، واستخدموا هذه السلطات في محاربة المنكرات الفاشية وعلاج الآفات الكثيرة، والقضاء على المعاصي والآثام المنتشرة، وتقرَّبوا إلى اللَّه بمناصرة المعروف وتغيير المنكر وصالح العمل ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١][(١)].

*** للَّه درّك يا بنا ودرّ أسودك في فلسطين:**

كانت معركة فلسطين هي الشغل الشاغل لحسن البنا، وترجم هو وأبناؤه ذلك عمليًا.

كان يوم ٧ ديسمبر ١٩٤٧م يومًا حاسمًا حين انعقد المؤتمر العربي الكبير في الجامع الأزهر من أجل فلسطين وقال البنا في كلمته:

«ليس هذا العدوان الذي اجتمعنا اليوم من أجل التفكير في وسائل دفعه عن أرض العروبة والإسلام نظير في تاريخ البشرية كلها، فلم يحدث أن تآمرت طائفة من الناس على أرض أمة من الأمم فاحتلتها بالخديعة، ثم اقتطعت منها ما شاءت بالإرهاب، ثم سخرت أمم المادة والشهوات لتحكم لها بما أرادت؛ بشراء الذمم واحتكار الضمائر والمساومة على الأصوات، ثم زعمت أنها ستقيم دولة، وتنشيء حكومة لتعيش بين هذه المجموعة الضخمة من الشعوب رغم أنفها».

«إن قرار التقسيم الظالم الذي يقر قيام دولة صهيونية في قلب بلاد العرب لا ينال فلسطين وحدها، ولكن يتعداها إلى كل وطن عربي آخر بجوارها، ثم إلى الأوطان الإسلامية جميعًا، فإن اليهود لا يخفون نواياهم، ولكنهم يجاهرون ويهتفون بأن ملك إسرائيل من الفرات إلى النيل، بل إنهم

---

(١) المصدر السابق (ص١٤٣).

ليحلمون بيثرب موطن بني قريظة وبني النضير سابقًا، ومهوى قلوب المسلمين وأفئدتهم اليوم، ومستقر أكرم إنسان عرفته الإنسانية سيدنا محمد ﷺ، ولن يصلوا إلى شيء بإذن اللَّه ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]».

«إن المسلمين في بقاع الأرض سيقاومون بكل ما فيهم من شدة هذا العدوان الصارخ، ولن يستسلموا أبدًا لمستعمر الأمم المتحدة المزيفة، ولا لإرهاب الصهيونية الذليلة وقوتها المصطنعة، وسيرى الذين يشكون أو يتشككون في مقدرة المسلمين وقوتهم واستعدادهم للدفاع أنهم واهمون.

وإننا بحمد اللَّه نملك من القوة المادية والمعنوية ما نصل به إلى النصر إن شاء اللَّه، وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

«إننا معشر المسلمين على اختلاف بلادنا قد تفهمنا سرّ الشهادة، وتذوق أسلافنا حلاوتها، وقد فرض الإسلام على كل مسلم أن يكون جنديًا للحق، يذود عنه بنفسه وماله وروحه، ولا يتردد في ذلك أبدًا، إننا نؤمن بأن آجالنا محدودة وأيامنا معدودة، وإننا نؤمن بأنه لن يصيبنا شيء إلا بقضاء اللَّه». اهـ.

«وكان الأستاذ البنَّا قد أعلن أنه سيدخل إلى فلسطين في عشرة آلاف مجاهد كدفعة أولى، ولكن الاستعمار البريطاني حال دون تحقيق ذلك، ورفضت حكومة (النقراشي) السماح بإدخال فوج من مجاهديهم ليرابط في الجزء الشمالي من صحراء النقب، فاتخذوا سبيل التعمية وذهبوا إلى سيناء في رحلة علمية، ومنها دخلوا إلى فلسطين سرًا حيث لحقت بهم دفعات أخرى.

وبدخول أفواج الإخوان في فبراير (شباط) ١٩٤٨م بدأ القتال الفعلي في صحراء النقب، حيث أخذوا في مهاجمة المستعمرات اليهودية بعناد وصلابة، رغم قلة عددهم وضعف أسلحتهم، وتجمع حولهم المجاهدون من

أهل فلسطين، وبدأت حرب عصابات منظمة، غير أن الحكومة طلبت من الإخوان سحب قواتهم من النقب، ورفض الإخوان، فقطعت عنهم الإمدادات، فلم يثنهم ذلك شيئًا، وعاشوا أيامًا طوالاً على التمر والماء وعلى الخبز اليسير الذي يشترونه من نقود قليلة يرسلها أهلوهم بين حين وآخر، ووجدوا من إخوانهم العرب كل معونة، حتى دخل الجيش المصري البلاد وأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية في النقب، واشتركوا في معظم العمليات، فلم تراجع الحكومة موقفها، بل شددت رقابتها، واضطر الإخوان إلى السير على الأقدام فتتابعت جموعهم، وكان أكثرهم شبابًا أحداثًا، جاؤوا راغبين في تأدية فريضة الجهاد، غافلوا رجال البوليس وقفزوا إلى عربات البضائع في قطارات السكك الحديدية، وساروا مسافات شاسعة في صحراء سيناء!!.

كان الإخوان خطرًا كبيرًا على كيان إسرائيل، فقد نجحوا في التسلل عبر الحدود، ولم تمض أسابيع قليلة على بداية الصدام حتى حمل الإخوان لواء الجهاد الشعبي، ونجحوا في إدخال عدد كبير من خيرة شبابهم من مصر وسورية وشرق الأردن، وساهم إخوان سورية بقيادة (مصطفى السباعي)، ثم قدّم الإخوان شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية، فتشكلت منهم ثلاث كتائب أتمت تدريبها في معسكر (الهايكستيب)، ثم تسللت إلى فلسطين بقيادة أحمد عبدالعزيز، وعبدالجواد طبالة.

وقام الإخوان بدورهم في معارك فلسطين في بسالة أدهشت القوات المصرية، وأدهشت الإنكليز واليهود على السواء.

بل إنهم في فترة من الفترات كانوا طلائع للجيش المصري تحميه وترد عنه عادية المباغتات.

وكان الأستاذ البنَّا يعدّ العدة في ذلك الوقت لأن يقدم إلى فلسطين مع قوة ضخمة للدفاع عن القدس، حيث كان اليهود يشنون هجمات عنيفة على

مراكز الجيش الأردني، وكان على وشك إعلان الجهاد الديني والتعبئة الشعبية بعد أن فشلت الحكومة وجامعة الدول العربية.

على أن هذه الحركة لم يقدر لها النجاح، بل لعلها هي التي سارعت بالعمل على حل الإخوان وتصفيتهم بعد أن هز قتالهم الرائع في فلسطين دوائر الاستعمار والصهيونية، ووقفت الحكومة المصرية ضد تقدمهم، وأمرت بانسحابهم من المواقع التي كانوا يحتلونها إلى معسكراتهم.

وكان جمع المجاهدين من الإخوان في معسكراتهم والحد من نشاطهم مقدمة لهذا العمل الذي دُبِّر بليل.

لقد كشفت معركة فلسطين عن أشياء كثيرة، عن ظهور جيل جديد يؤمن باللَّه والجهاد في سبيله، ويحمل السلاح ويقاتل، ويواجه الاستعمار البريطاني والاحتلال الصهيوني، وهو ما عمل الاستعمار سنوات طويلة دون وقوعه ولقد رأى الاستعمار هؤلاء الذين يستشهدون فرحين بلقاء ربهم، وشاهد صورًا عجيبة من بطولة هؤلاء المؤمنين.

لقد كشف الإخوان بدخولهم معركة فلسطين عن حقيقة خطيرة، هو أنهم أصبحوا قادرين على العمل في ميدان من شأنه أن يقلب خطط الاستعمار رأسًا على عقب، فكان لا بد من القضاء على ذلك كله.

وكان مما أشار إليه الأستاذ البنَّا من عبرة فلسطين قوله: «كنتم تقولون متحمسين: الجهاد سبيلنا، فأبتسم ابتسامة الإشفاق، وأقول عند الامتحان، فجاء الامتحان القاسي في قضية فلسطين، فأثبتم صدقكم وصدق إيمانكم، وألحقكم ـ والحمد للَّه ـ بسلفكم الصالح من الأنصار والمهاجرين»[1].

* لا يؤمنون باللَّه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ

---

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي ص(٢٣٢ ـ ٢٣٤).

نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

قيل بين مَن ومَن؟

والجواب إنها بين الإخوان المسلمين الذين رأوا منذ عشرين سنة انحراف العالم كله عن جادة الصواب وضلاله في مسالك النظم الاجتماعية الفاسدة، وإهماله لهذا النظام الرباني الكريم والصراط المستقيم. كما رأوا كذلك نسيان أهل القرآن أنفسهم والمنتسبين إليه من أبناء الأمة الإسلامية لما فيه من روائع الحكم والأحكام، وانصرافهم عنه إلى مبادئ ودعوات لم يعرفوها، ونظم وأحكام لم يألفوها، جرّت عليهم الخيبة والفساد في الدنيا، وسيكون جزاؤها الندم والعذاب في الآخرة، فقاموا منذ هذا التاريخ يهتفون «القرآن دستورنا» ويطالبون في إلحاح بأن يكون للقرآن أمته الواعية، ودولته العاملة.

المعركة بين هؤلاء وبين أولئك من الصنفين: الذين لا يؤمنون به على اختلاف أممهم ودولهم وعقائدهم ليؤمنوا، والذين آمنوا به على اختلاف طوائفهم وهيئاتهم وأحزابهم ومذاهبهم ليتذكروا ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

قيل وعلى أي أساس تدور؟

والجواب: إنها تدور بالحكمة والموعظة الحسنة، والبيان الصريح الكافي والدعوة الواضحة المشرقة، على أساس النصوص القرآنية المحكمة القاطعة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ولن ندع الخصوم يفلتون من ثنايا وجوه التأويل والتفسير، أو يفرون من أبواب النقاش والجدل العقيم، بل سنوقفهم أمام النص المحكم وجهًا لوجه، فلا يستطيعون منه فرارًا أو إفلاتًا، فإما عناد وإما تسليم:

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الانفال: ٤٢].

قيل وما النتيجة المرجوة من ذلك؟

والجواب: التميُّز أولاً، فلا بدَّ أن يمتاز أهل الحق من أهل الباطل، وحينئذٍ يزداد الذين آمنوا إيمانًا بعد وضوح حجتهم وبيان محجتهم، ويتعثر أهل الرجس في رجسهم، ويشعرون بمرض القلب، وظلمة النفس وفداحة الجرم، ومرارة الإثم، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرًا، وما طال عمر الباطل إلا حين يمتزج به ستار من الحق، أو يمتزج هو بعناصر من الحق، وما قعد بالحق شيء كاختلاطه بطرف من الباطل ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٥]، ورحم اللَّه القائل: «ميِّزنا يا خالد» وحين يتم هذا التمييز في الموازين والقواعد، ثم في النفوس والمشاعر، ثم في الأعمال والتصرفات، تحدَّد بفعاله الحقوق والواجبات، وينتصر أهل الحق بحقهم، ويتفرق أهل الباطل عن باطلهم، وتكون العاقبة للمتقين، والنصر للمؤمنين، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر اللَّه».

ولم يتوقف الأستاذ البنَّا عند هذا، بل بلغ إلى أقصى غايات النصح والتوجيه والإعذار إلى اللَّه، فكشف عيوب النظام السياسي المصري في جملة مقالات متوالية تحت عنوان:

ألا هل بلغت؛ اللَّهم فاشهد.

وقال بصراحة: «إن النفوس لن تقنع ولن تطمئن إلا إلى رسالة جديدة ولون من الحياة جديد».

وأشار إلى الكفاح والتطاحن بين الآراء والأوضاع، ودعا إلى الاختيار، وقال في صراحة تامة:

«إذا لم نختر اليوم ونحن راضون فسنقبل غدًا - بل الغد القريب -

ونحن مرغمون، وإني لأرى الوميض خلال الرماد يوشك أن يكون له ضرام، أمامنا الشيوعية والاشتراكية، وهما معتبران ـ من منطق التحالف الدولي اليوم ـ من معاني الديمقراطية، ولا يستطيع الديمقراطيون أن يقدموا غير هذا، وأمامنا كذلك نظام الإسلام، وتوجيه الإسلام، وتعاليم الإسلام، وأحكام الإسلام».

وقال: «ونحن في الحقيقة لسنا مخيرين ولسنا أحرارًا في الاختيار، فإننا جميعًا آمنا بهذا الإسلام الحنيف دينًا ودولة، واعتبرنا مصر دولة إسلامية، بل هي زعيمة دول الإسلام.

إذن فلا مناص للحكومة المصرية والهيئات المصرية والأحزاب المصرية من أن تفي بعهدها الشرعي للَّه ولرسوله؛ يوم نطقت بالشهادتين، فالتزمت الإسلام، وبعهدها المدني الوطني لهذا الشعب يوم أصدرت الدستور، ونصت فيه على أن الدين الرسمي هو الإسلام، وبغير هذا تكون قد غدرت بعهدها، وخانت أمانة اللَّه والناس عندها، وعليها أن تصارح الشعب ليحدد موقفه منها وموقفها منه، ولا محل اليوم للمداورة والخداع.

فهل تصيغ الآذانُ المغلقة إلى هذا النذير، فنعودَ إلى حجر الإسلام قولاً وعملاً وتطبيقًا.

يادولة رئيس الحكومة، يا رجال الأزهر الشريف، يا رؤساء الهيئات والجماعات والأحزاب، ويا أيها الغُيَّر على مصلحة هذا الوطن العزيز، ويا أبناء هذا الوطن جميعًا؛ إليكم أوجه النداء، فإلى تعالى الإسلام ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ألا هل بلغت، اللَّهم فاشهد.

□ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إن العالم الآن تتجاذبه شيوعية روسية من جانب، وديمقراطية أمريكية من جانب آخر، وهو بينهما مذبذب حائر، لن

يصل عن طريق إحداهما إلى ما يريد من استقرار وسلام.

وفي أيديكم أنتم قارورة الدواء من وحي السماء، فمن الواجب علينا أن نعلن هذه الحقيقة في وضوح، وأن ندعو إلى منهاجنا الإسلامي في قوة، ولن يضيرنا أن ليس لنا دولة ولا صولة، فإن قوة الدعوات في ذاتها، ثم في قلوب المؤمنين بها، ثم في حاجة العالم إليها، ثم في تأييد اللَّه لها متى شاء أن تكون مظهر إرادته وأثر قدرته ورحمته: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ [القصص: ٥ - ٦].

لا بد لنا أن نتسلم الراية: راية الحضارة الإنسانية لنسعد الناس ونحررهم بعد أن فشل الغرب وتحنَّط، لا بد لنا من هذا، وإننا لواصلون إليه، واللَّه غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولتعلمن نبأه بعد حين.

الدنيا كلها حائرة ضالة لاهية، كلها تنظر إلى القيادة ومكانها شاغر، لن يملأه غيركم باسم اللَّه وباسم محمد ﷺ.

أجدد البيعة على أن أظلَّ - كما عرفتموني جميعًا في أول يوم - عاملاً مجاهدًا مكافحًا في سبيل دعوة الحق، لا ألين ولا أملّ ولا أتغير، حتى يحق اللَّه الحق؛ واللَّه على ما أقول وكيل»[1].

* الرجل القرآني: حسن البنا لروبير جاكسون:

زار الكاتب الأمريكي روبير جاكسون مصر سنة ١٩٤٦، وسنة ١٩٤٩، ووصف هذا الكاتب الشيخ البنا وكتب عن أثر دعوته فقال:

---

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي ص(٢٣٥ - ٢٤١).

«إن معركة فلسطين، ومعركة التحرير الأخيرة في القناة، قد أثبتتا بوضوح أن الرجل صنع بطولات خارقة، قلّ أن تجد لها مثيلاً في تاريخ العهد الأول للدعوة الإسلامية».

وقال: «وقد أُتيح لي أن ألتقي بوالده الوقور الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا[1] وسمعته يتحدث مع بعض الإخوان، أنه كان يتمنى لو أن ابنه وضع الكتب في أمر الإسلام واكتفى بذلك، قد ردّ عليه الأستاذ البنا بأنه منشرح الصدر لمعالجة الإسلام عن طريق تأليف الرجال».

وقال جاكسون أيضًا عن البنا: «كأنما أراد أن ينشيء للشرق روحًا جديدة من المثل العليا؛ هذه المادة الضائعة التي هزم بها الشرق الدنيا وفتح بها أطراف الأرض».

وتكلم عن رحلاته الدعوية إلى أكثر من أربعة آلاف قرية، وزيارته كل قرية بضع مرات بالقطار والسيارة والدابة وفي القوارب وعلى الأقدام!!

قال البنا لجاكسون: «هل قرأت عن محمد ﷺ؟ قال: نعم، قال: هل عرفت ما دعا إليه وصنعه؟ قال: نعم. قال: هذا هو ما نريده».

قال جاكسون عن البنا أنه: «:ان يقتفي خطوات عمر وعلي، ويصارع في مثل بيئة الحسين فمات: «وقال: «كان لا بد أن يموت هذا الرجل الذي صنع التاريخ، وحوّل مجرى الطريق شهيدًا؛ كما مات عمر وعلي والحسين».

وقال: «عاش الرجل كل ظحة من حياته، بعد أن عجزت كل وسائل الإغراء في تحويله عن نقاء الفكرة وسلامة الهدف.. لم يحن رأسه، ولم يتراجع، ولم يتردد أمام المثبطات ولا المهددات. وكان الرجل قذى في عيون

---

(١) الشيخ عبدالرحمن البنا الساعاتي والد الشيخ حسن البنا هو المحدث المصري الشهير وصاحب كتاب «الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني على أبواب البخاري».

بعض الناس، وحاول الكثيرون أن يقيدوا من القوة التي يسيطر عليها، فقال لهم: «إن أنصاره ليسوا عصا في يد أحد، وإنهم للَّه وحده».

«كان كل جانب من جوانب شخصيته يبرز كطابع خاص في الوقت المناسب، ولكل هذه الصفات التي تقرؤها في كتب شمائل الصحابة والتابعين، لم يكن مقدراً أن يعيش طويلاً في الشرق... وكان لا بد أن يموت باكرًا، فقد كان غريبًا عن طبيعة المجتمع، يبدو كأنه الكلمة التي سبقت وقتها، أو لم يأت وقتها بعد.

ولم يكن الغرب ليقف مكتوف اليدين أمام مثل هذا الرجل الذي أعلى كلمة الإسلام وخفت بدعوته ريح التغريب والجنس، ونزعات القومية الضيقة، وأعدلت لهجات الكتاب، وبدأ بعضهم يجري في ركب «الريح الإسلامية».

وقال: «كان الناس يرونه غريبًا في محيط الزعماء بطابعه وطبيعته، فلما مات كان غريبًا غاية الغرابة في موته ودفنه، فلم يصلِّ عليه في المسجد غير والده، وحملت جثمانه النساء، ولم يمش خلف موكبه أحد من هؤلاء الأتباع الذين كانوا يملئون الدنيا لسبب بسيط هو أنهم وراء الأسوار.

لقد نُقل الرجل بعد أن أسلم الروح إلى بيته في جوف الليل، ومنع أهل البيت من إعلان الفاجعة، وغسله والده، وخيم على القاهرة تلك الليلة كابوس مزعج كئيب. ولقد كان خليقًا بمن سلك مسلك أبي حنيفة ومالك وابن حنبل وابن تيمية مواجهة للظلم ومعارضة للباطل، أن تختتم حياته على هذه الصورة الفريدة المروعة، التي من أي جانب ذهبت تستعرضها، وجدتها عجيبة مدهشة!!.

إنه كان يدهش الناس في كل لحظات حياته، فلا بد أن يدهش الأجيال بختام حياته، إن الألوف المؤلفة قد سارت في ركب الذين صنع لهم الشرق

بطولات زائفة، أفلا يكون حسن البنَّا قد رفض هذا التقليد الذي لا يتم على غير النفاق.

إن هناك فارقًا أزليًا بين الذين خدعوا التاريخ وبين الذين نصحوا للَّه ولرسوله ﷺ، إن هذا الختام العجيب سيظل مدى الأجيال يوقد في نفوس رجال الفكر النور والضياء، ويبعث في قلوب الذين آمنوا معه ما بعثه الحق في نفوس أهله حتى يمكنوا له»[1].

لقد قتل الأستاذ حسن البنا في ٢٢ فيراير ١٩٤٩م، ولاحظ سيد قطب في أمريكا أثناء زيارته لها في تلك الأيام مظاهر الفرح والابتهاج، بل والشماتة ـ عند الأمريكان لاغتيال البنا، حيث اعتبروه أخطر رجل في الشرق[2].

◘ قال الأستاذ سيد قطب: «وقد قُتِل الشهيد حسن البنا، وأنا هناك في عام ١٩٤٩م، وقد لفت نظري بشده ما أبدته الصحف الأمريكية، وكذلك الإنجليزية التي كانت تصل إلى أمريكا ـ من اهتمام بالغ بالإخوان، ومن شماتة وراحة واضحة، من حلّ جماعتهم وضربها، وفي قتل مرشدها»[3].

◘ قال الأستاذ أحمد حسين زعيم «مصر الفتاة» عن البنا ـ رحمه اللَّه ـ في خطاب أرسله إلى فهمي أبو غدير (أكتوبر ١٩٧٦ في ظروف وأوقات معينة..

إن حسن البنا بتأسيسه جمعية الإخوان المسلمين كان استمراراً لنضال مصر الإسلامية بعد أن تطورت ونشأت أجيال جديدة أراد لها الاستعمار أن

(١) انظر «حسن البنا» لأنور الجندي (ص٣٦٤ ـ ٣٩٠).
(٢) «سيد قطب» لصالح خالدي (ص١٨٨) دار القلم ـ دمشق.
(٣) «لماذا أعدموني» لسيد قطب (ص١٠).

تجهل كل شيء عن الإسلام فجاء حسن البنا فجعلهم فرسانًا للإسلام»[١] .

* الدين النصيحة:

✍ مع إسهابي في بيان دور الداعية الرباني في المشرق ودعوته وصدعه بالحق إلا أنه يؤخذ من قوله ويترك، ولا يغض ذلك من قدره، وكان ـ رحمه اللَّه ـ رجل دعوة وحركة أكثر منه رجل علم وتحقيق[٢] ، فنترك من أقواله وأصوله أشياء حاد فيها عن منهج السلف.

◻ فنجده مثلاً في باب «الألوهية» يذكر الشرك ويحذر منه، ولكن تارة بأسماء مجملة كالمنكر ولا يصرح بكونه شركًا[٣] .

◻ قوله: بأن التوسل إلى اللَّه بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة[٤] .

◻ وفي كلامه على زيارة القبور يذكر الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ بعض أنواع الشرك ولا يصرح بكونها شركًا[٥] .

◻ وفي الأسماء والصفات مال الشيخ إلى مذهب الأشاعرة المفوضة، فهو يراها من المتشابهات، ويفوض المعنى والكيفية[٦] ، وقوله: إن آيات الصفات من المتشابهات.

وليس هذا مجال الإسهاب وإنما نضع نقاطًا للخلاف معه تحتاج إلى

(١) «المدرسة الإسلامية» لأنور الجندي (ص٢٠، ٢١) ـ دار الاعتصام.
(٢) انظر (ص٥٦) من «مذكرات الدعوة والداعية» للشيخ البنا، ففيها ما يوافق هذا الكلام.
(٣) انظر «مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا» (ص٣٥٦) ـ الأصل الرابع من الأصول العشرين.
(٤) انظر «مجموعة رسائل البنا» (ص٣٥٨) ـ الأصل الخامس عشر.
(٥) انظر «مجموعة رسائل البنا» (ص٣٥٨).
(٦) انظر «مجموعة رسائل البنا» (ص٣٥٧، ٣٥٨).

إسهاب، فلقد ختم الشيخ البنا كلامه على الصفات بأن «رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى اللَّه تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع»[١].

◘ ولقد قال الشيخ ابن باز لما سُئل عن: «قول أحد الدعاة: إن آيات الصفات من المتشابهات[٢] ، ثم ذكر رأيه فقال: ونحن نرجح مذهب السلف من تفويض علم هذه المعاني إلى اللَّه فهل هذا مذهب السلف، أم مذهب السلف تفويض الكيفية مع معرفة المعنى الكلبي؟

فأجاب ـ رحمه اللَّه ـ: «هذا غلط، هذا القول غلط، ليست من المتشابهات، من الواضحات، آيات الصفات وأحاديث الصفات أمر واضح، وليس فيها متشابه... فهي معلومة معروفة المعاني عند أهل السنة ولكنها مجهولة الكيفية، فالتفويض في الكيفية فقط.

أما من قال نفوّض معانيها إلى اللَّه فهذا قول المفوضة وهو قول قبيح قول منكر معناه أن اللَّه خاطب الناس بما لا يفهمون ولا يعقلون، وهذا غلط، أهل السنة والجماعة يفوّضون الكيفية فقط ويؤمنون بالمعاني وأنها حق.

الرحمن ـ الرحمة معلومة ـ السميع معروف السمع ـ البصير معروف البصر.. هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة «قاطبة» المعاني معروفة، والكيف مجهول، والإيمان بها واجب، أما التفويض فهو من قول أهل البدع، والقول بأنها مشتبهة من قول أهل البدع، فليس من المشتبهات بل من

(١) «مجموعة الرسائل» للشيخ حسن البنا (ص٤١٨).. يقول الشيخ خالد فوزي في كتابه «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» (ص٣٥٧)، وقد قرأت هذه العبارة منذ سنوات وبالتحديد عام ١٤٠٠هـ على العلاّمة عبدالرزاق عفيفي فأجابني بأن هذا هو مذهب الأشاعرة».

(٢) قال البنا في «مجموعة رسائل الإمام البنا» (ص٣٥٧، ٣٥٨) في الأصل الأول من أصوله العشرين «وآيات الصفات، وأحاديثه الصحيحة، وما يليق بذلك من المتشابه...».

المعلومات، ولا تفوض معانيها، إنما التفويض للكيفية، أما معاني الصفات فهي معلومة»[1] .

فقد كان البنا ـ رحمه اللَّه ـ محبًّا لمذهب السلف ولكن غابت عنه أشياء فيه، منها قولهم في الأسماء والصفات، ولو اطلع على أدلتهم بالتفصيل لرجع إليها إذ هو معروف عنه الإذعان للحق والرجوع إلى السنّة.

□ ونخالفه ـ رحمه اللَّه ـ في موقفه من الشيعة، ومما هو معروف أن الشيخ البنا كان في «لجنة التقريب بين السنة والشيعة» وأثبت ذلك الأستاذ حامد أبو النصر «من شريط مسجل» وقوله: «أن المذهبان قاما جنبًا إلى جنب مئات السنين دون أن يحصل احتكاك بينهما إلا في المؤلفات «ونسى الشيخ أنه نشبت الفتن طيلة القرون وأريقت الدماء بسبب الشيعة، بل وظهرت جلية خيانتهم لأهل السنة وإعاقتهم فتح أوربا أيام الدولة الصفوية الشيعية.

□ ونخالفه ـ رحمه اللَّه ـ في موقفه من أهل الكتاب، فقد ذكر الأستاذ التلمساني في جريدة الأخبار في عدد صدر بعد أحداث ١٩٨١م التي شهدتها مصر أنه كان في المكتب العام للإخوان نصارى»[2] !!.

وانظر إلى ما قال شقيق الشيخ حسن البنا الأستاذ عبدالرحمن البنا في خطابه الذي وجهه لصلاح حافظ ونشره الأخير بجريدة أخبار اليوم عدد ٢٠/ ٢/ ١٩٨٨م الصفحة الأخيرة «أراد مسيحو دمنهور ذات يوم أن يبنوا كنيسة فاعترضهم الإخوان المسلمون وحضر الأستاذ المستشار ميلاد تادرس من دمنهور إلى الشيخ حسن البنا في القاهرة وأخبره بالأمر فأمسك الأستاذ حسن البنا بالتليفون وأمر الإخوان المسلمين في دمنهور أن يقوموا بالعمل في بناء

(١) مسجل من شريط رقم (١٥) من فتاوى حج عام ١٤٠٨هـ بالتوعية الإسلامية، مكة المكرمة.

(٢) «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» هامش (ص٣٦٣).

الكنيسة مع المواطنين المسيحيين».

وهذا الكلام عجيب حقًّا، فقد «اتفق المسلمون على أن ما بناه المسلمون من المدائن لم يكن لأهل الذمة أن يحدثوا فيها كنيسة؛ مثل ما فتحه المسلمون صلحًا، وأبقوا لهم كنائسهم القديمة؛ بعد أن شرط عليهم فيها عمر بن الخطاب ﷺ أن لا يحدثوا كنيسة في أرض الصلح، فكيف في مدائن المسلمين؟! بل إذا كان لهم كنيسة بأرض العنوة كالعراق ومصر ونحو ذلك فبنى المسلمون مدينة عليها إن لهم أخذ تلك الكنيسة، لئلا تترك في مدائن المسلمين كنيسة بغير عهد، فإن في سنن أبي داود بإسناد جيد عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تصلح قبلتان بأرض، ولا جزية على مسلم**»[1] ، والمدينة التي يسكنها المسلمون، والقرية التي يسكنها المسلمون وفيها مساجد للمسلمين لا يجوز أن يظهر فيها شيء من شعائر الكفر، لا كنائس ولا غيرها، إلا أن يكون لهم عهد فيوفي لهم بعدهم، فلو كان بأرض القاهرة ونحوها كنيسة قبل بنائها لكان للمسلمين أخذها؛ لأن الأرض عنوة فكيف وهذه الكنائس محدثة أحدثها النصارى؟»[2] .

فكيف تبنى كنائس جديدة، فضلاً من أن يقوم المسلمون بالعمل في بنائها؟!!.

□ ولم يكن الأمر مختلفًا بالنسبة لليهود!!، فقد جعل البنا ـ رحمه اللَّه ـ وغفر له الخلاف مع اليهود ليس دينيًّا، وذلك فيما قاله أمام لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية حيث قال: «باسم الإخوان المسلمين أؤيد ما أعلنه العرب وزعماؤهم ومندوبوهم وكذلك الجامعة العربية، والناحية التي سأتحدث عنها

---

(١) **إسناده جيد**: أخرجه أبو داود في الإدارة (باب ٢٨)، والترمذي في الزكاة (باب ٧) وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٣٣/ ٢٨٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٦٣٤ ـ ٦٣٥). و«أحكام أهل الذمة» (٢/ ٦٧٧).

بسيطة من الوجهة الدينية؛ لأن هذه النقطة قد لا يكون مفهومة في العالم الغربي، ولهذا فإني أحب أن أوضحها باختصار، فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية لأن القرآن حض على مصافاتهم ومصادقتهم[١] . والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية، وقد أثنى[٢] عليهم وجعل بيننا وبينهم اتفاقا ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [٤٦: العنكبوت]»[٣] .

وحينما أراد القرآن الكريم أن يتناول اليهود تناولهم من الوجهة الاقتصادية والقانونية فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿بِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا[٤] (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾. ولي كلمة أخيرة من الوجهة الدينية، فإن اليهود يقولون عن فلسطين: إنها أرض الميعاد.. ونحن لا مانع لدينا من أن يكونوا في يوم القيامة معنا!!!!!»[٥، ٦] .

وهذه مخالفة صريحة للشرع، ولا أظن أن أحدًا يوافق أن القرآن أثنى على اليهود، وحث على مصادقتهم وأن خلافنا معهم ليس في العقيدة والدين!!!

☐ أما في تصوفه فمنهج الأستاذ حسن ـ رحمه الله ـ لم يخل من غبار

(١) في أي آية هذا الحض؟!

(٢) هل في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ثناء!!!

(٣) ولم ينظر الشيخ إلى بقية الآية: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...﴾.

(٤) هل الوجهة القانونية في قوله: ﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾!!!!.

(٥) لا والف لا، لا نحب هذا فإن المرء يُحشر مع من أحب.

(٦) «الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ... رؤية من الداخل» للأستاذ محمود عبدالحليم (١/ ٤٠٩، ٤١٠) ـ دار الدعوة بالإسكندرية.

التصوف غفر اللّه له[١].

☐ وكذلك يؤخذ عليه قوله: «الإلهام، والخواطر، والكشف والرؤى، ليست من أدلة الأحكام، ولا تعتد إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه.

فمفهوم كلامه أنها إذا لم تصطدم بأحكام الدين ونصوصه فيعتد بها من أدلة الأحكام وهذا باطل.

☐ وقوله في الأصل الثاني عشر أن «البدعة الإضافية والتركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي لكل فيه رأيه ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان»[٢].

والمطالع في كتب أهل العلم المصنفين في البدع تجدهم يدخلون في الأنواع المذكورة بدعا تخرج صاحبها عن الملة «كبدعة إسقاط التكاليف».

غفر اللّه للبنا وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول اللّه ﷺ، ولكنا لا نغمط قدر الرجال..

* **الدين النصيحة:**

اعتراف كبار الإخوان بالتقصير في تصحيح العقيدة:

لقد انتبه بعض قادة الإخوان إلى خطورة الإهمال أو التقصير في جانب العقيدة في دعوتهم، فصرّحوا بذلك أداءً للأمانة، وتفاديًا للأخطاء التي حصلت في تربية الشباب في الماضي.

---

(١) انظر «رسائل البنا» (ص٣٨٥).
(٢) انظر «الإبداع في مضار الابتداع» للشيخ علي محفوظ ـ دار الاعتصام (ص٥٣، ٦٠) ففيهما الرد الشافي.

□ قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه اللَّه ـ:

«وبعد مراجعة ودراسة طويلة لحركة الإخوان المسلمين، ومقارنتها بالحركة الإسلامية الأولى للإسلام أصبح واضحًا في تفكيري أن الحركة اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات البشرية يوم جاء الإسلام أول مرة من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية، والبعد عن القيم والأخلاق الإسلامية، وليس فقط البعد عن النظام الإسلامي والشريعة الإسلامية..

.. ولا بد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة، وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، وتربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة تربية إسلامية صحيحة، وعدم إضاعة الوقت في الأحاديث السياسية الجارية، وعدم محاولات فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النظام الإسلامي لأنها عرفته على حقيقته، وتريد أن تحكم به.

هذا الظرف كان يحتّم عليّ أن أبدأ مع كل شاب، وأسير ببطء وحذر من ضرورة فهم العقيدة الإسلامية فهمًا صحيحًا قبل البحث عن تفصيلات النظام، والتشريع الإسلامي. وضرورة عدم إنفاق الجهد في الحركات السياسية المحلية الحاضرة في البلاد الإسلامية، للتوفر على التربية الإسلامية الصحيحة لأكبر عدد ممكن. وبعد ذلك تجيء الخطوات التالية بطبيعتها بحكم اقتناع وتربية قاعدة في المجتمع ذاته؛ لأن المجتمعات البشرية اليوم بما فيها المجتمعات في البلاد الإسلامية قد صارت حالة مشابهة كثيرًا، أو مماثلة لحالة المجتمعات الجاهلية يوم جاءها الإسلام، فبدأ معها من العقيدة والخلق، لا من الشريعة والنظام.

واليوم يجب أن تبدأ الحركة والدعوة من نفس النقطة التي بدأ منها

الإسلام وأن تسير في خطوات مشابهة مع مراعاة بعض الظروف المغايرة»[1] .

□ قال الدكتور ربيع بن هادي المدخلي، بعدما نقل كلام سيد قطب هذا:

«رحم اللَّه سيد قطب، لقد نفذ من دراسته إلى عين الحق والصواب ويجب على الحركات الإسلامية أن تستفيد من هذا التقرير الواعي الذي انتهى إليه سيد قطب عند آخر لحظة من حياته بعد دراسة طويلة واعية. لقد وصل في تقريره هذا إلي عين منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[2] .

□ قال الأستاذ محمد قطب في كتابه «واقعنا المعاصر»[3] ـ وكأنه يفسّر

---

(١) جريدة المسلمين الدولية (المسلمون) السنة الأولى، العدد الثالث، الصادر في يوم السبت الموافق ٤/ جمادي الآخرة ١٤٠٥هـ. (٦ ـ ٧) حلقة من سلسلة مقالات تحت عنوان (لماذا أعدموني؟؟».

(٢) «منهج الأنبياء» (ص١٣٩) للشيخ ربيع بن هادي المدخلي.

(٣) كتب الدكتور محمد حكمت تعريفًا بكتاب «واقعنا المعاصر» تحت عنوان «قراءة في كتاب واقعنا المعاصر للأستاذ محمد قطب» في مجلة المجتمع الكويتية (السنة التاسعة عشرة، العدد ٨٧٠) فقال:

«هذا هو آخر كتاب يصدره المفكر الإسلامي محمد قطب، وقد أفرغ فيه خلاصة فكرية ناضجة، وتجربة إسلامية غنية تصف واقع المسلمين اليوم، وتحلل جذور المشكلات التي يعانون منها. وقد قام المؤلف بتشخيص خطر الانحراف الذي أصاب المجتمع الإسلامي، وبدأ الهبوط به عن الذروة العليا التي كان عليها جيل الصحابة والخلفاء الراشدين. ثم حلّل آثار هذا الانحراف الذي طرأ على المجتمع الإسلامي.

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن الصحوة الإسلامية المعاصرة بما تشكله من آمال كبار، وما يعترض طريقها من مشكلات إلى أن ينتهي بنظرة إلى المستقبل. كل ذلك في عرض مفصّل شيّق، وبأسلوب رصين معتدل. وهو، وإن فصل بحكم المعايشة في تجربة مصر في هذا المجال، إلا أن ما ينطبق على مصر ينطبق على كثير من البلدان العربية والإسلامية سواء على الصعيد الإسلامي أو على الصعيد العلماني. ويقع هذا الكتاب النفيس في خمسة فصول..».

رأي أخيه في الاهتمام بجانب العقيدة:

«لقد كان العمل الذي قام به حسن البنا عملاً ضخمًا يشبه أن يكون إعادة بناء أمة . .

لقد كان حال هذه الأمة كجدار يريد أن ينقضّ . . فأقامه[1] .

ولكن هذا البناء الضخم الذي أقامه كان يشتمل على ثغرات تعطي تأثيراتها بصور شتى في خط السير . . وأغلب الظن أن هذه الثغرات لم تكن بادية للبنا العظيم في بداية السير، إلا أنها بدت له واضحة فيما بعد قبيل مقتله ـ كما سيجيء ـ وإن كان لم يمهل لترسيخها في قلوب أتباعه.

ـ كانت الثغرة الأولى: الاستعجال في التجميع الجماهيري قبل موعده الذي ينبغي أن يجيء فيه[2] . .

ـ وكما حدث التعجل في دعوة الجماهير للتجمع قبل أن يتمّ بناء الأعمدة الراسخة بالمواصفات المطلوبة، حدث التعجل بالتحرك قبل الأوان المناسب، سواء في الساحة الداخلية، أو في ساحة المعركة في فلسطين[3] .

❑ وكما حدث التعجل في دعوة الجماهير للتجمع، وفي التحرّك بهذه الجماهير قبل الأوان المناسب، حدث كذلك في عملية البناء ذاتها. فلم تبدأ من نقطة البدء اللازمة، بل تجاوزتها إلى ما يجيء بعدها في الترتيب . .

لقد اعتبرت قضية العقيدة قضية بديهية، وقضية منتهية . . وكان هذا . . مبالغة في إحسان الظن، وأثبتت الأيام فيما بعد أنه في حاجة إلى مراجعة شديدة. وأن نقطة البدء كان ينبغي أن تكون هي تصحيح العقيدة ذاتها،

---

(١) «واقعنا المعاصر» (ص٤١٠).

(٢) المصدر السابق (ص٤١١).

(٣) المصدر السابق (ص٤١٧).

وجلاء مفهومها الحقيقي الذي غاب عن الجماهير، بل غاب عن كثير[1] من الدعاة أنفسهم في غربة الإسلام الثانية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ حين قال: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[2].

*** منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله:**

وصل الأستاذ محمد قطب بهذا التحليل المرحلي الدقيق، والنظر الواسع العميق في دعوة الإخوان، إلى أهمية العقيدة، وترسيخها في أذهان الشباب أولاً وقبل كل شيء، بحيث تُدَكُّ قاعدتُها دكًا متينًا، لا يتأثر برواسب البيئة وعواصفها وتقاليدها وعاداتها.

وهذه هي «نقطة البدء اللازمة» في الدعوة، ولا يجوز تجاوزها إلى ما يجيء بعدها في الترتيب ظنًا بأن المجتمع مسلم لا يحتاج إلى مراجعة في عقيدته. وهذا هو منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى»[3].

فالدعوة التي تريد بحق منهج الأنبياء لا بد أن تنقي عقيدة أفرادها من رواسب البيئة وتهويلات أهل البدع والأهواء حتى تبقى واضحة نقية طبق الكتاب والسنة كما كانت في عهد الإسلام الزاهر.

ولا يمكن إعادة مجد المسلمين المفقود، واسترداد حقوقهم المغصوبة في مشارق الأرض ومغاربها إلا بالعودة إلى الكتاب والسنّة عقيدة وعملاً، ومنهجًا وسلوكًا.

وتربية الناس على عقيدة أهل السنة والجماعة مثلما حدث في دعوة

---

(١) وما أمر التلمساني والغزالي وسعيد حوى وعبدالمتعال الجابري ومحمد حامد أبو النصر وغيرهم عنكم ببعيد.

(٢) «واقعنا المعاصر» لمحمد قطب (ص٤١٩) ـ دار الشروق.

(٣) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية» لصلاح الدين مقبول (ص٣٢٦ ـ ٣٢٩).

الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة واهتمام علمائها ودعاتها بغرس عقيدة السلف.. هذه من لم تكن واضحة في دعوة الشيخ حسن البنا غفر اللَّه له. ولذلك وقع كبار دعاتها بل الشيخ البنا نفسه فيما خالف عقيدة السلف في بعض أقواله، مثلما ذكرنا من قبل من قوله في التوسل، وذهابه إلى تفويض المعنى في الأسماء والصفات وقوله: أن هذه عقيدة السلف وهذا خلاف الحقيقة، وعدم تمحيصهم لمسائل الولاء والبراء.

*** وتعال معي إلى هذه الحقائق:**

«احتفل الإخوان المسلمون بمرور عشرين عامًا على إنشاء الجماعة وفي هذا الحفل خطب حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين خطبة قال فيها:

«وليست حركة الإخوان موجهة ضد أي عقيدة من العقائد أو دين من الأديان أو طائفة من الطوائف، إذ أن الشعور الذي يهيمن على نفوس القائمين بها أن القواعد الأساسية للرسالات جميعًا قد أصبحت مهددة الآن بالإلحادية، وعلى الرجال المؤمنين بهذه الأديان أن يتكاتفوا ويوجهوا جهودهم إلى إنقاذ الإنسانية من هذا الخطر، ولا يكره الإخوان المسلمون الأجانب النزلاء في البلاد العربية والإسلامية، ولا يضمرون لهم سوءًا حتى اليهود المواطنين لم يكن بيننا وبينهم إلا العلائق الطيبة»[(١)] .

وقبلها عام ١٩٤٦ اختطب أمام لجنة أمريكية بريطانية بشأن قضية فلسطين فقال:

«.. والناحية التي سأتحدث عنها نقطة بسيطة من الوجهة الدينية لأن هذه النقطة قد لا تكون مفهومة في العالم الغربي، ولهذا فإني أحب أن

---

(١) «قافلة الإخوان» للسيسي (ص١/٣١١) ـ كان هذا الاحتفال وهذه الخطبة في (٥/٩/١٩٤٨م).

أوضحها باختصار، فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية لأن القرآن الكريم حض على مصافاتهم ومصادقتهم والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية وقد أثنى عليهم وجعل بيننا وبينهم اتفاقًا ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وحينما أراد القرآن الكريم أن يتناول مسألة اليهود تناولها من الوجهة الاقتصادية والقانونية فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ ونحن حين نعارض بكل قوة، الهجرة اليهودية، نعارضها لأنها تنطوي على خطر سياسي، وحقنا أن تكون فلسطين عربية».

❑ وسُئل سماحة الشيخ: عبدالعزيز بن باز مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس إدارة الافتاء والبحوث العلمية سابقًا عن هذا الكلام فأجاب ـ رحمه اللَّه ـ:

ما حكم الشرع فيمن يقول: إن خصومتنا مع اليهود ليست دينية وقد حث القرآن على مصافاتهم ومصادقتهم، وجعل بيننا وبينهم اتفاقًا فقال: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية، وحينما أراد القرآن أن يتناول قضية اليهود تناولها من وجهة اقتصادية وسياسية فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا...﴾ إلى نهاية الآية.

ما حكم الشرع في هذه المقولة يا شيخنا؟

❑ أجاب سماحة الشيخ بقوله:

«هذه مقالة باطلة خبيثة، اليهود من أعدى الناس للمؤمنين، هم من أشر الناس، بل هم أشد الناس عداوة للمؤمنين مع الكفار كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فاليهود

والوثنيون هم أشد الناس عداوة للمؤمنين.

وهذه المقالة مقالة خاطئة ظالمة، قبيحة، منكرة، . . والدعوة إلى اللَّه بالحسنى ليست خاصة باليهود ولا بغيرهم، بل الدعوة إلى اللَّه مع اليهود ومع الوثنيين ومع الشيوعيين ومع غيرهم، يقول اللَّه جلَّ وعلا: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. هذا عام للكفار ولغير الكفار.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ليس خاصًا بهم، ولكن من باب التنبيه على أنهم وإن كانوا يهودًا أو نصارى فإنهم يجادلون بالتي هي أحسن؛ لأن هذا أقرب إلى دخولهم في الإسلام وإلى قبولهم الحق، إلا إذا ظلموا، . . ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾، الظالم له ما يستحق من الجزاء.

فالحاصل: أن الدعوة بالتي هي أحسن عامة لجميع الكفار ولجميع المسلمين. الدعوة بالتي هي أحسن، ليست خاصة باليهود ولا بالنصارى ولا بغيرهم.

فهذا الكلام الذي نقلته عن هذا الشخص، هذا غلط.

نسأل اللَّه للجميع الهداية»[1] .

◻ وكذلك سُئل الشيخ السؤال التالي:

هل يكفر من يدخل كنائس النصارى، ويحترمهم، ويقول لهم: يا سماحة البابا، ويا قداسة البابا، ويقول لهم: يا صاحب السيادة لحاخام اليهود، ويقول: إنه ليس بيننا وبين اليهود أية عداوة دينية، بل القرآن حث على حبهم ومصافاتهم، أنبئونا عن ذلك جزاكم اللَّه خيرًا؟

---

(١) نقلاً عن شريط مسجل بتاريخ (٢٨/ ٧/ ١٤١٢) هـ للشيخ عبدالعزيز بن باز.

□ فأجاب:

«هذا جهل كبير فلا يجوز هذا الكلام، لكنه لا يكون ردة عن الإسلام عندما يسلم عليه أو يدخل عليه إنما معصية. أما إذا قال: ليس بين الإسلام وبين اليهود شيء فهذا كفر وردة، واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا**﴾ فبيننا وبينهم عداوة عظيمة، فمن يقول: إن الدين واحد ولا بيننا وبينهم عداوة فهذا جاهل مركب، وضال مضل كافر فالذي بيننا وبينهم العداوة، واليهود من أكفر الناس وأضلهم وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين»(١).

□ يقول محمد الغزالي:

«والواقع أن المسلمين ـ كأصحاب المثل ـ تطغى عليهم طيبة القلب، وصفاء الطوية، فينشدون السلامة ويحسنون الظن، ثم يفاجئهم ما ليس في الحسبان فيعلمون أنهم مهما أحبوا مكروهين.

* ومن ثم يقول اللَّه لهم: ﴿**هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ**﴾.

ومع ذلك التاريخ الساق، فإننا يجب أن نمد أيدينا وأن نفتح آذاننا وقلوبنا إلى كل دعوة تؤاخي بين الأديان وتقرب بينها، وتنتزع من قلوب أتباعها أسباب الشقاق.

إننا نقبل مرحبين على كل وحدة توجه قوى المتدينين إلى البناء لا الهدم، وتذكرهم بنسبهم السماوي الكريم وتصرفهم إلى تكريس الجهود

---

(١) نقلا عن مجلة «الدعوة». العدد رقم (١٤٠٢) وتاريخ (١٧ صفر ١٤١٤هـ).

لمحاربة الإلحاد والفساد وابتكار أفضل الوسائل لرد البشر إلى دائرة الوحي[١] بعد ما كادوا يفلتون منها إلى الأبد»[٢] .

□ أقول: لم يستفد الغزالي من توجيه اللّه للمسلمين في كتابه الحكيم ولم يستحضر آيات الولاء والبراء التي تجعل من يتولى اليهود والنصارى فهو منهم ـ ولو في أقل من الصورة التي يدعو إليها الغزالي وأصغر منها ـ فمتى دعا القرآن والسنة أو الصحابة أو علماء الإسلام ـ عياذًا باللّه ـ إلى هذه الأخوة بين أهل الديانات.

وإلى هذه الوحدة التي لا قدوة للغزالي فيها غير الماسونية الملحدة.

خلا لك الجو فبيضي واصفري ونقـري ما شئت أن تنقـري

* فيا غربة الإسلام؟!

□ وقال مصطفى السباعي في معركة الدستور[٣] :

اعتراض الطوائف المسيحية:

يتضح مما قرأناه لرؤساء الطوائف المسيحية، ومما سمعناه منهم أن اعتراضهم ينصب على ناحيتين اثنتين:

١ ـ إن معنى دين الدولة الإسلام، أن أحكام الإسلام ستطبق على المسلمين والمسيحيين، ولما كانت للمسيحيين عقائد وأحكام وأحوال شخصية تختلف عن الإسلام، **فكيف يجبرون على أحكام الإسلام؟!**

□ وهذا الفهم خاطئ من نواح عدة، أهمها: **أن الإسلام يحترم المسيحية**

---

(١) يبدو أن الغزالي يرى أن الرجوع إلى اليهودية والنصرانية المحرفتين رجوع إلى دائرة الوحي.

(٢) كتاب «من هنا نعلم» (ص١٥٠).

(٣) «مجلة حضارة الإسلام» ـ العدد الخاص بالحديث عن حياة السباعي (ص١١٧ ـ ١٢٢).

كدين سماوي ويترك لأهلها حرية العقيدة والعبادة دون أن يتدخل في شئونهم، أما أحوالهم الشخصية فلا يتعرض لها بحال، ولا يمكن أن يطبق عليهم أي من الأحكام التي تخالف شريعتهم أو تقاليدهم، وأحكام الإسلام في ذلك واضحة، وكتب التشريع الإسلامي بين أيدينا، ووقائع التاريخ لا ينكرها إلا مكابر، وقد ظل المسيحيون العرب منذ عصر الإسلام حتى الآن يتمتعون بعقيدتهم وعبادتهم، وأحوالهم الشخصية لم تتعرض لها دولة ولا حكومة، في الوقت الذي كان الحكم فيه للإسلام خالصًا، فكيف يتوهم الآن أن يطبق عليهم أحكام تخالف دينهم ونحن في دولة برلمانية شعبية الحكم فيها للشعب ممثلاً في نوابه المسلمين والمسيحيين؟

ونزيد على ذلك أنه مع احترام الإسلام لكل ما ذكرناه فنحن لم نكتف بذكر هذه في الدستور بل اقترحنا أن تنص على احترام الأديان السماوية وقدسيتها واحترام الأحوال الشخصية للطوائف الدينية، فكيف يخطر في البال بعد هذا أن هنالك خطرًا على عقيدة المسيحيين وأحوالهم الشخصية؟!

٢ ـ إن معنى دين الدولة الإسلام العداء للأديان الأخرى، وانتقاص غير المسلمين في حقوقهم والنظر نظرًا يختلف عن اتباع الدين الرسمي، وهذا خطأ بالغ أيضًا، فليس الإسلام دينًا معاديًا للنصرانية حتى يكون النص عليه عداء لها، بل هو معترف[1] بها ومقدس لسيدنا المسيح عليه السلام، بل هو الدين الوحيد من أديان العالم الذي يعترف بالمسيحية وينزه رسولها الكريم وأمه البتول، وقد أمر القرآن الكريم أتباعه أن يؤمنوا بالأنبياء جميعًا ومنهم عيسى

---

(١) ما هذا الاعتراف والله يقول: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح﴾ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ وهل يجوز هذا الربط بين أمة كافرة بالله وبين رسول كريم؟!

عليه السلام فأين العداء وأين الخصام بين الإسلام والمسيحية؟!

أوليس النص على أن الإسلام دين الدولة[1] الرسمي يتضمن أن المسيحية دين رسمي للدولة باعتبار الإسلام معترفًا بها ومحترمًا لها؟

وأما توهم الانتقاص من المسيحيين، وامتياز المسلمين، فأين الامتياز؟

أفي حرية العقيدة، والإسلام يحترم العقائد جميعًا، والدستور سيكفل حرية العقائد للمواطنين جميعًا؟

أم في الحقوق المدنية والتساوي في الواجبات، والإسلام لا يفرق بين مسلم ومسيحي فيها، ولا يعطي للمسلم في الدولة حقًّا أكثر من المسيحي، والدستور سينص على تساوي المواطنين جميعًا في الحقوق والواجبات[2]؟

إني سأضع أمام القراء وأمام أبناء الشعب جميعًا نص المادة المقترحة في هذا الشأن ليروا بعد ذلك أي خوف منها وأي غبن يلحق المسيحية فيها.

١ ـ الإسلام دين الدولة.

٢ ـ الأديان السماوية محترمة ومقدسة.

٣ ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

٤ ـ المواطنون متساوون في الحقوق لا يحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة.

إني أسأل المنصفين جميعًا وخاصة أبناء الطوائف الشقيقة: إذا كانت المادة التي تنص أن دين الإسلام هي التي تتضمن هذه الضمانات كلها، فأين الخوف،

(١) نعوذ باللَّه من هذه التقول على الإسلام، كيف تكون النصرانية المحرَّفة إلى الكفر والوثنية دين رسمي للدولة الإسلامية. إن كانت دولة السباعي كذلك فهي دولة مرتدة.

(٢) هذا الكلام فيه افتراء كبير على اللَّه وعلى الإسلام ومصادمة لنصوص كثيرة في القرآن والسنة ولما علمه وقرره علماء المسلمين من أهل السنة وغيرهم، فأي تحريف يفوق هذا التحريف عياذًا باللَّه؟

وأين الغبن، وأين الامتياز للمسلمين وأين الانتقاص لغيرهم؟»[١] ا.هـ.

* **ويؤخذ عليه رحمه الله صوفياته:**

فقد قال أخوه عبدالرحمن البنا: «أنه حين يهلّ هلال ربيع الأول كنا نسير في موكب مسائي كل ليلة حتى ليلة الثاني عشر ننشد القصائد في مدح الرسول وكان من القصائد المشهورة في هذه المناسبة المباركة.

صلى الإله على النور الذي ظهرا ... للعالمين ففاق الشمس والقمرا

كان هذا البيت تردده المجموعة ينشد أخي وأنشد معه:

هذا الحبيب مع الأحباب قد حضرا ... وسامح الكل فيما قد مضى وجرا

لقد أدار على العشّاق خمرته ... صرفًا يكادُ سناها يذهب البصرا

يا سعد كرر لنا ذكر الحبيب لقد ... بلبلت أسماعنا يا مطرب الفقرا

وما لركب الحمى مالت معاطفه ... لا شك أن حبيب القوم قد حضرا»[٢]

☐ **وفي هذا من الشركيات ما فيه ونسبة المغفرة إلى رسول الله ﷺ.**

وقال أيضًا الأستاذ عبدالرحمن البنا: «وعقب صلاة العشاء يجلس أخي البنا إلى الذاكرين من جماعة الإخوان الحصافية وقد أشرق قلبه بنور الله فأجلس إلى جواره نذكر الله مع الذاكرين وقد خلا المسجد من أهل الذكر وخبا الصوت إلا ذبالة من السرج وسكن الليل إلا همسات من الدعاء أو ومضات من ضياء وشمل المكان كله نور سماوي ولفه جلال رباني وذابت الأجسام وهامت الأرواح وتلاشى كل شيء في الوجود وانمحى وانساب صوت المنشد في حلاوة وتطريب.

---

(١) «العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم» للشيخ ربيع المدخلي (ص٦٤ ـ ٧٠) ـ مكتبة الفرقان.

(٢) «حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه» لجابر رزق (ص٧١ ـ ٧٢).

اللَّه قل وذر الوجود وما حوى   إن كنت مرتادًا بلوغ كمالِ
فجميع ما في الكون إن حققته   عدم على التفصيل والإجمالِ»[1]

❑ وهذا الكلام لا يحتمل شرعًا وعقلاً غير وحدة الوجود أو وحدة الشهود.

❑ ومنها محاضرته في مشهد السيدة زينب بمناسبة حفل العام الهجري، وعدم ذكره للشرك الأكبر ولا نهيه عنه، مع أنه يرى من يتطوفون بالقبر ويسألون من صاحبته ما لا يُطلب إلا من اللَّه»[2] .

❑ ومنها مشيه إلى قبر الدسوقي وسنجر عشرين كيلاً ذهابًا وعشرين كيلاً رجوعًا سيرًا على الأقدام[3] .

❑ ومنها ثناؤه على الميرغني المعروف بوحدة الوجود[4] .

---

(١) «حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه» (ص٧١ ـ ٧٢).
(٢) «الطريق إلى الجماعة الأم» لعثمان (ص٢٦).
(٣) قال حسن البنا في مذكراته (ص٣٣): «وكنا في كثير من أيام الجمع التي يتصادف أن نقضيها في (دمنهور) نقترح رحلة لزيارة الأولياء القريبين من (دمنهور) فكنا أحيانًا نزور دسوقي فنمشي على أقدامنا بعد صلاة الصبح مباشرة بحيث نصل حوالي الساعة ٨ صباحًا فنقطع المسافة في ثلاثة ساعات وهي نحو عشرين كيلو مترًا ونزور ونصلي الجمعة ونستريح بعد الغداء ونصلي العصر.
وقال في الصفحة نفسها: «وكنا أحيانًا نزور عزبة النوام حيث دفن في مقبرتها سيد سنجر من خواص رجال الطريقة الحصافية».
(٤) انظر «رد الجواب على من طلب مني عدم طبع الكتاب لمحمد بن علي الصومعي (ص٢٨) الهامش (١) ـ طبع دار الآثار ـ وفيها:
في ١٩٤٨/٦/٩م زار القاهرة شيخ الطريقة المرغنية الختمية فاحتفل المركز العام للإخوان به فتكلم البنا في الحفل فقال: إن دارَ الإخوان لتسعد وتأنس أعظم الإيناس إذ تستقبل هذه القلوب الطاهرة والنفوس الكريمة أعلام الجهاد وأبطال العروبة وأقطاب قادة الإسلام.. لعل الكثيرين أيها السادة لا يعلمون أننا نحن الإخوان مدينون للسادة المرغنية =

□ ومنها سعيه الدءوب للتقريب بين السنة والرافضة[(١)] .

وهذا المسلك والمنحى للأسف هو منحى المودودي غفر اللَّه للجميع .

□ يقول أبو الأعلى المودودي: «إن ثورة الخميني ثورة إسلامية، والقائمون عليها هم جماعة إسلامية، وشباب تلقوا التربية الإسلامية في الحركات الإسلامية .

وعلى جميع المسلمين عامة، والحركات الإسلامية خاصة أن تؤيد هذه الثورة كل التأييد، وتتعاون معها في جميع المجالات»[(٢)] .

□ ولا يفهم مطلقًا أن جماعة الإخوان ضمت جمعًا من الأقباط ولا يقبل هذا، وهذا متواتر على لسان قادة الجماعة ففي كتاب «دعوة الإخوان المسلمون في الميزان» وفي مجلة «لواء الإسلام» العدد الأول السنة الخامسة والأربعون رمضان ١٤١١هـ (ص٣٩) قالت المجلة: «والإمام حسن البنا عندما شكّل اللجنة السياسية العليا للإخوان المسلمين كان ضمن أعضائها ثلاثة من المسيحيين هم الأساتذة: ١ ـ لويس أخنوخ. ٢ ـ وهيب دوس. ٣ ـ ثابت كريمز[(٣)] .

= بدين المودة الخالصة والحفاوة البالغة التي غمرونا بها من قبل ومن بعد.. اهـ.
قافلة الإخوان لعباس السيسي (ص١٥٠) بواسطة الطريق إلى الجماعة الأم (ص٢٧).

(١) وعلى نفس الطريق سارت الجماعة فقد جاء في «مجلة الدعوة» في (١٩٧٩/٢٥) «دعاء التنظيم العالمي للإخوان المسلمين قيادات الحركات الإسلامية في كل من تركيا وباكستان والهند وإندونسيا إلى اجتماع أسفر عن تكوين وفد توجه إلى طهران وقد أكّد الوفد من جانبه أن الحركات الإسلامية ستظل على عهدها في خدمة الثورة في إيران.. انظر «الطريق إلى الجماعة الأم» (ص١٠٥).

(٢) «ملحوظات وتنبيهات» لعبداللَّه بن صلفيق الظفيري (ص٣٤) ـ دار المنهاج نقلاً عن «الشقيقان» (ص٣).

(٣) «الرد الشرعي المعقول على المتصل المجهول» لأحمد بن يحيى النجمي المطبوع مع «رد الجواب على من طلب مني عدم طبع الكتاب» (ص١٠٢ ـ ١٠٣).

◘ ويعاب على الجماعة أنها ضمت خليطًا من أصحاب الاتجاهات فمنهم السلفي ومنهم المعتزلي والصوفي والأشعري..

◘ يقول محمد سرور زين العابدين الذي قضى في المنهج الإخواني عقدًا من الزمن: «لم يعد عقلي يتصور وجود جماعة واحدة فيها السلفي، والصوفي، والأشعري، والخارجي، ودعاة الاعتزال والعقلانية، وغير ذلك من الاتجاهات المختلفة المتباينة. لقد سئمت من سياسة التجمع على أساس غير سليم، وصرت أعتقد فشل سياسة وتخطيط هذا الخليط من الخلائق، وإن زعموا أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى. ومللت من ترداد من حولي: «ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه». كيف يعذر بعضنا بعضًا في اختلاف التضاد»[1].

◘ قال البنا ـ رحمه اللَّه ـ: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»[2].

وقد سُئِل الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه اللَّه ـ عن هذه المقالة:

«ونص السؤال ما يلي: ما هو قولكم في هذه العبارة: فلنتعاون فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه؟

فأجاب: أما الجزء الأول منها فصحيح يجب أن نتعاون فيما اتفقنا عليه.

وأما الثاني ففيه تفصيل: إن كان للاختلاف مساغ في الشرع فإنه يجب علينا أن يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، مثال ذلك: رجلان أحدهما يرى

(١) انظر المصدر السابق (ص٨٦ ـ ٨٧).
(٢) «مجموع رسائل الشيخ حسن البنا».

أن لحم الإبل ينقض الوضوء والثاني يرى أن لحم الإبل لا ينقض الوضوء كلاهما مجتهد كلاهما أداه اجتهاده إلى ما رأى فيجب علينا أن يعذر بعضنا بعضًا. أما إذا كان الاختلاف لا مساغ له في الشرع فإنه لا عذر فيه كاختلاف أهل البدع مع أهل السنة فإن خلافهم هذا ليس لهم فيه عذر لأن الواجب عليهم اجتناب البدع لقول النبي ﷺ: «**اياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلاله**». اهـ. نقلاً من شريط «أهمية الدعوة إلى اللَّه» رقم٢.

◻ ونصيحة أخيرة لكل العاملين بساحة الدعوة إلى اللَّه عز وجل.. العلم العلم به تسلم [قال الشيخ مقبل الوادعي ـ رحمه اللَّه ـ في درسه بتاريخ ٣٠ صفر عام ١٤١٧هـ: «قرأت على الشيخ ابن باز قول حسن البنا: إن الحكومة عليها أن تأخذ من أموال الأغنياء وتعطي الفقراء وتعاوض الأغنياء بما هو أجدر!! فقال: هذا ليس صحيحًا، أن تعاوض الدولة الأغنياء ولا تأخذ أموال الأغنياء ثم همس في أذني همسة فقال: حسن البنا ما هو عالم لكن متحمس للدين على غير علم» اهـ.

◻ وقال الشيخ الألباني كما في شريط «صوفية حسن البنا والقرضاوي»: البنا ـ رحمه اللَّه ـ لم يكن عالمًا ولكن عنده عاطفة إسلامية وله كتابات خالف فيها السنة والمنهج السلفي» اهـ][1] .

*** من باب إحقاق الحق:**

◻ يقول الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد في كتابه «أبو الحسن الندوي الوجه الآخر» من كتاباته (٣/ ٥٦٠): «لا شك أن الأستاذ حسن البنا نشأ على التصوف، وكان يداوم على الأوراد والأذكار على الطريقة الحصافية إلى

(١) «رد الجواب على من طلب مني عدم طبع الكتاب» (ص٥٢).

آخر حياته إلا أنه كان يرى أن الفكرة الصوفية جاوزت حد علم السلوك والتربية إلى تحليل الأذواق والمواجيد، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها، فخلطت بذلك الدين بما ليس منه، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأي والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوف، والدعوة إلى الزهد والتقشف.. إلى أن قال: ولكن هذا الخلط أفسد كثيرًا من هذه الفوائد وقضى عليها.

ومن واجب المصلحين أن يطيلوا التفكير في إصلاح هذه الطوائف من الناس.. وذلك لا يستلزم أكثر من أن يتفرغ من العلماء الصالحين لدراسة هذه المجتمعات، والإفادة من هذه الثروة العلمية وتخليصها مما علق بها، وقيادة هذه الجماهير قيادة صالحة»[1] .

❑ ويقول البنا ـ رحمه اللَّه ـ في «مذكرات الدعوة والداعية» (ص١٣٢) ـ عن الصوفية: «حضر إلى الإسماعيلية.. من القصاصين وهو يدعو إلى الطريقة، وله أفكار خاصَّة تنافي آمالي الإسلامية.. لقد آن الأوان الذي أعتزل به عن كلِّ هذه الدعاوى المشتبهة، وأكشف فيه عن الغاية للإصلاح الإسلامي، الذي يتلخَّص في الرجوع إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله، وتطهير العقول من هذه الخرافات والأوهام، وإرجاع الناس إلى هدي الإسلام الحنيف» اهـ.

* الشيخ محمد حامد الفقي مؤسس جماعة أنصار السنة التي صانت جانب التوحيد في مصر، ومربّي العلماء الربانيين:

الشيخ محمد حامد الفقي تلميذ حكيم الإسلام رشيد رضا، ومؤسس جماعة أنصار السنة في مصر عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) بمدينة القاهرة، ثم

---

(١) «مذكرات الدعوة والداعية» للشيخ حسن البنا (ص٣٠ ـ ٣١).

توسعت أعمالها ونشاطاتها إلى بلاد السودان فيما بعد.

☐ وكان الشيخ الفقي من خريجي «الأزهر»، بدأ دعوته إلى الكتاب والسنّة (الدعوة السلفية)، في أثناء فترة دراسته بالأزهر. وبعد عمل عظيم وعمر زاهر توفي إلى ـ رحمة اللَّه تعالى ـ في سابع رجب ١٣٧٨هـ. رحمه اللَّه تعالى[١] .

☐ وكان ـ رحمه اللَّه ـ علمًا وسدًّا منيعًا في محاربة الشركيات والوثنية التي كانت ولا تزال تشمل أطرافًا من البلاد الإسلامية في مصر وغيرها، وكان له ولأنصار السنة الدور الرئيسي في التحذير من عبادة القبور والدعوة إلى التحرر في الفقه من ربقة التقليد.

ومن هذه الجماعة الطيبة الذكر خرج العلماء الربانيون الذين حملوا جانب التوحيد نذكر منهم فضيلة الشيخ المحدث أحمد محمد شاكر، والعلامة محمد عبدالرزاق حمزة والشيخ محمد عبدالظاهر أبو السمح وعنهما يقول الشيخ رشيد: «وهما من تلاميذي»[٢] ، والشيخ عبدالرحمن الوكيل والشيخ أبو الوفا درويش، والعلاّمة الشيخ خليل هراس والعلامة عبدالرزاق عفيفي والشيخ محمد صفوت نور الدين والشيخ صفوت الشوادفي.

☐ بيَّن العلامة الشيخ محمد حامد الفقي ـ رحمه اللَّه ـ في كتابه «جماعة أنصار السنّة المحمدية: دعوتها وأهدافها» ما يلي:

١ ـ دعوة الناس إلى التوحيد الخالص.

٢ ـ إرشاد الناس إلي أخذ دينهم من نبعيه الصافيين، صريح الكتاب، وصحيح السنّة.

٣ ـ إرشادهم إلى أن نصوص الكتاب والسنّة لا محيد عنها البتّة.

---

(١) «مجلة الهدي النبوي» المجلد ٢٣ (ص٦٩ ـ ٧٣).

(٢) انظر «رشيد رضا» لشكيب أرسلان (ص٧٥٦).

٤ ـ الدعوة إلى حب رسول اللّه ﷺ حبًا صادقًا صحيحًا يحمل على اتخاذه مثلاً أعلى.

٥ ـ الدعوة إلى مجانبة البدع ومحدثات الأمور.

٦ ـ محاربة الخرافات والعقائد الفاسدة.

٧ ـ إرشاد الناس إلى أن حياتهم الدنيوية والأخروية مرتبطة كل واحدة منها بالأخرى أوثق ارتباط.

٨ ـ إرشاد الناس إلى أن اللّه تعالى مدح الخير ووعد فاعله بالمغفرة، وذمّ الشرّ، وتوعَّد فاعله.

٩ ـ إرشادهم إلى أن الفسوق والعصيان نتيجة لازمة لعدم إيمانهم باللّه واليوم الآخر.

١٠ ـ إرشاد الناس إلى أن أوامر الدين ونواهيه هي رحمة بهم.

١١ ـ إرشادهم إلى أن الرسول ﷺ حرَّم تشريف القبور؛ لأنه ظلم يمقته اللّه.

١٢ ـ إرشاد الناس إلى أن الحكم بغير ما أنزل اللّه تعالى هلكة في الدنيا، وشقاوة في الآخرة.

١٣ ـ إرشاد الناس إلى أن موقفهم من صفات الرب سبحانه وأسمائه يجب أن يكون مطابقًا لموقف الرسول ﷺ وصحابته ﭫ.

١٤ ـ إرشاد الناس إلى أن أصل الداء هو سماحهم للنساء بارتياد الملاهي، ودور السينما.

١٥ ـ إرشاد الناس إلى وجوب تمسكهم بالرجولة، لتظلَّ لهم القوامة على نسائهم.

◻ وكان للشيخ الفقي وأنصار السنة أكبر الأثر في فضح عقائد الصوفية الخربة مثل «وحدة الوجود» التي نادى بها ابن عربي شيخ الصوفية الأكبر

وكبريتهم الأحمر، والقول «بالحلول والاتحاد» وهو قول الحلاج، وابن الفارض صاحب التائية، والقول «بوحدة الأديان» كما قال الحلاج:

ألا أبلغ أحبائي بأني
ركبت البحر وانكسر السفينة
على دين الصليب يكون موتى
فلا البطحا أريد ولا المدينة[1]

◻ وقال ابن عربي: «فإياك أن تتقيَّد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولي لصور المعتقدات كلها، فإن اللَّه تعالى أوسع وأعظم من أن يحصر عقد دون عقد فإنه يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾»[2].

◻ وأزاح الشيخ الفقي الستار عن زندقة السهرودي وابن سبعين وعبدالكريم الجيلي وعقيدتهم الفاسدة، وبين خطأ الصوفية في «القضاء والقدر» وقولهم: «الرضا أن لا تسأل اللَّه الجنة ولا تستعيذ به من النار»[3]، وقولهم: «لو أدخل اللَّه الخلائق كلهم الجنة، وأدخلني النار لكنت بذلك راضيًا»[4]، وبيّن فساد توكلهم، وعدم ممارستهم للأسباب، وقولهم: إن بذل الأسباب، واتخاذ الوسائل مناف للتوكل، ومعارض للقدر.

◻ ووضح الفقي استخفاف الصوفية بعذاب اللَّه وثوابه كقول من قال: «الجنة هي الحجاب الأكبر؛ لأن أهل الجنة سكنوا إلى الجنة، وكل من سكن

---

(١) «نشأة التصوف الإسلامي» للبسيوني (ص١٨٧).
(٢) «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» للبقاعي (ص١٠٠).
(٣) «الرسالة القشيرية» للقشيري (ص٩٠).
(٤) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٣٤٩).

إلى الجنة سكن إلى سواه فهو محجوب»[١] ، وقول القائل: «إن للَّه عبادًا لو بزقوا على جهنم لأطفأوها»[٢] .

☐ وقصرهم الجهاد على جهاد النفس فقط، والطوام التي أتوا بها في الأذكار والعبادات والبدع التي أحدثوها، والموالد التي شهدت رقصهم وفجورهم واختلاط الرجال بالنساء، وبناء الأضرحة.

☐ رحم اللَّه الفقي وبارك في جماعته، فلقد عدَّى المنحرفين عن منهج السلف وهديهم.

☐ انظر رحمك اللَّه إلى قول رياح القيس: «لا يبلغ الرجل منازل الصديقين حتى يترك زوجته، كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلاب»[٣] ، وانحرافهم عن هدي الإسلام في الزواج والجهاد، قال ابن تيمية:

«ومن هنا صار كثير من السالكين من أعوان الكفار والفجَّار وخفرائهم، حيث شهدوا القدر معهم، ولم يشهدوا الأمر والنهي الشرعيْين»[٤] .

☐ وأوقف الشيخ الفقي عمره على فضح المصطلحات الصوفية وبيان عوارها من السماع، والكشف، والأضرحة والقبور، وتربية سر الهمة والاستسلام للشيخ، والتأثير والتصرف في الأكوان، والتوسل البدعي، والخلوة، والشطحات والدعاوى والعشق، والأقطاب، والأبدال، والمكاشفة والإشراق على الخواطر والفناء البدعي ووحدة الشهود، والسياحة في القفار

---

(١) «شطحات صوفية» لبدوي (ص٢٠).

(٢) المصدر المذكور (ص٢١).

(٣) «نشأة التصوف الإسلامي» (ص١٥٨).

(٤) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١١/ ٤٩٩).

والبراري، وترك الجمع والجماعات والأعياد عمداً، والفهم الخاطئ للزهد، وبعدهم عن هدي رسول الله ﷺ وقد قال: «**تركت فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض**»[١] .

*** الدين النصيحة:**

والذي يؤخذ عمومًا على جماعة أنصار السنة هو حصرها الدعوة في بعض مجالات العقيدة دون شمولها لباقي المجالات، وهو ليس بعيب إن قال أصحابها نحن نهتم بكذا ونركز عليه لأننا رأينا أن هذا المرض هو الذي أقعد المجتمعات عن النهوض والتقدم، ونترك لغيرنا أن يصلح باقي المجالات التي لم نطرقها.

وتأثر بعضهم برشيد رضا في أمور خالف فيها عقيدة السلف مثل انكار بعضهم المهدي[٢] وأنكر كثير منهم مسّ الجن للبشر وكتب الشيخ أبو الوفا درويش وهو من أساطين أنصار السنة كتابه «صيحة الحق» وفيه إنكاره لتلبس الجن بالمصروع. وإنكار بعضهم لسحر النبي ﷺ. ودعوة بعضهم إلى الاقتصار على البخاري ومسلم.

ويعاب عليهم تخاذلهم في قضية فلسطين وحرب ١٩٤٨م، وكان الأولى بهم وهم الدعاة إلى التوحيد أن يكونوا في الصدارة التي تولاها غيرهم.. ولكن كما يقال: «إن الماء إذا بلغ القلتين لا يحمل الخبث» وهذه المؤاخذات مغفورة إن شاء الله في بحر حسناتهم الجاري. وموردهم العذب الصافي الزلال.

---

(١) صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة (٣/١٠٩، ١٤٨، ٥٣٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٧٦١)، و«صحيح الجامع» ٢٩٣٧٠).

(٢) انظر إلى ما كُتب في مجلة «التوحيد» إبان حادث الحرم سنة ١٤٠٠هـ.

*** الشيخ محمود أبو العيون فارس معركة إلغاء البغاء:**

كانت معركة البغاء من أشد المعارك وأقواها، وقد حمل لواء الدعوة إلى إلغائه الشيخ محمود أبو العيون، وسجل - رحمه اللَّه - أخطاء المجتمع ودعا إلى الإصلاح دعوة مستمرة لم تتوقف وكشف عن دور علماء الدين في هذا المجال واستهلها في سلسلة مقالات في الأهرام بدأها في ٢٠/ ١١/ ١٩٢٣.

رجال الدين من نصب نفسه لنفع الناس وهو عنهم مستغن لا يعمل رغبة في دنيا ولا يسكت رهبة من عقاب، فعله الحق، وقوله الصدق، إن قام بأمر اللَّه قام به، وإن أمر بشيء كان الزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، يبين لهم أن الدين يساير العلم ولا يأباه، وليس بينه وبين العقل عداء، وأن الميزة العليا للعقيدة الدينية هي ألا تتنافى مع نتاج العلم الصحيح وأن ترتكز على العقل السليم وتعتصم بالبرهان الحق.

لقد وضع اللَّه هذا الدين ليكون قانونًا منظمًا لجميع البشر وإرشادًا وتربية وتهذيبًا وصالحًا لكل الأمم في جميع الأزمنة والأمكنة.

إن الإلحاد قد انتجع في نفوس أهل الجيل مكانًا خصبًا وظهرت طلائعه في كل مكان، في دور العلم والنوادي الأدبية والمحافل الخاصة، في الصحف والمجلات، في المؤلفات، والظاهرة الجديدة: الدعوة إلى طهارة الفطرة الدينية وقداسة الإيمان بقصد التشكيك ومناهضة التعاليم الدينية وزعزعة العقائد الصافية، وتحقيق مبادئ المدرسة الحديثة التي يزعمونها طليعة النهضة الجديدة إن الإلحاد الذي أساسه التشكيك حرب على الفضيلة وعلى الحق وعلى الإنسانية وعلى الأديان كلها.

فإذا لم تكن حياة الأمة ذاخرة بالحياء والعفاف وتصون الأقلام والألسن فإنها تعيش كما تعيش الأمم السادرة في الهمجية[1].

---

(١) الأهرام ٢٠/ ١١/ ١٩٢٣.

❑ وقال: «بين سمع الحكومة وبصرها يقام سوق للفجور وينفض سوق، وتذهب الأعراض ضحايا الشهوات والأطماع، وبين سمع الحكومة وبصرها تنظم الجمعيات السرية لتجارة الرقيق ويجوب دعاتها الأمصار والقرى، طلائع وكتائب يجتلبون كل طفلة ومعصر وعانس وخود، بين سمع الحكومة وبصرها تتمرد الروح الخبيثة ويؤسس الزعيم (الغربي) مملكة منتظمة داخلها مفقود، وطالعها مولود، وهناك وفي سجون ذلك المستبد الظالم تخرج الفتيات العاملات، جليبات خزي، وأسيرات بغي، فيشهدون منظرًا مريعًا من أبشع ما رأى وسمع الناس، هنالك يمتهن الشرف وتزهق الإنسانية»[١] .

❑ وقال: «إن ثورة مصر سنة ١٩١٩م قد تركت أثرًا بالغًا في آداب الأمة المصرية وأحلامها، ولكنا لا نفهم أن ما كنا نسميه نهضة سامية ترمز له بالتماثيل وتقيم له الأنصاب، ما كنا نود أن نأخذ من معناه كماله لأن ذلك يؤدي إلى انتكاس واضمحلال في كل معاني الحياة الناهضة، تلك التي بذلنا في سبيلها مهجًا غالية ودماء ذاكية.

نقول إن ثورة ١٩١٩ التي طأطأ لها التاريخ إجلالاً وهومت لها الأمم إكبارًا وإعظامًا كانت في حياة مصر فجرًا كاذبًا لمع نوره في آفاقها كلسان الشمعة ثم خبا وأظلم، وها نحن ولاء في دياجير الظلم تائهين حيارى.

أجل نظرك مرة في الحدائق العامة وفي صالات اللهو ومسارح التمثيل وعلى شاطئ البحار وداخل الأكشاك المتناثرة وحولها في موسم الصيف، أجل نظرك في تلك الأسواق المأهولة، بأولئك الماجنين والماجنات، ثم خبرني ماذا بقي لمصر من شرف العفاف وحسن السمعة.

---

(١) الأهرام ١٩٢٦.

ثم هاجم الحكومة التي لم تأخذ درسًا من الجلادين والجلادات (علام وأبي الذهب وريا وسكينة وغير هؤلاء) وقال: وهذه حادثة الغربي ثالثة الأسافي وفضيحة العمر وسبة الدهر.

ثم توالت مقالاته يعرض فيها لجوانب المشكلة. ويعرض «للمذاهب الإباحية التي تهدد البلاد بالمحن والزرايا ـ في الدين والخلق، فتكثر الجنايات وتتكرر المؤامرات على اغتيال الأعراض وشرف البيوتات، وتساءل عما وضعته الدولة من مراقبة لصون الأعراض بعد حادثة الغربي».

وتساءل عما إذا كانت الحكومة (تجهل مواطن الموبقات والفسوق في كل شارع وفي كل حي وفي كل منتدى ظاهر وفي أطراف المدينة وأحشائها)، وتحدث عن الزعيم الغربي ـ الذي هزه لكتابة هذه المقالات ـ فصور «ما أذهب من شرف وكرامة وما أقام من ولائم وحفلات قصف ونكر ضمت من ضمت من أعاظم الرجال وأخطر السيدات وما شيد من معارض للفسوق يدعو إليها سائحي الأفرنج للتفرج على الممرات والفضائح بصور قبيحة كما يتفرجون على آثار الشرق ومدافن توت عنخ آمون».

وأشار إلى حالة شارع (كلوت بك) وانتشار بيوت الفساد فيه وحوانيت تعاطي المكيفات والحانات المرخص بها للأشربة، وقال: إن الحكومة ضعفت أمام سلطان الاستعمار الذي فرض عليها إباحة الزنا والترخيص بالمسكرات ولعب القمار وتغطية محاولات تجارة الرقيق في خطف البنات.

ثم قدم كشفًا بأماكن المنازل السرية بالعاصمة (١٧/ ١٢/ ١٩٢٣) وقال: إنها غير محلات النوم والخياطة والزار ومكاتب المخدمين والتدليك والذهبيات المعدة للفجور، ونادي «الغوث الغوث. النجدة النجدة» وكشف عن أن المصابين بالأمراض التناسلية يبلغ ٨٢٠ ألف ـ وقال: إن هناك مليون إصابة في العام، وقال: إن الحكومة ترخص بالبغاء. ثم تهمل مرابة البيوت السرية

والآداب العامة.

❑ ونقل أبو العيون نصًّا من تقرير قسم اللوائح والرخص هو:

«أن الدول التي حرمت البغاء أو تجاهلته لم تفعل ذلك احترامًا للدين والآداب والرأي العام فقط بل لأنها رأت أيضًا أن الاعتراف به رسميًّا مفسدة للأخلاق وأنه مسبب للأمراض موجد لجريمة الاسترقاق مروج لتجارة الرقيق الأبيض».

ولم يتوقف محمود أبو العيون عند هذا الحد بل أنه أجرى استطلاعًا كاملاً عن «فضيحة» الغربي التي هزت الدوائر المختلفة وكانت رمزًا على مدى الخطر الذي وصلت إليه البلاد بنتيجة للغزو الغربي في ميدان الاجتماع.

وكشف عن شخصية (إبراهيم محمد محمود الغربي) الذي تعرض لإفساد الأخلاق بأن اعتاد تحريض الفتيات اللاتي لم يبلغن سن الثانية عشر سنة على الفجور والفسق. ووضعهن في منازل معدة للدعارة وعرضهن على المترددين لارتكاب الفاحشة معهن.

ثم وصف زيارته لهذه الشوارع والحارات (القذرة) لرؤيتها وقال: «رأيت ما لم أره من قبل، رأيت أسفل منظر وقع عليه نظري، لم أر سوقًا للأعراض مرخصًا بها من الحكومة مثل سوق الوسعة في القاهرة هناك، نساء لا عد لهن من جميع الألوان منهن السوداء والبيضاء والنحاسية اللون، جالسات على أبواب منازلهن ينادين بالعربية كل من يمر ليرينه رخصتهن المصرح بها من الحكومة».

❑ ووصف إبراهيم الغربي: «هذا الرجل ـ إذا شئت أن تقول بحق ـ هذا الشيطان، بأنه أشنع منظر تراه في مصر وقال: «وإني أعتقد أنه الرجل الوحيد من نوعه في العالم الذي يعلن عن مهنته صراحة وله ميزة تميزه عن زملائه فإنه شرهم».

فقلما تجد بين هولاء السياح من يغادر أرض الفراعنة قبل أن يرى إبراهيم الغربي. وجدنا منزل إبراهيم الغربي منارًا بالأضواء الكثيرة ووجدنا القاصرات المرخص لهن جالسات في مدخله، كان إبراهيم الغربي بينهم مرتديًا ملابس امرأة ملونة وجهه كما تفعل النساء رغم سواده. له جلد أسود لامع وعينان واسعتان يضع على رأسه طوقًا من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وتجد زراعيه عاريتين إلى الكتف وبهما من الأساور الذهبية الثمينة عدد كبير، وقد أحصيت ما تحمله الذراع الواحدة منها فوجدت أنها أكثر من أربعة عشر صنفًا من الأساور، وكان حول رقبته عقد من الذهب، ويحمل في أصابعه خواتم عديدة ويضع في رجليه خلخالاً من الذهب ويلبس على جسمه ملابس مزركشة بالذهب والفضة والترتر مما يعكس الضوء فيبهر الأبصار، إنهم ينظرون إليه هناك كما لو كان شيئًا خارقًا للطبيعة، أو كما لو كان شخصًا مقدسًا، وسعيد هو الذي أتيحت له الفرصة أن يلمس جسمه وكثير من الوطنيين يجزمون بأنه إذا غضب على كائن من كان فجزاؤه الموت، وعندي أنه يجب ضرب هذا المخلوق بالكرباج في ميدان عام وأمام الجمهور يقولون إنه ذو ثروة طائلة ونفوذ واسع. وقيل لي: أنه نظرًا إلى نفوذه عرض اسمه على الخديو السابق من أجل أن ينعم عليه برتبة البكوية... ولم يتوقف «أبو العيون» عن الدعوة إلى إلغاء البغاء إلا بعد أن انبرت جريدة السياسة تقاومه وتسخر به، وهناك توقفت الأهرام عن نشر مقالاته، بعد أن كشف الستار عن فضائح هذه الجريمة وكشف عن شرور البغاء وحمل على الحكومة حملة نكرة.

ولم يلبث أن أرسل إلى البرلمان في أول جلسة من جلساته برقية يطالب بالغاء البغاء الرسمي، وقام بمحاولة ضخمة حين مر على وزراء الدولة وعظماء البلاد وكتابها المصلحين يستكتبهم رأيهم في البغاء، هنالك ازدادت حملة الصحف التغريبية عليه وقاومت دعوته بالشتم والمنابذة ونشرت له

المجلات صورًا كاريكاتورية قاسية، ووصفوه «بأنه مأجور وصنيعة ومشعوذ ودجال».

ثم لم يلبث أن عاود الحملة في يوليو ١٩٣٣م مستأنفًا الدعوة إلى محاربة البغاء بالدعوة إلى مطاردة محترفيه وإزالة مواخيره وهدم أسواقه النافقة في العواصم والأمصار.

ووصف البغاء بأنه «احتراف امرأة تبذل أعضاء جسمها للرجل في مقابل أجر معين، والإسلام دين الدولة الرسمي يحرمه ويعاقب عليه، والأديان كلها تضافرت على تحريمه. وقد راعى الشارع في ذلك صيانة المجتمع من الشرور والمفاسد التي تتنافى مع الآداب والأخلاق والصحة ونظام الأمن».

وبين أن أبلغ أضرار إباحة البغاء امتهانة لكرامة فريق من بني الإنسان، وردد ما ورد في تقرير عصبة الأمم سنة ١٩٢٧م عن تجارة الرقيق من أن مصر أصبحت ميدانًا حيويًا ومركزًا هامًا من المراكز الدولية.

وصور كيف أن الترخيص بالبغاء السري سهل على الشباب الاستمتاع بالمرأة من غير زواج، ودعا إلى سن قانون للزواج في سن معينة وتعليم الدين اجباريًّا في المدارس ومكافحة الأمراض السرية ودعا إلى إلغاء البغاء دفعة واحدة.

وكانت الحكومة قد اتخذت قرارًا في عام ١٩٣٢ لبحث موضوع البغاء وجرى اتصال اللجنة التي كونها الدكتور محمد شاهين وزير الصحة بمختلف الهيئات والطبقات للوقوف على وجهة نظرها وقد ظلت هذه اللجنة معطلة حتى عام ١٩٤١ عندما أعلنت توصيتها بإلغاء البغاء الرسمي ولم يتم ذلك إلا بعد عام ١٩٤٦[1].

---

(١) «تاريخ الغزو الفكري والتغريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين» (١٩٢٠ - ١٩٤٠) =

☐ وحارب ـ رحمه اللَّه ـ ميوعة الشباب وتخنثهم ووصفهم في الأهرام ٧/ ١/ ٣٤ بأنهم من الطراوة والميوعة بحيث لا يقدسون ماضيًا ولا يحفلون بمصير وأنهم يضيعون أوقات حياتهم في العبث والمجون وإن أفكارهم تصور الأوهام الفاسدة وألسنتهم تنطق بالألفاظ المستهجنة ونظراتهم خائنة. وإنه لا شيء أفعل للعصبية ولا أدرى بالمروءة ولا أخطر لكرامة الشعوب من تلك الإباحة الخاسرة.

* الشيخ بديع الزمان النورسي الكردي رائد الصحوة الإسلامية في تركيا الحديثة:

حجة الإسلام في تركيا الحديثة كما يسميه بذلك الدكتور محسن عبدالحميد أستاذ التفسير بجامعة بغداد. حمل هموم المسلمين منذ شبابه، ودحض الأفكار المنحرفة والفلسفات الجاحدة المناقضة له والغزو الفكري الجارف التي تعرض له منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري، بل قبله. ومحاولات التغريب المادية في السياسة والاقتصاد والإعلام. وسعى النورسي إلى البناء والتدرج والهدوء، والنفوذ المحكم إلى عقول المسلمين وقلوبهم دون صراخ عاطفي أو تهريج مدمر، أو صدمات فوقية، لم يكن الوضع الإسلامي يومئذ مهيئًا لها ويقوى فيها على مجابهة الأعداء الأقوياء في الداخل والخارج.

ولد سعيد النورسي في قرية «نورس» إحدى قرى قضاء «خيزان» التابع لولاية «بتليس» شرق الأناضول سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٣م). وتلقى علومه الدينية وبذّ فيها أقرانه، بحفظه للمجلدات الضخام وذاع صيته منذ شبابه

= لأنور الجندي (ص٣٠٣، ٣٠٦ ـ ٣٠٧) ـ دار الاعتصام، وكتاب «اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب» لأنور الجندي (ص٢٧٣ ـ ٢٧٤) ـ دار الاعتصام.

وكان ديدنه «لأبرهنن للعالم أن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها»[١] .

❑ قدَّم ـ رحمه اللَّه ـ عريضة إلى السلطان عبدالحميد يطلب فيها فتح المدارس التي تعلّم العلوم الرياضية والفيزياء والكيمياء ـ بجانب المدارس الدينية في شرق الأناضول، حيث يخيم الجهل والفقر على سكانه.

ثم يقابل السلطان وينتقد الاستبداد ونظام الأمن والاستخبارات لقصر «يلدز» مما أثار نقمة حاشية السلطان التي لا تمثل فكر السلطان[٢] فأحالوه إلى محكمة عسكرية، وأجالوه إلى الأطباء لفحص قواه العقلية، وأدخلوه مستشفى «طوب طاش» للمجاذيب.. وفحصه الأطباء وكتب الطبيب في تقريره: «لو كانت هناك ذرة واحدة من الجنون عند بديع الزمان فمعنى ذلك أنه لا يوجد على وجه الأرض كلها عاقل واحد» وأرسلوه إلى وزير الداخلية وجرت بينهما المحاورة الآتية:

ـ الوزير: إن السلطان يخصك بالسلام مع مرتب بمبلغ ألف قرش، وعندما تعود إلى بلدك سيجعل مرتبك ثلاثين ليرة، كما أرسل لك ثمانين ليرة هدية سلطانية لك.

❑ بديع الزمان: لم أكن أبدًا متسوّل مرتب، ولن أقبله ولو كان ألف ليرة لأنني لم آت لغرض شخصي، وإنما لمصلحة البلد، فما تعرضون عليّ سوى رشوة للسكوت.

ـ الوزير: إنك بهذا تردّ الإرادة السلطانية، والإرادة لا تردّ.

❑ بديع الزمان: إنني أردّ لكي يستاء السلطان ويستدعيني عند ذلك

(١) «بديع الزمان سعيد النورسي» لإحسان قاسم الصالحي (ص٢٥) ـ المختار الإسلامي.

(٢) كان النورسي يطلق على السلطان عبدالحميد «السلطان المظلوم» ويصفه بأنه ولي من أولياء اللَّه وخليفة المسلمين (الشهود الأواخر ـ نص كلام بديع الزمان نفسه (ص٢١٩).

أستطيع أن أقول له قولة الحق.

ـ الوزير: إن العاقبة ستكون غير سارة.

◻ بديع الزمان: تعددت الأسباب والموت واحد، فلئن أعدم فسوف أرقد في قلب الأمة، علمًا بأنني عندما جئت إلى استانبول كنت واضعًا روحي على كفيّ. اعملوا ما شئتم، فإنني أعني ما أقول: إنني أريد أن أوقظ أبناء الأمة ولا أقوم بهذا العمل إلا لأنني فرد من هذا البلد، لا لأقتطف من ورائه مرتبًا؛ لأن خدمة رجل مثلي للدولة لا تكون إلا بإسداء النصائح، وهذه لا تتم إلا بحسن تأثيرها، وهذا لا يتم إلاّ بترك المصالح الشخصية فإنني معذور إذن عندما أرفض المرتب.

ـ الوزير: إن ما ترمي إليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسة في مجلس الوزراء حاليًا.

◻ بديع الزمان: إذن فلم يتأخر نشر المعارف ويستعجل في أمر المرتب؟ لماذا تؤثرون منفعتي الشخصية على المنفعة العامة[1].

* **مفهوم الحرية عنده:**

لما دعا ـ رحمه اللَّه ـ إلى الحرية وإلى مبدأ الشورى الإسلامي التقي به كبار رجال الاتحاد والترقي لعلهم يستطيعوا أن يجعلوه تابعًا لهم فشعر بانحرافهم القوي عن الدين وخطرهم على الأمة وعدائهم للإسلام، فقال لهم: «لقد اعتديتم على الدين وأدرتم ظهوركم للشريعة»[2].

◻ وطلب اليهودي الماسوني «عمانوئيل قره صوه» مقابلته طمعًا في جرّه

---

(١) «بديع الزمان النورسي» لإحسان الصالحي (ص٢٨ ـ ٢٩).

(٢) «حياة سعيد النورسي وجوانبها المجهولة» لنجم الدين شاهين (ص٦٩ ـ ٧٠)، و«بديع الزمان النورسي» للصالحي (ص٣٠).

إلى صفه، ولكن ما لبث اليهودي أن خرج من عنده قائلاً: «لقد كان هذا الرجل العجيب أن يزجّني بحديثه في الإسلام»[١] .

وفي عام ١٩٠٨م صرف ـ رحمه اللّه ـ جل همّه إلى إلقاء الخطب وكتابة المقالات مبينًا فيها مفهوم الحرية في الإسلام، وتأثير الإسلام في الحياة السياسية، ومطالبًا بتحكيم الشريعة الغرّاء، ومحذرًا من التفسير الخطأ للحرية لما شعر بالمحاولات الخبيثة لرجال الاتحاد والترقي فكان يقول: «بني وطني لا تسيئوا تفسير الحرية كي لا تذهب من أيديكم. لا تصبوا العبودية العفنة في قوالب براقة وتسقونا من علقمها، إن الحرية لا تتحقق ولا تنمو إلاّ بتطبيق أحكام الشريعة ومراعاة آدابها»[٢] .

□ وأمام المد الإلحادي لجمعية الاتحاد والترقي تشكلت في ١٩٠٩م جميعة «الإتحاد المحمدي» وأعلن عن تشكيلها في ٥ نيسان في اجتماع ديني حاشد بجامع أيا صوفيا وكان النورسي من الداعين إليها المناصرين لها، وألقى في هذا الاجتماع خطبة رائعة.

واستطاع زبالات الاتحاد والترقي من عزل السلطان عبدالحميد في ٢٧ نيسان ١٩٠٩، وأعلنت الأحكام العرفية وشكِّلت محكمة عسكرية ونُصبت المشانق للموحدين.

* **محاكمة النورسي:**

كان سعيد النورسي من الذين قُدِّموا إلى المحكمة، وقُدِّم البعض إلى أعواد المشانق.

وفي المحكمة ـ ومنظر جثث خمسة عشر من المشنوقين تُشاهَد عبر

---

(١) «جوانب مجهولة» (ص٨٨).

(٢) «بديع الزمان النورسي» (ص٣١).

النافذة ـ بدأ الحاكم العسكري «خورشيد باشا» بمحاكمة بديع الزمان قائلاً له:

. . وأنت أيضًا تدعو إلى تطبيق الشريعة؟ إن من يُطالب بها يُشنق هكذا (مشيرًا بيده إلى المشنوقين).

□ فقام بديع الزمان النورسي وألقى على سمع المحكمة كلامًا رائعًا نقتطف منه ما يأتي:

«لو أن لي ألف روح لما تردّدت أن أجعلها فداءً لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام. . فقد قلت: إنني طالب علم لذا فأنا أزن كل شيء بميزان الشريعة، إنني لا أعترف إلا بملّة الإسلام، إنني أقول لكم وأنا واقف أمام البرزخ الذي تسمونه «السجن» في انتظار القطار الذي يمضي إلى الآخرة لا لتسمعوا أنتم وحدكم بل ليتناقله العالم كله؛ ألا قد حان للسرائر أن تنكشف وتبدو من أعماق القلب فمن كان غير محرم فلا ينظر إليها. إنني متهيء لقدومي للآخرة، وأنا مستعد للذهاب مع هؤلاء الذين علقوا في المشانق. . تصوروا ذلك البدوي الذي سمع عن غرائب استانبول ومحاسنها فاشتاق إليها إنني مثله تمامًا في شوقي إلى الآخرة، والقدوم إليها. إن نفيكم إياي إلى هناك لا تعتبر عقوبة. . لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد، والآن فإنها تُعادي الحياة، وإذا كانت هذه الحكومة هكذا: فليعش الجنون، وليعش الموت، وللظالمين فلتعش جهنم»[1] .

□ وبعد براءته غادر مدينة استانبول متوجهًا إلى (وان) حيث بدأ يلقي دروسه ومحاضراته متجوّلاً بين القبائل والعشائر يعلمهم أمور دينهم ويرشدهم إلى الحق. وهناك ألف كتابه «المناظرات» الذي طبع سنة ١٩١٣م.

وفي سنة ١٩١١م (١٣٢٧هـ) زار ديار الشام وألقى خطبة في الجامع

---

(١) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٣٤ ـ ٣٥) نقلاً عن «سعيد النورسي ـ حياته وآثاره» لمحمد سعيد البوطي (ص١٧ ـ ١٨).

الأموي في دمشق طبعت فيما بعد باسم «الخطبة الشامية» شخّص فيها أمراض الأمة الإسلامية وعلاجها.

وفي سنة ١٩١٢م وقبيل نشوب «حرب البلقان» عين بديع الزمان قائدًا للقوات الفدائية التي تشكلت من المتطوعين المسلمين القادمين من شرق الأناضول.

❏ وقُبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى أصبح بديع الزمان عضوا في «تشكيلات خاصة» وهي مؤسسة سياسية وعسكرية ـ وأمنية سرية شُكِّلت بأمر السلطان ووظيفتها هي المحافظة على وحدة أراضي الإمبراطورية ومحاربة أعدائها. وكان بديع الزمان من أنشط أعضاء قسم «الاتحاد الإسلامي» في هذه المؤسسة. وقد قامت هيئة من علماء الدين الأعضاء في هذه المؤسسة بإصدار فتوى «الجهاد» وهم: شيخ الإسلام خيري أفندي، والشيخ السنوسي، وحمدي يازر، ومحمد أسعد أفندي، والنورسي وطبعت الفتوى بجميع لغات المسلمين.

ورجع إلى «وان» وهناك شكَّل من طلابه ومن المتطوعين المدنيين فرقًا للجهاد وخاطب طلابه قائلاً: «تهيأوا واستعدوا.. إن زلزلاً شديدًا أوشك على الأبواب واشتهر طلابه بدقة التصويب، وكانت عصابات الأرمن المتواطئة مع القوات الروسية تتهيب لقاء هؤلاء المجاهدين وعلى جبهة «القفقاس» ١٩١٦م كان سعيد النورسي يقاتل هو وطلابه الجيش الروسي بكل ما أُوتوا من جُهد، وفي هذه المعارك وفي جبهات القتال وخنادقه ألف سعيد النورسي كتابه «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز» باللغة العربية، وعندما دخل الجيش الروسي إلى مدينة «بتليس» كان النورسي وتلاميذه يدافعون عن المدينة ببسالة نادرة حيث جرى قتال شديد في شوارع المدينة وأزقتها، وجُرِح النورسي جرحًا بالغًا، وبقى ثلاثين ساعة مغشيًا عليه، وأما النزف المستمر

وإبقاءً على حياته في ظروف قاسية شديدة البرد ذهبوا به إلى المستشفى وهناك أسره الروس وأرسلوه إلى أحد معسكرات الأسر في «قوصترما» في شرق روسيا وبقي في أسره مدة سنتين وأربعة أشهر وأربعة أيام، وفي الأسر برزت عزة المؤمن الأسير النورسي.

* **عزة المؤمن الأسير:**

وذات يوم قدم هناك إلى المحكمة الحربية بتهمة إهانة القيصر والجيش الروسي.

◻ أما قصة ذلك فهي كما يأتي:

كان خال القيصر والقائد العام للجبهة الروسية «نيكولا نيكولا فيج» يزور معسكر الأسرى فقام جميع الأسرى لأداء التحية ما عدا (سعيد النورسي).

◻ لاحظ القائد العام ذلك، فرجع ومرّ ثانية أمامه.. فلم يقم له كذلك، وفي المرة الثالثة وقَفَ أمامه وجرَت المحاورة الظريفة الآتية بينهما بوساطة مترجم للقائد:

- الظاهر إنك لم تعرفني؟

- بلى.. لقد عرفتك. إنك نيكولا نيكولافيج، خال القيصر، والقائد العام في جبهة القفقاس.

- إذن فَلِمَ تستهين بي؟

- كلا، إنني لم أستهن بأحد، وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

- وماذا تأمرك عقيدتك؟

- إنني عالم مسلم، أحمل في قلبي إيمانًا فالذي يحمل في قلبه إيمانًا هو أفضل من الذي لا إيمان له. ولو إنني قمت لك لكنت إذن قليل الاحترام لعقيدتي ومقدساتي، لذلك فإنني لم أقم لك.

ـ إذن فإنك بإطلاقك عليَّ صفة عدم الإيمان تكون قد أهنتني وأهنت جيشي وأمتي والقيصر كذلك، فيجب تشكيل محكمة عسكرية للنظر في هذا الأمر.

تشكلت المحكمة العسكرية، وقدِّم إليها سعيد النورسي بتهمة إهانة القيصر والأمة الروسية والجيش الروسي.

ويسود حزن في معسكر الأسرى ويلتف حوله الضباط الأسرى من الأتراك والألمان والنمساويين ملحِّين عليه القيام بالاعتذار للقائد الروسي وطلب العفو منه، إلاَّ أنه رفض ذلك بإصرار قائلاً لهم:

«إنني أرغب في الرحيل إلى الآخرة والمثول بين يدي رسول اللَّه ﷺ. لذلك فإنني بحاجة فقط إلى جواز سفر للآخرة، وأنا لا أستطيع أن أعمل بما يخالف إيماني».

وتصدر المحكمة قرارها بالإعدام، وفي يوم التنفيذ تحضر ثلة من الجنود على رأسها ضابط روسي لأخذه إلى ساحة الإعدام، ويقوم سعيد النورسي من مكانه بابتهاج قائلاً للضابط الروسي:

«أرجو أن تسمح لي قليلاً لأؤدي واجبي الأخير» فيقوم ويتوضأ ويصلي ركعتين.

ـ وهنا يأتي القائد العام ليقول له بعد فراغه من الصلاة:

أرجو منك المعذرة، كنت أظنك قد قمت بعملك قاصداً إهانتي ولكنني واثق الآن أنك كنت تنفذ ما تأمرك به عقيدتك وإيمانك، لذا فقط أبطلت قرار المحكمة، وإنني أهنئك على صلابتك في عقيدتك وأرجو المعذرة منك مرة أخرى[1].

---

(١) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٤٠ ـ ٤٢).

◻ وفرّ ـ رحمه اللَّه ـ من أسره إلى ألمانيا حيث استُقبل هناك استقبالاً كبيرًا ومنها توجه إلى استانبول. وعين عضوًا في «دار الحكمة الإسلامية» التي لا تضم إلا صفوة العلماء.

* نذير الصحوة:

وعندما تتولى المصائب والهزائم على الدولة العثمانية، وتدخل جيوش الدولة الاستعمارية تركيا وتعقد معاهدة «سيفر» يحس سعيد النورسي بهذه الطعنات وكأنها توجه إلى قلبه:

«لقد كنت أحس بأن هذه الضربات التي وجهت إلى العالم الإسلامي كأنها وجهت إلى أعماق قلبي»[١] .

وفي هذه الأثناء وقوات الاحتلال الإنكليزي تحتل استانبول (١٦ مارت ١٩٢٠) ألّف بديع الزمان كتابه «الخطوات الست» وأخذ ينشره سرًا بمساعدة طلابه وأصدقائه.. يهاجم بديع الزمان في هذا الكتاب الإنكليز بلهجة قوية رادعة ويفحم الشبهات التي إثيرت آنذاك ببراهين قاطعة مفندًا حججهم ويلفت أنظار المسلمين إلى أطماعهم ويحارب اليأس الذي تسلط على كثير من النفوس ويشدّ العزائم[٢] .

ومن سلسلة المؤامرات على الإسلام، وجَّه الإنكليز عن طريق كنيسة «انكليكان» ستة أسئلة إلى المشيخة الإسلامية ليجيب عنها بستمائة كلمة. فوجهت المشيخة هذه الأسئلة إلى بديع الزمان، وكان جوابه: «إن هذه الأسئلة لا يُجابُ عنها بستمائة كلمة، ولا بست كلمات. ولا بكلمة واحدة.. بل ببَصقة واحدة على الوجه الصفيق للإنكليزي اللعين»[٣] .

---

(١) المصدر السابق (ص٤٩).
(٢) المصدر السابق (ص٥٠).
(٣) المصدر السابق (٥١).

وبعد إن انهارت الدولة العثمانية ومزقت، ظهرت رغبة عند بعض المثقفين الأكراد في إنشاء دولة كُردية في الولايات الشرقية من تركيا، ولكون سعيد النورسي كردي الأصل وذا منزلة كبيرة في نفوس أهالي الولايات الشرقية. أرسل إليه أحد الصحفيين رسالة يطلب فيها الانضمام إلى الداعين لتكوين هذه الدولة، وقد أجابه سعيد النورسي برسالة مطوّلة قال فيها:

«يا رفعت بك.. سأكون معك إن حاولت إحياء الدولة العثمانية.. وأنا مستعد للتضحية بنفسي في هذا السبيل. إما تكوين دولة كردية.. فلا!».

وكذلك تسلَّم الاقتراح نفسه والطلب من السيد عبدالقادر رئيس جمعية «تعالي الأكراد» فكان جوابه هو الرفض أيضًا[1].

* فتوى:

بدأت حركة المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي في الأناضول، فأصدر شيخ الإسلام عبداللَّه أفندي تحت ضغط المحتلين الأنكليز فتوى ضد هذه الحركة والقائمين بها، ولكن سرعان ما قام ستة وسبعون مفتيًا مع ستة وثلاثين عالمًا وأحد عشر نائبًا بإصدار فتاوى مضادة، حيث أيدوا تلك الحركة وشجعوا على قتال المحتلين، وكان بديع الزمان أحد هؤلاء العلماء حيث قال:

«إن فتوى تصدر عن مشيخة وإدارة هي تحت ضغط الإنكليز وإمرتهم لا بد أن تكون غير سليمة، ولا يجوز الانصياع لها، ذلك لأن الذين قاموا بمقاومة احتلال الأعداء لا يمكن اعتبارهم عصاة، لذا يجب سحب هذه الفتوى»[2].

---

(١) المصدر السابق (ص٥١).

(٢) المصدر السابق (ص٥٢).

* مع مصطفى كمال:

ولاشتهار بديع الزمان بعدائه للمحتلين، فقد دُعي إلى أنقرة ـ مركز حركة المقاومة ـ من قبل مصطفى كمال للانضمام إليهم، إلاّ أنه رفض الدعوة قائلاً:

«إنني أريد أن أُجاهد في أخطر الأمكنة، وليس من وراء الخنادق، وأنا أرى أن مكاني هذا أخطر من الأناضول»[1].

ولكن الدعوة تكرَّرت، فأرسل إلى أنقرة بعض طلابه، ثم ذهب هو إليها سنة ١٩٢٢م قبيل عيد الأضحى، حيث استقبل في المحطة استقبالاً حافلاً، إلاّ أنه لم يسعد في أنقرة كثيرًا، إذ لاحظ بأسف بالغ أن معظم النواب لا يؤدون الصلاة، كما إن تصرفات مصطفى كمال وسلكوه المعادي للإسلام أحزنه كثيرًا، لذلك فقد قرر أن يطبع بيانًا في ١٩٢٣/١/١٩ يتضمن عشرة مواد موجهًا إلى النواب يعظهم ويذكّرهم بالإسلام مستهلاً بـ:

«يا أيها المبعوثون.. إنكم لمبعوثون ليوم عظيم».

وكان من نتيجة هذا البيان الذي وزّع بين النواب، وتولَّى القاءه الجنرال كاظم قرة بكر (القائد الأول لحركة الاستقلال) أن ما يقارب ستين نائبًا من النواب قد استقاموا على التدين وأقاموا الصلاة، حتى إن مسجد بناية المجلس لم يعد كافيًا للمصلين، فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه.

◘ لم يرض مصطفى كمال عن هذا البيان، فاستدعى بديع الزمان وحدثت بينهما مشادة عنيفة، وكان مما قاله مصطفى كمال:

«لا ريب إننا بحاجة إلى أستاذ قدير مثلك، لقد دعوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل قمتَ به لنا هو الحديث عن

(١) المصدر السابق (ص٥٢).

الصلاة، لقد كان أول جهودكم هنا هو بث الفرقة بين أهل هذا المجلس.

فأجابه بديع الزمان مشيراً إليه بأصبعه في حدة:

«باشا.. باشا.. إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإيمان هي الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود..»[1].

لذلك فكَّر مصطفى كمال بإبعاده عن أنقرة بحجة تعيينه واعظًا عامًا للولايات الشرقية وبمرتب مُغرٍ، ولكن سعيد النورسي رفض هذا الطلب.

* **كتبه ورسائله خلال تلك الفترة:**

أول ما نشره «إشارات الإعجاز» ثم في سنة ١٩٢٢م نشر «السنوحات» وفي سنة ١٩٢٣ نشر الرسائل الآتية: «رموز الإشارات» و«طلوعات» و«لمعات» و«شعاعات من معرفة النبي ﷺ نقطة من معرفة اللّه»، وألف في أنقرة «ذيل الذيل»، الحباب، وأجزاء من المثنوي العربي النوري».

وقد أورد في هذه الرسائل دلائل قاطعة على وجود اللّه ووحدانيته، محاولاً بذلك التصدي لموجة الشك والإلحاد والبعد عن الدين التي ظهرت بين أوساط المفتونين بالغرب، حيث يصف هذه الحالة في مقدمة «رسالة الطبيعة»:

«دُعيت لزيارة «أنقرة» سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٢م) وشاهدت فرح المؤمنين وابتهاجهم باندحار اليونان أمام الجيش الإسلامي، إلاَّ أنني أبصرتُ ـ خلال موجة الفرح هذه ـ زندقة رهيبة تدبُّ بخبثٍ ومكر، وتتسلل بمفاهيمها الفاسدة إلى عقائد أهل الإيمان الراسخة بغية إفسادها وتسميمها.. فتأسفت من أعماق روحي، وصرخت مستغيثًا باللّه العليّ القدير ومعتصمًا بسور هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:

---

(١) المصدر السابق (ص٥٣).

١٠] من هذا الغول الرهيب الذي يريد أن ينقضّ على أركان الإيمان ويُعْمِلَ معاوله في أسسه وأصله يقطع رأس تلك الزندقة ويدحرج أشلاءها، وقد صنفتها بالعربية، واستقيت معانيها وأفكارها من نور هذه الآية الكريمة لإثبات بداهة وجود اللّٰه سبحانه ووضوح وحدانيته، وقد طبعتها في مطبعة «يني كوُن» في أنقرة.. إلاَّ أنني لم ألمس آثار البرهان الرصين في مقاومة الزندقة وإيقاف زحفها إلى أذهان الناس، وسبب ذلك ـ على ما أظن ـ كونه مختصراً ومجملاً جدًّا، فضلاً عن قلة الذين يتقنون العربية في تركيا وندرة المهتمين بها آنذاك، لذا فقد انتشرت أوهام ذلك الإلحاد وأستشرت في صفوف الناس مع الأسف الشديد، مما أضطرني إلى إعادة كتابة تلك الرسالة ببراهينها بالتركية، مع شيء من البيان والتوضيح، فكانت هذه الرسالة..[1] .

❑ نفي النورسي إلى «بارلا» وتأليفه لمعظم رسائل النور في مدة نفيه:

وبعد ثورة الشيخ سعيد بيران الكردي وقضاء أتاتورك عليها وعدم اشتراك النورسي فيها لعدم رغبته في إهراق دماء المسلمين، وعدم ثقته في معظم القائمين عليها وقلة وعيهم الإسلامي وعدم مقدرتهم على تمثيل الإسلام الصحيح؛ إلا أنه اعتقل ونُقل إلى استانبول ومن هناك إلى «بارلا» وهي بلدة صغيرة نائية من أعمال «اسبارطة» في غرب الأناضول في شتاء سنة ١٩٢٦م ـ حتى يقل تأثيره ويطويه النسيان ويجف هذا النبع الفيَّاض وصنعوا له غرفة خشبية غير مسقّفة صغيرة وُضعت بين أغصان شجرة دُلب ضخمة، قضى الشيخ في منفاه ثماني سنوات ونصف سنة، متفكرًا متعبدًا متهجدًا حتى انبلاج الصباح في معظم الأحيان كتب فيها معظم «رسائل النور» التي امتد إشعاعها إلى كل قرية وكل مدينة في أرجاء تركيا.

وتعرّف خلال هذه المدة بتلميذه الوفي «سليمان» وكان هو أول حلقة

(١) المصدر السابق (ص٥٤، ٥٥).

وصلت بينه وبين الآخرين، وبدأت حلقاته تتسع وتنتشر، ونشط تلاميذه في دراسة «رسائل النور» واستنساخها ونشرها في كل تركيا متحملين جميع تبعات هذا العمل من اعتقال ومطاردة وتعذيب.

*** رسائل النور:**

في تلك السنوات الحالكة كان الإسلام يتعرض لزلزال كبير في تركيا، فالحرب ضد الإسلام تقودها الحكومة بكل أجهزة الدعاية والإعلام التي تملكها، وبأقلام جميع المنافقين والمتزلفين وأعداء الإسلام من الكتّاب والصحفيين في الوقت الذي كممت فيه أفواه دعاة الإسلام، وحيل بينهم وبين الدفاع عن عقيدتهم، لذلك فقد تعرضت أسس الإسلام وأصوله ومبادئه الأولية إلى الشك والإنكار في نفوس كثير من الشباب الذي لم يكن يجد أمامه مرشدًا وموجهًا، لذلك فقد قرَّر الأستاذ سعيد النورسي أن يحمل تلك الأمانة الكبرى على كاهله، وأن يحاول «إنقاذ الإيمان» في تركيا.

نعم. .إنقاذ الإيمان تلك كانت هي المسألة الرئيسية التي لا تحتمل التأجيل أو التسويف أو الاهتمام بأي أمر عداها، لذلك فإنه كان يصحح مفاهيم الذين كانوا يزورونه وهم يتصورون أنه شيخ طريقة صوفية فكان يقول لهم:

«إنني لست بشيخ طريقة، فالوقت الآن ليس وقت طرق صوفية بل وقت إنقاذ الإيمان»[1] فنرى أن من أولى الرسائل التي ألفها هي «رسالة الحشر» حيث إن مسألة البعث ووجود يوم القيامة ويوم الحشر أصبحت تصور من قبل الدوائر الملحدة وكأنها خرافة أو أسطورة لا سند لها من دليل عقلي أو علمي. وقد شرح الأستاذ في هذه الرسالة مسألة البعث والحشر مستلهمًا

(١) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٧١).

من الأسماء الحسنى موردًا فيها شواهد قريبة من نظر الإنسان، ومن حياته الواقعية، فنومه نوع من أنواع الموت، ويقظته نوع من البعث، النباتات تذبُل وتموت، ثم لا تلبث أن تورق وتزهر من جديد.. إنها عملية بعث جديد، تتكرر أمام أنظارنا على الدوام، فلِمَ الاستغراب إذن من البعث يوم القيامة؟!

كان تأليف «رسائل النور» ونشرها شيئًا متميزًا وفريدًا في تاريخ الدعوات الإسلامية المعاصرة، ذلك لأن الأستاذ سعيد النورسي لم يكن يكتب كثيرًا من رسائله بيده وإنما كان يملي هذه الرسائل على بعض طلابه في حالات من الجيشان الروحي والوجداني، وبعد ذلك تتداول النسخة الأصلية بين التلاميذ الذين يقومون بدورهم باستنساخها باليد، ثم ترجع هذه النسخ جميعها إليه[١] لكي يقوم بتدقيقها واحدة واحدة، وتصحيح أخطاء الاستنساخ إن وجدت، ولم يكن لديه أية كتب أو مصادر يرجع إليها عند التأليف سوى القرآن الكريم، وقد ساعده على ذلك ما وهبه اللّٰه من ذاكرة خارقة وقدرة عجيبة على الحفظ، فكان يستقي عند تأليفه رسائله من مخزونات محفوظاته في مصادر العلوم الدينية التي كان قد قرأها في بداية حياته[٢].

◘ لما استبدل أتاتورك الحروف العربية إلى حروف لاتينية وحظر النشر بها، وأُغلقت مطابعها كانت الطريقة الوحيدة لرسائل النور للشيخ المنفي المراقب هي طريقة الاستنساخ باليد، والكتابة بالحروف العربية حفاظًا عليها

---

(١) يقول عبداللّٰه جاويش: «كنت أغادر قرية (إسلام) بعد المغيب حاملاً في حقيبتي الرسائل التي استنسخها (الحافظ علي) وأسير الليل كله مشيًا على الأقدام حتى أصل مع الفجر إلى (بارلا) وأرى الأستاذ في انتظاري، ويستقبلني بسرور بالغ. نصلي الفجر معًا. ثم أستسلم للنوم.. وهكذا كنت أتسلم في اليوم التالي المسودات من الأستاذ، وأغادر (بارلا) ليلاً لأصل قرية (إسلام) فاسلّم المسودات إلى (الحافظ علي). son sahitler (١/ ٦٩).

(٢) المصدر السابق (ص٧٢).

من الاندثار والنسيان، وبدأ عشرات بل آلاف من طلبة النور رجالاً ونساء في مباشرة هذا الاستنساخ حتى أن بعضًا منهم قضى سبع سنين لم يغادر منزله وهو مكب على هذه المهمة. وأتى بعض النسوة إلى الشيخ النورسي قائلات له: «يا أستاذنا. . إننا لكي نشارك في خدمة رسائل النور قررنا القيام بالأعمال اليومية لأزواجنا لعلهم يتفرّغون كليًّا لكتابة رسائل النور»[1] .

*** منع الأذان باللغة العربية سنة ١٩٣٢ وردّ النورسي:**

في سنة ١٩٣٢م صدرت الأوامر بمنع الأذان باللغة العربية، واستُبدلت العربية في الأذان باللغة التركية، فكانت مصيبة جديدة أدمت القلوب وأدمعت العيون. . أين ذلك الأذان الذي كانت تهفو إليه القلوب، تخشع له النفوس، من هذا الأذان الذي تنفر منه القلوب وتنبو عنه الأسماع؟!

وفي المسجد الصغير الذي كان يصلي فيه الأستاذ سعيد النورسي إمامًا لبعض القرويين، كانوا يصرون على الأذان وأقامة الصلاة داخل المسجد باللغة العربية.

وما لبث أن ترامى هذا الخبر الخطير إلى سمع مدير الناحية الذي رتّب كمينًا داخل المسجد، فأخفى بعد الجندرمة في المسجد، في القسم المخصّص للنساء، لكي يتم القبض على «المجرمين». . في حالة التلبس بالجريمة.

سيق هؤلاء القرويون في عز الشتاء مشيًا على الأقدام، وفي طرق مغطاة بالثلوج حتى (اغريدير).

لنستمع إلى أحد هؤلاء ـ وهو مؤذن المسجد ـ يروي ذكرياته عن هذه الحادثة، إذ يقول:

ـ كم آذونا في مسألة الأذان، عندما اخترعوا لنا أذانًا تركيًا. . كان هناك

(١) المصدر السابق (ص٧٥).

معلم معادٍ للأذان الشرعي ـ باللغة العربية ـ وبعض علماء الدين يقولون: يجب طاعة أوامر أولي الأمر. أما أنا فكنت أقول: لا أعرف مثل هذه الطنطنة المسماة بالأذان التركي الغريب، وأنى لي العلم بأن (حفلة صاخبة) تُعدّ لي!؟.

ففي أحد الأيام داهموا مسجد الأستاذ سعيد النورسي، وقبضوا على (عبداللّه جاويش، ومصطفى جاويش، وسليمان، وعليّ وأنا) وطردوا الباقين.. أخذونا إلى مدينة (اغريدير) مشيًا على الأقدام فوق الثلوج، وهناك أودعونا السجن ومنعوا الجميع من التحدث معنا، وفي أحد الأيام أحضروني عند المدعي العام، وكان عنده ضباط برتبة عميد وعقيد قالوا لي:

ـ حسبما سمعنا فقد أعطيت لهذا الكردي (يقصد الأستاذ) مئة وخمسًا وعشرين ليرة ذهبية. فما مقدار الذخيرة التي اشتريتموها بهذا المبلغ؟!

ـ قلت: إن الحكومة التركية تشبه سفينة، وأنتم أعلم بما يدخل ويخرج من هذه السفينة. إن الأستاذ لا يملك مدفعًا ولا بندقية، بل هو يريد نشر الاطمئنان والوئام.

سألني: هل عندك أطفال؟

قلت: نعم.

قال: إذا لم تصدق، ولم تقل الحقيقة، فالشنق ينتظرك!

قلت: إن هذا الشخص ليس إلا خادمًا للقرآن، فماذا يعمل بالمدفع والبندقية. إن بندقيته ومدفعه هو القرآن لا غير.

وعندما انعقدت المحكمة سألني الحاكم:

ـ من الذي أذن بالعربية؟

قررت أن أتظاهر بالصمم. فوقفت ساكنًا دون جواب وكأنني لم أسمع السؤال.

التفتَ إليَّ الحاكم سائلاً: هل اسمك سليمان؟.

قلت: لما كان الوقت شتاء، فقد حضرت قبل يوم.

الحاكم: قلت لك ما اسمك؟

ـ لقد نمت في الخان يا سيدي.

فغضب الحاكم غضبًا شديدًا، والتفت حوله صائحًا:

ـ اخرجوا هذا القذر[1].

ونقل النورسي بعد ذلك من منفاه إلى اسبارطة سنة ١٩٣٤م حيث ألف هناك بعض رسائل النور «رسالة الاقتصاد، ورسالة الإخلاص، والتستر، والإشارات الثلاثة»، و«المرضى والشيوخ» وجميعها من «اللمعات».

وفي نيسان ١٩٣٥م اعتقل الشيخ ومعه مئة وعشرين من تلاميذه وسيقوا جميعًا إلى سجن مدينة «أسكي شهر» انتظاراً لمحاكمتهم بتهمة «تشكيل جمعية سرية تعادي نظام السلطة القائمة وتسعى لقلبه»، والعمل على هدم الثورة الكمالية، وإثارة روح التدين بنشر رسالة «الحجاب».

وبثت الحكومة شائعات في البلد من أن طلبة النور وأستاذهم سوف يعدمون، وذلك لغرض إلقاء الرعب في قلوب الناس، وتحذيرهم من الانخراط في صفوف طلبة النور.

*** لمعات من ظلمات السجن: (المدرسة اليوسفية الأولي):**

وضع الأستاذ سعيد النورسي في سجن انفرادي مسلطين عليه مضايقات كثيرة، بهدف التأثير في روح المعنوية، ولكن الأستاذ رغم هذه المضايقات كان مستمراً في تأليف رسائل النور، ففي هذا السجن ألَّف اللمعة الثامنة

---

(١) المصدر السابق (ص٧٦ ـ ٧٧).

والعشرين واللمعة التاسعة والعشرين واللمعة الثلاثين، مع الشعاع الأول والثاني. كما أن كثيرًا من المجرمين في هذا السجن قد تابوا إلى اللّٰه، وبدأوا اتباع الطريق المستقيم.

لم يسفر التحقيق الطويل مع الأستاذ ومع طلبته عن شيء يمكن الاستناد إليه في الحكم بإدانته أو إدانة طلابه، إلاَّ إن المحكمة حكمت عليه بالسجن أحد عشر شهرًا، بسبب رسالته عن «الحجاب» وهي اللمعة الرابعة والعشرون.

*** الدفاع المشهور:**

وقد ترافع الأستاذ أمام المحكمة وألقي دفاعًا مشهورًا نقتطف منه ما يأتي:

*** يا حضرات الحكام:**

لقد جيء بي إلى هنا بتهمة أنني شخص رجعي الدين سبيلاً إلى الإخلال بالأمن العام. وإنني أقول لكم:

إن إمكانية عمل شيء لا يستدعي وقوعه ولا المعاينة عليه، فعود الكبريت يمكنه إحراق بيت، ولكن هذا الإمكان لا يعني ارتكاب أي جريمة.

إن انشغالي بعلوم الإسلام لا يخدم إلا رضى اللّٰه تعالى، وحاشا أن يخدم أي غرض كان غير ذلك.

لقد سألتم: هل أنا ممن يشتغل بالطرق الصوفية؟ وأنني أقول لكم: إن عصرنا هذا هو عصر حفظ الإيمان لا حفظ الطريقة. إن كثيرين يدخلون الجنة بغير الانتماء إلى طريقة صوفية، ولكن أحدًا لا يدخل الجنة بغير إيمان.

وتقولون: من أين تأتي بالمال لجمع الناس من حولك في جمعية، وإنني أسأل هؤلاء ومن أين لهم الوثائق التي أثبتوا بها أنني اشتغلت بجمعية أو قمت بأي نشاط يحتاج إلى المال؟

وتعترضون قائلين: إنني لستّ موظفًا في ما اعمل فيه. وللتدريس مديرية خاصة ينبغي أن اتلقى الأذن منها أولاً، ولكن أقول لكم:

لو أنَّ أبواب القبور كلَّها أُغلقت، وأُعدم الموت من الوجود، لجاز أن ينحصر الأذن في دائرتكم. أما وإن ثلاثين ألف جنازة تنادي كل يوم نداء الموت، وتوقع على حكمه، فإن هذا يعني أن ثمة وظائف وواجبات أخرى أهم كثيراً مما انحصر في دائرتكم وأحكامكم[١] .

*** نفي بديع الزمان إلى قسطموني:**

بعد أن قضى بديع الزمان في سجن «أسكي شهر» مدة سجنه البالغة أحد عشر شهراً، نفي إلى مدينة «قسطموني» في ربيع سنة (١٩٣٦م)، إذ اقتيد إلى مخفر الشرطة، حيث قضى فيه مدة ثلاثة أشهر، نقل بعدها إلى بيت صغير يقع أمام المخفر مباشرة، لكي يكون تحت المراقبة الدائمة. كان البيت مؤلفًا من طابقين: الطابق الأرضي مخزن للوقود، إما الطابق الثاني فكان مكونًا من غرفتين، وكان بديع الزمان يدفع إيجار هذا البيت بنفسه.

بقي بديع الزمان في «قسطموني» سبع سنين استمر خلالها في كتابة رسائل النور مثل «الشعاع السابع» رسالة «الآية الكبرى»[٢] ، وكذلك الشعاع

---

(١) المصدر السابق (ص٧٨ ـ ٨٠).

(٢) رسالة الآية الكبرى: هي مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه، فهو يسأل السماء والنجوم والصحاري والبحار وهكذا.. ثم العلماء، والأولياء، والأنبياء، والرسول الحبيب ﷺ، والملائكة وعالم الغيب والوحي، والقرآن.. مع ذكر الدلائل والمعجزات وهي تستنطق المخلوقات وتبين كيف إنها دليل وأثر من آثار الخالق الكريم. فهي سياحة فكرية وروحية عجيبة رائعة لا مثيل لها، وقد طبعت عدة مرات وترجمت إلى أكثر من لغة.

الثالث ـ رسالة «المناجاة» ـ والشعاع الرابع والشعاع السادس[٣] والشعاع الثامن والتاسع مع تبييض الخامس.

* **سعادة بريد النور:**

في هذه الفترة، استمر بديع الزمان في مراسلة طلابه بشتى الوسائل متخطيًا العيون المترصدة لحركاته، إذا كانت رسائله تنقل سرًا، ثم تستنسخ، ثم توزع على القرى، والنواحي، والمدن القريبة، فتشكلت بهذا «سعاة بريد النور» الذين كان واجبهم ينحصر في نقل الرسائل من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة، كما انتظمت وقويت مسألة استنساخ الرسائل، فهناك بعض الطلبة الذين استنسخوا وحدهم أكثر من ألف رسالة، وبهذه الطريقة استنسخت رسائل النور كتابة باليد ستمئة ألف نسخة. وانتشرت في أرجاء تركيا تدريجيًّا منتصرة على جيوش الظلام، ومعلنةً بأنه لا يمكن إطفاء نور الإسلام أبدًا. ثم جمعت هذه الرسائل التي تشمل نواحي دقيقة في العقيدة، وردّ الشبه المضللة حول بعض الأحاديث الشريفة، وكثيرًا جدًّا من فقه الدعوة إلى اللَّه، تحت عنوان «ملحق قسطموني»[١].

* **النورسي لا يلبس القبعة ولا يغير زيّه:**

صدر قانون الأزياء في سنة ١٩٢٥م حُرِّم بموجبه لبس الزي العثماني والحجاب للنساء، وفُرض السفور والزي الأوربي ولبس القبعة.

ولما كان بديع الزمان لا يزال محتفظًا بملابسه وعمامته خلافًا لقانون الأزياء، فقد استدعاه الوالي «مدحت آلتي اوق» والي «قسطموني» إلى مقره

---

(١) الشعاع الرابع هو شرح لآية ﴿حسبنا اللَّه ونعم الوكيل﴾، والشعاع الخامس يخص (الدجال وفتنته في آخر الزمان) والشعاع السادس في شرح معنى (التحيات للَّه).

(٢) «بديع الزمان سعيد النورسي» (ص٨١ ـ ٨٢).

الرسمي، فجاء بديع الزمان إلى مقر الوالي يحيط به رجال الشرطة، وكان ثائرًا فالظاهر إن أحدهم حاول نزع عمامته في الطريق. دخل إلى غرفة الوالي قائلاً له بحدة:

- «اسمع يا مدحت؛ ليس هناك سوى حاجز رقيق بيننا وبين الموت الذي تخشونه، فإذا أقتحمنا هذا الحاجز لم يبق هناك شيء يمكن الخشية منه، لذلك فاتخذ ما تحب من إجراءاتك القانونية».

أصفرّ وجه الوالي، وارتبك ولم يجد جوابًا، وبصعوبة بالغة وصلت أصابعه إلى الجرس الموضوع على مكتبه، ليضغط عليه مستدعيًا رجاله ليأخذوا بديع الزمان إلى بيته، دون أن يجسر وهو الوالي المشهور بفظاظته وقسوته بمطالبة الأستاذ بتبديل قيافته[1].

وفي أنقرة يطلبه الوالي «نوزاد طان دوغان» حيث تجري بينهما مناقشة حول زيّه، إذ يحاول الوالي تبديل زيِّه قسرًا، فيردّ عليه الأستاذ بديع الزمان من أنه شخص منزو، وإن قانون الأزياء لا يشمله، وإن هذه العمامة لا تُرفَع إلاَّ مع هذا الرأس مشيرًا على عنقه!![2].

* النورسي مع طلاب المدارس الثانوية:

في تلك السنوات الحالكة حذفت دروس الدين من المدارس، كما حذفت كلمات «الخالق، الرب، اللَّه جلّ جلاله» من الكتب المدرسية ووضعت بدلاً منها كلمات «الطبيعة، التطور، الوطنية، القومية.. إلخ». فقد كانت الغاية مسخ مفهوم (الإله) ومسخ فكرة (الخالق) من الأذهان، ونشر مفهوم أن الإيمان باللَّه سبحانه يتوافق مع الجهل، وإن من علامات الثقافة والعلم إنكار وجود اللَّه. ولعلّ من المفيد أن ننقل ترجمة الفقرة من مادة كلمة

(١، ٢) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٨٤، ٨٨).

لفظ الجلالة «اللّه» الواردة في (دائرة معارف الحياة) التركية المطبوعة في استانبول سنة (١٩٣٢م) الجزء الأول، لكي يتضح الجو الفكري السائد آنذاك عند مدعي العلم والتوجيه في تركيا، بعد أن نقرأ مفهومهم عن كيفية نشوء فكرة الإلـه عند الإنسان البدائي، وكيفية تطورها ومجيء الأديان تنتهي بالأسطر الآتية:

«إن الفكرة التي تريد الأديان الموجودة حاليًا، أن تبثّها هي: إن اللّه واحد، وأنه هو الذي خلق الكون. ولكن التقدم العلمي بدأ يوضح شيئًا فشيئًا، وبأن هذه الفكرة باطلة، وأنه لا وجود لشيء اسمه (اللّه).

وقد انتشرت فكرة عدم الاعتقاد باللّه بين أوساط المثقفين».

وهكذا كانت معاول الهدم تهدم الإيمان باللّه في نفوس الجيل الجديد، وتثير الحيرة فيها، ويتحدث السيد «عبداللّه يكن» مؤلف «يني لغات» «القاموس الجديد» عن جيرته هذه عندما كان طالبًا في المدرسة المتوسطة، فيقول بأن مدرسيه لم يكونوا يتحدثون مطلقًا عن (اللّه) فكان يذهب هو وصديق له يدعى «رفعت» لزيارة بديع الزمان:

«كنا أنا وصديقي رفعت نزوره على الدوام، فكان يتحدث معنا عن أهمية الإيمان، وعن وحدانية اللّه، وإن الإنسان لم يخلق للعيش بدون ضوابط، وكنا نحسّ في أعقاب كل زيارة بأننا قد ولدنا من جديد، وكانت نفوسنا تطفح بالسعادة المعنوية وبالبشر والفرح...».

وقد أحس بديع الزمان بضرورة كتابة رسالة عن هذا الموضوع الخطير، لكي يكون وسيلة إنقاذ لآلاف، ومئات الآلاف من الجيل الجديد الحائر، الذي يبحث عن نور لقلبه، وهداية لروحه. يقول بديع الزمان في مقدمة هذه الرسالة:

جاءني فريق من طلاب الثانوية في «قسطموني» قائلين: عرِّفنا بخالقنا،

فإن مدرسينا لا يذكرون اللَّه لنا! فقلت لهم: إن كل علم من العلوم التي تقرأونها يبحث عن اللَّه دومًا، ويعرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة. فاصغوا إلى تلك العلوم دون المدرسين.

فمثلاً: لو كانت هناك صيدلية ضخمة، في كل قنينة من قنانيها أدوية ومستحضرات حيوية، وضعت فيها بموازين حساسة، وبمقادير دقيقة؛ فكما إنها ترينا أن وراءها صيدليًّا حكيمًا، وكيميائيًّا ماهرًا، كذلك صيدلية الكرة الأرضية التي تضم أكثر من أربعمائة ألف نوع من الأحياء ـ نباتًا وحيوانًا ـ وكل واحد منها في الحقيقة زجاجة مستحضرات كيماوية دقيقة، وقنينة مخاليط حيوية عجيبة تري ـ حتى للعميان ـ صيدليها الحكيم ذا الجلال، وتعرِّف خالقها الكريم سبحانه بدرجة كمالها، وانتظامها، وعظمتها، ومدى نسبتها قياسًا على تلك الصيدلية التي في السوق، وذلك وفق مقاييس علم الطب الذي تقرأونه[١].

□ للَّه در النورسي:

ما أجمل سمت المخلصين الصادقين للَّه درهم وهم الذين كساهم رسول اللَّه عز وجل تاجًا من البهاء لا يفارق وجوههم النضرة وكان للنورسي منه نصيب أي نصيب!!.

ففي أحد المرّات وعندما كان جالسًا على حائط قلعة «قسطموني» الأثرية مرّ من هناك شخص سكّير يترنّح في مشيه سالكًا الطريق المؤدّي إلى بيوت الدعارة (التي أصبحت عَلَنية). وصل السكَير إلى القرب من الحائط الذي يجلس عليه بديع الزمان، وتسمر في مكانه لا يتقدم خطوة إلى الأمام، ولا يتأخر خطوة إلى الوراء، وهو يتطلع إلى فوق.. إلى العالم الجليل، المتسربل بالملابس البيضاء، تطلّع إليه بديع الزمان لحظة. ثم ابتسم له، وسلّم

(١) المصدر السابق (ص٨٧).

عليه، ثم قال له:

«ـ ارجع يا أخي.. لا تذهب إلى هناك! بل ارجع وأغتسل وتُب إلى اللّه وابدأ بالصلاة».

نفذ هذا الصوت المملوء محبة واشفاقًا إلى قلب السكّير، فلم يحسّ إلا والدموع تطفر من عينيه، ثم تنتابه نوبة من البكاء، وهو يقفل راجعًا إلى بيته. ويحتار رجل الأمن المكلّف بمراقبة حركات بديع الزمان، ويسرع، إلى السكير آخذًا بتلابيبه وصارخًا في وجهه: قل لي بسرعة، اجبني بسرعة ماذا قال لك ذلك الكردي؟![1].

*** سجن دنيزلي «المدرسة اليوسفية الثانية»:**

اقتيد الشيخ النورسي ومعه مئة وستة وعشرين من طلاب النور من مختلف مدن تركيا إلى سجن دنيزلي بتهمة تأليف جمعية سرية، وتحريض الشعب على الحكومة العلمانية، ومحاولة قلب نظام الحكم، ثم تسمية مصطفى كمال بالدجال و«هادم الدين» حيث قضى بديع الزمان تسعة أشهر في زنزانة انفرادية، وكان طلابه مسجونين بنفس السجن اقتيد وهو ابن سبعين عامًا وألف أثناء مُكوثه في سجن «دنيزلي» رسالة «الثمرة»، كان يكتبها على قصاصات من الورق، ويضعها في علب الكبريت، ويرميها خفية من شباك ردهته إلى طلابه وهم بدورهم يستنسخونها.

*** دفاع رائع:**

وأثناء مدّة التوقيف عقدت محكمة الجزاء الكبرى عدة جلسات للمحاكمة، وقد ألقى بديع الزمان دفاعًا رائعًا أمام هذه المحكمة نورد جزءًا منه هنا: (٤٨)

(١) المصدر السابق (ص٨٣).

نعم.. نحن عبارة عن جمعية، وإنها لجمعية تحوي في كل عصر على (أربعمائة) مليون من الأعضاء المنتسبين إليها، وهم في كل يوم يعبرون خمس مرات دائمًا عن أتم علاقتهم بالدستور العظيم لهذه الجمعية وهم يتسابقون دائمًا إلى تحقيق أهم شعائرها ألا وهو «إنما المؤمنون أخوة» فنحن من أفراد هذه الجمعية المقدسة تعريفًا علميًا راسخًا، وذلك تعاون منا على أعتاق أنفسنا من سجن الأبدية الذي يتهددنا.

بأي وجه حق تستطيعون إيقاف حركة «رسالة النور» وإنما هي عبارة عن خدمة حقائق القرآن، والقرآن حقيقة مرتبطة بعرش اللّٰه العظيم؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يجرأ فيقف في وجه حقيقة ترتبط بعرش اللّٰه تعالى؟

إنني لا أتوجه في بياني هذا إلى أعضاء هذه المحكمة فقط بل إلى تلك الجماعة المتآمرة في «اسبارطة» أيضًا. إنني لأعجب كيف يُتهم إناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية؟! على حين يحق لمارق مثل (الدكتور دوزي) أن يفتري على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار، ثم يعتبر ذلك أمرًا مقدسًا لأنه حرية للرأي والفكر، هذه حرية للرأي والفكر.

أما نور القرآن الذي يأبى إلا أن يشعّ في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره، فهو خطورة تنهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة!

إنكم تتهمونني بمعاداة «الجمهورية» ولكني أقول لكم، إنني منذ كنت طالب علم يؤتى لي بطعامي من الخبز والحساء، كنت آكل نصيبي منه ثم أنثر ما بقي منه بين جماعات من النمل كانت بالقرب مني ـ تقديرًا لجماعتها وتقديسًا لنظامها وإخوتها ـ إنكم تستطيعون أن تعلموا من هذا مدى تقديري لحقيقة الجمهورية الصالحة. علي أن أكبر على تقديسي الجمهورية هو احترامي لخلفاء الإسلام، فقد كانوا إلى جانب كونهم خلفاء، رؤساء جمهورية أيضًا:

ولقد كانت حياتهم حياة جمهورية لا في الادعاء اللفظي فقط، بل في الحقيقة والواقع.

أما عن الجمهورية العلمانية، فنحن نعلم أنها تلك التي لا تتعرض للدين في خير أو شرّ. ولكن ها أنتم أولاء تفسحون الطريق أمام كل جريمة، وفاحشة خلقية، وكذب على اللّه والكون، باسم الحرية الوجدانية والفكرية، حتى إذا تنبهتم لآية من القرآن تفسر وتجلي حقائقها، رفعتم أصواتكم بالنكير وقلتم: جمعية سرية سياسية.. وخطورة!!.

إن المسألة إذن من الخطورة والإجرام بحيث تحاولون أن تستروها برداء العلمانية، فإن كان الأمر كذلك فاعلموا أنه لو كانت لي ألف روح فأنا على استعداد أن أفدي كل ذلك في سبيل أهم حقائق الكون ألا وهو دين اللّه تعالى، وسأحتمي منكم بحصن واحد فقط هو: «حسبنا اللّه ونعم الوكيل».

إنكم تدورون ثم تقولون: إن أعمالي الدينية ما هي إلاَّ استغلال ووسيلة للإخلال بالأمن. ولكن أقول لكم بالمقابل: إن دعواكم هذه ليست إلا استغلالاً ووسيلة لإعدام الدين باسم المحافظة على الأمن.

إنكم تعلمون إن رسالة النور تضيء منذ عشرين عامًا، فهل سجلتم منذ ذلك اليوم إلى الآن حادثة واحدة أخلت بالأمن؟ إذن فإن تكن المادة ذات الرقم (١٦٢) ما هي إلا عبارة عن كرة تقذفون بها إلي حيث أردتم، وما أرادتكم إلا معاداة الدين.

إذن فاسمعوا يا مَن بِعتم دينكم بدنياكم ونكستم في الكفر المطلق، إنني أقول بمنتهى ما أعطاني اللّه من قوة: افعلوا كل ما يمكنكم فعله فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداء لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام.

نحن في كل لحظة ننتظر أحكام أعدامكم، إن السجن الخارجي على هذه الحال اسوأ مائة مرة من ذلك السجن الداخلي.

وتقولون: لماذا لا تلبس قبعتنا منذ عشرين عامًا مرة واحدة؟ ولم تكشف عن رأسك لمحكمتنا مرة واحدة مع إن سبعة عشر مليونًا انسجموا مع هذا اللباس؟

وإنني أقول: ليسوا سبعة عشر مليونًا، ولا سبعة ملايين بل لا يوجد أقل من القليل لبسوها بمحض إرادتهم واختيارهم. اللَّهم إلا حفنة من الحمقى الذين يلهثون وراء رذيلة وانحطاط أوروبا.

إن مثلي ممن ترك الحياة الاجتماعية منذ خمس وعشرين سنة لا يقال عنه في هذا مخالف أو معاند، وافرضوا أنه عناد فما دام أن مصطفى كمال بنفسه لم يقدر أن يكسر عنادي، وإن محكمتين وحكومة ثُلاث ولايات لم تستطع التأثير فيّ فما أنتم وخطبتكم حتى تضيعوا الوقت في هذا اللعب؟

▭ ويقول في موضع آخر من دفاعه:

هذه هي الحقيقة ونحن نقول بكل قوة:

أيا من بعتم دينكم بدنياكم. أيها الكافرون التُعساء، أنفقوا ما شئتم. ستكون الدنيا وبالاً عليكم، لقد فُديت هذه الدعوة المقدسة بملايين الأبطال ونحن مستعدون لأن نفديها بأرواحنا، إننا نفضل البقاء في السجن ألف مرة على أن نرى الحرمات تُنتهك، في ظل هذا الاستبداد لا يمكن أن يقال إن هنا: حرية، حرية العلم. أو حرية الضمير، أو حرية التعبير أو حرية الدين، وبقي على طلاب الحرية أن يموتوا أو يبقوا في السجون محتمين باللَّه تعالى قائلين: «حسبنا اللَّه ونعم الوكيل».

إن الدعوى المقامة على رسائل النور ليست مسألة شخصية أو شيئًا بسيطًا حتى يقلل من شأنها، إنها مسألة تهم الأمة والوطن والدولة وتهم الأمة الإسلامية، والعالم الإسلامي بأسره سيتابع هذه المسألة باهتمام بالغ.

نعلن بأننا منتسبون إلى الجماعة الإسلامية التي ينتسب إليها أكثر من

ثلاثمائة مليون مسلم، فنحن حزب اللَّه ونحن إخوة متضامنون.. خدم القرآن.. وجند اللَّه وحزبه. أيها السادة! يا رئيس المحكمة!

إنكم إذ تصدرون هذه الأحكام على رسائل النور وطلابها، وتدعون الكفر والإلحاد، وتحاولون حجب الحقائق القرآنية والإيمانية عن عيون البشر، وتريدون بذلك سد الطريق الذي سار عليه ملايين بل مئات الملايين من المسلمين ووصلوا إلى السعادة الأبدية الحقيقية، فلن تجنوا سوى حقدهم وازدرائهم.

إن الزنادقة والمنافقين غرروا بكم وصفعوا العدل والحق، وانحرفوا بالدولة عن وظيفتها الأساس إلى مشاغل لا فائدة منها، واتخذوا من الاستبداد جمهورية، والردّة نظامًا ومن الجهل والسفه مدنية، ومن الظلم قانونًا، وبذلك خانوا وطنهم وضربوه ضربة ما كان لأجنبي أن يضرب مثلها[١].

◻ وفي عام ١٩٤٤م وضعوا الشيخ في إقامة جبرية في أميراداغ، ووضعوا على بابه حارس لا يفارق الباب لمتابعة حركات الشيخ وسكناته، ودسّوا له السم في طعامه، وشاء اللَّه أن لا يموتَ، وجعل ـ رحمه اللَّه ـ يقول: «إنه مما يعوضني عن عشرة الناس يحال بيني وبينهم، إن مليونًا من المسلمين يعكفون على دراسة رسائل النور التي انتشرت فيما بينهم، إنهم إن استطاعوا أن يسكتوني أمام الناس، فلن يستطيعوا إسكات رسائل النور التي تصل إلى شغاف القلوب.. إن كل نسخة منها تقوم مقامي في الكلام والبيان، ولن تسكتها أي قوة كانت على الأرض»[٢].

◻ هل كان مرور اثنتين وعشرين سنة من حياة النفي والإقامة الجبرية

---

(١) المصدر السابق (ص٩٠ ـ ٩٤).

(٢) المصدر السابق (ص٩٧).

والمراقبة والترصّد لشيخ بلغ عمرة الخامسة والسبعين عامًا يكفي بالنسبة لجلاوزة أنقرة آنذاك؟!

كلا، وإنما سجنوه في مدينة أفيون عشرين شهرًا وعاملوه معاملة قاسية، فبالرغم من شيخوخته ومرضه، وبالرغم من الشتاء القارس، فقد تركوه وحده في زنزانة كبيرة عارية تسع ستين شخصًا، تركوه دون مدفأة بينما كان الثلج يتراكم على زجاج نافذته ودسوا له السم في طعامه، ولكن اللّه حفظه، وعندما حاول بعض طلابه إسعافه ومساعدته، ضربوهم ضربًا مبرحًا وأدميت أرجلهم على (الفلقة).

وفي هذا السجن أيضًا اهتدى على يديه كثير من المجرمين والقتلة، كما أنه استمر على التأليف. فألّف «الشعاع الخامس عشر» الذي هو رسالة «الحجة الزهراء» وتتناول الأدلة القاطعة على وجود اللّه سبحانه وتعالى ووحدانيته وعلى صدق نبوة محمد ﷺ.

◻ يقول بيرام يوكسل الذي خدم الأستاذ طوال حياته:

«كانت كتابة رسائل النور والانشغال بها شغلنا الشاغل مع إخواننا من طلاب النور في السجن، فعندما كنا نقترب من ردهة الأستاذ في السجن نسمع صوتًا كدوي النحل يترنم ليلاً ونهارًا. إنها أصوات أذكاره وتسبيحاته وصلواته. كن نراقب أعمال الأستاذ عن كثب، وكان مصباحه يضاء خافتًا حتى في أوقات متأخرة من الليل. ألف في هذه الفترة الشعاع الخامس عشر الحجة الزهراء فكنا نمر بين حين وآخر من تحت شباك ردهته، وما إن يرانا حتى يرمي لنا علب الكبريت وفيها قسم مما ألفه من الرسالة. ونحن بدورنا نستنسخ سرًّا نسخًا منها (son sahitler) (١/ ٣٨١)[١].

◻ وبعد خروج الشيخ من سجن أفيون سقط حزب الشعب الجمهوري

(١) المصدر السابق (ص٠ ١٠).

الذي حارب الإسلام ربع قرن من الزمان.. فأتيح قدر ضئيل من الحرية فقام الشيخ بالتدريس الجماعي لرسائل النور إضافة إلى قيامه بدعوة ونصح السياسيين ورجال الحكم باتباع الإسلام والاسترشاد به، وبيان أن الطريق الصحيح الوحيد هو طريق الإسلام، وبقي ـ رحمه اللَّه ـ يصرف كل جهده لتربية النفوس وتقوية الإيمان وتذكير الناس باللَّه واليوم الآخر.

❑ وحاكموه في ٢٢ كانون الثاني ١٩٥٢م بسبب رسالته «مرشد الشباب» وهي رسالة تحاول إنقاذ الشباب والشابات من التيارات العديدة التي تعمل علي هدم بنية المجتمع ونخر جسمه.

❑ وحاكموه مرة أخرى أمام محكمة صامسون عام ١٩٥٣م بسبب مقالة له نُشِرت في جريدة «الجهاد الأكبر» تحت عنوان «أكبر برهان» وطُبب مثوله أمام المحكمة وحال مرضه آنذاك دون حضوره المحاكمة.. لم يرحموه وهو في الثمانين من عمره.. بل لاحقوه على الدوام.

❑ وفي مرض الموت وكان في أورفة طلبوا منه مغادرة المدينة إلى أسبارطة فقال لمدير أمن المدينة: إنني الأن في الدقائق الأخيرة من عمري لا أستطيع الرجوع، وقد أموت هنا. إن وظيفتك الآن هي تهيئة الماء لغسلي بعد الوفاة.. وكانت الوفاة في نفس اليوم الأربعاء الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩هـ (٢٣ مارت ١٩٦٠م) ووري جثمانه الطاهر في مقبرة «أولو جامع».

*** للَّه در النورسي:**

للَّه در النورسي الذي حمل في يده سراج الهداية وسط أعتى العواصف دون أن تلين له قناة أو تفتر له همة.. إن للحق ساعداً لا ينثني ووجه لا يتراجع، وللنورسي علم لا يلتبس، وكلام لا يسكت وقلب لا ينخدع.

◻ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «إن مضايقة أهل الدنيا لي، ليست ناشئة من انشغالي بالسياسة لأنهم يعرفون جيدًا أني لا أتدخل في الأمور السياسية، بل أنفر منها، فهم يعذبونني بسبب ارتباطي بالدين وتمسكي بأهدابه، أي أنهم يعذبونني ـ بشعور وبغير شعور ـ إرضاءً للزندقة. لذا فإن مراجعتهم تعني إبداء الندامة عن الدين، وملاطفة لمسلك الزندقة، فضلاً عن أن القدر الإلهي العادل سيعذبني بأيديهم الأثيمة إن التجأت إليهم أو راجعتهم؛ لأنهم يضايقونني لتمسكي بالدين، بينما القدر الإلهي يضايقني لنقائصي وقصوري في التقوى والإخلاص ولتزلفي أحيانًا إلى أهل الدنيا. فلا نجاة لي إذن من هذه المضايقات في الوقت الحاضر. إذ لو راجعت أهل الدنيا لقال القدر: يا أيها المرائي! ذق جزاء مراجعتك هذه، وإن لم أراجع أهل الدنيا قالوا: إنك لا تعترف بنا فلازم المضايقات».

أيها التعساء! ماذا فعلت بكم، وما الذي أفعله بحقكم؟ إنني أسعى لإنقاذ ايمانكم وإبلاغكم السعادة الأبدية، يبدو أن خدمتي لم تخلص بعدُ للَّه، لذا يولد خلاف المأمول.. وأنتم نظير ذلك تؤذونني في كل فرصة سانحة، فلا ريب أننا سنتحاكم في المحكمة الكبرى .. أقول: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل.. نعم المولى ونعم النصير.. الباقي هو الباقي»[1] .

*** النورسي يقذف الرعب في قلوب أعداء الإسلام حتى بعد موته:**

رحم اللَّه النورسي عاش مجاهدًا في سبيل اللَّه، وقضى ثمانيًا وعشرين عامًا من حياة النفي والسجن والمضايقات التي لا تنتهي، لكنه استطاع وحده ـ بفضل من اللَّه ـ أن يهز تركيا من أقصاها إلى أقصاها حتى أن هذا الرعب لم

---

(١) رسائل النور ـ المكتوبات (٢) ـ ذيل المكتوب السادس عشر للنورسي (ص٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥) ـ دار سوزلر للنشر.

ينته بوفاته بل بقي يخيفهم وهو في مثواه الأخير!

❑ قال الشيخ عبدالمجيد النورسي شقيق الشيخ سعيد النورسي في مذكراته: «في بداية شهر تموز أي بعد مرور خمسة أشهر على وفاة شقيقي جاءني ظُهر أحد الأيام شخص عرفت فيما بعد أن اسمه إبراهيم بروكسل وأنه رئيس شعبة الأمن قائلاً بأن الوالي يستدعيني، فذهبت معه إلى بناية الوالي حيث شاهدت ثلاثة من جنرالات الجيش مع الوالي، كان أحدهم «جمال نورال» والآخر «رفيق تولكا» خاطبني «جمال تورال» قائلاً:

«إن زوّار عديدين من الولايات الشرقية والجنوبية يأتون لزيارة شقيقكم، وكما تعلمون فإننا نعيش ظروفًا دقيقة، لذا فإننا نريد أن ننقل شقيقكم - بمعاونتكم - أيضًا إلى أواسط الأناضول، فنرجو توقيع هذه الورقة».

ومدّ إلي بعريضة على لساني، قرأتها ثم قلت:

«ولكني لم أطلب هذا.. أرجوكم دعوه يرتاح على الأقل في قبره، فأصروا على موقفهم، وقالوا بأنه لا بد من التوقيع».

وبعد التوقيع توجهنا إلى المطار حيث أقلتنا طائرة عسكرية إلى أورقه، وقام الجنود بهدم القبر وإخراج التابوت منه وفتحو التابوت، ووجدوا الكفن سليمًا، وكأنه قد توفى بالأمس وعندما كشف الطبيب الكفن عن وجهه كانت هناك شبه ابتسامة على وجهه، وذهبوا بالتابوت إلى المطار بعد فرض حظر التجول في المدينة، وهناك نقل في طائرة إلى «اسبارطة» حيث دفن في مكان ما لا يزال مجهولاً». - رحم اللَّه - النورسي فقد تمنى في وصيته لتلاميذه عدم معرفة مكان قبره»[1] .

* * *

(١) سعيد النورسي للصالحي (ص١٣٤ - ١٣٦).

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضــــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

تم المجلد الثاني بحمد اللّه

* * *